AHMAD OWEIDI AL-ABBADI

د. أحمد عويدي العبّادي

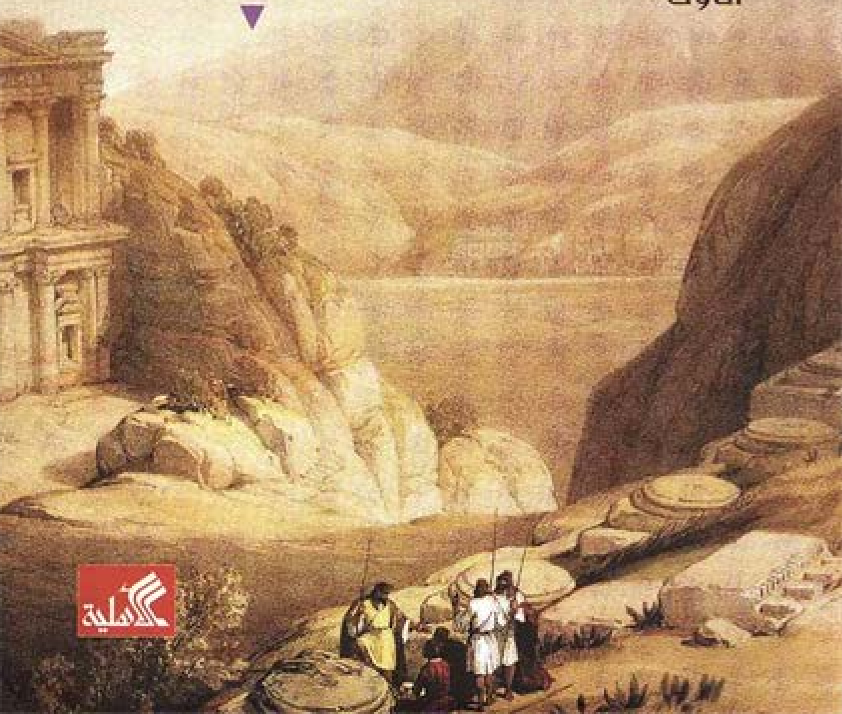
الأردنّ

في كتب الرحّالة والجغرافيّين المسلمين حتّى عام 1881

1

الجزء الأول

دراسة وتحليل



الأهلية

الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس

هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب : 7772 عمّان 11118

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، مقابل طيران الشرق الأوسط (عمم)

بجانب البنك المركزيّ ، مكتب القاصمة

مكتب بيروت

لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات

هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

الأردنّ في كتب الرحّالة والجغرافيين المسلمين حتّى عام 1881م

الجزء الأوّل / دراسة وتحليل

د . أحمد عويدي العبادي / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، 2006

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب 95297109 7 00962 ، الأردنّ

الصفّ الضوئي : إيمان زكريا خطّاب ، عمّان ، هاتف 079/5349156

ISBN: 9957-39-013-9 (ردمك)

د. أحمد عويدي العبّادي
دكتوراه في العلوم السياسيّة من جامعة كيمبردج البريطانيّة
E mail: oweidi2005@yahoo.com

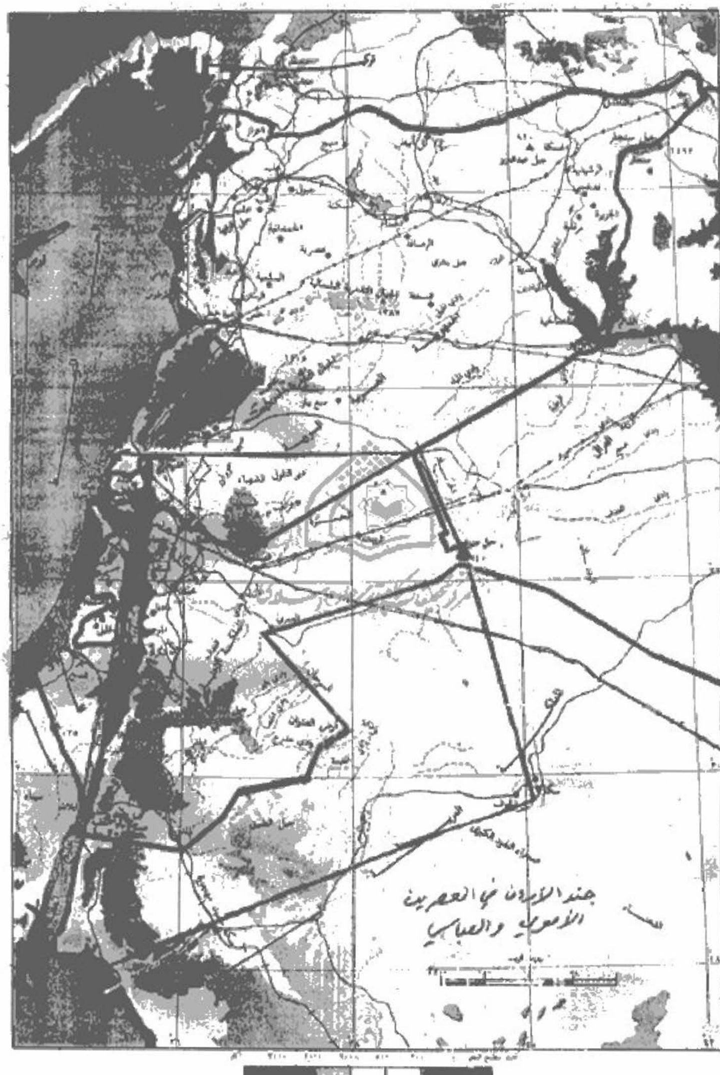
الأردنّ

في كتب الرحّالة والجغرافيّين المسلمين حتّى عام 1881

دراسة وتحليل

الجزء الأوّل

الأهلية


جند الأردن في العصرين
الأموي والعباسي

إلى أولادي البشرْ ونُمَيّ والعرين والزهراء وآية . .

لأنهم يحبون الأردن وأهل، إذ تربّوا على ذلك. . متمنياً على الله سبحانه أن يكونوا عند حسن ظني وأملي والأردنّ بهم إن شاء الله. . آمين.

المؤلف والدهم

د . أحمد عويدي العبادي

* * *

المحتويات

(الجزء الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبا: 18-19].

* * *

«... وفي سِيَر ابن إسحاق أن أبا جهل قال للذين بيَّتوا رسول الله ﷺ، للفتك به وهم على بابه: إن محمداً يزْعُمُ أنَّكُمْ إن بايعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعِثْتُمْ من بعدِ موتكم، فَجُعِلَتْ لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بُعِثْتُمْ من بعد موتكم فجُعِلَتْ لكم نار تُحْرَقوا فيها؛ وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم» وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم» [سيرة ابن هشام: 1:483 ؛ الحميري ص 21].

* * *

الباب الأول

توطئة عامـة

-1-

مفتاح الاستخدام

لابد للقارئ الكريم أن يحيط علماً بطريقة استخدام هذا الكتاب، وللتسهيل عليه اتخذنا المنهج التالي:

يُقسم الكتاب إلى قسمين رئيسين هما: المتن (الجزء الأول) والملحقات (الجزء الثاني). أما المتن فهو البحث الواقع في الجزء الأول من الكتاب. وأما الملحقات فهي في الجزء الثاني حيث يجد القارئ ضالته المنشودة في التفصيلات الكاملة عن المواقع الأردنية حسبما وردت لدى الرحالة والجغرافيين المسلمين، وتحدثنا عنها في الجزء الأول.

وعند ورود اسم من الأسماء، في المتن، فإنه يمكن العودة إلى القسم الثاني لمعرفة مزيد من التفصيلات التي أوردها المؤلفون القدماء مرتبة حسب تواريخ وفياتهم وأحياناً لم نتقيّد بذلك. ويمكن معرفة صفحة هذا الموقع من خلال الفهرس. وبمعنى آخر: إذا وردت كلمة مؤتة مثلاً في المتن (الجزء الأول)، فإن القارئ يستطيع النظر إليها في الفهرس، ليرى الصفحة التي توجد فيها في الجزء الثاني ويطالع التفصيلات حيث يجدها هناك.

وفي الجزء الثاني وضعنا اسم المؤلف، وصفحة الكتاب في ذيل كل صفحة أو تضمين من الأصل؛ ليسهل الرجوع إليها إذا ارتأى القارئ أن يعود إلى الأصل؛ حتى لتجدنا كررنا اسم المؤلف أكثر من مرة ضمن الموضوع الواحد وأحياناً الصفحة الواحدة، لأنه معاد لدى انتهاء كل فقرة تضمين أو صفحة كما

قلنا، لغايات البحث العلمي، وللتسهيل على القارئ من أن يعود إلى بطون الكتب، فيجد ما يريده هنا بين يديه في هذا الكتاب.

وبذلك نجد في الجزء الثاني عناوين فرعية، ثم تذييلات ثانوية والتي هي اسم المؤلف من الرحّالة والجغرافيين المسلمين ورقم الصفحة.

وقد حاولنا جهدنا عمل دراسة مختصرة عن غالبية المواقع، ضمن المتن، أشرنا فيها بشيء من التحليل إلى ما ذكره الرحالة والجغرافيين المسلمين على ذلك الموقع، آملين أن يجد القارئ الكريم ضالّته المنشودة في هذا الكتاب الذي بين يديه.

وقد حاولت ما استطعت تحليل بعض الفقرات الهامة والمستعصية، لتكون منسجمة ضمن السياق العام للكتاب وهدفه، في البرهان على أن الأردن ليس وليد القرن العشرين، بل هو وطن قديم اسماً وجغرافيا وتاريخ وسكان وهوية وطنية وثقافية وكياناً وطنياً منذ آلاف السنين مهما تعدّدت عناوينه السياسية.

-2-

شكر وتقدير

الحمد لله وحده لا شريك له، الواحد القهار، المعلّم الجبّار، وأصلّي وأسلم على خير خلق الله سيدنا محمد ﷺ المبعوث هدىً ورحمةً للعالمين. أشكر الله سبحانه على ما فتح عليّ وهداني ويسّر لي القيام بهذا البحث، الذي استغرق سنوات طوال، وما أطولها بين تفكير وجمع، وإعادة تحرير وتجهيز للنشر، وكتاب بين أيدي الناس فيه مادة حقيقة وله منهج وهدف ورسالة.

ولوالدي المرحوم صالح سليمان عويدي العبادي، الذي انتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً في يوم الثلاثاء شوال 1409هـ / 18 يناير 2000م وأمي رفعة زعل الصالح الظواهية التي اختار الله إلى جواره صبيحة الجمعة شوال

1422هـ / 27 ديسمبر 2002م جعلها الله من أهل الجنة آمين، حق الشكر والثناء لدعواتهم ورضاهم الذي لم يكن لينقطع ولا ينمنع والحمد لله حتى لقيا وجه الله سبحانه. ولزوجتي جميلة عبدالحليم الطواهية كل التقدير والمحبة العطرة لتشجيعها الدائم الدائب في أن أعمل وأنتج دائماً. ولولديّ بشر ونميّ وبناتي العرين والزهراء وآية رضاي ومحبتي لأنهم سلوتي عند الملل، وحافزاً من حوافزي عند العمل، وهم أملي للأردن بعون الله. وقد سمحوا بأوقاتهم لهذه الدراسة والدراسات الأخرى من البحوث والترجمات والمؤلفات.

ولا يسعني إلا أن أتقدم من الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري بالشكر لإرشاداته ونصائحه حول هذا البحث عندما بدأت من قبل سنوات طوال، وكذلك شكري للأستاذ الدكتور عدنان البخيت الذي انتفعت بنصحه.

ومن باب الاعتراف بالجهود، فإنني أقدم للأخوة العاملين في مكتبة الجامعة الأردنية (عند إعداد المادة قبل سنوات عديدة) الشكر على خدماتهم ومساعدتهم، وهم: الدكتور هاني العمد، والسادة: فاروق شنيور، ومحمود الزاغة، وتيسير عودة الله الدعجة، وأحمد عبدالله عربيات، وأحمد أبو دلو، وعلي تركي، ومصطفى المعالي، وعبدالمعطي أبو رمان، وشريف البيطار؛ وسائر العاملين من إخوة وأخوات.

كما أشكر طلبة الجامعة الأردنية لتشجيعهم لي على الاستمرار في الكتاب عن الأردن، وسؤالهم الدائم عما أنجزته وحققته لخدمة بلدنا وشعبنا.

ولابد من القول أن فكرة الكتاب قد عملت في ذهني أثناء قيامي بتدريس مادة موضوع خاص في الجامعة الأردنية عام 1978 وقد اخترت (في حينه) موضوع « الجغرافية الإسلامية » لتكون هي مادة التدريس بعد حصولي على الماجستير في الدراسات الإسلامية عام 1978، في شهر نيسان من ذلك العام.

وقد شرعت منذئذ في تجميع هذه المادة، كلما عثرت على ما يتعلق بها، حتى اكتملت لديّ مادة رأيتها مناسبة لإخراجها في كتاب عام 1986 حرصاً على جمع المادة بين دفتيّ كتاب لم يظهر إلى الأسواق. وقد كان لذلك قصة طويلة وعقبات لا أرى ضرورة لذكرها هنا.

ثم رأيت في عام 2004 أن أقوم بطباعة المادة اليتيمة التي بين يديّ، ووجدت أكثر من دار نشر ترحّب بنشره. ورأيت أن أزيد على المتجمع عندي مادة جديدة تتعلق بما ورد عن الأردن في كتابي التوراة والإنجيل، وأن أقوم بتدوين الحواشي، حيثما رأيت ذلك ضرورياً لإخراج الكتاب بشكل علميّ دقيق. وأن أقوم بعمل التحليلات والدراسات عن المواقع، مما رفع الكتاب من 450 صفحة إلى هذا الحجم الذي بين أيدينا.

ولابد من القول هنا: أن الذي يريد الكتابة عن الأردن يصطدم عادةً بأسئلة لا تنقطع من الأعداء الحاقدين والأصدقاء الجاهلين والعديد من الرّسميّين الذين يدّعون أنه لا يوجد الأردن إلا بهم وبوجودهم، وبخاصة أولئك من أعضاء نادي مثلث الغم، وهذه الأسئلة والتساؤلات هي: هل هناك أردن في التاريخ والجغرافيا؟! هل هناك ذكر لهذا البلد أو مواقعه ومدنه وقراه؟. والإجابة سيجدها الجميع بين دفتيّ هذا الكتاب بجزئيه بعون الله، ولا داعي للنقاش.

-3-

تفسير الاصطلاحات المستخدمة لدى الرحالة والجغرافيين والمسلمين

(عن الحموي ج 1 ص 35-43) (1)

---

(1) لابد من الإشارة هنا، أن الحموي قد بيّن المعاني المتعددة للكلمة الواحدة، وأرى أنها جميعاً معاني صحيحة، ولكنني أرى أن هناك أمراً لم يتنبّه إليه الحموي وسائر الجغرافيين والرحالة المسلمين، الا وهو أن الكلمة قد تُستخدم بأكثر من معنى كاصطلاح يعني شيئاً عدداً في الحقل الذي تقال فيه، وكلها صحيحة فمثلاً: فرسخ تعني تفتيت وتقطيع اللحم، وتفسيخ الشيء =

في تفسير الألفاظ التي يتكرر ذكرها في الكتاب

إن الدارس للجغرافية الإسلامية لابد ويحتاج إلى معرفة المسرد (الاصطلاحات) التي يستخدمها الكُتّاب والرحالة والجغرافيون المسلمون. وقد جاء الحموي على ذلك تفصيلاً، رأينا ذكره بالملحق هنا، وذلك فائدة للقارئ، ولمن تمرّ به كلمة أو اصطلاح يحتاج إلى معرفة معناه، ليكتمل عنده فهمه، ويعرف مدلوله. وفيما يلي ما أورده الحموي (المؤلف).

يقول الحموي: «فإن فسّرناها في كل موضع تجيء فيه أطلْنا، وإن ذكرناها في موضع دون الآخر بخسْنا أحدهما حقّه، ويُبْهِم على المستفيد مَوْضِعُها، وإن ألقيناها جملةً أحوَجْنا الناظر في هذا الكتاب إلى غيره، جئنا بها هاهنا مُفَسَّرَةً، مُبَيَّنَةً، مسهّلاً على الطالب أمرها، وهي: البريد، والفرسخ، والميل، والكورة، والإقليم، والمخلاف، والأستان، والطسوج، والجد، والسكة، والمصر، وأباذ، والطول، والعرض، والدرجة، والدقيقة، والصلح، والسلم، والعنوة، والخراج، والفيء، والغنيمة، والقطيعة.

فأما البريد: ففيه خلاف، وذهب قوم إلى أنه بالبادية اثنا عشر ميلاً، وبالشام وخراسان ستة أميال، وقال أبو منصور: البريد الرسول، إيراده إرساله. وقال بعض العرب: الحُمّى بريد الموت أي أنها رسول الموت تُنْذر به، والسَّفر، الذي يجوز فيه قَصْر الصلاة، أربعة بُرد، ثمانية وأربعون ميلاً بالأميال الهاشمية التي في طريق مكة، وقيل لدابّة البريد بريد، لسَيْرها في البريد، قال الشاعر:

= الواحد إلى عدة أجزاء، وتعني المسافة، وكلها صحيحة؛ وذلك أن المعنى اللغوي يختلف عن المعنى الاصطلاحي، وقد يتباين معه تماماً أو يتفق. لذا فإن ما ورد عن هذه الاصطلاحات جاءت للاستخدام الاصطلاحي في مجال الجغرافيا والرحلات ولا غير ذلك. وإذا ما أردنا لها معانٍ لغوية أو شرعية أو دارجة، نجد أنها قد تحمل معنىً مغايراً تماماً، وكلها جائزة، لأن اللغة وسيلة تفاهم وفاقي اتفاقي وثقافي.

وإنـــي أنـــصُّ العيـــسَ، كـــأنني عـــليها بأجـــراز الفـــلاة، بـــريد

وقال ابن الأعرابي: كل ما بين المنزلَين بريد. وحكى بعضهم ما خالفَ به من تقدم ذكره، فقال: من بغداد إلى مكة مائتان وخمسة وسبعون فرسخاً وميلان، ويكون أميالاً ثمانمائة وسبعة وعشرين ميلاً. وهذه عدة ثمانية وخمسين بريداً وأربعة أميال. ومن البريد عشرون ميلاً. هذه حكاية قوله. والله أعلم. وخبّرني بعض من لا يُوثق به، لكنه صحيح النظر والقياس، أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم، لأن بعض ملوك الفرس إعتّاقَ عنه رُسُل بعض جهات مملكته، فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بُطئها، فشكوا من مرّوا به من الولاة، وأنهم لم يُحسنوا معونتهم. فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم، فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رُسُل الملك، فأمر أن تكون أذنابُ خيل الرسل وأعرافُها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به، ليُزيحوا عِللهم في سيرهم فقيل: بُرَيد أي قُطِع، فعُرِّبَ فقيل خيل البريد. والله أعلم[1].

وأما الفرسخ[2]: فقد اختلف فيه أيضاً. فقال قوم: هو فارسي معرّب وأصله فَرْسَنْك. وقال اللغويون: الفرسخ عربي محض. يقال: انتظرتُك فرسخاً

(1) اشتهر ملوك الفرس بترتيب البريد والاتصال بالولايات والولاة وقادة الجيوش وتسهيل وتسريع هذا الاتصال. ومعنى إعتاق عنه رُسُل بعض جهات مملكته، أي تأخروا عن الوصول إليه في الوقت المحدد أو المتوقع أن يصلوا فيه. وأما بُرَيْد بمعنى القطع فهي متفقة مع لهجة الأردنيين، حيث يقولون: بَرَدَ فلانٌ الشيء إذا حكّه بجسم من حديد مخشرم مما يقطع من الجسم الآخر، وتسمى النّشارة الناتجة عن ذلك بالبُرَادَة، ويقولون بُرَادَةُ الحديد الناتجة عن احتكاك جسم حديد بما هو أصلب منه. ويقولون فرس مُبَرْبَدْ Mubarbad أي مقطوع شعر الذنب، أي أزعر، لتزيد من خفة الفرس في الحركة والسباق، ويبدو أن هذا متطابق مع ما ورد عن ملك الفرس.

(2) الفرسخ في لهجة الأردنيين هو: فَلْق الشيء عن الشيء إذا كانا من نوع واحد، وجسماً واحداً فيقال: فرسخ رِجْليه إذا فتحهما وشقّهما، ويقولون: فرسخ الذبيحة إذا مزّقها، وفرسخ اللحم =

من النهار أي طويلاً. وقال الأزهري: أرى أن الفرسخ أخذ من هذا. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: سُمي الفرسخ فرسخاً، لأنه إذا مشى صاحبُه استراح وجلس. قلتُ: كذا. قال: وهذا كلامٌ لا معنى له. والله أعلم. وقد روي في حديث حذيفة: ما بينكم وبين أن يُصَبّ عليك البئر فراسخ، إلا موتُ رجل، فلو قيل قد مات صُبّ عليكم الشر فراسخ. قال ابن شُمَيْل في تسيره: وكل شيء دائم كثير فرسخ. قلت: أنا أرى أن الفرسخ من هذا أخذ، لأن الماشي يستطيله ويستديمه. ويجوز في رأيي أن يكون تأويل حديث حذيفة أنه يُصبّ عليكم الشر طويلاً بطول الفراسخ، ولم يُرَد به نفس الطول، وإنما يُراد به مقدار طول الفرسخ الذي هو علم لهذه المسافة المحددة. والله أعلم.

وقالت الكلابية: فراسخ الليل والنهار ساعاتهما وأوقاتهما، ولعله من الأول، وإن كان هذا هو الأصل، فالفرسخ مشتق منه كأنه يراد سير ساعة أو ساعات، هذا إن كان عربياً، وأم حدّه ومعناه، فلابد من بسط يتحقق به معناه ومعنى الميل معاً.

قالت الحكماء: استدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذارع. فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصبعاً، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض. وقيل: الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع بالذراع المرسلة، تكون بذراع المساحة، وهي الذراع الهاشمية، وهي ذراع وربع بالمرسل تسعة آلاف ذراع وستمائة ذراع. وقال قوم: الفرسخ سبعة آلاف خطوة، ولم أرَ لهم خلافاً في أن الفرسخ ثلاثة أميال.

= إذا قطّعه إرباً للأكل أو لغير ذلك، ويقولون إمفَرْسخ imfarsakh إذا كان مصاباً بالإرهاق وكأنه مُقطّع الأوصال أو كأن أعضاء جسمه متحللة كل منها عن الآخر. والفرسخ في لغة العرب هي مسافة بين موقعين، وذلك ما هو مغاير في معناه لما ورد عند الأردنيين في لهجتهم.

وأما الميل: فقال بطليموس في المجسطي: الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك، والذراع ثلاثة أشبار، والشبر ست وثلاثون إصبعاً، والإصبع خمس شعيرات مضمومات بطون بعضها إلى بعض. قال: والميل جزء من ثلاثة أجزاء من الفرسخ. وقيل: الميل ألفا خطوة وثلاثمائة وثلاث وثلاثون خطوة. وأما أهل اللغة فالميل عندهم مدى البصر ومنتهاه.

قال ابن السكّيت: وقيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال، لأنها بُنيت على مقادير مدى البصر من الميل إلى الميل، ولا تعني بمدى البصر كل مرئيّ فإنا نرى الجبل من مسيرة أيام، إنما نعني أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل، وهي بنية ارتفاعها عشر أذرع أو قريباً من ذلك، وغلظها مناسب لطولها، وهذا عندي أحسن ما قيل فيه.

وأما الإقليم: فقد تقدم من القول فيه اشتقاقاً واحداً واختلافاً في الباب الثاني ما أغنانا عن إعادة ذكره، وإنما ترجمناه هاهنا لأنه حري بأن يكون فيه، فلما تقدم ما تقدم من أمره دللنا على موضعه ليُطلب.

وأما الكورة[1]: فقد ذكر حمزة الأصفهاني الكورة اسم فارسي بحت، يقع على قسم من أقسام الأستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للأستان، كما استعارت الإقليم من اليونانيين فجعلته اسماً للكشخر، فالكورة والأستان

(1) الكورة: اصطلاح اقتصادي يعني منطقة ذات قرى ومزارع ومدن ومياه، وقد تسمى باسم المدينة أو النهر أو الأرض التي هي فيها، ويقول الأردنيون لمخزن الحبوب في البيت كْوارة ikwarah إذا تم تخزين القمح فيها بدون جوالات (شوالات – مفردها شوال). ويقولون لما يوضع تحت الراكب على ظهر البعير أنه: كُور Koor ، لأنه يأتي محدّداً شبه مستدير وكأنه مكوّر أي شبه مستدير. وأما الأردن فكان جنداً، ويتألف من عدة أكوار ومفردها كورة، وبالتالي حتى ولو كان أصل الكلمة فارسي فهي الآن عربية منذ بداية الفتح الإسلامي وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير:1].

واحد. قلت أنا: الكورة كل صُقْع يشتمل على عدة قُرّى، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة كقولهم: داراً بجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة داراً بجرد، ونحو نهر الملك، فإنه نهر عظيم مخرجه من الفرات ويصب في دجلة، عليه نحو ثلاثمائة قرية. ويقال لذلك جمعيه نهر الملك، وكذلك ما أشبه ذلك.

وأما المخلاف[1]: فأكثر ما يقع في كلام أهل اليمن. وقد يقع في كلام غيرهم على جهة التّبع لهم والانتقال لهم، وهو واحد مخاليف اليمن، وهي كُوَرُها. لكل مخلاف منها اسم يُعرف به، وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمّرته فغلب عليه اسمها. وفي حديث معاذ: من تحوّل من مخلاف إلى مخلالف فعُشْرُه وصدقته إلى مخلاف عشيرته الأول، إذا حال عليه الحوْل. وقال أبو عمرو: يقال استُعمِل فلان على مخاليف الطائف وعلى الأطراف والنواحي. وقال خالد بن جَنْبَة: في كل بلد مخلافٌ، بمكة مخلاف، والمدينة، والبصرة، والكوفة.

---

(1) المخلاف: اصطلاح يمني، يعني ديرة عشيرة محددة، لها شيخ محدد، وتوسع المعنى من الجغرافيا إلى الناس والعشيرة ومن الموقع إلى الناس، فيقال مخلاف لتعني عشيرة. والأصل فيها أنه عند توزع ولد قحطان في اليمن ترك كل أبناء جدّ منهم شخصاً ينوب عنهم بقي فيما اختاره بنو عمه من أرض وتخلّف عنهم ليعودوا إليه بأهلهم. أي أن هؤلاء الرواد تركوا مندوبين عنهم لا مخاليف (مفردها مخلاف، أي تخلّف عنهم) بانتظار مجيء سائر الأهل، وبذلك تكون هذه علامة التملّك، وعندما لم يعد الأهل المهاجرون إلى ديارهم الأهلية وإلى حيث المخلاف، صارت الأرض لمن بقي فيها ولذريته من بعده. ومثل هذا حدث في الأردن، فيما يسمى: طابو الطقّ أي التملك بواسطة الطق وهو اصطلاح عند بني صخر بوسط الأردن ثم عُمّم على سائر عشائر الأردن. وذلك أنه عندما أرادت بني صخر تملك ديرة آبائها وأجدادها وتتحول إلى زراعة بعض هذه الأراضي في القرن الثامن عشر. اتفق شيوخهم على تقسيم الأرض إلى واجهات بين عشائرهم، ويقوم الشيوخ بالطق، أي ضرب الحجر بالعصى (يسمّونه طق) لتعني أن هذه لفلان وعشيرته، وهكذا سُمّي طابو الطق وتعارفوا عليه، وساروا عليه فيما بعد حتى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين).

قلت وهذا كما ذكرنا بالعادة والألف، إذا انتقل اليماني إلى هذه النواحي يسمى الكورة بما ألفه من لغة قومه، وفي الحقيقة إنما هي لغة أهل اليمن خاصة. وقال بعضهم مخلاف البلد سلطانه. وحُكي عن بعض العرب، قال: كنا نلْقَى بني نُمَيْر ونحن في مخلاف المدينة وهم في مخلاف اليمامة. وقال أبو معاذ: المخلاف البُنْكُرد، وهو أن يكون لكل قوم صدقة على حدة، فذاك بنكرده يؤدي إلى عشيرته التي كان يؤدّى إليها. وفي كتاب العين يقال فلان من مخلاف كذا وكذا، وهو عند أهل اليمن كالرستاق، والجمع مخاليف. قلت هذا الذي بلغني فيه، ولم أسمع في اشتقاقه شيئاً، وعندي فيه ما أذكره، وهو أن ولد قحطان لما اتخذوا أرض اليمن مسكناً وكثروا فيها لم يسعهم المقام في موضع واحد، فجمعوا رأيهم على أن يسيروا في نواحي اليمن ليختار كل بني أب موضعاً يعمرونه ويسكنوه. وكانوا إذا ساروا إلى ناحية واختارها بعضهم تخلّف بها عن سائر القبائل وسمّاها باسم أبي تلك القبيلة المتخلّفة فيها، فسمّوها مخلافاً لتخلّف بعضهم عن بعض فيها، ألا تراهُم سمّوها مخلاف زبيد، ومخلاف سِنْحان، ومخلاف هَمْدَان، لابد من إضافته إلى قبيلة. والله أعلم.

وأما الأستان: فقد ذكرنا عن حمزة أنه قال: إن الإسْتان والكورة واحد. ثم قال: سَهْرْسِتْان وطبرستان وخورستان مأخوذ من الإستان، فخفف بحذف الألف. ومثال ذلك أن رقعة فارس خمسة أساتين، أحدها أستان داراً بجرد، ثم ينقسم الإستان إلى الرساتيق، وينقسم إلى الطساسيج، وينقسم كل طسّوج إلى عدة من القرى، مثال ذلك: اصطخراستان من أساتين فارس، ويَزْدُ رستاق من رساتيق اصطخر، ونائين وقُرى معها طسوج من طساسيج رستاق يزْد، ونياستانه قرية من قرى طسوج نائين. وزعم مؤيد الري أن معنى الإستان المأوى، ومنه يقال: وهما إستان كِرفِت إذا أصاب موضعاً يأوي إليه.

وأما الرستاق: فهو فيما ذكره حمزة من الحسن مشتق من رُوذه فَستا. ورُوذه اسم للسّطْر والصف والسِّماط، وفستا اسم للحال، والمعنى أنه على التسطير والنظام، قلت: الذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقُرىً ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخص من الكورة والإستان.

وأما الطسوج: بوزن سُبُّوح وقُدُّوس، فهو أخص وأقل من الكورة والرستاق والإستان، كأنه جزء من أجزاء الكورة. كما أن الطُّسُّوج جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار، لأن الكورة قد تشتمل على عدة طساسيج، وهي لفظة فارسية أصلها تسو، فعُرِّبت بقلب التاء طاءً وزيادة الجيم في آخرها، وزيد في تعريبها بجمعها على طساسيج. وأكثر ما تُستعمل هذه اللفظة في سواد العراق، وقد قسّموا سواد العراق على ستين طُسُّوجاً، أضيف كل طسوج إلى اسم. وقد ذُكرت في مواضعها من كتابنا بإسقاط طسوج.

وأما الجند[1]: فيجيء في قولهم: جند قنسرين، وجند فلسطين، وجند حمص، وجند دمشق، وجند الأردن، فهي خمسة أجناد، وكلها بالشام. ولم يبلغني أنهم استعملوا ذلك في غير أرض الشام، قال الفرزدق.

فقلت: ما هو إلا الشام نَركَبه، كأنما الموتُ، في أجناده، البَغَرُ

---

(1) الجند اصطلاح عسكري أطلقه المسلمون بعد اكتمال الفتح الإسلامي للشام وتحريره من الاحتلال البيزنطي. والجند يُطلق على مساحة شاسعة من الأرض مقسّمة إلى عدّة كُوَرْ (مفردة كَوْرَة) وهي اصطلاح اقتصادي. وتعني الجند: الكيان السياسي الجديد للمنطقة بدلاً من: مملكة أو إمارة أو ولاية، ويعود سبب التسمية لأن بلاد الشام فُتحت عنوةً لا سلماً بمجملها، وحدثت على أرضها ثلاث معارك من أهم المعارك الإسلامية، بل أهمها بين المسلمين والروم، وهي: مؤتة، وطبقة فحل واليرموك.

قال أحمد بن يحيى بن جابر: اختلفوا في الأجناد، فقيل سمّى المسلمون كل واحد من أجناد الشام جُنْداً، لأنه جمع كوراً، والتجند على هذا التجمع، وجنّدت جنداً أي جمعت جمعاً. وقيل: سمّى المسلمون لكل صُقْع جنداً بجند عيّنوا له يقبضون أعطياتهم فيه منه، فكانوا يقولون: هؤلاء جند كذا حتى غلب عليهم وعلى الناحية.

وأما أباذ: فيكثر مجيئه في أسماء بلدان وقرى ورساتيق في هذا الكتاب، كقوله: أسد أباذ، ورُستَماباذ، وحصناباذ، فأسد اسم رجل، وأباذ اسم العمارة بالفارسية، فمعناه عمارة أسد. وكذلك كل ما يجيء في معناه، وهو كثير جداً.

وأما السكة[1]: فهي الطريق المسكوكة التي تمر فيها القوافل من بلد إلى آخر. فإذا قيل في الكتب: من بلد كذا إلى بلد كذا كذا سكة، فإنما يعنون الطريق. مثال ذلك أن يقال: من بغداد إلى الموصل خمسْ سكك، يعنون أن القاصد من بغداد إلى الموصل يمكنه أن يأتيها من خمس طرق. وحكي عن بعضهم أن قولهم سكك البريد، يريدون منازل البريد في كل يوم، والأول أظْهَرُ وأصحّ. والله أعلم.

وأما المِصْرُ: فيجيء في قولهم: مُصرَتْ مدينة كذا في زمن كذا، وفي قولهم مدينة كذا مِصرٌ من الأمصار، والمصر في الأصل: الحَدُّ بين الشيئين، وأهل هَجَرَ يكتبون في شروطهم: اشترى فلان من فلان هذه الدار بمصورها أي بحدودها. قال عديّ بن زيد:

(1) للسِكّة عند الأردنيين معانٍ عديدة: فهي القضبان التي يسير عليها القطار وهي الطريق المستقيم، وهي قطعة الحديد المفصّلة خصيصاً لتوضع في نهاية المحراث الذي تجرّه الثيران أو الآلات لحراثة الأرض. هذا إذا كانت بكسر السين وبتشديد الكاف وفتحها، أما السُكّة بفتح وتشديد السين والكاف فهي العملة المعدنية المضروبة على نمط معين.

وجاعِلُ الشَّمْسِ مِصراً، لا خفاءَ لها،   بين النهار وبين الليل، قد فَصَلاَ

وأما الطول: فيجيء في قولنا عرضُ البلد كذا وطولُهُ كذا، وهو من ألفاظ المنجّمين. فسّروه فقالوا: معنى قولنا طوله أي بُعده عن أقصى العمارة، سَوِيّ آخِذه في معدّل النهار أو في خطّ الاستواء الموازي لهما، وذلك لتشابه بينهما يقيم أحدهما مقام الآخر، ولأن ما يُستعمل من هذه الصناعة إنما هو مستنبط من آراء اليونانيين وهم ابتدأوا العمارة من أقرب نهاية العمارة إليهم وهي الغربية. فطول البلد، على كذا، هو بُعده عن المغرب، إلا أن في هذه النهاية بينهم اختلافاً، فإن بعضهم يبتدئ بالطول من ساحل بحر أوقيانوس الغربي، وهو البحر المحيط، وبعضهم يبتدئ به من سَمْت الجزائر الواغلة في البحر المحيط قريباً من مائتي فرسخ، تسمى الجزائر السعادات، والجزائر الخالدات، وهي بجبال بلاد المغرب.

ولهذا ربما يوجد للبلد الواحد في الكتب نوعان من الطول بينهما عشر درجات، فيحتاج في تمييز ذلك في فِطنَةٍ ودُرْبَةٍ. هذا كله عن أبي الريحان[1].

وأما العرض: فإن عَرْضَ البلد مقابل لطوله الذي ذُكر قبل. ومعناه عند المنجمين هو بُعده الأقصى عن خطّ الاستواء نحو الشمال، لأن البلد والعمارة في هذه الناحية، وتحاذيه من السماء قَوْس عظيمة شبيهة به واقفة بين سمت الرأس وبين معدّل النهار، ويُساويه ارتفاع القطب الشمالي. فلذلك يُعبَّر عنه به، وانحطاط القطب الجنوبي وإن ساواه أيضاً كأنه خفيّ لا يُشعَر به. وهذا كلام صاحب التفهيم.

(1) أصبح خط الطول (فيما بعد) موحّداً بالبدء من الجزر الخالدات في المحيط الأطلسي واختفت المقاييس التي تبدأ من غير هذا المكان. وإنه وتبعاً للطول فإن التوقيت أيضاً يبدأ من نقطة صفر الطول المسمى توقيت غرينتش فما كان إلى الشرق منه زاد عنه حسب بُعده في خطوط الطول وما كان إلى الغرب منه نقص عنه حتى خط 180 طول حيث يلتقي صفر الزمن مع صفر زمن غرينتش.

وأما الدرجة والدقيقة: فهي أيضاً من نصيب المنجمين يجيء ذكرُها في هذا الكتاب في تحديد الطول والعرض، قالوا: الدرجة قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة من الفلك، وفي مساحة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً. وتنقسم الدرجة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثاني، والثانية إلى ستين ثالثة، وترْقى كذلك.

وأما الصلح: فيجيء في قولنا: فُتح بلد كذا صُلْحاً أو عَنْوَةً، ومعنى الصلح من الصلاح وهو ضدّ الفساد، والصلح في هذه المواضع ضدّ الخُلْف، ومعناه أن المسلمين كانوا إذا نزلوا على حصن أو مدينة خلفهم أهله فخرجوا إلى المسلمين وبذلوا لهم عن ناحيتهم مالاً، أو خراجا، أو وظيفةً يوظفّونها عليهم ويؤدّونها في كل عام على رؤوسهم وأرضهم، أو مالاً يعجّلونه لهم، أي أنها لم تُفتح عن غَلَبَة كما كانت العَنْوة بمعنى الغلبة.

وأما السلم: في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: 208]، فقالوا: أعني به الإسلام وشرائعه. والسلم الصلح. والسَّلَم، بالتحريك الاستسلام وإلقاء القيادة إلى إرادة المسلمين، فكأنه والصلح متقاربان. وعندي أنه من السلامة، أي إنه إذا اتفق الفريقان واصطلحا، سَلِمَ بعضهم من بعض، والله أعلم.

وأما العنوة: فيجيء في قولنا: فُتِحَ بلد كذا عَنْوَةً، وهو ضد الصُّلْح، قالوا: العنوة أخذ الشيء بالغلبة. قالوا: وقد يكون عن تسليم وطاعة مما يؤخذ منه الشيء. وأنشد الفرّاء:

فما أخذوها عنوة، من مَوَدّة؛ ولكن بحدّ المشرفيّ استقالها[1]

(1) المشرفيّ: هو السيف والمعنى هنا: أخذوها عنوة بحد السيف. وسمّي المشرفي لأن السيوف كانت تصنع في بلدة المشارف المسماة الآن المشيرفة إلى الشرق من الكرك، وهي إلى الشمال من مؤتة، =

قالوا: وهذا على معنى التسليم والطاعة بلا قتال. قلت: وهذا تأويل في هذا البيت على أن العنوة بمعنى الطاعة، ويمكن أن يؤوّل تأويلاً يخرجه عن أن يكون بمعنى الغَصْب والغلبة، فيقال إن معناه: فما أخذوها غلبة وهناك مَوَدّة، بل القتال أخذها عنوة، كما تقول: ما أساء إليك زيد عن مَحَبّة، أي بغْضَة، كما تقول: ما صَدَرَ هذا الفعل عن قلبٍ صافٍ وهناك قلبٌ صافٍ أي كَدِرٌ، ويكون قريباً في المعنى من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: 18] . ويصلح أن يُجعل قوله أخذوها دليلاً على الغلبة والقهر، ولولا ذلك لقال: سلّموها، فإن قائلاً لو قال: أخذ الأمير حصن كذا، لسبق الوهم، وكان مفهومه أنه أخذه قهْراً. ولو قال: إن أهل حصن كذا سلّموه، لكان مفهومه أنهم أذعنوا به عن إرادة واختيار، وهذا ظاهر. والإجماع أن العنوة الغلبة، ومنه العاني وهو الأسير. يقال أخذته عنوة أي قسْراً وقهْراً، وفُتحت هذه المدينة عنوة أي بالقتال: قوتِل أهلها حتى غُلبوا عليها أو عجزوا عن حفظها فتركوها وجَلَوْا من غير أن يجري بينهم وبين المسلمين فيها عقد صلح.

وأما الخراج: فإن الخراج والخَرْجُ بمعنى واحد، وهو أن يؤدي العبد إليك خراجه أي غلّته. والرعية تؤدي الخراج إلى الوُلاة، وأصله من قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا ﴾ [المؤمنون: 72]، وقرئ خَراجاً، معناه أم تسألهم أجراً على ما جئت به، فأجر ربك وثوابه خير. وأما الخراج الذي وظّفه عمر بن الخطاب ﷺ ، على السواد، فأراضي الفيء، فإن معناه الغلّة ومنه قوله ﷺ : الخراج بالضمان، قالوا: هو غلّة العبد يشتريه الرجل فيستغله زماناً، ثم يعثُرُ منه على عَيْب دلّسه البائع ولم يُطْلِعْه عليه، له رَدُّ العبد على البائع، والرجوع عليه بجميع الثمن،

= وسبق أن تحدثنا عنها. لذلك سمي السيف: المشرفي وليس شرطاً أن يكون مصنوعاً بهذه القرية وإنما لأنها أحد أماكن صنع السيوف، وبالتالي صارت النسبة إليها اسماً من أسماء السيوف.

والغلّة التي استغلّها المشتري من العبد طيّبة له، لأنه كان في ضمانه ولو هَلَكَ هَلَكَ من ماله، وكان عمر، ﷺ ، أمر بمَسْح السواد ودفعه إلى الفلاحين الذين كانوا فيه على غلّة كل سنة، ولذلك سمي خراجاً، ثم بعد ذلك قيل للبلاد التي فُتحت صلحاً ووُظّف ما صولحوا عليه على أرضهم، خراجية، لأن تلك الوظيفة أشبهت الخراج الذي لزم الفلاحين، وهو الغلة لأن جملة معنى الخراج الغلة، وفي الحديث أن أبا طيبة لما حجم النبي، ﷺ ، أمر له بصاعَيْن من طعام وكلم أهله، فوضعوا عنه من خراجه أي من غلّته.

وأما الفيء والغنيمة: فإن أصل الفَيْءِ في اللغة الرجوع، ومنه الفَيْء، وهو عقيب الظلّ الذي للشجرة وغيرها بالغداة، والفيء بالعشي، كما قال حُمَيد بن ثوْر:

فـلا الظلّ، من بَرْد الضُحى، تستطيعُه ولا الفـيء، من بَرد العشيّ، تذوقُ

وقال أبو عبيدة: كل ما كانت الشمس عليه وزالت، فهو فيْءٌ وظل، وما لم تكن الشمس عليه فهو ظل، ومنه قوله تعالى، في قتال أهل البغي: ﴿ حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: 9]، أي ترجع، وسُمي هذا المال فيئاً، لأنه رجع إلى المسلمين من أملاك الكفار. وقال أبو منصور الأزهري في قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ [الحشر: 7]، أي ما ردّ الله على أهل دينه من أموال من خالَفَ أهل ملّته بلا قتال، إما أن يَجْلوا عن أوطانهم ويخلّوها للمسلمين، أو يصالحوا على جزية يؤدونها عن رؤوسهم، أو مال غير الجزية يفتدون به من سفْك دمائهم، فهذا المال هو الفيء في كتاب الله. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾ [الحشر: 6]،

أي لم توجفوا عليه خيلاً ولا ركاباً. أنزلت من أموال بني النضير حين نقضوا العهد وجَلَوْا عن أوطانهم إلى الشام، فقسم رسول الله، ﷺ ، أموالهم من النخيل وغيرها في الوجوه التي أراد الله أن يقسمها فيها، وقسمة الفيء غير قسمة الغنيمة التي أوجف عليها بالخيل والركاب.

قلت: هذه حكاية قول الأزهري، وهو مذهب الإمام الشافعي، ﷺ ، وإذا كان الفيء، كما قلنا، الرجوع، فلا فرْق بين أن يرجع إلى المسلمين بالإيجاف أو غير الإيجاف، ولا فرق أن يفيء على رسول الله، ﷺ ، خاصة أو على المسلمين عامة، وأما الآية فإنما هي حكاية الحال الواقعة في قصة بني النضير، لا دليل فيها عل أن الفيء يكون بإيجاف أو بغير إيجاف، لأن الحال هكذا وقعت، ولو فاء هذا المال بالإيجاف وكان للمسلمين عامة، لجاز أن يجيء في الآية: ما أفاء الله على المؤمنين من أهل القرى، ففي رجوع الفيء إلى رسول الله، ﷺ ، بنفي الإيجاف، دليل على أنه يفيء على غيره بوجود الإيجاف، ولولا أنهما واحد لاستغنى عن النفي واكتفى بقوله عز وجل: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، إذ كان الكلام بدون نفيه مفهوماً.

وقد عكس قُدامة قول الأزهري، فقال: إن الفيء اسم لما غَلَبَ عليه المسلمون من بلاد العدو قسراً بالقتال والحرب، ثم جُعل موقوفاً عليهم، لأن الذي يجتبى منهم راجع إليهم في كل سنة. قلت: فتخصيص قدامة لما الفيء، بأنه لا يكون إلا ما غُلب عليه قسراً بالقتال، غَلَطٌ. فإن الله سماه فيئاً في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾ [الحشر: 6].

والذي يُعتمد عليه، أن الفيء كل ما استقر للمسلمين وفاءَ إليهم من الكفار، ثم رجعت إليهم أمواله في كل عام، مثل مال الخراج وجزية الرؤوس، كأموال بني النضير، ووادي القُرى، وفَدَكَ التي فُتحت صلحاً لم يوجَف عليها

بخيل ولا ركاب؛ وكأموال السواد التي فُتحت عنوة ثم أُقرّت بأيدي أهلها يؤدون خراجها في كل عام. ولا اختلاف بين أهل التحصيل، أن الذي افتُتح صلحاً، كأموال بني النضير وغيرهم، يسمى فيئاً، وأن الذي افتُتح من أراضي السواد وغيرها عنوة وأُقِرّ بأيدي أهله، يسمى فيئاً، لكن الفرق بينهما أن ما فُتح عنوة كان فيئاً للمسلمين الذين شهدوا الفتح يُقسم بينهم، كما فعل رسول الله ﷺ ، بأموال خيبر ويُسمى غنيمة أيضاً، وأما الذين رغبوا في الصلح مثل وادي القُرى وفَدَكَ أو جلوا عن أوطانهم من غير أن يأتيهم أحد من المسلمين، كأموال بني النضير، فأمره إلى رسول الله ﷺ ، والأئمة من بعده يقسمون أمواله على من يريدون، كما يرون فعل رسول الله ﷺ بأموال هؤلاء.

وأما الغنيمة: فهو ما غُنم من أموال المشركين من الأراضي كأرض خيبر، فإن النبي ﷺ قسمها بين أصحابه بعد إفراد الخُمْس، وصارت كل أرض لقوم مخصوصين، وليست كأموال السواد التي فُتحت أيضاً عنوة، لكن رأى عمر ﷺ أن يجعلها لعامة المسلمين، ولم تُقسم فصارت فيئاً يرجع إلى المسلمين في كل عام. ومن الغنيمة الأموال الصامتة التي يؤخذ خُمُسها ويُقسم باقيها على من حضر القتال، للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم، فهذا شيء استنبطته أنا بالقياس، من غير أن أقف على نصٍّ هذا حكايته، ثم بعد وقفت على كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، فوجدته مطابقاً لما كنت قلته ومؤيداً له، فإن قال: الأموال التي تتولاها أئمة المسلمين ثلاثة، وتأويلها من كتاب الله: الصدقة، والفيء، والخُمْس، وهي أسماء مجملة يجمع كل واحد منها أنواعاً من المال.

فأما الصدقة: فزكاة أموال المسلمين، من الذهب والوَرِقِ والإبل والبقر والغنم والحبّ والثمر، فهذه هي الأصناف الثمانية التي سماها الله تعالى، لا حق لأحد من الناس فيها سواهم. وقال عمر، ﷺ : هذه لهؤلاء، وأما مال الفيء،

فما اجتُبي من أموال أهل الذمة من جزية رؤوسهم التي بها حُقنت دماؤهم وحُرّمت أموالهم، بما صولحوا عليه من جزية، ومنه خراج الأرضين التي افتُتحت عنوة ثم أقرّها الإمام بأيدي أهل الذمة على قسط يؤدونه في كل عام، ومنه وظيفة أرض الصلح التي منعها أهلها حتى صولحوا عنها على خرْج مسمى. ومنه ما يأخذه العاشر من أموال أهل الذمة التي يمرون بها عليه في تجاراتهم، ومنه ما يؤخذ من أهل الحرب إذا دخلوا بلاد الإسلام للتجارات، فكل هذا من الفيء، وهذا الذي يعم المسلمين، غنيّهم وفقيرهم، فيكون في أعطية المقاتلة، وأرزاق الذريّة، وما ينوب الإمام من أمور الناس بحُسْن النظر للإسلام وأهله.

وأما الخمس: فخُمس غنائم أهل الحرب، والركاز العادي، وما كان من عرض، أو معدن، فهو الذي اختلف فيه أهل العلم، فقال بعضهم: هو للأصناف الخمسة المسمّين في الكتاب لما قال عمر ﷺ ، وهذه لهؤلاء، وقال بعضهم: سبيل الخُمس سبيل الفيء، يكون حكمه إلى الإمام، إن رأى أن يجعله فيمن سمّى الله جعله، وإن رأى أن الأفضل للمسلمين والأوفر لحظهم أن يضعه في بيت مالهم لنائبة تنوبهم ومصلحة تعز لهم، مثل سدّ ثغر، وإعداد سلاح وخيل وأرزاق أهل الفيء من المقاتلين والقُصاة وغيرهم ممن يجري بجراهم، فعل.

وأما القطيعة: فلها معنيان، أحدهما أن يعمد الإمام الجائز الأمر والطاعة إلى قطعة من الأرض يفرزها عما يجاورها، ويهبها ممن يرى، ليعمرها وينتفع بها، إما أن يجعلها منازل يسكنها ويسكنها من يشاء، وإما أن يجعلها مُزْدَرَعاً ينتفع بما يحصل من غلّتها، ولا خراج عليه فيها، وربما جُعل على مُزدرعها خراج، وهذه حال قطائع المنصور وولده بعده ببغداد في محالّها، فمن ذلك قطيعة الربيع، وقطيعة أم جعفر، وقطيعة فلان، وقد ذكرت في مواضعها من الكتاب.

وأما القطيعة الأخرى، فهي أن يُقطع السلطان من يشاء من قُوّاد وغيرهم، القُرى والنواحي، ويقطع عليهم عنها شيئاً معلوماً يؤدّونه في كل عام، قَلّ أو كثُر، توفّر محصولها أو نَزُر، لا مدخل للسلطان معه في أكثر من ذلك (الحموي: ص 35-43).

-4-

مراجعة لبعض كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين التي تطرقت إلى الأردن واعتمدناها للدراسة والتضمين

1- ابن رسته واليعقوبي

كتب ابن رسته (ت 290 هـ) كتابه الأعلاق النفيسة الذي نُشر في كتاب يتألف من 229 من الحجم المتوسط، ومعه كتاب آخر هو البلدان لليعقوبي.

جاء كتاب ابن رسته وصفاً عاماً للأرض وطبيعتها الجغرافية، وتقلّب الفصول عليها، وموقعها من الكواكب الأخرى، وتحدث عن الأجرام وحركتها، أي أنه تحدث في أمور فلكية وجغرافية صرفة.

ثم عرج على الحديث عن أحوال الأقاليم الإسلامية، مبتدئاً بمكة المكرمة، مع ذكره لبناء الكعبة المشرّفة عدة مرات، عبر التاريخ، ويواصل حديثه عن صفات الأقاليم الأخرى ومن ضمنها الأردن كجزء من الشام، حيث أخذنا لكتابنا هذا تضميناً ما يخصنا منه.

أما اليعقوبي فقد توفاه الله عام 284، أي قبل ابن رسته بست سنوات. وقد وضع كتابه البلدان، الذي جاء أكثر شمولاً وترتيباً من كتاب ابن رسته. وقد بدأ اليعقوبي كتابه بالحديث عن بغداد وصفاتها، ووصفها بأنها: « وسط الدنيا

وسرّة الأرض، وذكرتُ بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى » (ص 233). ثم يواصل الحديث عن بقية الأقاليم الإسلامية بما فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة ومن بينها جنوب الأردن كجزء من بلاد الشام.

2- الاصطخري

أدلى الاصطخري (المتوفى عام 334 هـ) بدلوه، وأفرغ ما في جعبته من معلومات جغرافية، ضمن كتابين، أسمى أولاهما « كتاب الأقاليم »، والثاني: « المسالك والممالك ».

أما الأول فقد نشره الدكتور ج. هـ موبلر، وقدّم له باللاتينية باثنين وعشرين صفحة من القطع الكبير، مقتبساً فقرات كثيرة، تارةً قصيرة، وتارةً طويلة من النص الأصلي.

ويبدو أن المحقق قد نشر مخطوطة واحدة هي المتوفرة لديه، ونشرها مصوّرة عن الأصل، مما جعل من المتعذر استخدامها، لأنها مكتوبة بأحرف ذات نقط تارة، وبدون تنقيط تارةً أخرى، وبطريقة يتعذر على غير الخبير بالمخطوطات قراءتها كاملة أو استيعابها.

جاءت المخطوطة المصوّرة المنشورة، أقول جاءت في 126 صفحة من القطع الكبير، كما أن التآكل الذي أصاب الأصل قد أثر في جودة المتوفر، بحيث ضاعت بعض الكلمات أو الأحرف، وأحياناً جزءاً من الصفحة.

يحتوي الكتاب على عدد من الخرائط التوضيحية لكل منطقة يتحدث عنها، وهي بالترتيب، صورة بحر فارس، صورة المغرب، صورة مصر والنوبة، صورة بلاد الشام، وصورة بحر الروم، وصورة ما بين نهري دجلة والفرات، والعراق... الخ؛ محاولاً تغطية المعروف من ديار الأرض آنذاك، من بر وبحر، ومعمور وخارب.

ويحاول المؤلف التحدث عن صفات ومسافات الأقاليم، ولا شك أن الكتاب كان في زمنه ذي أهمية كبيرة، إلا أن نشر النسخة جاء دونما تحقيق أو طباعة أو شرح أو توضيح، مما يقلل من قيمة النسخة هذه، وإن كان لا يقلل تماماً من قيمة الكتاب.

أما كتابه الثاني المسالك والممالك، فهو مطابق إلى حد كبير لكتابه الأول، وقد قارنت بين نصيّ الكتابين، فلم أجد إلا تبايناً بسيطاً في صياغة بعض الجمل من زيادة أو نقص، أو تقديم أو تأخير، أما ما بقي فيسير على النمط نفسه، ويتحدث فيه عن الأقاليم والبلدان المعروفة زمنه، وصفاتها وأنهارها، وثمارها، وأحياناً عن سكانها، وتاريخها وأحداثها.

ويبدو أن تحقيق هذا الكتاب بدأ أكثر دقة وإحاطة، مع إشارة إلى التباينات والمتشابهات في بعض الجمل أو الكلمات، التي وردت في مخطوطات أخرى لنفس الكتاب، أو لدى الجغرافيين الذين لحقوا الاصطخري مثل ابن حوقل، والمقدسي.

يقول المحقق في المقدمة، في تقييم أسلوب وكتاب الاصطخري هذا: « والاصطخري مؤلف ذو منهج مميز عن غيره » (ص 9)، ثم يقول: « فأنت ترى أنه مؤلف له خطة مرسومة، يسير على منهجها، يخضع لها ولا يقبل التقسيم الإداري الذي دعت إليه ظروف غير جغرافية، تراه يجعل المنطقة وحدة ولا يجزئها إلا إذا جزّأتها الطبيعة، وهو مؤلف دقيق بالنسبة إلى عصره » (ص 9).

ويقوم أسلوب الاصطخري في تأليفه على ثلاثة أمور هي: المشاهدة وفق الرؤية؛ وتحري الدقة جهد الطاقة، مما يجعله يخالف غيره تارة أو يؤيده؛ وسماع الأخبار والاقتصاد في روايتها.

ويتبين من خلال ملاحظاته، أنه بدأ تأليف هذا الكتاب في بداية القرن الرابع للهجرة، وبقي يضيف عليه حتى منتصف ذلك القرن. وقد اعتمد عليه

الحموي في كتابه: « معجم البلدان »، حيث نقل عن الاصطخري كثيراً، مما ساهم في شهرة الأخير التي بقيت مطموسة زمن حياته.

يرى الدكتور محمد جابر اليحيى، في المقدمة التي كتبها لكتاب « المسالك والممالك »، أن كتاب « الأقاليم » هو نفس كتاب « المسالك والممالك »، حيث يقول: « وكتاب الاصطخري نُشر أول ما نُشر – في عصرنا الحديث – مختصراً في نسخة بالزنكوغراف، عن نسخة مخطوطة سنة 690 هـ نقلها الدكتور مولر في سنة 1839، ووضع لها مقدمة باللاتينية، ثم نشره دي جويه المستشرق المشهور من خمس مخطوطات رمز لها .A. B. C. D. E ، وذلك سنة 1870، وظل الكتاب رغم مرور هذا الزمن الطويل ورغم ما فيه من زلات لا يفكر أحد في إعادة طبعه، ظل الأمر كذلك حتى نشطت لهذا الأمر إدارة الثقافة العامة) (ص 11).

ونحن نرى أن المعنى والفحوى في الكتابين واحد، إلا أن هناك بعض التباين، ليس في العنوان فحسب، بل وأيضاً بالنص كما أشرنا.

3- الخوارزمي

وكتب الخوارزمي (ت: 335) كتاباً بعنوان: كتاب صورة الأرض، استخرج معلوماته من كتاب الجغرافيا لبطليموس، حيث بيّن ما تحتويه من مدن وجبال وبحار وجزائر وأنهار. ويقع الكتاب في 158 صفحة، ومقدمة باللاتينية قوامها إحدى وأربعون صفحة. كما يحتوي الكتاب خارطة لنهر النيل، مع وضع خطوط الأقاليم عليه، حيث تقاطع معه عرضياً بشكل عمودي. وقد وضع على مجرى النهر خط الاستواء، ثم إلى الجنوب منه الإقليم الأول، فالثاني فالثالث، ثم خارطة أخرى لمنابع نهر النيل.

لم نستفد من هذا الكتاب لغايات بحثنا، لأنه لا يعدو كونه جدولاً بأسماء المواقع من مدن وأنهار وبحار وجبال، مع بيان خطوط ودرجات العرض

والطول، عند بدئها، وعند انتهائها، مستخدماً رموزاً وأرقاماً يتعذر على غير المختص بالفلك فهمها.

4- ابن حوقل

من الكتب الهامة في مجال البلدانيات، ذاك الذي كتبه ابن حوقل (ت:367 هـ) بعنوان: كتاب صورة الأرض، حيث يقع القسم الأول منه في 528 صفحة من القطع المتوسط. وقد اعتمد الناشر مخطوطة أقدم من تلك التي اعتمدها دي غويه في الطبعة الأولى الصادرة في ليدن وأكسفورد سنة 1872، حيث استخدم غويه النسخة العربية المرقومة 2214 في المكتبة الأهلية بباريس.

أما هذه النسخة مدار بحثنا، فقد احتوت نص النسخة المرقومة بـ 3346 المحفوظة في خزانة السراي العتيق في استنبول وكذلك على صور هذه النسخة وقد استُتِمّ بمقابلة نص الطبعة الأولى وبعض المصادر الأخرى.

جاء هذا الكتاب محصّلة لأمرين أولهما رحلة المؤلف، وثانيهما بعض المؤلفات التي كانت تشير إلى المواقع في الأقاليم الإسلامية بشكل موجز.

أما بالنسبة للأولى، فيقول المؤلف: « فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة » (ص 3) وقد كان لهذه الرحلة دوافع وأسباب، ذكرها المؤلف بقوله:

« وكان مما حضّني على تأليفه وحثني على تصنيفه وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق وتباينهم في المذاهب والطرائق وكيفية وقوع ذلك في الهمم والرسوم والمعارف والعلوم والخصوص والعموم وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف (المؤلفات) الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في

المسالك كتاباً مقنعاً وما رأيت فيها رسماً متّبعاً فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب واستنطاقي فيه وجوهاً من القول والخطاب، وأعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر والشهوة لبلوغ الوطر » (ص 3).

تحدث الكتاب عن الطرق والأقاليم « المسالك والممالك »، وما هو عامر من الأرض، وخارب « والمفاوز والمهالك »، وطبائع أهلها وخواص هذه البلاد، « وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلاّتها وذكر الأنهار الكبار واتصالها بشطوط البحار، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة، مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار » (ص 1).

ومما يميز كتاب ابن حوقل احتواءه للخرائط، التي تبين الأقاليم وما عليها من مدن وبحار وأنهار ومواقع، وبذلك يشترك والاصطخري بهذه الميّزة.

الجدير بالذكر أنه وُجدت إضافات إلى النسخة الاستنبولية، تمت فيما بين 534 هـ وسنة 580 هـ.

وقد ذكر المواقع الأردنية ضمن إقليم الشام، كما بيّناه في التضمينات الكاملة عن ذلك. والكتاب جدير باعتماده كمصدر لاعتماده كما قلت على الملاحظة في الرحلة من جهة، والمصادر التي سبقت المؤلف من جهة أخرى، ولعدم تعصّب المؤلف لإقليم دون آخر، بل إنه يعيب على الآخرين تعصّبهم لإقليم دون الآخر.

5- المقدسي

وقد طرق المقدسي (ت 387 هـ) باب البلدانية، حيث ألف كتاباً لطيفاً، أسماه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، كان محصّلة أسفاره في ديار الإسلام،

واطلاعه على الكتب في مختلف الأقاليم. فجاء بذلك وصفاً واقعياً، بالإضافة إلى كونه سرداً تاريخياً، وإن كان لا يذكر مصادره في الأمور العلمية، والأقاليم التي يزرها، وأخذ ما أثبته عنها، عن غيره، بلا شك. وبذلك جاء الكتاب وكأنه من بنات أفكار المقدسي، رغم أنه أخذ الكثير عمن سبقوه.

وقد بيّن أسلوبه الذي أتبعه في الكتاب بقوله:

« فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وانفرد بفنّ لم يذكروه، إلا على الإخلال، هو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيه من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشربهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار في المفازات، وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال، والتلال والسهول والجبال... الخ» (ص 1-2 انظر المزيد في مقدمة كتابه).

كانت هذه المعلومات ضرورية للناس آنذاك عندما كانوا في دولة واحدة مترامية الأطراف، بعيدة المسافات، لا حرج فيها على السفر والتنقل. وفي ذلك يقول المقدسي في المقدمة:

« وعلمت أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبه العامة والرؤساء وينتفع به كل من سائر، ويحظى به كل تاجر، وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام... الخ » (ص 2).

ويتحدث عن الأقاليم المعروفة آنذاك، مثل إقليم بلاد الشام، إقليم العراق، إقليم مصر، ... الخ، ثم انفرد للأقاليم الشرقية التي تعتبر أقاليم أعجمية، بقية الكتاب، حيث يسميه « أقاليم العجم أوّله إقليم الشرق ».

7- البكري

وللبكري (ت: 487 هـ) كتاب لطيف وشامل ودقيق، بعنوان: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. ويقع في أربعة أجزاء، ذات صفحات متسلسلة كما توجد طبعة أخرى له بمجلدين.

يمتاز البكري بأنه أديب وجغرافي، مما أهّله للقيام بهذه المهمة بكل جدارة. كما أنه « لغوي دقيق الحسّ، كامل الأداة من النحو والصرف واللغة، ريّان من علوم الرواية: الأشعار، والأخبار، والأنساب، إلى علوم الدين: الحديث، والتفسير، والفقه وغيرها من أطراف الثقافة الإسلامية » (ص د – المقدمة).

ونجد أن معجم البكري مرتب بالأصل حسب الحروف الهجائية عند المغاربة، إلا أن المحقق طَبَعَه حسب ترتيب هذه الحروف عندنا في المشرق.

وقد لقي هذا المعجم احتراماً وتقديراً من الأقدمين والمحدثين والمستشرقين، ذلك أن يضبط الكلمة لفظاً وتشكيلاً، ويذكر ما يتعلق بها من أحداث وشعر. ونقتطف هنا ما ورد في المقدمة حول تقييم هذا الكتاب:

« إن المعجم فريد في بابه، فليس لدينا كتاب يمكن أن يُوازن به من ناحية السعة، أو من ناحية دقة التفصيل، فهو يحتوي على عدد ضخم من أسماء الأماكن والبلاد والجبال والأنهار والمياه. مرتبة بترتيب الحروف الهجائية عند أهل المغرب » (ص – ز المقدمة). وقد ورد في الكتاب عدد كبير من المواقع الأردنية، حيث أخذناها كاملة للتضمين، لعل بالإمكان الإفادة منها إن شاء الله.

8- الإدريسـي

وأما كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، فقد وضعه الإدريسي عام 548 هـ (توفي عام 560 هـ)، أقول وضعه بناءً على طلب من روجر ملك صِقِلِّيَّة. وفي المقدمة بين المؤلف قصة اهتمام الملك بالأرض وما عليها من ماء وجبال وبشر وحيوان وشجر وناتج، خاصة بعد أن استتب له الأمر في مملكته، وأصبح أقوى ملوك الفرنجة في منطقة حوض البحر المتوسط.

ويأتي الكتاب وصفاً مفصلاً ودقيقاً للخارطة التي أمر الملك بصنعها على هيئة كرة عليها معالم الأرض وما تشتهر به المواقع من زراعات أو معادن أو مياه.

وقد اعتمد في معلوماته على عدد من الكتب التي سبقته، من وضع المسعودي، والجيهاني، وابن خرداذبة، والعذري، والحوقلي، واليعقوبي، والقردي، وعدد من المؤلفين من غير العرب.

ويقول الإدريسي في وصف كتابه أنه يزيد على الخارطة والكتب القديمة: « بوصف أحوال البلاد والأرضين في (...) وبقاعها وأماكنها وصورها وبحارها وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس بنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنفق بها والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها وحيث هي (أي أين هي؟!) من الأقاليم السبعة مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم (ص 11).

والقارئ لكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق يجد دقة في الوصف، وإن جانب الحقيقة أحياناً، وسعة في المعلومات والتفصيلات، وتغطية للمعمور الذي

كان معروفاً آنذاك، حسب تصنيف الأقاليم السبعة المتعارف عليه آنئذ. ويمتاز بسهولة الأسلوب واللغة، والتسلسل المنطقي المريح وهو بحق نزهة للمشتاق في رحلته لاختراق الآفاق.

9- ابن جبير

وساهم ابن جبير (وهو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ت: 614 هـ)، في هذا الباب البلداني، فكتب محصلة رحلته في كتاب اشتُهر باسم رحلة ابن جبير، التي وصفت فترة تاريخية، ومواقع إسلامية، وأحوال سياسية وحربية ودينية واجتماعية للبلاد الإسلامية على مدى ثلاث سنوات هي مدة رحلته التي بدأها في يوم الاثنين 9 شوال سنة 578 هـ وانتهى منها يوم الخميس 22 محرم سنة 581 هـ.

وصف ابن جبير خلال رحلته أيضاً المدن والمساجد والكنائس والسلاطين وخاصة صلاح الدين الأيوبي، حيث عاصره وكان من المعجبين بصلاح الدين، وقبور الصحابة، ومناسك الحج، ومجالس الذكر والوعظ، والقلاع، والمستشفيات، والمسافات، وصفات البلدان والشعوب، والحروب الدائرة بين المسلمين والصليبيين. « ورحلته هذه كتاب نفيس في بابه لا غنية عنه للمؤرخين والجغرافيين، وكل من أراد الاطلاع على أحوال تلك الحِقْبَة » (ص 6).

وتحدث ابن جبير عن بعض المواقع الأردنية هما صور وعكا كونهما على الساحل، وكون عكا كانت تحت سيطرة الصليبيين. كما تحدث عن فتح صلاح الدين لحصن الكرك، وَسَبْي النصارى، وتوزيع الغنائم على المسلمين، وإرسال الأسرى المسلمين من إسبانيا إلى الشواطئ الأردنية، وعتق الحكام وأهل الإحسان المسلمين لهؤلاء وأعراضهم.

10- الحموي

ويبدو أنه أشمل وأدق من تناول موضوع البلدانيات، من هؤلاء جميعاً، إنه ياقوت الحموي، في كتابه معجم البلدان (خمسة أجزاء كبيرة). (ت:626 هـ/ 1228 م).

وقد بدأ كتابه بمقدمة لطيفة وشاملة، ثم أتبعها بخمسة أبواب، ذكر في الأول منها: صورة الأرض، وما قاله المتقدمون والمتأخرون فيها؛ بينما تناول في الثاني وصف اختلاف العلماء في الاصطلاح على معنى الإقليم؛ ثم عرّف في الباب الثالث بعض الألفاظ التي يكثر ذكرها: كالبريد والفرسخ والميل، وغير ذلك؛ ثم عرّج في الباب الرابع على حكم الأرضين والبلاد المفتوحة والإسلام؛ ليحط بعدها رحاله في الباب الخامس في جُمَلٍ من أخبار البلدان التي لا يختص ذكرها بموضع دون موضع.

أما متن الكتاب الذي هو الغرض الرئيس للمؤلف، فقد قسّمه إلى ثمانية وعشرين كتاباً هي عدد أحرف الهجاء، ثم يقسّم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين باباً للحرف الثاني والأول « والْتَزِمُ ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه، وإلى أي غاية بلغ، فأُقدِّمُ ما يجب تقديمه بحكم ترتيب: أ ب ت ث ... على صورته الموضوعة له، من غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها؛ لأن جميع ما يَرِدُ إنما هي أعلام المسميات مفردة، وأكثرها عجمية ومرتجلة لا مساغ للاشتقاق فيها » – (المقدمة ص 15).

كانت مهمة الحموي جليلة وأصيلة، فكان معجمه خير ما كتبه الأقدمون ومن تبعهم في هذا الباب – من حيث العمومية – حتى غدا مرجعاً ومصدراً لكل كاتب في هذا العلم، أو حتى في كلِّ الأمور الإنسانية تقريباً.

وفي المقدمة، يبين الحموي منهجه الذي اتبعه في تصنيف الكتاب ويقول: « .. وجمعت ما شتّتوه وأضفت إليه ما أهملوه، ورتّبته على حروف المعجم، ووضعته وضع أهل اللغة المحكم، وأبنت عن كل حرف من الاسم: هل هو

ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور، وأزلت عنه عوارض الشُبَه، وجعلته تِبْراً بعد أن كان من الشَبه، ثم أذكر اشتقاقه إن كان عربياً، ومعناه إن أحَطْتُ به علماً إن كان عجمياً، وفي أي إقليم هو وأي شيء طالعه، وما المستولي عليه من الكواكب، ومن بناه، وأي بلد من المشهورات يجاوره، وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه، وبماذا اختُصَّ من الخصائص، وما ذكر فيه من العجائب، وبعض من دُفن فيه من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين، ونُبذاً ما قيل فهي من الأشعار في الحنين إلى الأوطان، الشاهدة على صحة ضبطه والإتقان، وفي أي زمان فتحه المسلمون وكيفية ذلك، ومن كان أميره، وهل فُتح صلحاً أو عُنْوةً لتعرف حكمه في الفيء والجزية، ومن ملكه في أيامنا هذه (ص 12).

وبذلك نرى أن الحموي لا ينقل إلينا العمر التاريخي للمواقع فحسب، بل وأيضاً البُعد الاجتماعي والسياسي، والواقع المعاصر الذي عايشه وعرفه أيضاً، كما أنه يهتم بعلاقات البلدان والمواقع بعضها ببعض، وبالأرض والإنسان على حد سواء. وهو لا ينسى الآيات، والأحاديث والأشعار، التي قيلت بالموقع أو المناسبة، ليضفي عليها رونقاً قشيباً وإزاراً مَهيباً، يجعل كتابه، بحق، أحسن ما كُتب في هذا المجال.

وقد تناول العديد من المواقع الأردنية في كتابه، وكان أقرب، من كتب، إلى الصحة، كما أن من لحقه أخذ عنه. أما هو فلم يبخس الناس أشياءهم، حيث كان يبين مصدر المعلومات من اسم أو كتاب أو كليهما معاً، مما يدل ليس على سعة اطلاعه فحسب، بل وعلى أمانته العلمية، الأمر الذي لم يتوفر في كل من تناول هذه الموضوعات ممن اعتمدنا عليهم في كتابنا هذا.

كما ألف الحموي كتاباً آخر في البلدان، بعنوان المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، الذي جاء في 445 صفحة من القطع المتوسط، بالإضافة إلى مقدمة

باللاتينية جاءت في 45 صفحة وكتبها المحقق الأجنبي، وصفحات أخرى لفهرس الأعلام والأماكن.

الكتاب يذكر الكلمة التي تدل على أكثر من مكان في آنٍ واحد، ويكونا مختلفين في مواقعها، وإن تطابقا في لفظهما، فمثلاً: « برمة جبل في بلاد بني سليم... برمة بُلَيْدة (تصغير بلدة) بمصر بين الفسطاط والإسكندرية من كورة البحيرة » (ص 55).

ويأتي هذا الكتاب اختصاراً شديداً لذكر الأسماء، لما أورده الحموي نفسه في كتابه معجم البلدان، لذا فإن من يريد التفصيلات عن أي موضوع، يمكنه الاكتفاء بالاطلاع على المعجم وحده.

11- القزويني

أما القزويني (ت 682 هـ)، فقد قدّم معلوماته الجغرافية في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، الذي اشتمل على معلومات موجزة عن أقاليم الأرض ووضعها. وهو يصف كتابه في المقدمة: « فذكرت في هذا الكتاب ما كان من البلاد مخصوصاً بعجيب صنع الله تعالى. ومن كان من العباد مخصوصاً بمزيد لطفه وعنايته، فإنه جليس أنيس يحدثك بعجيب صنع الله تعالى، ويعرّفك أحوال الأمم الماضية، وما كانوا عليه من مكارم الأخلاق ومآثر الآداب، ويفصح بأحوال البلاد كأنك تشاهدها، ويخبر عن أخبار الكرام كأنك تجالسهم » (ص 6).

ثم يتناول ما كان معروفاً من المواقع حسب ترتيب الأقاليم، فيبدأ بالإقليم الأول ثم الثاني وهكذا إلى الإقليم السابع، حيث رتب المواقع داخل كل إقليم حسب الحروف الهجائية، دونما تقسيم للكتاب إلى أبواب أو فصول، بل جاء كله دفعة واحدة وكأنه فصل واحد (هذا إذا استثنينا ما جاء في المقدمة).

ويحاول أن يعزز روايته بإسناده إلى راوٍ معين، يحدده بالاسم، مما يعطيها قوة وزخماً. ويقع الكتاب في 621 صفحة من المادة المطبوعة، هذا عدا عن الفهارس الملحقة به. ورغم أن القزويني فلكي، وحاول جهده تأليف موسوعة جغرافية، إلا أن ما جاء به أضعف وأقل مما جاء به ياقوت الحموي.

وتأتي أهمية كتاب القزويني، في أنه نقل ما به من معلومات عن أكثر من خمسين مُؤَلَّفاً، كثير منها لم تصل إلينا كتبهم لضياعها، خاصة المؤلفين الأندلسيين، أمثال (محمد بن عبدالرحيم الغرناطي (توفي 1168 م)، أحمد بن عمر الأزدي (توفي بين 1023–1085)، عبدالحميد الأندلسي (متوفى 1169)، هذا بالإضافة إلى حفظه لمقتطفات هامة من كتب إبراهيم الطرطوشي وأبو الربيع سليمان الملتاني الضائعة إلى الأبد؛ كما نقل عن ابن سيناء وابن فضلان وأبي دُلف والجيهاني وآخرين غيرهم. (قارن الياكوتي ص 7).

12- الدمشقي

وفي نهاية القرن السابع، والثلث الأول من القرن الثامن الهجريين، عاش الدمشقي شمس الدين، الذي كتب كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (توفي عام 727 هـ).

وقد جاء الكتاب في النسخة التي اعتمدناها في 285 صفحة من القطع الكبير، بالإضافة إلى حوالي ثمانين صفحة من فهرس الأعلام والأماكن مذكورة بالعربية، ومشروحة باللاتينية، هذا عدا عن إحدى عشر صفحة أخرى مقدمة باللاتينية، كتبها المحقق وأرّخها في عام 1864.

احتوى النص على فهرس ضمن مقدمة المؤلف. ويبدأ الكاتب حديثه عن الأرض وصفاتها، وما قاله الأقدمون عنها، ثم يتحدث عن المعادن والجبال

والأحجار الكريمة والأنهار، وسبب ملوحة وعذوبة المياه، والجزائر الموجودة في البحار، ووصف البحار والخلجان.

بعد هذا كله يأتي إلى وصف الأقاليم، ومن جملتها إقليم الشام / الأردن، وهو موضع اهتمامنا وبحثنا، حيث اقتبسنا ما ذكره. ويحاول المؤلف دعم آرائه وأفكاره أو مشاهداته بالرسوم التوضيحية ضمن المادة المطبوعة.

13- ابو الفداء (ت 732هـ)

وفي القرن الثامن الهجري، ألف عماد الدين أبو الفداء كتاباً بعنوان «تقويم البلدان»، الذي يمكن اعتباره بمثابة قاموس جيب للحكام والتجار وقادة الجند، يكتبه رئيسهم الأعلى؛ يحتوي على معلومات أولية عن المواقع، مبيناً الأسماء وأسماء المصادر، ودرجات الطول والعرض، والإقليمين الحقيقي والعرفي، وضبط الأسماء بالتشكيل، ثم مجملاً عن الأوصاف والأخبار العامة الخاصة بذلك الموقع.

يحاول المؤلف تغطية الأقاليم الإسلامية كلها، أخذاً عمّن سبقوه، مضيفاً إليها ما يعرفه مما هو حاصل في زمنه وعصره. وبذلك، جاء الكتاب ليعطي آخر ما وصلوا إليه حول هذا الموقع من معلومات، وما تحقق من تقدم أو زيادة أو نقصان، كما اشتمل أيضاً على فصول في الفلك والجغرافيا وعلم الهيأة في بداية الكتاب. ولم يبخل في التحدث عن الأنهار والجبال، وجزيرة العرب، والأقاليم، ومدى ما بها من عمران أو خراب.

وقد تحدث عن مواقع في الأردن ضمن بلاد الشام، حيث وجدنا فيها معلومات مهمة، جديرة بالاقتباس، خاصة وأنها تبيّن الترتيب الإداري آنذاك من حيث تبعية المناطق أو عدم تبعيّتها للإدارة الأردنية، أو ضمن إدارة الإقليم الأردني.

14- الياكوتي

وكان للياكوتي نصيب في الكتابة في علم البلدان والسياحة - أي الرحلات، حيث ألّف كتابه: كتاب تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار. وقد عاش المؤلف في القرن التاسع الهجري، حيث توفي والده عام 806 هـ (ص5).

في المقدمة التي كتبها بالعربية، محقق المخطوطة، بونيانوف ضياء الدين بن موسى يقول: « إن المعلومات حول عبدالرشيد بن صالح بن نوري الياكوتي على العموم شحيحة، بل معدومة وكذلك هو لا يذكر شيئاً عن حاله » (ص 5). ثم يقول: « والظاهر أن الياكوتي ألّف كتابه في الفترة الواقعة ما بين سنتي 806-816 هـ (ص6). ويأتي هذا الكتاب، حسبما يقول المحقق (ص7): اختصاراً لجغرافية زكريا القزويني المرسوم بـ «آثار البلاد وأخبار العباد» المؤلّف سنة 674 هـ 1275 - 1276م.

ويسير الياكوتي على نفس النمط الذي اتبعه القزويني في تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وما في كل إقليم من بلدان، ولكنه وقع في أخطاء أخرى، وهي حشره لمعلومات خارجية ضمن المختصر، ونقله لبعض الأسماء والنقاط من إقليم إلى آخر بغير ما تعارفوا عليه.

ويقول المحقق (ص 10)، أن الياكوتي استخدم عدداً من مخطوطات القزويني مما أوقعه في هذا الخطأ، حتى لقد وصل عدد نقاط الاختلاف والتعارض - ست مئة موقع، وقد يكون للناسخ دور في ذلك. ومع هذا فالياكوتي يضيف أحياناً بعض المعلومات على ما لدى القزويني، وخاصة حول مصنوعات مختلف البلاد والبضائع التجارية.

الكتاب الذي وقع بين أيدينا هو تصوير للمخطوطة مرقمّة بالورقة بحيث أخذت الورقة رقماً واحداً، بحيث أخذ أحد وجهيها رقم (أ)، وأخذ الثاني رقم

(ب) مضافاً إلى الرقم الواحد الأساس، مثلاً ص 9أ، وص 9ب (وجه الورقة وقفاها).

وقد أضاف المحقق إلى الكتاب مقدمة بالعربية من ست صفحات كتبها بخط يده، كما أضاف إليه فهارس للأعلام والمواضع. وضمن دفتيّ الكتاب ترجمة للنص العربي باللغة الروسية مع فهارس ومقدمة.

15- الـورثيلانـي

وكان للشيخ سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني (ت: 900 هـ) دور في التحديث في عالم الرحلات، ضمن كتابه: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بالرحلة الوريثلانية، التي قامت بصفة رئيسة على رحلته في موكب الحجيج المغربي عام 879 هـ، قادماً من مصر عبر سيناء ماراً بالعقبة، ثم محاذياً لساحل البحر الأحمر حتى الديار المقدسة.

وقد تحدث عن العقبة، وأنها كانت محطة الحجيج، ومعرّضة لهجمات البدو من حولها، ثم تحدث عن الإجراءات التي اتخذها الحجاج لإرهاب البدو، وحماية أنفسهم (التفاصيل في الداخل - العقبة).

يقول المؤلف في المقدمة:

« وبعد فإني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرباع والقفار والديار، والمعاطن والمياه والبساتين والأرياف والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء الفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين والإخوان والمحبين والمحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار، من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصحو والمحو إذ ليس لهم مع غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها

تزهو بمحاسنها عن كثير من كتب الأخيار مبيناً فيها بعض الأحكام الغربية والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيه من التصوف مما فتح به عليّ أو منقولاً عن الكتب... الخ » (ص 3).

ويصفها المصحح محمد بن أبي شنب أنها:

« لاشتماله على عوارف المعارف، وظرائف الظرائف، وأوابد العوائد، وفرائد الفوائد، ونسق الأوصاف الكاملة، وحلّ المسائل الشاكلة، تارةً راتعاً في رياض الفقه والحديث والتوحيد، وتارةً وارداً حياض التفسير والتاريخ والتجويد.. الخ (ص أ).

ونجد أن هذه الرحلة مطبوعة على طريقة المغاربة، حيث نقطة الفاء من الأسفل، ونقطة القاف واحدة من الأعلى، أما عن لغة الرحلة فليست بالمستوى اللازم، بل هي بسيطة ومسلية، وتبين ما عاناه الحجاج في طريقهم إلى بيت الله الحرام. وتقع المادة في 713 صفحة من القطع الكبير، عدا عن الفهارس.

16- الحميري

أما الحميري (ت: 727 هـ) فله رأي في أمور البلدانيات، حيث أقدم على الإدلاء بدلوه في كتاب أسماه: كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، جاء على شكل معجم جغرافي، قوامه 622 صفحة من الحجم الكبير، والحرف الصغير الذي جاء على عمودين في الصفحة الواحدة.

كان الروض المعطار مصوراً نقل عنه صبح الأعشى، كما لخّصه المقريزي في كتاب سمّاه: « جني الأزهار من الروض المعطار ».

نجد المؤلف مغرماً في نقل أخبار الفتوح الإسلامية، عندما يتحدث عن الموقع. وقد صنّف ورتّب المواقع حسب الحروف الهجائية، فجاء الكتاب متّصلاً، دونما ذكر

لباب أو فصل، سوى أنه في بداية الحرف، يذكر الحرف كأن يقول: حرف الجيم، أو حرف الألف... الخ، ثم يذكر المواقع التي تبدأ بالجيم أو الألف.

وقد بيّن المؤلف في مقدمته لكتابه أنه: « أراد أن يضع معجماً جغرافياً مرتباً على حروف المعجم ليسهل على الطالب كشف اسم الموضع الذي يريده » (ص م) من مقدمة المحقق. وقد اعتمد المواقع المشهورة، أو تلك التي اتصلت بقصة أو حكمة أو خبر طريف أو معنى مستملح مستغرب.

ويؤخذ على الحميري أنه يورد المادة المنقولة من مصادر جغرافية مختلفة، دون سبكه لها بأسلوبه الخاص، فهو تارة يذكر مصدره، وتارة يتجاهله. هذا ناهيك عن أنه يكرر المعلومات الواحدة في مادتين مختلفتين أحياناً.

ومع هذا، فإننا لا نستطيع أن نقلل من قدر هذا الجهد العظيم. وقد أخذنا منه ما يتعلق بالمواقع الأردنية، وما ارتبط بها من أهم الأحداث التاريخية.

مداخلات كتب اخرى

وفي نهاية المطاف، نسأل الله أن نؤجر على اجتهادنا، وأن نكون أصبنا الهدف، وحققنا الغاية، وحصلنا على الأجر والثواب إن شاء الله. وإذا كنت سعيداً بمعرفة هذه المعلومات، فإنني أكثر سعادة في أن أضعها بين يدي أبناء بلدي الأردن والباحثين والدارسين من أبناء البشرية، لعلهم يعرفون كم عمق التاريخ في هذا البلد، وكم عمق هذا البلد في التاريخ، وأنهما توأمان لا ينفصلان.

وقد صدر حديثاً في الأردن:

في مطلع القرن الحادي والعشرين عام 2002 عن وزارة الثقافة كتاب بعنوان: الأردن في موروث الجغرافيين والرحّالة العرب تأليف عبدالمهدي عيد

الرواضية. ويقع الكتاب في 403 صفحة، وبه ملاحق توصل مجمل الكتاب إلى 500 صفحة، أي أن الملاحق حوالي مائة صفحة تقريباً. وقد جاء التعريف في الكتاب على الصفحة الأخيرة الخارجية للغلاف الخارجي كما يلي: « هذا الكتاب يمثّل مسحاً شاملاً لما دوّنه الجغرافيون والرحالة العرب والمسلمون عن المواضع الأردنية من مدن وقرى وأودية وجبال، منذ منتصف القرن الثالث الهجري، حتى مطلع القرن الرابع عشر الهجري ».

ولاشك أن المؤلف بذل جهداً مشكوراً، ونسأل الله أن يكون مأجوراً عليه عند الله سبحانه، في تجميع المواد، ورتّبها متابعة حسب الحروف الهجائية، دونما توقف أو تبويب أو شرح أو تحليل أو تعليل أو تمحيص. وبالتالي فإن تضمين أية مادة من هذا الكتاب للباحث، لابد ويعود فيها للمصدر الذي أخذ منه المؤلف، لتكون هناك فسحة في التصرف والتحليل. وعلى أية حال، فهو جهد مشكور يساعد الباحثين لمزيد من التفاصيل في المستقبل. فالمبدأ عندنا أن يتم التأليف عن الأردن، بغض النظر عن النقص الحاصل، لأن وجود شيء من مؤلفات ناقصة يمكن إتمامها فيما بعد، خير من عدم وجود أي شيء أصلاً، وأنا مع مزيد من الكتابة عن الأردن في سائر الحقول بغض النظر عن الموضوع، طالما أنها كتابة موضوعية لمصلحة الأردن وأهله والانتماء إليه.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 286].

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [يونس: 10].

* * *

الباب الثاني

مقدمة تاريخية وجغرافية

-1-

نصوص تاريخية

« ... وفي سيرة ابن إسحاق أن أبا جهل قال للذين بيّتوا رسول الله ﷺ ، للفتك به وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن بايعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم نار تُحرَقوا فيها؛ وخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم» وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم» – (سيرة ابن هشام 483:1 ؛ الحميري ص 21).

وورد عند البكري (ق 5 هـ) ما يلي: « ومن حديث مكحول: « أن جزيرة العرب لما افتُتحت، قال رجل عند ذلك: أبهوا الخيل والسلاح، فقد وضعت الحرب أوزارها. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فردّ قوله عليه، وقال: لا تزالون تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقاياكم الدجّال ببطن الأردن، أنتم من غربيّه والدجّال من شرقيّه ». قال الراوي: ما كنت أدري أين الأردن، حتى سمعته من رسول الله ﷺ » (البكري ج 1 ص 137/ 138 ؛ لحميري ص 21).

وقد رأينا أن نبدأ حديثنا بهاتين القصتين من تاريخنا الإسلامي، وبأحداث متعلق برسول الله ﷺ ؛ لأن ذلك يعني الكثير.

ويقول البكري في كتابه: معجم ما استُعجم ج 4 ص 1201: «ومدين: منازل جذام. والصحيح في نسبه أنه جُذام بن عبد بن الحارث بن مُرَّة بن أدد بن زيد بن

عمر بن عريب بن زيد بن كهلان. وشعيب النبي ﷺ المبعوث إلى أهل مدين أحد بني وائل من جذام. وقال النبي ﷺ لوفد جذام: مرحباً بقوم شعيب، وأصهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوّج فيكم المسيح ويُوْلَدُ له» (ج4 ص 1201).

أما ما وصلت إليه أيدينا من ذكر الأردن قبل الإسلام، فجاء فيما كتبه أول رحّالة غربي زار بلاد الشام عقب الفتح الإسلامي، حيث زار المنطقة حوالي عام 670 م/ 50 هـ، واسمه أركولفس **Arculfus** . كان أركولف أحد رجال الدين المسيحي في بلاد غالة بفرنسا، وقد أتيحت له فرصة زيارة بلاد الشام فيما بين كانون الثاني إلى أيلول من عام 670 م، حيث رافقه في جولته هذه أحد رجال الدين النصارى آنذاك.

تناول أركولف في حديثه: « نهر الأردن، ومكان تعميد السيد المسيح، ومناسيب مياه النهر في أيام الفيضان، وأيام الجفاف، وعذوبة مياه النهر (نهر الأردن)؛ وأوضح أن تسمية النهر باسم الأردن - إنما يرجع إلى أنه ينبع من نهر جور Jor (بانياس)، ونهر دان Dan، وأن اتحاد الاسمين معاً يكوّن كلمة واحدة هي: Jordan ، أي الأردن. وقد تتبّع الباحث أصل هذه التسمية فوجد أن أول (حسبما وصل هو إليه) من استعمل هذا التفسير بوضوح لاسم النهر هو الرحالة اليوناني يوخيريوس Eucherius الذي زار بلاد الشام حوالي عام 440 م، وأن هذا المفهوم ظل سارياً في كتب رحالة العصور الوسطى ومؤرخيها ومؤرخي الحروب الصليبية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي » (مجلة هنا لندن، عدد رقم 447 الصادر في ك2 1986، ص 7)[1].

---

(1) إن أول من استخدم اسم الأردن بشكله الصريح الواضح هو ما ورد في التوراة: سفر العدد، وسفر التثنية، كما سنرى عند الحديث عن الأردن في التوراة، وبذلك نجد أن هذا الرحالة استخدم الاسم مستمداً أصلاً من مصادر تاريخية قديمة ومنها التوراة.

وبالإضافة إلى ما ورد في التوراة والإنجيل كما سيأتي؛ فإن هذه المقتبسات، هي من أقدم ما وصلت إليه أيدينا عن ذكر كلمة الأردن، بعد ميلاد السيد المسيح ﷺ، والإشارة ولو بصورة عامة غير واضحة، إلى موقعها الجغرافي. وإذا ما نظرنا إلى الأسماء القديمة التي كانت تطلق على المواقع الأردنية المتفرقة، وجدناها كسائر الأقطار الأخرى تحمل أسماءً محلية. قد تختلف أو تأتلف مع التسمية العامة، أو الحالية.

وليس هذا بغريب، فالعراق كانت تسمى: بلاد ما بين النهرين، وأرض الرافدين، وبلاد السواد. وأرض الفراتين، وأرض الفرات؛ وسوريا كانت تسمى سلوقية؛ وكانت ولا تزال تسمى: الشام، وكانت لبنان تسمى: بلاد فينيقية، والساحل الفينيقي وهو الاسم الذي كان يطلق على صور؛ وأيضاً على ساحل تونس التي كانت تسمى أيضاً قرطاج، ثم سميت تونس الخضراء، والآن: تونس، وكان اسم الساحل الفنيقي يطلق أيضاً على بعض المواقع الساحلية التي فيها مراكز للفينيقيين على البحر المتوسط؛ وأما فلسطين فكانت تدعى بلاد كنعان، ثم أطلق اسم فلسطين على منطقة عسقلان، ثم امتد ليشمل جزءاً كبيراً من فلسطين التي لم تتبلور بصورتها الحالية إلا في نهاية العصر التركي. وكذلك القدس كانت تسمى أورسالم، ثم أورشاليم، ثم أورشليم، ثم إيلياء، ثم بيت المقدس، ثم جزءاً من فلسطين وتسمى: القدس الشريف، ومسرى النبي المصطفى ﷺ ، وهي الآن جزء من فلسطين وعاصمتها.

ومن هنا نجد أن الأرض بقيت الأرض، وأن التسميات تباينت أحياناً من زمن إلى آخر، ومن مفاهيم إلى أخرى، ومن أنظمة حكم (أو كيانات سياسية) إلى أخرى. فالجزء الأكبر من الجزيرة العربية تدعى الآن: المملكة العربية السعودية، وهي تضم بلاد الحجاز، وبلاد نجد، وبلاد عسير، وبلاد الإحساء

والربع الخالي، وبلاد الجوف كما أن أرض الإمارات العربية كانت تسمى: ساحل عمان، وكان البحر الأحمر يسمى: بحر القلزم، ويسمى رأسه (خليج العقبة): مجمع البحرين، أما البحر المتوسط فكان يسمى: البحر الفنيقي ثم الرومي أو الشامي. وكان الخليج العربي يسمى: بحر فارس، وخليج فارس. وكانت اليمن تدعى: الجنوب العربي، وبلاد العرب السعيدة، ثم اليمن السعيد، وسبأ، وحمير، ومعين ثم اليمن. وكانت العقبة تسمى: حاضرة البحر، ثم إيلة أو ويلة، ثم العقبة وكانت إيلات تسمى: كفار عصيون ثم المرشرش ثم إيلات.

ونخلص من هذا كله، إلى أن التسميات قد تختلف أو تتغير مع الزمن والظروف والدول أو تتحدد أو تتقلص؛، إلا أن التعامل يجب أن يكون مع ما ينفع الناس، وليس مع الزبد الذي يذهب جفاءً. فما قامت من حضارات على هذه الأرض أو تلك، ودول تباينت وسادت ثم بادت، تعتبر في حقيقة الأمر جزءاً من تاريخ هذه الأرض، وجذوراً لإنسانها الذي يعيش فوقها إذا كان منها، وبالتالي فإن له أن يعتز بها إذا كانت طيبة، وله الحق أن يدّعي استمراريته لها، لأنه يعيش فوق الأرض نفسها، وسط بيئة طبيعية هي تلك التي كانت تكتنف من سبقه رغم تباينها مع الأجيال والقرون. كما أنه لابد وأن البيئة قد أوحت وألهمت الشعوب والأجيال التي عاشت بها أفكاراً وثقافات مماثلة أصبحت مشتركة رغم تباين الأجيال، لأن البيئة الواحدة تخلق الثقافة المتقاربة رغم تعاقب الشعوب أو الأجيال أو تباين المواقع الجغرافية.

-2-

التسميات المتعددة

وإذا عدنا إلى الأردن، وهو مناط اهتمامنا، فنجد أن أرضه قد سميت بتسميات متعددة، مثله بذلك مثل البلدان المجاورة التي تحدثنا عنها أعلاه؛ فقد

نشأت على أرض الأردن، قبل الإسلام، عدة ممالك؛ كان من أهمّها مملكة الأنباط العربية الأردنية، التي كانت تسيطر على الأردن الحالي كله، مضافاً إليه بعض المناطق الأخرى في فلسطين وسوريا، وشمال الجزيرة العربية وسيناء. وقد صمدت هذه المملكة بوجه الرومان طويلاً، رغم أنها سقطت في النهاية على أيديهم وأصبحت تابعة إدارياً لهم.

وأما سائر مناطق الأردن فقد قامت عليها عدة ممالك قبل الأنباط، هي: بدءاً بالجنوب: أدوم وكانت عاصمتها بصيرا / لواء الطفيلة وشعبها الأدوميون العرب وهم أردنيون، ومملكة مؤاب وكانت عاصمتها ربة مؤاب أو قير حارسة أي الكرك تارة، وربة مؤاب (الربة / محافظة الكرك قرب جبل شيحان) تارةً أخرى، وذيبان طوراً آخر؛ وكان شعبها هم المؤابيون الأردنيون العرب أيضاً.

أما ممالك الأموريين الأردنيين، وهي ممالك أردنية، فهي: حشبون ومركزها حسبان، وجلعاد؛ وعاصمتها وادي اليابس؛ ثم مملكة العمونيين وكان مركزها: ربة عمون، التي سُميت فيما بعد فيلادلفيا، ثم أعيد إليها اسمها مع قليل من التحريف، لتسمى عمان، وهو الاسم الذي لا يزال يُطلق عليها حتى الآن، وهي عاصمة الأردن؛ ومملكة باشان وكان مركزها الرمثا ودرعا (أذرعات/ أدرعي). وكل هذه كانت ممالك أردنية آمورية عربية متآلفة ضد أي خطر خارجي، وإن اختلفت داخلياً.

لابد من القول هناك: أن الكنعانيين العرب هاجروا إلى الساحل الكنعاني وسيطروا على فلسطين التي سميت بلاد كنعان، كما استقر الفينيقيون على الساحل اللبناني وامتدوا إلى قرطاج (تونس) ومن أشهر قادتهم هاني بَعْل (هنيبال). أما في الأردن فقد استقرت القبائل العربية وهي الأمورية التي شكلت الممالك المذكورة: أدوم، مؤاب، حشبون، عمون، جلعاد، باشان.

وإذا كانت الممالك المتعددة فوق أرض أخرى واحدة قد تتقاتل معاً، فإن ما يميز ممالك الأردن الأمورية العربية الأردنية الأربعة المذكورة، أنها شكلت حلفاً متآزراً ومتآخياً ضد الأعداء من خارج بلاد الأردن، وتم تدوين ذلك في التوراة عندما تحالفوا ضد العبرانيين الذين حاولوا المرور عبر الأردن، وكان مفهوم هذه الممالك في التوافق والامتداد يتطابق تماماً مع أرض الأردن الحالية. وقد جاءت التوراة بالتفصيل على محاولات عبور بني إسرائيل من خلال الأردن، وما حدث لهم من رفض أردني ومقاومة أردنية، من سائر الممالك الأردنية. كما ذكرت التوراة اسم الأردن بفصيح الكلمة والعبارة.

أما مؤاب فبقي اسمها كما كان ويُطلق على جبال منطقة الكرك، وأصبح حصن اللبن يسمي قير حارسة (اسمها القديم) ثم سمّيت: الكرك؛ وربة مؤاب: سميت الربّة؛ وعَرَنْدَل: سميت غرندل (من محافظة الطفيلة قرب بصيرا)؛ وبصرى سُمّيت: بصيرة / بصيرا؛ وكرك الشوبك: الكرك؛ وإيلة: العقبة؛ وويلة إيلات؛ والجفار: الجفر؛ وطُفَيْل: الطفيلة؛ والصلت: أو سالتيوس: السلط؛ وأرنون: الموجب؛ وجدارا: أم قيس؛ وبيت راس: بيت أراس؛ وجراشا: جرش؛ وجبال عوف: عجلون؛ وأربيلا أصبحت أرْبد ثم تسمى الآن إرْبد، ودرعا كانت ذرعات، وأذرعات، وأدرعي؛ والحولة كانت تسمى قَدَس، وقديشيوش، ومعان: مُعان، وعَمّان: عمّون، وأيضاً ربّة عمون، وأما ديبون فهي الآن ذيبان، وحشبون صارت حسبان، وأبل الزيت أصبحت عابل (جنوب الطفيلة).

ونخلص إلى القول، أن تغيير التسميات لا يغيّر من الحقيقة الهامة شيئاً، وهي أن الأرض الأردنية كانت وحدة واحدة من المناحي: الطبيعية، والاجتماعية، والسياسية، وبالتالي التاريخية والثقافية والكيان الوطني رغم تعدد وتغيّر الكيانات السياسية. فالممالك الخمسة التي قامت على أرض الأردن،

كانت أمورية عربية كلها، وكانت تتآزر وتتحد أمام أي خطر خارجي قد يلوح في الأفق أو يقرع الأبواب لأيّ منها أو كلّها. ولم يكن ذلك ليتم لولا التعلّق بهذه الأرض وحبّها، والحاجة الملحة للأمن والطمأنينة. بل إن ذلك لمؤشر على أنهم كانوا ينظرون إلى الأردن بوجه عام أنه وطنهم القومي وكيانهم الوطني، وإن مملكة كل واحد فيهم ليست إلا موقعه الإقليمي أو الوطني الذي هو جزء من الإقليم الأكبر – الأردن؛ وذلك واضح من الأحداث التاريخية.

-3-

عند ظهور الدعوة الإسلامية

وكانت الأردن طريق قوافل التجارة قبل الإسلام، وزمن قريش، حتى إذا ما ظهرت الدعوة الإسلامية، أسلم عامل الروم على معان وجنوب الأردن، وهو أبو فروة ابن عمرو بن النافرة الجذامي[1]، وبعث بذلك إلى الرسول ﷺ ، وأهدى إلى الرسول بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم ذلك، طلبوه فحبسوه ثم قتلوه وصلبوه في أرض عفرى – محافظة الطفيلة، فقال بيته المشهور:

بَلِّغ سراة المسلمين بأنني   سَلمٌ لربّي أعظُمي ومُقَامي

ويعث الرسول ﷺ بسرية إلى مؤتة حيث وقعت المعركة المشهورة بين المسلمين والروم ومن يؤازرهم من العرب، واستشهد فيها زيد بن حارثة الكلبي (من بني كلب) الأردني وهو من منطقة حسما والديسة ومعان، وجعفر بن أبي طالب ابن

(1) أبو فروة بن عمرو الجذامي من قبيلة جذام وهم من قوم شعيب، ومن أقدم قبائل الأردن، وإليهم ينتمي من عشائر الأردن الحالية، كل من: بنو عباد، وبنو صخر، وبنو حميدة، وبنو عقبة، والدعجة، وبنو عجرمة (العجارمة) وقد فصّلنا ذلك في كتابنا: العشائر الأردنية (2005) منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، وكتابنا باللغة الإنجليزية Political History of The Jordanian Tribes-up to 2006.

عمّ رسول الله ﷺ والشقيق الأكبر لسيدنا علي بن أبي طالب ؓ ؛ وعبدالله بن أبي رواحة، حيث لا زالت أضرحتهم فوق أرض الأردن ظاهرة إلى الآن.

وعندما شرعت الفتوحات الإسلامية، كانت نقطة الاستراحة عند الانتهاء من فيافي جزيرة العرب؛ ثم الانطلاق إلى فتح بلاد الشام، أقول كانت تلك النقطة تقع في جنوب الأردن وهي سَرْغ (المدوّرة الحالية)، ومن هناك ذهب عمرو بن العاص لفتح فلسطين، بينما عملت بقية الجيوش على فتح الأردن وبقية بلاد الشام.

وعندما جاء عمر بن الخطاب لزيارة الشام وقت تفشّي الطاعون، التقى بأمراء الجيش في منطقة سَرْغ المذكورة، وهي المدوّرة الحالية، حيث كانت أرضاً ذات ماء ونخيل وبساتين.

وفي الوقت الذي اختلف فيه سيدنا علي ؓ، ومعاوية على منصب الخلافة، فقد اتفقا على التحكيم الذي اختاروا أن يكون موقعه في أذرح بجنوب الأردن (محافظة معان الآن). حيث انتهى إلى مزيد من الشقاق والنزاع في صفوف المسلمين، إلى يوم الدين للأسف الشديد.

وكان لأهل الأردن دور في معركة صفين، حيث حاربوا إلى جانب جند الشام، أي مع معاوية. ويذكر خليفة بن خياط (ت: 240 هـ) في تاريخه ما يلي: «وكان على رجالة أهل الأردن عبدالرحمن القيسي (...) وعلى قضاعة الأردن حبيش بن دلجة (...) وعلى مذحج الأردن مخارق بن الحارث الزبيدي (...) وعلى همدان الأردن حمزة بن الأردن، وعلى غسّان الأردن يزيد بن أبي النمس»[1] (ص 195/196). وفي أذرح بايع الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان،

(1) يعتبر ابن خياط (ق 3 هـ) من أقدم المؤرخين حيث توفي عام 240هـ أي في القرن الثالث للهجرة، ونجده يذكر هنا اسم العشيرة مقترناً بالأردن كدليل أن اسم الأردن وحدوده الإقليمية =

وأعطاه معاوية مئة ألف دينار. كما أن علي بن عبدالله بن عباس انتقل من الشام إلى أذرح، ثم ذهب إلى الحميمة، حيث اتخذها مقراً له ورَحِماً لدعوته العباسية.

ونستشف مما قرأنا من الكتب التي استخدمناها في هذا البحث أن الأردن كانت آهِلَةً بالسكان من القبائل العربية الأردنية المتجذرة، قبيل وبعد الفتوح الإسلامية، وفي زمن الأمويين، وأنها كانت تُنسب إلى الأردن عند ذكرها من قِبَل المؤرخين الأوائل، كما قرأنا ما قاله ابن خياط قبل قليل. ومن هذه القبائل مثلاً:

1- جذام: الذين لا زال لهم استمرار ووجود وأحفاد بالأردن إلى الآن، ومنهم عشائر بني صخر والعجارمة، وعشائر المهداوية، وعباد، وبني عقبة (العمرو) وعشائر أخرى كثيرة (انظر كتابنا عن عشائر الأردن / الدار الأهلية 2005).

2- غسان: الذين لا زال يوجد من أحفادهم منهم مسلمون مثل غساسنة الكرك؛ ومنهم نصارى مثل: العزيزات والحدادين والحجازين، ونصارى السلط والفحيص وغيرهم... وكان في الأردن أناس من قضاعة، وبني سليح، ومذحج، وهمدان، وقيس، ولخم، والزيبونديه (وكانوا بالغور)، وأراشة وهم من قضاعة (منهم البرارشة من عشائر الكرك المعروفة)، وبلي وغطفان، وبني أمية، وعباد، وبني عاملة وسليح وبني كلب، ومنهم من عشائر الأردن حالياً (مطلع القرن الحادي والعشرين): السرحان، العزام، العوازم، الكلوب، الشرارات.. الخ. ويذكر الهمداني (ص129) أن عشائر الأردن هي: لخم وجذام وعاملة وذبيان (مع ما لها من تفرعات عديدة مديدة).

= العامة وكيانه الوطني كانت كلها واضحة لدى أهل ذلك العصر، وباسم الأردن كموقع جغرافي وهوية اجتماعية وعسكرية وسياسية، بحيث نجد أن أهل الأردن لم يكونوا مجرد سكاناً يستوطنون فترة ويغادرون وإنما أهل مستقرون متجذرون، بل متجذرون فيه منذ أمد بعيد، فهم أهل وليسوا سكاناً أو مقيمين.

وعندما تزعزع ملك بني أمية بعد موت معاوية بن سفيان وخَلَفَهُ من بعده يزيد بن معاوية من زوجته ميسون الكلبية الأردنية وقف أهل الأردن إلى جانب مروان بن الحكم الأموي، حيث هزم بهم الزبيرية (أتباع عبدالله بن الزبير)، وقتل الضحاك بن قيس الفهري في يوم مرج راهط، وقد أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:

لولا الإله وأهل الأردن اقْتُسمت: نار الجماعة، يوم المرج نيراناً.

كما يقول كُثيّر حول ذلك:

إذا قيل: خيل الله يوماً ألا اركبي رضيت، بكف الأردنيّ، انسحالَها

-4-

في العهدين الأموي والعباسي

وفي الأردن نشأت دعوة العباسيين، وبالذات في الحميمة، التي أقطعها عبدالملك بن مروان لعلي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهم، وسكن فيها. كما استتر فيها إبراهيم بن محمد الإمام مدة حكم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. وفي الحميمة الأردنية وُلد وتربّى الخلفاء الأوائل من بني العباس وهم عبدالله السفاح وأبو جعفر المنصور والمهدي، ووُلد ابنه الهادي سنة تسع وستين ومائة، وهم جميعاً من خلفاء بني العباس[1].

(1) رغم أن هؤلاء الخلفاء العباسيين الثلاثة وُلدوا وتربّوا وترعرعوا وكبروا في الأردن، إلا أنهم أهملوا الأردن عندما وصلوا سُدّة الحكم في العراق حيث أمروا بقطع أشجار الأردن ونخيله، خشية ظهور دعوة مناوئة لهم شبيهة بدعوتهم المناوئة لبني أمية، كما أن أهل الأردن كانوا دائماً في صف بني أمية ضد علي بن أبي طالب والعباسيين، فدفعوا الثمن زمن العباسيين، ولا زال الأردن يتعثر إلى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) من جور العباسيين وَمَنْ تعاقب عليه من دول الاحتلال. عجّل الله للأردن بالفرج، آمين.

وعندما افتتح المسلمون بلاد الشام قسّموها أجناداً، فأصبحت الأردن جنداً مستقلاً عاصمته طبرية، ويتألف من عِدّة كُوَر/ مفردها كَوْرة وهي: الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك، وبيسان، وبيت راس، وجدر، وصفورية، وجرش، وقدس، والجولان، وكورة مؤاب، وكورة جبال (الطفيلة)، وكورة الشراة.

وقد أعطى الأمويون أهمية كبيرة للأردن. فمن رجالات الأردن الذين ثَبَّتوا ووسَّعوا حكم بني أمية: موسى بن نصير والي شمال إفريقيا، والمهندس المشرف على فتح الأندلس، ومنها روح بن زنباع الجذامي الذي كان وزير أكثر من خليفة أموي لشؤون الشرطة. وفي رأينا أن اهتمام الأمويين بالأردن إنما يعود إلى الأسباب التالية:

1- أنها قريبة من عاصمة الخلافة – دمشق، وحليف ورديف وعمق لها باتجاه جزيرة العرب ومصر وفلسطين وأرض الرافدين.

2- موقفهم ضد علي وانحيازهم إلى جانب معاوية، علانية وبالقول والفعل وخوضهم المعارك ضمن هذه القناعات والمواقف.

3- موقفهم ضد الزبيرية، ومؤازرة مروان بن الحكم لاستعادة مُلك بني أمية في دمشق، عندما أصبح قاب قوسين أو أدنى من الاندحار والانهيار.

4- وجود العشائر الموالية للأمويين، الأمر الذي جعل خلفاء وأمراء بني أمية يجدون الراحة والطمأنينة في ربوع الأردن وبين ظهراني هذه العشائر، وتوثيق الصلات بين الطرفين، فكان قصر هشام بأريحا، والقصور الصحراوية في الموقر، والبلقاء، والصحراء، والمشتى، وعمرة، والحلابات، والحرّانة. فقد كان هؤلاء الخلفاء والأمراء الأمويين وعائلاتهم يجدون الأمن والطمأنينة بين ظهراني سكان موالين صادقين لا يغدرون، ولا يخفرون الذمّة. ويبدو أن هذه الصفات الحميدة ذات علاقة بالأرض وطبيعتها فضلاً عن أصالة الإنسان

الأردني، وأنها استمرت مع الأردنيين عبر الأجيال والتاريخ إلى الآن، وإلى الأبد إن شاء الله[1].

5- العلاقة التاريخية بين الأردن وأهله من جهة وبني أمية من جهة أخرى منذ زمن الإيلاف قبل الإسلام، حيث كان ممراً ومستقراً لقوافلهم التجارية، وحيث اتخذوا فيه ضياعاً (مفردها ضيعة) وبساتين ومراكز تجارية. وتوطدت علاقاتهم مع القبائل الأردنية، إلى درجة أن معاوية تزوّج أردنية من بني كلب وهي ميسون بنت حسّان بن بجدل الكلبي، وكان والدها من أهالي واحة الأزرق الأردنية.

وأما زمن العباسيين، فإن الأردن لم يلق منهم الاهتمام الكافي، بل لقي الإهمال والأذى والاضطهاد لأهله، وقطع أشجاره؛ رغم أنه كان مركز دعوتهم، والفأل الحسن على نجاحهم. وإذا كانت الحركات العلنية ضد الأمويين قد لقيت القمع والرفض من قبل الأردنيين، فإن حركة العباسيين قد فهمت الدرس واستفادت من التجربة، فكانت سرية للغاية، في أرض تبدو منطقة نائية من أراضي الأردن، وهي الحميمة. وفي رأينا أن هناك عدداً من الأسباب تكمن وراء عدم العناية بالأردن زمن العباسيين.

1- لأن طبيعة الإدارة العباسية كانت تتصف بالمركزية، وذلك بعكس النهج اللامركزي الذي اتخذه الأمويون من قبل. وقد أدى هذا إلى أنه لم تكن توجد عند العباسيين ولاية، مثلما هي بالمفهوم الأموي؛ فضلاً عن الحقد العباسي على أهل الأردن وأهل الشام، لذا عملوا فيهم تقتيلاً ومذابح جماعية هذا إن صدقت المصادر التاريخية.

---

(1) لقد شرحت مطوّلاً عن أسباب اتخاذ الأردن منتجعاً للخلفاء، وأمراء وقادة بني أمية، وذلك في كتابي باللغة الإنجليزية Plitical History of the Jordanian Tribes up to 2006 .

2- اعتماد العباسيين على العناصر غير العربية، وكان الأردن ومكوّناته الاجتماعية والسياسية عناصر عربية نقيّة خالصة، أرضاً وشعباً، حيث لم يصمد الغرباء فيه وبالتالي حافظ على أصالته العربية الإسلامية، وهرب منه الروم مع دولتهم، وعاد العرب المتفرنجون إلى عروبتهم، وسلخوا ثوب بيزنطة،ولبسوا الثوب العربي الإسلامي الذي هو جلدتهم وهويتهم.

3- بُعد الأردن عن مركز الخلافة وتغيير الموازين السياسية والسكانية والعسكرية والاقتصادية، حيث أصبح العراق وبلاد الشرق هي الممول الرئيس لخزينة الدولة.

4- مواقف الأردنيين المؤازرة للأمويين، حتى أن الأمويين الهاربين من دمشق لم يجدوا مكاناً يلجاون إليه إلا الأردن، إذ اتخذوا من معان مقرّاً لهم ولمواليهم، ذلك أنها على حافة الصحراء وبالإمكان الاختفاء بين ثنايا البيداء، أو عرانين الجبال. ومن الملفت للنظر أن مروان بن محمد الجعدي لجأ إلى معان (جنوب الأردن) ثم فرّ إلى مصر، ويبدو أنه بقي من بني أمية أو من أولاده أو أتباعه أو من مواليه، لا أدري، بقية لا تزال تسمى: الجعديين وهم الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) من عشائر الشوبك القريبة من معان.

5- الخشية من أية تقوية اجتماعية أو حضارية للأردن، قد تفرز قيادة إسلامية جديدة تطوّح بالخلافة العباسية، كما طوّحت هذه بالأمويّة؛ وكما حدث عند مؤازرة معاوية، ومروان، واحتضان الأردن لمخططي ومفكري الدعوة العباسية نفسها. وقد أدت الأحداث إلى بلورة هذا الرأي عند العباسيين.

فعلى سبيل المثال: خرج سعيد بن خالد بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الأموي العثماني الفديني (من الفدين – المفرق)، خرج أيام المأمون وادعى الخلافة، وأغار على ضيع القيسية يقتلهم

ويتعصّب لأهل اليمن. فوجه إليه الخليفة جيشاً بقيادة يحيى بن صالح، فلما كان على مقربة من حصن العثماني (في الفدين وهي المفرق الآن) هرب العثماني، فقام يحيى بتخريب الحصن وهدمه، ثم هرب العثماني إلى زيزياء فلحقه يحيى وخرّبها، ثم هرب إلى ماسوح وهي قرية إلى الشرق من حسبان وكانت من قرى العجارمة ثم إلى مأدبا حتى قضى عليه وعلى أتباعه[1].

كان الأردن يغطي مساحة واسعة ذات ساحلين: على المتوسط والأحمر. فإذا بدأنا من الغرب، وجدنا ثغرين للأردن هما صور وعكا، وكانتا مزدهرتين في الفترة الإسلامية، ومركزاً للصناعات، والاستيراد والتصدير، وأصبحت ممالك زمن الصليبيين.

ثم إذا ما تحركنا نحو الغرب نجد الأردن يضم صفد والحولة وطبرية (التي كانت عاصمة الأردن)، وبيسان، وضفتي النهر، والجولان. وإذا ما سرنا مع النهر وجدنا كما يقول الحميري (ق 9 هـ): أن كل ما على جنبيه أردني. إذ أن حد الأردن من فلسطين كان يقع غربي أريحا. وكانت الأراضي الأردنية تشمل الغور بضفتيه، والبحر الميت، ثم المنتصف الشرقي لوادي عربة ثم العقبة، وحسما، وشمال مدين، وسَرْغ (المدورة)، ومعان وأذرح والجرباء، ووادي موسى، والطفيلة، والكرك، ومؤاب، ووادي الموجب، وذيبان، وحسبان، والموقر

(1) تحولت الفدين إلى بقايا أطلال حصن قديم، وقد أصبح هذا الطَّلَلْ (الآن مطلع القرن الحادي والعشرين) ضمن مدينة المفرق التي أصبحت مدينة واسعة الآن (2006)، أما زيزياء فلا زالت بلدة صغيرة، مشهورة ببركتها النبطية القديمة الواسعة التي إذا امتلأت لا تجف من الماء لأكثر من سنة، وتم إنشاء مطار دولي بالقرب منها. أما ماسوح فهي أطلال بلدة كانت عامرة، وكان فيها دير، وهي اليوم خاوية على عروشها إلى الشرق من حسبان، وهي على السرير الشمالي للوادي. وقد زارها المؤلف بنفسه في نهاية الثمانينات من القرن العشرين.

وزيزياء، وعمان، والمفرق، ووادي السرحان، وجرش، وإربد، وأم قيس، ودرعا، وبيت راس، والحمة، واليرموك[1].

وفي عام 1921، أصبحت الأردن تشتمل على شرق الأردن فقط، وانسلخ عنها وادي السرحان، ودرعا، والجولان، وطبرية والحولة، وغربي النهر. وفي عام 1950، ألحقت إليها الضفة الغربية من نهر الأردن، والتي تشتمل على أرض أردنية وفلسطينية، وأصبحت جزءاً من الأردن إدارياً وسياسياً حيث ضاعت عام 1967 بالاحتلال الإسرائيلي، الذي لا زال إلى الآن (2006).

أما الامتداد السكاني، فكانت بيسان والجفتلك وأريحا مواطن ومراعي لبعض العشائر الأردنية. فقد ذهبت عباد هناك قرابة أربعة عشر عاماً في منتصف القرن التاسع عشر، وعادت إلى البلقاء في حوالي عام 1863، وبقي منها عائلات كوّنت العبادي في نابلس، وفي جنوب لبنان، وبيسان نفسها، ومنهم الآن من يسكن مخيم البقعة والحصن (مخيمات للنازحين)، ومنهم من بقي هناك. وكان للدهام والعكمة من بني صخر أراضي وقنوات في بيسان، وكان العدوان يسيطرون على الجزء الغربي من النهر المقابل للشونة، لأنه جزء من الأردن. وذهب المسعودي (من أهالي غور بيسان) من العمرو إلى المنطقة الأردنية من غربي نهر الأردن؛ فقد ذهبوا من بقعة إلى أخرى داخل ما كان الأردن آنذاك. وكان الكعابنة يسيطرون على أراضي في غربي النهر على أنها جزء من البلقاء التي هم منها.

وسيطر السردية لفترة على منطقة بيسان، وعندما عادوا بقي منهم جزء شكلوا ما يُعرف بعشائر الصقر. واستقر ظاهر العمر وهو من عشائر الزيادنة

---

(1) أصبحت الجوف جزءاً من المملكة العربية السعودية بعد عام 1921 كما أصبحت درعا جزءاً من سوريا بموجب اتفاقية سايكس-بيكو التي أعلن عنها عام 1916.

بجرش، استقر في عكا، واتخذها مقراً له، حيث كانت جزءاً من الأردن، وكانت حركته من جرش إلى عكا إنما هي من موقع إلى آخر داخل الأردن.

وبذلك نجد أن الحقائق التاريخية التي ذكرناها أعلاه تجيب على سؤال هام، كان يتردد كثيراً، وهو: هل يوجد أردن في التاريخ؟ وكان هذا يطرق أسماعنا، حتى أن العديد من أبناء الأردن أنفسهم يستسلمون لكلمة: لا يوجد، وذلك لأنهم لم يطّلعوا على ما ذكرناه وأثبتناه في هذا البحث، ولأن بعض من وصل إلى مواقع القرار السياسي والمُنظِّرون ممن هم على شاكلتهم ينكرون وجود الأردن. ويعتبرونه هِبَة ومِنحَة من سايكس بيكو لهم ولحفنة من أبناء مثلث الغم.

وإزاء هذين الأمرين: الوجود الحقيقي للأردن في التاريخ من كيان وطني وتاريخي وجغرافي وثقافي وعشائري؛ والتساؤل الذي يتجاهل هذا الوجود جهلاً أو علماً، أو التجاهل الخبيث للحقيقة الناصعة، كنت في حيرة من أمري، وكانت قصتي مع هذا البحث. فقد كنت ممن رفض أن يستسلم علمياً للمقولة التي تدّعي أنه: لا يوجد أردن في التاريخ، والألم يعتصرني، لأنه من أصعب الأشياء على الإنسان ألا تكون له أو لوطنه وشعبه وهويته وكيانه جذور ولا تاريخ، أو لا يكون لوطنه وجود، ومن أصعب الأشياء وأثقلها على الوطنيّ أن يجد نفسه يأتي من فراغ ويذهب إلى فراغ ويعيش في فراغ ويموت في فراغ.

-5-

هذا الكتاب - لماذا ؟!

وعندما كنت أحضّر لأطروحة الماجستير في الجغرافيا الإسلامية، بعنوان: الارتباط بين الدراسات التاريخية والجغرافية في تراث المسعودي، عام 1977، وتدريسي لمادة موضوع خاص في الجغرافيا الإسلامية، بالجامعة الأردنية عام 1978، وجدت ضالّتي المنشودة، التي لا تبدد الحيرة فحسب حول هويتي الوطنية

وتاريخ الأردن، بل وتجيب على السؤال والتساؤلات، وتفنّد الافتراءات والنظريات الاحتلالية وتدمغ العقول المتعفنة والنفوس الحاقدة علينا ببرهان معّزز بالوثيقة والحقيقة، وكان هذا الكتاب جواباً على السؤال: هل يوجد أردن في التاريخ؟! والجواب الآن: نعم يوجد، وهذا ما نجده بين أيدينا محصّلة لسنوات طويلة من الجدّ والاجتهاد والمثابرة. ولكنني أتساءل وهذا من حقّي: هل لهؤلاء المحتلين وجود بالتاريخ أصلاً؟ الجواب: لا.

لقد كان أول ما لفت انتباهي ما أورده الحموي عن معنى كلمة الأردن أنها النعاس، وأنها الشدة والغلبة. فرحت إلى كتب اللغة، وإذا هي فعلاً تعني النعاس، وقد ورد في ذلك في أبيات من الشعر العربي الفصيح، منه:

وقـــد علـــتني نعســـةٌ أردنٌ   ومُوهِــبٌ مُـبْرٍ بهــا مُصِــنٌ

ووجدت أن النعاس ارتبط بالأمن والطمأنينة، وذلك من قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ [آل عمران: 154]. فالنعاس يغشى من أصابهم الغم ليفرحوا ويرتاحوا وينسوا الآلام. ولعله يغشى الأردنيين الذين تشرّبوا بالهم والغم، وعانوا من الاضطهاد والاحتلال قروناً طويلة، ويتطلعون إلى الفرج، لعلّه يأتي ذات يوم إن شاء الله تعالى.

وعندما قرأت عدداً من سِيَرِ (مفردها سيردة) خلفاء وأمراء بني أمية بالأردن، فمنهم من وُلد، ومنهم من مات، ومنهم من بويع له بالأردن، ومنهم من اتخذها مركزاً للاستجمام والصيد واللهو، أدركت أن للأمن والطمأنينة ارتباطها بهذه الأرض وأهلها. وزادت قناعتنا عندما وجدنا أن دعوة بني العباس انطلقت من الحميمة بالأردن؛ وأن الطير يأتي إلى الأزرق، وأن موجات بشرية قد جاءت عبر التاريخ تطلب الحماية فوق هذه الأرض.

أما معنى الشدة والغلبة، فقد وجدت أن أهل هذه البلاد أشداء على الأعداء، ومع هذا فهم رحماء بينهم، امتداداً من عهد تحالف ممالك أدوم ومؤاب وحشبون وعمون وباشان، إلى بداية القرن العشرين إلى الآن.

ووجدت أن هناك مفهوماً وطنياً عاماً لسكان هذه المنطقة رغم التباين الجغرافي والعشائري والتاريخي. ففي عام 1918، وعندما انتهى الحكم التركي وتحرر شرق الأردن من الاستعمار التركي الذي استمر 400 سنة، وقامت من تسمى: الحكومة العربية في دمشق ثم انهارت بدخول الفرنسيين إلى دمشق، بقيت الأردن في فراغ سياسي، فكوّنت تلقائياً إدارات محلية (يمكن تسميتها بالكيانات السياسية المحلية) لملء الفراغ السياسي المفاجئ، وضمان استمرار بقاء الأردن والمجتمع الأردني، وكانت هذه الإدارات أو الكيانات السياسية المتعددة المحدودة، تشبه تلك التي كوّنتها الممالك الأردنية في القرن الرابع والخامس عشر قبل الميلاد. ويمكن أن نذكر بالتشبيه جزافاً والمقارنة: دولة معان، عن الأنباط، ودولة الكرك عن مؤاب وأدوم، ودولة البلقاء عن عمون وحشبون، ودولة إربد ودير أبي سعيد عن باشان، وكلها مجتمعة ضمن كيان وطني واحد وهو الكيان الأردني بهويته وثقافته وتاريخه.

وعندما شعرت هذه الإدارات (الكيانات) الحديثة بالخطر الصهيوني، ووعد بلفور طالبت بتوحيد البلاد ضمن حكومة واحدة، أي طالبت بتوحيد الكيان السياسي ليكون مطابقاً للكيان الوطني، وتأسست إدارة في شرق الأردن - أقول شرق الأردن سميت فيما بعد «إمارة» - وقد انسلخ عنها ضفة النهر الغربية حتى غربي أريحا، وبيسان، وطبرية، هذا ناهيك عن عكا وصور، والجوف ووادي السرحان، ودرعا والجولان وحوران. وبذلك أصبح الكيان الوطني هو الذي نصّت عليه معاهدة سايكس-بيكو فقط مقطوعاً منه الأجزاء الأخرى التي أصبحت أجزاء من لبنان وسوريا والسعودية وفلسطين.

وبعد أن اطلعت على هذه المعلومات صمّمت عام 1978 أن أكتب في هذا المجال، خاصة وإنني لم أجد بحثاً مفصلاً بذلك. إلا أن انشغالي في إعداد الدكتوراه بجامعة كمبردج في الأعوام 1980، 1981، 1982 قد حال دون تنفيذ الخطة، وتأليف الكتاب، الذي بقي أفكاراً في رأسي لسنوات طويلة.

وعندما عدت انشغلت في كتب ومسلسلات أخرى، حتى انتهيت يوم 6/ 1/ 1986 من ترجمة كتاب: قصة الجيش العربي، الذي كتبه بالإنجليزية كلوب باشا الذي كان قائداً للجيش العربي من عام 1930، حتى عام 1956.

وفي يوم 8/ 1/ 1986 شرعت في جمع المادة التي كنت أعرف كتبها ومواقعها جيداً، متبعاً المنهج التالي: جمع المادة بالكامل من جميع كتب الجغرافيين والرحالة المتوفرة في مكتبة الجامعة الأردنية باللغة العربية، ووضعها في ملحق (القسم الثاني) بهذا البحث ليتسنى لمن يريد الاطلاع على التفاصيل أن يعود إليها، دونما بحث عن الكتب.

وكان جلّ اهتمامنا في هذا البحث هو التركيز على حدود المواقع وأماكنها وما اشتهرت به، ثم إضافة بعض النتف عما هي عليه الآن.

وعندما أتيح لهذا الكتاب أن يظهر في طبعة ممتازة والحمد لله « وهي التي بين أيدينا الآن » قمنا بإضافة إليه الكثير، ونحن نأمل أن يكون في صورته هذه كافياً إلى حد ما أو يكاد، لتثقيف الإنسان الأردني بوطنه ومواقع وطنه عبر التاريخ، وتنوير غير الأردني بتاريخ بلادنا، وليكون دليلاً للسّاسة والمنظّرين أن لهذا البلد تاريخ وأهل وأنه ليس وليد البارحة ولا جاء من المجهول ولا من فراغ. ونسأل الله سبحانه أن يصل هذا الكتاب إلى المستوى الذي يساهم في سدّ جزء من الثغرة في هذا الباب.

وهناك خلط في كتب التاريخ الإسلامي القديمة حول البلقاء، حيث تحدثوا عنها، وكأنها منفصلة عن الأردن، لتشمل شرق الأردن الحالي مع أجزاء أخرى تصل إلى تبوك، وتشمل الجوف، وحوران، وهضبة الجولان. لذا فإن الحديث عن البلقاء في كتب التاريخ يعني الأردن، ولكن البلقاء: عنوان هو أكبر العناوين بعد الأردن في هذا المجال.

أما الملحق فقد رتِّبت فيه المعلومات حسب مواضع حديثنا عنها. وقد تركت المعلومات مثلما ذكرها المؤلفون، مع الإشارة إلى اسم المؤلف والجزء والصفحة، حيث يمكن للقارئ أن يعود إلى قائمة المراجع المدوّنة ضمن اسم المؤلف، واسم الكتاب.

وهناك نواقص كثيرة في البحث، مثل الحديث عن العلماء المذكورين في المقتطفات والاقتباسات. وأيضاً التحقق من بعض المواقع، والحديث عنها، خاصة تلك التي تقع خارج الأردن الآن، فضلاً عن التي في الأردن، وقد تغيّرت اسماؤها أو اندثرت رسومها وأيضاً عمل دراسة للمكاييل والموازين من خلال هذه الكتب، ونأمل أن يتم سدّ هذا النقص يوماً ما.

وفي رأينا أن أهم النواقص في مصادر بحثنا هذا، افتقار المادة الأصلية في هذه المصادر إلى دراسة أو معلومات تفصيلية تاريخية جادة عن العشائر الأردنية التي كانت فوق هذه الأرض عبر التاريخ، وقد أشرنا إلى ذلك إشارات خفيفة. وقد حاولت تغطية هذا النقص في كتابي المفصل من تأليفي بعنوان: التاريخ السياسي للعشائر الأردنية وهو باللغتين الإنجليزية والعربية معاً، وكتابي عن العشائر الأردنية – منشورات الدار الأهلية، 2005. ومع هذا تبقى المصادر القديمة تذكر العناوين ولا تخوض بالتفاصيل التي نحتاجها أو نتمنّاها نحن الآن.

أما ردّي على هذه الهنات، فهو أننا كرسنا اهتمامنا لموضوع التحديد الجغرافي، والصفات المكانية، والمنتجات، والهوية الجغرافية، والهوية التاريخية، وأما ما بقي فإنها مهمة عسيرة يمكن لغيرنا أن يؤديها من خلال تخصيص عدة رسائل ماجستير ودكتوراه، بتكريس كل رسالة لتغطية عنوان واحد من العناوين؛ وإلا فإننا نحتاج إلى وقت آخر لإنجازها، إذا كتب الله لنا السلامة وطول العمر والتوفيق، ونسأله سبحانه ذلك.

ويظن البعض، ممن لم تُتح لهم فرص الاطلاع على الموروث التاريخي والثقافي والجغرافي العربي، أنه لا ذكر ولا إشارة إلى الأردن، وبلدانيته، في ذلك الموروث. إلا أن الاطلاع على كتب الجغرافيين المسلمين، وكتب الرحالة، وكتب المغازي والسِّير (مفردها سيرة)، يجد أن للأردن نصيب كبير من هذا الموروث، سواء باسمه الواضح المستخدم الآن، ومنذ ما قبل الميلاد بأربعة عشر قرناً، أو بأسماء المواقع والبلدانيات التي كانت ولا زالت جزءاً من الأردن تاريخاً وأرضاً وجغرافياً، وسكاناً، وعشائر، أو تلك التي سُلِخت عنها مثل صور وعكا، وبيسان، وطبريا، وأريحا ودرعا وحوران والجوف وعصيون جابر (إيلات).

أما الشعر فقد كان للأردن وبلدانيته نصيب كبير فيه، منذ الجاهلية وعبر العصور الإسلامية حتى الآن، وفي هذه الأشعار ذكر للأسماء وللحوادث والوقائع وللأوصاف، والحب، والتجليات. ولم يعد القول السطحي أنه لا يوجد أردن في التاريخ، أقول لم يجد يعني سوى التعبير عن الحقد، والعمى عن رؤية الشمس في وضح النهار، ومجافاة الحقيقة التي نضعها بين يدي القراء الكرام واللئام على حدٍّ سواء.

وإن القارئ لكتب التراجم، يجد انتساب كثير من العلماء إلى الأردن أو إلى أماكن في الأردن أيضاً، وهو دليل على أن الأردن يتصف بعبقرية المكان، وأن

خلوّه من العلم بسبب الإهمال العباسي والجهل التركي، لا يعني جريان ذلك عليه عبر سائر الحقب التاريخية. كما أن قراءة كتب الأنساب، ووجود نسبة الأشخاص المهمين إلى مواقع، مثل: الكركي، العماني، العجلوني، الباعوني، السلطي، الأردني، الطفيلي، الشوبكي... الخ، يبين أهمية المواقع، لأن الإنسان لا يُنسب إلى مكان إلا إذا كان ذلك المكان معروفاً ومهماً ومألوفاً لأصحاب التاريخ والقلم وعامراً بالناس، ومركزاً من مراكز العلم والحضارة والاستقرار والأمن.

ونجد اختلافاً في الأسماء أحياناً للموقع الواحد، مثل سَرَغ (حالياً هي المدوّرة في جنوب الأردن) وتعني عود الدالية الغض، والذي يبدو أنها سميت كذلك لوجود كروم العنب في مرحلة تاريخية سابقة، وقد سميت المدوّرة فيما بعد، بسبب ما تتصف به تلالها من الاستدارة بفعل الحتّ الطبيعي في المنطقة، كما أصبحت في مطلع القرن العشرين محطة لسكة الحديد الحجازي، ودوران القطار العائد إلى عمان.

نجد المفرق سمي كذلك بسبب أنه نقطة تفترق عندها طرق الصحراء والبيداء والخضراء والتجار وقوافل الحجاج نحو الاتجاهات الأربعة، كما أنها تأتي كمَفْرِق الرأس ما بين التلال الجبلية في الغرب، والبادية في الشرق إلا أن اسمها القديم هو « الفدين al Fdain »، وهو تصغير الفَدَن Fadan، ومعناه القصر، حيث كانت توجد قلعة صغيرة هنا لا تزال آثارها باقية حتى الآن (2006).

وقد قامت في الفدين ثورة أموية قادها أحد أحفاد سيدنا عثمان بن عفان ﷺ ، والتي يمكن إدراجها ضمن انتفاضات (مفردها انتفاضة) الحركة الوطنية الأردنية عبر التاريخ.

كذلك مدينة عمان التي كانت تسمى ربّة عمون، ثم فيلادلفيا زمن اليونان، ثم عادت لتُسمّى عمّان زمن الإمارة الغسّانية؛ وكان اسمها عمان البلقاء في أول

الفتوحات الإسلامية لأنها كانت عاصمة البلقاء ومركزها، ثم عمان حيث لا زال الاسم يُطلق عليها إلى الآن، وهي عاصمة الأردن.

أما إربد فإن الاسم القديم هو: أرابيلا، وكانت قرية من قرى عجلون في العصر التركي (العثماني) ثم أصبحت مركز المحافظة ولا زالت إلى الآن (2006). وقد تم سلخ جرش وعجلون، كلٌ في محافظة بهذا الاسم؛ ولم تعد تابعة لإربد.

وهناك مواقع وردت في الموروث الجغرافي والرحلات والتوراة، ولكن يتعذر علينا معرفة مواقعها، لأنها جاءت بتسميات لم تعد مستعملة أو معروفة لأجيالنا، ولأجيال المصادر التي وصلتها أيدينا، ذلك أنها إما اندثرت، أو ارتبطت بحادث معين، أو تغير اسمها، ولكنها تحت كل الظروف موجودة بالأردن، ويمكن تحديدها فيما بعد، ولكن ليس الآن.

ونضرب على ذلك مثلاً أُبْنَى 'Ubna التي ذكرها أبو عبيد البكري « أنها موضع بناحية البلقاء من الشام، وهي التي روى فيها الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد: (أن رسول الله ﷺ بعثه إلى أُبْنَى فقال: ائتها صباحاً ثم حَرِّق ». وتقع هذه ما بين فلسطين والبلقاء، ولكن لم يتوصل أحد إلى تحديد مكانها حتى الآن (2006).

-6-

تغيير أسماء بعض المواقع

ومن الشواهد على تغيير الأسماء، ما نجده في رحلة محمد السنوسي سنة 1299 هـ/ 1881 م حيث يقول: « بطن الغول هذه المنزلة تسمى أم غيلان، وأم عياش تحت العقبة الآتية. وهي منبت أحطاب وبها شجرة تُربط بها الخروق (مفردها خرقة) » (ج 2 ص 247 – السنوسي الرحلة الحجازية).

وبطن الغول موقع ما بين معان والمدوّرة، يقع في منخفض من الأرض، وتعبره طريق الحاج، وتربته رملية ناعمة تغوص بها السيارات، وهو منطقة موحشة، لذا سميت بطن الغول لما هي عليه من الوحشة، والطبيعة النادرة، والخوف الذي يتملّك عابرها. وقد تم تعبيد الطريق عبر هذا الموقع في مطلع السبعينات من القرن العشرين. ونجد هنا أن اسم المكان سابقاً كان: أم الغيلان، والآن: بطن الغول.

ونجد أكثر من اسم للموقع الآخر في الكتب أيضاً مثل: أيلة، التي وردت باسم وَيْلَة. ويقول ابن حوقل في نقله عن الاصطخري: « ومن مصر إلى المدينة على الساحل عشرون مرحلة، ومجتمعهم مع أهل الشام بأيْلَة، وفي ضمن المصريين يحج المغاربة، وربما تفرّدوا بأنفسهم، إلا أنهم يتفقون في مَنَاخٍ واحد (أي مكان مَنَاخ الإبل وبروكها للراحة، وإنزال الأحمال عن ظهورها)، وربما تقدموا فيكون بينهم أن ينزل أحدهم ويرحل الآخرون، أو يتأخرون على هذا السبيل. وأيْلَة من ناحية الشام أول حدود البادية ». ويقول ابن حوقل في موقع آخر من كتابه: « وأيْلَة هذه مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير ».

أما المقدسي، في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم من ص 154-155 : فيقول في ذكره لإقليم الشام أنه يقسم إلى ست كُوَر (مفردها كورة)[1]، وجعل الشراة كورة، ومن مدن كور الشراة وَيْلَة. ويقول المقدسي في المرجع نفسه (ص 178-179): « وَيْلَة مدينة على طرف شعبة بحر الصين، عامرة جليلة ذات نخل

---

(1) إن اصطلاح جند هو مفهوم عسكري جهادي قتالي، أما مفهوم كورة فهو اقتصادي، ومصدر الغلال وسائر المزروعات ومنها كُوَارَةْ iqwarah ، وهي (باللهجة الأردنية) مخزن الحبوب داخل البيت، أما الكورة فهي سلّة الغذاء داخل المنطقة. ومن الضروري تقسيم كل جند إلى عدة كُوَر (مفردها كَوْرَة) وبذلك يلتقي الاصطلاحان العسكري والاقتصادي معاً كل منهما يحمي الآخر ويؤازره.

وأسماك، فرضة (أي ميناء) فلسطين وخزانة الحجاز، والعامة يسمونها أَيْلَةَ وأَيْلَة، قد خربت على قرب منها، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ [الأعراف: 163] وفي وَيْلَة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين كما في عبّادان وإضافتها إلى إقليم الشام أصوب؛ لأن رسومهم وأرطالهم شامية، وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابُهم ». اهـ.

وبذلك نجد أيْلَة / ويْلَة، تقع في نقطة مجمع البحرين بين ثلاثة أقاليم وبلدان، هي: الشام، مصر، الحجاز، وأن شاميتها أصح من نسبتها إلى أية منطقة أخرى. ولكن المقدسي يؤكد دونما لَبْسٍ أو جدال أنها جزء من الشام وهي ثغرة على مصر والحجاز.

وكان اسم العقبة في كتب الرحالة المسلمين يُطلَق على النقب الذي يبعد أزيد من مائة كيلومتر إلى الشمال من أيلة والمسمى نقب شتار. وسمي كذلك (النقب) لوعورته وصعوبته، وتعثر قوافل الحجاج عند محاولة تجاوزه في طريق الإياب أو الذهاب. وكان يحتاج قطعه إلى يوم كامل، وهذا ما ذكره العديد منهم، نختار ما قاله أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك، في ج 1 ص 419. حيث يقول: « ثم تسير من أيْلَة فتلقى العقبة (وهي رأس النقب الحالي)، التي لا يصعد فيها راكب لصعوبتها، ولا تُقْطَع إلا في طول اليوم لطولها ». اهـ. ويستشهد بقول حسّان بن ثابت، عند ذكر أيلة (قديماً) شعراً.

مَلَكاً من جبل الثلج إلى: جانبي أيْلة من عَبْدٍ وحرّ.

اما جبل الثلج فهو جبل الشيخ، وأما أيلة فهي العقبة الأردنية الحالية.

ويرى الحازمي (محمد بن موسى ت 584 هـ) في كتابه الأماكن أن أيْلَة « هي آخر الحجاز وأول الشام » (الجزء الأول ص 33). ويقول ياقوت الحموي أيضاً

بالقول نفسه: (أي أنها آخر الحجاز وأول الشام). ويرى أبو عبيدة البكري الأندلسي في كتابه المسالك والممالك أن أيلة تُعدّ في بلاد الشام.

وذكر ابن هشام في السيرة أن أيلة هي حدّ مملكة الروم في الزمن الغابر، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان مُسَلِّمة (أي رجال الجمارك) يأخذون عنده المكوس ». وهي عند مجير الدين الحنبلي في كتابه الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج2 ص 83، أن أيلة هي الحد ما بين الحجاز وبلاد الشام وقال: « وسطح أيلة هو حد الحجاز ».

ومن أهم ما نجد من إشارة للعشائر الأردنية في منطقة أيلة والنقب (أيلة، وعقبة إيلة)، ما ذكره عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري سنة 958 هـ - 960 هـ وهو من أهل القرن العاشر الهجري، حيث يقول في كتابه الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة: « وسطح العقبة: قاعٌ أُفَيح (أي أرض منبسطة واسعة). ويوجد بأرضه ماء المطر في أوقات الشتاء. وقد استجد بها النخل الذي على ساحل البحر، وبعض حدائق بالوادي والساحل، وجميع ذلك لبني عطية من الحويطات[1]، وإنما لقِّبوا بذلك لما بنوْه من بعض الحيطان على النخل ولغيرهم منه جانب يسير استجدّه بعدهم، والجميع من بني عطية[2] ».

---

(1) هذه إشارة واضحة إلى الحويطات (وهم أنباط) وإلى وبني عطية، ومدى علاقة وقرابة وتلاحم هاتين العشيرتين، مما يرجّح أنهما من أصل نبطيٍ واحد (والله اعلم). وإن مثل هذه الرواية التاريخية المهمة تفنّد بعض الأقاويل العربانية حول الحويطات، وتؤكد هذه الرواية رأينا أنهم عشيرة عريقة قديمة عميقة في ثرى الأردن، نبطية من الأنباط العرب الأردنيين.

(2) لا علاقة للحويطات ببني عقبة، ذلك أن الحويطات أنباط ويقطنون مناطق الشراة والجفر ومعان ورم والديسة والعقبة ووادي عربة وشمال تهامة وسيناء والمنطقة الشرقية من مصر، وأن بني عقبة من جذام (وهم أي بنو عقبة من أهل ديار الكرك)، ولكن يبدو أن الاسم هنا (بني عقبة) جاء بمعنى بني عَقَبَة بفتح العين والقاف والباء وسكون التاء المربوطة، والتي تعني سكان منطقة العقبة، وهو الذي كان واقع الحال والذي نرجّحه، والله أعلم.

وضمن المرور بمنطقة إيلة نجد إشارة أخرى إلى عشائر الحويطات عام 1040 هـ، وذلك ما ذكره محمد بن عبدالله الحسني المدني كبريت (ت 1070 هـ) في كتابه رحلة الشتاء والصيف، حيث يقول: « إلى أن نزلنا تحت العقبة، في شِعْبٍ فيه نخل كثير لعرب الحويطات، من بني عَقَبَةْ (شرحناها أعلاه)، نُسبوا إلى الحائط، وقلعة محصّنة على ساحل فصل من خليج القلزم (أي البحر الأحمر / خليج العقبة الحالي) » (ص20-22). وذكر أن فيها نخل للحويطات (نخل وماء عذب).

وفي عام 1198 هـ/ 1783 م مرّ بها الرحالة المغربي: ابن عبدالسلام الدّرعي حيث قال: « ... ثم لبندر العقبة، وقد انتابتنا في هذه الأيام الثلاثة سَموم باردة، سيما في وادي القرّ أخذت الناطق والصامت، وسَوقُنا بهذا البندر على العلاوين الأعراب[1]، وأهل غزة من أرض الشام، فوقع الركب في رخاء كثير». وقد ظهر العديد من العلماء المنسوبين إلى أيلة. (الأيلي).

وبذلك نجد أن الرحالة والجغرافيين أجمعوا أن أيلة من بلاد الشام، وإن كانت مجمع البحرين البري والمائي، والشرقي والغربي، والأقطار المجاورة. وبالتالي فهي أردنية، وإن تبعيتها للحجاز بضع سنين لا ينفي ما سبق، وأنها كانت لها عبر القرون المتتالية جزء من التاريخ الأردني والأرض الأردنية.

-7-

رحلات في بعض المواقع الأردنية

وحيث أن الشيء بالشيء يذكر، نجد إشارة إلى القبيلة الأردنية (جذام)، حيث تمتد من وسط جزيرة العرب حتى الشمال عند الجولان وما حولها. وفي

---

(1) العلاوين عشيرة من عشائر الحويطات، ومنهم فرع أصبح من الزيادات من عباد، ويحمل اسم العلاوين أيضاً.

هذا الإطار نجد الهمداني يتحدث في كتابه صفة جزيرة العرب (ص 272): « أن فخذاً من جذام تسكن الأردن »، وقال أيضاً: « وأما جذام فهي بين مِدْيَنْ، إلى تبوك، فإلى أذرح ومنها فخذ مما يلي طبرية من أرض الأردن إلى اللجون واليامون إلى ناحية عطا ». اهـ. وهناك جزء من جذام كانوا يسكنون بفلسطين.

إذن هناك وضوح لدى كثير من الرحالة والجغرافيين المسلمين، ولا أقول لديهم جميعاً، في التحديد العام لأرض الأردن، وأرض فلسطين؛ من حيث المساحة والحدود، ولكن ذلك لا يتطابق دائماً مع الإدارة المسماة لديهم «العمل»، فيقولون، كما ورد كثيراً: « وهي منها بالعمل » – أي تابعة لها بالإدارة، وذلك يعني أنها ليست جزءاً منها في الجغرافيا والاجتماع والحدود المتعارف عليها بينهم آنذاك. ونورد مثالاً، ما ذكره الاصطخري في كتابه مسالك الممالك (ص 58-59): « وبعض الغور من حدّ الأردن إلى أن تُجاوِز بيسان فإذا جاوزته كان من حدّ فلسطين، وهذا البطن إذا امتد فيه السائر أدّاه إلى أيلة »[1].

ومن الأسماء التي تغيرت: بلدة بلعام الواقعة الآن في ديرة بني حسن من محافظة المفرق، والتي وردت لدى بعض الرحالة ومنهم ياقوت الحموي تحت اسم بالِعَة. قال ياقوت: بالِعَة من قرى البلقاء من أرض دمشق، كان ينزلها بَلْعَام بن باعور المنسلخ الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: 175] (ياقوت الجزء الأول، ص 329)، وقد أشار صفي الدين البغدادي في كتابه المراصد (1:157) إلى ذلك بشكل مقتضب.

(1) يبدو أن كثيراً من الباحثين لم ينتبهوا إلى هذا الاصطلاح الذي استخدمه الرحالة والجغرافيون المسلمون، وهو كلمة: وهي منها بالعمل؛ التي تعني أنها ليست منها بالجغرافيا والبلدانية والسكان، وإنما فقط بالتبعيّة الإدارية التي قد تتغير بين حين وآخر، وإدارة وأخرى، ودولة وأخرى، فتتبع أراضي من فلسطين إلى الأردن، وأراضي من الأردن إلى فلسطين، لتكون عند التبعية هذه: منها بالعمل، ولكنها ليست منها في الهوية أو الجغرافيا أو السكان.

وأما اسمها الحالي وهو: بلعما، فمن الواضح أنه تحريف لفظي لكلمة بلعام، وهي بذلك أيسر على اللسان واللفظ من كلمة بالعة، وحيث أن بلعام مذكر (اسم المنسلخ)، وأن القرية اسم مؤنث، فإن اللفظ الأردني لها جاء مؤنثاً أيضاً وذلك بزيادة ألف الممدودة أو التاء المربوطة، على اعتبار القرية مؤنثاً لا مذكراً، حيث تُلفظ بلعما وتكتب بالألف الممدودة والتاء المربوطة في آنٍ واحد (بلعما = بلعمة)، وهذا شبيه لما ورد عند ياقوت، ويبين تطور اللفظ لعين المكان عبر الأزمان[1].

وأما باير فهي نقطة هامة في الجنوب الشرقي من الأردن، وفيها بئر ماء مشهور، ونقطة لشرطة البادية، وهي ضمن ديرة الحويطات، وفيها سجن مشؤوم، لأنها أرض خلاء قفراء موحشة، من يذهب من المسجونين يأنس بالسجّان على وحشة المنطقة والسِّجن، وقد اشتهرت كسجن في الخمسينات من القرن العشرين حيث تم إيداع الضباط الأحرار والوطنيين الأردنيين إليها.

ويوجد ماء في باير وآبار نبع مشهورة وقد وردت باير في كتب الرحالة والجغرافيين، ولكن تحت أسماء وألفاظ مختلفة، حيث وردت في التوراة باسم عباريم (إذا كانت هي باير)، ووردت عند العرب باسم أباير وأيابير (بالباء والياء)، حيث ذكره ياقوت في الجزء الأول من معجم البلدان، أنه منهل بالشام في جهة الشمال من حوران، وذكر الأبيات التالية للشاعر الأموي: الروّاح بن ميّادة، وهو عند الوليد بهذا الموضع:

---

(1) بلعما: قرية من قرى بني حسن بين جرش والمفرق وهي إلى المفرق أقرب، وتوجد بها مدينة أثرية مشهورة فيها سراديب تحت أرضية. وقد حاول الرحالة الأجانب في القرنين 18 و 19 زيارتها، إلا أن شيوخ بني حسن رفضوا هذه الطلبات حتى تلك المعززة بطلب من متصرف السلط. وبذلك بقيت فترة طويلة بعيدة عن متناول الأجانب.

لعمـــرك إنـــي نـــازل بأبايـــر وضَـوْءٍ ومشتاقٌ وإن كنت مُكْرَما
أبـيْتُ كـأني أرقـد العـين ساهراً إذا بـات أصـحابي من الليل نوَّما

(ياقوت المعجم – 287:1)

ولا يعني ما أورده ياقوت أن أباير / أباير، أنه في منقطة حوران، ذلك أن مناطق البادية، كانت لدى الكُتّاب في حينه، غير محددة المعالم وغير محددة المكان والحدود، بعكس ما كانت عليه الديار العامرة، والجبال النافرة، والأنهار الجارية. والحقيقة أن باير إلى الجنوب من حوران وليس إلى الشمال منها وهي إلى الجنوب الشرقي من الجفر، بالقرب من الحدود مع السعودية، وهي من ديرة الحويطات.

وعند الحديث عن البحر الميت وما حوله، نجد وضوحاً عند الإدريسي، في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الأول، وعلى مدى صفحتين 354-355، وصفاً للبحيرة المنتنة، وحدود فلسطين مع الأردن، والتداخل بين البلدين: وما يهمنا من ذلك هو قوله: « وأما حدود فلسطين وهي أول أحواز الشام » ثم يواصل شارحاً التداخل بينها وبين الأردن، وبكلمات موجزة: فيقول: « وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وجبال الشراة، مضمومة إليها (أي إلى فلسطين)، وهي منها في العمل إلى حدود أيلة ». اهـ. أي أنها ليست من فلسطين بالمفهوم الجغرافي وإنما تتبعها بالإدارة، وهي من الأردن.

نجد الوضوح الكامل في هذا النص، أن ديار قوم لوط (أي جنوب البحر الميت، وجبال الشراة، والبحر الميت مضمومة إلى فلسطين إدارياً، وليست منها جغرافياً أو سكانياً، وهي تابعة لها في الإدارة « العمل »، وليست جزءاً منها في الجغرافيا والسياسة والاجتماع لأنها من الأردن.

ثم يأتي ياقوت ليبرهن ما ذكرناه، حيث يقول: « البحيرة المنتنة (أي البحر الميت) وهي بحيرة زُغَر، ويقال لها: المقلوبة أيضاً، وهي غربيّ الأردن قرب

أريحا » (معجم البلدان 352:1)، ثم يؤكد مقالته هذه في كتابه الآخر المشترك وضعاً، المختلف صقعاً، حيث يقول: « البحيرة المنتنة وهي بحيرة زُغَر في غربيّ الأردن، رديّة منتنة مَلْحَة لا يعيش فيها حيوان » المشترك وضعاً: (38-39).

أما نحن فنقول: أن تسميتها بالمنتنة فهو للرائحة المنتنة التي تخرج منها، وإن ظهرت في العصر الحديث روائح أكثر نتناً وعفناً بشرية وطبيعية بسبب الخطايا والكبائر والمفاسد التي يرتكبها كثير من الناس. وأما اسم زُغَر/ صُغَرْ فهو اسم مدينة من مدن قوم لوط، فسمي الكل باسم الجزء. وأما اسم المقلوبة فهو مستمد من القرآن الكريم ﴿ فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [الحجر: 74] – أي قلبها رأساً على عقب، وأما الملعونة، فجاءت مما حلّ من اللعن على قوم لوط.

يتضح أن ياقوت يحدد أن البحر الميت يقع في الأردن، وفي الجزء الغربي من الأردن وليس خارج حدود الأردن الجغرافية بل في الجزء الغربي منه، وأن ما ورد لدى الإدريسي من استخدام كلمتي « مضمومة إليها »، و « هي منها بالعمل » يبين الوضوح الوافي لدى هذه الطبقة من الرحالة والجغرافيين في تحديد الأماكن بشكل عام والأردن وفلسطين بشكل خاص.

أما تداخل العمل، والضمّ إلى هذه أو تلك فقد بقي متداولاً بين الأردن وفلسطين عبر العصور، فقد كانت أجزاء من فلسطين تتبع أجزاءَ من الأردن، لتسهيل عملية الإدارة، وتنقلب الآية في عصر آخر لتصبح أجزاء من الأردن تابعة لأجزاء من فلسطين، حتى كان آخر هذا التداخل عام 1950، عندما تم إلحاق الضفة الغربية الفلسطينية بالأردن على غير رغبة من الأردنيين وعامة الفلسطينيين، ثم جرى فكّ هذا الارتباط، أو إلغاء هذا الإلحاق في عام 1988.

ومن خلال قرار فكّ الارتباط نجد أنه تحدد وانصبّ في الارتباط السياسي والإداري، ذلك أن الضفة الغربية (من حيث الجغرافيا والتاريخ) هي أصلاً ولا

زالت جزءاً من فلسطين، وأن إلحاقها إلى الأردن، كان سياسياً وإدارياً فقط، وأن قرار الفكّ كان كذلك أيضاً (أي سياسياً وإدارياً)، وكانت الضفة الغربية (فلسطين) واستمرت ولا زالت جزءاً من فلسطين رغم وجود أو انفكاك الرابط الإداري والسياسي وحتى أثناء وجودهما، بل وكانت جزءاً من فلسطين جغرافيا وتاريخياً، حتى وهي تحت الإدارة الأردنية من حيث الإدارة والسياسة (؟؟!!).

ونحن في الحركة الوطنية الأردنية نرى في إلحاق الضفة الغربية الفلسطينية إلى الأردن، ضياع للحقوق الأردنية والفلسطينية، وتعويم لهوية الشعبين كليهما على حدٍّ سواء.

ويقول صفي الدين البغدادي في كتابه مراصد الاطلاع: أن البحيرة المنتنة هي غربيّ الأردن، مما يؤكد أنها جزء من الأردن، حيث يقول: « بحيرة زُغَر وهي البحيرة المنتنة ويصب فيها نهر الأردن وهو نهر الشريعة، ويغيض الماء فيها، ولا يخرج منه شيء من الأنهر بل هي مغيض لتلك المياه العظيمة... » (مراصد الاطلاع، ج 1: 169).

ولكن شيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يسمي البحر الميت باسم بحيرة الأردن: حيث يقول في معرض حديثه عن أعياد النصارى: « وعيد الغِطاس يعملونه في حادي عشر طوبة، ويقولون (أي النصارى) أن يحيى بن زكريا عمَّد المسيح في بحيرة الأردن، ويزعمون أن المسيح لما خرج من الماء حلَّت عليه روح القدس على هيئة حمامة بيضاء، والنصارى يغمسون أولادهم في الماء هذا اليوم، ويعتنون بهذا العيد اعتناءً عظيماً » (ص 281).

وأما مرج الحمام – وهو الاسم الحالي للمنطقة الواقعة إلى الغرب من عمان، فقد تغيَّرت وتطوّرت تسميتها عبر التاريخ، حيث كان الاسم الأساس:

البرج الأبيض، ثم برج الحمام، ثم مرج الحمام، وهي التسمية الدارجة في أجيالنا الحاضرة. كان يطلق على موقع محدد إلى الشرق من مرج الحمام الحالي، ثم توسّع الاسم ليشمل مناطق شاسعة.

وقد كان البرج الأبيض برجاً للحمام الزاجل، ومحطة للبريد ما بين دمشق والكرك، وفي وقت متأخر على امتداد الخط البريدي من الشام إلى القاهرة زمن صلاح الدين الأيوبي.

وأما تسمية البرج الأبيض، فهو لوجود برج أبيض كان علامة فارقة للحمام وحاملي البريد، وقد ذكر ابن شاهين الظاهري (ت 873 هـ) وهو غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري في كتابه زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، أن البرج الأبيض موضع بالقرب من حسبان من جهة دمشق (أي إلى الشمال من حسبان وهو كذلك في موقعه)؛ وأنه محطة للبريد ما بين دمشق والكرك، وفي ذلك يقول نصّاً: « وأما طريق الكرك من دمشق فمنها إلى القتيبة، ثم إلى البرديّة ثم إلى البرج الأبيض ثم إلى حسبان ثم إلى قنبس ثم إلى ذبيان[1] ثم إلى قاطع الموجب ثم إلى العفرة، ثم إلى الكرك» (ص 120) ...

ومن خلال هذا النص المقتضب يمكن تتبّع محطات البريد العربي الإسلامي للحمام الزاجل والخيول المُسْرَجة في هذه الفترة، وهي القرن التاسع الهجري. وأما ذبيان فهي ذيبان، وذلك واضح في خطأ اللفظ والإملاء، ومثل هذا الخطأ موجود كثيراً في لفظ الأماكن لدى الجغرافيين العرب والمسلمين، مثلما رأينا في موضوع بني عَقَبَةْ التي يقرأها البعض: بني عُقْبَةْ.

---

(1) إن ذبيان هنا، هي: بلدة ذيبان التي فيها أطلال ديبون القديمة، وكانت عاصمة الملك ميشع الأدومي العربي الأردني الذي حرّر الأردن من اليهود، ويبدو أن ما ورد لدى الظاهري كان خطئاً إملائياً، فهي ليست ذبيان، وإنما: ذيبان.

ومن الأسماء التي تطوّر لفظها: موضع الثّمد، حيث ذكرها الرحالة التونسي محمد السنوسي أثناء عودته من الديار الحجازية المقدسة عام 1299 هـ/ 1881 م، حيث ذكر بَطْن الثّمن، وكانت محطة للحجاج، ويبدو أنه أخذ الاسم مغلوطاً، أي الثّمَنْ وهو في الحقيقة: الثّمدْ وليس الثّمَنْ، أو أن اللفظ تطوّر خلال هذه الفترة، ذلك أن الثّمد يقع في ديرة بني صخر فيما بين القطرانة والزرقاء، وسمي كذلك لوجود الماء الجوفي قريباً من سطح الماء.

يقول السنوسي حول هذا المكان؛ في رحلته المشار إليها: « بطن الثّمَنْ: هاته المرحلة كانت صعبة بسبب صعوبة الأرض بين الجبال، ومن مزالق أخفاف الجمال مع هطول المطر الذي شقّ، أي صَعُبَ، معه السَّفر »...

ويواصل وصفه للرحلة الشاقة بسبب المطر ووعورة الأرض إلى أن يقول: « وقطعنا السير الصعب تلك الأرض، وصعدنا سفوح الجبال وبطون أودية إلى أن أدركنا المنزل عند الماء بين جبال بطن الثمن عند الغروب ». وربما يكون الاسم العام لمنطقة الثمد آنذاك، بطن الثّمن، ذلك أن اسم الماء « الثمد » أصبح يطلق الآن على المنطقة برمّتها – من حولها – وربما كانت الثّمن تعني المكافأة لهذه الرحلة الشاقة في القفار ليجدوا الماء « الثّمد » ثمناً لهذا الإرهاق وراحةً منه.

وهناك إشارة إلى موقع في وادي شعيب بجوار السلط المحروسة، حيث ذكر ياقوت قرية تسمى: بِقْنِس / نِقْنِس، وهي « قرية من قرى البلقاء من أرض الشام كانت لأبي سفيان بن حرب، أيام كان يتّجر على الشام، ثم كانت لولده من بعده ». وهذا ما أورده محمد بن موسى الحازمي (ت 584 هـ) في كتابه الأماكن. كما أوردها صاحب المراصد صفي الدين البغدادي بالنون «نقنس»، بينما ذكرها ابن شاهين الظاهري على أنها إحدى محطات البريد ما بين دمشق والكرك. وأما الاسم الحالي لـ: بِقْنِس فهو: جورة الكبش.

وتوجد في هذه القرية الأثرية شجرة معمرة وكبيرة، من البلوط، كما تم في نهاية القرن العشرين بناء محطة للتنقية لخدمات المياه العادمة من مدينة السلطة المحروسة. وأثناء توسيع الطريق (طريق وادي شعيب) في ذلك الموضع في مطلع الثمانينات من القرن العشرين، أفصحت الجرافات عن مغائر مبنية بعقود قوسية تعود للفترة النبطية وما بعدها من عصور، يمكن للمار على الطريق أن يراها بأمّ عينه لأنها تقع على الناصية مباشرة.

وبالقرب من هذه القرية (بِيقِنّس) التي أضحت أثراً بعد عين، وإلى الجنوب منها تلال وعرة تسمى امْعاوية، حيث ينسب البعض هذا الاسم إلى معاوية بن أبي سفيان على أن الموقع كان ضمن أراضي القرية المشار إليها وهي بِيقِنّس (بكسر الباء والقاف وتشديد وكسر النون)، التي أصبحت مملوكة لمعاوية ومنهم من يرى أن التسمية جاءت من عواء الحيوانات المفترسة عندما كانت المنطلقة خالية.

أما نحن فنقول: أن تطابق الاسمين يتفق مع طبيعة المنطقة، دون أن يتناقض أيٌ منهما مع الآخر فقد تكون ضمن أراضي قرية بيقِنّس، وأنها آلت إلى معاوية بن أبي سفيان، وأنها في فترة لاحقة، وبسبب وحشتها وكثافة أشجارها صارت ملاذاً آمناً للوحوش البرية تعوي فيها. وبذلك نجد أنه لا يتناقض الاسم التاريخي معاوية مع الاسم الواقعي في هذا المكان إمْعاوية، أي أم الحيوانات العاوية.

-8-

اسم البلقاء من أين جاء؟

وأما البلقاء، فالحديث عنها يطول، وقد نشرنا في معرض هذا الكتاب تفاصيل ما أورده الرحالة عنها، ولكننا نجد شيئاً مهماً فيما ذكره اليعقوبي (احمد ابن إسحاق بن واضح ت 292 هـ) في كتابه البلدان: « أن عمان وأريحا هما أرض البلقاء ». وفي معرض حديثه عن دمشق يقول: أن مدينة ظاهر البلقاء (أي ديار

البلقاء برمّتها) – عاصمة البلقاء هي عمان، وأن أريحا عاصمة الغور ثم يقول: « وهاتان المدينتان – أي عمان وأريحا أرض البلقاء، وأهلها قوم من قيس وبها جماعة من قريش ».

وما دام الشيء بالشيء يذكر، في الإشارة إلى القبائل التي كانت تسكن البلقاء، نجد الحسن بن أحمد الهمداني (ت 334 هـ) يذكر في كتابه صفة جزيرة العرب أن البلقاء هي منازل الضجاعم من سليح، ويقول أيضاً: « أن ريعان المذاهب والبلقاء والموقر من مساكن سليح ».

وهذا ينفي بل ويدحض ما أورده الاصطخري (ت 346 هـ) الذي يبدو من تاريخ الوفاة أنه كان معاصراً للهمداني (ت 334 هـ). يقول الاصطخري عند تحديده لديار بلاد الشام أنها تمتد لتشمل « من أيْلَة إلى مدينة قوم لوط والبحيرة المنتنة التي تُعرف ببحيرة زُغر إلى الشراة والبلقاء وهي من عمل فلسطين » (ص 13، مسالك الممالك). أي أنها كانت زمن الاصطخري (ت 346) تابعه إدارياً لفلسطين.

ولم يذكر الهمداني ذلك رغم أنه أكثر دقة من الاصطخري. ولو فرضنا صحة ما ذهب إليه الاصطخري الذي توفي بعد الهمداني باثني عشر عاماً فإن ذلك لا يناقض أي منهما الآخر. فالهمداني يذكر التقسيمات الجغرافية، والاصطخري يذكر التقسيمات الجغرافية والإدارية والسياسية.

وحول تحديد بلاد الشام يذكر أبو عبيد البكري حدود جزيرة العرب، ويذكر المناطق المحاذية لها من الشمال وهي بلاد الشام، فيقول في كتابه المسالك والممالك: « حدّ جزيرة العرب مما يلي الشمال في الخط الذي يخرج من ساحل أيلة فيمر مستقبِل الشرق في أرض مدين إلى تبوك ودومة الجندل إلى البلقاء وتيماء ومأرب (أي بلاد مؤاب) – وهي ديار الكرك، وهي كلها من الشام ». (145:1).

وبذلك نجد أن تبوك وأيلة ودومة الجندل من بلاد الشام في القرن الخامس الهجري، حيث توفي البكري في سنة 487 هـ. وهذا دليل يدحض مقالة من يرى أن دومة الجندل ليست أردنية، ذلك أنها من بلاد الشام، وبقيت جزءاً من الأردن، حتى جرى ترسيم الحدود مع السعودية في مطلع العشرينات من القرن العشرين حسبما نصّت عليه خطوط حدود اتفاقية سايكس – بيكو المنعقدة عام 1916.

ويرى ياقوت الحموي الذي توفي في مطلع القرن السابع الهجري (626 هـ)، في معرض حديثه عن البلقاء أن أريحا جزء منها، حيث يقول: « ومن البلقاء قرية الجبارين (أريحا) التي أراد الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: 22]، وقال قوم: وبالبلقاء مدينة الشراة – شراة أرض الشام، أرض معروفة؛ وبها (أي بالبلقاء) الكهف والرقيم فيما زعم بعضهم، وذكر بعض أهل السِّير أنها سميت ببلقاء بن سُوَيْدَة من بني عسل بن لوط، وأما اشتقاقها فهي من البَلَق، وهي سواد وبياض مختلطان، ولذلك قيل: أبْلَق وبلقاء » معجم البلدان (1:489).

وبذلك نجد أن جبال الشراة كانت جزءاً من البلقاء، أما حول التسمية، فهناك عدة روايات، وعلينا ابتداءً أن نستبعد نسبة التسمية إلى بلقاء بن سويدة، أو أية تسمية تعيدها إلى نسل وذرية لوط، حيث توجد روايات أخرى تنصّ على أن لوط عليه السلام ذهب إلى فلسطين وليس إلى الأردن، وهو الرأي الذي نميل إليه (المؤلف)، ذلك أنه جاء من فلسطين، وأن سيدنا إبراهيم كان على قيد الحياة قبل وأثناء وبعد ما أحلّ الله من بلاء وعقاب عادل في قومه.

فمن الطبيعي إذن أن يذهب إلى عمّه، وإلى حيث جاء. وهذا ينفي مزاعم التوراة أن بناته أسقينه الخمر، وأنه ضاجعهما وأن إحداهما أنجبت مؤاب، وأنجبت الثانية عمون، وهذا كلام هراء واضح، ويفتري على نبيٍّ من الأنبياء، معصوم عن فعل ما أسندته التوراة إليه من معاقرة الخمر، وغشيان المحارم.

وبذلك نجد أنه لا علاقة لسيدنا لوط ولا لذريته بتسمية البلقاء، أو أي موقع في الأردن، ما عدا البحر الميت وأن علينا أن نأخذ هذه الروايات التي تناهت إلينا، أقول نأخذها بعين المتفحّص الناقد، لنصل إلى الحقيقة، لا أن نأخذها على عواهنها.

وأما الرواية الثانية، فتقول أن التسمية جاءت من اسم الملك المؤابي: بالاق بن صَفُّار الذي زامن المنسلخ عن آيات الله بلعام بن باعورا، وسيدنا موسى وهارون عليهما السلام، وهي رواية تبدو منطقية ومقنعة ومتّفقة مع سياق التاريخ والأحداث، وإن تعذر برهانها، ذلك أن نسبة اسم المكان إلى اسم الشخص المهم، موجودة في الموروث الثقافي الأردني حتى الآن.

أما الرواية الأخرى، والتي تبدو أكثر قوة من سابقاتها أن الاسم جاء من طبيعة البلقاء ألا وهي اختلاط السواد والبياض. أما السواد فيتمثل بشدة خضرة الربيع، وشدة خضرة الغابات على مدار السنة التي كانت تغطي مساحاتها الواسعة، وأما البياض فيأتي من لون الثلج شتاءً، ولون الزروع عند الحصاد، والأعشاب عندما تصبح ذات لون أحوى – أي أقرب ما يكون إلى اللون الأبيض. وهي بين سواء وبياض على مدار السنة. ونحن لا نرى غضاضة في تطابق هذه الأسماء كلها، لتشكل مخزون التسمية للبلقاء: سواء باسم الملك بولاق، أو بسبب لون الفصول والطبيعة. ويمكن الجمع بينهما.

ورواية أخرى تبدو خرافية، أنها أول موضع انبلق عنه طوفان سيدنا نوح، ولكن أصحاب هذه الرواية نسوا أن طوفان نوح عليه السلام أخذ أهل العراق وأرضها فقط، واقتصر عليها ولم يتجاوز إلى الأردن إطلاقاً.

واسم البلقاء اسم جميل، ويطلق على الفرس الأصيل التي حباها الله بغرّة بيضاء في جبينها، محاطة بسواد أو بأي لون غامق. وقد ذكرها (أي البلقاء)

الشعراء عبر العصور، حيث ذكرها الشاعر كُثيِّر عَزّة العاشق المعروف في توجُّده على حبيبته إذ يقول:

سقى اللهُ قوماً بالموقَّرِ دارُهُم إلى قَسْطَلِ البلقاءِ ذات المحارِب

وقد ظهر منها كثير من العلماء الذين حملوا اسم البلقاوي (نسبةً للمكان) بعد اسم العشيرة، وذلك يبين أسماء العشائر التي استقرت بها مثل: القرشي، المخزومي، السعدي، الأنصاري، الدمياطي، أبو حرب، وغيرهم كثيرون.

-9-

بيت أراس والرامة

وأما بيت راس فقد تطوّر الاسم، حيث يُلفظ الآن: بيت أراس، حيث تحوّلت الألف مع الهمزة في اللفظ القديم إلى ألف قبل الراء، وألف بعدها، أي من رأس على أراس، والمعنى واحد، وهي الآن من محافظة إربد في شمال الأردن، وذكر ابن خُرداذبَة (ت280هـ) أنها إحدى كُوَر الأردن، وذكرها الهمداني (ت 334 هـ) بقوله: « وبيت راس موضع للخمر بالأردن » (صفة جزيرة العرب ص 271)، وبذلك نجد أنه كانت مركزاً لإنتاج الخمر حتى في العصر الإسلامي.

وكان حسّان بن ثابت قد ذكرها في الجاهلية أنها مشهورة بالخمر، وذلك يعني أنها كانت مزروعة بالكروم على مدى أربعة قرون على الأقل، ما قبل الإسلام حتى القرن الرابع الهجري الذي توفي فيه الهمداني.

يقول حسان بن ثابت:

كأنَّ سبيئةٍ من بَيْتِ رأسٍ يكون مِزاجُها عَسَلٌ وماءُ

وفي موضع آخر، يصف خمرها المعتّق بقوله:

شُــجَّت بصـــهباءَ لهـــا سَـــوْرَةٌ   مــن بيــت رأس عُــتِّقَت في الختام

ونجد حسان بن ثابت يربط المواقع الأردنية بعضها ببعض في بيتين من الشعر، كما يفعل عرار شاعر الأردن الحديث بلا منازع؛ يقول حسان بن ثابت:

لِمــن الــدارُ أوحَشَــتْ بمعــان   بــين أعــلى اليرمــوك فالخَمَّــان

قــد عفــا جاسِــمٌ إلى بيــت رأسٍ   فــالجوابي فجــانب الجــولان

وفي ذلك يقول عرار شاعر الأردن[1]:

---

(1) يعتبر مصطفى وهبي التل «عرار» شاعر الأردن الخالد بلا منازع، والذي يعيش مع كل جيل أردني، إلى درجة أن حبّه للأردن وعشقه لربوع الديار الأردنية وتغنّيه بها غفرت ذنوبه عند الأردنيين، فلم ينظروا إلى معاقرته الخمر، وإنما إلى نطقه وشعره عن الأردن والأردنيين في زمن كان محرّماً على أحد أن يعتز أو يجاهر أو يتحدث بأردنيته، ولقي من وراء ذلك التشريد والتعذيب والاعتقال والنكران، لكنه بقي أكبر من السجّان ورجالات عمان، وهو يزداد ويكبر كل يوم، وهم يتلاشون ويصغرون كل يوم، بل عن شعره هو الذي جعل أسماءهم تُعرف للأجيال اللاحقة. ونحن نتغنى مع عرار بقوله السهل الممتنع:

يــا مــيّ جــلعادَ الأشَــمّ كَعَهْــدِهِ   مــا زال يــربض جاثمــاً بمكانــه

والغــور مــا انفكّــت غدائــر نبــته   وزهــورُه تحــنو عــلى غدرانــه

وسمــاء إربــد مــا يــزال ســحابها   يسقي سهول الحصن من هتّانه

ثم يقول في قصيدة أخرى:

هــذي القــدود المائيّــة والعيــون العجــرميّة
للســلط تُنســبُ أم تــراها عــند جزْرك إربديّة
قســماً بمــاحص والفحيــص وبالطفيلة والثنيّة
ودمِ ابنِ شهوان الزكيّ ومصرع النفس الأبيّة
لِسَــواكِ مــا خفــق الفــؤاد ولا تمَــلَّل يا صبيّة
كــان الإلــه بعــون قومــكِ يــا فــتاةَ بــني عطيّة
المطعمــين الــناس والطــاوين في السّــنة الرديّة
إذ رمّهــم هضــباته شــمّ وديــرتهم علــيّــة
وســفوح شــيحان الأغــنّ بكــل مكــرمة غنيّة

كيــف «القويــرة» و«الشّــراة» وكيــف سَــهْلُ بــني عمــون؟
وجــبال «أيــلة» هــل بهــا كــلأٌ يســبرُ الزائــرين
مــا بعــد جــنات الــنخيل مســرّة للــناظرين

ويبدو واضحاً أن بيت راس بقيت مركز إنتاج الخمر المشهور في العصر العباسي زمن أبي نواس، وهارون الرشيد ﷺ ، حيث يذكر ذلك أبو نواس في شعره، فيقول:

وتَبسِمُ عن أغرَّ كأنّ فيه مُجَاج سُلافَةٍ من بيت رأس

وفي زمن العلاء بن المعري نجد الصورة تتكرر أيضاً:

عُتِّقت في الدُّنان من بيت رأسٍ سنواتٍ وما سَبَتْها التُّجار

ومن الأسماء التي جرى تغيير في لفظها أيضاً: الرامة التي وردت في التوراة باسم: بيت رام، ثم ذكرها الرحالة الجغرافيون العرب أنها بيت رامة، ثم أصبحت تسمى الآن: الرَّامة، وهي بلدة قديمة على الجانب الشرقي من نهر الأردن، من أراضي المهداوي سابقاً ثم آلت إلى العدوان بعد طردهم للمهداوي، من بلاد البلقاء برمّتها.

ذكرها المقدسي (ت 380 هـ) أن ماءها (أي الرامة) رديء، وسماها بيت الرام حيث يقول: «وتأخذ من أريحا إلى بيت الرام بريدين ثم إلى عمان مرحلة»، أما ياقوت (ت 626 هـ) فيسميها: بيت رامة، حيث يقول أنها «قرية مشهورة بين غور الأردن والبلقاء» وأوردها في كتابه المشترك باسم «بيت رامة، قيل قرية بالبلقاء في طرف الغور». وأوردها صاحب المراصد، صفي الدين البغدادي (ت739هـ) باسم «بيت رامة»، وبذلك نجده يتفق مع ياقوت الحموي. ليس

بالتسمية فحسب، بل والمكان أيضاً إذ يقول (أي البغدادي): «وبيت رامة قرية مشهورة بين غور الأردن والبلقاء». وقد ذكرها الرحالة الأجانب الذي مرّوا بهذه المنطقة. وبخاصة الذين زاروا الأردن في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين حيث ترجمنا العديد من كتبهم هذه التي تتضمن رحلاتهم، فمن أراد الاستزادة، فليرجع إليها وهي منشورة.

أما النقب فقد كانت له أكثر من تسمية، حيث كان يدعى: عقبة إيلة، ثم نقب تُرْبان، وهو قرب حسمى وقد جئنا بالتفصيل في هذا الكتاب حول الصعوبات التي كان تعترض قوافل الحجاج عند وصولها واجتيازها النقب، ذلك أنه طَوْرٌ واسع وعر صعب الاجتياز، وكان يعتبر نقطة شؤم لقوافل الحجاج.

وقد ذكره المتنبي، (ت 354 هـ) على أن اسمه نقب تربان حيث يذكر في شعره أثناء قدومه من مصر (بعد هجائه لكافور الأخشيدي) متجهاً إلى العراق في رحلته التي قضى فيها نحبه، وحيث يتبين أن الطريق كانت تعبر هذه المنطقة للمسافر آنذاك من مصر إلى العراق. ويقول المتنبي في ذلك، أنه إذا تجاوز النقب، فإنه يشارف أرض العراق، لسهولة الطريق ما بعد النقب، وصعوبتها فيه، قال المتنبي:

فقلت لها: أيُّ أرضِ العراق؟! فقالت: ونحنُ بتُرْبان
وهبَّتْ بحَسْمى هبوب الدَّبُورِ مُسْتَقْبلاتٍ مَهَبُّ الصَّبا

-10-

أرض التيه الأردنية

أرض التيه: الشائع لدى الناس أن التيه هي بلاد النقب في جنوب فلسطين، وبلاد سيناء، ولكن القارئ لكتب الرحالة والجغرافيين المسلمين يجد تعريفاً آخر للتيه، حيث يشيرون إلى أنه الأراضي الممتدة في جنوب الأردن، ووادي عربة،

وحول أيلة وجبال الشراة، وبادية الأردن الجنوبية، ومناطق النقب ووادي رم. وهي وجهة نظر لا أستطيع إثباتها، ولا إثبات عكسها في هذا الإطار.

يقول ابن الفقيه (ت عام 340 هـ)، في كتابه: مختصر كتاب البلدان « أن صحراء التيه ما بين بحر القلزم وأيلة » وهذا كلام عائم غير محدد المعالم أبداً، وقد جاء حرفياً قوله « وبمصر الرمل المحبوس والطّور وهو في صحراء التيه فيما بين القلزم وأيلة »، وهو كلام يصعب تحديده على الأرض الآن إلا أنه ربما قصد صحراء سيناء حتى ملامستها لمياه ذراع العقبة وذراع السويس.

وقد ذكر جغرافي آخر معاصر لابن الفقيه وهو الاصطخري (ت 346 هـ) في كتابه مسالك الممالك أن التيه برية تتصل بأرض العرب (أي جزيرة العرب) من جهة أيلة، « وهي وإن كانت متصلة بديار العرب (أي بجزيرة العرب) فليست من ديارهم (أي ليست من جزيرة العرب)، وإنما هي برية بين أرض العمالقة واليونانية وأرض القبط (مصر)، وليس للعرب بها ماء ولا مرعى، فلذلك لم نُدْخِلْها في ديارهم » (ص 14). وذلك يتبين أنه يشمل سيناء وجنوب الأردن، وجنوب وادي عربة وحول خليج العقبة، وجنوب الشراة.

وعند تحديده للتيه، قال الاصطخري أنها بطول أربعين فرسخاً، وأن تربتها: منها صلبة، ومنها رمال، وبها نخيل وعيون مفترشة قليلة، وأنه يتصل حدّها بالجفار – أي جنوب الأردن حيث الجفر، وأما حدّها الغربي فيصل إلى جبل طور سيناء الذي ذكره القرآن الكريم، وأما حدّهما الشمالي الغربي فهو بإزاء بيت المقدس، وما اتصل به من أرض فلسطين، ثم ينتهي غرباً إلى مفازة في ظهر ريف مصر إلى حدّ القلزم.

ووسط هذا التباين، يجب أن نتذكر أنه سُمّي التيه، لأن الله سبحانه وتعالى عاقب بني إسرائيل في أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، حتى ينتهي ذلك الجيل

الذي عصاه، وأن تجوالهم كان في منطقة محدودة لا تتوفر فيها سبل الحياة إلى المستوى المطلوب.

ويمكن أن نتخيل أن التيه يشمل بلاد سيناء والنقب، وإذا كان يشمل بالتسمية أراضي في الأردن، إلا أنني لا أظن أن بني إسرائيل قد دخلوا أو تجوّلوا فيه (أي بجنوب الأردن) طيلة تيههم الذي استمر أربعين عاماً، وذلك لأن جنوب الأردن كانت منطقة خاضعة لحكم دولة الأدوميين الأمورية العربية الأردنية القوية كما تقول التوراة، وأن عصيون جابر كانت ميناء تلك الدولة. وأن الدول الأردنية منعت بني إسرائيل من المرور عبر مناطقها، وذلك يعني حدوثه بعد انتهاء التيه، وليس قبله. فكيف يطلبون المرور (حسبما تنص التوراة) عبر أرض يسكنونها؟! ولكنهم طلبوا العبور قادمين من سيناء بعد فناء جيل التيه، فرفض الأدوميون عبورهم، وذلك برهان أنهم لم يتجولوا ولم يتيهوا في الأردن، حتى ولو سمّيت هذه الأجزاء الأردنية، على أنها من التيه.

إذ لا يعقل أن تقف الدول الأردنية مكتوفة الأيدي أمام شعب يتجول في أراضيها، ويؤثر على كل شيء من الأمن والحياة، إلى الاقتصاد والموارد إلى البقاء والاستمرار إلى المرعى والماء، إلى الهوية والثقافة والسيادة والسياسة والقيادة.

من هنا، فإنني أرجّح أن تجوال بني إسرائيل كان محدوداً على سيناء والنقب، كما هو متعارف عليه بين العربان، وأن زج اسم جنوب الأردن بالأمر، ليس إلا من باب المجاز، ولأنها أرض ملاصقة للتيه، ومشابهة من حيث الطبيعة والمناخ، سميت التيه جغرافياً، ولكنها لم تكن أرضاً لتجوال وتيه بني إسرائيل، لأنها كما قلنا كانت خاضعة لسلطة دولة أدوم الأردنية المنظمة القوية. ومن خلال التوراة نجد شهادة بوطنية ملوك أدوم وانتمائهم للأردن، ورفضهم أي محتل لديارهم، أو عبور أية قوة من خلال أراضيهم.

ويبدو أن ياقوت الحموي (ت 626) أدق المتحدثين عن تحديد التيه حيث قال بالحرف: « وهو (أي التيه) الموضع الذي ضلّ فيه موسى بن عمران ﷺ وقومه، وهي أرض بين أيلة مصر وبحر القلزم وجبال السراة (أي جبال الشراة جنوب الأردن) من أرض الشام، ويقال أنها أربعون فرسخاً في مثلها، وقيل إثنا عشر فرسخاً في ثمانية فراسخ. والغالب على أرض التيه الرمال، وفيها مواضع صلبة، وبها نخيل وعيون مفترشة قليلة، يتصل حدّ من حدودها بالجفار وحدّ بجبل طور سينا وحدّ بأرض بيت المقدس وما اتصل به من فلسطين، وحدّ ينتهي إلى مفازة في ظهر ريف مصر إلى حد القلزم » (معجم البلدان 69:2).

وبذلك يجعل ياقوت أرض الأردن محاذية لأرض التيه من الشرق، ويحددها في أرض مصر وفلسطين، وإن كان أحياناً يأخذ امتدادها حتى منطقة الجفار، ومفردها: جَفْر وهي الجفر الأردنية الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة معان بجنوب الأردن.

ورغم أن مواصفات الأرض تتراوح ما بين جبال صلبة ورمال، متوفرة في الأرض الأردنية فإن ذلك برهان على دحض نظرية أن جنوب الأردن جزء من التيه بالجغرافيا، وإن كانت جزء منه بالتسمية لتشابه الطبيعة فقط، مثلما هي برهان على أنه (أي جنوب الأردن) جزء من جنوب بلادنا أيضاً، أي أنه يثبت الضدين معاً. وهذا يبرهن على أن اسم التيه أطلق على مكان ضياع بني إسرائيل وما جاورها من الأرض، فظنّ بعض المؤخرين أنهم (بنو إسرائيل) تجولوا في جنوب الأردن، وهو أمر لا يتفق مع المنطق التاريخي ولا يتفق مع ما ورد في التوراة من رفض بني أدوم الأردنيين من دخول أو عبور اليهود إلى أراضيهم.

وجاء شيخ الربوة الدمشقي (ت 727 هـ)، أي حوالي قرن بعد الحموي، ليقول (شيخ الربوة) أن الجفار والتيه وزغر من أراضي مملكة الكرك. كما ذكر

التيه على أنه جزء من مملكة غزة، وذلك يبين (في رأيه) أن التيه يمتد ضمن الأراضي الأردنية والأراضي الغزيّة، ويتيح الفرصة أمام تصورات موقع التيه على أنه يمتد في شريط يمتد عبر جنوب فلسطين والأردن، وهنا نكرر القول أن التسمية شملت أجزاء من جنوب الأردن لتشابهها مع التيه، ولكن ذلك لا يعني دخول بني إسرائيل إليها أثناء تيههم.

أما الحميري الذي عاش في زمن شيخ الربوة، أي في القرن الثامن الهجري فيرى أن التيه بالقرب من أيلة، وأنها في جنوب الأردن، وليست في فلسطين، حيث يقول في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار أن « أرض التيه بمقربة من أيلة، بينهما عَقَبَة لا يصعدها راكب لصعوبتها، ولا تُقْطع إلا في طول اليوم لطولها، ثم يسير مرحلتين في فحص التيه ».

وبذلك نجده يحدد أن اسم التيه يشمل مناطق القويرة الحالية، ووادي عربة الجنوبي، وجنوب جبال الشراة ومنطقة النقب الأردنية التي كانت تسمى العقبة، والمشهورة بوعورتها وصعوبة تجاوزها، وتحتاج إلى يوم كامل لقطعها من قبل القوافل، وهو بذلك يخالف الحموي فيما ذهب إليه في تحديد موقع التيه.

ونجد الرحالة المغربي أحمد بن ناصر الدرعي الذي عبر الأردن في عام 1121هـ/ 1709م في طريقه لأداء فريضة الحج، حيث يرى أن التيه هو منطقة النقب (في فلسطين) والأراضي الممتدة ما بين النقب (العقبة) وأيلة (العقبة الحالية).

إن هذا التناقض في تحديد المكان يقودنا إلى استنتاج هام، وهي أن التيه عند العرب، هو المكان الذي يتيه فيه الإنسان، فلا يستطيع تجاوزه والسلامة من مهالكه إلا بدليل يعرف مداخله ومخارجه ومساربه.. وأن صفات القفر (القفار) والتيه لهذه الأجزاء من الديار الأردنية، وضياع قوافل الحجاج تارة، وما يلاقونه من صعوبات وعقبات تارة أخرى، جعلهم يتذكرون التيه الذي عاقب به الله

سبحانه وتعالى بني إسرائيل لعصيانهم وذنوبهم، فهم (أي قوافل الحجاج) يتيهون في هذه الأجزاء الأردنية كما تاه بنو إسرائيل في سيناء والنقب.

وقد اتفق في هذه الحالة أن يكون الجزء الجنوبي من الأردن، سُمّي التيه في مرحلة متأخرة، في العصر العباسي وما بعده، بسبب تصحّره، وامتداده بالصفات الجغرافية والسكانية لجنوب فلسطين وسيناء. الأمر الذي جعل مواصفات التيه منطبقة عليه، ولكن موقع التيه الحقيقي الذي تاه به بنو إسرائيل، ليس هذا المكان، وإنما سيناء والنقب. اي أن اسم التيه الذي أطلق على الأرض الأردنية جاء متأخراً، بينما ذاك الذي يطلق على سيناء والنقب هو الذي أشار إليه القرآن الكريم، ومن قبله أشارت إليه التوراة.

ومما يبرهن على قولنا أن التسمية جاءت بسبب الطبيعة القفراء، ما قاله بعض الشعراء:

لا تسكُنْ بوادي التيه منفرداً ... بلا دليل ترى وَقْعَ الرّدى فيه
فما سمعتُ كلاماً من أخي ثِقَة ... في الناس إلا وقال: احذر من التيه

وهناك شاعر ذكر في بيتين من الشعر ما يبرهن أن التيه (الذي تاه به بنو إسرائيل) هو ما تعارف عليه عامة الأردنيون وهو في سيناء وجنوب فلسطين وليس في الأردن، فهو إلى الغرب من أيلة وليس إلى الشمال أو الشرق. يذكر الشاعر المراحل التي قطعها ومرّ بها حتى وصل إلى أيلة، فيقول:

ومرّت إلى وادي القِبَابِ وبعدها ... سَرَت وبأرضِ التيه كان ضُحَاها
وفي نَخْلِ أمست وفي السطح قيّلَت ... وفي أيلة حطّت وزال عناها

فهو يذكر أن العناء في المراحل والتيه كان قبل الوصول إلى أيلة، حيث حطّ الرحال واستراح. وهذا الرأي الأصوب عندي، في أن التيه إلى الغرب من أيلة،

وأن إطلاقه على جنوب الأردن جاء بسبب ما يتصف به بما يطابق صفات أرض التيه كما ذكرنا، وأن هذه التسمية عليه جاءت في وقت متأخر زمن قوافل الحجاج القادمة من أفريقيا والأندلس ليس إلا.

وأما جبال الطبيق في جنوب شرق الأردن، والتي يمكن رؤيتها من المدورة، فسميت كذلك لأكثر من سبب، منها أن الجبال عالية وهي طبقة فوق طبقة من الصخور، وأما السبب الثاني فهي أنها حاجز يمكن للقوم أن يُطْبقوا على الأعداء ويهلكوهم، وذلك ما حدث عام 1910، عندما أطبق الصخور على الحويطات لإبادتهم، إلا أن عودة أبو تايه قائد الحويطات في تلك المعركة ابتدع خطة استطاع أن يهزم بها الصخور، وبقي يلاحق فلولهم حتى وصلت أم العمد بالقرب من مادبا، وإلى الجنوب من عمان.

وقد كانت التسمية القديمة للطبيق، هي الجَوْش **Jawsh** وكانت حسبما ذكر الهمداني (ت 334 هـ) أرض لبلقين وهي من قضاعة التي هي عشائر أردنية لا تزال امتداداتها موجودة بزخم كبير في العشائر الأردنية المعاصرة التي تعود بجذورها إلى قضاعة. أما البكري (ت 487 هـ)، فيقول أن جَوْش (الطبيق) أرض لبني القَيْن وحَّار من بني عذرة بن سعد، وذلك ما ذكره النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي المعروف، حيث يقول:

ساق الرُّفَيْدات من جَوْشٍ ومن جَدَدٍ　　　ومـاشَ مـن رَهْـطِ ربعـيٌّ ومجُّـاد

وفي العصر الأموي يذكرها الفرزدق بالاسم بقوله:

فَشَـبَحْنا قـناعاً رَعـتِ الحيـاةَ　　　أو جُـوْشُ فهـي قَعْـسٍ لِـواءَ

وأما المتنبي فيذكرها لدى مروره بها عند ارتحاله من مصر إلى العراق فيقول:

طَـرَدْتُ مـن مِصْـرَ أيديهـا بأرْجُـلِها حـتى مَرَقْنَ بنا من جَوْشَ والعَلَمُ

-11-

الأردن زمن الأمم والقرون الغابرة

إن الدارس لطبوغرافية الأردن، يجد أحواضاً أرضية واضحة، يبدو، بما لا يقبل الشك، أنها كانت ذات يوم بحيرات واسعة، مثل الجفر، الديسة، حسمى، وبحيرة لسان البحر الميت، وأودية الحسا والموجب والوالة، وواحة الأزرق، وباير، والبقعة (شمال عمان)، والظليل، والقيعان الواسعة في البادية الأردنية.

إن وجود مثل هذه البحيرات في حينه، وارتفاع منسوب البحر الميت، ووجود بحيرات واسعة أخرى في وادي عربة، كان نتيجة لطبيعة المناخ الماطر، مما أثر على البيئة، فتوفرت ونَمتْ الأشجار والغابات، واجتذاب السكان، وانكفائهم، وبالتالي إلى الاستقرار والبناء والإعمار وعدم الحاجة إلى الحروب، بسبب توفر سُبُل الحياة في حينه كلٌ في موقعه.

وقد أدت مثل هذه الأجواء الطبيعية وتوفر الموارد والمياه والمناخ المعتدل وخصوبة التربة، وقدسية المكان وما فيه من بركة وتنوع بيئي وإنتاجي إلى طيب الحياة والهواء والبيئة، واستقطاب السكان. إلا أن الثابت في طبيعة الحياة، هي دورتها ودائرتها، حيث بدأت تنخفض هذه البحيرات حتى آلت إلى التلاشي، وذلك ما نجد عليه براهين من الحفريات بوجود بقايا مخلفات استقرار للإنسان حول هذه المنخفضات والبحيرات، وأنه كلما تحركنا نحو قاع البحيرة، كلما كان عصر إقامة هذه المستوطنات أحدث تاريخاً من تلك التي تعلوها، مما يدل على أنه كلما انخفض مستوى الماء، كلما لحقه الإنسان لاستخدامه، بالتالي يكون الخط الأدنى في كل مرة أحدث من حيث الاستقرار السكاني من الذي سبقه ويعلوه.

وفي العصر الحديث استطاع الإنسان أن يستنبط الماء الجوفي من خلال الوسائل العصرية والآلية، وذلك لغايات الاستخدام الزراعي والصناعي وغير ذلك، والشرب للإنسان والحيوان (أي الاستهلاك البشري والحيواني).

وفي مراحل غارقة في التاريخ، بدأ المناخ يزداد جفافاً بعد أن كان رطباً، وبدأت تنحسر الثروة النباتية من الغابات والأشجار مع توسع مدى التصحُّر، وبدأت الحروب بين التجمعات السكانية الأردنية في العصور الخوالي وذلك لإعادة توزيع الثروة التي بدأت تَشِحُّ والتوازن الاجتماعي والسكاني والبيئي والاقتصادي بين الناس، وبسبب عدم توفر الموارد الكافية لتغطية حاجات الجميع ضمن المنطقة الواحدة.

ويبرز نمط جديد من الاستيطان وهو الاستيطان الموسمي أي البقاء في المكان ما توفر الماء والكلأ والأمن والحماية؛ إذ أصبحت هذه لا تتوفر إلا لوقت محدود من السنة، في هذه الظروف بسبب شحّ الموارد والمياه، وتحرك التجمعات السكانية الأخرى بحثاً عن سبل الحياة والصراع من أجل البقاء. ولكنها كانت تستمر وتستقر إذا تعاقبت سنوات سِمان.

وبذلك مرّ الإنسان الأردني، شأنه بذلك شأن أخيه الإنسان في كل مكان فوق الأرض، من مرحلة الحركة والتنقل إلى الاستقرار الموسمي، إلى الاستقرار الدائم، ثم الاستقرار الموسمي، ثم التنقل والحركة، وكل ذلك مرتبط بالظروف المناخية، وتوفر سبل الحياة، وتوفر الأمن والحماية أو عدم توفر هذه أو شحّها أو شحّ أو عدم توفر أيٍّ منها.

وعندما استقر الإنسان، وشعر بالأمان وتوفر موارد الرزق، بنى البيوت، وأوجد حضارة وثقافة تتفق مع ظروف الحياة الجديدة وإمكاناتها وطبيعتها، وقد

تم العثور على هذه الدلائل في الحفريات المختلفة والمتعاقبة في سائر أنحاء الأردن، وبخاصة في المواقع المذكورة أعلاه.

وقد استوجب وجود القرى، ضرورة وجود حِمىً للقرية، ووجود قوة حماية لها، ومجتمع منظَّم بما يحفظ استمراره واستقراره؛ وبالتالي ظهرت القيادات الاجتماعية التي تحولت إلى قيادات سياسية، واستطاعت بعض القرى القوية أن تهيمن على ما حولها من القرى، وتتوسع، حتى أنشأت الممالك المتعددة أو ممالك القرى أو ممالك المدن، مما استدعى وجود التجارة والتبادل التجاري، والبحث عن تغطية الحاجات وتصدير الفائض عن الحاجة، وهكذا نشأت مفاهيم وثقافات سياسية وتجارية، وضرورة الإلمام بالطرق التجارية وثقافات الشعوب الأخرى، وبالتالي الاتفاقيات السياسية بين هذه الحكومات المحليّة، سواء على شكل تحالفات أو تمتين علاقات من جهة أو حروب واحتلال وثورات وتحرر من جهة أخرى.

وقد أدى الاستقرار والتبادل والتجارة إلى وجود صناعة، ووجود ثقافة دينية، وفكر ديني وسياسي، وتصوّر للحياة والروحانيات والحياة بعد الموت، أقول أدّى إلى وضع التماثيل كأصنام تعبد أو تذكارات لأشخاص مهمين في الأسرة أو المجتمع أو الطبقة الحاكمة تحولت إلى أصنام فيما بعد، ثم آلهة تُعبد من دون الله سبحانه، أو تُتّخذ وسيلة للتقرُّب إلى الله سبحانه (!؟!) .

وكان البناء في البداية في كهف طبيعي أو محفور بيد الإنسان ثم من المادة المتوفرة في الموقع من طين وحجر وماء من نفس الموقع، وفي الموقع ذاته، ثم تطور مع الزمن، ونقل الحجارة من أماكن مجاورة، ثم استوردها من بلدان أخرى، وهكذا، كلما تطور حضارياً وتوفرت له سبل الاتصال والنقل، كلما اتسعت مداركه واتصالاته بالبلدان والشعوب الأخرى.

وحيث كان الأردن خصباً، فإن ذلك أدى إلى تكدس بشري هائل، وحبهم لهذه الأرض، لأنها وفّرت لهم سبل العيش الرغيد؛ وغالباً ما كانت التحركات والهجرات طويلة المسافة باتجاه: جنوب شمال، بصورة تفوق بكثير تلك الهجرات العرضية: (غرب شرق). وقد عثرت الحفريات على مئات المواقع الأثرية المستقرة في الأردن، في العصور الغابرة التي تعود إلى ربع مليون سنة من الأوقات المعلومة في سجلات التاريخ. ووجدت الحفريات قطعاً وعلامات أثرية مصرية، وعراقية (آشورية / بابلية / كلدانية) وسورية ويونانية ويمنية، كدليل على صلة الأردن بهذه البلدان وشعوبها منذ غابر الأزمنة، وأن الأردن لم تكن بمنعزل عن البلدان المجاورة، أو مراكز الحضارة في الرافدين أو النيل أو اليونان أو بلاد الشام أو مستودع العرب (وهي اليمن السعيد).

وحيث أن دورة الحياة لا تجعل شيئاً على حاله، وأن «التغيُّر» هو الثابت في الحياة، فإن هذه المدن قد آلت إلى الدمار لعدة أسباب منها:

1- تغير المناخ، وتقلّباته الحادة التي أدّت إلى شحّ الموارد، وإلى الجفاف.

2- الغارات والغزوات والحملات العدائية الواقعة على الأردن من الشعوب والأمم الأخرى الذين لابد وأصابهم مثلما أصاب هؤلاء الذين وقعت الإغارة عليهم من جوع وحروب ودمار واقتلاع من الديار. وبمعنى آخر: الغارات الطبيعية والبشرية، وتسبب الأولى باحتدام الثانية، والنتيجة هي الأمراض والحروب وبالتالي موجات الإبادة أو التناقص السكاني.

3- قدوم جماعات غازية أو محتلة من خارج المواقع الأردنية.

4- النيران التي أتت على المدن، حيثما يُظَن في الحفريات، وربما تكون هذه النار جاءت بسبب غضب إلهي، أو سوء المناخ وظروفه، أو الحرق الذي يمكن أن يوقعه المحتلون كنمط من سياسة الأرض المحروقة التي أصبحت متُبعة في

العصر الحديث أيضاً، وربما الحرق الذي يمارسه المطرودون من أرضهم فلا يرغبون أن يتركوا شيئاً للمحتلين أو المعتدين، كي لا يزدادوا عليهم قوة، وربما هذه الأسباب مجتمعة.

-12-

ومن الآثار دليل

ويذكر د. جمعة محمود كريم في كتابه: الكرك عبر العصور ما يلي: « كما تمكن نلسون جلوك N. Gluek (عالِم آثار) التعرف على الفخار المنسوب للعصر البرونزي المبكر بمراحله الثلاثة الأولى في عدد من المواقع الأثرية الواقعة على هضبة الكرك. وخلص جلوك من خلال مسحه لمنطقة هضبة الكرك في العقد الثالث من القرن العشرين إلى نتيجة خلاصتها: أن هناك حضارة قوية على هضبة الكرك في القرن الثالث والعشرين = 2200 ق.م والقرن الثامن عشر 1700 ق.م. وقد حدد مجموعة (جلوك) مواقع أثرية مهمة تعود لتلك الحقبة، نذكر منها: اللجون، وأدر، خربة المدينة، وبالوع، ورجم أم قليب، ومسعر، وفريوان، والمعنع.

وجاءت أعمال حفريات أثرية أخرى على هضبة الكرك كأعمال أودو فورسش udo Worschech وماكسويل ملر MaMiller، مكملة ومصححة لما قام به جلوك في العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين. وقد سجّل ميلر ورفاقه 55 موقعاً أثرياً، وقد ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للمرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي المبكر، نذكر من أهمها: أمرع، وأم قليب، ومسعر، ورجم برجس، والخاريع، وأم الحباج، والحميمات، وخربة المنسحلات، ومعنع، والمحرقات، وخربة ساكا، وخربة القريتين، وجحفة، وأدر، واللجون، وعي، وعينون، وخربة الحوية، وفقيقس، ومدين، وخربة أم علندا ». اهـ.

ولا يتخيل أحد الآن أن هذه القرى الأردنية البسيطة التي كانت خراباً دارسة وأطلالاً مهملة، وتحولت حديثاً إلى مواقع استقرار سكاني، وتوسع في البناء وعدد السكان، أقول لا يتوقع أحد أنها كانت مراكز استقرار وتحضّر قبل عشرين ألف سنة من هذا التاريخ الذي نعيشه الآن. وإن الأردنيين الأوائل فيها لابد وأحبّوها وعمّروها وحَمَوْها (من الحماية) ودافعوا عنها بالغالي والرخيص، وكان مناخ وطقس الأردن أكثر حناناً عليهم لنقائهم وحبّهم للأرض، أكثر منه على المجموعات أو الشعوب المتأخّرة أو القادمة.

وعندما نزحت القبائل العربية من جزيرة العرب، سميت تلك التي اتخذت الساحل اللبناني بالفينيقيين، وسمي الساحل اللبناني بالساحل الفينيقي، أما من نزل بفلسطين فكان اسمهم الكنعانيون، وسميت فلسطين باسم: أرض الكنعانيين. أما الأردن، فوضعه مختلف تماماً، حيث نزلته قبائل الأموريين العرب، وسميت ممالكهم في الأردن، حسبما هي المناطق التي استقروا بها، وهي: أدوم ومؤاب وحشبون، وعمون وباشان، بالممالك الأمورية، التي كانت تمتد من شواطئ بحر العقبة / الأحمر (بحر القلزم) حتى جبل الشيخ شاملة بذلك الأردن الحالي فضلاً عن جبل الشيخ وهضبة الجولان، وبلاد حوران ودرعا، والجوف ووادي عرب ووادي الأردن بجنبيه وتمتد جنوباً إلى خط يربط ما بين تبوك والبحر الأحمر.

وقد كانت تسمى هذه البلاد باسم: الأردن، كما ورد في التوراة، وهو ما ذكرناه مفصلاً في كتابنا هذا. فنصوص التوراة تتحدث عن ممالك الأموريين ولكن ليس على بلاد الأموريين، بل بلاد الأردن، أو بلاد عِبْر الأردن، أو بلاد برية الأردن، أو بُقْعة الأردن، بعكس تسمية الساحل الفينيقي أو أرض كنعان، كما ذكرنا أعلاه.

وفي هذا فصل واضح بين الكيانات السياسية المتعددة التي تنضوي في النهاية تحت تسمية واحدة وهي: الأموريون، لكن النصوص تتحدث عن أرض الأردن على أنه: كيان وطني واحد، وإن تعددت الكيانات السياسية فوقه. ذلك أن هذه الكيانات تتحد عندما تشعر بالخطر الذي يهددها أو يهدد الكيان الوطني.

وقد كان لهذه الممالك علاقات مع مصر والعراق كليهما على حدّ سواء، وسوريا واليونان؛ فضلاً عن اتصالهم بعضهم ببعض، وقد سميت القبائل الأمورية في سجلات العراقيين (الآشوريين) باسم: مرثو (السجلات السومرية)، واسم أمورو (أي الأموريون) في (السجلات البابلية). أما في النصوص المصرية فاسمهم: الشاسو أو الشاتو (ربما جاءت من الشاسع أي الواسع والبعيد عن مصر) وربما تعني البرية الشاسعة.

وقد كانت هذه القبائل الأردنية، وامتدادها في جنوب فلسطين تمارس الغزوات والهجمات المتكررة على مصر لغايات النهب أو السيطرة على تلك البلاد. وكان من جملة الهجمات ما قام به الهكسوس من بلاد الشام بغزو مصر، وتأسيس مُلك له ولأسرته فيها، مما كرّس مفهوماً هاماً أن جنوب بلاد الشام (الأردن وجنوب فلسطين) يشكل خطراً وتهديداً دائمين على أمن مصر وثرواتهم وسكانهم، الأمر الذي استدعى حلّه، من خلال عدة إجراءات.

1- وضع الدعوات (مفردها دعاء) الخاصة في الجنائز والقبور التي سميت نصوص دعوة اللعنات Exccration Texts، على أعداء مصر في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد.
2- الهجمات المستمرة من الفراعنة على بلاد الشام ومنها الأردن بتطويع الثائرين وطرد أية قوى تقوم بالإغارة أو الهجمات على مصر.

3- وصل بعض الفراعنة إلى بلاد الرافدين أكثر من مرة عبر الأردن، وذلك لتأمين حدودهم الشمالية والشمالية الشرقية من الهجمات.

4- استفاد الفراعنة من القار (في البحر الميت) والنحاس (في وادي عربة)، وقد استطاعوا وضع حاميات حولها في فترة من الفترات، لضمان استغلال هذه المعادن لمصلحة مصر، حيث أن الحاميات كانت مصرية، فوق الأرض الأردنية.

وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، تمكن الفرعون المصري أحمس، من طرد الهكسوس، حيث لاحقه عدد من الفراعنة مثل: أحمس، وتحتمس الثالث، إلى أن أوصلوه إلى جنوب الشام، أي: إلى حيث بلاده الصلية (بلاد الهكسوس).

وقد اشتهر الفرعون تحتمس الثالث بحملاته المتابعة على المنطقة المذكورة، ومنها الأردن، حيث وصلت طلائع جيشه إلى نهر الفرات، وقد مرّ في إحدى حملاته هناك عبر جنوب الأردن (مؤاب)، حيث نجد قائمة من أسماء المواقع الأردنية التي مرّ بها تحتمس الثالث، مدوّنة في قائمة مجدّو؛ ومن هذه الأماكن: جلول (من قرى بني صخر في محافظة مأدبا)، ذيبان (جنوب مأدبا، شمال وادي الموجب)، وادي الموجب (أرنون سابقاً)، الياروت (من قرى لواء القصر شمال الكرك)، والكرك، وبتير (في محافظة الكرك).

ليس هذا فحسب، بل إن جنوب الأردن (مؤاب) ذكرت ضمن المناطق التي احتلها الفرعون المصري رمسيس الثاني (1304-1237 ق.م). وقد سجلت الآثار المصرية هذه الأسماء الأردنية، كما سجلت الحوليات الآشورية مواقع وقبائل أردنية عربية أخرى، حيث نجد عمون تقف في وجه دولة آشور وترفض دفع الإتاوة، وكذلك فعل قادة مؤاب الأمر نفسه.

-13-

العلاقة مع ممالك العراق

وإذا اعتبرنا أن دومة الجندل أرض أردنية حتى عام 1921 عندما انسلخت عن الأردن بعد رسم الحدود السياسية بموجب اتفاقية سايكس- بيكو، فإن ملكة هذه الواحة العربية الأردنية وهي الملكة زبيبة العربية الأردنية كانت ملكة العرب (أي ملكة البدو)، وكان مركزها في دومة الجندل، حيث اضطرت لدفع الإتاوة للدولة الآشورية.

ونستفيد من الحوليات الآشورية أنها ذكرت قبائل عربية بالاسم، في جنوب الأردن وشمال الجزيرة العربية (في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد) منها: قبيلة مسأة، وقبيلة تيما (تيماء) وقبيلة خيابا وهي من القبائل الأردنية المديانية (من قوم شعيب الذين لم يصبهم الغضب الإلهي) وقد اتخذت المديانية هذه منازلها إلى الشرق من تيماء. ومن القبائل الأخرى أيضاً: قبيلة البدنة (ربما يكون البدون أو البدانية بعض بقاياهم)، وكانت البدنة في واحة العلا وديدان، وقبيلة السبأة – أي السبائيين وقبائل ثمودي (أي الثموديين)، وقبائل مرسيماني، وقبائل العبادي أو (العبايبدي). (لمزيد من التفاصيل في ذلك، لطفاً انظر شمال الجزيرة العربية في العهد الآشوري (إحسان عباس ومحمود أبو طالب)، عمان، 1991، ص 4-5).

وسجلت الحوليات الآشورية أيضاً برهاناً على اتصال آشور بالأردن، وأن بلادنا الأردنية كانت ملتقى الحضارات سواء بالخصام، أو بالوئام، بالحرب أو بالحب أو بكليهما، بالإتاوة والأخوة، مما أعطانا شيئاً من المعلومات عن الأردن من خلال الحوليات العراقية (الآشورية، البابلية، الكلدانية) والمصرية (سجلّات الفراعنة) والسورية، فضلاً عن اليمنية باعتبار اليمن المستودع الذي يزوّد الأردن بالسكان.

وقد سجلت الحوليات الآشورية أربعة ملوك حكموا مملكة مؤاب الأردنية الأمورية العربية، وهم: شلمانو (ربما سلمان أو سليمان) Shalmanu وكاموش نداب Kamoshnadab، ومصوري Musuri وكاموش عيسى Kamosh'asa وقد حصل نمط من التآلف والتحالف الآشوري الأردني، نراه في الدعم العسكري المؤابي الأردني العربي من قِبَل كاموش ناداب، في حروب سنحاريب ضد الممالك الإسرائيلية.

وقد فرض إمبراطور آشور نمطاً من الجهود الحربي يدفعه الأردنيون لدعم حملاته ضد الممالك الإسرائيلية، زمن الإمبراطور تفلات بلاسر الثالث، وسنحاريب، وجاءت على شكل مواد عينية وأخشاب وجنود للقتال وقد وصلت الحالة الأردنية العراقية في زمن آشور بانيبال على درجة عالية من التحالف، وتم إدراج هذه الممالك ضمن حلفاء آشور بانيبال، كما كان بينهما اتفاقية دفاع مشترك ترتب عليها أن أصبحت آشور حامية للممالك الأردنية.

وعندما قام الملك قيدار (من بقايا الثموديِّين) في شمال الجزيرة العربية بالإغارة على الممالك الأردنية، وقام الملك المؤابي كاموش عيسى (أسا)، بدَحْر الملك القيداري وأعاده إلى عاصمته الحجر (مدائن صالح). وقد أدت هذه الصراعات بملك قيدار أن يجمع من حوله تحالفات قبلية من شمال جزيرة العرب لمنع الآشوريين والأردنيين من دخول بلاده أو احتلالها، حيث نشأ تحالف قبلي يدعى: قيدار.

إلا أن الممالك الأردنية كانت مضطرة للاستمرار بالتحالف مع العراقيين ليس لدحر القيداريين (من الجنوب) فحسب، بل ولدحر الإسرائيليين أيضاً (من الغرب)، وهو الأمر الذي تجلى في التحالف الأردني البابلي (زمن الدولة الكلدانية التي اتخذت من بابل عاصمة لها)، حيث تم توجيه القوة الأردنية المتمثلة

في القوتين العمونية والمؤابية، بالإضافة إلى القوة العسكرية العراقية/ الكلدانية، نحو مملكة اليهود في فلسطين، حيث انتصروا عليهم، وجرى السبي المسمى: السبي البابلي. وإن الممالك الأردنية إنما وجدت في تحالفها مع الكلدانيين فرصة للثأر والانتقام من المملكة اليهودية، ولحماية بلادهم من خطر الكلدانيين والإسرائيليين بضربهم بعضهم ببعض، وليس بمجابهة أيٍّ منهم منفرداً.

ويذكر د. جمعة محمود كريم، في كتابه الكرك عبر العصور، (ص107-108) ما يلي: « ويرى الدارسون لأسماء الأماكن المؤابية الواردة في التوراة، مع وجود خلافات في وجهات النظر أحياناً بينهم، أن هذه الأماكن التي يمكن ذكرها في هذا المجال هي: أرنون (وادي الموجب)، وبيت جامول (خربة الجميل الواقعة على الشرق من عروعير)، وبيت هاران (تل الرامة أو تل أكتانو الواقعين في منطقة الشونة الجنوبية) وديبون (ذيبان)، وحصوت (خربة القريات، خربة القرية، أو قرية لب)، وحورونايم (موقع بالقرب من كثربة)، وحشبون (حسبان) ويام هميلح (البحر الميت)، ولوحيت (يُعتقد أنها كثربة) ومدمن (يُعتقد أنها دِمْنَةُ)، وميدبا (مأدبا)، وميفعة (أم الرصاص) ومثانة (المدينة على حافة وادي الثمد في الجهة العلوية لوادي الوالة)، ونبو (جبل نبو – خربة المخيط) وعطاروت (عطروز – غرب ذيبان) وعي، عباريم (ربما تكون باير) وعلمون ويلاثايم، (يعتقد أنها دليلة الشرقية)، وعار (خربة البالوعة أو خربة المصنع) وعروعير (عراعر) وهفسجة (راس صياغة) وقديموت (قصر الزعفران أو السالبة أو الرامة)، وقير حرست (الكرك) وقير مؤاب (الكرك) وقريوت (خربة عليان شرقي ذيبان) وقرياتيم (خربة القريان قرب مأدبا وماعين)، وسبمة (ربما قرن الكبش بين حسبان ومأدبا) ». اهـ. وهناك جورة الكبش في وادي شعيب.

لا يتصور أحد أن هذه القرى الأردنية، كانت في غابر الأزمنة مراكز استيطان بشري مزدهرة، وأنها كانت جزءاً من ممالك أردنية قوية، وأنها كانت

قادرة على توقيع اتفاقيات وتحالفات دولية وإقليمية مع حضارات وشعوب أخرى، واستطاعت تحويل الأردن إلى: ملتقى للحضارات، كما قلنا. وقد ذكرنا هذه الأسماء، لنقول: أن العناية الجغرافية بالأردن، كانت واردة في التوراة والمنقوشات الفرعونية، والحوليات الأشورية والفرعونية، والآثار البابلية، وذلك لأن الأردن تشكل مصدر خطر ضد هؤلاء جميعاً إن فلتت من أيديهم، وتشكل مصدر أمن وطمأنينة لهم إن جرى احتلالها أو التحالف معها، وبمعنى آخر تحييدها بأية طريقة، ومن الأفضل لهذه الدول إجراء التحالف مع هذه الممالك.

-14-

الأردن ممرّ ومستقر

لقد كانت الأردن منطقة عازلة وواصلة وممرّ ومستقرّ، وذلك بحكم موقعها وطبيعة أرضها وشعبها في آنٍ واحد. عازلة ضد الأعداء إن تحالفت مع أي طرف مجاور ضد عدوّه الآخر، واصلة للعداوة والصداقة ضد أو مع الأعداء. فالأردن لها موقع فريد يجمع تكافؤ الأضداد، ولا غنى لأية قوة شرقية في العراق، أو غربية في مصر وفلسطين، أو شمالية في سوريا، أو جنوبية في جزيرة العرب، أقول لا غنى لأيٍّ من هؤلاء عن الأردن، كان هذا منذ أقدم العصور التاريخية والبشرية، ولا زال وسيبقى.

وقد أشرنا سابقاً كيف ذكرت الآيات القرآنية الكريمة وجود هذه العلاقات التجارية بين الأردن والدول الأخرى المجاورة، وكيف أشارت التوراة إلى ازدهار هذه البلاد وخصبها. وإن ما ثبت من خلال الحفريات بأن هذه الأسماء من المدن والقرى التي نجدها الآن وينظر البعض إليها على أنها حديثة أو لا قيمة لها أو ليس لها تاريخ إنما هي ضاربة في أعماق التاريخ منذ آلاف السنين، وأنها كانت مستقرّاً عندما كانت بلدان أخرى مسرحاً للوحوش الآدمية والحيوانية، كما أن

الأردنيين كذلك ضاربون في أعماق التاريخ، وأنهم كانوا يتنقلون من موقع إلى آخر في الأراضي الأردنية، فبقي حبهم لها متوارثاً عبر القرون والأجيال، رغم اختلاف الدول واختلالها، ورغم الحروب القبلية، والدولية التي كانت تُشن عليهم من الشرق أو الغرب، أو الشمال أو الجنوب، أو تنبع من الداخل على شكل حروب أو غزوات، أو عداوات ومناوشات، أو ثورات أو نزاعات.

وإن ما ذكرته هنا من نتفٍ عن وضع الأردن زمن الأمم الغابرة، ليس إلا ومضة غير كافية، لكنها مهمة حول موقع الأردن وأهله وتاريخهما. ولا شك أن الأمر يحتاج لمزيد من الدراسات العميقة بهذا الموضوع، حيث يتعذر فصل الآثار عن التاريخ ويتعذر فصلهما عن السياسة وعلم الاجتماع، أو عن أدب الرحلات في الموضوع الأردني، إذ أنها جميعاً متكاملة، متكاتفة؛ لا ينفصل أيّ من هذه جميعاً عن الأخرى.

ولا أكون مشتطاً بالقول، إن قلت أن قدسية وحرمة الأرض الأردنية وما بارك الله سبحانه وتعالى فيها من أرض وإنتاج، وطبيعة، وشعب، قد جعلها المقوّم الرئيس لوجودها واستمرارها، واستقرارها عبر العصور. وأنه يمكن للساسة والمؤرخين والمفكرين أن يختلفوا حول ما إذا كان في الأردن مقومات الدولة أم لا؟ ولكلٍّ من هذه الآراء هوى ونصيب وبرهان. ولكنهم يجب الا يختلفوا أنها عميقة عريقة، وأن أية دولة من الدول التي قامت بها كانت ذات مقومات كافية في مفاهيم تلك الأزمنة الغابرة.

وبغض النظر عن صدق أيٍّ من الرأيين ومجانبة أو مطابقة أحدهما للصواب، إلا أن الأصح، والذي لا لبس فيه، هو أن المقوّم الأول والأهم والأدوم للأردن كوطن ودولة وشعب، أقول المقوّم الأول والأهم هو قدسيتها وحرمتها ومباركة الله سبحانه لها وبها، وحمايته لهذه الأرض الطاهرة، والثأر لها من الأقوام الذين يدنّسون عفّتها.

وأما المقومات الأخرى لسائر الدول من الأرض والشعب والنظام والمقدّرات فإن خلخلتها أو ندرتها أو اندثارها كفيلة بإزالة ذلك الوطن أو الدولة فيه من الوجود، ولكن ذلك لا ينطبق بحال من الأحوال على الأردن، لوجود الركن الأهم من المقومات، وهو ما ذكرناه أعلاه.

والنقطة الأخرى: أن الدارس الموضوعي المتفحّص للأدلة والأحداث التاريخية، يجد أن هناك موقعان في الأرض، إذا دالت منه وعنه دولة من يحكم أيٌ منهما، فإن دولته تزول عن هذا الموقع وإلى الأبد، وربما تذهب هي (أي الدولة) إلى غير رجعة، وهما: مكة المكرمة وما فيها من البيت العتيق والكعبة المشرّفة من جهة؛ والأردن (من جهة أخرى) بامتداده الجغرافي السياسي الذي ذكرناه في هذا الكتاب.

ففي مكة المكرمة كانت جُرْهَم، وعندما طغت وأفسدت ذهبت إلى غير رجعة، كما كان مشركو قريش وذهبوا إلى غير رجعة، وكان الأمويون والعباسيون، والأتراك ومحمد علي باشا... وعندما ذهبوا من الحرم الشريف لم يعودوا إليه، وإلى غير رجعة.

ثم كان حكم ما بعد الأتراك، حتى عام 1924. من هنا، فإن حرمة هذا المكان المقدس تأتي بالوبال على من لا يحسن التعامل معه أو حمايته أو حماية حرماته، أو حرمات المسلمين فيه. وإن أي حكم لهذه الديار المقدّسة التي تتضمن الحرمين الشريفين لابد وأن يكون بمستواهما من الاحترام والإكرام والمهابة والعبودية لله، والتقوى والصلاح، وإلا فإن زوال دولة مثل هذا الحكم في تلك البقاع الطاهرة تعني ألا يعودوا إليه ثانيةً، إلى الأبد.

والأمر نفسه ينطبق على الأردن، حيث زالت أنظمة الممالك والإمارات الأردنية، القديمة وما قبلها، والفرس واليونان والرومان والدول المتعاقبة حتى

الصليبيين والأتراك، ولا أقول زال الشعب، وإنما الكيانات السياسية. وعندما انتهى هؤلاء من الأردن، انتهوا منه وممن حوله، ولكن إلى الأبد أيضاً، ولم يعودوا إليه بأية صيغة من الصيغ، وهذا يدل على قدسية المكان ومهابته، فضلاً عن حرمته وكرامته عند الله سبحانه، وبالتالي فإن من ينتهي منه إن كان حاكماً، فلا يعود إليه، ما دامت السموات والأرض. وعندما انتهى الأتراك من الأردن ذهبوا إلى غير رجعة.

-15-

الكيان الوطني الأردني

إذن فالأردن أرض حباها الله بالعديد من المناظر الطبيعية الخلاّبة، وأكرم ثراها بما عليه وفيه من مواقع، ومقامات، وأضرحة للأنبياء والصحابة الكرام سلام الله ورضوانه عليهم، منذ أن عمّ نور الإسلام هذه الأرض.

لقد ظل الأردن على المدى ملتقىً برياً هاماً لقارات ثلاث، وجسراً يربط جغرافياً ما بين أفريقيا، وآسيا، وأوروبا. وسعى جيرانه، أصحاب الحضارات العظيمة في العالم القديم، على مرّ العصور، إلى السيطرة على أراضيه، أو مصالحته والتوادّ معه.

ونظراً لموقع الأردن الاستراتيجي، ومناخه اللطيف، ظلّ عامراً بالحياة باستمرار في كل عهد من عهود التاريخ منذ عام 9500 قبل الميلاد إلى الآن وإلى أن يشاء الله. وهذا الزخم الحضاري الذي شهده الأردن ترك بصماته الواضحة في أرجائه وجَنباتِهِ، بحيث تحوّل إلى متحف مفتوح، تشهد معالمه المتنوعة على موروثه الحضاري الغني الذي يراه الزائر حيثما رحل اليوم.

والأردن، لدى المسلمين، أرض مباركة، ينتشر في ثراه العديد من المقامات المقدسة والأضرحة. وزيارة هذه المواقع أمر مباح في الإسلام للرجال والنساء

على حدٍّ سواء. وعند هذه المقامات، يستزيد المؤمنون علماً بدينهم وتفهّماً وتعزيزاً له، وتبصّراً بتاريخهم، وتأمُّلاً بعظمة أولئك العمالقة من الفاتحين الأوائل.

وقد أنعم الله على الأردن بتاريخ ديني ثري. فهو يقع بين مكة المكرمة، أقدس مكان على وجه الأرض لدى المسلمين، والقدس الشريف، المدينة المقدسة لدى الديانات التوحيدية السماوية الثلاث. وللأردن دور مركزي في تاريخ أهل الكتاب. فالعديد من الأنبياء الإبراهيميين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم، والإنجيل، والقرآن الكريم، ارتبط تاريخهم بالأردن، فهم إما عاشوا فيه أو على الأقل ارتحلوا إليه عابرين أرضه، أو توسّدوا ثراه راضين مرضيّين عندما لقوا وجه الله سبحانه.

ومن المتفق عليه بصورة عامة أن أرض الأردن الحديث تشكل جزءاً من الأرض التي باركها الباري جلّت قدرته حول المسجد الأقصى، كما ورد في القرآن الكريم ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1]. إضافةً إلى ذلك، فقد روي في السيرة النبوية لابن هشام أن المشركين اجتمعوا في الليلة التي سبقت المؤامرة لاغتيال النبي محمد ﷺ ، في مكة المكرمة قبل الهجرة، وفيهم أبو جهل، فقال لهم أبو جهل: «إن محمداً يزعم أنكم إن بايعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن...». وقد ذكر النبي ﷺ عمّان مقارنةً بالجنة، في قوله: «إن حوضي من عدن إلى عمّان البلقاء، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل...». وحتى يومنا هذا، ما زالت البلقاء إحدى المحافظات الأردنية الاثنتي عشرة.

ولقد قامت أرض الأردن مرتين بدور في حياة سيدنا النبي محمد ﷺ . الأولى قريباً من موعد ولادته، في أم الرصاص التي تقع جنوب شرق مأدبا، حيث يقال إن الذي كان على الدين الحنيف: زيد بن عمرو بن نفيل من مكة سمع نبوءة عن أن نبياً سيظهر بين قومه بدين إبراهيم. والثانية أثناء مشاركة النبي محمد ﷺ وعمّه أبي طالب في رحلات القوافل التجارية بين مكة ودمشق، عند موقف القوافل في بصرى الشام حيث جرت المواجهة الشهيرة في عهد الطفولة مع الراهب بحيرة (بحيرى). وهنا أيضاً واجه النبي ﷺ ، وبرفقة صاحبه الجليل ميسرة ﷺ ، الراهب نسطور. وإضافةً إلى ذلك، وفي رحلته ﷺ إلى سوريا، يقال إنه استظل بشجرة ما زالت قائمة حتى اليوم قرب الصفاوي في محافظة المفرق (شمال الأردن).

كان التوسع الأول للإسلام وامتداده خارج الجزيرة العربية شمالاً، إلى الأردن. وهنا حدث الاتصال الأول بين الإسلام والعالم غير العربي، البيزنطي؛ ونتيجة لذلك وقعت عدة معارك استراتيجية في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري): مؤتة، واليرموك، وفحل (بيلا). واستشهد العديد من صحابة رسول الله ﷺ وقادته العسكريين ودفنوا في الأردن، رضي الله عنهم جميعاً، وتعتبر أضرحتهم ومقاماتهم اليوم معالم هامة يقصدها المسلمون الأتقياء للزيارة.

-16-

ربّـة عمـون

وإذا كانت عمّان هي العاصمة الحديثة والقديمة للأردن، فقد عُرفت في عهد العمونيين باسم ربّة عمون، وفي العهد اليوناني – الروماني باسم فيلادلفيا. وفي الواقع، فإن عمّان واحدة من أقدم المدن في العالم التي ظلت مأهولة باستمرار، وكانت إحدى المدن العشرة في العهدين اليوناني والبيزنطي. وفي

الأصل، كانت عمّان تقوم على سبعة تلال، أما الآن فهي تنتشر فوق ما لا يقلّ عن تسعة عشر تلاً، فضلاً عن السهول والوديان والبطاح المختلفة.

وتتعالى فوق أحد تلال عمّان، القلعة العمونية القديمة حيث كشفت الحفريات عن آثار تعود إلى العصر البرونزي وتمتد مُتّصلةً إلى العصور العربية الإسلامية. وعلى هذا التل، تقع آثار معبد هرقل، وآثار قصر أموي يعود تاريخه إلى عام 720م، وكنيسة بيزنطية من القرن السادس الميلادي. وعند سفح التل، نجد مدرّجاً يتسع لستة آلاف شخص، ما زال محافظاً عليه بشكل جيد، يقال له خطئاً: المدرج الروماني رغم أنه بُني من قِبَل الأردنيين ولكن زمن الاحتلال الروماني للأردن.

ومن المدرج المذكور، يمكنك أن تسير في شوارع مركز المدينة العاصمة عمّان، لتصل إلى المسجد العمري (المسمى الحسيني الآن) وهذا المسجد ذو الطراز العثماني أعيد بناؤه عام 1924 فوق الآثار الباقية لمسجد بناه عام 640م الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ .

وفي الجبيهة، إحدى ضواحي عمّان، يمكنك زيارة ضريح الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف الزهري ﷺ . وتدلّك الحجارة المصفوفة على المكان الذي دُفن فيه أحد العشرة المبشّرين بالجنة. وقد شارك عبدالرحمن بن عوف ﷺ في جميع المعارك والغزوات الرئيسة للإسلام، بما في ذلك أحُد (في المدينة المنورة)، والخندق، وفتح مكة، وحنين، وبدر التي جرح فيها، وكان هو الذي وقع صلح الحديبية نيابةً عن المسلمين (إلى الغرب من مكة)، وهو صلح توافقي، تمّ التوصّل إليه بين سيدنا النبي محمد ﷺ وقادة مكة المشركين، قدّمت فيه مكة اعترافها السياسي والديني بالمجتمع الإسلامي المتنامي. وإضافةً إلى ذلك، كان عبدالرحمن بن عوف ﷺ أحد الذين وقعوا نيابة عن المسلمين عند فتح القدس.

وكان ﷺ رجل أعمال ناجح شارك الآخرين في ثروته بما عُرف عنه من بذل وعطاء. ففي يوم واحد، تمكن من تحرير 31 عبداً، وفي مرة أخرى تبرّع بقافلة من سبعمائة بعير محمّلة بالطعام لعمل الخير، ووصى عند وفاته بأن يخصص لعمل الخير ألف جواد وخمسون ألف دينار.

وتظلل أشجار معمرة قديمة وضخمة ضريح الصحابي الجليل بلال بن رباح ﷺ عند قرية بلال، في ضواحي وادي السير (غرب عمّان)، وقد اعتنق بلال ﷺ الإسلام عندما كان عبداً، مما جلب عليه غضب سيّده أمية بن خلف الذي حاول إرغامه على نبذ دينه بوضع صخرة كبيرة على صدره خلال فصل الصيف الذي تصل فيه درجات الحرارة في مكة المكرمة إلى ذروة ارتفاعها. وقد حارب بلال ﷺ بشجاعة في غزوتي أُحُد وبدر حيث تمكن من الانتقام لنفسه من سيّده السابق. وقد وهب الله بلالاً ﷺ صوتاً رخيماً، وأصبح مؤذن النبي ﷺ .

ومن المعالم التي يتقاطر إليها الزوار خارج عمّان كهف الرقيم أو كهف أهل الكهف. وقد ورد ذكره في القرآن اكريم في سورة الكهف، ويقع خارج قرية الرقيم، على مسافة عشرة كيلومترات شرقيّ عمّان. وكانت مجموعة من الرجال الأتقياء، الذين عانوا من اضطهاد حكم تراجان اليوناني التسلّطي لإيمانهم بوحدانية الله، قد التجأت إلى هذا الكهف. وحفاظاً عليهم، جعلهم الباري يخلدون إلى النوم، وعندما استفاقوا بعد 309 سنوات قمرية (300 سنة شمسية)، ظنوا أنهم كانوا نياماً ليوم أو بعض يوم فقط. وكانت المسيحية (التي كانت دينهم وكانت على التوحيد) قد انتشرت عندئذ، وعندما اكتُشف أمرهم، كتب الله عليهم الراحة الأبدية. وعند الكهف، ما زالت هناك آثار بيزنطية ورومانية، بالإضافة إلى مسجد، مما يتفق تماماً مع الوصف الوارد في القرآن الكريم.

وإلى الجنوب من عمّان تقع مأدبا الشهيرة بأنها مدينة الفسيفساء والتي تضم واحدة من أكبر مجموعات الفسيفساء في العالم، يعود تاريخ معظمها إلى قبل 1450 سنة (ق.م) على الأقل. وأشهر لوحات مأدبا الفسيفسائية، وهي خريطة الأراضي المقدسة، تشتمل على ما يزيد على مليوني قطعة من الأحجار الملونة تصوّر الأراضي المقدسة والمناطق المحيطة بها.

وعلى مسافة عشر دقائق بالسيارة من مأدبا يقع جبل نبو، أحد المواقع الأكثر أهمية في الأردن لدى أتباع الديانات السماوية. فمن هنا تسرّح نظرك لترى مشهد البحر الميت الرائع، وبانوراما الجبال، ومرتفعات القدس المتعالية التي تترآى للناظر عن بُعد. وعلى قمة جبل نبو، تقف حيث يقال أنه وقف النبي موسى ﷺ ناظراً عبر نهر الأردن نحو فلسطين. وقد غدا جبل نبو المكان الذي دُفن فيه (إن صحّت الرواية) بعد أن قاد شعبه من مصر عبر صحراء سيناء متجهاً إلى الأرض المقدسة. وقد كلم الله تعالى موسى ﷺ بصورة مباشرة، ومن ثم أعطى موسى شعبه القوانين التي أوحي بها من السماء.

وهناك إقرار بصورة عامة (رغم أنني لا أتفق مع ذلك تماماً إلا إذا توفّر الدليل) بأن موسى ﷺ دُفن في جبل نبو، بالرغم من عدم وجود ضريح فعلي يكون علامة على الموقع. ويصف القرآن الكريم بالتفصيل حياة موسى ﷺ ورسالته. وفي الواقع، فإن موسى ﷺ هو النبي الذي حظي بأن يُذكر في القرآن الكريم مراتٍ تفوق كثيراً المرات التي ذكر فيها الأنبياء الآخرون.

وعندما كان النبي موسى ﷺ بحاجة إلى الماء، أمره الله سبحانه أن يضرب صخرة بعصاه فظهر منها اثنا عشر نبعاً. ويقال أن هذه العيون هي التي تسمى عيون موسى والتي تقع قرب مأدبا. وآخرون يرون أنها عيون موسى في وادي موسى إلى الشرق من البتراء، وآخرون يرون أنه حجر كان يحمله موسى، وكلما

حلّ قومه في مكان ضرب الحجر فانبجست منه اثنتا عشر عيناً من الماء، والله أعلم. وبالقرب من مادبا أيضاً قرية الشقيق التي تطل على وادي الموجب، وفيها ضريح الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري ﷺ الذي تُحدّد موقعه حجارة مصفوفة. وقد عُرف أبي ذر ﷺ بكرمه وصدقه، وكان من أوائل الصحابة الذين اعتنقوا الإسلام، وداعيةً مدافعاً عن مبدأ توزيع الثروات.

كان النبي يحيى (يوحنا المعمدان) ﷺ ابن النبي زكريا ﷺ ، قد واصل عمل والده في الدعوة إلى كلمة الله. وعاش يوحنا (يحيى) التقيّ الورع ﷺ ، ووعظ، وعمّد في بيثاني (بيت عبرة) في وادي الأردن. وقد عمّد يوحنا المعمدان (يحيى) ﷺ أيضاً النبي عيسى (السيد المسيح) ﷺ في بيثاني (بيت عبرة)، وكثيراً ما رافق السيد المسيح ﷺ عندما كان يقوم بالوعظ، وقد أصبح نبياً ورسولاً عندما خاطبه الله تعالى قائلاً: ﴿ يَـٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: 12]. وكانت هيروديا، التي تزوجت شقيق زوجها الملك هيرودوس، هي التي تسببت في قطع رأس يوحنا (يحيى) ﷺ في قلعة الملك هيرودوس في مكاور. وقد أرسل رأس يوحنا المعمدان (يحيى) ﷺ إلى دمشق، بينما بقي جسده في مكاور. ويمكنك زيارة هذا الموقع الذي يقع على قمة جبل في قرية مكاور قرب بيثاني (بيت عبرة) التي تقع على مسافة 22 كيلومتراً جنوب غرب مادبا.

-17-

الكرك القلعة المحروسة

كانت معركة مؤتة (629م) هي أهم المعارك التي جرت في حياة النبي محمد ﷺ وأشدّها ضراوةً. كما أنها تسبّبت في مقتل أقرب صحابة النبي ﷺ إليه، الذين استشهدوا وهم يحاربون الجيش البيزنطي (العربي المشرك) المشترك. ويمكنك

زيارة أضرحة الصحابة الأجلاء زيد بن حارثة ﷺ الكلبي الأردني، وجعفر بن أبي طالب ﷺ ، وعبدالله بن رواحة ﷺ ، في مدينة المزار الجنوبي قرب الكرك.

وقد قاد زيد بن حارثة الكلبي الأردني الصحابي الجليل ﷺ ، الذي تبنّاه النبي محمد ﷺ ، جيش المسلمين في معركة مؤتة ليحرر الناس، وهم أهله، من عقيدة الشرك والعبودية للبشر، وليحرر وطنه الأردن من الاستعمار والاحتلال الكافر. وخاض زيد ﷺ غمار المعركة بشجاعة نادرة حتى سقط مصاباً إصابةً قاتلة. وهو الصحابي الوحيد الذي ورد اسمه في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: 37].

ولما سقط زيد ﷺ ، تسلّم الراية نائب قائد الجيش الصحابي الجليل جعفر ابن أبي طالب ﷺ ، ابن عم النبي محمد ﷺ . وسمّي جعفر الطيار لأنه وهو يواجه الموت قاتل ببسالة، وقبل أن يستشهد في معركة مؤتة حمل الراية بيمينه فقُطعت، فحملها بيساره فقُطعت، فاحتضن الراية بعضديه، وبعد ذلك بفترة قصيرة رأى الرسول ﷺ جعفراً في رؤيا وهو في الجنة يجلس مع الشهداء الآخرين في المعركة وله جناحان بدل الذراعين، فسُمِّيَ: جعفر الطيار. وكان جعفر ﷺ يُعْرَف بأنه أشبه الناس خَلْقاً وخُلُقاً بالرسول ﷺ . وكان جواداً كريماً يساعد المحتاجين حتى دعي أبا المساكين، وروى الحديث عن النبي ﷺ .

وقد بُعث جعفر ﷺ على رأس المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة، وبعث المشركون وفداً برئاسة عمرو بن العاص لإعادة المسلمين إلى مكة المكرمة، وجرت مناظرة بين الخصمين بحضور النجاشي (ملك الحبشة)، فكان جعفر ﷺ جريئاً شجاعاً لا يخشى في الحق لومة لائم، وظهر ذلك عندما سأله النجاشي

عمّا يقول النبي ﷺ في عيسى بن مريم عليه السلام ؛ ورغم ما في هذا الموقف من حرج، إذ إن الجواب عن هذا السؤال قد تكون له نتائج خطيرة جداً فجعفر وجماعته من المسلمين جاؤوا مهاجرين بدينهم وعليه (أي: النجاشي) حمايتهم كي لا يُسَلِّمهم النجاشي لرسل قريش، إلا أن جعفراً رضي الله عنه ردّ بحكمة وثقة قائلاً: «نقول الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو (عيسى) عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول». وقد نالت الإجابة رضا النجاشي، مما أدى به إلى السماح للمسلمين بالبقاء في الحبشة.

والصحابي الجليل عبدالله بن رواحة رضي الله عنه كان القائد الثالث الذي تسلّم قيادة الجيش بعد زيد رضي الله عنه وجعفر رضي الله عنه . وقد عُرف عبدالله بن رواحة رضي الله عنه بين الصحابة بتقواه وطاعته وصبره. وإضافةً إلى ذلك، كان مجاهداً محتسباً وجندياً وفياً للرسالة التي آمن بها، وشاعراً في قومه يدافع عن عشيرته ثم أصبح شاعراً للرسول ﷺ بعد إسلامه. وقبل استشهاده في معركة مؤتة، ولما علم أن الروم وأعوانهم من الغساسنة يزيدون أضعافاً مضاعفة عن جيش المسلمين، نهض وسط المسلمين وقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت

وفي الكرك والمناطق المحيطة بها تقوم مواقع هامة لدى المسلمين، فاستجلاءً لشهرة سفينة نوح، يمكنك زيارة مقام النبي نوح عليه السلام في مدينة الكرك. وقد أرسل الله نوحاً عليه السلام إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتيهم عذاب أليم من الله تعالى إذا ما استمروا في عبادة الأصنام، كما ورد في القرآن الكريم في سورة نوح: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح: 1-3].

وفي الكرك أيضاً مقام زيد بن علي بن الحسين ﷺ. وقد كان حفيد النبي محمد ﷺ ، وإماماً دينياً عُرف بصلاحه وتقواه ووفرة علمه. وقد وصفه الإمام جعفر الصادق بأنه أفضل من قرأ القرآن الكريم بين أقرانه، والأكثر معرفةً وعلماً بالدين، والأكثر برّاً بأهله وأقاربه.

وأثناء وجود الزائر في منطقة الكرك، فإنه سيجد أن زيارة قلعة الكرك مفيدة وممتعة. وعندما مات الملك بالدوين الثاني الذي وقّع الهدنة مع السلطان صلاح الدين الأيوبي، خلفه رينو دو شاتيون في بداية الثمانينات من القرن الثاني عشر (بعد 1180م). وكانت له سمعة لا مثيل لها في الخيانة، والغدر، والقسوة. وقد تحدّى الهدنة الموقّعة ونقضها، مما دفع صلاح الدين إلى العودة بجيش كبير هزم جيوش الصليبيين التي قادها رينو والملك جاي ملك القدس. وأُسر رينو وكان الملك أو اللورد الصليبي الوحيد الذي أعدمه صلاح الدين بيده.

وعلى مقربة من الكرك، هناك قلعة أخرى في مدينة الشوبك، وكانت في فترة ما تسمى مونت ريال، وظاهرها مبهر مؤثر ببواباتها المانعة وجدرانها المحيطة التي يبلغ عرضها ثلاثة صفوف (مداميك) من الحجر. وبالرغم من بنائها القويّ المنيع، فقد سقطت القلعة بيد صلاح الدين بعد خمسة وسبعين عاماً من بنائها. وهي قلعة أدومية عربية قديمة، قام الصليبيون بترميمها وتقويتها.

أما البحر الميت، فهو واحد من الأمكنة في الأردنية التي تعلق بالذاكرة، ولا يمكن نسيانها، فهو يقع على عمق 400 متر تحت سطح البحر، ومن هنا فهو أخفض نقطة على سطح الأرض، وكما يوحي اسمه، فإن البحر الميت ليس فيه حياة نظراً للكمية الكبيرة من الأملاح والمعادن الموجودة في مياهه نتيجة نسبة التبخر السريعة فيه وانخفاض مستوى تدفق الماء العذب مقارنةً لما هو عليه من ملوحة مُرّة. وهذه العناصر الطبيعية هي التي تعطي مياهه قوتها العلاجية، التي عرفها الناس منذ أيام هيرودوس الكبير قبل ما يزيد على 2000 عام.

وقرب البحر البحر الميت، يمكنك زيارة كهف النبي لوط ﷺ الشهير. وكان النبي لوط ﷺ قد هاجر مع عمّه النبي إبراهيم ﷺ من أور في العراق. واستقرّ به المطاف للعيش في المنطقة الواقعة جنوبي البحر الميت. وقد نجا من الدمار الذي أنزله الله تعالى بقرية سدوم نتيجة ممارسات قاطنيها اللاأخلاقية، بأن لجأ إلى هذا الكهف مع بناته. وأحال الله زوجته إلى عمود من الملح لعصيانها أوامر الله بأن لا ترجّع النظر إلى سدوم وهي تحترق. وعندما تزور الكهف ستلاحظ أن طوبوغرافيته تتماشى تماماً مع الروايات الإسلامية والتوراتية عن الكهف. إضافةً إلى ذلك، يمكنك زيارة العديد من الآثار واللوحات الفسيفسائية التي تعود إلى القرن السادس الميلادي المكرسة لكهف لوط ﷺ . وقد ذكر النبي لوط ﷺ مرات عديدة في القرآن الكريم.

-18-

وادي الأردن

كذلك يمكننا زيارة أضرحة صحابة النبي محمد ﷺ وقادته العسكريين، رضي الله عنهم جميعاً، الذين استشهدوا في المعارك أو وقعوا فريسة لطاعون عمواس الذي عمّ أرض الشام في السنة الثامنة عشرة للهجرة.

كان الصحابي الجليل أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ من أقارب النبي ﷺ ، ومن أوائل السابقين إلى الدخول في الإسلام. كما كان أبو عبيدة ﷺ أحد المسلمين الأوائل المهاجرين إلى الحبشة، وشارك من بعد في جميع الأحداث الرئيسة.

إضافةً إلى ذلك، فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة الذين ذكرهم النبي ﷺ . وباعتباره القائد الأعلى لجيش المسلمين الشمالي، نجح أبو عبيدة ﷺ في فتح بلاد الشام. ولقّبه النبي ﷺ «أمين الأمة» لما كان يتمتع به من معرفة وأخلاق وتقوى

وورع ودين وصلاح. وعندما توفي النبي ﷺ ، كان أبو عبيدة ﷺ بين المرشحين للخلافة، ولكنه اتفق مع الرأي القائل بأن أبا بكر الصديق ﷺ هو المؤهل لقيادة المسلمين وتولّي الخلافة لأن النبي محمداً ﷺ طلب منه أن يؤمّ المصلين بعد وفاته. وهكذا نجح أبو عبيدة ﷺ في تجنب التمرّد والفرقة بين المسلمين. وفي الثامنة والخمسين من عمره، أصيب بطاعون عمواس الذي عمّ أرض الشام. وفي الغور الأوسط، في وادي الأردن، يقوم ضريحه ﷺ في مجمّع يضمّ مركزاً إسلامياً رئيساً فيه مسجد، ومكتبة، ومركز ثقافي.

والصحابي الجليل معاذ بن جبل ﷺ ، الذي عُرف بالوسامة والكرم، أسلم وهو في الثامنة عشرة. وكان واحداً من الستة الذين كُلّفوا بجمع القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ ، الذي قال عن معاذ ﷺ : «وأعلمهم بالحلال والحرام (في الإسلام) معاذ بن جبل»، وأن معاذاً ﷺ سيكون في مقدمة العلماء جميعاً يوم القيامة. وقبل أن يرافق معاذ أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهما في فتوحاته، ويخلفه من بعد، أرسله النبي ﷺ قاضياً ومرشداً لأهل اليمن. وشهد معاذ ﷺ أيضاً بيعة العقبة بين النبي محمد ﷺ وأنصاره من المدينة. وقد توفي معاذ ﷺ وهو في الثامنة والثلاثين في وادي الأردن، بعد أن انقضت حياته القصيرة في تدريس الدين والقرآن الكريم. وفي أيامنا هذه، يقوم ضريحه في مبنى حديث تعلوه خمس قباب، في منطقة الشونة الشمالية في غور الأردن.

وكان الصحابي الجليل شرحبيل بن حسنة ﷺ من بين أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. وقد عُرف بتقواه، وذكائه، وشجاعته، وإدارته الحكيمة الناجحة. وقد شارك شرحبيل ﷺ بهمّة عالية في معركة اليرموك وفتح بيت المقدس. وعندما أرسل الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ الجيوش الإسلامية لفتح بلاد الشام، كان شرحبيل ﷺ قائداً للجيش المكلّف بفتح الأردن. وفيما

بعد، ولاّه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ منطقة واسعة من بلاد لشام حيث تميّز بعدله في الرّعية. وقد أصيب بطاعون عمواس في اليوم الذي أصيب فيه بالطاعون الصحابي الجليل أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ .

والصحابي الجليل عامر بن أبي وقاص ﷺ هو ابن خالة النبي ﷺ ، والرجل الحادي عشر في ترتيب الذين اعتنقوا الإسلام. وكان متشبّثاً بدينه، صابراً مثابراً، بالرغم من أن أمّه حمنة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية أقسمت أن تظلّ جالسة تحت الشمس الحارقة حتى يقوم عامر بإنكار دينه الجديد. وهاجر إلى الحبشة وقاتل في غزوة أُحُد، وكُلّف من بَعْدُ بنقل رسائل من قادة الجيش الإسلامي إلى الخليفة في المدينة. وإضافةً إلى ذلك، كان نائباً للصحابي الجليل أبي عبيدة ﷺ في ولايته على منطقة سوريا العسكرية. ويمكنك زيارة ضريحه ﷺ في المبنى الجديد الذي أقيم فوق الأقبية في قرية وقاص في شمال وادي الأردن.

أما الصحابي الجليل ضرار بن الأزور ﷺ الكِنْدِي الأردني، فقد كان شاعراً وفارساً شجاعاً يعشق القتال. وقد شارك في حروب الردّة، وفي فتح بلاد الشام مع شقيقته المتميزة خولة بنت الأزور. وفي مدينة دير علاّ يقوم مسجد تعلوه قبّة ويضم ضريح ضرار بن الأزور ﷺ رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، الذي توفي أيضاً بطاعون عمواس في السنة الثامنة عشرة للهجرة.

-19-

السلط المحروسة

تقع السلط على مسافة إلى الشمال الغربي من عمّان تقطعها السيارة في نصف ساعة، وقد كانت فيما مضى ولفترة قصيرة عاصمة الأردن. وأثناء العهد العثماني، كانت السلط المركز الإداري الرئيس للبلقاء التي تشمل ما بين الموجب

والزرقاء وغرباً حتى الشريعة وشرقاً حتى أعماق البادية. ويعود بك الزمان إلى حقبة مضت وأنت تسير الهوينى في هذه المدينة العريقة، بشوارعها ذات المناظر الجميلة وبيوتها المذهلة بنوافذها ذات الأقواس العالية.

وفي السلط وحولها العديد من أضرحة الرجالات البارزين من المسلمين ومن الآخرين الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم. ففي داخل مسجد حديث في وادي شعيب يقوم مقام النبي شعيب ﷺ ، وهو من قبيلة مدين من جذام ووالد زوجة النبي موسى ﷺ ، وإليه التجأ موسى ﷺ بعد أن قتل مصرياً. وقد وعظ قومه تكراراً حول وحدانية الله ودعاهم إلى التخلّي عن ممارساتهم مثل قيامهم ببخس الناس أشياءهم التي يبيعونها لهم بالغش والخدع.

وفي مسجد إلى الغرب من السلط، وعلى تلّة تحمل اسمه، يقوم مقام النبي يوشع ﷺ . وقد كان فتى النبي موسى ﷺ ، وخليفته من بعده. وقاد النبي يوشع ﷺ جيش أسباط إسرائيل في غزوةٍ لأرض فلسطين.

وإلى الجنوب الغربي من السلط، وفي منطقة تسمى خربة أيوب تشير أساسات مبنى قديم إلى المكان الذي دُفن فيه النبي أيوب ﷺ ، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم أربع مرات. وقد منحه صبره وإيمانه الأسطوريان القوة والعزم لتحمّل المصاعب الجمّة. وقد صبر النبي أيوب ﷺ صبراً جميلاً فآتاه الله تعالى رحمةً من عنده، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 83-84].

وتشير مجموعة من الحجارة على ضريح الصحابي الجليل ميسرة بن مسروق العبسي ﷺ المدفون غرب السلط في بلدة عارضة عبّاد وفي قرية تُسمّى

باسمه (مَيْسَرة)، وقد شهد حجّة الوداع للنبي ﷺ ، وشارك في معركة اليرموك وفي فَتْح بلاد الشام. وكُلِّف في العام العشرين للهجرة قيادة جيش تمكّن بنجاح من مهاجمة الروم، وبذلك كان أول جيش للمسلمين يدخل أرض الروم.

-20-

عجلون والمدن العشرة

وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال الغربي من جرش، تمرّ خلالها بين غابات الصنوبر وبساتين الزيتون، تقع مدينة عجلون التي يعود تاريخها إلى القرون الوسطى. وهنا ستجد قلعة عجلون التي بناها في القرن الثاني عشر الميلادي عز الدين أسامة ابن أخ صلاح الدين. وهي نموذج رائع للعمارة العربية الإسلامية، استُعملت كحصن عسكري وحاجز لحماية المنطقة من القوات الصليبية الغازية. والقلعة مصانة بشكل جيد جميل وتطيب زيارتها للأردنيين والأجانب على حدٍّ سواء. ولدى زيارتك لها، تسحرك وتأسر لبّك الهياكل، والأبراج، والصالات، والأدراج التي تشكل جزءاً من المدينة، وكذلك المناظر الجميلة التي تحيط بالتلال القريبة.

وعلى مقربة من عجلون، يقوم ضريح الصحابي الجليل عكرمة بن أبي جهل ﷺ ، وتدل على مكان وجوده مجموعة من الحجارة. وقد عُرف قبل إسلامه بعداوته الشديدة للنبي محمد ﷺ . وقد تميّز من بعد بالإسهام في نشر الإسلام بقوة، واستشهد في معركة اليرموك؛ وشارك أيضاً في حروب الردّة وفي فتح بلاد الشام.

وفي عجلون أيضاً مقام الولي الخضر عليه السلام ، وله أيضاً مقامات في السلط، وماحص، والكرك، وبيت راس (إربد). والوالي الخضر عليه السلام (القديس) ليس من الأنبياء ولكنه من أولياء الله وعباده الصالحين، ووليٌّ ذاع صيته بين الناس.

وله مقامات عديدة في الأردن، إذ كشف الباري جلّت قدرته عدداً من المعجزات من خلاله، باعتبار ذلك أسلوباً لتثقيف الناس حول مزايا ومنافع العبودية لله الواحد الأحد. وقد اورد القرآن لكريم قصته الشهيرة مع النبي موسى ﷺ في سورة الكهف (الآيات 64-82).

حشد الإمبراطور البيزنطي هيراكليوس (هرقل) جيشاً كبيراً بقيادة أخيه ثيودوروس، لمواجهة التوسع الإسلامي، والتقى الجيش البيزنطي مع الجيش الإسلامي في معركة اليرموك في آب (أغسطس) عام 639م. ويقوم هذا الموقع الذي جرت فيه المعركة على ضفاف نهر اليرموك في الطرف الشمالي للأردن. وكان عدد أفراد الجيش البيزطي يفوق كثيراً عدد أفراد الجيش الإسلامي، ولكن القائد خالد بن الوليد ﷺ قاد المسلمين إلى النصر. ومكّنت هذه المعركة المسلمين على السيطرة على بلاد الشام.

وفي المزار الشمالي، قرب إربد، مقام للنبي داود ﷺ . وعندما كان طفلاً، قضى على جالوت، وخلف شاؤول وأصبح بعده الملك الثاني لإسرائيل. إضافةً إلى ذلك، فإن داود ﷺ كان أحد الرسل الذين أوحي إليهم. وقد قضى داود ﷺ بعض الوقت في الأردن عندما كان على خلافٍ مع شاؤول، ومن بعد عندما كان يقود الحملات.

يقع ضريح الصحابي الجليل أبي الدرداء ﷺ داخل مبنى حديث في قرية سوم الشناق قرب إربد. وكان بين الأكثر تقوى وإخلاصاً في الصحابة، واشتهر بقربه باستمرار من النبي ﷺ . وعُرف أبو الدرداء ﷺ بأنه قد تفوق على جميع من حوله في حفظ أحاديث النبي ﷺ وروايتها ونقلها. واشترك في الحملات العسكرية وعُيّن من بعد والياً لمقاطعة البحرين.

الديكابوليس (المدن العشرة)

أنشأ الروما الديكابوليس، وهو حلف من عشر مدن في أراضي شمالي الأردن، وسوريا، وفلسطين – لتسهيل التجارة في المنطقة، ولحماية المناطق البعيدة من إمبراطوريتهم. وتقع أربع من هذه المدن في الأردن: فيلادلفيا (وهي الآن عمّان)، وجرش المدينة التي تعتبر الأفضل تماسكاً والأكثر اكتمالاً بين مدن الديكابوليس، وبيلا، وأم قيس.

بيلا، التي تستهوي زيارتها السائحين، تقع في شمال وادي الأردن. وهنا نجد أدلة وفيرة على الاستيطان البشري المبكّر، مع وجود بُنى وهياكل ظاهرة للعيان تعود إلى العصور الرومانية، والبيزنطية، والإسلامية. وقد ازدهرت بيلا بصورة فعلية خلال العصر اليوناني – الروماني، وشهد العصر البيزنطي إعادة إحيائها عندما تعززت طرق التجارة وتطورت الصناعات المحلية. وتعرف بيلا بالعربية باسم فحل، وقد كانت الموقع الذي جرت فيه معركة فحل الشهيرة، التي دارت بين البيزنطيين وجيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ﷺ وأبي عبيدة عامر بن الجراح ﷺ في كانون الثاني (يناير) عام 635م. وكانت النتيجة نصراً للمسلمين وتحريراً للأردن من الحكم البيزنطي. واستمرت بيلا في الازدهار في ظل الحكم الأموي الإسلامي.

وأم قيس تعادل في أهميتها بيلا بين مدن الديكابوليس، كانت تُعرف قديماً باسم جدارا. وقد اشتهرت في أيام مجدها كمركز ثقافي، وكانت أم قيس موطناً للعديد من الشعراء والفلاسفة في العصر اليوناني مثل ثيودوروس الذي وصفها بأنها أثينا الجديدة. وتقوم أم قيس على قمة تلة رائعة، وفيها شرفة فيها صف مبهر من الأعمدة لآثار مسرحين، تطل على وادي الأردن، وعلى بحر الجليل (بحيرة طبريا) ومرتفعات الجولان. وقد اجترح عيسى المسيح ﷺ معجزة الخنزير الجداري الشهيرة هنا.

وعلى مسافة تقل عن ساعة إلى الشمال من عمّان، تقع مدينة جرش (جراسا في الأيام الغابرة) اليونانية الرومانية، وهي في وادٍ أخضر كثير المياه. وقد اشتهرت جرش بأنها (بومبي الشرق) لوضعها غير العادي من حيث تماسكها والحفاظ عليها، وهي أكبر مدينة رومانية خارج إيطاليا وأفضلها صوناً.

وبنيت جرش تكريماً لوصول الإمبراطور هادريان إليها عام 129م، وأول ما تلاقيك البوابة البارزة المهيبة ذات الأقواس الثلاثة عند وصولك إلى المدينة. وفي داخل الأسوار الباقية لمدينة جرش تعود بك الخواطر إلى الأيام الغابرة وأنت تتجول في شوارع الأعمدة التي تؤدي بك إلى المعابد الأصلية القائمة على رؤوس التلال، والمسارح الرائعة، والساحات، والحمّامات، والميادين العامة.

وعلى رأس تلة، على مقربة من جرش، يمكنك زيارة مقام النبي هود ﷺ. وهنا نشاهد مسجداً حديثاً يضم كهفاً يُظنّ أن النبي هود ﷺ دُفن فيه. وقد بعث به الله تعالى إلى قبيلة عاد ليحذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد بدل عبادتهم لأصنامهم. والسورة الحادية عشرة في القرآن الكريم سُميت باسم النبي هود ﷺ.

-21-

القصور الأموية

نقل معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة المنورة، شمالاً إلى دمشق؛ ومن دمشق، توسعت الدولة الإسلامية بصورة هائلة، وأعطى الأمويون للعالم عدداً من الموروثات المعمارية بما في ذلك قبة الصخرة المشرفة في القدس، ومسجد بني أمية الكبير في دمشق. وقد بنوا في الصحراء الأردنية قصور، ومحطات للقوافل، وحمّامات ومنتجعات صيد معزولة، عرفت باسم القصور الصحراوية أو الحائر. وهي مليئة بالأرضيات

الفسيفسائية، واللوحات الجصّية، والجص المنحوت الذي يصوّر الناس، والحيوانات، والأحداث، والنماذج. وتشكل هذه القصور الصحراوية شاهداً على الفن الإسلامي المبكر الأخّاذ والأصيل.

وقد كانت القصور الصحراوية منتجعات للخلفاء والأمراء الأمويين يلوذون بها بعيداً عن صخب حياة المدينة، وللحفاظ على علاقة وثيقة مع القبائل التي كان الخلفاء بحاجة لدعمها. وأقيمت المباني أيضاً على أراضٍ زراعية ممتدة مروية بكثافة، صاحبتها في أحيان كثيرة بُنى مائية متنوعة، ومن هنا كانت مراكز لاستعمالات زراعية. وقد غدت بعض البنى بمثابة استراحات للزوار العابرين في طريقهم إلى الحجاز. وقد شرحت بالتحليل أهمية وأسباب وضرورة إقامة هذه القصور في العهد الأموي، وذلك في كتابي: التاريخ السياسي للعشائر الأردنية Polilitcal History of the Jordanian Tribes .

ويمكن زيارة القصور الصحراوية: الحرّانة، والمشتى، والقسطل، والطوبة، والحلابات، والموقر، وحمام السراة، وعمرة (الذي صنفته اليونسكو أثراً عالمياً) في رحلة بالسيارة من عمّان تستغرق يوماً واحداً على طرق حديثة ممهدة.

-22-

حضارة جنوب الأردن

إن أعظم كنوز الأردن الأثرية والحضارية هي مدينة البتراء النبطية الفريدة. وهي بحق إحدى عجائب الدنيا، وربما تفوق جميع عجائب الدنيا السبعة بعد الأهرام، ولكن يبدو أن الذي صنّف العجائب لم يسمع بها عند أو قبل التصنيف. وهي من المواقع التي صنّفتها اليونسكو كأثر عالمي، والتي تستقطب الزوار من جميع أرجاء العالم. ولكي تدخل البتراء عليك أن تمر من خلال السيق، ذلك الشق الصحراوي الضيّق الذي يمتد طوله حوالي الكيلومتر، تسير

فيه محاطاً بجدار صخري منيف يصل ارتفاعه إلى سبعين متراً، مما يجعل البتراء واحدة من أفضل المدن حمايةً على مرّ العصور. ورؤية الخزنة الرائعة في نهاية السيق تجربة فريدة من نوعها. وقد حفر الأنباط هذا الضريح الملكي الماثل في الصخر الأصم في واجهة الجبل. وعندما تستكشف بقية أنحاء البتراء المحفورة في الصخور الوردية، يتبدى لك السبب في تسميتها (المدينة الوردية).

وعلى قمة جبل النبي هارون ﷺ يقوم مقامه ﷺ وهو أخ النبي موسى ﷺ . وقد استجاب الله تعالى لرجاء موسى ﷺ بأن يجعل هارون ﷺ وزيره. وترك موسى ﷺ هارون ﷺ لينوب عنه عندما توجه ليكلّم الباري جلّت قدرته قرب جبل سيناء، بعد أن وعد قومه بأن يقدّم لهم التوراة دستوراً ومستنداً قانونياً لهم. وقد توفي هارون ﷺ وهو الأخ الأكبر قبل موسى ﷺ ، وطوبوغرافية ضريح هارون ﷺ تطابق تماماً الروايات التقليدية التي وردت في التراث الإسلامي والتوراة عن دفنه ﷺ .

للصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري ﷺ ، الذي أحبّه النبي ﷺ كثيراً، مقام في الطفيلة. وقد شارك في تسع عشرة حملة عسكرية وكان إلى جانب سيدنا محمد ﷺ أثناء فتح مكة. وروى الكثير من الأحاديث عن النبي ﷺ ، وشهد العديد من الأحداث والمعجزات إلى جانب النبي ﷺ . وقضى أيام الأخيرة يحاضر في حلقة من طلابه في المسجد النبوي في المدينة المنورة.

وبالقرب من الطفيلة أيضاً مقام النبي شيت ﷺ الابن الثالث للنبي آدم ﷺ ، الذي يُنسب إليه ابتكار الفنون والحرف.

كما يوجد على مقربة من الطفيلة، قرب حمامات عفرا، مقام فروة بن عمرو الجذامي ﷺ . وكان حاكم منطقة معان في العهد الروماني -- البيزنطي، حتى صلبه البيزنطيون (الروم) لاعتناقه الإسلام.

وبعث النبي محمد ﷺ بالصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي ﷺ حاملاً رسالة، إلى حاكم بصرى الشام (في سوريا) يدعوه فيها إلى الإسلام. وعندما وصل الحارث ﷺ إلى الطفيلة، قبض عليه شرحبيل بن عمرو الغسّاني الأزديّ حاكم منطقة مؤتة وقطع رأسه. وكانت هذه الحادثة أحد الأسباب التي أدت إلى تجهيز الحملة العسكرية الإسلامية ومعركة مؤتة الشهيرة. وفي مبنى حديث على مسافة عشرين كيلومتراً جنوب الطفيلة، يمكنك زيارة ضريح هذا المبعوث الوحيد لرسول الله ﷺ الذي استشهد أثناء قيامه بمهمته المقدسة.

في الجزء الجنوبي من الأردن، وقرب رأس النقب، تقع الحميمة موقع قاعدة الأسرة العباسية وانطلاق دعوتها، والموقع الذي خطط فيه العباسيون لعملية استيلائهم على الخلافة الإسلامية من الأمويين.

وبعث النبي ﷺ الصحابي الجليل كعب بن عمير الغفاري ﷺ إلى قبيلة قضاعة في جنوب الأردن ليدعوهم إلى الإسلام، ولكنهم قتلوه ومن معه. ويقوم مقامه في محافظة الطفيلة.

وفي منتصف الطريق بين الحجاز وسوريا، على تلة تقع في أذرح، بين معان والشوبك، يقع جبل التحكيم. وهنا، وعلى هذا الجبل بعد معركة صفّين، اجتمع أبو موسى الأشعري ﷺ ممثلاً الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ بعمرو بن العاص ﷺ ممثلاً خصمه معاوية بن أبي سفيان، في مجلس تحكيم. وكان الجانبان قد وافقا على التحكيم لحسم نزاعهما. وإلى الشمال من مدينة معان جبل يسمى جبل الأشعري، وعليه مقام لأبي موسى الأشعري ﷺ .

وفي جنوب الأردن تقع مدينة العقبة على البحر الأحمر وهي ميناء الأردن الوحيد، تحيط به جبال شامخة وعرة تغيّر لونها برقّة مع بزوغ شمس النهار. ومياه العقبة النقية، والحياة البحرية الوافرة في خليجها، وطقسها اللطيف، تجعل

منها موقعاً مثالياً للغطس والسباحة تحت الماء والرياضات المائية الأخرى على مدار السنة.

تضم العقبة مواقع هامة مثيرة للاهتمام بما في ذلك: مسجد عثمان في أيلة الذي بُني أثناء خلافة عثمان بن عفان ﷺ ، والقلعة المملوكية، وقلعة صلاح الدين التي تقع على جزيرة في وسط الخليج.

وإلى الجنوب الشرقي من البتراء يقع واحد من أروع المشاهد الأرضية الصحراوية في العالم، وادي رم. ووادي رم واسع ممتد، صامت، وتبدو آفاقه وكأنها بلا حدود. ويمكنك استشكاف هذه البقعة الرائعة من الصحراء التي ما زالت على طبيعتها متسلقاً، أو راكباً عربة تجرّها الحيوانات، أو سيارة ذات دفع أمامي، أو على ظهر بعير في قافلة، أو في منطاد يسيّره الهواء الساخن.

* * *

الباب الثالث

الأردن في الكتب السماوية الثلاثة

(القرآن الكريم - التوراة - الإنجيل)

الأردن في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

-1-

أشار القرآن الكريم إلى كثير من الأماكن بأسمائها من خلال قدسيتها وأهميتها، ودورها كموقع لطقوس معينة تتعلق بنبيٍّ من الأنبياء أو مواقع لأحداث تحصَّلَ لأقوام فيها من الثواب أو العقاب أو العقائد أو ما إلى ذلك ما رأته الحكمة الربانية أن يذكره الله سبحانه في القرآن الكريم، حيث جاءت كلها لأداء مهمة معينة أو تحقيق غاية أرادها الله جَلَّ في عُلاه، أو عبرة من العبر، أو استكمالاً لمقتضيات السياق وأحداثه. فمثلاً نجد أن الحِجْرَ قد جاء في معرض قوله سبحانه: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الحجر: 80]، وجاء ذكر مدين بقوله سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: 85] وأيضاً: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص: 22]، وجاء في ذكره مملكة سبأ (اليمن السعيد) بقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [سبأ: 15] وقوله سبحانه في مخاطبة الهدهد لسيدنا سليمان عليه السلام: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: 22].

وقد ذكر القرآن الكريم أيضاً بابل بقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ [البقرة: 102]، وجاءت بالمفرد ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم: 53]، وأيضاً في سياق الحديث عن تكذيب قوم شعيب لنبوّته

الثانية: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: 176]، وفيما ورد على لسان سيدنا يوسف في مخاطبته لوالديه وأخوته: ﴿ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: 99] . ووصفه جلّ وعلا مدينة مكة المكرمة بأنها ﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى: 7]، وذكر اسم آخر لها وهو « بكة » ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران: 96] ووصفه للكعبة بأنها البيت: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [البقرة: 127]، وأيضاً: البيت العتيق، وأيضاً القبلة: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة: 144] ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة: 144]، ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: 144].

كما ذكر مواقع محددة في أماكن محددة بقوله سبحانه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: 1] وذلك بتحديد المسجد الحرام حيث الكعبة المشرفة في مكة المكرّمة؛ والمسجد الأقصى في القدس الشريف، لأن عملية الإسراء تمت من موقع إلى موقع كلاهما مقدس قدسية خاصة في منطقتين مقدستين ولكن ليس أي من البلدين بمستوى المسجد الذي هو فيه.

ومن المواقع المحددة: ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص: 29] فهو حدد جانب الطور، وليس الطور كله، وقوله: ﴿ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: 12] ثم حدد البقعة أكثر فأكثر في آية أخرى. وحدد الموقع إلى أقرب أمتار لسيدنا موسى بجانب الشجرة من البقعة المباركة.

وجاء ذكر مواقع في الأردن دون الإشارة إلى مزيد من تفاصيل الأسماء وإنما الحديث عن أهميتها وطبيعتها ووظيفتها في حينه، مثل نهر الأردن الذي ورد في القرآن الكريم بكلمة نهر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ [البقرة: 249] وأيضاً: ﴿ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [سبأ: 18] ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [سبأ: 18] وأيضاً: ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: 1] في معرض ذكره لخصوصية وأهمية وقدسية المسجد القدسي الشريف وما حوله، وكما هو معروف فإن الأردن من حوله.

وذكر أيضاً: المؤتفكات: وهي قرى ومدن وممالك قوم لوط في الأردن؛ كما ذكر الأيكة في الأردن وذكر شعبها أنهم: « أصحاب الأيكة » وهو اصطلاح يدل على الاستقرار والإعمار والازدهار، لأن الديار لا تُعمّر ولا تزدهر إلا بأهلها، بل إن الكلمة الأنسب لمثل هذا الوصف هو كلمة: أصحاب = أي أصحابها، ومالكيها، وأصحاب السيادة والقيادة والقرار فيها والتصرف بها.

وذكر القرآن الكريم أيضاً في وصف الأردن في سورة الروم : ﴿ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: 3] حيث تقررت المعركة بين الفرس والروم على أرض الأردن، وحيث غُلبت الروم.

وفي إشارات كريمة في آيات الله سبحانه إلى مواقع أردنية قوله جل وعلا: ﴿ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ [الكهف: 60] وهو خليج العقبة الحالي بالأردن، وأيضاً ﴿ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ [الأعراف: 163] وهي أيلة (العقبة الحالية)، وأيضاً أهل القرية التي رفضت تقديم الضيافة للرجل الصالح وسيدنا موسى عليهما السلام، وهي أيلة / العقبة الحالية.

وفي إشارة كريمة من الله سبحانه إلى طهارة وقدسية الأردن وفلسطين ما ورد في سورة الأنبياء، وكيف أن الله سبحانه المجي كلاً من إبراهيم ولوط من أرض العراق عندما أحدق بهما الخطر إلى بلاد الأمن والطمأنينة وهي الأردن وفلسطين: ﴿ ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ [الأنبياء:71].

وذكره جلّ وعلا لعمان أو ربة عمون ليس بالموقع، وإنما باسم الملك الذي قاتل بني إسرائيل: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ ﴾ [البقرة: 250] و ﴿ وَقَتَلَ دَاوُردُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: 251] وأما تفصيلات وتفسيرات وتحديد المواقع التي وردت كثيراً في القرآن الكريم فهو موجود في التوراة.

وذكر القرآن الكريم عما حدث في منطقة مؤاب الأردنية على ضفتي الموجب، متجاوزاً ذكر الأسماء، مركزاً على أهمية الحدث والعبرة منه، في تنصُّلِ من آتاه الله كلماته سبحانه، وهو بلعام بن صفور كما ورد في التوراة ولدى المفسرين المسلمين فيما بعد. وقد ورد في القرآن الكريم حوله ما يلي:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: 174-178].

وذكر القرآن الكريم ما حدث لسيدنا أيوب عليه السلام من حيث ما أصابه، وما أمره الله به أن يغتسل بالماء، وهي التي ربما تكون حمامات عفرا في الطفيلة،

وبعض الروايات الشعبية تقول أنها عين لحظة بالقرب من الرشادية إلى الجنوب من الطفيلة. وقد نزل سيدنا أيوب عليه السلام في منطقة الطفيلة، وله مقامان آخران غير ذلك، ويُعتقد أن قبره موجود على تلّة تشرف من الشرق على الطفيلة الحالية، أما المقامان الآخران، فنجد واحداً في بطنة / جنوب مدينة السلط، والآخر في جنوب سوريا فيما بين حوران والجولان، وذكره الرحالة الأجانب في القرن التاسع عشر، ومنهم شوميخر الألماني في كتابه عبر نهر الأردن Across the Jordan الذي ترجمته (أنا) إلى العربية.

نخلص من كل هذا أن ما ورد في القرآن الكريم عن الأماكن لم يأت عبثاً، أو زيادة أو تعبئة فراغ، بل جاء ضمن حكمة إلهية اقتضاها وأرادها الله سبحانه، واهتمامه بالأحداث وليس بأسماء المواقع، وبالعبرة والحكمة الإلهية من هذه الأحداث، ولكن علماء التفسير هم الذي يحدّدون هذه المواقع، وأسمائها، وبالتالي فالقرآن معنيّ بالمبادئ والحكمة والدروس والعبادات والعقائد والعظات والطقوس أو التصرفات، والأقوام وأقوالهم وأفعالهم التي يمكن أن تنطبق على كل حالة مشابهة في أي زمان أو مكان أو شعب من العالم أو عبر التاريخ.

إن عصيان الله سبحانه، أو طاعته وعبادته يمكن أن يصدر عن أي قوم في أي مكان في الدنيا. وبالتالي فإنه ليس مهماً الانشغال بالتفاصيل المكانية وأسمائها؛ وإنما الاهتمام بالحكمة في الحدث أو القصة برمتها. كما أن ثوابه سبحانه وعقابه وابتلاؤه، وعفوه يمكن أن يحلّ بأي قوم حسبما هي إرادته وحكمته وعدالته وعلمه سبحانه السرّ وأخفى.

فعندما تحدث عن أهل الكهف والرقيم، لم يحدد المكان العام وإنما المكان الخاص بقوله سبحانه ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا

عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: 9-10].

وعندما أفاقوا بعد 300 سنة شمسية / 309 سنوات قمرية وأرادوا شراء طعام لهم من مدينتهم (وهي عمّان الحالية) التي هربوا منها بدينهم لم يذكر القرآن الكريم اسم المدينة، بل قال: ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ [الكهف: 19]، وترك للمفسرين والمؤرخين أن يذكروا المكان الذي أصبح أكثر من مكان في كتب المفسرين والرحالة والجغرافيين، تنطبق عليه المواصفات الواردة في القرآن الكريم وهذا من عظمة الله سبحانه وقدرته اللامتناهية.

من هنا نجد الرحالة والجغرافيين والمفسرين يذكرون أكثر من موقع لأهل الكهف تنطبق عليه المواصفات التي ذكرها القرآن الكريم، وكل يؤكد أن ما ذكره هو المقصود بنصّ الآيات الكريمة، وإن اتفق غالب الجمهور أنه هو الكهف الرقيم في البلقاء / جنوب مدينة عمان الحالية.

كما نجد المفسرين يختلفون أيضاً في تحديد كثير من المواقع أحياناً، ثم يرجحون أنها في الأردن أو في غيرها، وذلك أن القرآن الكريم كما قلنا عُني بالحكمة والموعظة المتعلقة بالحدث أكثر من العناية بأي شيء آخر. فالأرض كلها أرض الله، وكلمة الله ونوره لمن يستحقها من خلقه، وهذا الذي يجعل الأمور مضطربة مشوشة في التحديد في كثير من الحالات.

وبناءً عليه، فإن الحديث عن الأردن، وورود ذكر أماكنه ومواقعه في القرآن الكريم جاء مرتبطاً بالأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، والأحداث الجسام زمنهم؛ بينما نجد التوراة تعطي تفصيلات دقيقة لا ندري مدى صحتها أو أمانتها، حول المواقع وأسماء المواقع، والأحداث، وأسماء العشائر والأشخاص،

والانشغال بأمور الدنيا بعيداً عن الصفاء الروحي الذي جاء به الإسلام، وبعيداً عن الانشغال بالأمور الجانبية عن الأمور الرئيسة، وبعيداً عن الحكمة والعبر التي يستخلصها الإنسان.

أما الأردن بهذه التسمية فقد كان معروفاً لقريش، كونه في طريق رحلاتهم بالصيف إلى بلاد الشام، ضمن رحلة الإيلاف ﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [سورة قريش].

كانوا يعرفون البلقاء أيضاً، وهي جزء من الأردن، وقد وردت كلمتي الأردن والبلقاء كلاهما في الحديث النبوي الشريف. وكانت الأردن بما فيها البلقاء تشمل الأماكن من تبوك (مشمولة بالبلقاء والأردن)، والجوف (مشمولة) وسهول حوران ومركزها درعا، وهضبة الجولان وجبل الشيخ، وصور وعكا، وبحيرة طبريا، وحوض نهر الأردن، وجانبي النهر في الغور « وكل من على جنبيه أردني: الحميري ». فضلاً عن الغور والبحيرة المقلوبة / النتنة / الميت / لوط، زغر / المالح وهذه أسماء البحر الميت في مختلف المراجع والمصادر الإسلامية، وفي التوراة أيضاً إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) حيث يشمل الأردن عصيون جابر (إيلات) وإيلة (العقبة) ومجمع البحرين الجانب الغربي من امتداد خليج العقبة.

وقد ذكِرَت الأردن في الحديث الشريف في معرض أمرين الأول: أنها أرض الخيرات والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، والغياظ الوارفة الظلال المتشابكة الأغصان؛ والثانية ضمن الاصطلاح العسكري على أنها أرض الرباط، وأرض المعركة الفاصلة بين الإيمان والكفر، وبين المسلمين من جهة والدجال واليهود من جهة أخرى.

أما الحديث الأول فهو مذكور في الحميري – الروض والمعطار – ص 21 مما نقله عن سيرة ابن هشام (483:1) وهو ما ذكرناه توّاً، ولا داعي للإطالة والإعادة.

وقد تشرّف الأردن بمرور سيدنا محمد ﷺ عبر ثراه مرتين وهو يعمل في التجارة مع بلاد الشام، ولا تزال الشجرة التي استظلها في إحدى رحلتيه تقف وارفة يانعة خضراء إلى يومنا هذا (2006) كشاهد على محطة استراحته، رغم أنها في صحراء جرداء قاحلة؛ وشاهد وعلى نبوّته، حيث أنه وإكراماً له من عند الله، بقيت هذه الشجرة تتجدد شباباً كل يوم، وأظنها (والله أعلم) باقية ما بقيت دعوة الإسلام وذكر الله وذكر رسوله فوق هذه الأرض الطاهرة، وسائر بلدان الأرض.

وبقي للأردن موقعه وأهميته عبر التاريخ، فعليه تقرر مصير الأمم والدول، حيث مؤتة واليرموك وطبقة فحل، وبهذه انتهى الروم من بلاد الشام؛ وحيث عين جالوت وبها انتهى التتار الهمج؛ وحطين وبها انتهى الصليبيون؛ وحيث كانت نهاية الأتراك على الأرض الأردنية عام 1918 بعد احتلال وإذلال دامَ أربعة قرون؛ فاندحروا من سائر البلاد السورية بعد ذلك. وهكذا نجد أن الدولة التي تفقد سيادتها وسيطرتها على الأردن، تنتهي من بلاد الشام بكاملها، لأن الأردن هو المفتاح الرئيس لهذه المنطقة برمتها؛ ولأن الله سبحانه أودعه سرّاً عجيباً يتفوّق على سائر البلدان.

-2-

ومن الملفت للنظر أن العقاب الإلهي wrath الذي حلّ بالشعوب الأردنية التي كفرت في بلاد الأردن، قد تضاعف عن سائر الشعوب الأخرى. فمثلاً قوم نوح عليه السلام، وبعد نكرانهم وكفرهم على مدى 950 عاماً، عاقبهم الله بالطوفان. ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴾ [نوح: 25]، ونجد

قوم هود عليه السلام عاقبهم الله بالريح الصرصر ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: 6-8].

أما قوم صالح عليه السلام (ثمود) فقد أهلكم الله بعذاب واحد وهو الصيحة: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [الحاقة: 5] والطاغية هي الصيحة التي جاوزت الحد، وأدّت إلى الرجفة.

أما عند ذكر المؤتفكات، وهي مدن قوم لوط التي كانت في الأردن، التي وردت في سورة الحاقة، فقد جاء النصّ الكريم ليؤكد أن كل شعب أو أمة عوقبت على الأرض الأردنية، عقاباً يزيد عن حدّ عقاب أي شعب أو أمة مماثلة اقترفت كفراً مماثلة في بلاد خارج الأردن.

وفي صدد المؤتفكات نجد الذكر الحكيم يقول: ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة: 9-10].

والمؤتفكات هي قرى قوم لوط عليه السلام الذين جاءوا بالشرك والمعاصي وممارسة اللواط والسحاق الذي ما سبقهم به أحد من العالمين، فكانوا المدرسة الأولى للبشرية في هذا الشذوذ والانحراف، وعندما جاء عذاب الله سبحانه قال: ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة: 10] – أي أخذهم الله سبحانه وتعالى أخذةً وعقاباً وهلاكاً زائدة على ما أحلّه الله بالأمم الأخرى، حيث قلب ديارهم ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [الحجر: 74]، وأمرطهم مطر السّوء ﴿ أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ [الفرقان: 40]، وأرسل إليهم حجارة مسومة، وأرسل عليهم الصيحة، وبالتالي عقاباً مضاعفاً مرات ومرات عن سائر الأمم وكل عقاب من هذه أكثر

شدة من أعنف أي عذاب حلّ بأي قوم خارج الأردن. أما فرعون فأهلكه الله بالغرق وهو في قمة عنفوان طاغوتيّته وكفره وقوته الجسدية والعسكرية والسلطوية. وأم ما أرسل الله من آيات إلى فرعون وقومه ليطيعوا سيدنا موسى ودعوته فكانت تسع آيات، وليس عقاباً إلهياً نهائياً.

وأما قوم مدين، وهم من قبيلة جذام الأردنية، ومن سائر القبائل العربية الأردنية الأخرى، فكانت منازلهم في جنوب الأردن، ومركزهم قرب مؤتة فيما يسمى مِدّين Middain وهي قرية قديمة على رأس تلّة، يقع إلى الجنوب منها وادٍ فيه بئر ماء يقال أنه البئر الذي ذكره الله سبحانه في القرآن الكريم باسم: ماء مدين ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص: 23]، وحيث سقى لبنات شعيب عليه السلام ، وحيث بدأت قصته العمليّة على الأرض الأردنية[1].

-3-

أورد القرآن الكريم في سورة البقرة آية 249-252[2]، قصة الحرب ما بين بني إسرائيل ومملكة عمون الأردنية العربية وعاصمتها ربّة عمون (عمّان الحالية)،

---

(1) نحن نرى أن مدين اسم بطن من جذام، وهم قوم شعيب: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف:85]، وأنها كانت (أي مدين) تمتد من تبوك إلى البحر فيما يحاذي تبوك، ثم إلى الشمال لتشمل معان والطفيلة والكرك. وسميت مملكة مديان أو مدين، وقد سمي المكان والمملكة والدولة باسم العشيرة، وإن امتدادها على هذه الرقعة لا يتناقض من أن تكون مِدّين قرب الكرك عاصمة لها.

(2) ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿249﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا =

وذكر جالوت ملك عمون بالاسم وجنوده، حيث ظهر أن الجيش الأردني العموني كان جيشاً قوياً، وأن الملك العموني الأردني جالوت كان ملكاً قويّاً أيضاً، وكانوا يدافعون بمرارة، وحرارة وإخلاص ووطنية حقيقية عن بلادهم ضد الغزاة الإسرائيليين، وأن جيش طالوت الإسرائيلي قد تردد في أكثر من مرحلة في قتاله هذا، وأنه لولا التدخل الإلهي لما انتصروا أبداً، وأنه (جيش جالوت) كان جيشاً محصّناً وراء أسوار منيعة هي أسوار قلعة عمون (عمّان الحالية).

وقد رأينا أن نأخذ ما ورد في تفسير ابن كثير في هذه الآية وننقله بالحرف: « يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فالله أعلم أنه قال: (إن الله مبتليكم) أي مختبركم (بنهر)، قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين[1]، يعني نهر الشريعة المشهور. (فمن شرب منه فليس مني) أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه (ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غُرْفَة بيده) أي فلا بأس عليه. قال تعالى: (فشربوا منه إلا قليلاً منهم) قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم

= صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: 249-252].

(1) الأردن هنا جاءت في السياق لتعني الأرض – أي أرض شرق الأردن (شرقي النهر)، وكذلك جاءت فلسطين لتعني ارض فلسطين ايضاً (أي: غربي النهر)، وأن ما بينهما هو نهر الشريعة المسمى نهر الأردن أيضاً وسمي الشريعة وذلك لغزارة مائه وصفائها، والشريعة هي ما كانت في القوة في الغزارة، حجمها بين النهر الكبير، والسيل الكبير، فهي أصغر من نهر ضخم وأكبر من سيل ضخم. كما أن الشريعة تعني لدى الأردنيين الماء الذي تتفاوت غزارته حسب المواسم، أما الماء الدائم الغزير فيسمى: ألْمَشْرَع al-mashra'.

يُرْوَ. وكذلك رواه السدي عن ابن مالك عن ابن عباس، وكذا قال قتادة وابن شوذب. وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقى منهم أربعة آلاف، كذا قال: وقد روى ابن جرير عن طريق إسرائيل وسفيان الثوري ومسعر بن كرام عن ابن إسحاق السبيعي عن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدد طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن، ورواه البخاري عن عبدالله بن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق عن جدّه عن البراء بنحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ [البقرة: 249] أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوّهم لكثرتهم، فشجّعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عُدّة. ولهذا قالوا (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

(ولما برزوا لجالوت وجنوده) أي لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير (قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً)، أي: أنزل علينا صبراً من عندك (وثبت أقدامنا) أي في لقاء الأعداء، وجنّبنا الفرار والعجز (وانصرنا على القوم الكافرين).

قال الله تعالى: (فهزموهم بإذن الله) أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم (وقتل داود جالوت) ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله، بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده (وعد داود) إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ [البقرة: 251] الذي كان بيد طالوت (والحكمة) أي النبوة بعد شمويل (وعلمه مما يشاء) ». اهـ.

وبذلك نجد أن نهر الأردن قد ورد هنا في معرض الاختبار لجيش طالوت، لأنه لا يمكن لقائد أن يحارب بجيش لا يطيعه، ولا بقوات لا تؤمن بقضية، ولا بأجساد ليس فيها قلوب تحبّ الموت أكثر من حرصها على حبّ الحياة، ولا بإرادة لا تعرف الصبر والتمحيص، وتحمُّل الأذى من حرّ وعطش ومقارعة العدوّ الذي يفوقهم عدداً وعُدَّة ووطنية، ودفاعاً عن أرضه وعِرْضه وكيانه وسيادته وهويته.

ومن السياق نجد أن هذا العدد الضخم من بني إسرائيل يخشى محاربة جيش جالوت العموني العربي الأردني لأنه يفوقهم عدداً وعُدّة، ولأنه مطيع بالكامل لقائده وهو الملك جالوت، ولأنه يدافع عن حماه وذماره، ولأنه يخوض معركة حياة أو موت، يكون أو لا يكون، ولا مجال له للانسحاب ولا خيار له إلا بالثبات حتى الموت، وأن لديه جنود في غاية التنظيم والقوة والشجاعة والطاعة له، والإيمان ببلدهم، والتفاني في الدفاع عن الوطن ضد الغزاة.

وبذلك نجد ذكراً لنهر الأردن الذي يسمى بهذا الاسم، ويسمى بنهر الشريعة، وإن الشرب منه لا يكون إلا إذا كان نقي الماء نظيفاً، وذلك لا يكون إلا في الصيف والخريف حيث شدة الحرارة وارتفاعها وانقطاع السيول الجارفة التي تعكّر صفو الماء ونقائه. وهذا يدل على ذلك في غابر الأيام، بعكس ما هو عليه الحال الآن (2006). وقد أوردت التوراة سجال العداوة والاقتتال ما بين بني إسرائيل والممالك الأردنية، وبخاصة مملكة عمون التي كان جالوت أحد أهم ملوكها.

وفي سورة المائدة الآية 24 ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: 24].

وفي صفوة التفاسير (د. محمد سليمان عبدالله الأشقر) نجد التفسير المختصر التالي: « 24 – (قالوا) أي: قال بنو إسرائيل لموسى (إنا لن ندخلها أبداً

ما داموا فيها) وكان هذا القول منهم فشلاً وجبناً أو عناداً وجراءة على الله وعلى رسوله (فاذهب أنت وربك فقاتلا) قالوا هذا جهلاً بالله عز وجل وبصفاته، وكفراً بما يجب له (إنا هاهنا قاعدون) أي: لا نبرح هذا المكان، ولا نتقدم معك ولا نتأخر عن هذا الموضع. وكان ذلك في جبل نبو المشرف على الأرض المقدسة من أرض الأردن ».

ورغم أنني لا أتفق مع الروايات التي تقول أن سيدنا موسى وقف بجسده وجيشه وقومه كلها معاً في أرض نبو / صياغة / غربي مادبا من أرض مؤاب من الأردن، إلا أن هذا الموقع هو نقطة الأحداث بالنسبة للروايات التي تتحدث عن وقوف سيدنا موسى بها، ورؤيته للأراضي المقدسة في فلسطين التي يسميها الإسرائيليون والصهاينة: أرض الميعاد.

وفي رأيي أنه رأى ذلك من خلال الكشف الإلهي الذي خصّ به الأنبياء والأولياء، وأنه ربما، بل ليس مستبعداً على قدرة الله سبحانه أن أتى به وحده، أو جاء به ومن معه من حاشيته وقياداته إلى هنا، أو كشف له وحده وهو في التيه (سيناء)، لما لهذا المكان (نبو) من قدسية وأهمية من الأمم السابقة من قبل، ثم زمن النبي موسى عليه السلام ، ثم للأجيال من بعده.

وعلى أية حال، وحيث أنه لم يُعرف إلى الآن: أين قبر سيدنا موسى، وأنه ربما يكون الله أخذه بروحه وجسده إلى هذا المكان، إلا أن الموت في رأينا ربما وقع عليه، وبنو إسرائيل في التيه / سيناء وما حولها، ولكن ذلك لا يمنع أخذه بالجسد وموته بالجسد أيضاً في هذه الديار، لأن للأنبياء كرامات تفوق قانون الطبيعة المتعارف عليه بين بني البشر. وبمعنى آخر، إذا كان موسى عليه السلام وقف بنفسه في أرض نبو، فإن ذلك له وحده وليس معه بنو إسرائيل، وأن مجيئه وموته ودفنه في هذه البقعة الأردنية إن حدث، فهو نمط من كرامات الأنبياء عند الله

سبحانه، ومن قدسية وكرامة هذا الموقع أن خصّ الله به نبياً من أولي العزم، وهو سيدنا موسى ﷺ ، والله أعلم.

ونحن نجد العديد من الأنبياء الذين رفعهم الله سبحانه، وحملهم من مكان إلى مكان: سيدنا إدريس ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: 57]، وسيدنا عيسى ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: 55]، وسيدنا محمد ﷺ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: 1] وقد رفعهم بالروح والجسد معاً، وهذا يتفق مع قدرة الله سبحانه ولا يتفق مع قانون الطبيعة التي يتم تطبيقها على سائر أبناء البشر، ولا مع قانون البشر الذين لا طاقة لهم بذلك، ولكن للأنبياء قانونهم الخاص وكرامتهم الخاصة.

من الواضح إذن أن للأنبياء معجزات وكرامات تفوق ما أُعطي لسائر أبناء البشر، وأنه قد يكون سيدنا موسى وقف في نبو بنفسه، وليس معه بنو إسرائيل كما تقول التوراة، أو وقف عليها من خلال الكشف، وهو ما توصل إليه البشر من البث الحي والمباشر لأي صوت أو موقع بالعالم إلى أيّ موقع آخر..

-4-

ذكر القرآن مواقع أخرى مثل مدن قوم لوط ﷺ . حيث كانت تُمارَس الفاحشة، فعاقبها الله سبحانه. وقد وكدت الروايات جميعها، وبدون استثناء، ومن خلال ما وكدته الآيات القرآنية الكريمة أيضاً، أن منازل ومنطقة قوم لوط تقع في الأردن، في منطقة البحر الميت، وأنها كانت على طريق القوافل التجارية لقريش وأن المرور عادةً كان ليلاً أو صباحاً، بما يدل على أن حرارة المنطقة تستوجب المسير أثناء غياب الشمس أو قبل ارتفاعها. ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ

أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: 80-84].

وبذلك نجد الآيات الكريمة تهتم بالحدث والسلوك والموعظة والتبليغ والحكمة والعبرة، ثم تشير إلى المكان بكلمة قرية، أما كلمة قوم فهي كلمة تشير إلى المجتمع، والموقع، إذ لا يوجد بشر في حياتنا الدنيا يعيشون إلا في الأرض وعلى الأرض إن كانوا أحياءً، ولا يعيشون إلا في مجتمع له تنظيمه الخاص به لضمان استمرار البقاء؛ فهم بذلك قوم.

ولكن كتب التفسير والسيرة أعطتنا أسماء المدن (القرى / المؤتفكات / القرية)، والمنطقة التي كانت فيها، وهي منطقة غور الأردن بجوار البحر الميت، وأن اسم المدن هي: سدوم وعمورة (قمورا).

ونجد التفاصيل في التوراة أن منطقة قوم لوط ومدنهم وممالكهم كانوا في بلاد الأردن، وذلك ما نجده في سفر التكوين، في الفصل الثالث عشر وما بعده من السفر نفسه، حيث يتحدث السفر عن رحيل سيدنا إبراهيم وزوجه وخدمه ومواشيه، وبرفقته ابن أخيه لوط، وأن اسم إبراهيم كان أبرام، ثم تحوّل إلى إبراهيم.

ويقول السفر أن سيدنا إبراهيم وزوجه سارة، ولوطاً ذهبوا إلى مصر، وعندما عادوا إلى جنوب بلاد الشام (أرض كنعان / فلسطين) ضاقت بهم الأرض لكثرة مواشيهم، ولاحتدام الخصوم بين رعاة الطرفين حول المرعى وما إلى ذلك.

بعد ذلك اتفقا على الفراق، ونجد التفاصيل في الفصل الثالث عشر من سفر التكوين. « (1) فشخص أبرام من مصر هو وامرأتهُ وكلُّ مالَهُ ولوط معه إلى الجنوب (جنوب بلاد الشام) (2) وكان أبرام غنيّاً جداً بالماشية والفضة والذهب (3) فمضى في مراحله من الجنوب إلى بيت إيل إلى الموقع الذي فيه خباواه أوّلاً بين بيت إيل والعايي (4) على موضع المذبح الذي صنعه هناك أوّلاً فدعا أبرام هناك باسم الربّ (5) وكان أيضاً للوط السائر مع أبرام غنم وبقر وخيام (6) فلم يحتمل ضيق الأرض أن يقيما فيهما معاً إذ كان مالهما كثيراً فلم يمكنهما المُقامُ معاً (7) فكان خصومه بين رعاة ماشية لوط، والكنعانيون والفرزيّون حينئذ مقيمون في الأرض (8) فقال أبرام للوط لا تكن خصومة بيني وبينك ولا بين رعاتي ورعاتِكَ إنما نحن رجلان أخوَان (9) أليست الأرض كلها بين يديك اعتزل عني إمّا إلى الشّمال فأتَيَامَنْ يَمْنك وإما إلى اليمين فأتياسر (10) فرفع لوط طرْفَهُ ورأى كلّ بُقْعةِ الأردن (انظر كلمة بقعة الأردن)، فإذا جميعها سِقْيٌ قبل أن دمّرَ الربّ سدوم وعمورة كجنة الرب مثل أرض مِصْرَ حتى تنتهي إلى صُوْعَرْ (11) فاختار لوط لنفسه كلّ بُقْعَةِ الأردن وارتحل إلى المشرق واعتزل كلُّ واحد صاحِبَهُ (12) فأقام أبرام في أرض كنعان وأقام لوط في مدن البُقْعَةِ وخيَّم إلى سدوم (13) وأهلُ سدوم أشرار خاطئون أمام الربّ جدّاً ».

وهذه إشارة واضحة لا لُبْسَ فيها، ومنذ آلاف السنين (حوالي أربعة آلاف سنة) أن اسم الأردن، وبلاد الأردن، كان معروفاً للجميع في حينه، وكانت جنات تجري من تحتها الأنهار مثلما هو حال مصر في الخصب والخيرات والماء والنبات وأنها أخصب بقاع الأرض من حولها، من بلاد الشام وكنعان، وبالتالي فإن لوطاً عليه السلام الذي استمرأ واستطاب العيش في مصر لجودة مناخها، وتوفر مائها وعذوبته، وخصوبة تربتها ووفير إنتاجها الزراعي، وجد أن البديل عنها هو الأردن وبلاد الأردن، ولكنه اختار منها منطقة محددة وهي بَقْعَة الأردن. أي

الأرض المنخفضة منه وهي وادي الأردن، حول البحر الميت. وبذلك نرى أن الماء المالح كان محاطاً بأرض خصبة وجنات تجري من تحتها الأنهار.

وفي العصر الحاضر يطلقون كلمة البَقْعَة بفتح الباء على المنخفض الواسع من الأرض إذا أحيط بجبال مرتفعة، وهي منطقة إلى الشمال من عمان على الطريق المؤدي إلى الشمال / إربد. ولكن التوراة تطلق على الأرض المنخفضة هذه اسم البُقْعَة بضم الباء، والمعنى واحد. وتعتبر هذه بَقْعَة/بُقْعَة الغور لأنها أكثر المواقع في الغور انخفاضاً وبالتالي فهي بُقْعَة لانخفاضها عما يحوطها من تلال وجبال وأرض وبَقْعَةُ لانخفاضها وسعتها معاً.

وقد كشف الله له هذه الديار الأردنية كشفاً وهو في مكانه في أرض كنعان (جنوب فلسطين)، (وهذه من كرامات الأنبياء)، وحبَّب إليها قلبه، وجعلها بالمواصفات الموجودة في ذهنه، ومثل هذه النصوص تفسِّر الجانب الجغرافي في قصة قوم لوط الأردنيين الذين مارسوا فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.

ووردت مدين في القرآن الكريم في عدة آيات كريمة، نورد منها التالية: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: 85].

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: « أن مَدْيَنَ تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز » ا.هـ. وتقع هذه المنطقة في محافظة الكرك وتمتد نحو الجنوب حتى خط يمتد من تبوك نحو الغرب إلى البحر الأحمر.. ولم تذكر الآيات سائر مناطق الأردن، لأن شعيباً كان مرسلاً إلى أهل

مدين وحدهم، وليس لقبائل سواهم في بلاد الأردن. وقد كانت مدين بلدات عامرة ومحطة للقوافل التجارية وذلك يعني أن طريق القوافل كان من هناك بعد خراب طريق قرى لوط، وبعدما حلّ بها عذاب الله، ذلك أن سيدنا شعيب جاء بعد سيدنا لوط بحوالي خمسة قرون أو ما حولها. وفي جميع الحالات بقيت الأردن طريقاً للقوافل بين بلاد الشام وجزيرة العرب واليمن السعيد.

وذكر القرآن الكريم منطقة إيلة (العقبة) على بحر القلزم (الأحمر) في معرض القوم الذين ابتلاهم الله سبحانه بالسُّمك، فآثروا العصيان على الطاعة. فمسخهم الله قردة خاسئين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: 163-165].

وقد ذكرت التفاسير أن حاضرة البحر هذه، هي إيلة (العقبة) وأنها على البحر الأحمر. ويذكر ابن كثير في تفسيره لها: « أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على ضيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة. وحذر هؤلاء من كتمان صفاتك (أي صفات رسول الله سيدنا محمد ﷺ) التي يجدونها في كتبهم لئلا يحلّ بهم ما حلّ بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هي إيلة على شاطئ بحر القلزم. قال محمد بن

إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: (وأسلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) قال: هي قرية يقال لها إيلة بين مَدْين والطور». اهـ.

إن اصطلاح حاضرة البحر قد يمكن استخدامه في تفسير الآية الكريمة في قصة سيدنا موسى في سورة الكهف: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: 60]. فالحاضرة هي التي تجتمع إليها القوافل البحرية والبرية، التي تمخر عباب الماء؛ أو تجتاز بحر الصحراء، بحر الرمال وبحر الجبال، بحر الذاهب إلى البحر والقادم من البحر، فهي نقطة الالتقاء، منها يتزوّد المسافر والتاجر المبحر، وإليها يأتي بالبضاعة وينشد الراحة، إذن فهي حاضرة البحر، والمدينة التي تقع عليه، وبالتالي لابد لها من ميناء للسفن، وهذا الذي نجده في سورة الكهف من أن سيدنا موسى قد ركب في السفينة، والتي لابد أنه ركبها من ميناء، كأي مسافر من المسافرين الذين يتحركون من موقع إلى آخر، أو للنزهة أو لأي غرض غير ذلك، يعلمه الله، ويعلمه أصحابه في حينه. مع التذكير دائماً بأن للأنبياء كرامات تتجاوز حدود البشر وطاقاتهم وقانونهم المألوف.

وفي تفسير سورة الكهف حول تحديد هوية القرية التي استطعمها سيدنا موسى والعبد الصالح الذي معه، نجد أنها إيلة نفسها التي كان حاضرة البحر ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف: 77].

وذكرت التفاسير أن هذه القرية هي إيلة (العقبة) على بحر القلزم (الأحمر)، وذكرت التفاسير أيضاً أن حاضرة البحر هي القرية نفسها، وكانت هذه من بلاد

الأموريين الأردنيين العرب الذين أشارت إليهم التوراة، كما سنجد مفصّلاً في هذا الكتاب بإذن الله ضمن اسم الأردن في التوراة / العهد القديم.

وإذا عدنا إلى موضوع بُقْعَة الأردن التي اختارها سيدنا لوط، فإنها لا شك تمتد على طول الصدع الانهدامي حتى بحر القلزم، ومن ذلك نجد أن اسم الأردن في هذه الإشارة كان يطلق على البرية التي تمتد من بحر القلزم وتشمل الجبال (جبال رم) والشراة، وَجَبَال (أي جبال الطفيلة) ومؤاب، لأنها ضمن مدى المجال الحيوي لقرى قوم لوط، وهي بحاجة إلى هذه الديار لغايات المعيشة والأمن والحركة والحياة وتبادل الإنتاج، والتمدد بسبب ازدياد السكان مع السنين قبل أن يحلّ عليهم غضب الله سبحانه.

ويمكن بسهولة أن نجد أن حاضرة البحر، أو القرية التي رفضت تقديم الضيافة لسيدنا موسى والعبد الصالح، أو مجمع البحرين أنها في نهاية الامتداد البري لهذا الصدع الانهدامي الذي كان جنة تجري من تحتها الأنهار من جنان الأرض، إلى درجة أن سيدنا لوط آثرها على مصر، لأنها أشبه ما تكون بها خصباً، وخُضْرة، وجنات، وربما تفوقها في هذا كله، لدرجة أنه استقرّ فيها ولم يعد إلى مصر.

واستمراراً للسياق في الآية الكريمة نجد النص القرآني الكريم التالي الذي يصف الهلاك لهؤلاء الذين اصطادوا الحيتان في يوم السبت حيث حرّم الله عليهم ذلك. ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: 164]. ويقول ابن كثير في تفسيره لهذا النص الكريم: هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم

شرّعاً في ساحل البحر فنهتهم طائفة وقالوا: لا تأخذونها وقد حرّمها الله عليكم يوم سبتكم، فلم يزدادوا إلا غياً »... الخ النص.

ومن هذا النص نجد ما يلي: أنه لم يذكر في التفسير أن أيلة من مصر والحجاز، مما يبرهن أنها ليست مصرية ولا حجازية، وإنما هي تسمية اخرى وبلاد أخرى، وهي الأردن الواقعة ما بين الحجاز ومصر. كما أنه على شاطئ البحر مما يجعلها متنفس الأردن للاتصال بالعالم الخارجي القديم، ومنتهى البحر مع اليابسة باتجاه نهاية ذراع العقبة، وهي المهمة نفسها التي تؤديها العقبة الآن على أنها ثغر الأردن، وميناءه، وحدوده مع البحر.

وأما النقطة الأخرى فإن ما حدث لهؤلاء القوم وللأقوام الأخرى يبرهن على أن ركوب الرأس بالأردن يؤدي بصاحبه فرداً كان أم جماعة إلى العقاب والعذاب والهلاك بين يدي الله سبحانه، ولدى أهل هذه البلاد تحديداً، على خلاف ما هو الأمر في سواها؛ ليس في هذه الحالة فحسب، بل وحالات الأقوام البائدة، والحالات المعاصرة، حيث أنه البلد الوحيد الذي يتعذر على الإنسان فيه أن يركب رأسه، إذا أراد العيش، صغيراً كان أم كبيراً، رفيعاً كان أم وضيعاً، وإذا ما ما استمرّ في غيّه لقي العنت والنهاية والتكسير؛ وربما يأتي ذلك بسبب قدسية المكان وانْساق أهله معه.

وفي سياق تفسير هذه الآية، يروي ابن كثير قصة بكاء ابن عباس ﷺ ، فلمّا سئل عن سبب بكائه، « قال: فقال: هذه الورَقات، قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال (ابن عباس) أتعرف أيلة؟! قلت (الراوي): نعم، قال (ابن عباس): فإنه كان بها حيٌّ من اليهود سيقت الحيتان يوم سبتهم شرّعاً ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كدٍّ ومؤونة شديدة وكانت (قبلها) تأتيهم يوم سبتهم شرّعاً بيضاء سماناً كأنها الماخض (الناقة السمينة) تتنطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم، .... الخ ».

وبذلك نجد أن سكان إيلة من الأردنيين في هذا العصر الذي تتحدث عنه الآيات الكريمة، لم يكونوا جميعاً من اليهود، بل إن اليهود كانوا حيّاً من أحياء المدينة حيث يروي ابن عباس « فإنه كان بها حيّ من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ». ولكن الله مسخهم (أي اليهود العصاة في هذا الحي من البلدة الأردنية) قردة خاسئين، كما ورد ذكر للحادثة نفسها في سورة البقرة آية 65-66، حيث تذكر كتب التفاسير رواية عن ابن عباس أن القرية المشار إليها هي إيلة، وفي تفسير سورة البقرة، نجد زيادة في أنها قد تكون مدين، والأصح عندي (المؤلف) أنها كانت جزءاً من دولة مدين، وفي رأينا أن ذلك يبرهن على أن ديار مدين الأردنية التي كانت جزءاً من الأردن تمتد حتى البحر الأحمر، وأن القرية واحدة من قراها ومدنها، وفي رأينا أنها كانت ميناء تلك المملكة العربية الأردنية القديمة.

وفي رأينا (المؤلف) أن الحي اليهودي مارس المعصية لأوامر الله سبحانه، فوق أرض تتصف بقدسية المكان، وهي بمسخهم قردة خاسئين، وهذا لعمري أصعب من العقوبات المتعددة التي تبقيهم على آدميّتهم. أما هنا فقد سلخهم الله سبحانه من آدميتهم التي يستحقونها، وآتاهم أسوأ الجزاء لركوبهم رأسهم.

وقد وردت إشارتان واضحتان إلى الأردن، على أنها أرض مباركة وذلك بنصوص القرآن الكريم، الأولى في سورة الإسراء، والثانية في سورة سبأ.

أما في سورة الإسراء فنجد ذلك في الآية الأولى ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1]. ورغم أن بعض كتب التفسير تقول عن معنى: (الذي باركنا حوله) أنها الزروع والثمار، فإن بعضها

يرى أن معنى ذلك: الزروع والثمار والأنهار ومنازل الأنبياء والصالحين، وفيه من بركات الدنيا والآخرة وهو ما نراه نحن أيضاً.

ومن الواضح أن المعنى (في رأينا) شامل لهذه كلها، بما فيها المكان وهو الأردن الذي يمكن رؤيته بالعين المجردة من القدس، بينما لا يُتاح لأهل فلسطين رؤية القدس، مثلما يراها الأردنيون بسبب طبيعة الأرض والمواقع، كما أنه أرض مباركة. تقول التوراة: أن سيدنا موسى تلقى فوق أرضها (فوق الأرض الأردنية) كثيراً من الوحي وتعاليم الرب. كما نزل بها أنبياء كرام واحتضنهم ثراها وهم: سيدنا شعيب، وسيدنا لوط، وسيدنا أيوب وسيدنا يحيى وسيدنا إلياس، وهناك أنبياء آخرون مدفونون فيها، مثل: نوح وهود وسام عليهم الصلاة والسلام جميعاً.

كما أنها أصبحت مرقداً للكثير من الصحابة الكرام والشهداء مثل أبي عبيدة عامر بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وقادة معركة مؤتة الكرام عليهم رضوان الله (زيد بن حارثة الكلبي الأردني، وعبدالله بن أبي رواحة وجعفر بن أبي طالب)، وضرار بن الأزور الكِنْدي الأردني، وغيرهم كثير وكثير من الذين يرقدون في هذا الوطن العزيز، مما زاده بركة ومباركة وقدسية وهالة، على سائر من سواه مما ليس فيه من كنوز الكرامات والمقامات والرسالات والآيات ما في الأردن.

وكما سبق وقلنا فإن تشديد العقوبة على الأقوام التي كفرت بالأنبياء الذين نزلوا في الأردن يضيف برهاناً جديداً على قدسية ومهابة ومباركة الديار الأردنية، بما يفوق ما سواها من البلدان من غير مكة المكرمة والمدينة المنورة، والمسجد الأقصى المبارك، أقول المسجد الأقصى المبارك.

-5-

أما ما ورد في سورة سبأ حول مباركة الأردن، فجاءت بعد آية تتحدث عن طيب أرض سبأ، ومغفرة الله لهم، وإنعامه عليهم حيث ورد ذلك كما يلي: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: 15]. ثم يتحدث السياق في آية كريمة بعدها: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبا: 18-19].

وورد في التفاسير أن القرى المباركة المشار إليها في السياق الشريف هي قرى الشام، وذلك يعني تلقائياً أن قرى الأردن وارضها جزء من هذه الأرض المباركة والقرى المباركة. أما معنى: (قرى ظاهرة)، أي متواصلة، وكان متجرهم (أي تجارتهم) من أرضهم التي هي مأرب إلى الشام، وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يصلوا الشام ويرجعوا.

أما: (سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين) - أي سيروا في تلك القرى المتصلة، آمنين مما يخافونه، قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع، ولا ظِماء (أي: لا يصيبهم ظما)، فلم يشكروا النعمة، بل طلبوا التعب والكدّ. بل إنهم سئموا النعمة ولم يصبروا على العافية، فتمنوا طول الأسفار والتباعد بين الديار.

ويقول ابن كثير في تفسيره هذه الآيات الكريمة: « يعني قرى الشام، يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة »: وقال العوفي

عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها: بيت المقدس، وقال العوفي عنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام (قرى ظاهرة) أي بيّنة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ».

وهذه كلها تشير إلى قرى الأردن، كونها بين الحجاز والشام، وهي قرى عربية أيضاً. وأن ذكرها أنها التي بارك الله فيها، يأتي لحكمة اقتضاها الله سبحانه وتعالى تكريماً لها كوظيفة وأداء أدوار (مفردها دور) وظاهرة وواقع أكثر من ذكرها بالاسم. فالاسم قد يتغيّر مع الأزمنة وعاقب الدول والأمم والشعوب، أما الحكمة فإنها لا تزداد إلا عمقاً وبريقاً مع الأيام.

وبذلك نجد أن الإشارة إلى الأرض الأردنية بالبركة والمباركة، قد جاءت ضمن سياق القدسية التي أطلقت على موضوع معين مثل بيت المقدس، أو القرى التي باركنا فيها (ومنها القرى الأردنية)، دون أن يقال: أرض الأردن، لأنه – وكما سبق وذكرنا – فإن القرآن ليس كتاب من قول البشر، وليس كتاب جغرافيا، وإنما كتاب الله المقدس، الذي لا يذكر شيئاً إلا لحكمة أرادها ويريدها ويعلمها الله سبحانه جلّت قدرته وعزّ شأنه.

وهناك إشارة أخرى كريمة إلى الأردن في سورة الروم حيث يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۞ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم: 1-5]. أما أدنى الأرض، فإنني أرى أنه تخوم مملكتهم وهي الأردن، وبلاد الشام حيث يجاورون الجزيرة العربية التي بها المؤمنون في فجر الدعوة الإسلامية إذ حزنوا لهزيمة الروم لأنهم أهل كتاب، على يد الفرس وهم أهل وثنية.

وحيث أن كلمة في أدنى الأرض أكثر شمولية وتغطية ورُقيّاً وحكمة وبُعداً عن الأقليميّة التي تتغيّر بتغيّر الزمن؛ من ذكر المواقع بالأسماء، وحيث أنها جاءت في كلمتين فقط أو ثلاثة: (في أدنى الأرض)، فإن ذلك أكثر وقعاً وبلاغة وسعة من ذكر قوائم مسح أسماء المواقع والبلدان وأجزاء هذه التخوم التي قد تتسع أو تختفي أو تنقص أو تتقلّص أو تزيد أو تتغير أسماؤها بين حين وآخر. ويقول ابن كثير في تفسيره، راوياً عما ذكره « ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي: « طرف بلاد الشام مما يلي الحجاز » وهذا الوصف ينطبق على الأردن، بالتمام والكمال. وفي زبدة التفاسير نجد ما يلي: (في أدنى الأرض) في أقرب أرضهم من أرض العرب، قيل: هي أرض الجزيرة، وقيل: أذرعات » . والصحيح أنها الأرض الأردنية، وأن أذرعات أصلاً كانت في ذلك الوقت جزءاً من الأردن.

-6-

ووردت إشارة أخرى في القرآن الكريم، تتحدث عن وقائع على الأرض الأردنية، ألا وهي قصة أصحاب الكهف حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: 9-11]. اهـ.

وتقول التفاسير أن الرقيم قريب من إيلة كما ذكر ابن كثير. وهذا يعني أنها في بلاد الأردن بَعُدَت أم قَرُبَتْ من الأردن. وقد تم العثور عليها علمياً وأثرياً في مطلع القرن العشرين، وإن كانت معروفة شعبياً عبر الأجيال أن هذه هي موقع أهل الكهف الذين ذكرهم القرآن الكريم. حيث أن تصميم الكهف مطابق تمام

المطابقة لما ورد من وصف له في القرآن الكريم. كما أن قولهم أنه قريب من أيلة، يعني أن الرقيم وأيلة موقعان في بلد واحد، وليس في بلدين مختلفين، وهي هنا: الأردن.

نجد هنا الحديث عن الرقيم (الموقع) والكهف، والآيات الكريمة غير معنية بالمكان من حوله، وتحديد ذلك المكان في أية بقعة من الأرض يوجد؟! فالأرض كلها أرض الله، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، كما أن الآية الكريمة دخلت على موقع الحدث وهو الكهف الذي هو في الرقيم، لأن ذلك عجب عجاب، وبالتالي لا داعي للإطالة قبل الدخول في قصة هؤلاء المؤمنين، عليهم رضوان الله سبحانه، وبركاته جلّت قدرته. ولا داعي لوصف المنطقة ولكن ذكر الملك والمدينة ونوع العملة وتبدُّل السلطان والأديان تشير إلى عمان وما حولها، بل وتحدّده بشكل واضح لانطباق المعالم على عمّان، وليس على مدينة سواها.

وفي اللهجة الأردنية يلفظون الرقيب بتحويل القاف إلى جيم والميم إلى باء فيقال: الرجيب، وليس الرقيم. وقد دخلت شخصياً (المؤلف) الكهف عدة مرات، وهو لطيف وفيه توابيت حجرية، ووصفه مطابق تمام المطابقة لما ورد في القرآن الكريم.

وبذلك نجد أن أحداثاً هامة من العذاب والعقاب إلى الرحمة والصواب، اتخذت من أرض الأردن مكاناً، وحاضنة تفريخ أو نهاية أبدية.

-7-

خلاصة مهمة

ومن خلال النصوص القرآنية الشريفة الكريمة التي ذكرت المواقع الأردنية، نجد أنها ركزت على صفات هذه المواقع ووصفتها بالمباركة، كما نجد أن لقدسية

ومهابة هذه الأماكن عند الله أنه سبحانه انتقم لها بمضاعفة العذاب الذي حلَّ بالشعوب والأقوام التي كانت تسكنها ولكنها فسقت وكفرت، فضلاً عن عقابه جل وعلا لهم لكفرهم. وبالتالي كان لقدسية المكان نصيب من إضافة العذاب إلى القائمة التي شاء الله سبحانه أن يعاقبهم عليها بسبب كفرهم وطغيانهم.

ومن خلال هذه النصوص المقدسة نجد ما يلي:

1- أن الله سبحانه وصف الأرض الأردنية بالمباركة عندما ذكر مدنها وقراها (القرى التي باركنا فيها)، هذه البركة في تربتها وحالتها ومنتوجاتها وأجوائها، وأهلها، إنها كلمة عامة لتشمل ما شئت أن تضع على القائمة من النقاط. وأن ذكرها كذلك هو أكثر تكريماً وتعظيماً للأردن من ذكر اسمه بالمجرد.

وقد ذكرت أنها مباركة عندما حددها الله سبحانه بقوله (الذي باركنا حوله) وهي أن الأردن من حول فلسطين، وهذا يجعل نهر الأردن ضمن المواقع المباركة، فهو كذلك في الديانتين السماويتين الأخريين: المسيحية واليهودية. وفي بطن الأردن، جرى تعميد سيدنا عيسى عليه السلام ، وسائر الهاربين من الخطايا حيث كان يقوم سيدنا يحيى عليه السلام (يوحنا المعمدان) بتعميد هؤلاء ليغسلهم الله من ذنوبهم. وحيث قام يحيى نفسه بتعميد سيدنا المسيح، كما هو وارد في الإنجيل.

2- أعطى الله الأردن ميزة لم يعطها جلّ وعلا لأرض أخرى، من بلدان النبوات والرسالات. فحيثما ورد النص القرآني الكريم حول الأنبياء في الأردن (لوط وشعيب) نجد أن الله سبحانه أرسل إليهم رسلاً من قبل هؤلاء، يدعونهم لعبادة الله، وسوية السلوك، وشكر الله على النعم، ولكنهم كفروا، ومن الملحوظ أن الله لم يعاقبهم من أول كفران بالرسالة أو تكذيب للرسل، أو جحود لنعم الله عليهم بل اختتم الرسل إلى مدين وأصحاب الأيكة بسيدنا شعيب العربي الجذامي / خطيب الأنبياء، واختتم الرسل إلى قوم لوط بسيدنا لوط عليه السلام .

أما النتيجة، فإن هذه الأقوام العربية الأردنية لم تقدّر رفق الله سبحانه بهم، ولم تستمع لتعليمات رسلهم، بل ازدادوا كفراً، وإنه ولقدسية المكان وعظمته وحرمته عند الله سبحانه، فإن الله قد أمهلهم رسولاً بعد رسول، حتى علم الله جل وعلا، أنه لن يكون منهم إيمان أبداً فأحلّ بهم عقابه، ولكنه ليس كعقاب الأمم الأخرى، عقاباً واحداً، وإنما تعدّاه إلى عقاب متعدد في آن واحد، فالرجفة والصيحة معاً لأهل مدين، وأما أهل الأيكة فالظلّة والحرّ والنار، والصيحة والرجفة (الزلزال). كلها في آنٍ واحد في فترة العذاب والتعذيب الذي أراده الله سبحانه وأحلّه بهم. وهذا واضح في النصوص القرآنية الكريمة كما أوردنا سابقاً في هذا السياق. أما قوم لوط فقد تعدّد لهم العذاب، من مطر الحجارة المسوّمة، إلى الصيحة إلى الرجفة إلى انقلاب الأرض... الخ.

3- أن أهل الأردن كانوا في نعم لا تُعدّ ولا تُحصى، وقد رأينا ما ورد في التوراة عندما أراد سيدنا لوط أن يتخذ أرضاً له منزلاً، ولمواشيه وخدمه وعبيده، فلم يجد أكثر منها رخاءً وخصباً وخضرة، وخيرات، وجنات تجري من تحتها الأنهار لا بمقدار الأردن ولا أكثر منه، وهذا نص واضح في التوراة، لا يحتمل التأويل والاجتهاد، وإنما يستدعي الاستنباط والتأمل، وأنه ذكر الأردن بالاسم، وليس بالاستخلاص.

أمام هذه الخيرات التي لا تكون إلا في أرض باركها الله وأحبها جلّ وعلا، وزادها نعمة من المطر الطيب والتربة الخصبة الطيبة أيضاً، فإن الله رؤوف بعباده فيها، ولكنه لا يسمح لهم بالتمادي على حرماته، وحرمات هذه الأرض وقدسيّتها وطهارتها، ولا يسمح بممارسة الأخطاء والخطايا التي تدنّس الأرض المقدّسة، مثلما تُلوّث النفوس الزكيّة ومع هذا فقد تجاوز الله سبحانه عن خطيئاتهم لعلهم يرجعون، ولكن بدون فائدة ولا نتيجة، فكان أن حلّ بهم عقابه وعذابه أضعافاً مضاعفة.

4- من المزايا الخاصة بالأردن، والدالّة على مباركة المكان وقدسيّته أن العقاب الذي حلّ بأقوام الأردن الذين عَصَوْا وطغوا، لم يتعد حدود البقعة التي كانت تُرتكب فيها أو عليها الخطايا، أي عقاب محدود بعدالة مطلقة ودقة مطلقة مقتصر على مكان السوء وأهل السوء، فمثلاً نجد النص القرآني الكريم يذكر سيدنا شعيب وهو يرى قومه وقد حلّ بهم البلاء في مدين والأيكة، ويقول متحسّراً حزيناً عليهم: ﴿ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: 79]، فلو أن حدود العقاب كان واسعاً خارج نطاق الخطايا ومجتمع الخطايا، لمات النبي شعيب ﷺ نفسه، هو ومن أمن معه، ممن رافقوه أو تقدموه أو لمن تركوه بعده، والذين كانوا بقرب المكان الذي حلّ به البلاء، وعلى مرأى العين ولو أن العقاب توسّع في المكان خارج موقع الكفر والخطيئة لكان نالَ الموقع الذي كان يجلس عليه سيدنا شعيب وهو يرى العذاب يحلّ بقومه أمام ناظريه. إنه عقاب محدود المكان والمهمة والأفراد والمجموعات، يتلاشى بمجرد الانتهاء من الرسالة الموكولة إليه.

وقد وصف القرآن الكريم هذه المحدودية في العقاب بقوله سبحانه (فأصبحوا في دارهم جاثمين) – هذا عن قوم شعيب في مدين والأيكة، وأخبرنا عن تحديد مكان عقوبة قوم لوط بقوله سبحانه: فجعلنا عاليها سافلها، أي المدن والمواقع الآثمة الخاطئة، ولم يتوسع سبحانه في العقوبة إلى ما سواها، لأن قدسية المكان الأردني بوركت من لطف الله سبحانه باقتصار العقاب على الموقع الذي مورست فيه الخطايا.

وتذكر الآيات القرآنية الكريمة كيف أن الله امر سيدنا لوط وأهله ألا يلتفت أحد وراءه ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ [هود: 81] إلا امرأته قدّرها الله من الغابرين. وأن العقاب نزل لاقتلاع منطقة واسعة ومدن، وما يترتب على

ذلك ويرافقه من هزّة، وأشعة وإشعاع وبرق يخطف الأبصار ورعد يزلزل الجبال ودخان ملوث وقاتل ونار، ومطر سوء من الحجارة المسوّمة، لا يمكن أن يكون أحداً بمنأى عنه إلا إذا كان عقاب الله محدداً، بحيث لا يصيب إلا من أصاب الآثام ولا يتجاوز الموقع الذي ابْتُلي بالعصاة والكفار.

وتذكر التوراة أن سيدنا إبراهيم رأى الدخان المنبعث من ديار لوط، ففهم أن الله سبحانه عاقبهم، ولو لم يكن العقاب محدوداً على مَنْ أخطأ، فإن سيدنا إبراهيم وسيدنا لوط وأهلهم لابد وأن يلقوا حتفهم بسبب هذا العنف والكوارث الطبيعية التي حلّت بهم من تعدد العقاب المتمثل بمطر حجارة السوء، واقتلاع الأرض من موقعها ورفعها في السماء، وقلبها رأساً على عقب، فضلاً عن الرجفة (الهزّة) ومطر السوء من الحجارة المسوّمة.

وتذكر التوراة نصاً لا يتنافى مع النص القرآني الكريم الذي أمر سيدنا لوط أن يسري بأهله بقطع من الليل، وألا يلتفت وراءه، إلا امرأته التي صاحت فاغرة: واقوماه، حسرةً على قومها، فأصابها الموت، بينما تقول التوراة أنها تحوّلت إلى عمود من الملح. أقول تنص التوراة أن سيدنا لوط آوى إلى كهف قريب من موقع العذاب، وتم اكتشافه في التسعينات من القرن العشرين، باسم كهف لوط، كما أنه محدد على خارطة مأدبا الفسيفسائية. وإذا صحّ هذا، وليس من دليل يدحضه، فإنما يبرهن على قولنا أن العقاب يحل بأناس محدودين ومكان محدد ولا يتجاوزه إلى جواره من أرض وإنسان، وذلك أن موقع العذاب على مرأى من مكان الكهف والمشار إليه.

وخلاصة القول أن الذي حلّ بقوم لوط كان تحديداً في القرى التي كانت تعمل الخبائث والكبائر، ولم يصب هذا العقاب القرى المجاورة التي لم تفعل ذلك، رغم قرب المكان وقرابة السكان، وقد باعدت الخطايا بينهما، كما لم

يصب الأذى النبيّ ومن آمن معه من أهله ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: 36]. وهذا من لطف الله بالأردن وأهل الأردن، ولقدسية المكان أيضاً أن عقوبة المخطئ المتعمد المتجبر فيها مضاعفة، وليس (رأس برأس)، وأن الله يمهل أهلها أكثر من غيرهم من خلقه. ويتجاوز عن الخطيئة الأولى والثانية وغيرهما، ولكن عندما يحلّ العقاب يكون مساوياً لعدد مرات العصيان ويعاقبهم أكثر من الخطّائين من غيرهم من خلق الله سبحانه.

-8-

5- من خلال النص القرآني الكريم الشريف أن الأردن كانت على طريق القوافل التي تتخذ مسارها شمال جنوب، براً وبحراً، فهو سبحانه يذكرها عند الحديث عن سبأ، وكيف أن طريقها التجاري إلى الشمال كان عبر الأردن، وكان فيها قرى ظاهرة متقاربة آمنة مطمئنة ذات عيش رغيد وهانئ، وهذه إشارة إلى الطريق البري الصحراوي أو الطريق السلطاني عبر الجبال والبادية.

وضمن هذا الطريق نجد إشارات واضحة في الحديث عن قوم شعيب أنهم كانوا يقطعون الطريق / طريق القوافل (كانوا يمارسون مهمة قُطّاع الطرق)، ويعتدون عليها، وكانوا إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، وذلك ما يتبيّن ضمن المعاني العديدة لهذه الآية الكريمة، الإشارة الواضحة إلى أنهم كانوا في الطريق التجاري، يبيعون ما يفيض عندهم، ويشترون ما يحتاجونه من فائض غيرهم مما تأتي به القوافل، وأن هذا التبادل كان يشمل ما هو خاضع للكيل: كالحبوب، والمنتجات الزراعية والحيوانية الأخرى، أو خاضع للوزن، كالأطاييب أو المعادن الثمينة أو ما إلى ذلك ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: 3].

وواضح أيضاً من النصائح التي كانت ضمن رسالة ومهمة سيدنا شعيب لقومه ألا يبخسوا الناس أشياءهم، سواء أكان البخس في التجارة أو التقييم أو الحكم على الناس، أو إعادة المنهوبات والمتحصّل لهم من السلب والنهب وقطع الطريق، عندما كانوا يعيدون بعض ما نهبوه وسلبوه، فلا يعيدون إلا البضاعة المزجاة (أي المغشوشة أو الرديئة)، أو جزءاً من انتهبوه، وهذا بخس لحقوق الناس أيضاً. وإشارة أخرى أنهم قد حصلوا على ثراء عظيم من هذه التجارة، ومن هذا السلب، ومن المكوس التي كانت تدفع لهم، ومن التبادل التجاري، وبالتالي فإن عليهم تقديم الشكر لله سبحانه، والإيمان به، ونبذ عبادة الأصنام وتعدد الآلهة التي كانوا يستطيبون عبادتها، وليس العكس.

وفي إشارة قرآنية كريمة إلى طريق آخر للتجارة، وهو يمرّ عبر الغور، حيث يقول سبحانه عند الحديث عن قوم لوط، في مخاطبة أهل مكة وكفارها: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: 137-138].

إذن كانت هناك طريق أخرى لقوافل قريش وغيرهم ممن كان قبلهم، إنها الطريق عبر الغور وبمحاذاة البحر الميت، حتى أيلة (العقبة) إحدى الطرق التجارية بين الجنوب والشمال؛ وربما تكون الطريق الثاني أو الثالث الذي كان يمر عبر الأردن شمالاً جنوباً، وذلك ما يجعل هذا البلد مرتبطاً بالجزيرة واليمن السعيد والهند، منذ آلاف السنين، من خلال التجارة والأمن والقدسية والمهابة، وأنه آهِلٌ بالسكان والقرى والاستقرار.

وإشارة أخرى حول اتخاذ الغور حتى العقبة طريقاً لجدها عندما يتحدث القرآن الكريم عن قوم لوط أنهم كانوا يقطعون الطريق، ولكنهم كانوا يضيفون على ذلك ممارسة اللواط مع هؤلاء التجار فضلاً عن مصادرة أموالهم، أي أنهم يمارسون الفاحشة، وتكون اغتصاباً وانتهاباً، ويمارسون ذلك في ناديهم أي علناً

أمام بعضهم بعضاً، وفي أماكن تجمعهم ونواديهم. وهذا لعمري أسوأ ما يفعله البشر، فكيف به إذا صدر عن عربي؟! إنه يفوق الكبائر، ويدخل في درجة الخطيئة التي لا تغفر.

ويعزز وجود هذا الطريق عبر الغور ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن « حاضرة البحر » وهي أيلة، فهي مركز تجمع التجار والتجارة والمنتوجات والبضاعة، ومنها القادمة من هذا الطريق البري عبر وادي الأردن، واستقبال ما هو قادم من اليمن السعيد، والهند عبر البحر، ليسلك طريقاً برياً عبر الأردن إلى الشام، وعبر فلسطين إلى شواطئ البحر المتوسط، ثم إلى أوروبا وشمال إفريقيا وتركيا

إذن، وبالإضافة إلى العبر الدينية والروحية التي تؤخذ من الآيات الكريمة الخاصة بالأردن، والمواقع والأقوام الأردنية، والرسالات والمهمات الموكولة إلى الأنبياء فيها، فإن من أصول العقلانية أن نضع النقاط التي ذكرناها أعلاه في الحسبان عند قراءة النصوص القرآنية الكريمة المتعلقة بالأردن.

ليس هذا فحسب، بل إنه لمن العقلانية والحكمة عدم استبعاد هذه المعاني أعلاه، عند قراءة وتفسير النصوص التوراتية والإنجيلية. ففي الأردن، ظهر سيدنا يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) وسيدنا أيوب الأدومي العربي الأردني، وتم تعميد السيد المسيح الذي قضى شطراً من حياته في الأردن بحثاً عن الأمن والأمان عندما كانت تحيطه المخاطر في فلسطين. وفي الأردن تقول التوراة أن سيدنا موسى قد توسّد ثراها ودُفن فيها (إذا صحَّت الرواية)، وكذلك سيدنا هارون (وإن كنت غير متيقّن معهم في ذلك) وتشرّفت الأردن بمرور سيدنا محمد ﷺ مرتين، صلى الله وسلم على جميع أنبيائه.

بقي أن نقول أنه إذا صحّ ما ورد في التوراة والتفاسير، من العقوبات الفورية والجماعية لبني إسرائيل عندما كانوا في الأردن، في طريق عبورهم إلى

فلسطين، وموت الآلاف وعشرات الآلاف منهم خلال يوم أو بعض يوم بسبب ارتكابهم للخطايا والأخطاء في الأردن؛ أقول إذا صحّ ذلك، فإنما يضاف إلى أهمية وقدسية الأردن والعقاب الإلهي لكل من يتجاوز هذه الحدود المقدسة المبجّلة. والله أعلم وهو يهدي السبيل.

-9-

وخلاصة القول أن أرض الأردن مباركة. فإلى الجنوب منها مباشرة تقع مكة المكرمة، أقدم مكان للعبادة وأقدس بقعة على وجه الأرض، والمدينة المنورة، مدينة سيدنا محمد ﷺ ومكان مرقده الشريف.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: 96].

وإلى الغرب من الأردن مباشرة، وعلى بُعد 30 كيلومتراً من الحدود، تقع القدس، المركز الروحي العظيم الآخر في العالم (أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين). وبذلك، فإن أرض الأردن التي تقع ما بين مكة المكرّمة والقدس الشريف هي مباركة في صلبها، كما يوضح القرآن الكريم على نحو بيّن: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: 1].

ويتفق مشاهير مفسّري القرآن الكريم على أن الأردن الحديث جزء من هذه المنطقة المباركة. كذلك، فإن الرسول ﷺ كان قد دعا الله سبحانه وتعالى: « اللهم بارك لنا في شامنا[1] اللّهمّ بارك لنا في يمننا »[2]. وقال أبو جهل في الليلة

(1) كلمة الشام هنا تضم أرض الأردن الحديث.
(2) مسند الإمام أحمد بن حنبل، 2:90:118.

التي سبقت محاولة قتل سيدنا محمد ﷺ في مكة المكرّمة قبل الهجرة: « محمد يعدكم بجنات كجنات الأردن ». وقد ذكر الرسول ﷺ عمان في سياق مقارنتها بالجنة عندما قال ﷺ : « إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء »[1].

إضافةً إلى ذلك، فإن عدداً من الأنبياء كانوا قد باركوا أرض الأردن أو حلّوا بها لأنها مباركة؛ وذلك عندما أقاموا فيها أو اجتازوها في رحلاتهم. ومن هؤلاء نوح وإبراهيم ولوط وهارون وموسى والخضر وشعيب ويوشع وأيوب ويحيى والمسيح وسيدنا محمد صلوات الله عليه وعليهم جميعاً وسلامه، وقد عُرف أن عدداً منهم كان قد توفي أو دُفن فيها، ومن ضمن هؤلاء موسى (في نبو بالقرب من مأدبا إن صحّت الرواية)، وهارون (على جبل هارون، فوق البتراء إن صحّت الرواية)، وشعيب (المدفون في وادي شعيب قرب السلط) وأيوب (في السلط) والأصحّ أنه مدفون في الطفيلة؛ ويحيى (في مكاور، بالقرب من مأدبا).

ويبين البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب أن لقاء سيدنا محمد ﷺ في صغره، ولم يكن وقتها رسولاً بعد، مع الراهب بحيرى واللقاء الآخر فيما بعد بين الرسول والصحابي ميسرة مع الراهب نسطور قد تم على أرض الأردن.

كذلك يقع في الأردن: « الكهف » خارج مدينة عمان في سحاب الذي وردت في القرآن الكريم سورة باسمه متحدثة عن قصة أهله. وهنالك بيّنات عدة على أن الآية التالية من القرآن الكريم تشير إلى عمان مما يمنح المدينة بركة عظيمة: ﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 19].

---

(1) هذا الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجة، ويذكره كتاب زيد الدين العراقي: « المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار » ج 4، ص 657.

هذا وقد استشهد ودُفن في الأردن عدد كبير من الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً، وكان الأردن أول منطقة انتشر فيها الإسلام خارج الجزيرة (في زمن الرسول ﷺ عام 8 للهجرة)، كما كانت أيضاً أول مكان يشهد اتصالاً شاملاً بين الإسلام والعالم غير العربي. ومن أبرز هؤلاء الصحابة الشهداء الكرام رضوان الله عليهم، الذين تم دفنهم في الأردن زيد بن حارثة الكلبي من بني كلب الأردني، (الذي كان الابن المتبنّى للرسول ﷺ قبل إلغاء الإسلام للتبني، والصحابي الوحيد المذكور بالاسم في القرآن الكريم – سورة الأحزاب: 37): وجعفر بن أبي طالب (ابن عم الرسول والأخ الأكبر لعلي، وهو الشخص الأكثر شبهاً للرسول ﷺ في « الخَلْق والخُلُق »[(1)]؛ وأبو عبيدة عامر بن الجراح (أمين الأمة الإسلامية، وأحد الصحابة العشرة «المبشرين» بالجنة)؛ وعامر بن أبي وقاص؛ ومعاذ بن جبل (والي الرسول على اليمن)؛ وشرحبيل بن حسنة (كاتب الوحي)؛ والقائد العظيم ضرار بن الأزور؛ وأبو ذر الغفاري؛ وعبدالله بن رواحة، وأبو الدّرداء؛ والقائد العسكري عكرمة بن أبي جهل. هذا وقد استشهد على أرض الأردن عدد كثير عدا الثمانية عشر من أصحاب الأضرحة التي سلف ذكرها في هذا الكتاب، وبالأخص في معركة مؤتة (8 هـ)، وفي معركتي اليرموك (13 او 15 هـ)[(2)] ومعركة فحل (14 هـ) وبوباء الطاعون العظيم عام 19 هـ عندما عسكر جيش أبي عبيدة في غور الأردن. وهكذا، فإن أرض الأردن تحوي من أضرحة الصحابة عدداً أكبر من أي منطقة أخرى خارج جزيرة العرب.

---

(1) ابن سعد، « كتاب الطبقات الكبرى »، الجزء الرابع، 24:1.

(2) ما يمكن أن يثير الأهمية هو أن هنالك حتى يومنا هذا جبل في اليرموك، في شمال الأردن، سمي نسبة للقائد البطل، الذي لم يخسر معركة قط، خالد بن الوليد، وذلك تقديراً لموقفه في معركة اليرموك.

خلاصة القول: ومن وجهة نظر الإسلام، ولأسباب عدة، فإن منطقة الأردن تكون أكثر منطقة مباركة في العالم بعد الحجاز والمسجد الأقصى المبارك[1] إلا أن منزلتها الدينية غير معروفة في العالم الإسلام إلى حد بعيد للأسف الشديد.

أما من وجهة نظر المسيحية، فإنني أعتقد بأن أرض الأردن لا تقل أهمية وقدسية عند النصارى؛ حيث أنها أعظم أرض مباركة عندهم في العالم بعد بيت لحم والقدس في فلسطين. وتتكرر في التوراة والإنجيل الإشارات إلى منطقة الأردن – إيدوم، مؤاب، جلعد، عربا، نبّو، جدارة، عمون، وجرش – من حيث ارتباطها بالأنبياء الذين تم ذكرهم سابقاً. والأردن هو الموقع الذي يرتبط به السيد المسيح ﷺ مباشرة. فقد دخل ﷺ حيث قضى أربعين يوماً « في البرية » الأردنية. وهناك إشارة إلى البدوي الأردني (القديرا) في سِفْر نشيد الأناشيد (4:1): « أنا سوداء، لكني جميلة، يا بنات أورشليم، كأخبية قيدار ». وبعبارة أخرى، فإن أرض الأردن – في المسيحية كما هي في الإسلام – ما هي إلا امتداد للأرض المقدسة. غير أنه تم إهمالها بشدة كما سنرى في سياق هذا الكتاب.

وفي النهاية، تجدر الإشارة إلى أن المواقع الإسلامية المباركة المذكورة في الأردن مقسمة إلى أربعة عناوين:

---

(1) هذا، بالطبع، عدا عن كربلاء والنجف، واللتان بالرغم من عظم الشخصيات المدفونة فيهما: (الإمام علي كرّم الله وجهه، وابنه الحسين ﷺ وعائلته) ليست أراضٍ مباركة طبقاً للقرآن الكريم والحديث الشريف كما هي الأردن، وإنما صار لها هالة واحترام بسبب دفن الإمام علي وابنه الحسين رضي الله عنهما، فعظّمها الشيعة فقط، واعتبروها مراقد مقدّسة وهي ليست كذلك عند السُّنّة.

1- الضريح: حيث دفنت فعلياً شخصية مباركة (إما نبي أو صحابي).

2- المقام: حيث زارت شخصية مباركة هذا الموقع في حياتها أو بعد مماتها (في رؤية) وتم بذلك تكريس هذا المكان لله سبحانه وتعالى.

3- المواقع: كالكهف ومقام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حفيد حفيد الرسول ﷺ ، وهو أحد الصالحين وصاحب مكانة عند الشيعة الزيدية، وموقعه في منطقة الربّة في الكرك.

4- المحل: والمرتبط بأحداث بارزة في سياق التاريخ الإسلامي ولها أهمية بسبب ذلك. ويمنع الإسلام أي دعاء أو صلاة أمام قبر أو شخص، ولكنه يرى على أن الله سبحانه وتعالى بارك في أشخاص معينين وأماكن معينة، تماماً كما بارك سبحانه وتعالى أشهراً (رمضان) وأياماً (الجمعة) وشجراً (التين والزيتون) وما إلى ذلك. وبهذا، فإنه يمكننا القول بأن الأردن، بأرضه المباركة، وثروته من الأماكن المباركة، هو بعينه كنز روحاني يسمو بحياة من يزوره إذا تفاعل مع ما يرنو إليه ويثيره ذلك في النفوس من معان عظيمة وإيحاءاتٍ مباركة.

الأردن في التوراة / العهد القديم

-1-

اهتمام التوراة بالأردن

أفردت التوراة مساحات واسعة في عدد من أسفارها، لأحداث وقعت على الأراضي الأردنية، كما ورد اسم الأردن بهذا اللفظ واضحاً دونما لبس أو تحريف، ليشير إلى الأردن الحالي بحدوده الطبيعية، أو على النهر أو وادي الأردن، أو مخاضة العبور، أو ما ورد حول الممالك والكيانات السياسية التي كانت قائمة آنذاك في الأردن، وتحت مسميات متعددة، مثل مملكة أدوم، وعمون، وباشان، فضلاً عن تسميات أخرى تنضوي تحت أسماء عشائرية مثل العموريين والمديانيين، وما إلى ذلك.

كما ورد اسم الأردن أيضاً في الإنجيل / العهد الجديد، بعدة معانٍ مقاربة لما ورد في التوراة، وذلك برمته يعني أن اسم الأردن بالمعنى الجغرافي والاجتماعي والسياسي والتاريخي ليس وليد عهد جديد أو معاصر ولا وليد قرار سياسي أو دور سياسي أو مهمة سياسية، بل يعود بجذوره إلى ما قبل زمن التوراة والإنجيل، بحيث ورد الاسم في هذه الأسفار والأناجيل بشكل لا يقبل اللبس، مكتمل الصورة جغرافياً وسياسياً واجتماعياً.

كما ورد اسم الأردن في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة بهذا اللفظ، كأرض خضراء، وساحة لمعركة الفصل بين الحق والباطل، وجبهة عسكرية للرباط.

ولابد من القول هنا أن اسم الأردن قد ورد في القرآن الكريم ليس بهذه الصراحة، وإنما ذكر وجود النهر (نهر الأردن) دون أن يسميه بالأردن، وذكر القرى التي بارك الله فيها، وهي قرى الأردن، دون أن يسميها، وذكر الأيكة ومدين والبحر الميت دون أن يقول بصراحة، أنها في بلاد الأردن، ولكن المفسِّرين والواقع الجغرافي والسياسي يعطينا الصورة الواضحة في هذا الصدد.

وبذلك فإن ذكر الأردن في الديانات التوحيدية الثلاثة: الإسلام والنصرانية واليهودية، وذكره في التوراة والإنجيل والحديث الشريف يشكل صفعة علمية ودينية وتاريخية للمتفيقهين والمتشدّقين والمنظّرين المثبورين الذين يقولون أنه لا يوجد للأردن اسم ولا هوية ولا ذكر في التاريخ قبل 1916، وهو تاريخ إعلان معاهدة سايكس – بيكو التي تم بموجبها تقسيم بلاد الشام بحدود سياسية دون إلغاء التاريخ الجغرافي، وإنما إبراز الهوية السياسة فقط، والكيانات السياسية دون إنكار الكيانات الوطنية.

جاء اسم الأردن في الديانات الثلاثة على أنه البقعة المباركة، وعلى أنه موقع الحسم العسكري، وأنه المعبر والممر إلى فلسطين. وقد ورد اسم الأردن في الفتوحات الإسلامية كمنطقة جغرافية عندما تم توجيه القائد شرحبيل بن حسنة عنه من قبل سيدنا أبو بكر رضي الله عنهما، لفتح الأردن، كمنطقة، وكوطن كيان وطني، ثمّ تمت تسميته: جند الأردن كيان إداري سياسي، حيث كان واحداً من خمسة أجناد في بلاد الشام وهي: الأردن، بيت المقدس، دمشق، حلب، قنسرين.

إذن لم يعد هناك مجال للقول بعدم وجود الأردن في التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والإدارة والسياسة، ولم يعد لأي شخص يقرأ القرآن الكريم أن يجتهد بالتعامي عن الأردن. حيث أن سيدنا لوط أُرسل إلى ما سمي بقوم لوط، وتم عقابهم بالخسف في وادي الأردن حول البحر الميت، التي لا زالت شاهدة على الحقيقة.

كما أن سيدنا شعيب وهو من قبيلة جذام العربية الأردنية، قد أرسل على أهل مدين وهم جزء من جذام فعاقبهم الله بكفرهم بالصيحة والرجفة، وهو العقاب الذي طال جزءاً آخر من جذام وهم أصحاب الأيكة. وإذا كان أهل مدين في منطقة الكرك، فإن أهل الأيكة كانوا في وادي السلط الذين أصابتهم الرجفة والظلّة والصيحة وأن سيدنا شعيب انتقل من موقع إلى آخر داخل الأردن، وداخل بطون القبيلة الواحدة (الأردنية). يتكلم لغتهم العربية ويفهم ثقافتهم وعقلياتهم ونفسياتهم.

وعلى أرض الأردن استشهد سيدنا يحيى عليه السلام ، وهو يوحنا المعمدان عند النصارى، وعلى الأرض الأردنية حدث لبلعام ما حدث زمن بني إسرائيل، وعلى أرضها ظهر ونشأ وترعرع أيوب عليه السلام وهو أدومي أردني عربي؛ هذا فضلاً عن النبي إلياس عليه السلام الذي نزل في الجزء الشمالي من الأردن.

-2-

اسم الأردن كمنطقة بلاد / ديار في نصوص التوراة

ورد اسم الأردن كمنطقة تشير إلى شرق الأردن الحالية في مواقع كثيرة من التوراة، حيث ورد في سفر العدد الفصل 32 ما يلي: « ونحن لا نرث معهم شيئاً من عِبْرِ الأردنّ إلى هناك إذ أوتينا ميراثنا في عِبْر الأردنّ شرقاً (20) فقال لهم موسى إن صنعتم هذا الأمر وتجرّدتم أمام الربّ في الجيش (21) وعبر كلُّ متجرِّدٍ منكم الأردنّ بين يدي الرب إلى أن يَقْرِضَ أعداءَه من وجهه (22)... » ثم يقول في فقرات أخرى من الفصل والسفر نفسه: « وقال لهم موسى: إذا عبَر بنو جاد وبنو رأوبين معكم الأردنّ كل رجل متجرّد للحرب أمام الربّ وخضعت الأرض بين أيديكم فأعطوهم أرض جِلْعاد مِلْكاً (30) وإن لم يعبروا متجرّدين معكم فيتملّكوا فيما بينكم في أرض كنعان (31) فأجاب بنو جادٍ وبنو رأوبين

قائلين: كما تكلّم الربُّ في عبيدك فنحن نصنع (32) نعْبُرُ متجرّدين أمام الربّ إلى أرض كنعانَ ولكن يكون مِلْكُ ميراثِنا في عِبْرِ الأردنّ (33) فأعطى موسى لبني جاد وبني رأوبين ونصف سِبْط مَنَسَّى بن يوسف مملكة سيحون مَلِكِ الأموريين ومملكة عُوج ملك باشان الأرض بمدنها وحدودها مُدُن الأرض من كل جهة (34) فبنى بنو جادٍ دجيبون وعطاروت وعَروعير (35) وعطروتَ شوفان ويَعْزِيرَ ويَجْبيهة (36) وبيت نِمْرَةْ وبيت هاران مُدُناً محصّنة وحظائر غنم (37) وبَنو رأوبين بَنَوْا حشبون وألْعَالا وقِرْيَتائيمْ (38) بأسماء (39) ومضى بنو ماكير بن مَنَسَّى إلى جلعاد ففتحوا وطردوا الأموريين الذين فيها (40) وأعطى موسى جلعادَ لِماكِيرْ بين مَنَسَّى فأقام بها (41) ». اهـ.

واضح من هذا التضمين الوارد في الفصل الثاني والثلاثين من سفر العدد في التوراة، أن أرض الأردن، ومنطقتها كانت واضحة في زمن موسى عليه السلام اسماً وحدوداً وهوية جغرافية تشتمل على أكثر من كيان سياسي أو هوية سياسية محلية أو فرعية على شكل ممالك تتحد تحت سقف وطني واحد، فكأنها أقاليم ضمن البلاد الواحدة والكيان الوطني الواحد، لقد عرف موسى عليه السلام هذه الأرض من قبل بعد أن عمل لدى سيدنا شعيب عليه السلام النبي العربي الجذامي الأردني وهو خطيب الأنبياء، أقول عمل موسى عنده عشر سنوات، مقابل زواجه من ابنة شعيب عليه السلام .

ومن الجليّ أنه (أي موسى) كان يعرفها باسم الأردن، ويعرف ممالكها، ويعرف دروبها، وقبائلها، وعناصر التناحر والاختلاف والائتلاف بين مكونات شعبها، وأن في توجهه تلقاء مدين حكمة اقتضاها الله سبحانه، وارتضاها جلّ شأنه، وقد ورد اسم عِبْر الأردن في التوراة والإنجيل وهو اللفظ والمعنى والاصطلاح والاسم الذي يقابله بالإنجليزية Trans Jordan ، وهو الذي يعني أيضاً

شرق الأردن أو East Jordan ، وهما الاصطلاحان اللذان استخدما بعد تحريره من الأتراك وخضوعه للانتداب البريطاني عام 1920. حيث سميت الإدارة فيه بحكومة الشرق العربي حتى عام 1923، سميت بعدها بإمارة شرق الأردن.

ثم تأتي الفقرات المرقمة في هذا الفصل من السفر التوراتي لتبيّن الأراضي التي تقع في عِبْر الأردن، وهي مملكة الأموريين، حسبان وديبون وأدوم ومملكة باشان، وبمعنى آخر فهي الأرض الممتدة من بحر القلزم (أي البحر الأحمر – خليج العقبة) حتى الجولان (أي الحدود الشمالية لمملكة باشان الأمورية العربية الأردنية) شاملة بذلك منطقة بيسان وبحيرة طبريا وهي التي كانت ضمن أراضي جند الأردن بعد الفتح الإسلامي المبين وتقسيم بلاد الشام إلى أجناد.

وبذلك نجد أن ممالك الأمورين: (أدوم ومؤاب وعمون وباشان) كانت في منطقة عِبْر الأردن، وإذا حذفنا كلمة « عِبْر » كما حذفنا « شرق » في القرن العشرين، فإننا يمكن أن نستخدم كلمة الأردن لتعني الأردن الذي كان زمن خروج بني إسرائيل من مصر، والذي ذكرته التوراة، وهو الاسم نفسه الذي يعني الأردن الحالي أيضاً، وهو الذي كان اسمه حتى عام 1946 شرق الأردن، وكان عنوانه السياسي (كيانه السياسي) إمارة شرق الأردن. أما عنوانه السياسي في زمن التوراة، وخروج موسى عليه السلام من أرض مصر عبر سيناء، ثم عبر الأردن (أي خلال أرض الأردن) ثم إلى أرض كنعان (أي فلسطين)، أقول كان عنوانه آنذاك «عِبْر الأردن» الذي يشمل هذه الممالك التي أشارت إليها التوراة في مواقع عديدة. ثم أصبح عنوانه جند الأردن في بداية الفتح الإسلامي، ثم شرق الأردن في مطلع القرن العشرين، ثم مملكة الأردن في منتصف القرن العشرين. ولو تجاوزنا أو شطبنا صفات وكلمات: عبر وجند، وإمارة ومملكة، فإن الذي يبقى من هذه العناوين ويربط بينها ويشكل عمادها وأساسها هو: الأردن معنى ومبنى، وأرض وهوية.

إذن (الأردن) هو موضوع الحديث متجرّداً من أية عناوين إدارية أو سياسية أو عسكرية، أو كيانات سياسية، الأردن هو الوطن، هو الأرض، هو الثابت، والباقي متحركات متغيرات حسبما هو الزمن والأمم والدول وتقلبات الحياة.

وحيث أن بني إسرائيل كانوا رحّالة جوّالة، متحركون باتجاه أرض كنعان (فلسطين فيما بعد)، وأنهم سلكوا الأردن لاعتبارات كثيرة، منها المعرفة المسبقة لسيدنا موسى بهذه البلاد وأهلها، ولغتهم ودروبها، ومواطن الماء والطعام والكلأ، والتجارة والمحطات، والقوة والضعف والمداخل والمخارج؛، فإن كلمة عِبْر تأتي للتعبير عن حركة بني إسرائيل، أكثر منها تعبيراً عن اسم الأرض. أي أنهم سيتحركون من خلال الأردن، وعِبْر الأردن، وبالتالي فإن اسم الأردن كان هو الأساس الثابت، وأن كلمة « عِبْر » جاءت لتدل على الحركة والعبور، وإن بقيت التسمية Trans Jordan أو Across Jordan تطلق على بلادنا حتى عام 1946، حيث وردت عدة مؤلفات بهذه العناوين، كتبها رحالة غربيّون زاروا الأردن في القرن التاسع عشر، وترجمت شخصياً عدداً من هذه الكتب إلى العربية.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، نجد أن المهندس الألماني شوميخر Schumakher المكلف بدراسة طبوغرافية الأرض لتحديد مسار خط سكة الحديد من دمشق إلى حيفا في نهاية القرن التاسع عشر، قد كتب كتاباً بعنوان عِبْر الأردن Across Jordan (1884) الذي ترجمته (المؤلف) إلى العربية بعنوان «عبر نهر الأردن» ، كما كتبت البعثة الأميركية كتاباً في عام 1902 بعنوان وادي الأردن والبتراء Jordan Valley and Petra ، وبذلك أضافوا كلمة وادي الأردن، وكتب رحالة آخر وهو روبنسون عام 1889 كتاباً بعنوان Life and Ventures Beyond Jordan أي: ما وراء الأردن حياة ومغامرات الذي ترجمته إلى العربية أيضاً. وكتب الأميركي سيلاه ميريل كتاباً عن رحلته بعنوان شرق الأردن East of the Jordan عام 1872، أو إلى الشرق من نهر الأردن.

ويذلك نجد أن كلمة الأردن وردت قديماً وحديثاً من لدن الأجانب والعرب، وفي الكتب المقدسة والرحالة والشعراء لتعني الأرض والمنطقة، والنهر والوادي، وجنبات نهر الأردن. وهذا يقودنا إلى سؤال هام: هل إن اسم الأردن كان للنهر وأطلق على الأرض أم للأرض وأطلق على النهر. وللموضوعية، فإن كل وجهة نظر من هذه لها ما يثبتها، ولكن الأمر في نهاية المطاف يؤدي إلى شيء واحد وهي أن النتيجة واحدة، وإن المقصود في نهاية المطاف أرض الأردن، ونهر الأردن، ووادي الأردن، وشرق الأردن، وغرب الأردن، وشمال الأردن، وجنوب الأردن، أي أن كلمة الأردن ثابتة لإطلاقها على منطقة جغرافية واسعة شاملة لهذه العناوين الفرعية جميعاً، ولا غرو أو مندوحة في أن تطلق على النهر أو الأرض، أيٌ منهما قبل الآخر، أو على أي جزء شرقاً أم غرباً أم شمالاً أم جنوباً، أو على نهر يعبر أرضه، أو غوراً يتوسّد ثراه، لأن الأسماء في النهاية تأخذ اعتبارها مما استقرّ عليه الناس، وقد استقرّوا على أن الأردن هي الوطن، وأن النهر نهرها «نهر الأردن» والغور غورها «غور الأردن»، والوادي واديها: وادي الأردن، والبادية باديتها «بادية الأردن» والشرق شرقها « شرق الأردن »، والغرب غربها « غرب الأردن » لا يضرّه إن كان جاء من النهر أم من الأرض، لأن الأمور تقاس بخواتيمها. وخاتمتها أنه الوطن الأردني، الأرض والإنسان والتاريخ.

ونجد أن صحراء مؤاب، أي مناطق الكرك ومعان والشوبك وذيبان وما يمتد إلى الشرق منها هي أراضي أردنية حيث تأتي الفقرة التالية في نصّ التوراة مفسّرة ومعطوفة على الفقرة السابقة التي ذكرت فيها مؤاب على أنها من بلاد عِبْر الأردن. ونجد في الفصل الثاني والعشرين من سفر العدد ما يلي:

« (1) ثم ارتحل بنو إسرائيل فنزلوا صحراء مؤاب التي على عِبْر أردنَ أريحا (2) ورأى بالاق بن صِفُّور جميعَ ما صَنعَ إسرائيل بالأموريِّين (3) فخاف المؤابيون

من قِبَلِ الشعب جدّاً إذ هم كثيرون وتضايق مؤابُ من قِبَلِ بني إسرائيل (4) ». اهـ. وربما نورد التفاصيل في الملحق كما وردت في هذا الفصل من التوراة، لمن يريد الاطلاع على التفاصيل إذا كان لدينا متّسع من المساحة.

وتقول التوراة في الفصل الحادي والعشرين من سفر العدد ما يلي:

« (4) ثم رحلوا من جبل هود على طريق بحر القلزم من حول أرض أدوم فضجرت نفوس الشعب في الطريق (5) وتكلم الشعب على الله وعلى موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لنموت في البريّة فإنه ليس لنا خبز ولا ماء وقد سئمت نُفوسُنا هذا الطعام الخفيف (6) ». اهـ.

ثم تواصل في الفصل نفسه (22) ما يلي:

« (20) ومن ياموت في الوادي الذي في حقل مؤاب إلى رأس الفَسْجَةِ (اي رأس سياغة وجبل نبو) الذي ينظر إلى البريّة (21) وبعث إسرائيل رسلاً إلى سيحون ملك الأموريّين قائلين (22) دعني أمُرّ في أرضك ونحن لا نميل إلى حقل ولا كرم ولا نشرب ماءَ بئر وإنما نسير في الطريق السلطاني إلى أن نجوز تُخْمَل (23) فلم يَدَعْ سيحونُ إسرائيل، يجوزون في تُخْمة وجمع سيحون جميع قومه، وخرج للقاء إسرائيل إلى البريّة وَوَافي ياهَصَ وحارب إسرائيل (24) ».

ويقول في مكان آخر على شكل نبوءة في سفر العدد من الفصل الحادي والعشرين فقرة (27) « لذلك يقول ضاربوا الأمثال أدخلوا حشبون (اي حسبان) لتُبْنَى وتُشَيّد مدينة سيحون (28) لأن ناراً خرجت من حشبون ولهيباً من قرية سيحون فأكلت عارَ مؤاب وأربابَ مشارف أرنون (29) ». اهـ.

وتواصل التوراة ذكر الأردن، كعنوان كبير لمنطقة جغرافية يحتوي عناوين فرعية كثيرة، من العشائر التي شكّلت ممالك وكيانات سياسية فوق الكيان

الوطني الأردني مثل: الأموريين والمؤابيين والأدوميين والباشانيين، لنجد أنه يتحدث عن تحرك بني إسرائيل ويذكر في سياق ذلك عدداً من المواقع الأردنية تدّعي التوراة أن بني إسرائيل مرّوا بها خلال عبورهم إلى أرض كنعان (فلسطين فيما بعد)، ومن هذه المواقع: أبل الزيت (وهي عابل) وشطّيم وهما (أي آبل وشطيم والتي تسمى الآن عابل وشيظم وهما من قرى الحمايدة إلى الجنوب من الطفيلة) تقعان إلى الجنوب من الطفيلة باسم عابل، وشيظم، وقد ذكرتهما التوراة أنهما في صحراء مؤاب. كما ذكرت منطقة نبو (في مادبا) وعباريم التي ربما تكون منطقة باير وجبال الشراة في محافظة معان حالياً.

كما ذكرت التوراة جبل هارون الواقع في منطقة البتراء، وذكرته باسم هور، وهو في طرف أرم أدوم، وادعت التوراة أن هارون مات في هذا الجبل، حيث يوجد له الآن مقام، رغم أنني أرى أنه توفي أرض سيناء، وكذلك سيدنا موسى، وأن ما رأوه من الأرض بالأردن وفلسطين لم يكن في رأيي إلا نمطاً من الكشف الذي هو جزء من كرامات ومعجزات الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم.

ونجد تفاصيل ذلك في الفقرات التالية من الفصل الثالث والعشرين من سفر العدد من التوراة: « (26) وارتحلوا من عصيون جابر ونزلوا ببريّة صِيْنْ وهي قادِشُ (27) وارتحلوا من قادش ونزلوا بجبل هور في طرف أرض أدوم (28) فَصَعَد هارون الكاهِنُ إلى جبل هور بأمر الربّ ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في اليوم الأول منه (29) ».

ثم تواصل التوراة فقراتها في الفصل نفسه (23) من السفر نفسه (العدد)، حيث نجد ما يلي: « وارتحلوا من أوبوت ونزلوا بتلال العباريم في حدود مؤاب (45) وارتحلوا من التلال ونزلوا بديبون (ذيبان) جاد (46) وارتحلوا من ديبون جاد

ونزلوا بعلمون دبلاتائيم (47) وارتحلوا من علمون دبلاتائيم ونزلوا بجبال العباريم (48) وارتحلوا من جبال العباريم ونزلوا بصحراء مؤاب على أردن أريحا (49) فنزلوا على الأردن من بيت يَشْموت إلى آبل شِطِّيم في صحراء مؤاب (50) وكلّم الربّ موسى في صحراء مؤاب على أردنّ أريحا قائلاً (51) مُرْ بني إسرائيل وقُلْ لم إنكم جائزون الأردن إلى أرض كنعان (52) ». اهـ.

وكلمة إنكم جائزون الأردن، تدل على هذه الأراضي الواسعة من عصيون جابر (إيلة/العقبة) إلى صحراء مؤاب، إلى أبل، إلى عباريم (ربما تكون باير والشراة) إلى جبل هارون، إلى نبو، إلى ديبون، إلى الأرض الأردنية المحاذية لأرض كنعان؛ ونحن نعرف أن أرض كنعان كانت تمتد على أرض فلسطين من منطقة العريش جنوباً إلى الحدود الشمالية لفلسطين الحالية، وأما شرقاً حتى أريحا، حيث أن أريحا وإن كانت كنعانية فهي أرض أردنية، ذلك أن كل ما على ضفتي الأردن أردني كما سيأتي في تعريف الأردن لدى الرحالة والجغرافيين المسلمين.

ويقابل هذه الأرض الكنعانية المنطقة الممتدة من عصيون جابر وإيلة (العقبة حالياً) حتى الشمال من درعا «أدرعي»، التي كانت عاصمة مملكة باشان التي كانت بدورها إحدى ممالك الأموريين الأردنيين في عِبْر الأردن، كما وردت في نصوص متعددة في التوراة.

وبذلك فإن الأردن هو البوابة الأولى إلى أرض الجبارين / أرض كنعان، وأنه إذا سيطر أحد عليها أصبح من السهل أمامه أن يسيطر على أرض كنعان، وأن بني إسرائيل كانوا يريدون الهيمنة على الأردن بممالكه، وعناوينه الفرعية، بكيانه الوطني وكياناته السياسية المتعددة، ليتمكنوا من العبور إلى أرض كنعان، وهذا كله تلخصه فقرة واحدة في التوراة ترويها على لسان الربّ كما كلّم موسى وأوصى إليه بذلك، حيث تقول: « (50) وكلّم الربّ موسى في صحراء

مؤاب على أردنّ أريحا قائلاً (51) مُرْ بني إسرائيل وقل لهم إنكم جائزون الأردن إلى أرض كنعان (52) ».

وهكذا كان وبقي الأردن عبر التاريخ بوابة الفتح ليس لأرض كنعان فحسب بل ولبلاد الشام والجزيرة. ومنه توزّعت فيما بعد، الجيوش الإسلامية الأربعة للفتح الإسلامي في زمن الخليفة الراشدي الأول سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ .

والأردن هنا: «إنكم جائزون الأردن إلى أرض كنعان» هي الكيان الوطني برمته الذي تقوم عليه عدة كيانات سياسية. فالأردن في هذه الفقرة يعني الأرض التي تمتد من بحر القلزم إلى جبل الثلج (الشيخ) وما عليها من ممالك متعددة، رفضت كلها السماح لبني إسرائيل دخول الأردن أو اتخاذه معبراً إلى فلسطين.

وإذا صحّ ما ذكرته التوراة أن الله سبحانه كلّم سيدنا موسى في صحراء مؤاب. فإن ذلك سرّ وكرامة تضاف إلى أسرار وكرامات الأردن على أنها الأرض المباركة والقرى المباركة، من الله سبحانه وتعالى، ولا غرو إذن أن نجد شدة التنكيل الإلهي بالأقوام الذين كفروا أو فسقوا أو عَصَوْا على أرض الأردن، كيف أبادهم ودمّرهم بما يزيد عن غضبه جلّ وعلا على الأقوام الآخرين الذين كفروا به أو على الأقوام أنفسهم عندما عصوه فوق أرض خارج الأردن كما حدث لبني إسرائيل في التيه. وتذكر التوراة أن ما اقترفه بنو إسرائيل من خطايا على الأرض الأردنية كان يُقابل بعقاب وانتقام إلهي عاجل بموت الآلاف بلحظة واحدة، وفي يوم الخطيئة، ودونما إمهال، بينما تركهم أربعين سنة في سيناء يتيهون في الأرض.

إن من أسباب ذلك هو أن العقوبة لهم لم تقتصر على كفرهم ورفضهم التوحيد، بل وأيضاً لتدنيسهم قدسية المكان (وهي الأرض الأردنية)، فكان العقاب مضاعفاً، أو عدة عذابات وألواناً من العذاب في آنٍ واحد. فقوم لوط «

جعل عاليها سافلها » فضلاً عما أمطرهم به من الحجارة المسوّمة وما إلى ذلك من العذاب، وقوم شعيب عاقبهم الله بالصيحة والرجفة وعاقب أهل الأيكة منهم بعقوبة أخرى فضلاً عن هذه كلها، وهو يوم الظلّة وما به من نار حارقة. أما الأقوام الأخرى الذين كفروا أو فسقوا أو عَصَوْا فوق الأرض غير الأردنية فقد حلّ بهم عذاب واحد. حيث أغرق الله سبحانه قوم نوح، وسلّط الريح على قوم عاد والصيحة على قوم صالح والغرق على قوم فرعون.

وقد ورد في التوراة إشارات متعددة تنص على أن الله سبحانه (الربّ) كلم موسى على الأرض الأردنية (هذا إن صدقت التوراة أن موسى دخل الأردن بعد رحيله من عند سيدنا شعيب ﷺ). وإذا كانت هذه حقيقة، فإنها مكرمة وكرامة تضاف إلى ما أنعم الله به من قدسية وكرامات للأرض الأردنية.

ونجد إشارة توراتية أخرى عن الأردن كمنطقة، وذلك ما ورد في الفصل الخامس والثلاثين من سفر العدد من التوراة أيضاً، حيث نجد الفقرة التالية: « (13) والمدنُ التي تفرزُنها للملجأ ستٌّ مُدُنٍ تكون لكم (14) ثلاثٌ منها في عِبْرِ الأردنِّ وثلاثٌ في أرض كنعان تكونُ مُدُنَ ملجإٍ (15) لبني إسرائيل وللغريب والدَّخيل فيما بينكم تكونُ هذه المدن الستّ ملجأً يهرب إليها كلّ من قَتَل نفساً سهواً (16) ». اهـ.

وبذلك نجد أن التوراة تتحدث عن مناطق آمنة، وملاذات آمنة مكوّنة من ثلاثة مدن في الأردن « ثلاث منها في عِبْر الأردن »، وثلاث منها في فلسطين، يهرب إليها الباحث عن الأمن الذي اقترف جريمة يستحق عليها الموت عقاباً، وهل أكثر من الموت مصدر رعب للإنسان يجبره للبحث عن ملاذ آمن؟! إنه الأردن ذلك الملاذ الآمن، وبذلك نجد دليلاً على معنى اسم الأردن وهو «الأمن والطمأنينة» الذي أشرنا إليه في هذا الكتاب. ونجد أن اصطلاح الملاذ الآمن في السياسة المعاصرة، مأخوذ أصلاً من التوراة، وأصبح أسلوباً تتخذه الدول لحماية الناس الفارة من الموت.

نجد عِبْر الأردنّ تُطلق هنا على بلاد الأردن، اي: أرض الأردن، وأرض كنعان، ونجد أن أرض الأردن هي المحاذية شرقاً لأرض كنعان الممتدة طولاً من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة البحر المتوسط والممتدة عرضاً انطلاقاً من حدود التماس مع الأردن إلى البحر الأبيض، وأنهم متلازمتان متلاصقتان. وإذا عرفنا أن سكان الأردن في ذلك الوقت كانوا عرباً أموريين أردنيين، ولكنهم سمّوا المناطق بأسماء قبائلهم، أو أنهم سمّوا القبائل بأسماء المناطق، وليس في أيٍّ منهما نشازاً.

فالأدوميون نسبة إلى لون أديم الأرض المائل للحمرة في تلك المنطقة وهي الطفيلة، والحوريين نسبة لتربة الجبال وهي الحِوَّر اي اللون الذي يمتزج فيه الأحمر والأبيض والأسود وهو الغالب على المنطقة، والمؤابيون قد يكون اسم القبيلة أو المكان، وليس من نشازية في ذلك. والباشانيين قد يكون ذلك نسبة إلى بيت شان (بيسان الحالية)، أو أنهم سُمّوا كذلك نسبةً لهذا المكان، أو إنه اسم القبيلة أصلاً، واطلقَ على المكان ولا غضاضة في ذلك. فالعشائر هذه شكّلت كيانات سياسية، ضمن الكيان الوطني، وبذلك نجد أن الأردن مُبْتَلى عبر التاريخ في أن الكيان السياسي قد يتناقض مع الكيان الوطني إلى يومنا هذا، وأن تلك الكيانات السياسية لم تغيِّر اسم الأردن كبلاد وكيان وطني.

المهم في الأمر أن ما أوردته التوراة مطابق تماماً للمفهوم الأردني المعاصر، وهذا لا يعني أننا نقلّد التوراة، بل يعني أن التوراة جاءت على أرض بهذه التسمية التي نضجت عبر القرون قبل قدوم بني إسرائيل بوقت طويل جداً وقبل نزول التوراة، وأخذته التوراة وضمّنته في سياقها، وبقي متوارثاً عبر الأجيال التي لم تقرأ التوراة ولا تعرف محتواها، إلى أن وصل الاسم نفسه في يومنا هذا. جاءت التوراة على أرض بهذا الاسم «الأردن» وهي لم تُضِفْ تسمية جديدة عليها، بل دوّنت التسميات التي نضجت وتبلورت عبر القرون والأجيال.

ثم نجد إشارة أخرى إلى الأردن كمنطقة وليس كنهر كما يتصور البعض حيث تقول التوراة في الفصل الثاني والثلاثين من سفر العدد ما يلي:

« (19) ونحن لا نرث معهم شيئاً من عِبْرِ الأردنّ إلى هناك إذا أوتينا ميراثنا عِبْر الأردن شرقاً (20) فقال لهم موسى: إن صنعتم هذا الأمر وتجردّتم أمام الربّ في الجيش (21) وعَبَر كلُّ متجرّدٍ منكم الأردنّ بين يدي الربّ إلى أن يَقْرِضَ أعداءه من وجهه (22) ». اهـ.

الفقرة (19) تتحدث عن الأردن، وعن شرق الأردن، باصطلاح وكلمات، تشعر وأنت تقرأها أنها قيلت تَوّاً، وذلك برهان واضح أن كلمة الأردن، ومنطقة الأردن كأرض وديرة وبلاد كانت واضحة قبل زمن نزول التوراة، وقبل زمن سيدنا موسى ﷺ . وأن الاسم ليس غريباً عبر هذه المراحل التاريخية. صحيح إنه قد يعني عبور النهر، ولكنه يذكر العبور إلى شرق الأردن، وهي البلاد التي حملت هذا الاسم حتى 25/ 6/ 1946 عندما تحولت من إمارة شرق الأردن إلى مملكة أردنية، وأزيحت كلمة « شرق » وبقيت كلمة الأردن / الأردنية.

وفي الفقرة (32) من سفر العدد / ف 32، نجد النص التالي على لسان بني جاد وبني رأوبين: « (32) نعْبُرُ متجرّدين أمام الربّ إلى أرض كنعان، ولكن يكون مِلْكُ ميراثنا في عِبْر الأردن (33) فأعطى لهم موسى لبني جاد وبني رأوبين ونصف سبط مَنَسَّى بن يوسف مملكة سيحون ملك الأموريين ومملكة عوج ملك باشان الأرض بمدنها وحدودها مدن الأرض من كل جهة (34) فبنى بنو جاد ديبون (ذيبان) وعطاروت (من قرى جبل بني حميدة) وعروعير (عراعر على الطرف الشمالي لوادي الموجب) (35) وعطروت شوفان ويَعْزِيز ويَجْبَهَة (الجبيهة الحالية) (36) وبيت نِمْرَة (غور نمرين الحالي) وبيت هاران مدناً محصّنة وحظائر غنم (37) وبنو راؤبين بنوا حشبون (حسبان) والْعَالا (العال من قرى

العجارمة شمال حسبان) وقريتائيم، (القريات في جبل بني حميدة) (38) ونبو (جبل نبو) وبَعَل مَعو (عيون موسى) مُغَيَّرتي الأسماء (...) وسمّوا المُدُن التي ابتنوها بأسماء (39) ومضى بنو ماكير بن مَنَسَّى إلى جلعاد ففتحوها وطردوا الأموريين الذين فيها (40) وأعطى موسى جلعاد لماكير بن مَنَسَّى فأقام بها (41) ومضى يائيرُ بنُ مَنَسَّى واستولى على مزارعها وسمّاها حُوُّوت يائير (42) ومضى نُوبَحُ وفَتَح قناةَ وتوابعَها وسمَّاها نُوبَح على اسمه ». اهـ.

إن ما ذكرته التوراة أن اليهود بنو هذه المدن يناقض الحقيقة تماماً، ذلك أنها كانت موجودة مبنيّة وعامرة، وكانت ممالك تحت كيانات سياسية متعددة، أشارت إليها التوراة فيمواقع أخرى من بينها ما ذكرته في سفر العدد، كما ذكرنا وتذكر من قبل ومن بعد، ولكن اليهود قتلوا الأردنيين وأبادوهم ودمّروا وحرّقوا، كما سيأتي في النصوص التوراتية في سياق هذا الباب في هذا الكتاب.

قد لا يهمني سرد الأحداث، وتحتاج صدقيّتها إلى اختبار لأن اليهود حرّفوا كلام التوراة عن مواضعه، واشتروا به ثمناً قليلاً، ولكن ما يهمني التعريف الواضح للأردن، والمواقع الأردنية وأن الشعب الأردني كله كان عربياً أمورياً أردنياً رغم تباين الملوك والممالك وكياناتهم السياسية. لقد كانت كياناً وطنياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً واحداً. ويتضح هذا في النصوص المختلفة وفي هذه الفقرات، والإشارة إلى الأراضي والممالك التي كانت على الأرض الأردنية. حيث أن أرض كنعان (غربي نهر الأردن - وهي فلسطين الحالية) كانت هي المستهدفة بالعبور والوصول الإسرائيلي إليها والاستقرار فيها بحجة واهية: انها أرض الميعاد، ولكن عندما رأوا خصب وروعة وجبال الأردن وازدحامها بالسكان كدليل على رغد العيش وطيب الأرض والمناخ، طلبت بعض العشائر الإسرائيلية أن تكون مكافأتهم للعبور محاربين مقاتلين (متجردين) إلى أرض

كنعان لفتحها، أقول أن يكون ميراثهم أو مكافأتهم، أو غنيمتهم أو حصتهم التي سيُقْطِعُهم موسى إياها، أن يكون في الأردن وليس في فلسطين... فالعبور إلى أرض كنعان؛ أما الميراث والتملك فهو في بلاد الأردن، «ولكن يكون مِلْكُ ميراثنا في عِبْرِ الأردن».

ثم تأتي الفقرات التي تليها على إلقاء الضوء على الأراضي الأردنية التي يريدون تملكها وورثتها. وهي: مملكة سيحون ملك الأموريين الأردنيين العرب، وكانت تمتد من بحر القلزم (البحر الأحمر) حتى منطقة مأدبا، وبذلك نجد أن هذا الجزء كان متعارفاً عليه آنذاك أنه يقع في بلاد عِبْر الأردن / الأردن، وأنه جزء من أرض الأردن، وهو واضح لدى النبي موسى ﷺ عندما كان راعياً عند سيدنا شعيب الجذامي العربي الأردنين خطيب الأنبياء.

وأما المملكة الأخرى فهي مملكة عوج وهو الملك المشهور وكان على عرش مملكة باشان الأمورية العربية الأردنية أيضاً، وكانت عاصمتها أدرعي (درعا) في جنوب سوريا الآن، وكانت تشمل بلاد حوران وشمال الأردن، وبحيرة طبريا، وبيسان غربي نهر الأردن، وأقسام واسعة من هضبة الجولان وجبل الشيخ (جبل الثلج)، وكانت عامرة بالمدن، واسعة الحدود معروفة الجهات والتخوم «... ومملكة عوج ملك باشان الأرض بمدنها وحدودها مدن الأرض من كل جهة » ...

ثم تتحدث التوراة أن بنو جاد بَنَوْا ديبون ولم يقولوا أشادوها لأنها كانت مدينة قائمة قبل مجيئهم، وكانت عاصمة مملكة مؤاب، وكان ملكها بولاق بن صَفّر.. كما تقول التوراة أن بني جاد بنو أيضاً عطاروت وعروعير، وهي مدن مؤابية كانت مبنية، وهي الآن من أعمال لواء ذيبان (ديبون) ومن قرى بني حيدة وفي جبل بني حيدة، ولا زالت تحمل الأسماء نفسها، وهي أسماء مؤابية

وليست إسرائيلية، بل إن التوراة ذكرتها كما وجدتها على أرض الواقع في حينه.. « (34) فبنى بنو جاد ذيبون وعطاروت وعروعير ». وهذا برهان أنها كانت معروفة بالاسم والمكان والهوية قبل أن يدّعي اليهود إعادة بناءها بعد أن احرقوها وأبادوا أهلها.

ويختلط الأمر على كثير من القرّاء، ذلك أن هذه المدن أشيدت من قبل، وكانت عامرة، وتعترف التوراة بقتل أهلها جميعاً، وسبي من بقي حيّاً من الذراري ومصادرة الأموال ونهب المواشي. فأصبحت الديار خراباً قفاراً، وتدّعي التوراة أنهم أعادوا البناء، ولكن النص التوراتي لا يتحدث عن إنشاء أو تشييد، بل بناء، وهو يعني فيما يعنيه إعادة ترتيب أشياء قائمة.

ثم يذكر أن بني جاد بَنَوْا أيضاً « (35) عطروت شوفان، ويعزيز ويجبهة ». ولا أدري أين تقع عطروت شوفان، ويعزيز، ولكن ذكر يجبهة وهي الجبيهة من قرى وأحياء شمال عمان، تدلل أن المواقع الأخرى قريبة منها، وربما تكون يعزيز هي ياجوز نفسها أو غيرها، وربما تكون شوفان هي شفا بدران أو الرصيفة. وكلاهما قريبة من الجبيهة. ثم تتحدث التوراة أن بني جاد بنوا بيت نـمِرَة Namirah وهي نمرين في الغور الأوسط شمال البحر الميت، وأما بيت هاران، فلا أدري مكانها. وأكرر القول أن هذه مدن كانت موجودة وكانت عربية أردنية، ولكن البناء لا يعني دائماً الإنشاء من العدم، وإنما قد يعني التجديد أو الإضافة أو رفع البنيان؛ أو رفع القواعد، أو إعادة ترتيب الأشياء الموجودة، أو الترميم.

أما بنو رأوبين، فتقول التوراة أن حصتهم كانت بقية من المدن والمناطق الأخرى، وذكر حسبان (حشبون) وهي جنوب ناعور على الطريق المؤدية إلى مأدبا، والعال وهي قرية إلى الشمال من حسبان على الطريق نفسه، وقريتائيم (وهي القريتين الواقعة في جبل بني حميدة جنوب غرب مأدبا).

وتضيف التوراة في ذكر الأسماء التي تعبّر جزءاً من بلاد الأردن، فضلاً عما ذكرن أعلاه من مدن وممالك، أقول تضيف نبو وهي غرب مأدبا، وحامات ماعين / وعيون ماعين (بعل مَعُون)، وبذلك نجد أن هذه الديار فيما يسمى الآن محافظة مأدبا كانت جزءاً من الأردن، منذ زمن سيدنا موسى ﷺ ، وهذا واضح بنص التوراة فيما لا لُبْسَ فيه. فقد يكون الحدث غير صحيح، لأنه لا يوجد بين يدي دليل آخر على صدق ما ورد في التوراة. لكن الذي يهمنا هو سرد الأسماء، وهذه نقطة حديثنا هنا، وهي شهادة على أردنيتها، تحت كل الظروف.

ثم تذكر التوراة أن بني ماكير بن مَنَسّى فتح جلعاد وطرد الأموريين منها، وأما جلعاد في التعريف التوراتي، فكانت تطلق على الأراضي الممتدة من نهر اليرموك شمالاً، حتى منطقة ناعور جنوباً، وقد أشار إلى ذلك كتاب The Land of Gilead الذي كتبه الرحالة الإنجليزي اليهودي Laurance Oliphant ، وترجمته (المؤلف) إلى العربية وصدر بعنوان أرض جلعاد، وذلك عام 2004.

ونجد هنا أن اسم جلعاد كان موجوداً قبل التوراة، وقبل مجيء بني إسرائيل إلى فلسطين وعبورهم الأردن. وبالتالي فإن جلعاد تسمية أردنية عربية عمورية من الشعب الأردني الذي كان في هذه البلاد قبل مجيء اليهود.

هذه النصوص، إذن، واضحة وضوح الشمس بذكر الأردن، وتحديد مواقعه وتعريفه اسماً ومنطقة منطقة وجغرافيا وسياسية، وأنه كان يشتمل على عدد من الممالك آنذاك.

وفي سفر تثنية الاشتراع الفصل الأول، نجد نصّاً آخر واضحاً على تحديد المناطق الجغرافية التي يشملها الأردن آنذاك في أنه يمتد من البحر الأحمر (بحر قلزم) إلى بحيرة بانياس (قادش)، وأن مؤاب وهي مناطق جنوب الأردن والكرك، وجنوب مأدبا تعتبر في عبر الأردن، وان موسى ﷺ شرع في شرح

شريعته في بلاد الأردن، مما يضفي مرة أخرى على الأردن أهمية روحية ومقدسة أخرى، ومهابة في الديانة اليهودية، فضلاً عن قدسيته في النصرانية والدين الإسلامي.

تقول التوراة في الفقرة الأولى من الفصل الأول / سفر تثنية الاشتراع وما يلي:

« (1) هذا هو الكلام الذي كلّم به موسى جميع بني إسرائيل في عِبْر الأردن في البرية في الصحراء مقابل القلزم بين فاران وتُوفَلْ ولابان وحصيروت وديزهب (2) على مسافة أحد عشر يوماً من حوريب على طريق جبل سعير إلى قادس برنيع (3) في السنة الأربعين في الأول من الشهر الحادي عشر كلّم موسى بني إسرائيل بجميع ما أمره الربّ به إليهم (4) بعدما ضرب سيحون ملك الأموريين المقيم بحشبون وعُوْجاً مَلك باشان المقيم بعشتاروت في أدرعي (5) في عِبْر الأردن في أرض مؤاب سَرع موسى في شرح هذه الشريعة فقال (6) ». اهـ.

إذن ما سردته التوراة في الفصل الأول من سفر تثنية الاشتراع تقول أن ذلك جاء بأمر من الله سبحانه وأنه جلّ وعلا قد كلّم به سيدنا موسى ﷺ الذي بدوره تحدث بها إلى بني إسرائل عندما وصلوا إلى الأردن.

ونجد التوراة هنا دقيقة جداً في تحديد بلاد الأردن، حيث قالت: « في عِبْر الأردن »، ثم حددت منطقة عبر الأردن تفصيلاً، قصدت أم لم تقصد؛ فقالت: « في البرية »، ثم دخلت بمزيد من التفصيل فقالت: « في الصحراء ». ولم تترك الأمر عائماً، ذلك أن صحراء الأردن واسعة، وبريته كبيرة تشمل الصحراء والبيداء والخضراء، ولكن حديث سيدنا موسى ﷺ ، كان في الصحراء من هذه البرية الأردنية – «البرية في عبر الأردن». ثم دخلت في التفاصيل كما هي عادة اليهود في دخولهم بأدق التفاصيل، وهو أمر يخدمنا هنا كثيراً لأنه يخدم الغرض

الذي نتحدث عنه؛ وتبيّن التوراة أن هذه الصحراء من البرية من أرض الأردن، الذي تحدث فيها موسى عليه السلام لبني إسرائيل تقع مقابل البحر الأحمر (بحر القلزم - أي منطقة خليج العقبة) وهذا دليل آخر أن اسم الأردن كان يشمل زمن النبي موسى ومِنْ قبله أقول يشمل الأرض البرية الحالية من الشمال (من جبل الثلج) وبحيرة قدس (بانياس) حتى البحر الأحمر، باعتبار أن الاتصال بالبحر مهم لأية بلاد، في القديم مثلما هو الأمر في العصر الحديث.

ثم تخوض التوراة في الامتداد الأردني من الجنوب إلى الشمال، وهي جبل سعير، أي جبال الشراة، وهي تمتد من وادي الحسا شمالاً، حتى مدائن صالح جنوباً، وتتضمن فيما تتضمن الجبال المحيطة بالعقبة ورأس النقب ووادي رم وجبال رم وحوض الديسة وحسمى، وجبال البتراء والشوبك، وتمتد حتى منطقة الطفيلة حيث يطلق على سلسلتها (أي سلسلة جبال الطفيلة) الجبلية المحاذية لجزء من الشراة من الغرب باسم « الجبال » - أو « منطقة جبَالْ ». وتمتد هذه البلاد أي الجبال «جبَال من منطقة الطفيلة»، ومن ثم السلسلة الشرقية لجبال الأردن من سعير - أي الشراة التي تغمس أقدامها في بحر القلزم ثم تمتد نحو الشمال حتى بحيرة بانياس (قدس) شمال بحيرة طبريا، وكانت قبل تجفيفها من الإسرائيليين بحيرة هامة في طريق مجرى أحد روافد نهر الأردن، القادم من جبل الشيخ.

ثم تزيد التوراة من تعريف وتحديد بلاد الأردن على أنها تشمل أرض مؤاب، حيث شرع موسى عليه السلام في شرح هذه الشريعة لبني إسرائيل.. « (5) في عِبْر الأردن في أرض مؤاب شرع موسى في شرح هذه الشريعة فقال..). فالأردن هو مدرسة الشريعة التوراتية، كما هو مدرسة الشريعة المسيحية. ولا غرو أن يكون مقدّساً في هاتين الديانتين فضلاً عن قدسيته في الشريعة الإسلامية، وأنه موئل الأنبياء والصحابة الكرام باعتباره أرض الحشد والرباط والمحشر.

ثم تسرد التوراة ما يسمى برحلة بني إسرائيل عبر بلاد الأردن في الفصل الثاني (سفر تثنية الاشتراع) وفي الفصل الثاني من السفر نفسه والفصلين الثالث والرابع، وملخص ما جاء فيها (انظر الملحق حيث يشمل النصوص كاملة).

وإذا أردنا أن نلخص هنا ما ورد هنا حول الرحلة، وما ذكروه من مواقع أردنية، أنهم رحلوا في البرية (التي عَرَّفَتْها التوراة في الفصل الأول أنها من أراضي الأردن) وذلك على طريق بحر القلزم (الذي من الواضح أنه خليج العقبة الحالي)، ثم داروا حول جبال الشراة (سعير) التي كانت للأدوميين: « (4) بنو عيسو المقيمين بسعير ». وقد أمرهم (بنو إسرائيل) الله ألا يقاتلوا الأدوميين وذلك واضح أن مملكة أدوم في جبال الشراة (وعاصمته بصيرا) كانت في البرية في عبر الأردن، وتذكر الفقرة (8) ما يلي: « (8) فَجُزْنا عن إخوتنا بني عيسو المقيمين بسعير على طريق الصحراء على إيلة وعصيون جابر، ورجعنا ورحلنا في طريق برية مؤاب ».

في هذه الفقرة، نجد أن مملكة أدوم كانت تصل بحر القلزم (الأحمر) وأن لها موانئ في إيلة (العقبة) وعصيون جابر (إيلات). وحيث أمر الله سبحانه بني إسرائيل الا يقاتلوا ولا ينهبوا الأدوميين (بنو عيسو) وأن على بني إسرائيل أن يدفعوا ثمن كل شيء يأخذونه من ماء وطعام، يدفعونها بالفضة، وذلك يدل على أنها كانت العملة المتداولة عندهم آنذاك، وأن الأدوميين الأردنيين كانوا في تلك الفترة يتعاملون بالنقود الفضية لغايات التبادل والبيع والشراء، وأنها كانت عملتهم الدارجة أيضاً.

وحيث أن بني إسرائيل كانوا متجولين وليس لديهم صناعة أو حضارة أو مدينة أو استقرار، فإنهم لابد وكانوا يستخدمون العملة التي تستخدمها الممالك الأردنية، أو تلك التي جلبوها معهم من مصر، وأنهم كانوا يحصلون على هذه

العملة بالتبادل والبيع من المواشي التي كانت بحوزتهم مثل البقر كما ورد في القرآن الكريم.

ثم أمرهم الله ألا يقاتلوا ولا يعادوا المؤابيين، وكانت مملكتهم (المؤابيين) إلى الشمال من مملكة الأدوميين ومتاخمة لها مباشرة، ويبدو أن الفاصل كان وادي الحسا (وادي زارد) « (9) فقال لي الرب لا تعادِ المؤابيين ولا تناصبهم حرباً فإني لست معطيكم من أرضهم ميراثاً إذ لبني لوط وهبت عار ميراثنا ».

ومن خلال نص التوراة المذكور، نجد أن الله حفظ الأردن وأهلها، وأمر بني إسرائيل بعدم قتل أبناء أدوم ومؤاب، وعدم احتلال أرضهم، وبذلك أنهم شعب (الأردنيون) غير دموي، وغير معتدي، وهو آمن في بلاده، وبذلك نجد أن حرمة المكان وقدسيته، قد أدت إلى حماية أهله الأردنيين. إلا أن بني إسرائيل عملوا عكس ما أمرهم به الله سبحانه.

تذكر التوراة أن الحوريين كانوا يقيمون في جبال الشراة (سعير) قبل أن يطردهم الأدوميون (بنو عيسو) وقضوا عليهم « (12) وأما سعير فأقام بها الحوريُون قبل بني عيسو فطردوهم وأبادوهم من بين أيديهم وأقاموا مكانهم... ».

أما أرض مؤاب فقد كان أقام بها الآيْميُون قبل المؤابيين، وكان الآيْميُون « شعب كثير، طوال القامات كالعناقيين (11) وهم يحسبون جبابرة كالعناقيين والمؤابيون يسمّونهم إيميين (12) والآن قوموا فاعبروا وادي زارَد فعبرنا وادي زارَدْ (13) ».

أما وادي زارَد فهو وادي الحسا، فيما بين أدوم القديمة ومؤاب القديمة، وبذلك تنقل لنا التوراة هذه الأسماء كما كانت، أي أمورية عربية أردنية. إلا أن نقل التوراة لها كما كانت على أرض الواقع ومستخدمة من قبل السكان

الأردنيين الذين كانوا أهل البلاد آنذاك، أقول هذا النقل أوقع اللَّبسَ والالتباس لدى بعض الكُتّاب والأثريين في أن هذه الأسماء عبرية يهودية، وهي في الحقيقة نقلٌ لما كان واقعاً وحاضراً في حينه، وهي لغة عربية أمورية أردنية، ولكنه أول نص مكتوب يصل إلينا بهذه الأسماء.

والنقطة الأخرى، أن التوراة تركّز على الحالة التي كانت عليها بنو إسرائيل وهي التجرّد للحرب، أي التهيؤ والاستعداد والتسليح وخوض المعارك، لأنهم كانوا يمرّون عبر أراضٍ ليست لهم، بل غريبة عليهم، وشعوب أردنية كارهة لهم رافضة أن يمرّوا أو يتزوّدوا بالميرة والماء والكلأ لمواشيهم، معتبرة مجرد السّماح لهم (لبني إسرائيل) بالمرور أو التوقف أو التزوّد إنما هو نمط من الاحتلال، والاختلال لموارد الطبيعة وتركيبة المجتمع، والاستهانة بالكرامة الأردنية التي ترفض الخضوع للغريب أو الأجنبي.

من جهة أخرى نجد أن أصحاب القرار في الممالك الأردنية كانوا على وعي متكامل للأطماع التوسعية لبني إسرائيل في أنهم يقصدون أرض كنعان (فلسطين) لاحتلالها والاستقرار بها، وتأسيس دولة قوية مستقرّة هناك، ستتطلع لا محالة، بعد أن تتمكّن، أقول تتطلّع لاحتلال بلاد الأردن (عِبْرَ الأردن)، وبالتالي فإن هذه الممالك الأردنية المتعددة، تآلفت وتحالفت أمام الخطر الداهم والجيش الزاحف والشعب الغازي فنسيت كياناتها السياسية المتعددة وتجاوزت خلافاتها إن وُجدت، وتحالفت معاً يجمعها وحدة التراب الوطني، والكيان الوطني، ووحدة العِرْق واللغة، والهمّ المشترك والمصير المشترك.

من هنا نجد أن التوراة خصصت مساحات واسعة للأحداث على الأرض الأردنية، وتذكره بالاسم، بحيث أعطت لبلادنا الأردنية صورة جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية واضحة عن الأوضاع آنذاك منذ ثلاثة آلاف

وخمسمائة سنة خلت في بلادنا المحروسة. كما ألقت الضوء على أن التطمينات التي وكّدها قادة بني إسرائيل وعلى رأسهم موسى ﷺ لم تجد آذاناً صاغية لدى الممالك والشعوب الأردنية، والكيانات السياسية المتعددة وأنهم نظروا إلى هذه التطمينات على أنها كلام سياسي معسول سطحي؛ الهدف منه دخول هذه الديار بدون حرب، ثم احتلالها والقضاء على ممالكها وشعبها. ونهب خيراتها وإنهاء قوتها العسكرية والبشرية والاقتصادية، وبالتالي لا خيار إلا المقاومة والرفض، وأن الموت بشرف خير من الموت كالنعاج.

من هنا نجد الرفض الأردن للعبور الإسرائيلي، وما نتج عنه من الحروب والقتل والتشريد الذي أشارت إليه التوراة (إن صدقت)؛ وأن بني إسرائيل لم يتركوا طفلاً ولا امرأة ولا شيخاً ولا عاجزاً ولا محارباً، ولا حيواناً ولا شجراً، إلا قتلوه أو أسروه أو نهبوه أو أحرقوه، بحيث كان شعب بني إسرائيل هو شعب الأرض المحروقة وشعب الدمار الشامل في ذلك العصر ومعطياته ومقاساته.

وتبين التوراة (إن صدقت) أن النبي موسى ﷺ أرسل برسله إلى ملوك الأردن الأموريين العرب الأردنيين، يطلب المرور بسلام عبر الديار الأردنية، لكنه عندما تمكن منهم أبادهم وقتلهم وهذا ينافي عهود الأنبياء وعصمتهم من الغدر بالذمّة، وتعتز التوراة بهذه المذابح الجماعية لمن له ذنب، ولمن لا ذنب له، وهي أمور لا يقرّها دين سماوي حقيقي مهما كان. فإما أن التوراة تفتري على بني إسرائيل، أو أنهم لم يلتزموا بعهد ووعد لأية مملكة، وأظن أن الحالة كذلك، وهي الغدر والحقد على الشعوب، والشهية النهمة في احتلال أراضي الغير، وهي الفلسفة التي لا زالت قائمة إلى يومنا هذا حتى أصبحت من طبع بني إسرائيل في سفك الدماء ونهب الأموال وحرق الأرض والغدر والنكوث بالعهد والوعد والذمة.

ونود أن نكرر التوكيد على نقطة أخرى، وهي أن كلمة عِبْرَ الأردن، وعِبْرَ البيداء والصحراء وما إلى ذلك، إنما هي كلمة توصف الحالة التي كان عليها بنو إسرائيل من الحِلّ والترحال، وأنهم يعبرون من أرض إلى أرض. وعندما يقولون عِبْرَ الأردن، فإنما يصفون حالة العبور الخاصة بهم كشعب جوّال تائه لا يوجد له هدف إلا هدف قائده فقط، لكنه شعب يزاول المعاصي كلما غاب قائده، أو أتيحت لهم فرصة ارتكاب الموبقات والكبائر، رغم كل ما يلقونه من عقاب عاجل وفوري، ولا يعني أن الأردن اسمها كان كذلك، حتى ولو كانت كذلك - أي اسمها عِبْر الأردن - فإن الأساس في الموقع هي كلمة الأردن، بغض النظر عما يضاف إليها من أوصاف وكلمات توافي مقتضى الحال في حينه عبر حقب التاريخ.

نجد هنا السرد المثالي للرحلة عبر الأراضي الأردنية، في سفر تثنية الاشتراع / الفصل الثاني، حيث يقول: « (17) كلمني الرب قائلاً (18) أنت جائزٌ اليومَ تُخْمَ مؤاب عَارَ (19) فإذا دانيتَ من جهة بني عَمُّون فلا تُعادِهم ولا تناصِبْهُمْ فإني لست مُعْطِيك من أرض بني عمون ميراثاً لأني لبني لوطٍ وهبته ميراثاً (20) وهي أيضاً تُحْسَبُ من ارض الجبابرة لأنّ الجبابرة أقاموا بها قَبْلاً والعمونيون يُسَمُّونهم زَمْزُوميِّين (21) وهم شعب عظيم كثير طويل القامات كالعناقيِّين فأهلكهم الربُّ من بين أيديهم فطردوهم وأقاموا مكانهم (22) لما صنع لبني عيسو (الأدوميِّين) المقيمين بسعير (الشراة) إذ أهلك الحوريِّين من بين أيديهم فطردوهم وأقاموا مكانهم إلى هذا اليوم (23) والعُوِيُّون المقيمون بالقرى إلى غزَّة أبادهم الكَفْتُوريّون الخارجون من كَفْتُورَ وأقاموا مكانهم (24) فقوموا ارحلوا واعبروا وادي أرنُون. انظُرْ. إني قد دفعت إلى يديك سيحون ملك حَشْبُون الأموريّ وأرضَه فاشرع في التملُّكِ وناصِبْهُ الحرب (25) وأنا في هذا اليوم أبدأ بإيقاع ذعرك وخوْفِكَ على وَجُوهِ الأمم الذين تحت السماء فإذا هم سَمِعُوا

بخَبَرك رجفوا وارتعدوا بين يديك (26) فبعثتُ رُسُلاً من برية قَدِيمون إلى سيحون ملك حشبون بكلام السِّلْم قائلاً (27) دعني أمرّ في طريق أرضِكَ وأنا أسلك في الطريق لا أميل يُمْنَة ولا يَسْرَة (28) بفضّة تُميرُني طعاماً فآكُلُ وبفضّةٍ تعطيني ماءاً فأشرب وأعبرُ برجلي فقط (29) كما صنع معي بنو عيسو المقيمون بسعيرَ والمؤابيون المقيمون بعَارَ حتى أعبُرَ الأردنَّ إلى الأرض التي أعطانا الربُّ إلهنا (30) فأبى سيحون ملك حشبون أن يُجيزَنا في أرضه لأن الربَّ إلهك قَسّى نَفْسَهُ وصلَّبَ قلبه لكي يُسْلِمَهُ إلى يَدِك كما ترى اليوم (31) فقال لي الربّ: انظر قد بدأتُ أُسْلِمُ سيحون وأرضه بين يديك فاشرع في التملُّكِ وَرِثْ أرضه (32) فخرج سيحون علينا بجميع قومه للحرب إلى ياهص (33) فأسلمهُ الرَبُّ إلهنا بين أيدينا فقتلناه هو وبنيه وجميع قومه (34) وفتحنا جميع مُدُنه في ذلك الوقت وأبْسَلْنا كُلَّ مدينة رجالها ونساءها وأطفالها لم نُبْقِ باقياً (35) وأما البهائم فغنمناها نفسنا مع غنيمة المدن التي فَتحناها (36) من عروعير التي على عُدْوَةِ وادي أرنون والمدينة التي في الوادي إلى جلعاد لم تُبْقَ قرية امتنعت علينا، بل الكُلَّ أسلَمَهُ الرَبُّ إلهنا بين أيدينا (37) إلاّ أرضَ بني عمون فإنّا لم نَقْرَبْها كُلَّ شاطئ وادي يبوق ومدن الجبل وسائرَ ما نهانا عنه الربّ الهنا ». اهـ.

في هذه الفقرات والنصوص من الفصل الثاني من سفر تثنية الاشتراع نستخلص الكثير من الدروس والعبر، في أن رحلة بني إسرائيل في الأردن كانت طولية من الجنوب إلى الشمال للدخول إلى أرض كنعان (فلسطين) من خلال أريحا وليس من أي مدخل أو موقع آخر من فلسطين (أرض كنعان).

ورغم أن هذه الممالك والشعوب الأمورية العربية في أرض الأردن تعتبر بالنسبة لنا وثنية، إلا أن التوراة، إذا صدقت - تبيّن أن الله سبحانه وتعالى أمر بعدم قتلهم وعدم محاربتهم، بل وأمر بني إسرائيل أن يطلبوا المرور من خلال درب محدّد وأن يدفعوا أثمان ما يأكلون ويشربون وأن يعبروا ولا يستقرّوا.

واضح أن هناك درب محدد ومعروف ومطروق وهو درب عام وبخاصة في مملكة حشبون حيث طلب النبي موسى ﷺ أن يمرّ هو وقومه قائلاً: « (37) دعني أمُرُّ في طريق أرضك وأنا أسْلُكَ الطريق لا أميلُ يُمْنَةً ولا يُسْرَةً ». اهـ. وهذا نص واضح بوجود هذه الطريق التي تعبر مملكة حشبون، وتنتهي إلى مرحلة أخرى من مراحل التوجه نحو الهدف وهو أريحا، وأنها طريق عام معروف مطروق، ويمكن لبني إسرائيل على كثرتهم المرور عبرها، دون أن يسبّبوا أذى للمزروعات والحيوانات والناس والمملكة وسيادتها، هذا لو أنهم صدقوا الوعد والعهد، وعبروا دونما أذى، ولا أظنهم فاعلون سابقاً أو لاحقاً.

ومن الملحوظ أيضاً: استخدام كلمة « الربّ إلهنا » بينما نستخدم بالإسلام حسب نص القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة الله لاعتقادنا وعقيدتنا أن الله سبحانه هو ربّ العالمين، وهو ربّ السموات والأرض وخالق كل شيء، ورب المسلم والكافر. أما عند اليهود فإن استخدام إلهنا والربّ يدل على أن تصوّرهم لله سبحانه أنه ربّ لهم وحدهم وإله لهم وحدهم، وبالتالي يرون أنه إلههم (إلهنا) وربهم (ربنا) وحدهم، وهو إله وربّ يكره بقية الشعوب ويحلُّ لبني إسرائيل الخبائث والخطايا والأخطاء والكبائر، وقتل وإبادة الشعوب وانتهابهم واغتصابهم وإراقة دمائهم، ولا يحل لسواهم شيئاً من الحياة.

إذن كانت الأوامر صريحة – حسب التوراة إن صدقت – من الله سبحانه عدم الاعتداء على الشعوب والممالك الأردنية، وذلك لأسباب تبدو وجيهة وهي: قدسية المكان، وبالتالي حرمته وحرمة الإنسان الذي اتخذه له وطناً وسكناً ثم إن أي اعتداء على أيٍّ منها تتداعى له بقية الممالك الأردنية بالقتال، وبالتالي فلا طاقة لبني إسرائيل بقتال هذه الممالك الأردنية كلها مجتمعة، ولكن لها طاقة إن انفردت بها واحدة تلو الأخرى أو انفردت باثنتين معاً.

كما أنها رعايا الكيانات السياسية الأردنية تبدو لنا شعوباً منضبطة بسيطة، لا توجد فيها أو لديها عادات شاذة أو كبائر أو ممارسات اجتماعية تستوجب الإبادة والعقاب الإلهي، بل تستوجب الهداية فقط. ومع هذا غدر اليهود وقتلوا وسَبَوْا ونهبوا وأبادوا وأحرقوا حسبما تفتخر به التوراة، وكانوا بئس الشعب الذي يتصرف بعيداً عن الحضارة الانضباطية والدين والأخلاق، وهذا واضح من نصوص التوراة، حيث يقتلون كل ما فيه روح من حيوان وإنسان، ويحرقون كل ما فيه من حياة من شجر وبشر، وكل شيء يمكن أن ينتفع به البشر، ويقتلون النساء والأطفال والشيوخ، وينهبون ويغتصبون، بطريقة يخجل منها إبليس وسائر الوحوش والشرائع مهما بلغت من الدونية والوثنية، فكيف يعتزّ بها الإنسان السويّ وما يقال أنها رسالة سماوية أو شريعة إلهية؟! .

حيث نجد « (34) .... وأبسلنا كل مدينة رجالها ونساءها وأطفالها لم نُبْقِ باقياً (35) أما البهائم فغنمناها لأنفسنا مع غنيمة المدن التي فتحناها (36) ». إن شعباً هذه أخلاقه، أبعد ما يكون عن الحضارة والدين والأخلاق والإنسانية ومشاعر البشر، وآدمية الإنسان، عندما يبيد ويقتل كل ذكر وأنثى وامرأة وطفل في مذابح وإبادة جماعية للجنس البشري. وتصبح البهائم أهم من البشر، حيث يأخذونها غنيمة تبقى على قيد الحياة، بينما لا يذرون حياً على الأرض يمرّون به، إلا ويوسّدونه الثرى موتاً، وهم بذلك أخطر أسلحة دمار شامل يمكن أن يُبْتلى بهم شعب أو وطن.

ورغم أن الأوامر الإلهية كانت وضحة لهم بعدم معاداة بني عمون وحشبون « (16) فإذا دانيت بني عمون فلا تُعادِهم ولا تُناصِبْهُم فإني لستُ معطيك من أرض بني عمون ميراثاً... ». اهـ. وأيضاً: « (26) فبعثتُ رُسُلاً من بريّة قدي يموت إلى سيحون ملك حَشْبُون بكلام السّلم قائلاً (27) دعني أمرّ في طريق أرضك وأنا أسلك في الطريق لا أميلُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً (28)... الخ ». اهـ.

ولكنهم اليهود لا عهد لهم، واستباحوا الحرمات وأثبتوا حجتهم على أنفسهم في التوراة بقتلهم أهل مملكة حشبون، بما لا يفعله إلا الحاقد على بني البشر. كان يمكن الحرب والأسْر، والاحتلال، وهذا يحدث وحدث لكثير من الشعوب لكنها تحررت من الاستعمار، أما الإبادة فهي الكارثة التي لا يمكن اعتبارها إلا جريمة حرب، تستوجب الإدانة لها وكل من يؤيدها من بني البشر.

يتحدث هذا الفصل (الثاني من سفر تثنية الاشتراع) عن أسماء القبائل الأردنية حيث أن أول دخولهم للأردن كان إلى أراضي مملكة أدوم (بنو عيسو) حيث كانت تخومها تلامس مياه خليج العقبة (بحر القلزم) وعصيون جابر (إيلات الحالية) وإيلة (العقبة الحالية) حيث عبروا وتجاوزوا (فَجُزْنا) أراضي الأدوميين (بني عيسو) إلى أرض مؤاب، وقد سلكوا طريق الصحراء الأردنية، وذلك ما نجده في الفقرة الثامنة من الفصل الثاني من سفر تثنية الاشتراع. « (8) فَجُزْنا عن أخوتنا بني عيسو (الأدوميّين) المقيمين بسعير على طريق الصحراء على إيلة وعصيون جابر ورجعنا ورحلنا في طريق بريّة مؤاب (9) فقال لي الرب لا تُعادِ المؤابيين ولا تناصبهم حرباً فإني لست معطيك من أرضهم... (10) ». اهـ.

من الواضح هنا أن الطريق الصحراوي الذي نستخدمه ونسلكه الآن في القرن العشرين والحادي والعشرين ليس اصطلاحاً حديثاً إطلاقاً، بل هو قديم جداً. فالطريق الذي يربط عمان (ربّة عمون) بالعقبة ويجتاز عبر البادية، إلى الشرق من السلسلة الجبلية حتى معان (عروس الصحراء) يسمى الآن بالأردن: الطريق الصحراوي، لأنه يأتي عبر سيف البادية بمحاذاة الصحراء الأردنية. ونجد أن هذا الاصطلاح: « الطريق الصحراوي » قد ورد في التوراة بالنص والاسم والموقع والاتجاه والأهمية، وبالتالي يبيّن أنه كان طريقاً مطروقاً واضح المعالم، محدد المسار منذ آلاف السنين وأن ما عمله تراجان عام 106 م عندما

أشاد هذا الطريق الصحراوي أو السلطاني إنما سار على هدي ونهج الممالك الأردنية السابقة التي بنت هذا الطريق والذي يبدو أنه كان طريقاً دولياً في ذلك العصر، ويصل إلى إيلة وعصيون جابر، ويستمر حتى مصر ومدن مصر، ويحاذي ذراع العقبة وبحر القلزم إلى اليمن: ويتفرع من معان إلى تبوك فالمدينة المنورة فمكة المكرمة (أم القرى) فاليمن.

يتضح من النص التوراتي أيضاً أنه كان هناك طريق آخر وهو « طريق برية مؤاب » التي يبدو أنها كانت تسلك الجبل عبر وهاده وأوديته وتلاله، وأن الطريقين كانتا معروفتين مطروقتين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة خلت، وأن برية مؤاب أكثر أمناً لمن لا يجد الترحاب به للمرور من قلب هذه الممالك، وأن هذه الطرق برمتها تنتهي إلى إيلة وعصيون جابر، وأنها كانت لعدة أغراض من بينها الحلّ والترحال، والتجارة، وتسليك مصالح الناس وحركة مواطني الممالك الأردنية ذلك أن الطريق شريان الحياة، وبالتالي فإن كشفها يشكل خطراً على اقتصاد هذه الممالك، مما يضفي عنصراً جديداً على أسباب منع بني إسرائيل من المرور فضلاً عما ذكرنا، وهي الخشية من اكتشاف طريق التجارة.

ومن الملفت للنظر أن هذا الفصل يذكر عدداً من أسماء القبائل الأردنية التي سادت ثم بادت، فضلاً عن القبائل التي كانت موجودة عند عبور بني إسرائيل أن مرورهم عِبْر الأردن. أما هذه القبائل فهي: الأَيْمِيّون **Eimiyyoon** وصفاتهم أنهم كانوا: طوال القامات، وأنهم جبابرة كالعناقيّين الذين كانوا قبيلة أردنية أخرى وكانوا (أي العناقيون) يعتبرون من صنف الجبابرة.

أما قبيلة الحوريِّين فقد تعرضوا للإبادة على أيدي الأدوميِّين (بنو عيسو)، وأما من بقي منهم سليماً من أذى الاندثار فقد تعرض للطرد من دياره إلى ديار أخرى. أما الزمزُميّون فكانوا شعباً طوال القامات كالعناقيِّين وأعدادهم كثيرة،

وكانت أراضيهم ومملكتهم في ربّة عمون، حيث استولى عليهم العمونيون وحلّوا محلّهم، وتشتت من بقي حيّاً منهم، في البلاد، وأما من مات فقد مات، ثم جاء العمونيون بعدها، وأصبحوا مملكة وعاصمتها عمان (ربّة عمون).

وهناك العُوِّيون الذين يبدو أنهم سكنوا على الأراضي الأردنية من قبائل الجنوب حيث كانوا أصحاب حضارة واستقرار وذلك ما يدل عليه من كلمة « قرى » تمتد حتى غزّة التي وردت في التوراة باسمها الحالي الذي لم يتغير رغم مرور آلاف السنين، بل إنه اسم بلغ حدّ النضج قبل مجيء بني إسرائيل إلى هذه الديار، وقد لقي العويّون حتفهم والإبادة الجماعية على أيدي الكفتوريّين الخارجون من كفتور. والتي لم تحدّد التوراة مكانها.

ولم نعد نجد هذه الأسماء في العشائر الأردنية الآن، ولم أعثر عليها من خلال كتب التاريخ العربي والإسلامي التي طالَعْتُها، ويبدو أنها قبائل سادت ثم بادت، وأنا أرى أن كلمة إبادة – أو أبادوهم تأتي مجازاً، لا حقيقة إذ أن النظام العشائري / القبلي العربي بشكل عام نظام مرن متحرك يتكيف بسرعة مع الظروف من أجل البقاء Survival، من خلال تغيير البنية بشكل مؤقت، وتغيير الأسماء، للعشائر والأشخاص، والرحيل إلى مواقع أخرى، وحتى تغيير الزعامات وذلك سعياً وراء الاستمرار والبقاء.

تشير التوراة إلى تصرفين هامين، أو نتيجتين هامتين للصراع القبلي في الأردن، حيث أن بني عيسو (الأدوميون) حاربوا الحوريين وطردوهم، أي أن قوة الأدوميين الفتية الجديدة القوية التي تتفوق فيها عناصر البقاء والاستمرار وقوة الدفع السكاني والعسكري والاقتصادي والقيادي، والتصميم من أجل البقاء والاستقرار والاستمرار؛ استطاعت أن تتغلب على الحوريين حيث توجد النزاعات بين الزعامات التي هَرِمَتْ وتآكلت، والعداوات بين الأقسام في

الشعب أو القبيلة، مما جعل عناصر الفناء تتسرّب إليها (إلى الحوريين) وتحمل معها الوهن الذي أدى إلى خَوَارٍ في قواها، وضعف في قياداتها، وتناهر وتنافر بين مقومات زعمائها.

النتيجة لهذا الصراع كانت طرد الحوريين، بينما نتيجة العويّون كانت الإبادة، لأسباب تبدو لنا أنها بسبب قوة القاتل وضعف المقتول عدداً وعدّة، وتنظيماً وتصميماً، أو لشدة الانتقام، أو للتخوّف من عودة العويّين إلى مراكز السيادة والسيطرة والانتقام.

ولكن من هذين الاصطلاحين: الطرد والإبادة، ومن خلال ما هو معروف ومتعارف عليه في النظام القبلي العربي، حيث أن هذه قبائل عربية أمورية، نعرف أن الطرد لا يعني المغادرة الكاملة للأرض الأردنية، وأن الإبادة لا تعني أن القوم قد قُتلوا عن بكرة أبيهم؛ لأن النظام العشائري يجعل من السهل انضواء المغلوب تحت سيطرة واسم وهيمنة الغالب، ويصبح جزءاً من الشعب الجديد، أو القبيلة الجديدة، وأن الطرد يعني عادةً طرد النظام أو الكيان السياسي أو القيادة أو إنهاءها.

مثل هذا القانون العشائري يجعلنا نرى أن الإبادة كانت تعني إبادة السيادة والسياسة والقيادة والتنظيم، وإبادة الحكم والحكومات فلم يعد يوجد من هذه القبيلة أو الشعب من يطالب بهذه النقاط، بل أسلموها رغبةً ورهبةً للغالب الجديد، طمعاً في الحياة والاستمرار والبقاء، فهي إذن تعني إبادة من يرفض المسيطر الجديد جسدياً، وإبادة قوته وهيمنته سياسياً وعسكرياً، بينما يتحول من يقبل بالسيطرة إلى رافد يعزز قوة الغالب. ويحمل اسم هويته وقبيلته، ويصبح الحوريون القابلون بذلك جزءاً من الأدوميين، ويصبح العويّون القابلون بهيمنة الكفتاريين جزءاً من الكفتاريين.

وأما الوجه الآخر للحديث عن الطرد، فإن ذلك يعزز نظريتنا أن القبائل الأردنية كانت إذا شعرت بخطر الاحتلال أو القوة العشائرية وعجزت عن المقاومة، وصار بقاؤها في خطر ووجوده معرّضاً للفناء ورفضت خيار الخضوع للقوي أو المحتل أو القبيلة المقابلة، فإنهم يختارون المنفى الإجباري أو الاختياري - تحت عنوان الطرد، وهذا تكرر عبر التاريخ، ومنه رحيل عشائر عباد إلى بيسان في منتصف القرن التاسع عشر عندما تعرضوا لضغط احتمال الإبادة من قبل عشائر البلقاوية بزعامة العدوان.

وبناءً عليه، فإن نظريتي التي دوّنتها في كتب العشائر، ترى أن رحيل أو طرد أو نفي، أو اختيار المنفى، الذي وقع على العشائر الأردنية، عبر حقب التاريخ؛ كان يحدث ليس بسبب القحط الذي هو خطر الفناء عليهم فحسب، بل وأيضاً، عندما يشعرون بخطر الاحتلال أو القوة القبلية المقابلة لهم، التي هم معها على صراع وخلافات، وربما عداوات أيضاً.

ومن المألوف المعروف في النظام القبلي أيضاً أن الطرف الغالب يقبل مثل هذا الانضواء من المغلوب، لأنه يريد أتباعاً، وظهيراً وعمالاً، وخُدّاماً (مفردها خادم) وجنوداً لحمايته وقوته، ويرى الغالب في هؤلاء الطرف (المغلوب) الذي يقبل لنفسه أن يفعل ذلك لقاء حفاظه على استمراره وبقائه، وبالتالي استمرار وبقاء وازدهار الطرفين كليهما.

والنقطة الأخرى التي أشارت إليها التوراة هي الطريق السلطاني وذلك ما ورد في سفر العدد الفصل الحادي والعشرين (21، 22). « (21) وبعث إسرائيل رُسُلاً إلى سيحون ملك الأموريّين قائلين (22) دعني أمُرُّ أرضَكَ ونحن لا نميل إلى حقل ولا كرم ولا نشرب ماءَ بئر وإنما نسري في الطريق السلطاني إلى أن نجوز تُخمَكَ (23) فلم يَدَعْ سيحون إسرائيل يجوزون في تُخمِهِ وجَمَع سيحون جميع

قومه وخرج للقاء إسرائيل إلى البريّة ووافى ياهص وحارب إسرائيل (24) فضربه إسرائيل بحدّ السيف وورثوا أرضه من أرنون إلى يبوق إلى بني عمون لأن تخم بني عمون كان منيعاً (25) وأخذ إسرائيل جميع تلك المدن فسكنوا في جميع مدن الأموريّين في حشبون وجميع توابعها (26) لأن حشبون هي مدينة سيحون ملك الأموريّين وكان قد حارب ملك مؤاب قَبْلاً فأخذ من يده جميع أرضه إلى أرنون (27) ». اهـ.

من هذا النص نجد نقاطاً عدة، بل وهامة جداً:

1- أن أرض مملكة حشبون / الأموريّة العربية الأردنية التي كان ملكها سيحون (ملك الأموريّين) كانت مملكة خصبة مزدهرة، فيها الكروم والزروع والماء الغزير، فالحقل يدل على الزروع، والخضار والكروم تدل على الجنات من العنب والتين والزيتون والفواكه الأخرى بأنواعها، كما أن آبار الماء وأحواضه، جمعاً أو نبعاً كانت منتشرة على طول الطريق ليجد كل مارّ أو عابر أو مسافر، أو أي من رعايا مملكة سيحون ماء عندما يكون في هذه الطريق « (22) .... ونحن لا نميل إلى حقل ولا كرم ولا نشرب ماءً ».

2- وفي هذه الفقرة نجد ما يلي: « (22)... وإنما نسير في الطريق السلطاني إلى أن نجوز تُخْمَكْ (23) ». اهـ. إن الطريق السلطاني هو الطريق الصحراوي الآن (القرن العشرين والحادي والعشرين)، وربما يكون هو نفسه الطريق الصحراوي الذي أشارت إليه التوراة في سفر التثنية الاشتراع / الفصل الثاني حيث تقول الفقرة (8): « (8) فَجُزْنا عن أخوتنا بني عيسو المقيمين بسعير على طريق الصحراء، على أيْلَة وعصيون جابر ورجعنا ورَحَلْنَا طريق بريّة مؤاب (9) ». اهـ.

إذن كانت هناك بالأردن ثلاث طرق في زمن عبور بني إسرائيل أي قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة: الطريق السلطاني، الطريق الصحراوي، طريق

البريّة. والبرية تعني الأرض التي لا تكون صحراء، وهي غالباً ما تكون جبالاً ووهاداً، ولكنها ليست سهولاً برمتها، ولا جبالاً برمّتها، وإنما فجاج وسهول واسعة بين جبال، أو تلال قليلة الانحدار، وهذه تنطبق على جبال الشراة التي عليها أذرح والجرباء والشوبك وشرقي وادي موسى، وأطراف الطفيلة شرقاً حتى وادي الحسا، وإلى الشرق من الكرك حتى مأدبا.

أ- واضح إذن أن هناك طريقاً عبر هذه الجبال، وأنها كانت تربط الممالك الأردنية من الوسط، وأنها كانت ضرورية، وأن هناك نقاط غلق ومقصّات عند نقاط الحدود، وكانت مخصصة للأغراض السلمية والاقتصاد، وربما للأمور العسكرية وقت الحروب. ومثل هذه الطرق كانت خطيرة على هذه الممالك وهي هامّة واستراتيجية، وبالتالي رفضت الممالك كلها مرور بني إسرائيل من خلالها، لأنها الشريان الحيوي في أجسام هذه الدول وشعوبها. ويبدو أن طريق تراجان الذي تأسس في القرن الأول 106 الميلادي قد سلك هذا المسار، وأن المهندسين الرومان ساروا على مسرب طريق البرية المشار إليه في التوراة، وربما كانت بين أيديهم خرائط في حينه، أو نصوص التوراة على الأقل، أو معالم الأرض الواضحة وهو الأرجح.

ب- أما الطريق الثاني فهو الطريق الصحراوي الذي يسلك المناطق الشرقية، وما فيها من رمال وغبار، وربما شُحٌّ في الماء والكلأ والطعام وارتفاع حرارة النهار والصيف، وبرودة الشتاء والليل. وهي الطريق التي خشي بنو إسرائيل أن يسلكوها، لأنها طريق الموت والهلاك، بما لا يقبل الشك. أو لنَقُلْ أنها طريق عسكري لحرب المفاجئات عند الهجوم على أيٍ من هذه الممالك، أو طريق انسحاب جيوش هذه الممالك خشية الإبادة عند قدوم عدو قوي أو حدوث احتلال، حيث يجري في هذه الطريق إعادة ترتيب وتنظيم القوات لشنّ هجمات مباغتة، واستعادة زمام المبادرة والسيادة والقيادة.

ج- أما الطريق السلطاني فهو الذي تشير إليه هذه الفقرة أعلاه من الفصل الثاني من سفر تثنية الاشتراع، وقد بقي يحمل الاسم نفس حتى انتهاء فتح الطريق الصحراوي في الستينات من القرن العشرين. وهناك سدّ اسمه السد السلطاني الذي يبعد إلى الجنوب من عمان حوالي مائة كيلومتر وهو إلى الشرق من مسار الطريق العام الحالي. وتتجمع فيه المياه، ويبدو أنه سدّ قديم زمن المؤابيين، وقد مرّ بفترة إهمال كبيرة، ثم أعيدت العناية به في نهاية القرن العشرين، وهو يحمل اسم الطريق السلطاني المذكور اسماً ونصّاً في التوراة.

يبدو أن الطريق السلطاني جاء ما بين البرية (الممثلة بالمرتفعات) وما بين الصحراء، وأنه كان الطريق الأهم أو الحزام الدائري السريع في عُرف الممالك الأردنية آنذاك. وبالتالي فهو يربطها جميعاً، كما يبدو أنه كان معروفاً ومطروقاً ودرباً للقوافل التجارية اليمنية القادمة إلى الأردن، لأنه كان سهلاً على المسافر والعابر والتاجر في الصيف والشتاء، بينما يصعب الطريقان: البرية والصحراوي في فصليّ الشتاء، حيث تتجمع الثلوج على الجبال شتاءً، وحيث تفيض الصحراء في هذا الفصل سيولاً وفيضانات.

وبقيت تسمية الطريق السلطاني، والطريق الصحراوي قائمة حتى منتصف القرن العشرين، عندما تم في الستينات من القرن العشرين افتتاح طريق بري يربط عمان بمعان، وبالكرك والعقبة وسمي الطريق الصحراوي، واختفت تسمية الطريق السلطاني، وإن كان الاسم لا زال يُطلق على السدّ المحاذي للطريق الصحراوي إلى الجنوب من عمان بمائة كيلومتر كما قلنا، واسمه السدّ السلطاني.

ويبدو لي أن الطريق الصحراوي كان يتخذ مساره حيث تم حديثاً إنشاء وبناء خط سكة الحديد، وأن الطريق السلطاني كان يتخذ مساره في حدود ما يسمى الآن بالطريق الصحراوي البري وأن مسارهما متطابقان بين زيادة

ونقصان. أما طرق البرية فهو يسمى باسم الواديين الكبيرين، حيث يسمى ما بين عمان والكرك بطريق الموجب، وذلك يعني أنه المار عبر مأدبا / ذيبان / الموجب / القصر / الكرك. وسمي بهذا الاسم (طريق الموجب) لأن وادي الموجب (ارنُون) هو أصعب الأجزاء وأكثرها وعورة وخطورة في هذا الدرب.

أما الأجزاء الجنوبية من طريق البرية فهي قسمان الأول طريق الحسا، وهو يعني الطريق الجبلي، أي: طريق البرية الواصل ما بين الكرك عبر مؤتة والمزار ووادي الحسا، إلى العيص ثم إلى الطفيلة، وسمي كذلك لأن أهم وأصعب وأوعر جزء منه، هو ذاك الذي في وادي الحسا (زارَدْ). وأما الجزء الأخير المتمم له فيسمى طريق الشوبك، وهو يعني الطفيلة / الشوبك / معان أو وادي موسى، أو بسطة وإيلة. وسمي بطريق الشوبك بسبب شهرتها وقلعتها ووعورتها وأهميتها، ومروره بها.

وأما الجزء الأخير من الطريق فهو شعبتان: المتجهة إلى العقبة وتسمى طريق النقب حيث أنه أكثر الأجزاء وعورة وصعوبة وخطورة، وأما الشعبة المتجهة نحو الحجاز فتسمى ما بين معان والمدورة (نقطة حدود جنوبية) فتسمى طريق بطن الغول، لأن هذا الموقع أكثرها وعورة وخطورة، وكلاهما مشروحان بالتفاصيل في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين. وبذلك نجد أن تسمية الطريق تُنسب إلى أوعر الأجزاء في مساره.

مما ذكرت التوراة، وشرحناه أعلاه، تتضح لنا خارطة الطرق بالأردن في ذلك العصر قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وهي ثلاث طرق رئيسة محفوفة بآبار المياه للشرب وإسقاء المواشي والكروم والأشجار المثمرة. وأن لكل طريق مهمتان: الأولى في أوقات السلم والأوقات العادية، والثانية في أوقات الثلوج والحروب والاحتلال، وحرّ الصيف وغباره، والظروف الطبيعية الصعبة. فعندما

تُغلق الطريق الجبلي (طريق البرية) بالثلوج في الشتاء كانوا يستخدمون الطريق السلطاني، وعندما تغضب الصحراء وتثير الزوابع على الطريق الصحراوي فإن طريق السلطاني هو الأسلم. وعندما يأتي المحتل ويسيطر على هذه الطريق، فإن الطريق الجبلي والطريق الصحراوي، تستخدم كل منهما للحالات الاضطرارية؛ فالجبلي وعر صعب معقد على الغزاة، حيث يمكن للأهالي أن يقيموا الكمائن ويعملوا تقتيلاً بالأعداء، بينما تكون الطريق الصحراوي مواقع لتجميع الجيوش والمحاربين ليطبقوا على الأعداء من الخلف، فيصبح الغزاة بين نار الأهالي في طريق البرية الجبلية، ونار الهجمات العسكرية القادمة من الطريق الصحراوي.

2- من النص التوراتي الذي ذكرناه أعلاه من سفر العدد نخرج بنتيجة أخرى فضلاً عما ذكرناه في موضوع الطرق والمسالك أن سيحون ملك الأموريين العرب الأردنيين وكانت عاصمته حسبان (حشبون) رفض السماح لبني إسرائيل بالمرور رغم طلبهم منه السماح لهم بالمرور عبر الطريق السلطاني ولا يؤذونه ولا يحاربونه. لقد كان وطنياً إلى درجة أنه رفض معها رؤية شعب غير شعبه، وزعامات غير زعامة في مملكته وأرضه. « (22) فلم يَدَعْ سيحون إسرائيل يجوزون في تُخْمِهِ ».

3- لم يكن قراره بالرفض أمراً ارتجالياً أو عاطفياً أو ركوب رأس أو مزاج، بل هو قرار استراتيجي يتفق مع المصلحة الاستراتيجية العليا لدولته وشعبه وعرشه، واستمرارهم واستقرارهم وازدهارهم. وكان قراراً للحفاظ على الهيبة والوطن، وينمّ عن عدم الثقة ببني إسرائيل أنهم سيدمّرون كل شيء، وهو يريد الحفاظ على كل شيء. لقد كانت نظرته ورؤيته صائبة تماماً. وكان حدسه صحيحاً، وتقييمه لبني إسرائيل متطابق تماماً مع حقيقتهم.

4- أن سيحون رأى في بني إسرائيل قوة جديدة تهدد بقاءه ووجوده وبالتالي قرر أن يضع ويجمع كامل قواه ليحاربهم وليمنعهم من الدخول أو

العبور، لأنه كان انتصر قبلاً على ملك مؤاب، وأنه أراد قتالهم خارج المدن، وذلك ليتمكن من الحركة والمناورة، وكانت الواقعة في مكان يسمى ياهص التي لم تحدد التوراة مكانها، ولا أعرفها ولا أين هي؟ وما هو اسمها الحالي؟ ولكن يبدو أنها خارج المدن والقرى، لأن من الأفضل عسكرياً خوض المعركة خارج الموقع الذي يتجمع به الناس حفاظاً على الأرواح والممتلكات.

« (23)... وجمع سيحون جميع قومه وخرج للقاء إسرائيل إلى البريّة ووافى ياهص وحارب إسرائيل ». اهـ. وبذلك نجد أنه خرج بعيداً عن المدن والقرى، لتقتصر الخسارة على الناس والأعداء، وليس على قوام المملكة.

وإن خروج القوم صغيراً وكبيراً للحرب عادة أردنية بقيت حتى العصر الحديث في الحروب القبلية، حيث ترحل القبيلة بكاملها للقاء الأعداء أو الزحف نحوهم، وتسمى مثل هذه التعبئة الحربية: «الحرب: الجمل بما حَمَلْ». والهدف من مرافقة النساء والأطفال هو بث روح الشجاعة في المقاتلين، فلا يتراجعون ولا ينهزمون، فهو يدافع عن عشيرته وديرته وأسرته وأطفاله وعرضه وحلاله وماله «الحِلّة والمحلّة». وإن مثل هذا الأسلوب الحربي «التكتيك» كي لا ينزعج المقاتل على الأهل والأولاد ولكي لا يكونوا فريسة لحركة التفاف من العدو، وحينها يتراجع المقاتلون للدفاع عن أهلهم إذا تعرضوا لمثل هذا الموقف. لذا فالأفضل هو «الرحيل والنزيل» و«المنيخ المثير» وهذا أسلوب أردني منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ودوّنته التوراة كما نرى.

5- أن مملكة سيحون كانت تمتد من أرنون (وادي الموجب) إلى يبوق (نهر الزرقاء، وأنه في الجزء الجنوبي يمتلكها عرضاً أفقياً (غرب/ شرق) من وادي الأردن حتى الصحراء) أما بمحاذاة مملكة بني عمون فكان يملك الأراضي التي نستطيع أن نتخيلها أنها السلط ومناطقها وعارضة عباد والرمان حتى نهر

الزرقاء (يبوق). وأنه لم يتمكن من السيطرة على ممالك بني عمون لأن تُخَمْ بني عمون كان منيعاً. ومن الأدلة على أن عارضة عباد كانت جزءاً من مملكته تسمية قرية باسم الملك وهي سيحان وهي قرية أثرية تعود لنفس الفترة، وهي الآن من قرى عشائر عباد، وتحمل اسم ملك مملكة سيحون (حسبان).

6- أن سيحون احتل الأراضي جنوب حشبون من المؤابيين حتى أصبحت الحدود بينهما وادي الموجب (أرنون) وبذلك كان سيحون مزهوّاً بقوته، فهو يحتل أراضي غرب عمون من العمونيين، وأراضي أخرى من ملك مؤاب حتى وادي أرنون (الموجب) ولا يريد ضياع هذه الإنجازات لصالح شعب عابر (بني إسرائيل) لا أرض له ولا وطن له، ولا حضارة لديه، ويبحث عن مكان يستقر فيه، وهو ما يسمى بأرض الميعاد إلى الغرب من نهر الأردن ويريد الملك سيحون استثمار فوزه على سائر الملوك الأردنيين، وعلى بني إسرائيل على حدٍّ سواء.

ولا يريد الملك سيحون من بلاده أن تكون ملاذاً لمن لا ملاذ له، ولا وطناً لمن لا وطن له، ولا يريد أن يصبح شعبه بلا وطن ولا هوية ولا كيان سياسي، ولا كيان وطني. لقد كان يحمل مفهوماً وطنيّاً، رغم أنه كان على دين الوثنيّة. ولم يكن يطيق رؤية شراذم مشرّدين يهيمنون على بلاد مستقرة متحضرة آمنة.

كما لم تذكر التوراة أن سيحون أحرق القرى وأباد الناس التي سيطر عليها من الملوك الأردنيين الآخرين، ولم تذكر أنه طرد أهلها، ولو فعل لتحدثوا عنه بمبالغة السلبيات، مما يدل على أنه انتزع السيادة فقط، وبقي الشعب في مكانه لأنه شعب أردني وجزء من الكيان الوطني الأردني، لم يتغيّر عليه إلا الكيان السياسي. وهذا عكس ما فعله بنو إسرائيل الذين يدّعون أنهم شعب الله المختار وكانوا يبيدون البشرية والناس، ويحرقون القرى على عكس الأوامر الإلهية إليهم. فوثنية الأردني أو الأردني الوثني كان أحرص على حياة الناس وكرامتهم

واستمرارهم واستقرارهم وازدهارهم من هؤلاء الذين يدّعون أنهم مؤمنون وهم كاذبون.

7- أن بني إسرائيل (إن صدقت التوراة) انتصروا على الملك سيحون وقومه، وأن السلاح كان هو السيف، بل حدّ السيف، وبذلك احتلوا مدينة حشبون (حسبان الحالية) وسائر المدن كشعب غازٍ لا يرحم صغيراً ولا يوقّر كبيراً، ولا يشبع نهمه إلا سفك الدماء، واغتصاب الإماء، والتجاوز على الحرمات، وهذا الذي يكرهه الأردنيون، ولا يمارسونه ضد الآخرين، ولا يطيقون ممارسة الآخرين ضدّه. فهذه العفّة والإنسانية من صفة الإنسان الأردني عبر الدهور والعصور في أزمنة الوثنية والجاهلية والإسلام الذي أثاب عليها وأقرّها. والأردنيون شعب غير دموي إلا في حالات الدفاع عن الروح والعِرْض والأرض، ولا يلجأ للدموية إلا كملاذ لا خيار سواه.

وأما في الفصل الثالث من سفر تثنية الاشتراع فتتحدث التوراة عن الصراع مع مملكة باشان الأردنية وملكها أوغ ذلك (الرجل العنيد) بل الأكثر عناداً وجبروتاً من سيحون ملك حشبون؛ في هذا الفصل من السفر نجد ما يلي: « (1) ثم انثنينا فَصَعِدْنا في طريق باشان فخرج علينا عُوْج ملك باشان بجميع قومه للحرب في أدرعي (2) فقال لي الربّ: لا تَخَفْهُ فإنّي قد أسْلَمْتُهُ إلى يدك هو وجميع قومِهِ وأرضَه تَصْنَعُ به كما صَنَعْتَ بسيحون ملك الأموريّين الذي كان مقيماً بحشبون (3) فأسْلَمَ الربُّ إلهنا إلى أيدينا عُوْجاً مَلِك باشان أيضاً وجميعَ قومه فَضَرَبْناه حتى لم يَبْقَ له باقٍ (4) وفتحنا جميع مُدُنِهِ في ذلك الوقت، لم تَبْقَ قريةٌ لم نأخذها منهم، ستين مدينةً كلَّ بقعةِ ارْجُوب مملكة عُوْج في باشان (5) وهذه كلّها مُدُنٌ محصّنةٌ بأسوارٍ شامخةٍ وأبوابٍ ومزاليجَ خلا مُدُن الصحراء الكثيرة جداً (6) فأبْسَلْناها كما فعلنا بسيحون مَلِك حشبون مُبْسلين كُلَّ مدينةٍ

رجالَها ونساءَها وأطفالها (7) وأما البهائم وغنيمة المدن فغنمناها لأنفسنا (8) وأخذنا في ذلك الوقت من أيدي ملكي الأموريّين الأرض التي في عِبْرِ الأردنّ من وادي أرنون إلى جبل حرمون (9) وحرمون يسميه الصّيْدُونيون يسْريون والأموريّون يسمّونه سَنيرَ (10) جميع مدن السّهل وكلّ جلعاد وكلّ باشان إلى سَلْكَةَ وأذْرَعي مدينتي مملكة عُوجٍ في باشان (11) وعُوْج هذا هو وحده بقي من الجبابرة وسريره سريرٌ من حديد وهو لم يَزَلْ في ربّة عمون طوله تِسْعُ أذرعٍ وعرضه أربَعُ أذرُعٍ بذراع الرجل (12) وهذه الأرض ملكناها في ذلك الوقت من عروعير التي على وادي أرنون (الموجب) وأعْطَيْتُ نصفَ جبل جلعاد بمدنه للروْابيّين والجاديّين (13) وباقي جَلْعَاد وجميع باشان مملكة عُوْجٍ أعطيتُهُما لِنِصفْ سِبْط مَنَسّى كلّ بقعة أرجوب. وكانت كلُّ أرض باشان هذه تسمّى أرض الجبابرة (14) ». اهـ.

من هذه الفقرات من الفصل الثالث من سفر تثنية الاشتراع نخرج بالنقاط التالية:

1- لم تذكر التوراة طريق الانثناء هذه، وإنما ذكرت كلمة صَعِدْنا مما يدل على أنهم جاءوا طريقاً جبلية في طريقهم إلى منطقة أذْرَعي - درعا الحالية - حيث كانت عاصمة الملك عُوْج، وأنهم سلكوا طريق البريّة التي هي عبر الجبال، وأنهم اتخذوا من الغابات والأودية والجبال الوعرة مواقع يختبئون فيها، كما أنها مناطق تتوفر فيها الينابيع والأشجار المثمرة الكافية للشُرْب والطعام. وهذا يبرهن ما سبق وذكرناه أنه كانت طريق تربط بين مواقع الكيان الوطني الأردني من العقبة حتى الهضبة وأن بني إسرائيل سلكوا طريق الجبال وهي الوسطى، لتوفر سبل الحماية من الوعورة والغابات والينابيع، ولم يسلكوا الطريق الصحراوي الذي يبدو أنه كان يعرِّج نحو المفرق.

2- إن المخطط الذي سلكه الملك الأموري سيحون، ملك حشبون قد سلكه عُوْج ملك باشان وهو أموري أيضا، وذلك أنه خرج ومعه جميع قومه، مما يدل على أن مشاعره تجاه بني إسرائيل، وما يشكلونه من خطر وتهديد لبقائه ومملكته، هي نفسها التي راودت سيحون من قبل، فاتخذ السبيل نفسه في محاربتهم، وأنه تعامل معهم ضمن مبدأ: يكون أو لا يكون، يوجد أو لا يوجد، حياة أو موت. أما النتيجة فهي أن بني إسرائيل قاموا بذبحه وقتل الرجال والنساء والأطفال، حتى لم يَبْقَ منهم باقية «... فضربناه حتى لم يَبْقَ له باقٍ».

ومن خلال الأسلوب الواحد لدى سيحون «ملك حسبان - حشبون» وعوج ملك باشان، يدل على أن مراسلات جرت بينهم، ولكنهم أُخِذوا على حين غِرَّة، بحيث لم يتمكنوا من بناء جيش موحد ضد العدو الغازي. أو أن الملك عوج/ باشان كان يخشى من تتالي انتصارات سيحون الذي وسّع مملكته على حساب جيرانه، وربما ساورته مشاعر احتلال أجزاء من باشان التي تبدأ بوادي الزرقاء، ولكن إبادة حشبون وقتل سيحون كشف ظهر أوغ وقصمه بالفعل، فكان مصيره كمصير ابن عمه ابن شعبه وابن وطنه. وما أشبه اليوم بالبارحة، لقد كانوا نمطاً من ملوك الطوائف الوثنية، وكانت هذه النتيجة.

3- أن عدد المدن الباشانية – من غير مدن الصحراء – كان ستين مدينة. ولو افترضنا جدلاً أن عدد كل مدينة لا يقل عن عشرين ألفاً أو يزيد، فإن عددها كان لا يقل عن مليون ونصف المليون هذا عدا عن مدن الصحراء التي أشارت إليها التوراة بكلمة «كثيرة جداً» . ومهما يكن عددهم، فإنهم كانوا يشكلون مملكة، تمتد حدودها في أعماق الصحراء «... خلا مدن الصحراء الكثيرة جداً ».

4- أن مدن باشان كانت محصّنة بأسوار عالية ومنيعة مما يدلّ على ازدهارها وإعمارها واستقرارها وعلاقاتها الودية وليس الحربية مع الممالك

المجاورة، لأنه لا يمكن لها أن تحقق ذلك بدون هذه المودة في العلاقة بينهم وانضواء كياناتهم السياسية المتعددة تحت لواء كيان وطني أردني واحد وقت الشدة. وأن لهذه المدن وبيوتها أبواب ومزاليج، والتي لا تزال بقاياها موجودة إلى الآن في منطقة شمال الأردن، في منطقة يبلا والقويلبة حيث توجد أبواب لمغائر واسعة، كل باب من حجر ضخم متحرك وله مزلاج، وهو شبه مربع، ولا يزيد ارتفاعه عن متر وربع المتر، ويتم إغلاقه بالمزلاج، ليصبح وكأنه جزء من الحائط، مما يشكل حماية هائلة. وتقول التوراة حول الأسوار والأبواب هذه: « (5) وهذه كلها مُدُن محصّنة بأسوار شاهقة وأبوابٍ ومزاليج... ».

5- تتباهى التوراة بعمليات الإبادة، وقتل (الأبْسال) « فأبسلناها » حيث قتلوا الملك وحاشيته والرجال والنساء والأطفال جميعاً، وغنموا المواشي والأموال والمزروعات، وهذا عكس ما هو عليه الإسلام حيث أوصى سيدنا أبو بكر ﷺ ، بل أمر جيوشه بعدم قتل امرأة ولا طفل ولا شيخ، ولا راهب في صومعة، ولا يقتلون ماشية إلا لمأكلة، ولا يقطعون شجراً ولا يحرقون زرعاً. شتّان ما بين شريعة الإسلام ودينه الحنيف من جهة، وشريعة التوراة الدموية العدوانية من جهة أخرى.

ومن الواضح أن الدين الإسلامي والقرآن الكريم حريص على النفس البشرية بغض النظر عن اللون أو الدين أو الجنس ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: 151] .. ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: 32] سواء أكانت هذه النفس مسلمة أو من غير المسلمين، لأن الحرمة في الأساس هي للجنس البشري، والروح البشرية والإنسانية، ثم تزداد حرمة وكرامة وأهمية عندما تكون هذه

نفس مسلمة. فالكافر قد يخرج من صلبه مؤمن وبالتالي فإن قتله بغير حق قتل للنفس البشرية التي صانها الإسلام الحنيف.

أما في الشريعة اليهودية، فيبدو أن الحرمة والأهمية للنفس اليهودية فقط، وما عداها فلا قيمة لها ولا حرمة لها، سواء أكان الإنسان ذكراً أم أنثى رجلاً محارباً أو امرأة ضعيفة أو طفلاً أعزلاً، بل إن التوراة تتباهى بالأبسال – أي القتل والإبادة.

6- ونأتي إلى وصف هام، وهو بيت القصيد في بحثنا هنا، ألا وهو حدود الأردن، واسم الأردن وذكر الأردن، حيث تتحدث الفقرة (8) من الفصل الثالث من سفر تثنية الاشتراع عن الحدود الشمالية للأردن وهي جبل حرمون الذي يسميه شعب (أو قبيلة) الصيدونيّون باسم سريون. قالت الفقرة (8): «وأخذنا في ذلك الوقت من أيدي مَلكي الأموريّين الأرضَ التي في عِبْرِ الأردن من وادي أرنون (الموجب) » إلى جبل حرمون (جبل الشيخ حيث ينبع نهر الأردن).

من هذه الفقرة وما سبقها نخلص بنتيجة هي بالنسبة لي وللبحث هامة جداً: أن ما وضعته اتفاقية سايكس – بيكو حول حدود الأردن، إنما كان من وضع أحبار اليهود وأنهم عادوا في ذلك إلى التوراة، التي تحدد الأردن من خليج العقبة إلى جبل الشيخ. وذلك في زمن عبور بني إسرائيل دون النظر إلى الفترة الرومانية والدولة الإسلامية التي كانت الأردن تشمل خلالها كلاً من ضفتي نهر الأردن وعكا وصور وطبريا وبيسان برمتها، وأريحا، والبحر الميت ووادي عربة بجنبيه، والجوف.

7- إن ما ورد في الفقرة (8) أعلاه يقول: الأرض التي في عِبْر الأردن، أي أنها جزء من الأردن، ولم يقل النص أرض عِبْر الأردن، بل « التي في عِبْر الأردن » مما يبرهن على وضوح اسم الأردن لدى ملكي الأموريين آنذاك وهما

سيحون (حشبون) وعُوْج (باشان) وقد نصّت التوراة على أنهما كلاهما أموريون، وكلاهما في بلد واحد وكيان وطني واحد اسمه الأردن، وأن اسم مملكتيهما منسوباً إلى اسم المنطقة التي هي عليها من أرض الأردن، وأن كيانهما السياسي جاء تحت أسماء ضمن الكيان الوطني.

نخلص من ذلك كله أن كلمة الأردن لم تكن طارئة ولا جديدة في ذلك العصر، بل واضحة لدى الممالك كلها، وأن التوراة استخدمت الأردن التي كانت سائدة وشائعة ومستعملة بين الناس في حينه. وأشارت التوراة أيضاً إلى حالة قام بنو إسرائيل فيها بتغيير اسم منطقة عندما كانوا في منطقة خليج العقبة.

وعندما تقول الفقرة أن الأرض الممتدة من وادي الموجب إلى جبل الشيخ هي في الأرض الأردنية، أي أنها في جزء من الأردن (وليست الأردن كُلّه)، كما وُصفت من قبل أن الأردن يصل إلى بحر القلزم حيث أيلة وعصيون جابر، مما يجعل هذه الأرض الأردنية تشمل الأرض من البحر الأحمر حتى جبل الثلج (الشيخ). ومثل هذا الاسم الذي اكتمل «الأردن» قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة لابد ومرّ بأجيال وقرون طويلة ومتعاقبة قبل أن يستخدمه الأردنيون في الممالك المتعددة في ذلك الحين، وتنقله التوراة إلينا كما ذكرنا في صورة مكتملة جغرافياً وسياسياً واجتماعياً.

8- أن عوج وشعبه كانوا من الجبابرة « (11) وعُوج هذا هو وحده بقي من الجبابرة...». وأنه حصّن المدن، وبنى الأسوار وأن مملكته كانت تمتد في الصحراء؛ وأن الأموريين يسمّون جبل الشيخ سَنِيْرَ.

وإذا صحّت رواية التوراة، فإن بني إسرائيل قضوا على شعبين أردنيين هما شعب حشبون وشعب باشان، وأنهم احتلوا أراضيهم وأخذوا دورهم، وغنموا ثرواتهم، وأبادوا الرجال والنساء والأطفال ونهبوا الأموال وأحرقوا كل شيء

أمامهم، تماماً كما تفعل الشياطين والوحوش الضالة المفترسة، وكل من يتجرّد من إنسانيته. ثم تذكر الفقرات التالية تفاصيل توزيع أراضي الأردن التي اغتصبها بنو إسرائيل على عدد من أسباطهم وعشائرهم على أنها توريث من موسى عليه السلام أنه أقطعهم إياها بحجة أن ذلك أوامر من الله سبحانه. وبذلك تفتري التوراة في هذه على موسى وربّ موسى وهارون.

9- تقول الفقرة (17) من الفصل الثالث من سفر تثنية الاشتراع ما يلي: « (17) والغور والأردنُ الذي هو تُخمٌ لهم من كِنَّارتَ إلى بحر الغور بحر الملح عند سفوح الفسجَةِ شرقاً ».

إذن هناك أرض الأردن المتاخمة للغور، وهناك بحر الملح وهو البحر الميت الذي هو امتداد للغور أيضاً وهناك الفَسْجَةَ وهي جبل صياغة/ نبو إلى الغرب من مادبا. وبذلك تتضح الحجة القوية في ان الأردن هي شرق الأردن الحالية، وأن الغور هو غور الأردن، وأن النهر هو نهر الأردن، وأن بحر الملح (الميت) هو بحر الأردن، وأن البحر الأحمر هو بحر القلزم وميناءه: أيلة وعصيون جابر هي موانئ الأردن الأدومية. وبالتالي فإن النهر والوادي والبحر والموانئ منسوبة كلها للأردن، وليس العكس، ومع هذا لا يهمّ الأمر إن كان الأردن منسوباً إلى الغور أو النهر، لأن الأردن أرض حددتها التوراة من بحر القلزم حتى جبل حرمون، وإن جاء التحديد متقطّعاً في شذرات متفقة مع حركة وجرائم بني إسرائيل ضد الأردن والأردنيين.

10- في الفقرة (25) من الفصل الثالث / سفر تثنية الاشتراع، نجد نصّاً واضحاً يجعل جبل الشيخ جزءاً من عِبْرَ الأردن، بل هي في أرض عِبْرَ الأردن، وذلك ما نجد نصّه على لسان سيدنا موسى الذي يطلب من الله سبحانه أن يتجاوز ويعبر الأردن، ليرى جبل الشيخ (الجبل الحسن) وجبال لبنان، على أنها

(اي ارض الأردن بما فيها جبل الشيخ) أرض صالحة، أي مقدسة وطاهرة، ثم يعطف بطلبه أن يرى لبنان.

تقول الفقرة المشار إليها ما يلي (على لسان موسى ﷺ): « (25) دَعْني أجوزْ فأرى الأرضَ الصّالحة التي في عِبْرِ الأردنْ هذا الجبل الحسن ولبنان ». وبذلك نجد أن جبل الشيخ كان جزءاً من الأردن. إنه في أرض عِبْر الأردن، وهذا ما أشار إليه بعض الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر، مثل شوميخر الذي كتب كتابه (1884) عِبْرَ الأردن Across Jordan ، والذي ترجمته (المؤلف) إلى العربية بعنوان (عبر نهر الأردن).

وبذلك تتضح المعالم بما لا يقبل الشك أن الأردن يشمل هضبة الجولان ونهر اليرموك بمنابعه ومصبّه ومجراه، وسهول حوران حيث أشارت فترة سابقة إلى السهول التي كانت تابعة لمملكة باشان. وذلك في الفقرة (10) من الفصل الثالث من سفر تثنية الاشتراع، حيث ورد النص كما يلي: « (9) جميع مدن السهل وكلُّ جِلْعاد وكُلُّ باشان إلى سَلْكة أذْرَعِيْ مدينتي مملكة عُوج في باشان». اهـ.

وعندما تم رسم حدود الأردن السياسي في القرن العشرين تم اقتطاع درعا وسهول حوران وهضبة الجولان وجبل الشيخ من أراضي مملكة باشان الأردنية القديمة، أقول تم اقتطاعها من الأراضي الأردنية، كما تم اقتطاع الجوف ودومة الجندل أيضاً (في البادية شرقاً)، وبقيت الأردن الحالية محرومة من بقية أجزائها التاريخية والجغرافية.

ونجد في الفقرة (25) المشار إليها أعلاه (و 3 س ت الاشتراع) تتحدث عن جبل الشيخ أنه الجبل الحَسَنْ، وأنه محاذ لجبال البنان، حيث تم ذكر لبنان بعده مباشرة.

وهنا نجد غضب سيدنا موسى على قومه بني إسرائيل لأنهم سبب عدم تلبية الله سبحانه لطلب موسى أن يرى جبل الشيخ ولبنان، وهذا ما نجده في الفقرتين التاليتين من نفس الفصل والسفر.

« (26) ولكن سَخِطَ الربُّ عليّ (أي سيدنا موسى ﷺ) بسببكم ولم يَسْمَعْ لي بل قال لي الرب: حَسْبُكَ لا تَزِدْ في الكلام معي في هذا الشأن (27) لكن اصْعَدْ إلى قمّة الفَسْجَة (جبل نبو – بزغة) وارفع طَرْفَكَ غرباً وشمالاً وجنوباً وشرقاً وانظر بعينيك لأنك لا تجوزُ هذا الأردنّ (28) ». اهـ.

إذن هو (في صياغة/ وجبل نبو) في أرض الأردن، ويريد أن يرى بقية الديار الأردنية بما فيها جبل الشيخ، ودعا الله سبحانه أن يستجيب له دعوته هذه. ولكن غضب الله سبحانه على بني إسرائيل جعله يخاطب سيدنا موسى قائلاً له: ولا تخاطبني في الذين ظلموا، « وخذ ما آتيتك ». سوف لن أسمح لك أن تتجاوز الأردن، والتي وردت هنا بمعنى الديار والمنطقة. « لا تجوزَ هذا الأردن » أي لا تغادر هذه البقعة من الأرض التي هي جزء من الأردن ولا تخترقها، بل تبقى فيها، وأسمح لك أن تقف على جبل صياغة (بزغة / فَسْجَة) لتنظر في كل الجهات وترى من أرض الأردن ما تحب أن تدخله وتتجاوز إليه؛ مجرد رؤيا وكفى، وما تحب أن تتمتع برؤيته من الأرض الأردنية.

من النصوص المذكورة أعلاه، تتضح لنا صورة الأردن، كيف كان أرضاً وامتداداً وممالك وشعباً في زمن عبور بني إسرائيل وهي حوالي 1350 ق.م. وأن كلمة الأردن كانت مكتملة ومعروفة، وأن بني إسرائيل نقلوا في التوراة (كما قلنا سابقاً) من الأسماء الجغرافية والأدمية، ما كان متداولاً أصلاً بين السكان في حينه. ونستطيع أن نتخيل كم هي مدة تبلور اسم الأردن كمنطقة تبدأ ببحر القلزم وتنتهي بشمال جبل الشيخ، لا شك أن ذلك يحتاج إلى قرون وأجيال قبل

أن يكتمل بهذه الصورة، وأن ذلك سبق قدوم بني إسرائيل بوقت طويل جداً وأن التوراة استخدمت ما كان معروفاً ومتّفقاً عليه لدى أهل الديار الأردنية برمّتها، وأن ذلك كان موروثاً وطنياً وثقافياً وتاريخياً ولم يكن من اقتراح التوراة أو مجرد كلام عابر.

10- في الأردن نجد منطقة آمنة وملاذاً آمناً، فرزه موسى ﷺ، يهرب إليها كل قاتل من بني إسرائيل بغير قصد وإذا ما دخل واحدة من المدن الثلاثة التي فرزها موسى ﷺ كملاذ آمن، فهو يحيا أما هذه المدن فهي (باصر) في البرية في أرض السهل، ويبدو أنها في سهول حوران، وكانت ملجأ للراوبنيّين، (وراموث) (أي الرمثا الحالية) في منطقة جلعاد وكانت ملجأ للجاديين، وجولان (وهي في هضبة الجولان في باشان) وهي ملاذ للمنسّيّن. وهذه المدن الثلاث كما تقول التوراة كانت تقع في الأردن (عِبْر الأردن) وفي الجهة الشرقية (نحو مشرق الشمس).

أما النص التوراتي على ذلك، فهو الآتي (ف 4 س ت الاشتراع): « (41) حينئذ فرز موسى ثلاث مدن في عِبْرِ الأردن (في أرض الأردن، ولم يقل عبر الأردن وحدها) نحو مشرق الشمس (42) ليهرب إليها كلُّ قاتِلٍ يَقْتُلُ صاحِبَهُ بغيرِ قَصْدٍ وهو غير مُبْغِضٍ له من أمسي (أي من قبل) فما قَبْلُ فيهرب إلى إحدى ثلاث مدن (أي في عِبْر الأردن) فيحيا (أي تكتب له الحياة لأنها ملاذ آمن له) (43) وهي (أي هذه المدن) باصر في البرية في أرض السهل للرّاوبنيّين، وراموث في جلعاد للجاديّين وجولان في باشان للمنسّيين (44) هذه هي التوراة التي وضعها موسى لبني إسرائيل (45) وهذه هي الشهادات والرسوم والأحكام التي كلم بها موسى بني إسرائيل عند خروجهم من مصر (46) في عِبْرِ الأردن في الوادي تجاه بيت فَغُورْ في أرض سيحون ملك الأموريّين الذي كان مقيماً

بحشبون الذي ضربه موسى وبنو إسرائيل بعد خروجهم من مِصْرَ (47) وامتلكوا أرضه وأرض عُوج ملك باشان وهما ملكا الأموريّين الذين في عِبْرِ الأردن إلى مشرق الشمس (48) من عروعير التي على عُدْوَةِ وادي أرنون إلى جبل سيؤون الذي هو حَرْمُون (49) وجميع الصحراء في عِبْرِ الأردن شرقاً إلى بحر الغور تحت سفوح الفَسْجَة ».

من هذا النص يمكن أن نستخرج عدة نقاط هامّة، وذلك على النحو التالي:

1- إن هذه المعلومات كانت معلومات ميدانية تتعلق بالأرض الأردنية والإنسان الأردني، وكان موسى ﷺ يتلقاها من الله سبحانه (حسبما هو نص التوراة) فوضعها موسى بناءً على ذلك.

2- كما أن الشهادات والأحكام التي وردت في التوراة قد كلّم الله سبحانه بها موسى ﷺ عند خروجهم من مصر، وأن للأردن منها نصيب حيث نزلت أثناء وجود موسى وقومها على أرض الأردن الطاهر الطهور، مما يضفي على الأردن مزيداً من القدسيّة والمهابة والأهمية، ويبرهن ما ذكرناه من قبل حول اتّصاف الأردن بقدسية المكان.

3- فما أن انتهوا من مصر وسيناء حتى عبروا الأردن، وذلك واضح أن للأردن حدود مع مصر مباشرة، وهو الأمر الذي كان حتى عام 1956 قبل العدوان الثلاثي عندما احتلت إسرائيل جزءاً من الأرض الأردنية والمصرية وأقامت إيلات، وأخذت متنفساً على البحر الأحمر. ويتحدث النص التوراتي عن تلقي موسى ﷺ التعليمات الإلهية بعد خروجه من مصر، في أنه دخل الأردن، وتلقاها فوق أرضه « عند خروجهم من مصر (46) في عِبْرِ الأردن»، أي

أن الأردن محاذية ومحادِدَة لمصر مباشرة، وبذلك تشمل عصبون جابر وأيلة وشواطئ بحر القلزم عند خليج العقبة.

4- ثم تبدأ الفقرات تفصيل المناطق الأردنية التي تلقّى فيه موسى عليه السلام تعليمات المولى عز وجل، في بلاد الأردن، وهي: في الوادي وهو وادي عربة الذي كان آنذاك جزءاً من الأردن حتى شواطئ بحر القلزم (الأحمر / خليج العقبة حالياً)، وكذلك أراضي مملكة سيحون وأراضي باشان. وهما ملكان أموريان، كلها من أراضي الأردن حيث النص واضح كما يلي: « (47) وامتلكوا (أي بني إسرائيل) أرضه (أي سيحون ملك الأموريين بحشبون) وأرض عُوج (وهي أذرَعي (درعا)، وسهول حوران والجولان وجبل الشيخ والصحراء) ملك باشان وهما ملكا الأموريين اللذين في عِبْر الأردن إلى مشرق الشمس ». اهـ.

نرى إذن أن مملكتي سيحون وباشان كانتا في الأرض الأردنية، ثم تزيد التوراة تفصيل ذلك في الفقرة: « (48) من عروعير التي على عدوة (حافة) وادي أرنون (الموجب) إلى جبل سيئون الذي هو حرمون (جبل الشيخ / الجبل الحسن) ». اهـ. ويدخل الأردن في أعماق البادية والصحراء، وذلك يعني أنه يتاخم بلاد الرافدين شرقاً، أي يشمل الجوف ووادي السرحان.

ثم نجد أن هناك أراضي واسعة شاسعة وهي صحراء الأردن وبادية الأردن، وذلك ما عليه نص واضح وصريح في التوراة في الفقرة الأخيرة من ف 4 س ت الاشتراع: « (49) وجميع الصحراء في عِبْر الأردن شرقاً إلى بحر الغور تحت سفوح الفَسْجَة (صياغة) ». اهـ. أي الصحراء الأردنية في المناطق الشرقية المسماة عندنا الآن: البادية الشرقية، وأيضاً: الحماد، والحرّة، وتشمل الأردن هذه الصحراء شرقاً؛ ولكنها تمتد من جهة أخرى بالمقابل حتى الغور غرباً بل حتى البحر الميت الواقع في الغور.

من هذه النصوص التوراتية التي تحدثنا عنها وضمّناها ما كتبناه أعلاه نجد أن التقسيم الجغرافي للأردن كان على النحو التالي:

1- الوادي (أي وادي الأردن) الذي يشمل الغور، ووادي عربة حتى بحر القلزم، وهو الأمر الذي لا زال كذلك إلى الآن (القرن الحادي والعشرين).

2- بحر الملح، أي البحر الميت، وهو الفاصل ما بين الغور ووادي عربة، لكنه يمتد في الوادي أي في الصدع الانهدامي المسمى غور وادي الأردن، أو حوض وادي الأردن.

3- الجبال المطلّة على هذا المنخفض مثل بصقة (الفسجة) أو صياغا (صياغة) وجبل الجولان، وجبل حرمون، وجبل سعير (الشراة).

4- البرية، وهي الأقسام الشرقية من هذه السلسلة الجبلية.

5- السهول الشرقية التي تمتد من البلقاء إلى أن تشمل سهول حوران التي كانت جزءاً من مملكة باشان.

6- ثم تأتي الصحراء، حيث ذكرتها التوراة في أكثر من فقرة على أنها في الجهات الشرقية تجاه مشرق الشمس، فضلاً عن ذكر الطريق الصحراوي الذي أشرنا إليه شرحاً لما ورد في النصوص من قبل. أما كلمة: تجاه مشرق الشمس، فهي تعني عمق امتداد الأردن في الصحراء حتى بلاد الرافدين، وتشمل وادي السرحان، والجوف ودومة الجندل.

7- هذه كلها كانت في بلاد عِبْر الأردن Trans Jordan ، ونكرر لأكثر من مرة، لأن الذكرى تنفع المؤمنين أنه ما وصلت هذه المفاهيم وتسمية هذه الأرض باسم الأردن، إلا لأنها كانت كذلك من قبل ومرّت عليها سنون وأجيال وقرون ودول حتى تعارفوا عليها بهذا الاسم الذي لا زال حتى اليوم.

ونجد اسم الأردن يدل في نصوص كثيرة من التوراة على النهر، وليس على البلاد، يشمل ضمناً اسم الأردن كوطن، وكلاهما وجهان لعملة واحدة.

1- جاء في الفصل الحادي عشر من س ت الاشتراع نصوصاً تذكر الأردن، أثناء الحديث عن أرض كنعان (فلسطين). حيث توجد الفقرات الأربعة الأخيرة من هذا الفصل، بالنص التالي: « (29) فإذا أَدْخَلَك الربُّ إلهك الأرض التي أنت صائرٌ لِتَمْلِكَها فاتْلُ البركة على جبل جرزيم واللعنة على جبل عيبال (30) وهما في عِبْرِ الأردن وراء طريق مغيب الشمس في أرض الكنعانيين المقيمين بالسَّهل مقابل الجَلْجال عند بلّوطات مُورَة (31) لأنكم جائزون الأردن لتدخلوا وتملكوا الأرض التي أعطاكم الربُّ إلهكم فتملكونها وتسكنون فيها (32) فاحْرِصُوا أن تعملوا بجميع الرسوم والأحكام التي أضعها اليومَ أمامَكم ». اهـ.

2- وفي بداية سفر يشوع / الفصل الأول نجد نصّاً يتحدث عن الأوامر الإلهية ليشوع أن يخلف موسى وأن يعبر ببني إسرائيل نهر الأردن إلى أرض كنعان: « (1) وكان بعد وفاة موسى عَبْدَ الربِّ أن الربَّ كلّم يَشُوع بن نون خادِمِ موسى قائلاً: (2) إن موسى عبدي قد مات والآن قم فاعبر هذا الأردن أنت وجميع هؤلاء الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل (3) من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثّيين وإلى البحر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس تكون تخومكم (4) ».

وبذلك نجد النصوص التوراتية التي تتحدث عن الأطماع التوسعية الإسرائيلية لتشمل بلاد كنعان (فلسطين) على حدود لبنان شاملاً البريّة كلّها (أي بلاد الأردن) ثم شرقاً إلى نهر الفرات، شاملاً أرض الحثّيين في شمال وجنوب سوريا. وهذا احتلال واغتصاب لأمم وشعوب وبلدان ليست لهم، سوى الوهم الذي كرّسوه في التوراة والتلمود أن هذه الأرض كلها منحة إلهية لهم.

وهذه الفقرة تعيدنا إلى ما قام به سيحون ملك حشبون، وعوج ملك باشان، برفض اجتياز بني إسرائيل لأرضهم، وعدم الوثوق بعهودهم، وأنهم يشكلون خطراً على البلاد والشعب، وأنهم إذا استقروا في أيٍّ من الأردن أو أرض كنعان سيتطلعون لاحتلال الأردن، وبالفعل حدث ما كان يحذر الملكان الأردنيان.

3- في الفصل الثاني من سفر يشوع نجد إشارة إلى الأردن على اسم النهر، ووجود طريق معروفة وسالكة ما بين شرق الأردن وبلاد الكنعانيين، حيث توجد مخاوض (مخاضات)، ومفردها مخاضة، يعبرون الماء منها بين ضفتي النهر. « (7) فجرى القوم في إثرهِما في طريق الأردن (الطريق المؤدية للأردن عبر نهر الأردن) إلى المخاوض (مفردها مخاضة وهي على مياه النهر) وحالما خرج الذين سَعَوا وراءهما أُغلِق الباب ». والمخاضة هي مكان في مجرى النهر يكون الماء فيه خفيفاً يمكن التجاوز عبره، وأحياناً يتم مد حبل بين طرفي النهر، ليتجاوز الناس وهم ماسكون بالحبال.

4- في الفصل الثالث من سفر يشوع نجد إشارة إلى الأردن كنهر وماء في النهر « (8) وأنت فَمُرْ (اعط أمراً لهم) الكهنة حاملي تابوت العهد قائلاً: إذا شرعتم في حاشية مياه الأردن (ضفاف ماء النهر) فقفوا في الأردن (أي قِفُوا في مجرى ماء نهر الأردن) ». اهـ.

5- وفي فقرة أخرى من الفصل والسفر نفسه إشارة مشابهة أيضاً، حيث ورد: « (11) هو ذا تابوت عهد ربّ الأرض كُلّها عابرٌ قُدّامكم في الأردن » وإن كانت تأتي أيضاً بمعنى البلاد، ولكنها بمعنى النهر أكثر دقة وشمولاً ووصفاً لواقع الحال في حينه.

وفي الفقرات التالية من الفصل والسفر نجد النصوص التالية:

« (12) ويكون عند استقرار أخامِصِ أقدامِ الكهنةِ حاملي تابوتِ عهدِ الربِّ إلهِ الأرض كُلِّها في مياه الأردنّ أنَّ مياهِ الأردنِّ تنفلقُ والمياهُ المنحدرةَ من فَوْقُ تَقِفُ ندّاً واحداً (14) فارتحل الشعب من أخبيتهم ليعبروا الأردن والكهنة حاملون تابوتَ العهد قُدَّام الشّعب (15) فلما شرع حاملو التابوت في الأردن (أي بدأوا يخوضون الماء ليتجاوزوه إلى الضفة الأخرى) وانغمست أقدام الكهنة حاملي التابوت في حاشية المياه والأردن صافح (أي أن مجرى النهر مليء بالماء ويفيض على جنباته لما هو عليه من الغزارة) من جميع شطوطه كُلَّ أيام الحصاد (16) وقف الماء المنحدر من فَوْقُ وقام نَدّاً واحداً ممتداً جداً من لدن مدينة أدام (دامية الحالية) التي بجانب حَرْثاقَ والماء المنحدر إلى بحر الغور (البحر الميت / بحر الملح) بحر الملح انقطع تماماً وعبر الشعب قُبَالَة أريحا (12) فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الربّ على اليَبَس في وسط الأردن (وسط مجرى نهر الأردن) وكُلُّ إسرائيل عابرون على اليبس حتى فَرَغَ الشعب كلُّه من عبور الأردن ». اهـ

6- وفي الفصل الرابع من سفر يشوع نجد عدة فقرات بالمعنى نفسه المذكور أعلاه: « (1) وكان لَمّا فَرَغَ الشّعْبُ كُلُّه من عبور الأردن أن الربّ كلَّم يشوع قائلاً: (2) خذوا لكم من الشّعبِ إثني عشر رجلاً من كلِّ سِبْطٍ رَجُلاً (3) ومُروهم قائلين: ارفعوا من ههنا من وسط الأردن (وسط مجرى النهر) من موقف أرجل الكهنة إثني عشر حجراً واعبروا بها وضعوها في المبيت الذي تبيتون فيه الليلة (4) فدعا يشوع الإثني عشر رجلاً الذين انتخبهم من بني إسرائيل من كلِّ سِبْطٍ رَجُلاً (5) وقال لهم يشوع اعبروا قدَّام تابوت عهد الربّ إلهكم إلى وسط الأردنّ وارفعوا كلٌّ رَجُلٍ منكم حجراً واحداً على كتفِهِ بعدد أسباط بني إسرائيل (6) ليكون ذلك علامة فيما بينكم فإذا سألكم غداً بنوكم وقالوا ما هذه الحجارة؟ (7) تقولون لهم: إن مياه الأردن قد انغلقت أمام تابوت

عهد الربِّ عند عبوره الأردنَّ انغلقت مياه الأردن. فتكون هذه الحجارة تذكرة لبني إسرائيل إلى الأبد (8) ». اهـ.

7- ثم نعود إلى أثر المعجزة الإلهية في تجفيف مياه نهر الأردن على نفسيات ومعنويات شعوب وملوك الأردن، فإن ذلك سيخيفهم ويوصّلهم رسالة هامة أن الله مع أعدائهم؛ وبالتالي تخور قواهم، وتضعف أو تزول مقاومتهم. وهذا ما نجده في الباب الخامس من سفر يشوع: « (1) ولما سَمِعَ كلّ ملوك الأموريّين الذين في عِبْر الأردن (أي في الأراضي الأردنية) جهة الغرب - (أي غربي مجرى النهر) وكل ملوك الكنعانيين الذين على البحر بأن الربّ جفّف مياه الأردن قُدّام بني إسرائيل حتى عبروا ذابت قلوبهم ولم يبق فيهم روح (أي روح معنوية وروح المقاومة والشجاعة) أمام بني إسرائيل ». اهـ.

وبذلك نجد في هذا النص أن الأردن والأراضي الأردنية هي على ضفتي النهر شرقاً وغرباً، وهذه نظرة الرحالة والجغرافيين المسلمين أن نهر الأردن: كل ما على جنبيه أردني - أي يسمى الأردن، وهو أرض أردنية وهذا متطابق مع ما جاء في هذا السِّفر من التوراة.

8- هناك نص واضح على اسم الأردن في الفصل الأخير وهو الرابع والعشرين من سفر يشوع حيث تذكر الفقرات ما مَنَّ الله به على بني إسرائيل، ومن هذه المِنَن (مفردها مِنّة) أنه نصرهم على الأموريين الذين كانوا يسكنون بلاد عِبْر الأردن، والأموريون كانوا عدة ممالك تبدأ من خليج القلزم (العقبة) تنتهي في جبل الشيخ: وتشمل بحيرتي طبرية والحولة كما تشمل بحيرة بانياس (قادس) « (8) ثم وَرَدْتُ بكم أرض الأموريّين الساكنين في عِبْر الأردن فحاربوكم فسَلَّمتهم إلى أيديكم ومَلَكْتُمْ أرضَهم ومحوتُهُمْ من قُدّامكم (9) فقام بولاق بين صِفُّور ملك مؤاب وحارب إسرائيل وأنـفَذَ فدعا بِلْعَام بن بَعُور

ليلعنكم (10) ثم جُزْتُم الأردنّ ووافيتم أريحا فحاربكم أهل أريحا والأموريون والفِرزِيّون والكنعانيون والحِثّيون والجِرْجاشيّون والحُوِيُّون واليبسيّون فأسلمتهم إلى أيديكم (11) وأرسلتُ قُدّامكم الزّنابير فَطَرَدَت ملكي الأموريّين من وجهكم لا بسيفكم ولا بقوسكم ». اهـ.

وبذلك نجد تأكيداً جديداً أن ملوك الأموريين الذي كان يمتد ملكهم من بحر القلزم حتى حدود حشبون حتى جبل الثلج، كانوا فوق الأرض الأردنية. وأن هناك كيانات سياسية متعددة أمورية عربية أردنية، فوق كيان وطني أردني واحد يستوعب الجميع وأن بني إسرائيل يريدون إبادة البشر وإزالة الكيانات السياسية واحتلال الكيان الوطني.

9- في الفصل الرابع من سفر الملوك الأول غير نصّ الفقرة (47) على النحو التالي: « (47) وتولّى شاؤل المُلْكَ على إسرائيل وحارب كلّ من كان حوله من الأعداء من المؤابيّين وبني عمون والأدوميّين وملوك صُوبَة والفلسطينيين وكان حيثما اتجه ظافراً ». اهـ. وبذلك نجد أن الممالك الأردنية أدوم (بنو عيسو) ومؤاب وعمون كانت أيضاً عدواً لدوداً لبني إسرائيل، الذين كانوا بدورهم الأردني ألدّ وأشدّ الأعداء لهذه الممالك الأردنية، وخصماً عنيداً لبني إسرائيل الذين لم يتقيّدوا بنصوص سابقة في سفري العدد وتثنية الاشتراع ألاّ تعتدي بنو إسرائيل على العمونيين والأدوميين والحشبونيين والباشانيين، ولكن يبقى هؤلاء لا ذمة لهم ولا عرض لهم فسبحان الله ربّ العرش العظيم.

ومن هذا النص نجد أن ممالك الحشبونيين (ملكهم سيحون) والباشانيين (ملكهم أوغ) غير مذكورين هنا زمن شاؤل، لسبب بسيط أنه تمت إبادة الملوك وشعبي المملكتين وذراريهم. تخيّلوا قتل ملايين البشر فوق رقعة جغرافية محدودة (أجزاء من الأردن). إن هذا يفوق ما تقتله القنابل الذرية والحروب الضارية الحديثة، إنها جرائم حرب باعتراف التوراة.

ونخلص إلى نتيجة هامة، وهي أن الأردن، اسماً وهويةً، وجغرافيةً، وكياناً وطنياً كان محدداً ومعروفاً زمن عبور بني إسرائيل نحو أرض كنعان، وأن هذا الاسم والكيان كانا مكتملين قبل خمسة وثلاثين قرناً، مع ما نتخيله من أزمنة وحقب مضت وانقضت من قبل ذلك حتى اكتمل الاسم والمفهوم، وهو: الأردن.

ونخلص أيضاً أن الأردن كان يمتد من بحر العقبة وخليجها، وحدود مصر مباشرةً (مع سيناء)، ليشمل جبال الشراة، وحسمى ورم ووادي عربة وجبال الطفيلة ومؤاب وغور الأردن ونهر الأردن بضفتيه وحشبون، وعمون وشمال الأردن، وحوران وطبريا والجولان وجبل الشيخ والجوف ووادي السرحان بحيث يحاذي العراق من الشرق. وأن ما توصل إليه سايكس – بيكو وأعلنوه عام 1916 كان من رسم أحبار اليهود حسبما ورد في التوراة التي دوّنت ذلك نقلاً عن الشعوب الأردنية في ذلك الحين. وأن الأردن الحالي ليس إلا جزءاً من الأردن التاريخي والجغرافي.

الأردن في العهد الجديد
(الإنجيل)

وقد ورد اسم الأردن في الإنجيل بصريح العبارة بنفس المعاني والاصطلاحات والألفاظ التي وردت في التوراة، نجد من الضروري هنا أن نضمّنها كتابنا. حيث جاء في الفصل 19 من إنجيل متّى ما يلي:

« (1) ولما أتمّ يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل وجاء إلى تُخُوم اليهودية إلى عِبْرِ الأردن »، وهي هنا بلاد الأردن بكل وضوح لا لُبْس فيه. وفي هذا الفصل نجد وصايا سيدنا عيسى المسيح ﷺ يعطي الوصايا التالية: « (18) فقال له (السائل) وما هي (أي الوصايا) قال يسوع: لا تقتل، لا تَزْنِ، لا تَسْرِق، لا تشهد بالزّور (19) أكرم أباك وأمّك. أحبب قريبك كنفسِك ». اهـ.

وفي الفصل السادس من إنجيل مرقس، يتحدث عن قتل سيدنا يحيى ﷺ (يوحنا المعمدان) على يد هيرودس في مكاور بشرق الأردن.

« (17) لأن هيرودُس كان قد أرسل وأمْسَك يوحنا (سيدنا يحيى بن زكريا ﷺ) وأوثقه في السجن من أجل هيرودِيًا امرأة أخيه فيلُبُّس لأنه كان قد تزوّجها (18) فكان يوحنا يقول لهيرودُس: إنه لا يحلُّ لك أن تكون لك امرأةَ أخيك (19) وكانت هيروديًا تترصّده (تترصّد سيدنا يحيى / يوحنا المعمدان) وتريد قتله فلم تستطع ». اهـ.

وفي الفصل الرابع من إنجيل لوقا: نجد إشارة إلى عودة سيدنا عيسى ﷺ من بلاد الأردن إلى بلاد فلسطين. « (1) ورجَعَ يسوع من الأردنّ، وهو ممتلئ من

الرّوح القدس فاقتاده الرّوح في البرية «...» (8) فأجاب يسوع وقال له: قد كُتِبَ: للربّ إلهك تَسْجُدُ وإياه وحده تعبد ». اهـ.

وهذه الفقرة الثامنة من الفصل الرابع من إنجيل لوقا تبين قضية هامة وهي إيمان سيدنا عيسى ﷺ بوحدانية الله، وأن سيدنا المسيح ﷺ يعبد الله وحده لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ويسجد لله الواحد الأحد، وأن هذه العبادة وهذا السجود لا يكون لغير الله. وهذا نصّ واضح لا لبس فيه على أن سيدنا المسيح كان يعبد الله، وأنه عبد لله « إياه وحده نعبد »؛ وأن عيسى ﷺ ليس إلهاً ولا نصف إله، بل رسول الله وكلمته، وعبده، وكما ورد في القرآن الكريم على لسان سيدنا عيسى: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: 30].

مما سبق نجد البراهين الناطقة القاطعة على أن الأردن كأرض معروفة واسم متداول، وليس وليد العصر الحديث، ولا وليد قرار سياسي أو معاهدة دولية، أو مِنّة من طريد أو تكرّماً من شريد بل هو وطن وشعب، وتاريخ وهوية وثقافة وكيان وطني أردني، كان يسكنه الأموريون الذين أسسوا فيه خمس ممالك هي أدوم ومؤاب وحشبون وعمون وباشان، وأن هذه القبائل العربية استقرت هنا، وشكلت كل واحدة منها مملكة ذات كيان سياسي، وذلك لتوفر مقومات الدولة في مفهوم عصرهم آنذاك، أقول مقومات الدولة لدى كل مملكة في ذلك العصر.

ونجد في الإنجيل إشارة إلى الحرب ما بين مملكة حشبون، ومملكة أدوم استطاع الملك سيحون أن يوسّع مملكته نحو الجنوب، لتنتهي حدودها حتى وادي أرنون (الموجب)، وهذا ما ورد في التوراة وأشرنا إليه أعلاه سابقاً، وشرحناه.

من خلال النصوص، نجد الوطنية وحب الأرض، وكره الأعداء، وفهم الأمور السياسية العامة، أقول هذه كلها جزء من ثقافة الشعب الأردني منذ

أعماق التاريخ حتى اليوم وقابل الأيام، ولكن إذا صدقت التوراة بتحقيق هذه الانتصارات التي كانت لبني إسرائيل، فإن ذلك بسبب نصر الله لهم لأن الله ينصر من يشاء كيفما يشاء، ولا يُسْألُ عما يفعل وهم يُسألون. ولو كان الأمر متعلّقاً بالقوة مقابل القوة في الموازين الدنيوية، لكانت النتائج عكس ذلك تماماً، أي لانتصر الأردنيون على بني إسرائيل.

إن وجود اسم الأردن في التوراة يعطي دليلاً قاطعاً، يجب أن تخرس معه الألسن الحاقدة والمتآمرة كلها، وأن تُخرس الأصوات الناعقة ضد الأردن، فهذه مكتوبة منذ ما قبل الميلاد، ومن قبل أن تبرز القضية الأردنية في العصر الحديث، وكأن ما ورد في التوراة يتضمن وصفاً لما نحن فيه وعليه في مطلع القرن الحادي والعشرين. وقد نسمع أصواتاً تقول: أن التوراة متحيِّزة مع الأردن (؟!) كل شيء ممكن أن يقال من قِبَل الذين أكلوا خير الأردن وأنكروه.

إن هذا الذي أوردناه يكفي وحده لتفنيد ما يقوله من يعتقدون أو يتوهّمون أنهم من أرباب السياسة، الذين لا جذور لهم بالأردن، من أنه لا يوجد أردن في التاريخ، وأنه ليس إلا صنيعة اتفاقية سايكس – بيكو. ولم يكلف هؤلاء أنفسهم قراءة التاريخ، والخروج بنتيجة أن هذه الاتفاقية لم توضع اعتباطاً، بل هي محصّلة لدراسات الأحبار والمؤرخين، وفهمهم العميق للتوراة، وما أوردته ونقلته عن تحديد الأردن وديرة الأردن إلا جزء مما كان في ذلك العصر القديم حول الأراضي الأردنية، وهو التحديد الذي تعارف وتآلف عليه الأردنيون قبل خمسة وثلاثين قرناً من الزمن.

ولا يعني أن التوراة هي التي أعطت هذا الاسم لبلادنا، بل إنها نقلت ما وجدته أمامها متداولاً ومتعارفاً عليه في هذه الممالك الأمورية العربية الأردنية. ومثل هذا الفهم يقطع الحديث والطريق على كل مُتشدّق ومتنطّع ومتنطّح

وكاذب. فهذه بلاد لها تاريخ متجذر وهي تسمية سبقت أسماء بلدان أخرى من حولها. فقد كانت مصر اسمها مصر عندما كانت الأردن اسمها الأردن، بينما كان اسم فلسطين: بلاد كنعان، ثم أطلق على شعبها اسم الفلسطينيين ومنهم أخذت أرض كنعان اسمها الجديد من شعبها، وأصبحت فلسطين، وذلك ما هو واضح في نصوص التوراة.

تجدر الإشارة هنا أن الكنعانيين العرب رحلوا إلى فلسطين، وأن الأموريين العرب رحلوا إلى الأردن، وأن الأردن سميت أحياناً: أرض الأموريين لغلبتهم على المُلْك والحكم والسيادة والقيادة والسياسة والقوة وتشكيلهم كيانات سياسية فوق الكيان الوطني الأردني. وهذا ما كان واضحاً في التوراة أيضاً..

ومن خلال التوراة التي تنقل لنا الأحداث المعاصرة في حينه نجد الممالك التالية متزامنة في الأردن عند عبور بني إسرائيل من مصر إلى فلسطين. أما هذه الممالك فهي: أدوم (من وادي الحسا حتى بحر العقبة (القلزم)؛ ثم مؤاب من وادي الحسا حتى وادي الموجب؛ ثم مملكة حشبون الأمورية من وادي الموجب حتى نهر الزرقاء باستثناء منطقة بني عمون. ثم مملكة بني عمون في عمان وما حولها حتى نهر الزرقاء ثم مملكة باشان وكانت أوسعها وأكبرها وهي من نهر الزرقاء حتى جبل الشيخ وتضم نهر اليرموك والجولان وسهول حوران والبادية الشرقية، وبحيرات طبرية والحولة وبانياس وحوض نهر الأردن.

وقد قامت هذه الممالك على أنقاض شعوب وقبائل أردنية أخرى مثل العويّن والكفتاريون والحوريون. كما كانت توجد فيها مملكة حِث Heth الأردنية التي منها يوريا الحثي أحد قادة النبي داود ﷺ والذي كما تقول التوراة كان غائباً في الحرب عندما اعتدى داود على زوجة الحثي الجميلة وأرسل يوريا لقتال العمونيين فقتلوه وتزوّج داود من أرملته وولدت له سليمان الملك النبي ابن داود.

وفي التوراة شتائم على النبي داود وبعض الأنبياء ووصف لتصرفاتهم التي لا تليق بنبي أو صاحب خلق، ولست أدري مدى صحتها ودقتها. ولكننا لسنا في معرض النقاش الديني هنا، وإنما فقط لتسليط الضوء على ذكر الأردن واسم الأردن كبلاد ونهر ووادٍ ومنطقة ومخاضة ماء، وأكثر ما وردت للدلالة على الأرض.

نقول ثانية: أن ما يهمنا من هذا كله الإثبات على زيف ادّعاء أتباع مسيلمة الكذاب الذي يقول ويقولون أنه لا توجد أردن في التاريخ، وإنما وُلدت في مطلع القرن العشرين وعندما يتحدثون عن ذلك يبرهنون على جهلهم بعدم التفريق بين الكيان الوطني والكيان السياسي. فالوطن وكيانه موجود عبر التاريخ أما الكيانات السياسية فقد رأينا تتابعها وتقلباتها عبر التاريخ. ولكن ما أوردناه كافياً على أن يعترف مسيلمة القرن العشرين أنه أكذب من مسيلمة بني حنيفة الذي ادّعى النبوة زمن سيدنا أبو بكر ﷺ ولقي حتفه بسيف الحق. والأمر نفسه ينطبق على أتباع أبي لهب وأبي جهل وعبدالله بن أبيّ كبير المنافقين في المدينة المنورة.

وفي الإنجيل أيضاً نجد حديثاً عن التعميد في أرض الأردن وماء الأردن الطاهر المقدس، حيث كان سيدنا يحيى ﷺ (يوحنا المعمدان) يقوم بتعميد الطالبين للتوبة في المغطس في الأردن، وقام أيضاً بتعميد سيدنا عيسى المسيح ﷺ . ونجد نصوص ذلك وتفاصيله في الفصل الثالث من إنجيل متّى من الإنجيل.

« (4) وكان لبس يوحنا من وَبَرِ الإبل وعلى حِقْوِهِ مِنْطَقَةٌ من جِلْدٍ وكان طعامه الجراد وعسل البرّ (5) حينئذ كان يخرج إليه أهل أورشليم وكل اليهودية وجميع بُقْعَةِ الأردنّ (6) فيعتمدون منه في الأردنّ معترفين بخطاياهم (7) ولما رأى (أي يوحنا) كثيرين من الفَرّيسيّين والصدّوقيّين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي من دلّكم على الهرب من السُخْطِ الآتي (8) أثمِروا ثَمَراً يليق

بالتوبة (9)…. (11) أنا أُعَمِّدُكُمْ بالماء للتوبة وأما الذي يأتي من بعدي فهو أقوى مني (يقصد سيدنا المسيح ﷺ) وأنا لا أستحقّ أن أحمل حذاءه وهو يُعَمِّدُكُمْ بالرّوح القُدُس والنار (12) الذي بيده المِذْرى يُنَقِّي بَيْدَرَه ويجمع قَمْحَهُ إلى الأهراء ويحرق التبن بنارٍ لا تُطْفأ (13) حينئذ أتى يسوعُ من الجليل إلى الأردنّ إلى يوحنا ليعتمد منه (14) فكان يوحنا يمانِعَهُ قائلاً: أنا المحتاج أن أعْتَمِدَ مِنْكَ وأنت تأتي إليّ؟! (15) فأجابه يسوع قائلاً: دعِ الآن فهكذا ينبغي لنا أن نُتِمَّ كُلَّ برٍّ. حينئذ تركه (16) فلما اعتمد يسوع صَعِدَ للوقت من الماء فانفتحتَ له السموات ورأى روح الله نازلاً مثل حمامةٍ وَحَالاً عليه (17) ». اهـ.

وبذلك نجد أن بقعة الأردن، وأرض الأردن، كانت معروفة وواضحة منذ خمسة وثلاثين قرناً في التدوين وقبلها بقرون بعيدة وطويلة حتى اكتملت على ما هي عليه من صورة ومفاهيم في نصوص الإنجيل المقدس؛ وأن الأردن يُطلق على هذه البلاد المحروسة المقدسة، وأن المغطس الذي كان يستخدم لتعميد التائبين من الخطايا على يد النبي يحيى ﷺ (المسمى يوحنا المعمدان في الإنجيل) كان هذا المغطس في بُقْعَةُ الأردن، وأرض الأردن، حيث تم اكتشافه (أي المغطس) في نهاية التسعينات من القرن العشرين، والعثور على النبع والمغطس وما حولهما، وهو في الأرن - في الغور.

وقد كان سيدنا المسيح ﷺ في الجليل، فجاء إلى الأردن، لأنها أرض مقدسة، وتم تعميده على يد يوحنا (يحيى) ﷺ . وبذلك نجد أن ماء الأردن مقدس، وأرضه مقدسة، وإلا لما جاء إليه سيدنا المسيح ﷺ ، فهو لا يتحرك إلا بإذن الله سبحانه، وبالتالي فإن الله جلّ وعلا أرسله إلى هذه البقعة الطاهرة. أما يحيى فكان يعيش حياة الزاهدين في الأردن، يرتدي الجلد، ويأكل العسل والجراد، وذلك إشارة واضحة من جملة الإشارات التي تكررت عبر التاريخ حتى وقت قريب أن

الأردن كانت ديار العسل البري، والحياة النقيّة والبيئة الخصبة الغنية، وأنها الملاذ الآمن لطالبي الأمن والأمان، وللعبّاد والزهّاد. وقد سبق ورأينا أن ثلاثة من مدن الملاذ الآمن زمن النبي موسى ﷺ كانت في الأردن.

وفي إنجيل مَرقس في الفصل الأول منه، يتحدث فيه عن التعميد في برية الأردن الذي يقوم به النبي يحيى ﷺ (يوحنا)، وأنه قام بتعميد سيدنا عيسى ﷺ في الأردن.

« (4) وكان يوحنا يُعَمِّدُ في البرية (أي الأردن) ويَكْرِزُ بمعموديّةِ التوبة لغفران الخطايا (5) وكان يخرج إليه جميع أهل بَلَدِ اليهودية (في فلسطين) وأورشليم فيعتمدون منه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم (6) وكان لباس يوحنا من وَبَرِ الإبل وعلى حِقْوَيْهِ مِنْطَقَةٌ من جِلْدٍ وكان طعامه الجراد وعسل البرّ. وكان يَكْرِزُ قائلاً: (7) إنه يأتي بعدي من هو أقوى منّي وأنا لا استحقّ أن انحني وأحُلُّ سير حذائه (8) أنا عمّدتكم بالماء وأمّا هو فيُعَمِّدُكُمْ بالروح القدس (9) وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الأردن (10) ». اهـ.

وفي الفصل العاشر من إنجيل مَرْقُسْ نجد النص التالي: « (1) وقام (سيدنا عيسى ﷺ) من هناك وجاء إلى تخوم اليهودية إلى عِبْرِ الأردن فاجتمع إليه جموع وكان يُعلّمهم على عادته (2) ». اهـ.

وبذلك نجد أن الإنجيل ذكر الأردن كملاذ آمن، ومكان مقدس، وبلاد خصبة يكثر فيها العسل البري، وماء مبارك تم تعميد سيدنا عيسى ﷺ فيه، وكان موضع تطهير المخطئين التائبين. وكان اسم الأردن وموقعه وطبيعته واضحة بالاسم في كتاب الإنجيل.

* * *

الباب الرابع

لماذا اهتم الرحالة والجغرافيون بالأردن؟

لماذا اهتم الرحالة والجغرافيون بالأردن؟

بعد الذي رأينا من حرمة وقدسية الأردن في الكتب السماوية المقدسة، فإنه يمكن القول أنه لا يمكن لهذا الزخم من الاهتمام بالأردن من قبل الرحالة والجغرافيين المسلمين أن يكون بلا سبب، أو من فراغ أو إلى فراغ، ولا يمكن له أن يأخذ موقعه، لولا أن موقع الأردن مهم أصلاً في مواضيع البحث، والدين والتاريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع، والقوافل والحروب والسلم والوئام والخصام والعقيدة.

ومهما بلغ بالإنسان مبلغ التغاضي والحقد على الأردن وأهله، وما أكثر الحاقدين، فإنه لا يمكن أن يصاب بالعمى أمام معركة مؤتة واليرموك وطبقة فحل، ولا أمام انطلاق الجيوش الإسلامية الأربعة من أرض الأردن، ضمن خطة الانتشار وبدء الفتوحات العظيمة التي كانت قارب النجاة للبشرية ومحفل نور الإيمان لبني الإنسان، وبعد أن خيَّم فيه (في الأردن) الفاتحون المؤمنون فيه وشربوا من مائه، وتوكلوا على بركة الله أو توسّدوا ثراه بعد انتقالهم للرفيق الأعلى.

ولا يمكن للرحالة والمفسرين والمؤرخين أن يغمضوا أعينهم عن لطف الله سبحانه وعنايته بالأردن، عند معاقبته جل وعلا للأقوام المسخوطة، عندما تحدد العقاب من الله سبحانه وتعالى على البقعة الخاطئة والمجموعات الكافرة دون أن يشمل ذلك ما حولها من البقاع والرّقاع، وكيف أن الناس عاشت على البقاع نفسها من بعد، كما هو حال وادي شعيب ومدين، ومنطقة غور الصافي والغور الأوسط، لأن العقوبة اقتصرت مكاناً وزماناً وإنساناً على الأقوام في حينه، وأن

العقاب كان تطهيراً للأرض من الدّنس والأرجاس، ثم عادت إلى نقائها، وإعادة بنائها وإعمارها من جديد.

وعندما بدأ سيدنا محمد ﷺ بنشر الدعوة الإسلامية نحو الروم « إلى الشمال » ، كان لابد له أن يتوجه تلقاء الأردن، حيث وجد العون من داخل البلاد متمثلاً في إسلام أبي فروة الجذامي ؓ أمير الأردن آنذاك من قِبَل الغساسنة والروم، ودحية الكلبي ؓ ، بينما كان العون الداخلي من بيت الرسول ﷺ ، بالاهتمام بالأردن، وهو زيد بن حارثة الكلبي الأردني، الذي أرسله سيدنا محمد ﷺ على رأس جيش ومعه جعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة، رضي الله عنهم جميعاً، وكأنّ سيدنا محمد ﷺ يقول لزيد بن حارثة، اذهب وحرر بلدك الأردن من الاستعمار والاحتلال الرومي، وحرر أهلك في الأردن من الاحتلال الوثني والكفر، وحرر نفسياتهم من الرضوخ للأجنبي والغرباء، والشرك وعبادة العباد للعباد وحرّر عروبتهم من نتن العلوج.

وقد أرسل سيدنا محمد ﷺ رسله من الصحابة الكرام، فكان استشهاد رسوله إلى عامل بصرى الغساني، حيث قتلوه، ويتوسد ثرى الأردن في محافظة الطفيلة، ثم إذا ما وقعت معركة مؤتة، استُشهد قادتها الثلاثة رضوان الله عليهم، وأصبحت مراقدهم في الأردن، في جنوب البلقاء (حسبما هو الوصف التاريخي آنذاك) شاهدة على هذا الجهاد وهذا التحرير وهذا الدين العظيم وعلى الأردن العظيم.

وفي وقت الفتوحات تعطرت تربة الأردن بدماء الشهداء الزكية، بينما أتى الجدري على أعداد هائلة من جيوش الفتح، وسكان الأردن، ولا زال أبو عبيدة، وضرار بن الأزور، وشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل، وأبي ذر الغفاري، وعبدالرحمن بن عوف، وبلال بن رباح وغيرهم كثيرون من الأولياء

يتوسّدون ثرى الأردن الطاهر، مما أضاف مهابة وقدسية وحرمة على الأردن مضافاً لما كان فيه وما كان عليه من قبل ومن بعد.

هنالك فارق وصراع بين الآراء السياسية المعاصرة، والآراء الدينية والتاريخية القديمة، والوطنية الحديثة. فالساسة من المفترين والمنتفعين والنكرات والحاقدين والمطرودين من بلدانهم الذين لم يجدوا ملاذاً سوى بلدنا الأردن ينكرون الدين والتاريخ أو يجهلانهما، أما ما ورد في الكتب القديمة، الدينية والتاريخية، وأدب الرحالات العربية وغير العربية، فقد قيل وكُتب (بضم الكاف) بأسلوب موضوعي، يتحدث عن أرض الواقع، ويسمي الأردن باسمها كمنطقة جغرافية وإدارية وكيان وطني، قبل تسمية كثير من البلدان الأخرى في المنطقة العربية وغير العربية.

أما نحن الوطنيّين، فإننا نؤمن أن الأردن وطن له مهابته وحرمته الدينية والتاريخية والروحية، وجذوره العريقة العميقة وأنه موجود اسماً وجسماً ورسماً وشعباً منذ وجدنا تدويناً دينياً (التوراة) أو تاريخياً. وأنه بقي كياناً وطنياً واحداً، وإن تعاقبت عليه كيانات سياسية مختلفة ومتنوعة ومتعددة.

وقد أدى هذا الفارق بالنظرة والفكر إلى صراع خفي، تطور إلى علني في كثير من الحالات، بين المدرسة التي تنكر الأردن وجوداً وتاريخاً وسياسةً وهويةً وثقافة وكياناً وطنيّاً، وتلك التي ترفض هذا الإنكار. وإذا أراد هؤلاء أن يتحدّثوا عن الأردن، تحدّثوا عن كيان سياسي نشأ حديثاً ويهملون ويرفضون الكيان الوطني الذي هو الوعاء الأساس القديم القائم للكيان السياسي. وفي خضم هذا التناحر والتنافر بين من يتغاضى عن الكيان الوطني ويتحدث عن السياسي، وبين من يؤمن بالكيان الوطني وعاءً وأساساً وتأسيساً ومن لا يؤمن به، ويتزلّف للكيان السياسي، رأينا تأليف هذا الكتاب لنبيّن للناس، ما هي الحقيقة من كتب

التاريخ الموثقة عندما لم يكن وجود لهؤلاء المنظرين الحديثين وجود أو جذور، وماذا كان ووجدناه عن بلادنا من قبل في رأي التاريخ، والكتب المقدسة والكُتّاب الحياديّين؟.

وربما يكون ذلك أحد الأسباب التي حدت ببعض الكُتّاب القدماء أن يتناولوا الأردن ويتحدثوا عنه، وينصفونه بكل موضوعية، وإنهم حتى ولو لم يكن هذا من أسباب كتاباتهم، إلا أنه جاء نتيجة حتمية وطبيعية لكتاباتهم هذه، وربما نقول أنها إحدى النتائج في هذا المضمار. فالمؤرخون والرحالة كتبوا بكل موضوعية، وهم شهود على الحقيقة، أما من ينكر الأردن فهو شاهد زور على الباطل.

وقد وجدت أن الحاقدين والمدافعين، قد تصرفوا بغريزتهم، أولئك « أي بغريزة الحقد » ؛ أما هؤلاء فتصرّفوا بغريزة المحبة والإنصاف والموضوعية، دون أن يقرأ أولئك أيّ كتاب يعزز وجهة نظره، لأن هذه الكتابات والمعلومات متناثرة في بطون الكتب، بحيث تحتاج إلى باحث للإلمام بها ومطالعتها، فرأيت أن أضعها في كتاب واحد لتيسير الدراسة والجدال، على الباحثين والناس، وحتى على المواطنين العاديين. ونحن لا نتوقع، بل ولا نطلب منهم أن يكونوا جميعاً باحثون، ولكن يمكن أن نطلب إليهم قراءة كتاب واحد، يضم في دفتيه مثل هذه المعلومات التي تجيب على هذه الأسئلة جميعها.

ولم يكن الظلم للأردن مقتصراً على الأمور السياسية والوطنية والسكانية، والافتراء علينا في أننا شعب بلا تاريخ ولا هوية ولا ثقافة ولا عشائر ولا كيان وطني، بل تعداه إلى الجغرافيا في أن الأردن – في رأي الحاقدين – بلاد كانت مقسّمة وموزعة بين جيرانها من فلسطين وسوريا والعراق ومصر والحجاز، وأن الذي أوجدها بحدودها الجغرافية السياسية هي اتفاقية سايكس – بيكو 1916

دون أن يشيروا أن هذه الاتفاقية صنيعة من عَرَفَ التوراة معرفة دقيقة، وأنها اقتطعت من الأردن التاريخي الحقيقي ما يساوي أو يزيد على المساحة التي وُضعت ضمن الحدود السياسية الحالية.

وفي الحقيقة أن هذه الاتفاقية جاءت وليدة للتوراة، وإن اجتازت وتجاوزت عن أماكن كثيرة من الأردن ممثلة بالجوف وضفتي نهر الأردن، والجولان وحوران وجبل الشيخ وبحيرة الحولة وبحيرة بانياس وحوض نهر الأردن وصور وعكا. ومع هذا نحن لا نطالب بهذه الأجزاء وإنما نطالب بأبناء الدول المجاورة، ومن امتصّ دماء الشعب الأردني من مثلث الغم أن يكفوا أذاهم عنا، وأن يتركوا للتاريخ حكمه بشكل شمولي، وليس بشكل مجزوء زماناً ومكاناً وسلطاناً وإدارةً.

1- الأردن مظلوم عبر التاريخ: إن موقع الأردن الهام، وإطلالته وحدوده مع البلدان المجاورة وقدسية مكانه، قد جلب عليه المتاعب حقاً. فعندما أراد بنو إسرائيل العبور إلى بلاد الكنعانيين (فلسطين)، لم يجدوا طريقاً إلا عبر الأردن الذي دفع الثمن غالياً من القتلى والإبادة الجماعية من ملايين البشر فضلاً عن الحيوان والنبات، كما يظهر ذلك بصريح العبارة في نصوص التوراة التي أشرنا إليها أعلاه.

وكان الأردن دائماً ميدان المعركة بين القوى المتصارعة كما حدث بين اليونان والفرس، ثم بين اليونان والرومان، ثم في الفتوحات الإسلامية بين الرومان والمسلمين، ثم بين الأمويين والعباسيين الذين أهملوا الأردن، وهمّشوه لدعمه السابق لبني أمية من جهة، وخشية ظهور دعوة أخرى ضد العباسيين، من رحم الأردن، من جهة أخرى، وحرقهم (أي العباسيون) وقطعهم للشجر المثمر وغير المثمر.

وكان مسرحَ وميدانَ الحروب بين الصليبيين والمسلمين، ثم بين الأتراك والقوات البريطانية في الحرب العالمية الأولى. وهكذا نجد أن المنتصر يخشى من ظهور قوة أردنية أو في الأردن تنتصر عليه، ونرى المندحر أو المنكسر، يتطيّر بالأردن لأنه ذاقَ مرارة الهزيمة على أرضها؛ وبالتالي دفع الأردن ثمناً غالياً (عبر التاريخ) على أيدي المنتصرين والمنهزمين على حدّ سواء.

وكلما تأسست دولة في البلدان المجاورة خشيت من الأردن أن يخرج منها من ينزع منها سلطانها، لذا أوجست الدول كلها خيفة من بلادنا، وترتب على ذلك ظلم وقهر للشعب الأردني عبر التاريخ إلى الآن، وإهمال لهم وللديار الأردنية برمتها سواء من الإدارة المتمركزة فيها، أو من تلك التي خارجها من الكيانات السياسية الطارئة التي وجدت لها ملاذاً فيها أو من تصارع الكيانات السياسية والاجتماعية الدخيلة عليها أو النابعة منها، ما لم تتوحد الكيانات الوطني والسياسي في حالة واحدة.

من هنا كان على الأردنيين عبر العصور أن يقتلعوا شوكهم بأيديهم، وأن يداووا جراحهم بأنفسهم، وأن يتحملوا انقلاب الأصدقاء وشماتة الأعداء وظلم السفهاء، وطغيان البلهاء، وفساد الجهلاء، واستبداد المرتزقة والمقاطيع والغرباء، وهذا الذي حدث ويحدث للأردنيين عبر التاريخ. ونسأل الله سبحانه أن يحفظنا وبلدنا ويحررنا من كل سوء في أنفسنا أو فوق رقابنا.

وقد ساعد في ذلك كله، وجود التداخل الجغرافي والسكاني مع الدول المجاورة. وفي هذا الصدد، يمكن تشبيه الوضع الجغرافي للأردن، مع ما حوله من بلدان كفراغ غيار السيارة التي لا مناص لسائقها وهو يسير بها أن يمر عبر هذا الفراغ إذا أراد أن ينتقل (يغيّر) من غيار إلى آخر. فقبل أن يضع الغيار الأول وهو فلسطين، لابد أن يمرّ بالفراغ (النيوترول) وهو الأردن، وإذا حرك عصاة

الغيار إلى الثاني وهو جزيرة العرب، لابد أن يمرّ عبر الفراغ وهو الأردن، وكذلك الأمر عندما يحرك مسننات الغيار الثالث إلى سوريا والرابع إلى العراق. أما الغيار العكسي فيشير إلى بلاد مصر. ومن هذا المثال، نرى أهمية الأردن لهذه البلدان جميعها، وخطرها على الأردن واهميتها خيراً أو شراً عليه وأنها لا تكتمل إلا بالأردن وأنه الممرّ إلى كلّ واحد من هذه الأقطار.

2- التداخل الجغرافي والبشري بين الأردن والبلدان المجاورة: وقد أدى هذا إلى إسالة لعاب وشهية الطامعين في كل بلد من هذه أن يعتبر الأردن جزءاً من بلده. فمثلاً نجد في الغيار الأول = فلسطين أن البعض يقولون عن الأردن أنه فلسطين الشرقية Eastern Palcstine وهي آراء صهيونية، وينادي بها المتصهينون أيضاً، وصدر هذا عناوين لكتب عديدة، أحدها ترجمته (المؤلف) إلى العربية بعنوان The Survey of Eastern Palestine وترجمته شخصياً وتم نشره بعنوان «أعمال المساحة في شرق الأردن» . ونسوا أن نصوص التوراة المكتوبة تحدثت عن الأردن على أنه بلد يمتد من بحر القلزم حتى جبل الشيخ، بينما تحدثت عن أرض أخرى على أنها أرض كنعان.

وكذلك الأمر في الخلط أن الأردن هو جنوب سوريا – في الغيار الثالث وقد درج هذا الخطأ وشاع حتى أصبح مقبولاً ومعتمداً لدى الرحالة والمؤرخين. فالأردن هي جنوب بلاد الشام، مثلما هي الشام شمال الأردن، ونحن الحدّ الجنوبي من سوريا، وسوريا هي الحدّ الشمالي للأردن، ولكن أحداً لم يقل أن الأردن هي سوريا الجنوبية أصلاً، مثلما قال الصهاينة والمتصهينون أن الأردن هو فلسطين الشرقية حتى أن بيركهارت الذي زار بلاد الشام عام 1810/ 1812 دوّن رحلاته بعنوان Travels in Syria & The Holy Land: سوريا والديار المقدسة ويعني بالديار المقدسة: الأردن وفلسطين، وبذلك فالأردن هي جزء من

بلاد الشام، لكنها الحد الجنوبي من سوريا. ونحن لا ننكر أن الأردن وسوريا تعتبر بلاد الشام، ولكننا ننكر أن تكون الأردن بلد سوري، لأن سوريا معروفة بحدودها الحالية التي هي عليها، أما بلاد الشام فتشمل الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين. ولكن سعة مساحة سوريا، على سائر أقطار بلاد الشام، وكونها حاضرة الدولة الإسلامية العربية الأموية جعل المؤرخين يغمضون أعينهم عن حقيقة أن الأردن هي جنوب بلاد الشام وليست جنوب سوريا، بل ولا سوريا الجنوبية، لأن مثل هذا القول يكرّس أفكار وآراء التبعية التي يريدها البعض سواء من الأردنيين أم من غيرهم أن تصبح حقيقة وواقعاً، وهي ليست كذلك.

وفي الغيار الثاني - أي جزيرة العرب، فالأردن بوابتها ونهايتها وخاتمتها ورواقها الغربي الذي يحول دون الغبار والحر والقر إن أُحْسِنَ إسداله والحفاظ عليه، ولكنه يجلب كل الشوائب والمصائب والمتاعب لجزيرة العرب، إن أهمله أهل الجزيرة أو تآمروا عليه، لكنه ليس جزءاً منها، فالأردن في مطلع الخضراء وتخومها للقادم من الصحراء، وهي محطة الراحة والاستقرار المؤقت والدائم لمن ترك الجزيرة أو لفظته الجزيرة بسبب قحط أو ثورات أو حروب، أو فتوحات أو أي سبب كان أو كوارث طبيعية أو بشرية أو سياسية أو لأية أسباب أخرى وحتى الجيوش الإسلامية التي سيّرها سيدنا أبو بكر ﷺ لفتح الأقطار وتحريرها من الاحتلال الرومي، استراحت بالأردن ثم توزّعت منه.

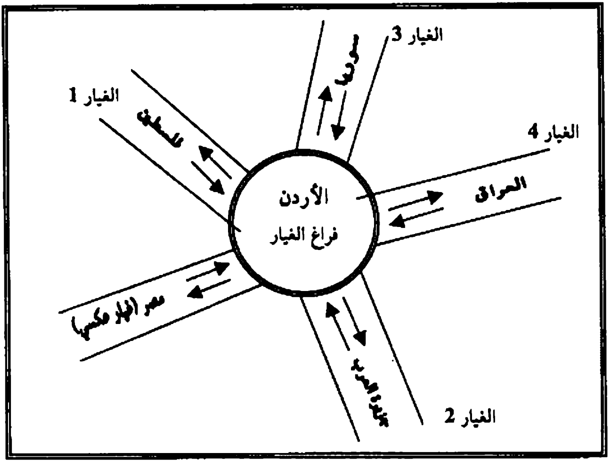
وإذا كان البعض يعتقد بضرورة ضم الأردن للدولة (أية دولة) التي تهيمن على جزيرة العرب فهو يأخذها (أي الأردن) من موقع صفته وطبيعته الخضراء، ليلحقها إلى الصحراء، وذلك ما لا يتفق مع الواقع والحقيقة وطبيعة ورغبة وميول الناس. فالعادات القاسية من عربان الصحراء نجد فيها التهذيب في الأردن، لأن الطبيعة الأردنية الجديدة تلقي بكثير من العادات وتلفظها بعيداً،

وتأتي بعادات جديدة مشذّبة متفقة مع الواقع والطبيعة والمجتمع. فالأردن محطة التهذيب والترتيب والتأهيل لما بعدها من خضراء أو صحراء.

وفي حالة العراق، نجد أنه، وعبر التاريخ، أن الدولة القوية التي تسيطر على العراق تريد تأمين حدودها الغربية مع الأردن، من خلال التحالفات أو الهيمنة على الدويلات والممالك الأردنية. ونجد أن نبوخذ نصر لم يستطع تدمير دولة إسرائيل وسبي أهلها إلا بعد تحالفه مع ملوك الأردن في حينه. ونجد أن خالد بن الوليد ﷺ الذي تحرك من العراق لتعزيز القوات الإسلامية في اليرموك، يأتي إلى الأردن، ليخوض المعركة التاريخية الفاصلة فوق الأرض الأردنية، وهي معركة اليرموك. ويمكن أيضاً النظر بعين الاعتبار نفسه إلى الجيش العراقي الذي تحرك عدة مرات في العصر الحديث للقتال على أرض فلسطين والجولان ودخوله وتعسكره على الأرض الأردنية.

أما الغيار العكسي في مصر، فقد أشرنا في صفحات سابقة كيف أن فراعنة مصر أمنوا أنهم لن يهنأوا بعيش أو استقرار إلا بعد تأمين الجبهة الأردنية حلفاً أو احتلالاً أو صداقة. وكذلك نجد أن الجيش الإسلامي الذي احتل مصر. قد عبر إليها من خلال الأردن وخاض معركة في منطقة الطفيلة وهي منطقة عابل (آبل الزيت)، وكذلك الأمر زمن المماليك والحروب الصليبية. وبذلك نرى الاقتران المهم ما بين الأردن ومصر عبر التاريخ، وأن الجبهة الأردنية هامة وحيوية بالنسبة للمصريين، وإنه لا يمكن للجبهة المصرية الانتصار في حروبها مع الشمال (فلسطين وسوريا والأردن) بدون تأمين الجبهة الأردنية.

ويمكن فهم نظرية فراغ الغيار (جير السيارة) من الشكل التالي، التي تبين التشابك الأردني مع البلدان المجاورة كأوطان (الكيان الوطني)، وكذلك الحال كأنظمة (الكيان السياسي) تتبدل وتتحول عليها عبر حقب التاريخ.

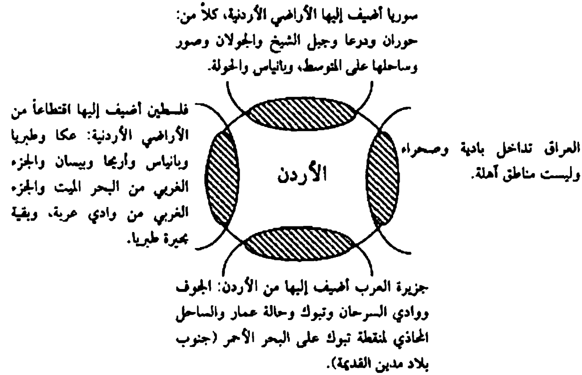


وهناك نتيجة أخرى فيما نرى، أن الأردن كالحوض الذي تصب فيه السواقي القادمة من هذه البلدان؛ ومركز إشعاع نحو هذه البلدان بالهجرات البشرية، والقيادية والعسكرية، كما تشير الأسهم من الأردن وإليه. وهناك خلط وتداخل بشري بين الأردن وسائر البلدان هذه؛ حيث نجد كل منطقة من مناطق الأردن محاذية لبلد آخر (كما نرى بالشكل) قد تحولت إلى بوابة لعبور العشائر والمهاجرين إلى الأرض الأردنية أو منها، مما زاد في توهم الآخرين أن الأردن تابع لهذا البلد أو ذاك حسبما هي هجرة أو تحرك السكان من كل قطر من الأقطار المحاذية كما يتضح. أي أن الكيان الاجتماعي بالنسبة لهؤلاء المتوهمين يعني اجتزاء الكيان الوطني خارج الوطن الأم.

وقد أدت طبيعة الموقع إلى تداخل الدوائر الجغرافية وخطوط الطول والعرض والمناخ، وطبيعة الأرض، وعادات السكان، بحيث ظهر الكثير من

الخلط عند من لا يفهم هذه الخصوصية الأردنية في مواجهة الخصوصيات العربية المحيطة به.

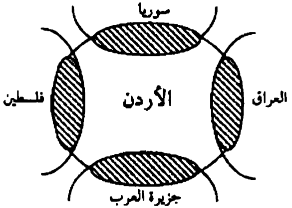
وقد أدى ذلك إلى تداخل جغرافي، حيث يرى البعض أن أجزاءً من الأردن تعتبر من هذه المنطقة المجاورة أو تلك البلد المجاورة، وأن معاهدة سايكس – بيكو هي التي اقتطعت هذه الأجزاء من هذه البلدان المجاورة لتشكيل الأردن، والحقيقة أن الاقتطاع كان من الأردن وأضيف إلى البلدان المجاورة، كما رأينا وسنرى من خلال هذا الكتاب، وليس لمصلحة الأردن، حيث فقدنا الكثير من الأراضي لسائر البلدان والدول المجاورة بسبب اتفاقية سايكس – بيكو المشار إليها توّاً وذلك ما يظهر في الشكل التالي:



إن مثل هذا الاقتطاع، أو الاجتزاء من الأراضي الأردنية وإضافتها للبلدان المجاورة بموجب اتفاقية سايكس – بيكو عام 1916 فضلاً عن اقتطاع عكا (بضمّها إلى فلسطين)؛ وصور التي أصبحت من أراضي لبنان الآن، أوجد عند

الكثير من الباحثين والسياسيين، والأعداء، في أن امتداد الجزء من الدائرة الخاص بأيٍ من هذه البلدان، يعني أن بقية الأردن جزء من ذلك البلد المجاور، وليس العكس، وهو كما نرى في الشكل أمر (أي نظرتهم هذه) مغاير للحقيقة والتاريخ، وإن وجد شيئاً واهناً من الواقع للبرهنة عليه.

وقد أدى هذا التداخل الجغرافي إلى نتائج كثيرة، على النحو التالي:



1- من فلسطين استقرت موجات بشرية متعددة: أهمها وأكثرها عدداً وحجماً هي في سنوات 1949، 1967، 1991، حيث حصلوا على الجنسية الأردنية، وحيث أن وجودهم قوّى من فكر الليكود الصهيوني وأتباعه أن الدولة الفلسطينية قائمة في الأردن، ولا حاجة بها أن تقوم في فلسطين، أي إن ذلك أدى إلى ابتلاع الصهاينة لأرض فلسطين، مع مناداة إسرائيل بأن الأردن هي الوطن البديل للفلسطينيين.

وقد أدى وجود العدد الفلسطيني الكبير بالأردن إلى إيجاد كثير من التغيرات السكانية والثقافية والعادات والتقاليد، والأمور السياسية، والتأثير على بنية الدولة وإيجاد الخلط بين مفهومي الكيان الوطني والكيان السياسي. وإلى نمط من الحساسية بين الطرفين الأردني والفلسطيني، بلغت ذروتها عام 1970 ثم تحول الأمر إلى صراع سياسي وسيادي واقتصادي بعيداً عن البندقية.

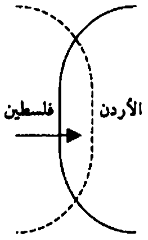
ولابد من القول هنا أن الأردن قد ضخّت كثيراً من الموجات العشائرية عبر التاريخ إلى فلسطين، كما وضّحنا ذلك في كتبنا عن العشائر الأردنية؛ وذلك يعني أن الأردن قد أثّر بفلسطين أكثر مما تأثر بها، وأن الموجات البشرية لم تكن من طرف واحد، بل متبادلة بين الطرفين كليهما. ولكن الموجات الأردنية كانت بعيدة عن التدوين والتسجيل، فحَسِبَ من جاء من الأجيال والكُتّاب أن الأردن بلا سكان ولا شعب ولا بَشَر No Man's Land وهذا ما أشار إليه ترتسترام (رحّالة إنجليزي) عام 1872 في كتابه أرض مؤاب The Land of Moab الذي ترجمته إلى العربية ونشرته الدار الأهلية بعمان - 2005، وأنه (الأردن) الذراع الشرقي لفلسطين، وأنه مستودعه عندما يصيب الخوف أو الاحتلال أهل فلسطين فيجدون أمنهم وملاذهم في الأردن.

وفي هذا الصدد، فإن موقع الأردن الهام، جعله ممرّاً للجيوش الغازية، الأمر الذي أدى بأهله أن يتفرقوا في البلاد خشية البطش والقتل والاغتصاب فكانت تحركاتهم بهذه الاتجاهات المرسومة في الشكل الأول والثاني متفقة مع ثقافتهم في الابتعاد عن وجه الخطر ريثما يزول ثم العودة، وأن الكثير منهم لا زالوا في تلك البلدان، والقليل منهم عادوا إلى أرض الوطن. وقد أدى ذلك إلى الحسبان والاعتبار خطئاً أن هذه الأسرة أو العشيرة جاءت من منطقة كذا، من خارج الأردن، ولم يتحدثوا عن المرحلة التي سبقت مجيئهم إلى الأردن، وهي في الحقيقة عودة إلى أرض الوطن، وليس مجيئاً لأول مرة. وقد وضحنا ذلك في كتبنا عن العشائر الأردنية.

إن أية دراسة للمناطق الحدودية مع البلدان المجاورة، يجد التداخل العشائري مثلما هو تقاطع الدوائر في التداخل الجغرافي المبين بالشكل، ونجد تبادل التقاطع،

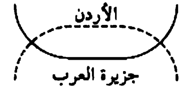
وتبادل التحرك، إلا أن وجود الهوية السياسية العصرية بعد اعتماد الحدود عام 1924، اضطر الجميع أن يجددوا هويتهم السياسية والوطنية، وليس الهوية العشائرية وهوية الديرة فقط. ذلك أن بروز السقف الجديد والكيان السياسي الجديد، جعل الجميع تحت مظلته، فاختار العديد منهم الأردن، وآخرون اختاروا بلداناً غنية، لأن الأردن كانت تبدو قاحلة حيث لم يكن استغلال ثرواتها بدأ بعد وكانت بالتالي لا تفي بحاجات أهلها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ويمكن إضافة أشكال أخرى من خلال أقواس تقاطع الدوائر، حيث يتحول القوس إلى خيط واهٍ متقطع عندما تستقر العشائر أو المجموعات البشرية في الأردن أو ما جاورها على النحو التالي:



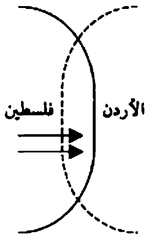
شكل (ب)

نجد قوس الدائرة الأردنية يصبح قوياً، ويصبح قوس الدائرة الفلسطينية واهياً، حيث المجموعات الفلسطينية على الأرض الأردنية مع تقمُّص الهوية الأردنية بالإضافة إلى الفلسطينية، ولكن المشاعر والثقافة والهوية الفلسطينية الحقيقية لا زالت باقية لكنها على أرض الواقع والعيش والممارسة لا تتغلب على الهوية الأردنية ولا تحمل الهوية الفلسطينية، بل المشاعر الفلسطينية بدلاً منها.



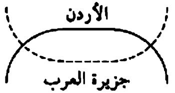
شكل (د)

نجد أن المجموعات استقرت بالأردن واتخذته موطناً وهوية، وتحولت علاقاتها بجزيرة العرب إلى خيوط واهية وجزءاً من الماضي ليس إلاّ.



شكل (أ)

الموجات الفلسطينية التي استقرت أو استوطنت في الأردن قادمةً من فلسطين حيث أنها على أرض الأردن مع الالتزام الكامل للهوية الفلسطينية وقت قدومها للأردن، فالخط المتقطع كما نرى هو قوس الأردن الذي أعطى الوافدين الأرض مع احتفاظهم بالهوية الفلسطينية حيث لا زالت في حينه مشاعرهم فلسطينية وهم على الأرض الأردنية مع محاولة تبني الهوية الجديدة (الأردنية).



شكل (ج)

نجد أن الموجات البشرية، تحركت من الجزيرة باتجاه الأردن مع بقاء ارتباطها بالجزيرة واستقرارها على الأرض الأردنية.

ولكن ماذا قبل هذا؟ فقد ارتأيت أن أتحدث عن المتعارف الموجود الآن. ولكن هل كل الذين جاءوا عبر التاريخ القديم حتى منتصف القرن التاسع عشر إلى الأردن من فلسطين وجزيرة العرب والعراق وسوريا كلهم من تلك البلدان؟ الجواب وبكل بساطة، ليسوا جميعاً من تلك البلدان بل إن أكثرهم من الأردن أصلاً قبل أجيال وقرون مضت ثم عادوا عندما وجدوا الأمن والأمان بالأردن، والعيش الكريم أكثر مما كان في البلدان المجاورة. وعندما لم تكن هناك حدود سياسية قطرية، ولا هوية سياسية قطرية، ولا احتلال فلسطين، ولا كيان سياسي قطري.

وفي هذا الصدد نستطيع القول أن الهجرات المتبادلة بين الأردن والبلدان المجاورة عبر التاريخ القديم (قبل منتصف القرن التاسع عشر) قد جاءت على ثلاثة أشكال: (1) الفردية (2) والمجموعات المحدودة (3) والعامة.

أما الفردية فإن الأردن كانت بلاداً صعبة، لا يستطيع العيش والبقاء فيها إلا القوي. وقد تكون أكثر البلدان في الأرض التي ينطبق عليها مبدأ « البقاء للأقوى والأفضل ». فعندما كان الشخص يرتكب جريمة يهرب إلى أقرب البلدان لموقعه، ففي الجنوب يذهب لجزيرة العرب أو مصر أو سيناء أو جنوب فلسطين، وفي الوسط يذهب إلى وسط فلسطين أو إلى شمال الأردن، وفي شمال الأردن إلى سوريا أو شمال فلسطين. وبناءً عليه نجد العشائر الأردنية المتداخلة في هذه البلدان، وهناك من المتداخلين (ولا أقول جميعهم) في كل منطقة هم من سكان المنطقة المحاذية لها.

وقد شكل بعض الأردنيين الذين غادروا بلادهم، أقول شكّلوا عائلات ثم عشائر في البلدان المجاورة للأردن، أثناء إقامتهم خارج أرض الوطن (وهو الأردن) عبر أجيال وربما أجيال عديدة، لكنهم عادوا عندما انتهى الخطر المحيق

بالأردن، كالخطر اليوناني والروماني والصليبي والتركي، أو جاء خطر عليهم في البلدان التي كانوا فيها. ويحسب البعض أن هؤلاء ليسوا من أصل أردني لانعدام التدوين والمعلومة والبحوث، ويقولون: جاء من كذا وكذا. وإذا عرفنا أن النظام العشائري العربي كان يعطي الحماية الفورية للشخص إذا ما أعلن انضمامه للعشيرة الجديدة، حيث يتم ذلك من خلال إجراءات بمجرد أن يذبح شاة، ويأكل وإياهم طعاماً من لحمها ليصبح بينهم وبينه « عيش وملح »، وأنه بعد ذلك يحمل اسم العشيرة الجديدة ويتعصّب لها، له ما لأفرادها، وعليه ما عليهم؛ كأنه واحد منهم حقيقة؛ فإننا ندرك حينها أنه عاد وهو يحمل الاسم المكتسب، ليلتحق بعشيرته الأولى، فيقال أنه جاء من شمر أو عنزة أو العراق أو سوريا، وهو في الحقيقة أردني عاد إلى بلده الأردن وليس غير أردني جاء إلى غير دياره، هذه حالات كثيرة، ولا أقول الحالات جميعها.

2- أما المجموعات المحدودة فهي العائلات والعشائر الصغيرة، عندما يداهمها خطر لا طاقة لها به، تضطر معه للرحيل إلى أقرب ديرة من البلدان المجاورة لمنطقتها الأردنية طلباً للأمن والحماية؛ وقد تُشكّل عبر الأجيال والحقب الزمنية الطويلة عشيرة كبيرة، وتستقر لأجيال هناك، حتى إذا ما جاءت الظروف التي رمت به خارج الأردن وحاقت بهم في منازلهم الجديدة، عادوا إلى الأردن إذا كان آمناً، أو أقل خطراً؛ وحينها يقال خطئاً: هذه العشيرة من البلد الفلاني من خارج الأردن، ولا يقولون: إنه أردني كان مغترباً ثم عاد إلى وطنه وإنما غير أردني جاء إلى الأردن، وهذا خطأ لا يتفق مع حقائق التاريخ. وبين كلمة جاءَ، وكلمة عادَ تكمن المشكلة، بل المشكلة الكبيرة، وتبقى أمور الأفراد والمجموعات الصغيرة يسيرة في الذوبان بالمجتمع الجديد أو القديم أو الانتقالي ما بينهما.

ولكن المشكلة تكمن في الهجرات العامة وهذا ما سنتناوله في بند 3.

3- الهجرات العامة: ويمكن العودة إلى الهجرات القادمة من جزيرة العرب، ومن بقي سالماً من عاد قوم هود، وثمود قوم صالح وأهل اليمن الهاربين من انهيار سدّ مأرب، وما قبل ذلك وما بعده، وزمن الفتوحات الإسلامية الأولى، وما بعدها، حيث استقرت القبائل وتوطنت في سائر أنحاء الوطن العربي في آسيا وإفريقيا، وكان للقبائل الأردنية نصيب من هذا كله.

وإن الدارس للقبائل الأردنية القديمة، يجد أكثرها من أصول يمنية استقرت بالأردن، وبقيت علاقاتها باليمن عاطفية وتاريخية ليس إلا، ولكنها أحبت الأردن، واستقرت به وعمّرته، واعتزت به، ودافعت عنه، وتباهت بترابه واسمه وهوائه وطبيعته، وأصبحت هويتها أردنية، وثقافتها أردنية عربية، ثم إسلامية بعد انتشار نور الإسلام على هذه الديار، وأصبحت العلاقة باليمن جزءاً من التاريخ والإسلام والعروبة والمشاعر ليس إلا.

وقد نشأت خلافات قبلية، وحروب طاحنة بين القيسية واليمنية في زمن الدولة الأموية، بقيت موجودة كجذوة من نار في رماد حتى تأججت في القرون 17، 18، 19، حيث نجد الحلف اليمني المتمثل في بني صخر، وعباد، وبني حميدة، وبني عجرمة، وبني عقبة، مقابل حلف القيسية بزعامة العدوان، والمتمثل في تحالفات عشائر البلقاوية الآخرين، وبني حسن.

وقد تعرض الأردن في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى موجات عامة قادمة من سوريا (شوام / والقوقاز)، حيث استقروا في وسط وشمال الأردن بحماية من الدولة التركية ورعاية منها، ولا زال أحفادهم إلى الآن، ثم تعرض الأردن أيضاً إلى هجرات عامة فلسطينية عام 1948 (اللاجئون)، 1967 (النازحون)، 1991 (القادمون من الكويت). حيث اختلفت هذه الموجات عن سائر الموجات الأخرى، لتميزها بكثرة العدد، ولأن القادمين يحملون ثقافة

وهوية تربطهم ألا وهي الثقافة والهوية الفلسطينية، اضطرتهم الظروف السياسية إلى تبني هوية وثقافة أخرى هي الأردنية، والتي تم استيعابها (أي الثقافة الأردنية) بنسبة لا بأس بها من قِبَل أجيال الفلسطينيين الجديدة ببطء وحذر شديدين.

وحيث أن المجتمع الأردني يعتبر من أقوى المجتمعات في العالم، فإنه يستوعب الأفراد والمجموعات، أما هجرة شعب كامل، فإنه يتعذر تذويب ثقافته إلا بعد مرور أجيال متعددة، وضمن خطة رسمية لتحقيق هذا الغرض. ومهما تقمص هوية الأردن وثقافته، فإنه لا يمكن لعاقل أن يقطع هؤلاء عن هويتهم وثقافتهم وتاريخهم وجذورهم الفلسطينية والتي تحولت إلى نمط من المشاعر ظاهراً، لكنها تتجذر وتزداد في حقيقتها يوماً بعد يوم، لأنها تتعلق أيضاً، بقضية حيّة تزداد حياة مع الأيام.

ومن الأسباب – وهي عديدة – أن هناك قضية فلسطينية، وأنه من العيب الديني والتاريخي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي أن يتخلى الفلسطيني عن حق العودة والتحرير والهوية الفلسطينية، بل إن من يتخلى عن هذه الثوابت سيُنظر إليه العقلاء والوطنيون أنه خائن. من هنا نجد أن الارتباط بفلسطين لا زال موجوداً، ويتجذر وينمو ويزداد يوماً بعد يوم، رغم المحاولات الرسمية بما يغاير ذلك، حتى ولو بدا الخيط متقطعاً كما نراه في الشكل أ ، وأن هذا التقطيع والضعف هو لأسباب سياسية ومنفعية وحياتية أدت إلى ذلك، وولّدت أسباباً أخرى انتهت بالأمر إلى ما هو عليه الآن.

ولا يقتصر هذا التداخل على المناحي البشرية، بل يتعداه إلى المناحي الجغرافية، وهو ما نراه في الخلط الكبير لدى الرحالة والجغرافيين المسلمين، ولدى الساسة والمؤرخين والكُتّاب. فمن المعروف أن حدود أي بلد يتمدد أو يتقص حسب الفترات التاريخية والأهمية السياسية، وموقع العاصمة، ونوع الحكم،

وطبيعة السلام أو الحرب أو الظروف العامة والسيطرة، وقوة أو ضعف الشعب، أو الدولة أو الإدارة وتوفر إمكانات التمدد أو التقلص، مثلما هو الحال عند فرض الأحكام العرفية في بلد ما، أو تعرضه لحروب أو كوارث طبيعية أو ما إلى ذلك حيث تتغير التقسيمة المتعارف عليها قانونياً وإدارياً وكل شيء.

وفي الأردن نجده أكثر البلدان الذي يتعرض أرضاً وشعباً وكياناً وطنياً للقضم والهضم والظلم والحقوق المنقوصة. حيث نجد التداخل الجغرافي من جميع الجهات، بحيث تتم تبعية المنطقة المعينة من الأردن، لأقرب مركز للإدارة في البلدان المجاورة. فمثلاً أصبحت حوران لواءً ومركزه درعا، وأصبح جزءاً من سوريا في زمن الاحتلال التركي، وأصبحت أريحا وبيسان وطبريا والحولة والغور الغربي جزءاً من فلسطين منذ رسمت خارطة فلسطين عام 1897 في مؤتمر بال في سويسرا، حيث جرى احتلالها عام 1948، 1967، لتصبح جزءاً من إسرائيل، والمناطق المحتلة.

ليس هذا فحسب، بل أصبحت معان والعقبة وحسمى والديسة ورم والمدورة جزءاً من الإدارة الحجازية لبضع سنوات حتى عام 1924، مما وضع في خلد البعض جهلاً أو خبثاً أن هذه المناطق لم تصبح أردنية إلا في عام 1924، رغم أنها جزء من الأردن منذ زمن سيدنا موسى ﷺ، كما هو ظاهر في التوراة – العهد القديم. وتداخل آخر في وادي السرحان والجوف، على نفس الشاكلة حيث أصبحت الآن جزءاً من السعودية منذ عام 1922.

ولسنا أصحاب مطامع، ولا أهداف توسعية، ولا نريد إعادة الفرع إلى الأصل، وإنما نبيّن هنا أن هذا التداخل الجغرافي والسكاني قد أدى إلى تشويش كبير لدى الساسة والمؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين حيث يقولون مثلاً أن بلاد الشراة وجبال (أي الطفيلة) والعقبة (إيلة) كانت في فترة من الفترات

من فلسطين بالعمل – أي أنها تابعة إدارياً إلى فلسطين، مثلما أصبحت الضفة الفلسطينية عام 1950 – 1967 تابعة للأردن إدارياً (بالعمل)؛ رغم أنها فلسطينياً فلسطينية وليست أردنية، إلا أن ذلك لا ينفي عنها هويتها الفلسطينية، مثلما لا تنفي تبعية الشمال إلى نابلس أو الجنوب إلى الخليل لفترة قصيرة، أقول لا ينفي عن الأرض أردنيّتها وهويتها الأردنية. فالإدارة تتقلص أو تتمدد بقرار، ولكن الأرض لا ترحل والكيان الوطني يبقى ثابتاً بثبات الأرض.

وقد أدى هذا التشويش إلى القول أن ابل الزيت (الطفيلة) في فلسطين وأن السلط جزء من نابلس، وهذا لا يتفق مع التاريخ والجغرافية والاجتماع والحقيقة والواقع. كما أن الإنصاف والموضوعية تقتضي من الباحث أو الدارس الا يحكم على منطقة من خلال فترة عارضة أو سنوات أصبحت فيه منطقة ما، تابعة لمنطقة أخرى، لأن ذلك مرتبط، كما قلنا، بالظروف السياسية والإدارية. كما لا يتفق مع المنهج العلمي والموضوعية أن نعتبر هجرة مجموعة سكانية إلى الأردن من بلدان مجاورة أو بعيدة، أنه يخلو من أهله، أو أنه وطن هؤلاء الوافدين. أو أنه كان وطناً بلا شعب أو أنه وطن للوحوش والحيوانات الضالة كما يدّعي بعض الغرباء. وليس من حق هؤلاء أيضاً أن يقولوا أنهم هم وحدهم الذين عمّروا الأردن، لأن للأردن أهله الذين بنوه وعمّروه وحَمَوْهُ عبر حقب التاريخ الوثنية والجاهلية والإسلامية والمعاصرة بأهم مقومات البناء والبقاء، وهي الأمن والحماية والروح والجسد والسواعد.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإن الوافدين إلى الأردن من غير الأردنيين اصلاً، أقول أن الطيور المهاجرة، أفراداً وجماعات وعائلات ومجموعات وفئات جاءوا إلى الأردن فقراء وربما حفاة عراة جياع، فصارت لهم ثروات وهوية وكيان وغنى ورغد عيش من الأردن وشرعيته وترابه وشعبه، فنحن والأردن نعطي ولا نأخذ، ولا يستطيع وافد أو طير مهاجر أن يمنّ علينا بشيء.

ويقودنا التداخل الإداري والبشري إلى الشدّ والجذب أيضاً، بين المناطق والسكان، والسياسة، ويقودنا أيضاً إلى أن كل فئة من المناطق المجاورة تعتقد أن الأردن تبعاً لها جغرافيا أو سكانياً، لمجرد وجود التداخل السكاني. ولكن التاريخ أثبت دائماً على طول مداه أن الأردن صمد أمام هذه الآراء والأفكار التي بقيت متداولة على أرضه منذ أعماق التاريخ، حيث أن مثل هذه الادعاءات ليست وليدة اليوم أو العصر الحاضر؛ بل كانت منذ دخول بني إسرائيل إلى وطننا قبل آلاف السنين.

لقد ادعاه الفرس بسبب احتلالهم له، وادعاه اليونان بسبب إنشاء المدن العشرة وتحويلها إلى مستوطنات يونانية انتهت مع الزمن، وكذلك الرومان الذين وطّدوا المستوطنات اليونانية وبنوا المدن والمدرّجات، وانتهت وتلاشت هذه بالفتح الإسلامي والتحرير العربي الإسلامي للأردن، فما كان من هرقل إلا وأحسّ بلحظة الحقيقة فقال كلمته المشهورة والمسلمون على ضفاف اليرموك: سلام عليك يا سوريا، سلام لا لقاء بعده، وكذلك كان.

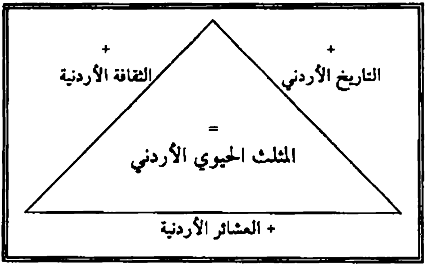
واعتقد الصليبيون أن الأردن لهم، وأشادوا القلاع، وأسسوا الممالك (كيانات سياسية) سادت ثم بادت في قمامة التاريخ. وكانت النتيجة ذهابهم واندحارهم إلى غير رجعة، وكذلك كان أمر الأتراك أيضاً، وكذلك أمر غيرهم من السابقين واللاحقين، وأمر ما سيكون في قابل الحقب (مفردها حقبة).

ولا ننسى أن الكرك كانت مركز المملكة التي تبعتها مصر أيضاً، ولكن مصر لم تكن كركية ولن تكون، وكانت مملكة الأنباط تشمل دمشق وسيناء وجنوب فلسطين، ولكن هذه المناطق ما كانت ولن تكون أردنية (نبطية)، وإذا صدّقنا ما ذكرته التوراة أن الكفتاريين العرب الأردنيين كانوا يسيطرون على جنوب الأردن ويتخذونه مركزهم وديارهم وتتبعهم جنوب فلسطين، فإن ذلك

لم يجعل جنوب فلسطين أردنية إطلاقاً. إذن لم يكن هذا إلا نمطاً من التداخل الجغرافي والبشري والسياسي والإداري وسيادة الكيانات السياسية وتمدّدها أو تقلّصها، وتبقى الأرض لاسمها وأهلها، وتبقى الأردن وطناً أردنياً لأهله.

من الواضح إذن أن التداخل الإداري والبشري والسياسي والكيانات السياسية لم يكن من الدول المجاورة إلى الأردن فحسب، بل ومن الأردن في تداخلها مع الدول المجاورة أيضاً، حيث تعاقبت التبعية الإدارية والسياسية والتداخل السكاني عبر العصور لفترات قصيرة أو طويلة، إلا أن ذلك أمر طبيعي في حركة التاريخ، واستغرب لماذا يرى بعض الكُتّاب التداخل إلى الأردن، ولا يرون تداخل الأردن في المناطق المجاورة؟! ولكن بقي كل بلد على حاله وسيبقى كذلك.

3- المثلث الحيوي: لابد من التنويه هنا، إلى أن الرحالة والجغرافيين المسلمين، عندما كتبوا عن الأردن، لم تكن الأردن حينها وحدة سياسية مستقلة بالمفهوم الدارج في عصرنا هذا، بل إن كثيراً من البقاع العربية والإسلامية، كان عبارة عن بلدان ووحدات إدارية، أو إمارات لا ترتبط بالحدود الجغرافية، وتتذبذب معها الحدود السياسية بين شدّ وجذب، وتقلّص وتمدد حسب قوة الإدارة أو الكيان السياسي في كل الربوع، وقد تدوم قصيراً أو طويلاً، لكنها تنتهي في آخر المطاف.



ونحن نعرف أن العباسيين أهملوا الأردن إدارياً وسياسياً وعمرانياً وسكانياً خشية أن تظهر فيه دعوة ضدهم كدعوتهم ضد بني أمية، كما أن أهل الأردن كانوا عماد دولة بني أمية وحماتها الحقيقيون فَجَرَّت بذلك نقمة بني العباس منهم، فألغي مفهوم جند الأردن الذي كان سائداً زمن الأمويين، وأصبحت أرضاً أو بلاداً أو ديرة (سمّها ما شئت) تابعة لمركز الولاية في دمشق، باسم ولاية الشام، وليس لها أية صفة إدارية أو عنوان إداري أو سياسي.

وبناءً عليه، فإن مجريات حديث الرحالة هو وصف للأماكن والقرى والبلدات والمدن، ومدى العمران أو غيابه، والأسواق أو نضوبها، والمسالك للمسافرين وطرق الحج، والجيوش. بل إن العباسيين قمعوا ثورة الفدين بعنف لا مثيل له، لأنهم لا يريدون لأحد أن تقوم له قائمة بالأردن ضدّهم، لأنهم محكومون بهاجس وكابوس دعوتهم وثورتهم ضد بني أمية، ومحكومون بهاجس أن التاريخ أول ما يتغير على أرض الأردن، وأن من يقف الأردن معه فهو في الخير والسلامة، ومن يقف الأردن ضدّه، فإنه آيلٌ إلى الزوال أو السقوط.

كانت ثقافة البلدان كلها ثقافة عربية إسلامية، وهويتهم عربية إسلامية، وتاريخهم عربي إسلامي. إذن كان عمودان من المثلث الحيوي وهما التاريخ والثقافة موحّدة مع سائر البلدان والشعوب في أقطار الدول العربية والإسلامية، أو الدويلات العربية والإسلامية إن شئت.

أما الهوية العشائرية، هي العمود الثالث للمثلث، فقد بدأت العناية بها عند الحاجة الملحة إليها في زمن الفتح الإسلامي المبكر والدولة الأموية حيث نجد استفاضة في الحديث عن عشائر الأردن، وهم عرب، وأن هناك خليط من العجم في بعض المدن والبلدات من مخلفات الرومان واليونان والفرس.

وفي العصر العباسي تم التسلّط على القبائل الأردنية، وبالذات وتحديداً على جذام وبني كلب باعتبارهما أكثر القبائل الأردنية قرباً من الأسرة الأموية، ودعماً لها. وقد شرحنا ذلك في كتبنا عن العشائر، ومن أراد التفصيل يعود إليها. وإن عدم الإشارة إليها زمن العباسيين لا يعني اندثارها، وإنما إهمالها، تعبيراً وتنفيذاً للموقف السياسي الحاقد عليها.

وفي العصور: الأيوبي، والمملوكي، والتركي، نجد اهتماماً بذكر العشائر الأردنية ودورها ومهماتها في حفظ الأمن وطريق الحاج والتجارة، وتزويد الجيوش بالميرة والخيول ومختلف الركائب، فضلاً عن الجنود للقتال والجهاد وحماية الدولة.

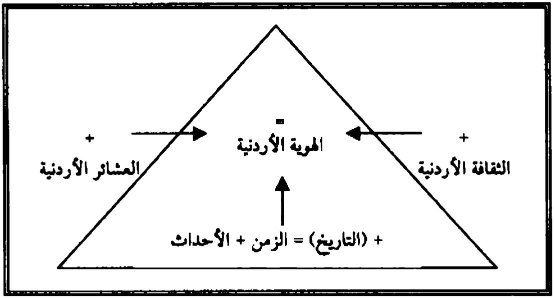
من هنا فإن الباحث عن الضلع الثالث للمثلث وهو العشائر الأردنية يجده بسهولة في بطون الكتب. ولكن المثلث الحيوي برز بشكل قوي وواضح في مطلع القرن العشرين، ولم يكن هو أو أي من مكونات أضلاعه أمراً طارئاً على الأردن. وعندما برز كان قوياً وراسخاً، لأنه نتاجٌ لعمق تاريخي وثقافة هامة، تبلورت عبر القرون والأجيال كجزء من الثقافة العربية والإسلامية والأردنية الوطنية.

ونتيجة لهذا التداخل في النقطة السابقة، ونتيجة لاستمرار العشائر الأردنية في الأرض الأردنية على مدى آلاف السنين، ونتيجة لتحركاتها في جميع الاتجاهات واكتسابها إيجابيات الثقافات العربية الاجتماعية الأخرى التي عادت بها إلى الأردن، نجد أن الثقافة الأردنية أكثر الثقافات العربية نقاءً وصفاءً، وأقربها إلى العروبة والإسلام، وأكثرها مشاعر قومية وإسلامية، لأن الأردنيين يمثلون الصفوة والأنفة العربية ونقاء العقيدة الإسلامية لدى الشعوب العربية.

وبناءً عليه نجد اللهجة الأردنية أكثر اللهجات العربية قرباً إلى الفصحى، وأكثرها فهماً لدى سائر الناطقين بالعربية مهما تعددت لهجاتهم وما تعودته

آذانهم من وقع الكلام ومخارج الحروف. كما أن الأردنيين أكثر الشعوب العربية قدرة على فهم سائر اللهجات العربية، وقدرة على تقليد هذه اللهجات.

أما المثلث الحيوي فهو حسب الشكل التالي: التاريخ + العشائر الأردنية + الثقافة الأردنية = الهوية الأردنية.



فالتاريخ الأردني مزيج من التمرد الذي آلت الأقوام الكافرة فيه إلى العقوبة القاسية كما شرحنا سابقاً، ومزيج من الإيمان كما هو ظاهر بوجود الأنبياء والأولياء، حيث أن وجودهم عبر البلاد يزيدها نقاء وطهارة وقدسية ومهابة. أما في التاريخ المعاصر فإن الأردنيين كانوا السند الصادق، رغم فقرهم، لكل قضية عربية أو إسلامية دونما مِنّة أو تَمَنُّن على أحد من الذين أحسن الأردنيون إليهم. ومع هذا يعاني الأردنيون من المِنّة الوهمية التي تدّعيها ظلماً أطراف وجهات كثيرة.

التاريخ يحكي لنا أن أحداثه جرت على أرض الأردن، حيث وقعت المعارك الفاصلة الحامية الوطيس، وتقررت مصائر الدول وقوى الاحتلال، وأصحاب المطامع، وأنه تاريخ مُرّ كمرارة الحنظل واللوز البري المرّ وماء البحر الميت، من

جانب، وحلو من جانب آخر كحلاوة ماء الديسة والعسل البلدي والبري المذكور في الإنجيل، وهو حار كحرارة الأغوار في تموز وآب، وبارد في جانب آخر كبرودة النقب ومرتفعات عجلون في شهري كانون الأول وكانون الثاني.

أما العشائر الأردنية، فهي ابنة هذه التربة، وصاحبتها، ووليدتها المُحِبَّة لها، المدافعة عنها، وقد تفرقت في البلاد تحمل راية الفتح الإسلامي، وكان لها دورها في تعريب مصر وشمال إفريقيا والأندلس، والشام مع العديد من عناصر جيش الفاتحين العرب المسلمين من أهل اليمن والحجاز ونجد. وقد تلاحقت موجات العشائر اليمنية إلى الأردن، وامتزجت في كل مرة بمن سبقها من العشائر اليمنية الأردنية. والعشائر الأردنية تعتز بتاريخها الأردني، وبجذورها اليمنية، لأن اليمن هي المستودع الذي زوّد الأردن والبلدان العربية الأخرى بالعرب والعروبة عبر حقب التاريخ القديم.

أما الثقافة فإن بلاد الأردن كانت عربية منذ زمن العويّين والكفتاريّن قبل مجيء بني إسرائيل لهذه الديار لأنها محطة استراحة العرب الذين جاءوا من جزيرة العرب، فأحبوها وعشقوها، وأضافوا موروثات ثقافية إلى مخزون ما لدى الأردنيين الذين سبقوهم. وإذا كان المجتمع الأردني يصنّف أنه من المجتمعات القوية، فإن الأردن أيضاً يصنّف أنه من البلدان القوية في جذب الناس إليها، وقد أصبحت هذه الثقافة إسلامية عربية أردنية.

أمام هذا الموروث الثقافي والتاريخ والعشائر، وكمحصلة لتفاعلها جميعاً تشكلت الهوية الأردنية التي لم تكن في كتب الرحالة والجغرافيين كهوية، وإن وجدنا نمطاً أو نتفاً من الإشارات إلى الثقافة والعشائر. أما عن التاريخ فهم يتحدثون الكثير.

ولابد هنا من الإشارة إلى الهوية الأردنية لدى الأنباط، وأدوم، ومؤاب، وعمون، وباشان وحشبون، حيث أن لهم لغتهم العربية وثقافتهم العربية الأردنية وحضارتهم الخاصة بهم، التي قدمت لهم مهمات وخدمات جعلت لهم مكاناً بين الأمم من حولهم، وفي التاريخ الذي نقرأه الآن.

ومن الثقافة المتوارثة في الجاهلية والإسلام، في زمن الوثنية والجاهلية، وزمن التوحيد، أن الأردنيين، ومهما بلغ بهم مبلغ العداء والخصومات، نجدهم يتوحدون عندما يتعرضون لخطر خارجي، حدث هذا زمن الممالك القديمة، وحدث زمن العشائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، في الحروب القبلية والداخلية، وضد غزوات عنزة والرولة، والوهابيّين، وفي أحداث السبعين من القرن العشرين وما بعدها.

4- البقاء للأقوى والأفضل: إن المؤرخ والباحث المنصف لابد ويعترف أن الأردن بلد صعب، ورقم صعب وأهله أيضاً شعب سهل ممتنع، ولا يعيش في الأردن إلا القوي، بسبب صعوبة وصلابة أرضه وأهله، ليس هذا فحسب، بل إن أي احتلال للأردن عبر التاريخ بغير رغبة الأردنيين كان في منتهى البشاعة، بل إن الأردنيين نظروا إليه أنه قبيح المنظر كالح الوجه بشع جداً، مهما كان مصدره وهويته وشكله.

وكان الغزاة يخافون الأردن والأردنيين لأنهم مجاورون للصحراء، ولهم (أي الأردنيون) عمق وتداخل جغرافي وبشري مع الأقطار المجاورة كما قلنا، وبالتالي ليس غريباً أن يتظاهر الأردني أنه يحمل هوية ذلك الجزء الذي تم التداخل معه، ما دام هذا الادعاء يخدم مصلحة الأردني، ويضمن بقاءه واستمراره. وقد شرحنا ذلك مطوّلاً ومفصلاً في كتابنا بالإنجليزية Political History of the Jordanian Tribes (up to 2006).

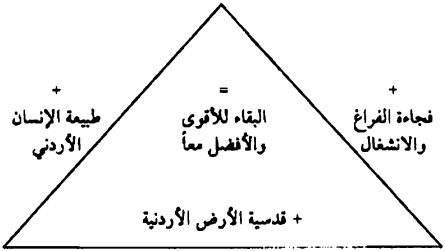
وقد كانت خشية الأردنيين من الاغتصاب والانتهاب، ومعاناتهم من القتل الجماعي الذي مارسه بنو إسرائيل ضدهم، كما تنص التوراة، وما قام به الرومان عام 106 م كما تنص كتب التاريخ، قد زاد من خوفهم من كل محتل، فقاوموه بكل حيلة وإمكانية ووسيلة، حتى إذا أعياهم ذلك تحركوا إلى ديار أخرى، وربما غيّروا الأسماء وهوية التعارف السطحية طمعاً في الحياة والبقاء، وهروباً من الذبح والانتقام والفناء.

ولابد من القول هنا، أنه كانت تطلع على الأردن موجات من النهب بين الحين والآخر، قادمة من الصحراء، على شكل غزوات تنهب وتقتل وتدمّر، كان آخرها غزوات الوهابيين الثلاثة في مطلع العشرينات من القرن العشرين. إذن نجد الأردن جذاباً لمطامع المحتلين (الدول والجيوش) والنهّابين (القبائل والغزوات)، ملاذاً آمناً للهاربين، كساءً للحفاة العراة، غذاء للجياع، ماء للعطشى، مما يجعل أهله أقوياء أشداء ليكون بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم وهويتهم وثقافتهم وحماية الوافد عليهم، إلى درجة أن معنى الأردن في اللغة هو: الشدة والغلبة. سواء أكانت هذه الشدة والغلبة منهم أو عليهم، على المحتلين والغزاة أم منهم، مع الأردنيين أو عليهم، فقد يكون ذلك كذلك من كل الأطراف وفي كل الاتجاهات.

وبناءً عليه فإن البقاء بالأردن، لا يكون إلا للأقوى بالدين والدنيا، بالإرادة والقيادة، بتحمل المتاعب وتجاوز المصاعب، والبقاء للأفضل، أي لمن يكون قادراً على تحقيق ذلك، وأما من ليس بمقدوره، فإن مآله الزوال والاندثار، حاكماً كان أم محكوماً، فرداً كان أم جماعة أم شعباً. وفي الأردن لا بقاء إلا للأقوى والأفضل معاً، وأن الأقوى وحدها لا تكفي وأن الأفضل وحدها لا تكفي، وفي الأرض الأردنية تبلورت مقولة بنت سيدنا شعيب في وصفها لموسى

ﷺ . « إن خير من استأجرت القوي الأمين »، أي أن عنصر القوة والأمانة (حيث أن كلمة الأفضل متطابقة مع الأمانة في كثير من الحالات) أقول : لابد من توفر هذين العنصرين فيمن يريد البقاء والاستمرار والاستقرار بالأردن. ومن خلال هذا المثلث يتضح ما قلناه وما سنقوله:

أما قدسية الأرض، فقد سبق وشرحناها، وكيف أن ارتكاب المعاصي فوقها يستوجب عقوبة مضاعفة عما يمكن أن يترتب على الجرم لنفس الجريمة فوق أرض أخرى في هذا الكون.



قدسية الأرض الأردنية + طبيعة الإنسان الأردني + فجاءة الفراغ والانشغال = البقاء للأقوى والأفضل معاً

وأما طبيعة الشعب الأردني فإنها تتواءم مع هذه الصعوبات، وتتكيف معها من أجل الاستمرار والبقاء، وقد شرحنا ذلك.

أما فجأة الفراغ والانشغال، أن الشعب الأردني (وهنا أقصد العشائر الأردنية) كانوا يتحركون هرباً من المحتل، فإذا بالأرض كلها فراغ أمام المحتل، حتى إذا ما وهنت قناة المحتل، وركن إلى الدّعة والراحة، أو بدأ يتآكل من الداخل انقضت عليه العشائر فجأة لتملأ الفراغ الذي تركته من قبل، وتوجِد فراغاً جديداً لدى المحتل، وفقدان التوازن، وتخبّطه، وهو لا يدري ماذا يفعل.

وقد تميز الأردنيون باتباع تكتيك حرب العصابات العشائرية عبر التاريخ القديم والحديث، وهو اضْرِبْ واهرب، اظْهَرْ واختفي، وسرعة الانسحاب والقدرة على المهادنة، وتغيير الأسماء والغطاء العشائري والدخول من هذه العشيرة أو الدخول في تلك، والتمويه الأرضي بسبب التداخل الجغرافي الذي قلناه، فيدعي الأردني أنه من الجزيرة أو مصر أو فلسطين أو سوريا، لكي يسلم بروحه وعرضه وماله وحلاله، وينتظر الفرصة للانتقام مهما طال الزمن (!؟!).

إن فجأة الفراغ والأشغال تكتيك عسكري يناسب طبيعة الأردن وأهله، حيث الصحراء، وحيث الجبال الوعرة، وحيث التداخل الجغرافي والسكاني، وسرعة الادعاء أن هذه الأرض وأهلها ليست من الأردن، وإنما جزء من هذه البلد أو تلك، طمعاً في البقاء والحياة، وهروباً من الموت والفناء، وسرعة الادعاء أن هذه الأرض فارغة من الناس وبالتالي لا تستحق عناء الاحتلال.

مثل هذه المميزات الخفية جلبت الرحالة والجغرافيين المسلمين، حتى في ذروة الإهمال العباسي لبلادنا. وأبقت الأردن في دائرة الضوء والكتابة، والأحداث التاريخية الهامة. فهو بلد ليس ككل البلدان، وشعب ليس ككل الشعوب، يتبادر للحاقدين والجاهلين والمثبورين ومثلث الغم أنه لا يوجد أردن ولا شعب أردني، ويتوهم أعضاء مثلث الغم أنهم بنوا الأردن، أو أن الأردن هو ما بنوه وأوجدوه، وأنه ما سوى ذلك لا يوجد أردن ولا شعب أردني. ويرى في نظرياتنا المدعّمة بالحقائق التاريخية أنها ضرب من الهراء والجنون والإقليمية ولا ينظر إلى حاله أنه (.....) على الأردن (!؟).

5- مثلث الاهتمام الروحي: من خلال القراءة الشمولية لنصوص القرآن الكريم، ونصوص التوراة والإنجيل، نجد أن الأردن حظي بالذكر فيها جميعاً، وأنه أرض مباركة مقدسة لدى الديانات الثلاثة، وأن سيدنا موسى تلقى فيها

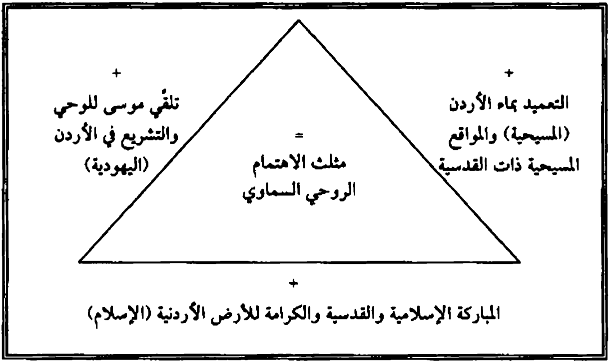
كثيراً من التشريعات ونزل عليه الوحي في أكثر من مكان أردني ومناسبة، مما جعل الأردن أرضاً مقدسة بالنسبة لليهود.

أما لدى النصارى فالأردن أرض مقدسة أيضاً، حيث جرى فيها تعميد سيدنا عيسى ﷺ ، وحيث عاش السيد المسيح قسطاً من حياته هرباً بروحه من مؤامرات اليهود في فلسطين. وحيث عاش وقتل سيدنا يحيى بن زكريا وعاش لقمان وأيوب واليسع وإلياس عليهم الصلاة والسلام جميعاً، وكلهم بالنسبة للمسلمين أنبياء وهم أيضاً موضع التبجيل لدى النصارى.

ولابد من العودة إلى أهمية الأردن الروحية في العصور والأقوام الوثنية، حيث تحدّث القرآن الكريم عن بلعام الذي تنصّل من عقيدته وإيمانه دفاعاً عن الأردن، وحيث نجد أماكن مقدسة لدى الأدوميين والأنباط، والمؤابيين (إذ ذكرتها التوراة بالتفاصيل)، والعمونيين والباشانيين. كما ذكرت كتب التاريخ العربي ما قام به عمرو بن لحي سيد قريش ومكة المكرمة من استيراد الأصنام من الأردن إلى مكة لغايات استخدامها للاستمطار والنصر.

نجد أيضاً رحلة الإيلاف، والتي أشارت في مراحلها الأخيرة إلى سفر سيدنا محمد ﷺ وهو صبي، ثم وهو شاب، حيث استظل وهو طفل تحت شجرة في مناطق الصفاوي، لا زالت هذه الشجرة قائمة حتى اليوم كبرهان ناصع على نبوة سيدنا محمد ﷺ وأنه مبارك، وعلى أن الأردن أيضاً أرض مباركة في صحرائه وبيدائه، في جباله ووديانه في غوره ونجده، في مائه وخضرائه في قفره وخصبه.

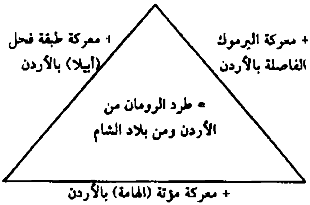
وبذلك نجد أن الاهتمام الإسلامي + الاهتمام المسيحي + الاهتمام اليهودي = مثلث الاهتمام الروحي.



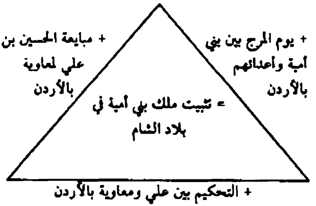
وبالتالي فإن اتباع الديانات الثلاثة يهتمون بالأردن. وإذا كنا نضع هذا الكتاب حول اهتمام الرحالة والجغرافيين المسلمين بالأردن، فإنني قد ترجمت العديد من الكتب عن الإنجليزية تبين اهتمام الرحالة النصارى واليهود بالأردن أيضاً.

6- المثلثات المتعاقبة: هناك أحداث تاريخية في كل عصر، اتخذت من الأردن ساحة لها، مما جلب انتباه الرحالة والجغرافيين المسلمين إليها، وذلك على النحو التالي:

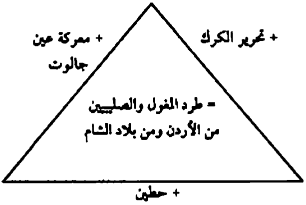
شكل (1)



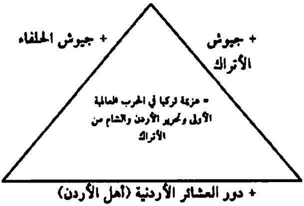
شكل (2)



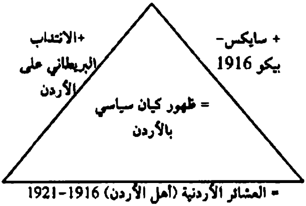
شكل (3)



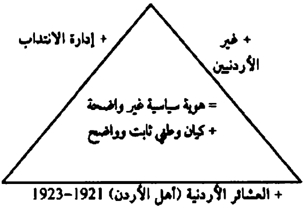
شكل (4)



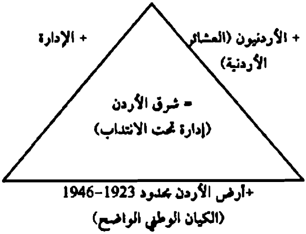
شكل (5)



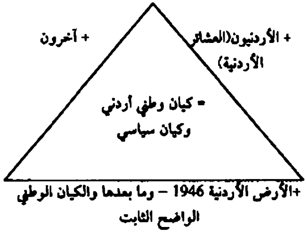
شكل (6)



شكل (7)



شكل (8)



وبذلك نجد أن الأرض الأردنية والعشائر الأردنية موجودة في سائر المعادلات والمثلثات لتشكل الكيان الوطني المستمر. أما الكيان السياسي فقد تباينت عناوينه عبر التاريخ. وبذلك نجد أن العشائر الأردنية رقم صعب، مثلما هي أرض الأردن رقم صعب.

هذه الأحداث عبر التاريخ استقطبت اهتمام المؤرخين والكُتّاب، وبالتالي ليس عجيباً أن يحظى الأردن بهذا الزخم من الاهتمام الكبير. وهي تتحدث عن نفسها، ولا داعي لمزيد من الشرح الذي نجده في كتبنا عن العشائر وعن تاريخ الأردن.

7- وجود مراقد وأضرحة الصحابة الكرام والأنبياء والأولياء، الأمر الذي زاد من بركة وقدسية وكرامة وحرمة هذه الأرض، واستقطب الرحالة والجغرافيين، وأوجد ثقافة أردنية خاصة بذلك في المجتمعات المحلية داخل الأردن، حيال هذه المواقع والكرام الذين يرقدون فيها، حيث يحتاج ذلك إلى تفاصيل مطولة ليس هذا مكانها.

ونذكر هنا هؤلاء الأنبياء والصحابة والأولياء ومقاماتهم بشكل مقتضب، لإلقاء الضوء على هذه الكنوز الروحية المباركة التي تحتويها الأردن، حيث نجد قبر سيدنا نوح ﷺ في الكرك ويقال أنه مدفون هناك وهو ما نرجّحه، في منطقة تسمى باسمه إلى الغرب من المدينة القديمة، وبمحاذاة الطريق المؤدية إلى غور الصافي. ويعتقد العامة فيما توارثوه عبر التاريخ والأجيال أنه مدفون هناك، والأمر نفسه ينطبق على مقام لسيدنا هود قرب جرش، ونحن نرجّح أنه قبره أيضاً وليس مجرد مقام له؛ أما سيدنا لوط فقد تم اكتشاف كهفه في منطقة غور الصافي في السفح الغربي للجبل الشرقي، وقد زرته عام 1999، حيث تم ترميمه وترتيب مداخله من قبل وزارة السياحة، ويتم الصعود عليه عبر درج بنته الوزارة المذكورة.

أما الخضر فله عدة مقامات بالأردن، مما يزيد من أهمية وقدسية هذه البلاد، ذلك أنه العبد الصالح في الإسلام والنصرانية، وله مقامات في ماحص والسلط، والكرك وعجلون، وبيت (راس)، أي في الجنوب والوسط والشمال.

ونجد ضريح سيدنا شعيب النبي العربي الجذامي الأردني / خطيب الأنبياء، حيث أنه مدفون في وادي شعيب (الأيكة) إلى الغرب من مدينة السلط، قرب الطريق المؤدي إلى الغور فوق سرج من الأرض في إبط الجبل. وقد بُني على ضريحه مسجد ضمن إعمار مقامات الأولياء والصحابة الأطهار من قِبَل الأردن.

وللنبي هارون ضريح فوق جبل البتراء مهم لدى المسلمين واليهود كليهما. وتقول الروايات أن نبو هو المكان الذي وقف عليه سيدنا موسى وأنه توفي ودُفن هناك، دون أن يعرف مكان قبره، ومثل هذه الرواية تحتاج لمزيد من البحث والاستقصاء. أما النبي يوشع فضريحه قرب مدينة السلط (باتجاه شمال غرب) في موقع يسمى باسم طف أوشع، وهناك مقام للنبي داود في المزار الشمالي في محافظة إربد. أما النبي سليمان فمقامه في قرية صرف في شمل الأردن أيضاً.

وهناك مقام لسيدنا أيوب النبي العربي الأدومي الأردني في قرية بطنا جنوب غرب السلط، وأنا أرى أنه مدفون في الطفيلة حيث نزل هناك زمن الأدوميين، في العيص المُطِلّة على الطفيلة (والله أعلم). أما النبي يحيى فإنه قُتل في مكاور / جبل بني حميدة في محافظة مادبا إلى الجنوب الغربي من مادبا. أما سيدنا عيسى عليه السلام فإنه عُمِّد في المغطس في نهر الأردن (الغور الأوسط) وسكن كهفاً يسمى باسمه في أم قيس في شمال الأردن.

ثم نأتي إلى سيدنا محمد ﷺ ، المبعوث رحمةً للعالمين، فإن له بصماته بالأردن حيث موقع لقائه بالراهب نسطور في منطقة الحرّة (أي البقيعاوية في

الصفاوي)، والتقى في ميفعة (أم الرصاص) بالراهب بحيرة من قبل، وهناك من يرى أنه التقاهم جميعاً في ميفعة (أم الرصاص) ولكن وجود الشجرة التي استظل بها سيدنا محمد ﷺ تقطع الشك باليقين أنه جلس تحتها حيث عمرها الآن 1500 سنة، وهذا لا يمنع أن تكون واقعة الاستظلال بها منفصلة عن واقعة لقائه بالراهبين بحيرة ونسطور، فتكون الشجرة والاستظلال في البقيعاوية بالصفاوي، ويكون اللقاء بالراهبين في ميفعة بأم الرصاص، ولا يتناقض أي منهما مع الآخر.

ولا يقتصر تشرّف الثرى الأردني بمراقد ومقامات الأنبياء الكرام فحسب، بل وإنه مزروع في كل أرجائه بمراقد الصحابة الكرام الذين جاءوا إلى هذه الديار جهاداً في سبيل الله، ولتحريرها من الاحتلال الروماني، وإعادتها بلاداً عربية الهوية والتراب .والثقافة واللون واللسان، متوجة ومكللة بنور الإسلام الحنيف الذي أصبح ثقافة أهل الأردن من مسلمين ونصارى.

ومن آل البيت الكرام سيدنا جعفر بن أبي طالب الشقيق الأكبر لسيدنا علي ﷺ ، وابن عم رسول الله ﷺ ، وأكثر الناس شبهاً بالرسول الكريم خُلُقاً وخَلْقاً، وهو الملقب بجعفر الطيّار لقصته المشهورة؛ وضريحه في المزار جنوب مدينة الكرك. وهو شهيد معركة مؤتة وكان قائداً لجيش المسلمين / قائداً بديلاً بعد استشهاد زيد بن حارثة الكلبي الأردني.

ومن القادة الذين تشرّف الأردن بوجود مراقدهم فيه الصحابي الجليل الشهيد زيد بن حارثة الكلبي القائد الأول لجيش المسلمين في معركة مؤتة وهو حبّ رسول الله ﷺ وهو من بني كلب من جنوب الأردن، وكان أول قائد تعطر ثرى الأردن بدمه الزكي الطاهر. وضريحه الآن في المزار إلى الجنوب من مدينة الكرك على طريق الذاهب إلى الطفيلة.

وأما الشهيد الثالث فهو سيدنا عبدالله بن أبي رواحة وهو شهيد مؤتة، الثالث من قادة جيش المسلمين، وضريحه في المزار الكرك إلى جانب أخوته في الله والشهادة والعقيدة أسيادنا جعفر وزيد بن حارثة.

أما أمين الأمة واحد العشرة المبشرين بالجنة أبو عبيدة عامر بن الجراح فضريحه في قرية عمتا في غور أبي عبيدة في الغور الأوسط بوادي الأردن.

ثم نجد في الغور الشمالي من وادي الأردن ضريح معاذ بن جبل ، في قرية الشيخ معاذ في الشونة الشمالية، كما نجد ضريح شرحبيل بن حسنة في وادي اليابس بوادي الأردن الشمالي.

ونجد أيضاً أضرحة الصحابة الكرام عامر بن أبي وقاص في الغور الشمالي وضرار بن الأزور الكندي الأردني في الغور الأوسط بالقرب من ضريح أبي عبيدة.

وهناك ضريح رسول رسول الله إلى الغساسنة، الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي، ورغم أن الغساسنة من الأزد، وأن هذا الصحابي الجليل يعود إلى القبيلة نفسها، إلا أنهم قتلوه، لأنه بشّرهم بالإسلام، ودعاهم إليه وإلى اعتناقه وطاعة الرسول ﷺ . وضريحه إلى الجنوب من الطفيلة على شرق الطريق القديم المؤدي إلى بصيرا (عاصمة الأدوميين).

أما أبو ذر الغفاري فهو أُمَّةٌ وحْدَهُ ويرقد على روابي ذيبان بالقرب من وادي الموجب إلى الجنوب من ذيبان، وغربي الطريق المؤدي إلى الكرك (وهناك ضريح (أبو الدرداء) حيث يرقد في سوم الشنّاق، وحيث بنيت عليه غرفة صغيرة ذات قبة في مطلع القرن العشرين، وبنتها سيدة فاضلة من عشيرة التل / إربد. وتقع سوم الشناق التي تتشرف بوجود الضريح، إلى الشمال من إربد.

أما ضريح بلال بن رباح ﷺ فهو في قرية بلال المطلة من الغرب على وادي السير، في منطقة بدر الجديدة في قرى العبابيد، حيث يوجد مرقده في غرفة صغيرة تتفيأ ظلال شجرة بلوط معمّرة.

وتتشرف عارضة عباد بوجود ضريح ميسرة بن مسروق العبسي، مرافق الرسول ﷺ في تجارته إلى الشام.

وأما ضريح عكرمة بن أبي جهل ﷺ فهو قرب عجلون، ولا ننسى أن لموسى الأشعري ﷺ مقام في أذرح إلى الشمال من معان وبالقرب منها. وما دمنا في الجنوب فإن ضريح الشهيد أبو فروة بن عمر بن نافرة الجذامي، يوجد في منطقة حمامات عفرا، حيث استشهد قتلاً وصلباً. وقد آمَن برسول الله ﷺ دون أن يلقاه، لذا فهو من أعظم أتباع سيدنا محمد ﷺ ، ولكنه ليس صحابياً، أي لم يصحبه في حياته، ولو فترة قصيرة، لأن الرومان قتلوه قبل أن يقوم بذلك.

الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف ﷺ وضريحه في الجبيهة إلى الشمال من عمان وكذلك نجد ضريح الصحابي الجليل جابر بن عبدالله في الطفيلة، وكان محبوباً من قبل الرسول، وقد سمي من سكن حول المقام بعشائر الجوابرة (وهم طفايلة)، رغم أن غالبيتهم من بني كلب.

ولابد من الإشارة إلى مرقد أهل الكهف في الرقيم أيضاً، كما نجد ضريح زيد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم جميعاً، أقول نجده في منطقة الربة شمال مدينة الكرك وضمن محافظتها.

وهناك أضرحة أنبياء آخرين مثل شيت بن أدم في الطفيلة، وكان نبياً وحاكماً لأخوته، وليس مستبعداً أنه مدفون في الطفيلة، وهناك ضريح النبي جاد فوق تل الجادور بالسلط. وهناك ضريح هازر أو عاشر وهو أحد أبناء إسحاق

ﷺ ، وشقيق سيدنا يوسف ﷺ ولكنه لم يكن نبياً، وقبره في كهف بمدينة السلط. ولابد من الإشارة إلى عيون موسى إلى الغرب من مأدبا، وإلى الشمال من موقع صياغة حيث يعتقد أن سيدنا موسى وقف ورأى فلسطين ومات ودُفن هناك.

وهناك المواقع التاريخية الهامة التي تستقطب الرحالة أيضاً،مثل موقع معركة مؤتة إلى الجنوب من الكرك وبالقرب منها، وموقع معركة فحل في طبقة فحل / أبيلا، وموقع معركة اليرموك إلى الشمال الغربي من إربد. وتلفت العناية إلى جبل التحكيم قرب أذرح المسمى جبل التحكيم Judication ومسجد سيدنا عثمان في أيلة / العقبة، وموقع الحميمة والتي كانت مركز الدعوة العباسية إلى الغرب من طريق النقب العقبة، قرب رأس النقب. ولا بد من القول هنا أن الرسول ﷺ بعث برسالته إلى هرقل مع واحد من الصحابة الكرام وهو دحيّة الكلبي من بني كلب الأردن.

وهناك مواقع مسيحية تاريخية - وأثرية من أهمها خارطة كنيسة مأدبا، وصياغة، ووادي الخرّار حيث نبع ماء التعميد الذي تعمّد فيه المسيح ﷺ ، والفسيفساء في أم الرصاص، ومواقع أخرى، كما أن النصارى يقدّسون مقامات الخضر والأنبياء السابقين عليهم صلوات الله وسلامه.

إزاء هذا كله، فليس غريباً أن يهتم الرحّالة والجغرافيون المسلمون والنصارى بالأردن لوجود سائر مقومات ومغريات الاهتمام الروحي والزيارة والكتابة والتبرّك.

* * *

الباب الخامس

تحديد الأردن والمواقع الأردنية

-1-

الاهتمام العام

استأثر الأردن باهتمام الرحّالة والجغرافيين المسلمين، كجزء من إقليم الشام، على مرّ حقبٍ وقرون طويلة، بدأت في القرن الثاني والثالث الهجري (ابن خرداذبة ت: 207 هـ)، وحتى القرن العاشر الهجري (الحميري ت: 900 هـ).

وأما كتب التاريخ، وأخبار الفتوحات، فقد اهتمت بالأردن كقاعدة أولى لفتوحات بلاد الشام ومصر. حيث اخترنا عنها نموذجاً هو البلاذري الذي عاش في القرن الثالث الهجري أيضاً، وتوفي عام 279 هـ (انظر البلاذري ص 159). كما أن الكتب التي تناولت عصر الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والعباسية وما أعقبها من دول حتى انحسار الأتراك، قد شملت الأردن بالحديث للأسباب التالية:

1- إنه أحد أجناد الشام، أي أنه جزء من ولاية الشام، أو إقليم الشام، أو بلاد الشام (باختلاف الاصطلاحات)، التي هي جزء من البلاد الإسلامية عامة.

2- وقوع أحداث هامة، كانت نقاط تحول في التاريخ الإسلامي مثل: معركة مؤتة، معركة اليرموك، قضية التحكيم، المركز السري للدعوة العباسية، وانضمام أهل الأردن لمؤازرة مروان بن الحكم لاستعادة ملك بني أمية في دمشق (الحموي، ج1، ص148) معركة حطين، معركة عين جالوت، الاستيلاء على حصن الكرك من قبل صلاح الدين، الحرب العالمية الأولى – كونه على الجبهة الهامة كبوابة لسوريا وفلسطين. وعلى أرض الأردن، نشأت الدعوة العباسية في الحميمة، حيث كانت مركز التخطيط والتفكير (الحميري ص 199).

3- وجود نهر الأردن في هذه البلاد كونه مقدّساً لدى النصارى، ويروي مناطق الغور، مما جعله مركز التصدير للمنتوجات، كما سنرى حين الحديث عنه بعون الله.

4- وجود البحر الميت، كون منطقته هي أماكن قوم لوط، وما اقترن ذلك بغضب الله سبحانه، وسخطه عليها فجعل عاليها سافلها ، كما أن البحر الميت نفسه متميز على سائر بحار العالم بعدم وجود الحياة فيه.

5- مواقع الأنبياء، من شعيب، ولقمان، وأيوب، وتربية موسى فيه، وحياة عيسى لفترة من الزمن، ووجود أهل الكهف في الرقيم، وما إلى ذلك، كله جعل الأردن يستأثر باهتمام الباحثين جميعاً.

ورغم كل هذه الإشارات إلى المواقع والأماكن الأردنية، فإن الإشارات إلى السكان أمر يسير ونزير، سوى إشارة الهمذاني إلى جذام في أنهم يعيشون بجنوب الأردن ويمتدون أحياناً إلى الشمال حتى طبرية، وإشارات أخرى موجودة في مقدمة كتابنا هذا، وفي الاقتباسات المفصلة في الملحق.

وقبل الشروع بدراستنا هذه، لابد من تحديد وتوضيح أمرين هامين هما: معنى كلمة الأردن، وتحديد أرض الأردن.

أولاً – معنى الكلمة: جاء في لسان العرب لابن منظور، عن معنى الأردن ما يلي:

« ابن السكّيت: الأُردنُّ النُّعاس الغالب، بالضم والتشديد؛ قال الجوهري: ولم يُستمع منه فعل. ونعْسَةٌ أردُنٌّ: شديدة؛ قال أَبَاق الدُّبيري:

قـــد أخذَتـــني نعْسَـــةٌ أردنٌّ   ومَوْهَـــبٌ مُـــبْزٍ بهـــا مُصِـــنٌّ

قوله: مُبز أي قوي عليها؛ يقول: إن مَوْهَباً صبور على دفع النوم وإن كان شديد النعاس؛ قال: وبه سُمِّي الأردنُّ البلد. والأردنّ: أحد أجناد الشام، وبعضهم يخففها، التهذيب: الأردن أرض بالشام. الأردن اسم نهر وكُورة أعلى الشام، والله أعلم (ابن منظور، ج 13 ص 178).

وقد أورد ياقوت هذا الكلام تقريباً، وإن اختلفت الرواية في الشعر حيث وضع الأردن مكان: أردن، ومبر – بالراء، بدل مبز – بالزاي. ويرى البكري أيضاً (ص 137) أن الأردن تعني النعاس.

ونحن نرى أن النعاس مرتبط بالأمن والطمأنينة، إذا ما أحاطت ظروف الرعب والخوف بالإنسان، ونستخلص هذا الرأي من قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ... ﴾ [آل عمران: 154]. فعندما ألمّ الخطب بالمسلمين الأقلة، أمام كثرة وقوة المشركين غشّاهم الله النعاس، فنسوا ما هم فيه من شدة وبلاء، وليعيشوا في طمأنينة وارتخاء وراحة، ليستعدوا لمنازلة العدوّ ومقارعته.

وربما يبدو مقنعاً ومتطابقاً مع معنى الأمن والطمأنينة أن يطلق على أرض الأردن، إذا ما قرأنا تاريخه جيداً. فعندما كان أمراء وخلفاء بني أمية ينشدون الأمن والراحة، كانوا يجدونها في ربوع الأردن، كما تشهد بذلك الآثار والحكايات التي سنأتي على ذكرها فيما بعد بإذن الله. وعندما يرغب الطير الارتياح من جو البرد القارس من شمال آسيا، يجده في واحة الأزرق. وأن الهجرات السكانية المتتابعة إلى الأردن، بعد الخطوب التي نزلت بها في بلدانها، ليتفق مع معنى كلمة الأمن والطمأنينة ونشدانها.

وأما المعنى الآخر الذي يتفرد به ياقوت ويزيده، فهو الشدة والغلبة، حيث يقول: « والظاهر أن الأردن: الشّدة والغلبة » (ص147)؛ وهذا مقترن أيضاً بالقوة والشدة، وذلك ما لا يتأتى إلا بالشجاعة والرجولة.

وقد تحدثت دائرة المعارف الإسلامية (المجلد الأول ص589-593)، عن الأردن، وابتدأت بتفسير معنى الكلمة، والتي هي في العبرية: (ها) يردن، كما قال بعض العلماء الأجانب القدماء، أن أصل هذا اللفظ غير معروف؛ بينما ذهب بعضهم إلى أن حرف الألف (أ) دخيل وقد سُمّي نهر الأردن بعد الحروب الصليبية بـ « الشريعة الكبيرة » والشريعة في اللغة هي: مورد الشاربة؛ ولا زال هذا الاسم هو الشائع بين البدو إلى الآن.

وبذلك نجد أن كلمة « (ها) يردن » العبرية تطلق على نهر الأردن وحده، وأنها تصف حالة جريانه، ذلك أنه يسير متدهوراً من ارتفاع عالٍ عن سطح البحر، في جبل الشيخ، إلى ما تحت سطح البحر في البحيرة الميتة؛ وهي رحلة عمودية عميقة، بالإضافة إلى أفقيتها المتدهورة المنحدرة.

وبذلك نجد كلمتين متعارضتين، هما: (ها) يردن، وأردن؛ الأولى عبرية، والثانية عربية. وفي رأينا أنه لا تعارض بينهما. فالعربية تطلق على الأرض الأردنية ومن ضمنها النهر، أما العبرية فتطلق على وصف حالة جريان الماء في النهر وحده. وبينما نجد في العربية صفة ومعنى الأرض على أنها الناس والأمن والوطن والطمأنينة والشدة والغلبة، نجد معنى العبرية يشير إلى صفة تتعلق بمجرى النهر وحده.

-2-

ثانياً – تحديد الأردن: يمكن أن نبدأ ذلك بما ورد في دائرة المعارف الإسلامية: حيث جاء ما نصه: « ويتضح من هذه الروايات المختلفة أن حدود

هذا القسم (أي الأردن) لم تبقَ على حالٍ واحدة » (ص 592). وقبل (الخوض في هذه النقطة وهذا النص المهم جداً الذي ورد في دائرة المعارف الإسلامية. ولمزيد من توضيحها، لابد من التنويه إلى الأسس التالية، وهي عامل الزمن، طبيعة المجتمع، نمط الكيان السياسي، ولا أقول الكيان الوطني.

(أ) أما عامل الزمن فهو مهم في التأثير والتغيير في مجريات الأمور، وطبيعة المفاهيم، والاتجاهات، والظروف، بحيث أن مفهوم الأردن (مفهوم الكيان الوطني) وحدود الأرض الأردنية قد تباين عبر ثمانية قرون، من ابن خرداذبة في القرن الثاني الهجري، إلى الحميري في القرن العاشر الهجري، في الأمور الثانوية، وإن اتفق إلى حد كبير في خطوطه العريضة.

ويمكن أن نعزو هذا التباين بين التحديدات التي ذكرها الرحالة والجغرافيون المسلمون إلى ما يلي:

1- إن بعضهم لم يزر الأردن، وإنما اطلع على الكلمة والمعلومات من خلال المصادر الخطية أو النقلية (أي بالرواية)، وبالتالي كان للتصور أهميته بما يفوق الدقة العلمية أحياناً.

2- الأردن جزء من إقليم الشام الذي هو جزء من الدولة الإسلامية، والأردن بذلك هي جزء من الأرض الإسلامية، وإن أية زيادة أو نقص في تبيان حدودها سيكون مضافاً إلى أو مأخوذاً من الأرض الإسلامية المجاورة، وبذلك تبقى ضمن دائرة ديار الإسلام. من هنا، لم تكن الدقة المتناهية أمراً ذي بال علميّ كبير.

3- كان السكان قليلون مقارنة بما هم عليه الآن، وكانت البلاد أكثر خصباً، ولا توجد نزاعات قبلية أو دولية حول تحديد الأرض.

4- كانوا يهتمون بعاصمة المنطقة - وهي طبرية آنذاك، ويعتبرون جند الأردن أمراً شبه مستطيل أو دائري حوله، بدون تعرجات دقيقة - تقتضيها الظروف السياسية العصرية التي نعيشها نحن.

5- العقلية التي عاشها أولئك الناس، شعباً وأفراداً وعلماء وحكام، لم تكن إقليمية، وإنما كانت عامة شاملة للأمة وليس لجزء منها، وكانت تتحدث عن الأمة ولا تتحدث عن شعب، وتتحدث عن ديار الإسلام وليس عن وطن محدد، أو رقعة جغرافية محددة.

من هنا، كان التحديد متأرجحاً عبر الزمن، حتى إذا ما سيطرت دولة على جزء من الأردن، اعتبرت البلاد كلها - رغم أن الحقيقة غير ذلك - تابعة للسلطان الذي يدير ذلك الجزء.

وفي مفهومنا الحديث، نجد أن كلمة شرق الأردن - وليس الأردن، قد برزت عام 1921، ثم تطورت وأصبحت الأردن، وهي تعني المنطقة نفسها - أي شرق الأردن، ثم ضُمَّت إليها الضفة الغربية من فلسطين عام 1950، وأصبحت جزءاً من الأردن من الناحيتين السياسية والإدارية، وإن كانت جزءاً من فلسطين من الناحية الطبيعية والتاريخية (باستثناء أرض الغور).

ب- ولطبيعة المجتمع أهمية خاصة، فقد كان المجتمع الإسلامي في زمن الخلفاء الراشدين، ودولة بني أمية، والعباسيين لا يعرفون الحدود السياسية بين الأقطار الإسلامية، لسيادة مفهوم « ديار الإسلام »، و « ديار الحرب ». ولم يكن سفر الأفراد والجماعات وحركتهم محكوماً بالقيود والحدود التي نعرفها اليوم وندافع عنها، الأمر الذي أفرز مفهوماً اجتماعياً وعلمياً مفاده: أن التعصب إلى بقعة معينة، لم يكن وارداً إلا قليلاً، وفي سنين متأخرة.

وحتى ولو ورد هذا التعصب، فإنه لم يكن مقترناً بكره إقليم أو شعب آخر من أقاليم وشعوب المسلمين، وإنما هو تعصب لإعطاء الأولوية والأفضلية فقط، مع عدم أخذ حقوق الآخرين، من أفراد وجماعات وأرض.

كان العالِم أو الطالب أو القائد، يلد في الكرك أو عمان، ويدرس في الشام، ويعمل في القاهرة، ويصبح والياً في شمال إفريقيا – أو الأندلس، ثم يموت في بلاد السند، ويعتبر نفسه في وطن واحد، ومجتمع إسلامي واحد، وكأنه ذهب إلى وادي السير أو الموقر أو إربد أو المفرق داخل الأردن الحديث.

وقد أفرز هذا الواقع التاريخي أمرين مهمين هما:

1- عدم التقيد بالحدود الدقيقة للأقاليم الإسلامية، وبالتالي تأرجح هذا التحديد، حتى لدى الباحثين الذين يعيشون في حقبة واحدة، أو منطقة واحدة. حيث نجد نقطة واحدة تعتبر من الأردن تارة، ومن فلسطين تارة أخرى، بسبب تعاقب الإدارات والسياسات، وهي أصلاً جزء حقيقي من الأردن أو جزءاً حقيقياً من فلسطين.

2- عدم التركيز على الجماعات البشرية التي كانت تعيش بالأردن، لأنهم مسلمون، ويستطيعون الذهاب إلى أية بقعة من مضيق جبل طارق حتى إندونيسية، أو الباكستان (بلاد السند والهند)؛ وتستقبل الأردن أية مجموعة من هذه البلدان أيضاً.

ج) ولنا أن نعتبر طبيعة الإدارة، أنها نمط الحكم والنظام الذي عاش الأردن في ظله. وطالما أن الفترة الإسلامية هي مثار اهتمامنا، فقد كان الأردن في بداية الفتوحات، وعبر العصر الأموي والعباسي يعتبر تارةً جُنْداً، مؤلفاً من عدة أكوار مفردها كورة، وتارةً مملكة (مملكة صفت، ومملكة الكرك)، حسبما

سيرد في المقتطفات بعد قليل، بإذن الله. وهو في جميع الحالات، جزء من بلاد الشام ما دام جنداً أو كورة؛ أما عندما تكون مملكة فلها شأن آخر.

وقد بدأ تحديد المعالم الإدارية للأردن في مطلع الفتوحات الإسلامية؛ ذلك أن عمر بن الخطاب ﷺ قد جَنّد بلاد الشام أي قسّمها اجناداً أي قطاعات عسكرية: « فجنّد عُمَرُ الشّامَ أربعةَ أجناد متفرقة في أيدي عماله وهم أبو عبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن أبي العاص، فبقيت الشام على ذلك التجنيد حتى زاد فيها يزيد بن معاوية قنّسرين وكان من أرض الجزيرة فصارت أجناد الشام أربعة هي: جند فلسطين وهي الرملة، وجند الأردن وهي الطبرية، وجند دمشق، وجند قنّسرين » (ابن رستة ص 107 ؛ ايضاً الاصطخري المسالك ص 56). أما الخامس الذي لم يذكره ابن رسته، فهو جند حمص.

وفي القرن الرابع الهجري، أطلق المقدسي من عندياته على أجناد بلاد الشام، أكواراً، وذلك كنوع من الإبداع الذاتي الذي لا يتفق مع الواقع الإداري والتنظيمي المتعارف عليه آنذاك. فهو يقول: « وقد قسّمنا هذا الإقليم ست كور أوّلها من قبل أمور قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الأردن ثم فلسطين ثم الشراة» (ص 154). وفي النص أن التقسيم هو من عندياته شخصياً.

فالتقسيم السابق واللاحق يجعل الكور جزءاً من الجند، أما هو فقد حاول أن يأتي بشيء جديد «وقد قسّمنا هذا الإقليم...» ، فجعل الجند كوراً. وفي هذا النص (أعلاه) تبرز نقطتان هامتان هما:

1- أن الأردن كور مستقل، وأن فلسطين كور مستقل رغم تجاورهما.

2- أنه جعل الشراة وهي جنوب الأردن مستقلة ليس عن الأردن فحسب، بل وعن فلسطين أيضاً.

ثم يعطي تفصيلاً عن الأجناد (الأكوار)، فيقول: « ... وأما الأردن فقصبتها طبرية ومن مدنها قَدَس، صور، عكا، اللجون، كابل، بيسان، أذرعات، وأما فلسطين فقصبتها الرملة ومدنها بيت المقدس، بيت جبريل، غزة، ميماس، عسقلان، يافا، أرسوف، قيسارية، نابلس، أريحا، عمان، وأما الشراة فجعلنا قصبتها صغر ومدنها مآب، معان، تبوك، أذرح، ويلة، مدين » (ص 154 – 155).

ويبدو من هذا الاقتباس عدة نقاط:

1- أن ما ذكره من المدن التابعة لجند الأردن التي يسميها كورة ليست إلا جزءاً مما كان من المدن العامرة آنذاك، حيث يقول: « ومن مدنها... » وهو يجعل أذرعات وعكا وصور وبيسان من الأردن.

2- عندما يذكر فلسطين يقول أن ما يذكره من مدن تابعة لهذه الكورة، محددة ومفصلة ومذكورة، ولم يجعل الذكر للتبعيض، بل للتخصيص العام المحدد، حيث يقول: « فقصبتها الرملة ومدنها....» ، ولم يقل: ومن مدنها.

3- عندما جاء إلى الشراة، اختار أن تكون قصبتها صغر. وهو بذلك يحدد أن هذه المواقع التابعة للشراة ليست من فلسطين، وهو أيضاً يحدد من عنده عاصمة هذا الكور، دون أن يشير إلى من سبقوه أو عاصروه بهذا الصدد. «وأما الشراة فجعلنا قصبتها صغر ».

4- أنه يضع ثلاث مدن هامة ضمن الشراة هي: تبوك وإيلة (أي العقبة)، ومدين (المختلف في تحديدها).

5- وهو يجعل بما لا يتفق مع الآخرين، كلاً من أريحا وعمان أنهما من كورة فلسطين، فقد اتفق بقية الرحالة الجغرافيون أن أريحا هي الحدود الغربية للأردن وداخلة فيها طبيعياً وإدارياً، وهي تقع شرقي الحد الفلسطيني طبيعياً وإدارياً. إلا أن المقدسي تجاوز هؤلاء جميعاً، مما يقلل من الأهمية العلمية لرأيه..

6- إنه يجعل عمان جزءاً من فلسطين، بينما اعتبرها غيره باستمرار (كما سنرى بإذن الله) أنها مدينة البلقاء تابعة لدمشق تارة، ولجند الأردن تارة أخرى؛ وتكاد تكون هذه هي الإشارة الوحيدة التي تجعل من عمان جزءاً من فلسطين، الأمر الذي لا يتفق والتاريخ والحقيقة، كما لا يتفق مع آراء الآخرين كما سنرى عند الحديث عن البلقاء وعمان بعون الله.

وفي القرن السادس الهجري، نجد الإدريسي لا يتفق مع المقدسي (ق 4 هـ) في تحديد مناطق الأردن، فيقول: « وَيَلِيْ كورة فلسطين من جهة المشرق كورة الأردن واكبر بلادها مدينة طبرية ومنها اللجون ومنها كورة السامرية وهي نابلس وبيسان وأريحا وزغر وعمتا وحبيس وجدر وابل وسوسية وكورة عكة وكرة ناصرة وكورة صور ».

ونستخلص من هذا النص ما يلي:

1- أنه استخدم اصطلاح كورة (وليس اصطلاح جند)، وهو أمر واضح باقتباسه من المقدسي بدون الإشارة إليه. وبذلك نجد اختفاء مفهوم واصطلاح وعنوان «جند» قد اختفى في هذا القرن السادس للهجرة، وتحول المفهوم العسكري إلى مفهوم اقتصادي.
2- جعل نابلس ومنطقتها من بلاد الأردن، وذلك ما لا يتفق مع الأمور الطبيعية والإدارية، ذلك أنها جزء من فلسطين وليس من الأردن.
3- يتضح أنه اتخذ الخط الأفقي العرضي طريقة لتقسيم شمال فلسطين فأتبعه بذلك إلى الأردن، رغم مناقضة ذلك للحقيقة.
4- جعل اريحا من الأردن بعكس ما عليه المقدسي. وبذلك تصبح عمان التي هي شرق فلسطين، ليست من فلسطين، وذلك كتحصيل حاصل أيضاً.
5- جعل منطقة الشراة جزءاً من كورة الأردن، وذلك بخلاف المقدسي الذي جعلها مستقلة عن الأردن وفلسطين، فالإدريسي يعتبر صغر (زغر) جزءاً من

الأردن، وذلك يعني أن إقليم الشراة كله جزء من الأردن، ابتداءً بمدين وتبوك وإيلة وانتهاءً بوادي الموجب. وقد كان المقدسي في القرن الرابع الهجري (أي قبل قرنين من الإدريسي) اعتبر صغر (زغر) عاصمة كورة الشراة.

وفي القرن السابع الهجري، نجد الحموي (ج1، ص 103، 148) يعتبر الأردن أحد أجناد الشام الخمسة (لمعرفة معنى جند - انظر الحموي ج1 ، ص 103)؛ ومع هذا فإن الحموي يشير إلى الأردن أنها « كورة واسعة » وبذلك نجده:

1- يشير إلى الأردن أنها جند، وأنها أحد أجناد الشام الخمسة، أي أنها جزء من إقليم الشام؛ وبذلك يناقض المقدسي (ق 4 هـ) والإدريسي (ق 6 هـ) الذين ألغوا اصطلاح وعنوان جند، واستخدموا «الكور» وحده.

2- أنه أضاف صفة لكلمة كورة بقوله: «كورة واسعة»؛ وبذلك استخد المفهوم العسكري والاقتصادي معاً.

3- جعل الغور من ضمن كورة الأردن وجندها.

أما الغور فقد حددها المقدسي (ق 4 هـ) (ص 185) بقوله:

« والصف الثالث الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل يقع فيه من البلدان ويلة وتبوك وصغر وأريحا، وبيسان وطبرية وبانياس ».

وأما الإدريسي (ق 6 هـ) فيقول: « وريحا المذكورة من أجمل بقاع الغور وعمتا وبيسان وأكثر غلات بلاد الغور النيلج وأهله سمر بل هم إلى السواد أقرب » (ص 356).

ويرى الحموي (ق 7 هـ) أن نهر الأردن يمر وسط الغور « فيسقي ضياع الغور، وأكثر مستغلهم السكر، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الشرق. وعليه قرى كثيرة، منها: بيسان وقراوا وأريحا والعوجاء وغير ذلك (ج1 ص 147).. « ثم يمر

حتى يصب في البحيرة المنتنة في طرف الغور الغربي. وللأردن عدة كور؛ منها: كورة طبرية وكورة بيسان وكورة بيت راس وكورة جدر وكورة صفورية وكورة صور وكورة عكا وغير ذلك مما ذكر في مواضعه » (ج1 ص 148).

وبذلك نجد أن الأردن عند ياقوت يتألف من :

1- المنطقة الساحلية على البحر المتوسط المتمثلة في كورتي صور وعكا، والقرى والساحل والمناطق التابعة لكل منهما.
2- منطقة الغور المحاذية لجنبي نهر الأردن هي جزء من الأردن، وبذلك يتفق مع الحميري (ص21)، وأبو الفداء (ص226)، وإن كان هذا يضيف زغر والبحر الميت ومنطقة من الغور، متفقاً بذلك مع ابن حوقل، ومع القلقشندي (ج 4، ص 81).

ويؤكد أبو الفداء، أن الأردن في زمنه (القرن الثامن للهجرة) هو أحد أجناد الشام الخمسة (ص 226) وهي: حمص وقنسرين ودمشق والأردن وفلسطين أما القلقشندي في القرن التاسع الهجري، فقد قصر الشام على أربعة أجناد إحداها الأردن، وهي حمص ودمشق والأردن وفلسطين (ص 13).

وبذلك نرى ما يلي:

1- أن الجميع متفقون على أن الأردن هو أحد أجناد الشام سواء أكانت أربعة أو خمسة، أو كانت ستة أكوار، كما قسّمها المقدسي.
2- أن الجميع متفقون أن الغور حتى أريحا، وحتى اللجون – غربي طبرية، هي ضمن الأردن؛ وأن البحر الميت وإيلة هي من الأردن.
3- انفرد المقدسي بقطع الشراة عن الأردن وجعلها كوراً مستقلاً.

وفي القرن السابع الهجري، نجد القزويني يعتبر الأردن ناحية، وأن البحر الميت من أراضيها، فيقول: « الأردن ناحية بأرض الشام في غربي الغوطة

وشماليها، وقصبتها طبرية، بينها وبين بيت المقدس ثلاثة أيام، بها البحيرة المنتنة التي يقال لها بحيرة طبرية » (ص 141).

وبذلك نجده يخطئ في التفريق بين البحر الميت، وطبرية أو أن الخطأ المطبعي قد وقع، وإن كانت الجملة التي بعدها تدل على أنها البحر الميت وليس غيرها، حيث يقول: « والجبال تكتنفها فلا ينتفع بهذه البحيرة ولا يتولد فيها حيوان، وقد يهيج في بعض الأعوام ليهلك أهل القرى الذين هم حوله كلهم حتى تبقى خالية مدة » (ص141-142).

وفي القرن الثامن الهجري، أثبت أبو الفداء جدولاً بالتبعية الإدارية لمناطق الأردن وفلسطين، حيث جعل نابلس من الأردن (ص 239-40) واعتبر ذلك أمراً عرفياً عبّر عنه بقوله: « الإقليم العرفي »؛ كما أنه احتار في تبعية بيت المقدس الإدارية فقال: « من فلسطين أو الأردن » (ص اعلاه).

وهذا يبين مدى عدم الاهتمام في الحدود التي أصبحت جزءاً من العقلية المعاصرة، وأنها كانت كلها ديار الإسلام؛ كما أن بُعد المنطقة أيضاً يجعل من العسير على صاحب حماة – وهو المؤلف أبو الفداء، أن يكون دقيقاً للغاية في هذه الأمور.

وفي جدول آخر (ص 246-247)، نجده (ابو الفداء ق 8 هـ) يعتبر عمّان والكرك ومآب – وهي الربّة، كجزء من إقليم البلقاء عرفاً. ثم جعل الشوبك من إقليم الشراة؛ بينما جعل السلط وعجلون من إقليم الأردن (ص 244-245). ويمتد شمالاً ليجعل (ص 242-243) عكا من سواحل الشام بدون تخصيص أنها من دمشق أو الأردن أو فلسطين، بينما أبقى على بيسان وطبرية وصور، (وأضاف صفد) إلى الأردن. وهو (في ص 239-240) يبقي على الرملة والخليل أنهما من إقليم فلسطين.

مما سبق، نستطيع استخلاص النقاط التالية من أبي الفداء:

1- جعل الأقاليم كثيرة، وأصغر مساحة من سابقيه، حيث قسّمها إلى: (أ) إقليم الأردن؛ (ب) إقليم دمشق؛ (ج) إقليم البلقاء؛ (د) إقليم الشراة؛ (هـ) إقليم فلسطين؛ (و) إقليم سواحل الشام.

2- من هنا قسّم الأرض المتعارف عليها أصلاً أنها الأردن إلى أربعة أقاليم إدارية – وليس طبيعية وهي: الأردن، والبلقاء، والشراة، وسواحل الشام.

3- بيّن أن هذا التقسيم عرفي، أي أنه إداري متعارف عليه في زمنه، وبالتالي ليس ثابتاً، ولا يعتبر حقيقة تاريخية مما سبق أو قاعدة لمن لحق.

4- جعل بعض مناطق فلسطين من الأردن، مثل صفد ونابلس وبيت المقدس.

5- لم يحدد بالتفصيل المناطق التابعة لأسماء الأماكن، وإنما ذكر الموقع، والعاصمة الإدارية التي كانت على النحو التالي:

أ- عمان هي قاعدة البلقاء التي تشمل ما يمكن اعتباره الآن مناطق الكرك والطفيلة وأذرح والجرباء ومعان.

ب- الكرك. وهي عاصمة لمنطقتها وهي جزء من البلقاء.

ج- مآب. وهي الربة، واعتبرها هي ومدينة أذرح مدينتا جبل الشراة. وفي هذه النقطة بالذات والتي سبقتها (أي 2 و 3) تناقض لا يتفق مع الطبيعة الجغرافية للمناطق، ولا طريقة الاتصال والمواصلات. فالكرك تقع والربة في جبال مؤاب، وليس من مسافة طويلة بينهما. كما أن مآب غير الشّراة، حيث يفصلهما منخفض وادي الحسا.

د- يوجد تناقض أو على الأقل عدم انسجام بين اعتبار الشوبك جزءاً من الشراة، وجَعْلِ أذرح وهي في قلب الشراة جزءاً من مآب والربّة.

هـ- وبذلك نرى أن هذا الترتيب الذي وضعه أبو الفداء يتعذر ربطه والواقع على مذودٍ واحد. والمخرج الوحيد له، والباحثين، أن هذه

المناطق كلها تعتبر من الإقليم الثالث (أي الشراة)، من حيث الترتيب الحقيقي.

مما سبق نخلص إلى القول في أن أبو الفداء (ق 8 هـ) أخذ المناطق من فلسطين وأضافها إلى الأردن، ولم يضف إلى فلسطين شيئاً من الأردن؛ ولكنه جزّأ الأردن إلى أربعة أقاليم عرفية، لا تتفق مع الواقع الجغرافي. وبناءً عليه، يمكن اعتبار التقسيم بتفاصيله أنه ضرب من الخيال، أو عدم وضوح رؤيا؛ وأن الحقيقة هي: البلقاء والشراة والغور وطبرية، وعكا وصور هي من جند الأردن آنذاك.

ونقطة أخرى لابد من الإشارة إليها في تصنيفات أبي الفداء، أنه لم يستخدم في جداوله اصطلاح: « جند »، وإنما استخدم « إقليم » وفرّق بين العرفي الإداري منها، والحقيقي الطبيعي. وبذلك غاب اصطلاح «جند» ، واصطلاح «كورة» ، وجاء بعنوان جديد اسمه: «الإقليم» .

وفي القرن التاسع للهجرة، كانت جنوب الأردن الحالية حتى الحدود مع مصر جزءاً من البلقاء، حيث ورد عند القلقشندي في ذكره لحدود المملكة الشامية ما يلي:

«وحدّه من الغرب حدّ مصر المتقدم ذكره، وذكر في كتابه «تقويم البلدان»: أن حدّه من الجنوب من أول رفح إلى الجفار بين مصر والشام إلى حدود تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وإيلة من البلقاء » (ص 75).

وبالرجوع إلى الأصل الذي ذكره أبو الفداء، والذي اقتبسه القلقشندي (ق 9 هـ) هنا، نجد ما يلي: « ويحيط به من جهة الجنوب حد يمتد من رفح إلى حدود تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وإيلة إلى البلقاء » (ص 225).

ونجد تبايناً في الأصل الذي بين أيدينا، والاقتباس الذي ورد إلينا، فأبو الفداء (ق 8 هـ) يقول: الذي عاش في القرن السابق للقرن (ق 8 هـ) الذي عاش

فيه القلقشندي (ق 9 هـ): « إلى البلقاء »، والقلقشندي يقتبس عنه: « إلى ما بين الشوبك وأيلة من البلقاء ». ومع هذا نخلص إلى أن أيلة والشوبك هي جزء من البلقاء عند القلقشندي، بينما هي جزء من الشراة عند: أبو الفداء، ويأخذ القلقشندي معلوماته عن تحديد جند الأردن من ابن حوقل.

وفي الختام، نجد أن مفهوم المنطقة التي يضمها الأردن، كان واضحاً من الناحية الطبيعية، متأرجحاً من الناحية الإدارية. ونجد أيضاً أن الإشارة إلى الأردن جاءت ضمن دائرتين:

1- الأولى أن الأردن بلد عام، وبلاد، وليست مدينة أو حصن أو موقع محدد.

2- أن الأردن تحتوي عدداً من المدن والجبال والأنهار، والموانئ على البحرين الأحمر والأبيض، والكور، والمواقع، والبحار، والقرى، والمزارع، والمقامات، وأماكن الأقوام المذكورة في القرآن الكريم.

- فالغور مواقع تمتد من بحيرة بانياس فالحولة فطبريا فالغور فالبحر الميت، وما على جنباته وضفاف نهر الأردن من مدن وقرى وضياع ومزارع وأنهار وسيول وعيون.
- وعكا وصور وإيلة موانئ وثغور مائية.
- وطبرية وقدس والبحر الميت، وسواحل المتوسط - بحيرات وبحار، وبحر القلزم وسواحل البحر المتوسط.
- وعمان وأريحا والكرك وأذرح ودرعا وتبود ومعان مدن، وحصون.
- واليرموك والأردن والزرقاء والموجب والحسا - أنهار.
- وعوف والبلقاء ومؤاب والشراة - جبال.
- وغابات شمال الأردن وبساتينه وبساتين الأغوار - سواد.

وإذا تغير المفهوم الإداري عبر الزمن، أو مع الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها المجتمع والدولة في زمنه، وترتب عليها تغيير في التقسيمات والتبعيات الإدارية، فإن الأردن بقي من الناحية، الطبيعية «الكيان الوطني» كما هو. ورغم هذا التباين كله، إلا أنه بقي ضمن إقليم أو مملكة الشام، حتى عام 1921 عندما تأسست الإدارة في شرق الأردن تحت الانتداب البريطاني، وأصبحت الأردن أرضاً وشعباً وثقافة وهوية وتاريخاً، كياناً وطنياً متبلوراً، وقامت عليها إدارة تشكل الكيان السياسي.

وبذلك ظهر فيها كيان سياسي جديد متفق مع المستجدات الخارجية والانتداب، وكيان وطني تاريخي عميق عريق صار ضحية للظروف والكيانات السياسية والحكومات المتعددة في الداخل والخارج.

ولابد من الأخذ بعين الاعتبار التباين بين مفهومين هامين هما: المفهوم الطبيعي الحقيقي (الكيان الوطني)، والمفهوم الإداري (الكيان السياسي) الذي يتباين بتباين الأزمنة والمجتمعات والأنظمة وطبيعة الظروف المعاصرة.

بيّن ابن خرداذبة (ق 3 هـ) أن طبرية، والسامرة، وبيسان، وفحل، وجرش، وبيت رأس، وكورة جدر، وكورة آيل، وكورة سوسية، وكورة صفورية، وكورة عكا، وكورة قدس، وكورة صور، كلها من الأردن (أي: من الكيان الوطني)، (انظر ص 78). وبذلك نجده (الأردن) يمتد على منطقة تعتبر الآن: شمال فلسطين، وجنوب لبنان، وجنوب غرب سوريا، ووسط وشمال الأردن الحالين بما فيه الغور.

ولم يحدد البلاذري (ق 3 هـ) الذي عاش في فترة ابن خرداذبة (ق 3 هـ) ماذا يعني بكلمة « سواد الأردن وجميع أرضها » (ص 160)، رغم أنه يذكر في نفس المواقع أماكن بالاسم: « وفتح شُرَحْبيل جميع مدن الأردنّ وحصونها على هذا

الصلح فتحاً يسيراً بغير قتال ففتح بيسان، وفتح سُوسِيَة وفتح أفيق، وجُرَش، وبيت راس، وقدس، والجولان، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها» (ص160). ثم يقول: « إلى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة 42 هـ » (ص160)، وهذا يبين أن المفهوم الجغرافي للأردن كان معروفاً في ذلك الزمن.

ويكرر اليعقوبي (الذي عاش في فترة ابن خرداذبة والبلاذري (ق 3 هـ)، ما قالاه أعلاه، حول كُوَر الأردن – لكنه يستخدم كلمة: « والسّواد» بدلاً من « سواد الأردن »»، ويضيف: « وأهل هذه الكور أخلاط من العرب والعجم افتُتحت كور الأردن في خلافة عمر بن الخطاب افتتحها أبو عبيدة بن الجراح خلا مدينة طبرية فإن أهلها صالحوه وغيرها من كور جند الأردن افتتحها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من قبل أبي عبيدة بن الجراح سنة أربع عشرة وخراج الأردن يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار » (ص 137/ 338).

ولابد من الإشارة إلى بعض النقاط الواردة في التضمين أعلاه:

1- استخدام كلمة السواد، الذي قال عنه البلاذري (ق 3 هـ): « سواد الأردن ». وعند هذه الكلمة لابد من وقفة، فهي تعني المنطقة الخضراء الواسعة الأرجاء، لأنها تبدو من بعيد وكأنها سوداء لشدة خضرتها. وهذا ينطبق على مناطق الغور المحاذية لمجرى نهر الأردن بضفتيه، ومنطقة بيسان، كما ينطبق أيضاً على مرتفعات الشمال والبلقاء والجنوب والبادية الأردنية التي تعتبر الآن صحراء، لأنها جميعاً كانت مكسوّة بالأشجار والغابات من مختلف الأصناف، وكانت خصبة وفيرة الأمطار قبل أن تصاب بالتصحّر الذي يسودها الآن.

2- أن سكان الأردن كانوا أخلاطاً من العرب والعجم، دونما تبيان لنوعية العجم هؤلاء ومن أي الألوان أو الأديان أو الأجناس؛ ولا لنوعية العرب من أي القبائل هم. وبذلك جاءت الكلمات عامة تخلو من التفاصيل التي يقتضيها أمر

البحث العلمي، أو الحاجة التاريخية التي تتطلبها أجيالنا الحاضرة، والأفكار الوطنية المعاصرة. وقد ظهر، كما سنرى في مقتطفات مستقبلة أن هذه الكتب قد قالت عن سكان الأردن أنها خليط من العرب والعجم، وأن العرب متغلبون عليها. وقد ذكروا أن سكان معان من بني أمية ومواليهم، إلا أن « أبو الفدا » (ق 8 هـ) أضاف إلى ذلك بقوله: « وهي (أي: معان) الآن خراب وليس به من أحد » (ص 229).

ويذكر الهمداني (ق 4 هـ) (ص 129) أن عشائر جذام ولخم وعاملة وذبيان كانت تعيش في الأردن في القرن الرابع الهجري.

3- أن أبا عبيدة وخالد بن الوليد وعمر بن العاص قد اشتركوا في فتح مواقع مختلفة من جند الأردن، هذا عدا عن شُرحبيل بن حسنة الذي ورد ذكره في البلاذري (ق 3 هـ). وهذا يبين أن عمرو بن العاص قد افتتح جنوب الأردن في طريقه إلى فتح فلسطين، وأن بلاد الشراة ومؤاب التي كانت جزءاً من البلقاء، كانت هي والبلقاء من الأردن.

4- ويبين في خراج الأردن نمطين هامين: خراج الضياع الذي لم يتضح هنا نوعه ولا كميّته؛ وخراج غير الضياع المحدد هنا بمائة ألف دينار.

وفي مطلع القرن الرابع الهجري نجد الاصطخري يميز بين أمرين هامين في رسم الحدود، هما: الحد الطبيعي، والحد الإداري – أو لنقل التبعية الإدارية وبذلك يكون من أكثر الرحّالة حصافة في التمييز بين المفهومين ومدى تطابقهما على أرض الواقع.

ففي حديثه عن جند فلسطين يحدّده طبيعياً بقوله:

« وأما جند فلسطين، وهو أول أجناد الشام مما يلي الغرب – فإنه تكون مسافته للراكب طول يومين من رفح إلى حد اللجون (شمال فلسطين)، وعرضه

من يافا إلى ريحا يومان، وأما زُغَر وديار قوم لوط والجبال والشراة فمضمومة إليها، وهي منها في العمل إلى إيلة، وديار قوم لوط والبحيرة الميّتة وزُغَر إلى بيسان وطبرية تسمى الغور لأنها بين جبلين، وسائر بلاد الشام مرتفع عليها، وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل، وأما نفس فلسطين فهو ما ذكرته » (ص 43).

ومن خلال هذا التضمين، يتبين ما يلي:

1- الحدود الطبيعية لفلسطين، المتعارف عليها آنذاك، والتي استمرت قروناً طويلة، تنتهي شرقاً إلى عند ريحا، للقادم من يافا (وليس إلى مجرى نهر الأردن كما يتردد خطئاً)، أي في شمال فلسطين قديماً (مطلع ق 4 هـ)، ووسطها حسب المفهوم الحديث؛ حيث ريحا أردنية كما بيّنا سابقاً، وفي التضمينات الملحقة بهذا البحث. وأما من الجنوب فتبدأ حدود فلسطين من رفح (جنوباً) حتى « حد اللجون » (شمالاً).

أما اللجون، فتقع في شمال فلسطين القديمة، وبذلك نجد أن حد فلسطين الطولي ضيّق، ولا يتجاوز أطراف سهول الغور الغربية.

2- هناك إضافات إدارية من الأردن إلى فلسطين أقول إدارية وليست جغرافية، شملت زُغَر وديار قوم لوط والجبال والشراة، حيث تم إضافتها إلى فلسطين « في العمل »، أي في الإدارة، وإن كانت ليست منها في التقسيم الطبيعي والكيان الوطني. وكما سبق وأشرنا، فإن هذا التقسيم العرضي غرب شرق كان أيسر وأسهل على الناس من أن يذهبوا شمالاً إلى دمشق أو طبرية، خاصة وأنها كانت ديار إسلام واحدة، بل وضمن إقليم واحد عام، هو إقليم الشام.

3- يبين الاصطخري (مطلع ق 4 هـ) هنا أن الغور بعضه من الأردن وبعضه من فلسطين، وهو ليس كله لهذه أو ليس كله لتلك. ويمكن رسم حد وهمي

للغور الفلسطيني بدءاً بغربي بيسان، ومروراً بغربي أريحا، ثم في تماس بري بحري مع الجزء الغربي من البحر الميت حتى قلب وادي عربة. أما ما كان من هذه أو من شرقها تابع لفلسطين فهي تبعة إدارية، فقط، « وبعضها من فلسطين في العمل ».

4- نجده هنا يبيّن أن منطقة الغور التي ليست من فلسطين هي من الأردن، - أي من جند الأردن، وذلك ما يبين أن البلقاء – وهي تأخذ القسم الشرقي من النهر والبحر الميت جزء من الأردن، وليست منفصلة عنه. ولو كان للبلقاء وجود طبيعي مستقل عن الأردن لبيّنه الاصطخري هنا.

5- يؤكد الاصطخري في نصّه هذا أن هذه الإضافات الإدارية ليست من فلسطين طبيعياً ولا تاريخياً، وذلك بقوله: « وأما نفس فلسطين فهو ما ذكرته ». وقد حدّدها من رفح حتى حد اللجون، ومن يافا حتى أريحا، وما زاد فهو منها بالعمل أي يتبعها بالإدارة في زمنه لكنه ليس من فلسطين من الناحية الطبيعية وإنما جزء من الكيان الوطني الأردني.

وقد وردت هذه التقسيمات والمعلومات المقتبسة أعلاه في أغلب كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين جاءوا بعد الاصطخري أي بعد مطلع القرن الرابع الهجري فقد جعل الإدريسي (ق 6 هـ) الذي جاء بعد قرنين من الاصطخري (ص 354) كلاً من البلقاء والشّراة وعمان، ومآب، والغور، كورة مستقلة تابعة لدمشق. وهذا بخلاف المقدسي الذي جعل الشراة كورة، والأردن كورة ومنطقة وسط البلقاء تابعة لفلسطين (ص 154-155). أما أبو الفداء (ص 226) – فقد جعل البلقاء تابعة للشراة، وذلك ما ينفرد به تقريباً؛ حيث يقول: «والبلقاء إحدى كور الشراة وهي خصبة وقاعدة البلقاء حسبان (....) وهي بلدة صغيرة ولحسبان وادٍ وبه أشجار وأرحية وبساتين وزروع ويتصل هذا الوادي

بغور زغر » (ص 227-228). ونجد في كلام «أبو الفداء» خطأً لا يتفق مع الواقع الجغرافي ذلك أن الشراة جزء من البلقاء وليس العكس كما ذكر.

ويقول أبو الفداء أيضاً: « وجبل الشراة في جنوبي البلقاء وخلفه البرية ويسكنه الآن فلاحون، وفي جهة جبل الشراة الحميمة التي خرج منها بنو العباس إلى الخلافة بالعراق » (ص 228). ثم يضيف أن من مدن الشراة: الشوبك ومعان. (ص 229). وأما قوله: أن جبل الشراة كان يسكنه فلاحون فيدل ذلك على الاستقرار والإعمار وتوفر المياه وسبل الحياة، والتربة الخصبة، وتنوع الزراعات، الأمر الذي تحوّل معه بدو المنطقة إلى فلاحين يزرعون الأرض.

كما أن القلقشندي (ق9هـ) قد اعتمد ما ورد لدى الاصطخري وابن حوقل، وتقويم البلدان (انظر القلقشندي ج 4 ص76، 81، 89) كما اقتبس ما ورد عند المقدسي من حيث المواقع الهامة في بلاد الشام (القلقشندي ج 7، ص 13).

-3-

المسافات والأبعاد

وقد تنبّه المؤلفون المسلمون (مدار بحثنا) إلى قضية المسافات والأبعاد بين الأماكن، وكان الأمر يقاس إما بالمسير للراكب المسافر، أو بالأميال، أو بالسكك أو الفراسخ، أو المراحل، وقد فسرنا معنى هذه الكلمات كما أوردها الحموي من معانٍ لها، ضمنّاها هذا الكتاب.

وقد أورد ابن خرداذبة (ق 3 هـ) نتفاً عن هذه المسافات بين المواقع فقال:

« .. ثم إلى الطبرية وهي قصبة الأردن ست سكك، ثم إلى اللجون أربع سكك » (ص 117). ويقيس الفرج بن قدامة بالأميال، فيقول: « ومن كفر ليلى إلى طبرية خمسة عشر ميلاً » (ص 219).

ويقول الاصطخري (ق 4 هـ): « وأما الأردن فإن قصبتها طبرية، فمنها إلى صور يوم، ومنها إلى عقبة فيق يوم، ومنها إلى بيسان يومان خفيفان، ومنها إلى عكا يوم » (ص 49). ثم يقول في وصف أطوال بحيرة طبرية: « وأما الأردن فإن مدينتها طبرية، وهي على بحيرة عذبة الماء، طولها إثنا عشر ميلاً في عرض فرسخين أو ثلاثة » (ص 44).

ويتحدث ابن حوقل (ق 4 هـ) عن المسافات فيقول:

« ومن دمشق إلى طبرية أربعة أيام ومن طبرية إلى الرملة ثلاثة أيام » (ص 185). ثم يقول عن المسافات بين المواقع الأردنية: « ومن ريحا إلى زغر مرحلتان ومن زغر إلى جبال الشراة مرحلة ومن جبال الشراة إلى آخر جبال الشراة مرحلة، وقصبة الأردن طبرية ومنها إلى صور يوم، ومنها إلى عقبة فيق مرحلة ومنها إلى بيسان مرحلتان خفيفتان ومنها إلى عكا يوم » (ص 186-187). وفي وصفه لمسافة طبرية ينقل عن الاصطخري حرفياً.

ثم يتحدث الإدريسي (ق6هـ) بإسهاب عن المسافات فيرى أن طول البحيرة المنتنة ستون ميلاً، وعرضها إثنا عشر ميلاً، ثم يقول: « ومن ريحا إلى زغر يومان؛ ومن زغر إلى جبال الشراة يومان ومن جبال الشراة إلى آخر الشراة يومان؛ ومن ريحا إلى بيت المقدس مرحلة، ومن بيت المقدس إلى عمان والبلقاء يومان » (ص 355). وبذلك نجده يأخذ قسطاً من المعلومات عن ابن حوقل.

وفي مواقع أخرى نجد الإدريسي (ق 6 هـ) يضع المسافات، فيقول: « ومن بيت المقدس إلى طبرية تسعون ميلاً (...) ومن طبرية إلى عكة يومان خفيفان » (ص 363). ونجد القلقشندي يقيس المسافات بالمراحل والأيام (ج 4، ص 77).

ونخلص إلى القول أن الأردن التي سنتناولها في بحثنا من حيث الأرض المتعارف عليها لدى الرحّالة والجغرافيين المسلمين بشكل عام هي: جبال الشراة

بدءاً بالعقبة ومعان والمدورة (سَرْغ) وانتهاءً بالشوبك ووادي موسى؛ ثم الجبال وما حوته من الطفيلة وقراها؛ ثم مؤاب وشيحان وما حوته من مؤتة والكرك والربّة؛ ثم البلقاء الحالية وهي وسط الأردن ثم شمال الأردن، ثم البحر الميت والغور وبيسان وطبرية وعكا وصور، فضلاً عن دومة الجندل والجوف ووادي السرحان وحوران وهضبة الجولان وجبل الشيخ والحولة وبانياس.

وبذلك نكون قد جمعنا ما بين مفهوم الأردن الطبيعي التاريخي الذي يشمل عكا وصور وطبرية والحولة وبيسان والغور، وبين المفهوم السياسي المعاصر الذي يشمل في حقيقة الأمر جهة واحدة من بلاد الأردن، ألا وهي جزء من شرق الأردن وليس شرق الأردن كلّه.

-4-

الصناعات والمنتوجات بالأردن

كانت هناك بعض الصناعات والمنتوجات بالأردن. يقول البلاذري (ق 3 هـ): « لما كانت سنة 49 هـ خرجت الروم إلى السواحل وكانت الصناعة بمصر فقط، فأمر معاوية بن أبي سفيان بجمع الصنّاع والنجّارين فجُمعوا ورتّبهم في السواحل، وكانت الصناعة في الأردن بعكا (...) فنقل هشام الصنعة إلى صور واتخذ بصور فندقاً ومستغلاً. وقال الواقدي لم تزل المراكب بعكا حتى وُلّيَ بنو مروان فنقلوها إلى صور فهي بصور إلى اليوم » (ص 161).

ويتبين هنا، أن معاوية قد جعل لكل جند مركزاً صناعياً، يشحن المراكب، ويرتبها، ويزوّد الإقليم بما يحتاجه، بحيث يكون المركز على الساحل لسهولة النقل منه وإليه، سواء من المواد الخام أو الإنتاج (مُدْخلات ومُخْرَجات). وقد كانت عكا هي صاحبة الحظ في أخذ المركز الصناعي للأردن؛ ثم نُقلت الصناعات إلى صور بسبب خلاف بين الخليفة هشام بن عبدالملك، وأحد أصحاب الإقطاعات

والمستغلات، حيث رفض بيعها للخليفة الذي بدوره انتقم ورغب في محاصرة الممتنع اقتصادياً، فرحّل الصناعات. لكنه نقلها من موقع بالأردن وهو عكا، إلى موقع أردني آخر، وهو صور، أي بقيت في الأراضي الأردنية

وبذلك نجد أن الصناعة قد انتقلت من موقع إلى آخر على نفس الساحل، لأداء نفس المهمة وتحقيق نفس الغرض، وبقيت في صور حتى القرن الثالث الهجري – وهو الذي عاش فيه البلاذري. وبقيت صور هي مركز الصناعة الأردنية حتى الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري، حيث يذكر اليعقوبي: «ولجند الأردن من الكور صور وهي مدينة السواحل وبها دار الصناعة ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وهي حصينة جليلة وأهلها أخلاط من الناس ومدينة عكا وهي من السواحل» (ص 327).

ونستطيع استشفاف عدد من النقاط من هذا التضمين:

1- أن صور كانت كورة هامة من كور الأردن.
2- أنها عاصمة الأردن الساحلية، أو لنقل مدينته الهامة على البحر وميناؤه.
3- فيها الصناعات الضرورية الهامة ليس لجند الأردن وحده، بل ولاستخدامات السلطان بالحروب وغيرها أيضاً.
4- إنها قاعدة حربية للجهاد، تخرج منها المراكب الإسلامية لمهاجمة المراكب والشواطئ الرومية في البحر وعلى سواحله؛ وبالتالي فهي قاعدة بحرية حربية هامة.
5- إنها حصينة ذات مقام هام عند الناس والسلطان والدولة.
6- إن سكانها، وكأية مدينة ساحلية، أخلاط من الناس ديناً ولوناً ولغةً.
7- أن مدينة عكا لا تزال مسلوبة الأهمية الصناعية والحربية في هذا الزمن، وبذلك استمر هذا الحرمان منذ عهد هشام بن عبدالملك، إلى الآن بالمقابل

استمر ازدهار صور منذئذٍ إلى عهد الاصطخري في القرن الرابع الهجري (الاصطخري: مسالك الممالك ص 59).

ويضيف الاصطخري (ق 4 هـ) نقطة هامة هي أنه يصف صور بقوله: « ويقال أنه أقدم بلد بالساحل وأن عامة حكماء اليونان منها » (ص 59). ثم يقول: « وبالأردن كان مسكن يعقوب النبي ﷺ وجب يوسف على اثني عشر ميلاً من طبرية على ما يلي دمشق » (ص 59). ويقول أيضاً أن الغور كان عامراً بالإنتاج الزراعي والفواكه، مليئاً بعين الماء: « والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً، وبه عيون وأنهار ونخيل، ولا تستقر به الثلوج » (ص 45).

ويكرر ابن حوقل (ق 4 هـ) (ص 174) ما أورده الاصطخري عن صور ومسكن يعقوب وجب يوسف لكنه يضيف عن الغور زيادة على ما أورده الاصطخري بقوله: « وبه فاكهة وأب ونخيل وعيون وأنهار ويسقط به الثلج » (ص 173).

وفي أواخر القرن الرابع الهجري يعطي المقدسي تفصيلات أكثر وأدق عن إنتاج المواقع الأردنية، حيث اشتهرت البلقاء بالبرد، وأن أكثر أهل عمان شيعة (ص 179)؛ « ومن أريحا نيل غاية ومن صغر وبيسان النيل والتمور ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد وبز ومن قَدَس ثياب المنيَّرة والبلعيسيّة والحبال، ومن صور السكَّر والخرز والزجاج المخروط والمعمولات، ومن مآب (مؤاب) قلوب اللوز، ومن بيسان الرز » (ص 180).

ومن هذا التضمين نستطيع معرفة الإنتاج الأردني آنذاك، والصادرات والتجارات التي اشتهرت بها هذه الديار:

1- النيّلة، وهو من المنطقة الحارة المرويّة، وهو الغور وأريحا.

2- التمر، وهو في الأغوار ومنطقة غور الصافي؛ ويشتهر الغور الأردني بالتمور، وقد ورد لدى الاصطخري (ق 4 هـ): « وبزغر بَسْرٌ يقال له الأنقاء، لم أرَ بالعراق ولا بمكان أعذب ولا أحسن منظراً منه كأن لونه الزعفران لا يغادر منه شيء (أي لا يُلقى منه شيء عند الأكل)، ويكون أربعة منه شبراً » (ص 47-48) وأيضاً (ص 64-65). نجد أن الاصطخري قد عرف هذا التمر بنفسه وذاقه وأكل منه، ووصفه وصف الخبير المجرّب. أما الآن، في مطلع القرن الحادي والعشرين فإن الغور الجنوبي يخلو من حدائق النخل، ما عدا شجيرات على حواف المزارع كشيء من الزينة والتسوير حول البيارات. وبذلك نجد أن القدماء كانوا أكثر معرفة بطبيعة الأرض، والمزروعات المناسبة لها، من أجيالنا التي أتيحت لها سائر السبل العلمية لتطوير الزراعة، وأكثر استغلالاً، وأرقى إنتاجاً.

3- الحبوب والخرفان والعسل، وهي من عمان، أي منطقة البلقاء، حيث سهول حسبان وأم العمد ومأدبا، وشرقي عمان، وغربي عمان، والبقعة، وما إلى ذلك. وتستدل من هذا أنها كانت منطقة زراعية رعوية، برية، تكثر فيها القطعان، ويزرعها الإنسان، وتوجد فيها خلايا النحل البري أو المربى، مما أدى إلى تصدير الحبوب والخرفان والعسل إلى بلاد فلسطين. وهذا دليل أن الأردن كانت بلاد الخيرات، والتربة الخصبة والمياه الغزيرة والإنتاج الوفير.

ويمكن أن نتخيل قطعان المواشي وهي تساق إلى فلسطين لتزويدها باللحوم، حيث بقي نمط من هذه التجارة قائماً حتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين، وكان الكاتب الحالي يذكرها جيّداً في طفولته، إذ كان التجار يأتون من فلسطين ويشترون الخراف والماعز، ويسوقونها إلى هناك، وكان يقوم بهذه المهمة أحياناً أناس من شرق الأردن.

ومن جملة الأشياء المصدّرة في بداية القرن العشرين: الفحم، والقمح، حيث أن والدي كان أحد التجار بهذه المواد من الأردن إلى فلسطين، وكان يأتي

من فلسطين بالزيت والقطين والزبيب مقابل ما يرسله من الأردن من الفحم والقمح، ويبدو أن هذه التجارة بقيت على مرّ العصور بصور وأشكال شتى بين ضعف وقوة ونمط وآخر، ومَدٌ وجَزْر وتداولها الناس عبر الأجيال، وهو يصوّر ما كان يحدث في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه المقدسي. ويبيّن أن الحاجة في كل من الأردن وفلسطين لفائض إنتاج الآخر، كان يصبّ في الطرف الآخر تلقائياً.

4- المنسوجات، وذلك مثل شقاق المطارح، المسماة لدى العشائر الأردنية المفارش (ومفردها مفرش)، وبعضهم يطلق عليها البُسُط (مفردها بساط »). كما كانت تُصدَّرُ الثياب والحبال من الحولة، والبزّ من طبرية.

5- الكاغد، وهو الورق، الذي كان مادة هامة وأساساً في الكتابة والتأليف. السكر، الذي كان يُصدَّر عن طريق صور، والذي كان يُنتج في الأغوار. الرز، وكان مصدره بيسان حيث الجو الحار الرطب، والمياه الغزيرة المتوفرة على مدار السنة. اللوز، من منطقة مآب، وشيحان والكرك. الزجاج، من صور وقد ذكره الإدريسي أيضاً (ق 6 هـ ص 365). الحلويات (المعمولات) بأشكالها وألوانها. ويقول المقدسي: « وبالأغوار معادن كبريت وغيره، ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور وخير العسل ما رعى السعتر بايليا وجبل عاملة واجْوَدُ المُرِي ما عُمل بأريحاء » (ص 184).

وحول ما يخرج من البحر الميت يقول ابن خرداذبة (ق 3 هـ): «ويخرج من البحيرة المنتنة ملح يصلح للصاغة وقير يسمى الحُمَّر» (ص79) ويقول الاصطخري (ق 4 هـ) عن منتوجات البحر الميت: « وتقذف بشيء يسمى الحمّر منه يلقّحون كروم فلسطين » (ص47)؛ وقد أورد أبو الفداء (ص228) نفس المعلومات أيضاً، وبذلك نرى أن الأردن كان مركزاً للزراعات والصناعات

والمنتجات التي كانوا يصدّرونها إلى الأقاليم والأجناد من حوله، وذلك يعني كفاية أهل الأردن منها، وأنها بلد كانت تتمتع بالاكتفاء الذاتي، وأن أهلها كانوا على درجة عالية من النشاط والعمل الزراعي والتجاري والرعوي والصناعي، بحيث أضحت البلدان الأخرى محتاجة إليها، أكثر من حاجة الأردن إلى هذه البلدان.

-5-

العلمـاء

وقد ذكر الحموي (ق7هـ) جماعة من العلماء وافرة؛ منهم: «الوليد بن مسلمة الأردني، حدّث عن يزيد بن حسّان ومسيلمة بن عدي، حدّث عن العباس بن الفضل الدمشقي، ومحمد بن هارون الرازي، وعبدالله بن نُعيم الأردني، روى عن الضحاك بن عبدالرحمن بن عرزب، روى عنه يحيى بن عبدالعزيز الأردني، وأبو سلمة الحكم بن عبدالله بن خُطّاف الأردني، والعباس ابن محمد الأردني المرادي روى عن مالك بن أنس، وخُليد بن دعلج ذكره ابن أبي حاتم في كتابه، وعبادة بن نُسَيّ الأردني، ومحمد بن سعيد المصلوب الأردني مشهور وله عدة ألقاب يدلّس بها، وعلي بن إسحاق الأردن حدّث عن محمد بن زيدي المستملي، حدّث أبو عبدالله بن منده في ترجمة خشب من معرفة الصحابة عن محمد بن يعقوب المقري عنه، ونُعيم بن سلامة السبّائي، وقيل الشيباني، وقيل الغسّاني، وقيل الحميري مولاهم الأردني، سمع ابن عمر وسأله وروى عن رجل من الصحابة من بني سليم، وكان على خاتم سليمان بن عبدالملك، وعمر بن عبدالعزيز، وروى عنه أبو عبيد صاحب سليمان بن عبدالملك، ورجاء بن حياة، والأوزاعي، وعطاء الخراساني، ومحمد بن يحيى بن حبّان، وعتبة بن حكيم أبو العباس الهمداني الأردني، ثم الطبراني سمع مكحولاً، وسليمان بن موسى، وعطاء الخراسانين وعباس بن نسي، وقتادة بن

دعامة، وعبدالرحمن بن أبي ليلى، وابنة عيسى بن عبدالرحمن، وابن جريج وغيرهم؛ روى عنه يحيى بن حمزة الدمشقي، ومسلمة بن علي، ومحمد بن شعيب بن شابور، وإسماعيل بن عباس، وبقية بن الوليد، وعبدالله بن المبارك، وعبدالله بن لهيعة وغيرهم، وقال ابن معين، هو ثقة، وكذلك أبو زرعة الدمقي. ومات بصور سنة 147 » (ج1، ص 149).

وبذلك نجد أن العلماء الأردنيين المذكورين قد عملوا في مجالات شتى، منها: رواية الحديث، أمانة سرّ الخليفة – حامل خاتمه؛ ورجل الدولة، وقائد الشرطة، وقادة الجيوش والفتوح. وما إلى ذلك من صنوف الشعر والفقه والفروسية والأدب والعلم والطب والفلك (انظر أيضاً القافلة المنسية، يعقوب العودات، ط 2، بيروت، 1985). ولا شك أن وضع نسبة الأردني بالتسمية، بأن يقال: فلان الأردني، يبين أهمية الأردن، ووضوح هويته وشخصيته ومنطقته، وليس مجرد اسم عائم أو غائم أو معلّق في الهواء.

ونستطيع القول أنه يمكن استخلاص نقطة هامة من كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين، في أن الأردن تشمل جبال الشراة حتى إيلة (العقبة)؛ وجنوب سَرْغ (المدورة)، وبلاد مدين حتى تبوك وبخط يحاذيها حتى سواحل البحر الأحمر ومعان؛ والطفيلة، وجبال الشراة بما فيها الشوبك ووادي موسى؛ ومآب بما فيها الكرك ومؤتة والربّة، ووادي الموجب؛ ومنطقة البلقاء الحالية بدءاً بذيبان، ومروراً بمأدبا وحسبان وعمان والسلط والموقر وانتهاءً بسيل الزرقاء، ثم المنطقة الشمالية من جرش إلى عجلون وإربد، فالأغوار الجنوبية والوسطى والشمالية، والبحر الميت ونهر الأردن، وأم قيس وبيت راس، والرمثا، وجانبي نهر الأردن وغورهما «وكل ما على جنبيه أردني» حتى أريحا غرباً، وطبرية وبيسان والحولة، وصور وعكا وسواحلهما على البحر المتوسط، والبادية

الشرقية، ودرعا، وحوران، والجولان، وجبل الشيخ، وروافد نهر الأردن، وحوض منابعه. ثم في البادية الشرقية: الجوف ووادي السرحان، وبذلك نتناول الأردن بمفهوميه التاريخي والمعاصر على حدٍّ سواء.

-6-

الغـور

ثم نأتي إلى أرض الغور حيث يقول عنه الاصطخري (ق 4 هـ): « والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً وبه عيون وأنهار ونخيل ولا تستقر به الثلوج وبعض الغور من حدّ الأردن إلى أن تجاوز بيسان، فإذا جاوزته كان من حدّ فلسطين، وهذا البطن (أي الغور) إذا امتدّ فيه السائر أدّاه إلى إيلة » (الاصطخري: ص 59).

ويقول في موقع آخر: « وديار قوم لوط والبحيرة المنتنة وزُغر إلى بيسان وطبرية تسمى الغور لأنها بين جبلين وسائر بلاد الشام مرتفع عليها وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل » (ص 56).

وبذلك نرى أن ما كان من الغور، عند الاصطخري، من فلسطين، هو منها إدارياً فقط، وأن الغور عنده يشمل الحفرة الانهدامية من شمال طبرية مروراً بالبحر الميت حتى جنوب غور الصافي، وأن سائر الغور بضفتيه أردني (عند الاصطخري).

ويقول المقدسي (ق 4 هـ): « وبالأغوار معادن كبريت وغيره، ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور، وخير العسل مارعى السَّعتر بايليا وجبل عاملة وأجود المُري ما عمل بأريحاء » (ص 184).

ثم يقول: « ونهر الأردن ينحدر من خلف بانياس فيتبحّر بإزاء قدس (بحيرة الحولة) ثم ينحدر إلى طبرية، ويشق البحيرة ثم ينحدر في الأغوار إلى

البحيرة المقلوبة وهي مالحة جداً وحشة مقلوبة منتنة فيها جبال وليس فيها أمواج كثيرة » (ص 184).

وفي وصفه لبلدان الأغوار يقول المقدسي: « والصف الثالث الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل يقع فيه من البلدان ويلة وتبوك وصغر وأريحا وبيسان وطبرية وبانياس » (ص 186).

وهنا نرى أن المقدسي يجعل الغور يضم كل المواقع في الحفرة الانهدامية بدءاً بالعقبة وانتهاءً بطبرية، وهي أرض أردنية، لأن طبرية كانت العاصمة. وهو هنا يضيف تبوك كجزء من الأغوار، ولا نرى مبرراً طبيعياً لما يقول.

ويقول الإدريسي (ق 6 هـ): « وأريحا المذكورة من أجل بقاع الغور وعمتا وبيسان وأكثر غلات بلاد الغور النيلج، وأهله سمر بل هم إلى السواد أقرب » (ص 356).

ويكرر أبو الفداء (ق 8 هـ) ما كان قاله ابن حوقل (ق 4 هـ) من أن: « الغور أوله بحيرة طبرية ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي إلى زغر وأريحا إلى البحيرة المنتنة ويمتد كذلك إلى أيلة » (ص 226).

ثم نأتي إلى مزيد من التفاصيل عن الغور، فنقول:

يرى البكري: « والغور مثله: موضع بالشام... وهذا الغور الشاميّ هو الذي أراد أبو الطيب بقوله: لولاك لم أترك البحيرة والغور دفِيء وماؤها شَبِمُ » (ج 1، ص 1008).

وأما الحموي (ق 7 هـ) فهو أكثر تحديداً وتدقيقاً في الوصف والذكر، حيث يقول: « والغور غور الأردن بالشام بين البيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمي الغور، طوله مسيرة ثلاثة

أيام، وعرضه نحو يوم، فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثير، وعلى طرفه طبرية وبحيرتها ومنه مأخذ مياهه، وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية، وهو وخمٌ شديد الحر غير طيب الماء وأكثر ما يُزرع فيه قصب السكر، ومن قراه، أريحا مدينة الجبارين، وفي طرفه الغربي البحيرة المنتنة وفي طرفه الشرقي بحيرة طبرية » (ج 4، ص 216-217).

وبذلك نجد أن الغور هو غور الأردن، وأنه سمي كذلك لانخفاضه عما يجاوره من الأرض، ويجري فيه نهر الأردن. ولم يكن في القرن السابع الهجري خالياً، بل مليئاً بالقرى والسكان والزراعات وخاصة قصب السكر.

من هذا الذي ذكره الحموي نرى أن أريحا أردنية، وكذلك البحر الميت وبحيرة طبرية، حيث تقع في الغور المسمى أصلاً: غور الأردن.

وفي موقع آخر يقول الحموي (ق 7 هـ) عن مكان يدعى قُصَيْر معين الدين « بالغور من أعمال الأردن يكثر فيه قصب السكر » (ج 4، ص 267).

ويتحدث الدمشقي (ق 8 هـ) عن الغور قائلاً: « وإقليم فحل والغور الأعلى والقصير ومدينة بيسان. والغور مقسّم ثلاثة أقسام: الأعلى هذا، والأوسط غور حمتا وأريحا، والأسفل غور زغر، ومدينة زغر، وطوله نحو من أربعة أيام، وعرضه الأعرض يوم، ومن عجيب مياهه الجارية أن بأعلاه بحيرة قدس يغيض الماء ويسيح نهراً هو نهر الأردن، ثم يمرّ ويصبّ في بحيرة طبرية بوسط الغور، ثم يخرج ويمرّ بالغور في وسطه حتى يصب في بحيرة لوط ﷺ، بأسفل الغور ثم لا يخرج منها، فكأن نهر الأردن فلك دائر مطلعه من بحيرة قدس بأعلى الغور وبوسط دورة قوسه بحيرة طبرية، وغروبه بحيرة زغر وبه من العجائب ما سنورد ذكرها في خصائص البلاد عند ذكرنا لها » (ص 201).

وبذلك نرى أن الغور عند الدمشقي (ق 8 هـ) ثلاثة أقسام هي: الأعلى، والأوسط، والأدنى، وأنه يتضمن أريحا وزغر وبيسان كمدن أردنية، وبحيرة طبرية، والبحر الميت كمياه ومواقع أردنية، ذلك أن هذه جميعاً حول نهر الأردن، أو جزء من فلكه الدائر معه.

ويذكر المغربي أن الغور طويل: « فيه قصب السكر والموز وآخره أريحا التي على أول البحيرة الميتة كانت مدينة للجبارين، وهي منيعة. وما بين هذا الغور والساحل غور بيسان » (ص 152).

-7-

البحيرة المنتنة

وتسمى: البحر الميت لأنه لا حياة فيها لحيوان أو نبات؛ والبحيرة المنتنة، وذلك لسوء رائحتها، والبحيرة المقلوبة، وذلك اشتقاقاً من قوله سبحانه ﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [الحجر: 74] أي أنها انقلبت رأساً على عقب، وبحيرة زغر وذلك لوجود مدينة زغر التي كان بها أناس من قوم لوط بمحاذاة البحيرة؛ فأنجاهم الله لأنهم لم يعملوا الخبائث، وبحيرة سدوم نسبة لاسم مدينة سدوم التي كانت بمحاذاتها وخسفها، الله لأنها كانت تمارس الكبائر حتى أن اللواط يعني باللغة الإنجليزية Sadomy نسبةً إلى هذه المدينة؛ وبحيرة لوط وذلك لأن سيدنا لوط كان الله ابتعثه في قوم يسكنون تلك المنطقة، والبحيرة المسخوطة لما حلّ بقوم لوط وأهلها من غضب الله سبحانه وسخطه، وبحيرة صُغَر لأن مدينة زغر تكتب عند بعضهم صُغَر (أي بالصاد لا بالزين)، والمؤتفكات وهو الاسم الذي كان يُطلق على المدن التي خسفها الله سبحانه.

والحديث عن البحيرة المنتنة، يعني أيضاً الحديث عن الغور المحاذي لها والمدن القديمة المحيطة بها المخسوفة منها والسليمة.

يقول ابن خرداذبة (ق 3 هـ): « ومن بيت المقدس إلى البحيرة المنتنة بلاشك أربعة أميال، ويخرج من البحيرة المنتنة ملح يصلح للصاغة وقير يسمى الحمْر وهو قفر اليهود، ويقال أن الأردن الذي يصبّ في البحيرة المنتنة يخرج بأرض الهند » (ص 79). ومن الواضح أن ابن خرداذبة وقع في خطأ عند تقدير المسافة ما بين بيت المقدس والبحر الميت، فهي ليست أربعة أميال، وإنما أربعة مراحل على الأقل. أما قوله أن نهر الأردن يخرج بأرض الهند، فهذا مخالف للطبيعة والعلم، ولا يتفق مع العقل، وأستغرب كيف وقع فيه عالِم جليل كهذا العالِم.

أما استخراج الملح من البحر الميت فهو مشهور، وأذكر أن البدو بقوا يستخرجونه منه حتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين، وكانوا يفضلونه على ملح الأزرق، وذلك لشدة تركيزه، ومساهمته في الشفاء من بعض الأمراض وقتله للجراثيم بالطعام.

وكان البدو يستخدمون ماءه لغسل أجسام إبلهم وأغنامهم، حيث يذهبون بها هناك، ويقومون بذلك بأنفسهم، حتى إذا ما كانت مصابة بالجرب شفيت، كما كانوا يعتقدون أنها لا تصاب به ولا بغيره من الأمراض الجلدية إذا ما غُسلت بمائه مرّة بالسنة. وقد بقيت هذه العادة سائدة بشكل عام حتى نهاية الخمسينات من القرن العشرين ثم تقلّصت لوجود العناية البيطرية. وكانوا يقولون: بَحّرْنا و «التبحير»، وذلك يعني زيارتهم البحر الميت وغسلهم مواشيهم بمائه، حيث لا يوجد بحر قريب منهم إلا هذا البحر أصلاً. ولا تقال كلمة بَحّرنا (بتشديد الحاء) أو تبحير إلا لعملية غسيل المواشي المذكورة أو للأشخاص المصابين بمرض جلدي ويتم غسلهم بمائه أيضاً.

وفي نهاية عام 1985 كنت في زيارة للبحر الميت حيث التقيت أعرابياً من نازحي بئر السبع ومعه ولده الطفل المصاب بمرض جلدي برأسه، جاء يغسله بالبحر الميت طلباً للشفاء، وسألت الله له ذلك.

وماذا يقول الاصطخري (ق 4 هـ)؟ : « البحيرة المنتنة من الغور، (أي غور الأردن) بقرب زُغر وإنما تسمى المنتنة لأنه ليس فيها شيء من الحيوان لا سمك ولا غيره وتقذف بشيء يُسمى الحمَّر، منه يلقّحون كروم فلسطين » (ص 64).

وهذه منفعة إضافية لماء البحر الميت، في أنهم يستخدمون الحمَّر الذي كان يخرج منه لتلقيح الكروم في فلسطين، وهذا أمر ذكره الاصطخري أيضاً في موقع آخر (ص 47)، كما ذكره ابن حوقل (ق 4 هـ) (ص 184-185)، وهو يضيف أن أهل زغر كانوا يلقّحون كرومهم مما يدل على أنهم كانوا مزارعين وعندهم من صنوف النخيل وغيره من المزروعات.

أما زغر والتي هي منطقة الصافي الآن (أي: غور الكرك)، يذكر الاصطخري (ق 4 هـ) أن بها: « بسر يقال له الأنقلاء لم أرَ بالعراق ولا بمكان أعذب ولا أحسن منظراً منه كأنه لون الزعفران لا يُغادَرُ (أي لا يُرمى منه عند الأكل) منه شيئاً ويكون أربعة منه شبراً » (ص 64-65). وهنا نناشد المهتمين بالزراعة والحفاظ على أجناس النخيل النادرة، إن استطاعوا الحصول على مثل هذا النوع من النخيل، أو اكتشافه، وإعادته إلى موطنه الأصلي وهو منطقة غور الصافي (زُغر) وأن يجري التوسع في استنساخه من هناك.

ثم يتطرق إلى ديار قوم لوط المحيطة مباشرة بالبحيرة المنتنة فيقول: « وديار قوم لوط هي أرض تسمى الأرض المقلوبة وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش وهي بقعة سوداء قد فُرشت بحجارة كلها متقاربة في الكبر يُروى أنها الحجارة المسوّمة التي رُمي بها قوم لوط وعلى عامة تلك الحجارة كالطابع » (ص 64-65).

وهنا نجد صورتين متباينتين هما: الصورة الأولى وجود نوع من الرطب المسمى بسر، لذيذ الطعم رائق اللون، يؤكل كله، طويل الحبّة بحيث تساوي الأربع حبّات منه شبراً، ويكرر هذا القول في (ص 47-48). أما الصورة الثانية

فهي أن الأرض المحاذية تماماً لمياه البحيرة، تلك الأرض التي يعتقد أنها كانت ديار قوم لوط ﷺ ، جافة قاحلة ليس بها من زرع ولا ضرع ولا حشيش، وبدلاً من ذلك فإنه مرصوفة بالحجارة التي يُعتقد أن الله رمى بها قوم لوط.

ويرى الياكوتي أن: « زغر اسم بنت لوط ﷺ نزلت بهذه القرية فسميت باسمها وهي في وادٍ وخم » (ص 11 أ). ويرى أنها قيعة: « يسكنها أهلها لحب الوطن، بها عين زغر ذكر أنها تغور في آخر الزمان » (أعلاه). وهنا نجد الياكوتي يركّز على الوطنية لدى الأردنيين، حتى أن أهل هذه المنطقة لم يغادروها رغم وخامتها، بسبب حبّهم لوطنهم وانتمائهم لبلادهم. ولم يقل حبَّ المكان بل قال حب الوطن؛ وذلك يوضح أن الوطن الأردني كان واضحاً في أذهانهم منذ أمد بعيد، وأن الوطنية الأردنية قديمة متجذرة، وليست وليدة توجيه سياسي أو تنظير نفاقي، وأن الكيان الوطني كان مفهوماً لديهم.

وأما المقدسي (ق 4 هـ)، فيسميها صُغَرْ، أو صقر (بالغين والقاف) ويطلقه على المدينة المجاورة للبحر، وهو يرى أنها قاتلة للغرباء، وأن سكانها سود غلاظ وماؤها حميم، وكأنها جحيم « إلا أنها البصرة الصغرى والمتجر المربح وهي على البحيرة المقلوبة وبقية مدائن لوط وإنما نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة والجبال منها قريبة » (ص 178). وأن هذا الوباء لم يكن قادراً على اهلها، لأنهم تعوّدوا ذلك، لكنه قاتل للغرباء الذين لم يألفوا غلاظة الحياة في جزء من ديارنا الأردنية.

وأما قول المقدسي: «أنها قاتلة للغرباء»، فهو يعزز قول الياكوتي الذي يقول أن أهل هذه المنطقة يسكنوها «لحب الوطن»، وهذه شهادة من المقدسي المعروف بتعصّبه لبلده، وعدم حبّه للأردن، أنه عندما جاء إليها كان غريباً عليها، وأنها لا تتقبّل الغرباء، وأنها عصيّة على غير أهلها، مطيعة لمحبّيها الذين

توارثوها وتوارثوا العيش فيها آلاف السنين. ولم يتمكن غريب من العيش بينهم إلا عندما جوّعتهم القرارات السياسية وأذلّتهم بلقمة العيش، وفُرِضَتْ عليهم القوانين الجائرة لاستلاب أراضيهم لصالح الغرباء.

ومما ذكره المقدسي، نجد الأمور التالية:

فهو يقول: « وقد رأيت بلداناً وبيّه ولكن ليس كهذه »، وهذا مؤشر على أنه زارها بنفسه، وأنها مليئة بالحمى والأمراض الأخرى الناتجة عن الحرارة وعدم صحية الماء.

وهو يصف أهلها بأنهم سود البشرة، غلاظ الطباع، بينما ماؤها مليء بالداء والوباء، حتى غدت وكأنها جحيم.

ورغم هذا كله، فهي: موقع التجارة، بما يشبه البصرة، حيث هناك الناتج من البُسْرِ المار ذكره، وحاجة الناس الموجودين، وبالتالي يتطلب الأمر وجود التجارة العامرة. ثم يحدد صغر على أنها على البحيرة المقلوبة، وأن هناك من مدن قوم لوط من نجي من العذاب، لأنهم لم يكونوا يأتون الفاحشة. وهذا برهان جديد على ما قلنا سابقاً: أن الله سبحانه، أعطى الأردن ميزة قدسية المكان، وأن العذاب كان يحلّ بالموقع الذي وقعت فوق أرضه الكبائر، وأن الموقع المجاور يبقى سليماً من الأذى وكأن شيئاً لم يحدث لدى جاره. كما أن ذكره لها أنها على البحيرة المقلوبة يتبين أن البحر الميت كان أكثر مساحةً آنذاك، وكان يمتد مسافات واسعة وأنه تقلّص مع الزمن قبل أن تناله أيدي الاستغلال الجائرة التي تعمل على تقليصه المستمر السريع بشكل ملحوظ.

ثم يؤكد أمراً آخر وهو أن « الجبال » أو منطقة الطفيلة قريبة من صغر – زغر – ، وذلك يدل بيقين أن صغر هي غور الصافي المحاذية في بعض مواقعها لجبال الشراة.

ومن مدائن لوط، مدينة سدوم، حيث كان فيها قاضٍ مشهور بظلمه للناس، الذي أصبح مضرب المثل: « ويقال: أجور من قاضي سَدوم، وأجْوَرُ من سدوم » (ج 3، ص 229). ويروي البكري (ق 5 هـ) عن الكلبي أن: « زغر: امرأة نسبت إليها هذه العين. قال حاتم:

سـقى الله رَبُّ الـناس سَـحّاً وديمة جـنوب الشراة من مآب إلى زُغر

-8-

الشــراة
(البكري: ج 2، ص 669)

« أرض من ناحية الشام. ومآب: موضع هناك » وهذه إشارة واضحة في أن زُغر هي غور الصافي الحالي، حيث أرضه خصبة، وماؤه غزير قادم في ينابيع نقيّة صافية من جبال الكرك، وأما الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) فهي تسقى بماء السدود التي أقامتها سلطة وادي الأردن في ثغور الوديان المحاذية لها من الشرق، في أماكن السدود التي كان الأنباط أقاموها من قبل عند أقدام جبال الكرك، وتلاقي الوديان. ويستدرك البكري قائلاً: « وقال ابن سهل الأحول: سُمّيت بزُغَر بنت لوط » (ج 2، ص 699).

ويحدد الحموي (ق 7 هـ) اسم: البحيرة المنتنة للبحر الميت، فيقول: « البحيرة المنتنة، وهي بحيرة زُغَر، ويقال لها: المقلوبة أيضاً، وهي غربي نهر الأردن قرب أريحا، وهي بحيرة ملعونة لا يُنتفع بها في شيء ولا يتولد فيها حيوان، ورائحتها في غاية النتن » (ج 1، ص 352)، ويعطي مزيداً من الكلام عنها مثبت في الملحق مفصّلاً.

وأما سدوم، فيقول عنها الحموي (ق 7 هـ) أنها: « مدينة من مدائن قوم لوط كان قاضيها يقال له سدوم (...) يضرب به المثل فيقال: أجور من قاضي سدوم » (ج 3، ص 200-201).

ويضيف القزويني أن سدوم كانت « أحسن بلاد العالم للناظرين وقصبة للعديد من قرى قوم لوط، وكانت أكثرها مياهاً وأشجاراً وحبوباً وثماراً، إلا أنها تسمى الآن: المقلوبة لا زرع بها ولا ضرع ولا حشيش » (ص 202-203).

وفي هذا النص نجد تطابقاً مع ما ورد في التوراة عندما اختار النبي لوط ﷺ هذه الأرض لأنها كانت جنات خضراء تجري من تحتها الأنهار بما لا يقل عما هو عليه حال مصر في زمنه. كما أن ذلك يبيّن ازدحام السكان لتوفر سبل الحياة، ولكن هذه الخيرات طوّحت بهم إلى كفر النعمة بدل شكر المنعم، وهو الله سبحانه.

أما القزويني (ق 7 هـ) فيقتبس عن المقدسي دونما إشارة إليه (ص 193).

ويؤكد الحميري (ق 9 هـ) أن سدوم بأرض الشام، وأن قاضيها كان جائراً (ص 308). ويضيف إلى مدن لوط مدينة زعوراء (الحميري: ص 294).

-9-

اريحـا

ثم نأتي إلى مدينة أريحا في غور الأردن، حيث يقول الياكوتي: « أريحا مدينة بقرب بيت المقدس من أعمال الأردن بالغور ذات نخيل وموز وسكر كثير وهي قرية الجبارين » (ص 16 أ).

فهي إذن في الغور من حيث الموقع، وهي من أعمال الأردن من حيث الطبيعة والإدارة؛ وتشتهر بطيب الفواكه والخضراوات، وبخاصة الموز والسكر

الذي يعني أيضاً: وجود أيدٍ عاملة ماهرة تعتني به، ورغم أنها بالقرب من بيت المقدس من حيث المسافة، إلا أنها من الأردن، لأنها في غوره وتابعة له.

وفي القرن الرابع الهجري، يتغاضى المقدسي عن تبعية أريحا الإدارية، دونما سبب؛ وذلك ما يطوّح بمعلوماته العلمية، ويقتصر على ذكر ما تشتهر به هذه المدينة في زمنه، حيث يقول: « وهي معدن النيل والنخيل رستاقها الغور وزروعهم تسقى من العيون شديدة الحرّ، معدن الحيّات والعقارب (...) كثيرة البراغيث، غير أن ماءها أخفّ ماءٍ في الإسلام كثيرة الموز والأرطاب والريحان » (ص 174-175).

فهي أرض زراعية، وهي مدينة يتبعها الغور (أي أنها قصبة الغور في الرابع الهجري)، وفيها عيون غزيرة، ومياهها خفيفة مريحة، كثيرة الفواكه. غير أنه يتغاضى عن تبعيتها الإدارية والجغرافية، مما يعطي المؤشر الذي لا يقبل الشك، أنها كانت في زمنه تابعة للأردن؛ ولولا ذلك لذكره دونما تردد

ويبين البكري (ق 5 هـ) أن: « أريحا قرية بالشام، وأن لها اسماً آخر هو: أرْيَحْ » (البكري: ص 143).

أما القزويني (ق 7 هـ) فيقول أنها: « مدينة بقرب بيت المقدس من أعمال الأردن بالغور » (ص 142)، ثم يتحدث عن قصة دخول سيدنا موسى ﷺ إليها. ويبين الحميري (ق 9 هـ) أن: « أريحا: من أجلّ بلاد الغور بالشام » (ص 25).

-10-
بَيْسَان

ثم نأتي إلى موقع آخر في الغور من الشمال الأردني، وهو بيسان، والتي كانت كورة (ابن خردذابة ق 3 هـ ص78)، من كور الأردن. ويقول البلاذري (ق3هـ)

عن فتح بيسان: « فتح شرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح فتحاً يسيراً بغير قتال، ففتح بيسان، وفتح سوسية، وفتح أفيق، وجرش، وبيت رأس، وقدس، والجولان » (ص 116).

ويقول المقدسي أن بيسان من الأردن، ومحاذية لفلسطين، وهي على النهر. وبذلك نستدل أن حد فلسطين يقع إلى الغرب من بيسان، حيث يقول: « بيسان على النهر كثيرة النخيل، وإزاء فلسطين، والأردن منها (أي أنها جزء من الأردن ومحاذية لفلسطين) غزيرة المياه رحبة إلا أن ماءها ثقيل » (ص 162)، ثم يذكر اللجون (الشمالية) على أنها « مدينة على رأس حدّ فلسطين في الجبال بها ماءٌ جار رحبة نزيهة » (ص 162)، وبذلك يتبين أن الحدّ ما بين الأردن وفلسطين من الشمال كان عند اللجون الشمالي ومن العجيب أن يعترف المقدسي بأردنية بيسان ولولا أن ذلك جزء من التاريخ عبر الحقب لما نطقها.

ويقول البكري (ق5هـ) أن بيسان موضعان: أحدهما بالشام والثاني بالحجاز (ج 1، ص 292).

وبيسان عند الحموي (ق 7 هـ): « مدينة بالأردن بالغور الشامي، ويقال لها لسان الأرض، وهي بين حوران وفلسطين، وبها عين الفلوس يقال أنها من الجنة (...) وتوصف بكثرة النخل، وقد رأيتها مراراً، فلم أرَ فيها غير نخلتين حائلتين (...) وهي بلدة وبئة حارة أهلها سُمُر الألوان جُعْدُ الشعور لشدّة الحرّ الذي عندهم » (ج 1، ص 527).

وبذلك نرى عند الحموي أن بيسان من الأردن، وأنها لم تكن ذات نخيل زمنه، مما يدل على أن الزمن قد عفا على نخيلها آنذاك. بينما هي مشهورة بالخمر، وذلك مستمد عند الحموي من الأبيات الشعرية التالية:

جـزى الله خـيراً، والجـزاء بكفّـه   فـتى مـن عُقَيلٍ ساد غير مكلّف
فـتى كـانت الدنيـا تهـون بأسـرها   عـليه، ولم ينفك جـمّ التصـرُّف
يـنال عـليّان الأمـور بهونـه   إذا هـي أعيت كُلَّ خَرْقٍ مشرَّف
هـو الدّوب، أريُ الضحالي، شُبْتَهُ   بدِرْياقـة مـن خمـر بيسـان قَرْقَفِ

(ج 1، ص 527)

ويؤكد شهرتها بالخمر، ما قاله الحميري (ق9هـ)، حيث يذكر قول الأخطل:

جـاءوا ببيسـانيّةٍ هـي بعدمـا   يُعَلُّ بهـا السـاقي ألـذُّ وأسـهل

ويقال إن الموضع الذي قتل فيه جالوت كان بيسان من أرض الغور من بلاد الأردن » (ص 119). وبذلك نجد أن بيسان والغور من بلاد الأردن.

وفي الضفة الشرقية من نهر الأردن، في الغور الشمالي، نجد بلدة « فحل » المقابلة لبيسان، وهي قرب الشونة الشمالية الحالية، حيث يقول البلاذري: « يوم فِحْل من الأردن: قالوا وكانت وقعة فحل من الأردن (...) وأمير الناس أبو عبيدة بن الجراح، وكان عمر قد كتب إليه بولايته الشام » (ص 158). ثم يقول: «فلقوا المسلمين بفحل من الأردن فقاتلوهم أشدّ قتال وأبرحه، حتى أظهرهم الله عليهم» (أعلاه).

ويذكر النويري (ق 8 هـ) عن غزة طبقة فحل عام 13 هـ ويكتفي بالقول: « وهو بلد معروف بغور الشام » (ج 19، ص 159)، ثم يذكر شيئاً من التفاصيل عن معركة فحل بين المسلمين والروم.

ويتحدث الحميري بعد قرن (ق 9 هـ) بنفس المعلومات التي ذكرها النويري، ولكنه يضيف قائلاً: « وغلبوا (أي المسلمين) على سواد الأردن وأرضها، وكتب أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنهما بالفتح، ولما رأى أهل فحل أن الأردن

قد غلبوا عليه سألوا الصلح على أن يؤدوا الجزية، فصالحهم المسلمون وكتبوا لهم كتاباً » (ص 436)، وبذلك نجد أنه يضم غور الأردن ضمن سواد الأردن، لما فيه من مزروعات خضراء، ومنتوجات خصبة.

أما غور الأردن فهو ما كان على ضفتي نهر الأردن الشرقية منها والغربية، يقع الغربي منه تحت الاحتلال الإسرائيلي، الشمالي منه عام 1948، والوسط عام 1967، أما ما كان شرقي النهر فيتبع إلى محافظة إربد في الشمال حتى مقام سيدنا أبو عبيدة ومنطقة كريمة. بينما يتبع الغور الأوسط الممتد من أبو عبيدة حتى البحر الميت إلى محافظة البلقاء والتي مركزها الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) مدينة السلط.

وتمتد في هذا الجزء قناة الغور الشرقية التي هي تحويل لمياه نهر اليرموك، منذ عام 1964، وقامت على عدة مراحل، باتجاه الجنوب لتروي غور الأردن الشرقي، حيث نشأت على إثر ذلك العديد من تجمعات الأسكان، وتوسع بعض المدن، كما ازدهرت الزراعة التقليدية منها والحديثة.

وأما المدن فهي: الشونة الشمالية، ووقاص، وكريمة، ودير علا، والصوالحة (وما يتبعها من قرى المشالخة)، ومعدي (ويسكنها الغنانيم والنعيمات والياصجين من عباد)، ودامية الحديثة (ويسكنها الختالين والرماضنة، والمناصير، والزيود من عباد)، ودامية الحديثة (ويسكنها الرماضنة من عباد)، والكرامة (ويسكنها البقور والرحامنة والزيادات من عباد)، والشونة الجنوبية (ويسكنها العدوان ويتبعها عدد من قرى العدوان أيضاً). ويزرع في هذه الأغوار (الشمالية والوسطى) الموز والمندلينا والبرتقال والليمون، والنخيل، والخضراوات من البندورة والخيار والقثاء والفاصوليا والبصل والملوخية وغيرها.

وقد بدأت الزراعة الحديثة منذ عام 1973، حيث تطوّرت زراعة البيوت الخضراء الأرضية والعالية، وأول من أقامها بالغور هو علي حسين الفرحان النعيمات العبادي (انظر التفاصيل في كتابنا - العشائر الأردنية ج1، و ج3).

وتتولى سلطة وادي الأردن أمر تنظيم الوحدات الزراعية التي تتراوح مساحاتها ما بين ثمانية وعشرين دونماً إلى خمسة وأربعين دونماً، تسقى بماء الصنابير المأخوذ من قناة الغور الشرقية، ويتم الري الآن بطريقة الدواليب لدى الفقراء، والتنقيط لدى الأغنياء.

أما الجزء الثاني من الغور الأردني فهو:الغور الجنوبي الذي يتألف من غور الذراع، والمزرعة، والحديثة، والصافي، وفيفة، وهي أراضي زراعية تزرع فيها الخضراوات وبعض الفواكه من البرتقال، أما الخضراوات فهي البندورة والباذنجان والخيار والكوسا والقثاء، وقد ضُمَّ عام 1981 إلى سلطة وادي الأردن، وأقيم سدّ من المياه على مجرى وادي الحسا، في مكان سدّ نبطي قديم.

ثم يمتد الغور إلى الجنوب عبر وادي عربة، حيث يقسمه خط الهدنة إلى قسمين، شرقي - للأردن، وغربي من فلسطين تحت الاحتلال الاسرائيلي منذ عام 1948. ويسكن هذه الأغوار (غور الكرك ووادي عربة) عشائر أردنية مستقرة من الكرك والغوارنة، والحويطات، والسعيديين، والعمارين. وقد تم إنشاء مشاريع زراعية وسكنية في منطقة ضربة التي سميت « رحمة » ، وقد بَنَتْ هذه العشائر بيوتاً مستقرة وكوّنت تجمعات سكانية وقرى وبلدات عامرة.

وتمتد الآن طريق - انتهت حديثاً - من العقبة، عبر الغور، إلى الشونة الشمالية (أقصى شمال غور الأردن)، وتم إنشاؤها ضمن خطة لتحقيق تقدم الغور وازدهاره، الذي - أي الغور - أصبح مركزاً لإمداد الأردن وغيره بالمنتوجات الزراعية - ما خلا الحبوب - على مدار السنة تقريباً، ضمن سياسة تحقيق الأمن الغذائي والاجتماعي.

ويقام على جنوب البحر الميت / منطقة اللسان، مشروع ضخم لإنتاج البوتاس من مياه البحر الميت، وهو مشروع عربي للرد على استغلال العدو الإسرائيلي للجانب الآخر من الثروة المعدنية المتوفرة في هذه المياه. ولكن هذه المشاريع الأردنية خضعت للنهب والسلب المنظم سرّاً وعلناً وتحت عناوين ومسميات كثيرة، حيث أفلست المشاريع وحيث ذهب اللصوص بالأموال إلى بطونهم وجيوبهم وأرصدتهم، على حساب البطون الأردنية الجائعة، والجيوب الخاوية والأرصدة التي لا توجد أصلاً، أو المفلسة إن وُجدت.

وأما من الناحية الإدارية، فإن الجزء الجنوبي يتبع إلى ثلاث محافظات هي:

1- الكرك: ويتبعه غور الذراع والمزرعة والحديثة والصافي وفيفة.
2- الطفيلة: ويتبعها فينان وغرندل وبير مذكور.
3- بقية وادي عربة: تتبع إلى لواء العقبة التابع لمحافظة معان، ثم تحولت العقبة إلى محافظة مستقلة وأصبحت حدودها تحاذي حدود محافظة الطفيلة مباشرة.

-11-

مواقع متفرقة

1- اجنادين

اتفق البكري (ق5هـ) والحميري (ق 8 هـ) على أنها من بلاد الأردن بالشام.

فالبكري (ق5هـ) يقول عن أجنادين أنها: « موضع من بلاد الأردن بالشام، وقيل: بل من أرض فلسطين، بين الرملة وحَبْرون »، قال كُثَيِّر (ج 1، ص 114):

إلى أهل أجنادين من أرض مَنْبَجٍ   على الهول إذ خَفْرُ القُوى مُتَلاحِمَ

ويرى الحموي (ق7هـ) أنه: « موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين » (ج1، ص 103). أي أنه تابع لفلسطين إدارياً في زمنه، إن صحّت الرواية.

أما الحميري (ق 8 هـ) فيرى غير هذا الرأي إذ يقول: موضع بالشام من بلاد الأردن، قال كثيّر (ص 12):

فإلا تكن بالشام داري مقيمة   فإن بأجنادين مني ومسكن
مشاهد لم يَعْفُ التنائي قديمها   وأخرى بميا فارقين فموذن

إذن لجد الحميري يؤكد أنها من بلاد الأردن أرضاً وجغرافيا وإدارة.

أما البلاذري (ق 3 هـ)، فيذكر وقعة أجنادين (بكسر الدال وبفتحها) على أنها في بلاد الشام، دون أن يحدد فيما إذا كانت من أرض الأردن أو أرض فلسطين (انظر ص 156-157)، وذلك لا ينفي أنها أردنية.

2- اليرموك

وارتبط اسم اليرموك بالمعركة المشهورة الفاصلة في تاريخ الإسلام بين جموع المسلمين وجموع الروم. وتقع أرض اليرموك في أرض الأردن، حيث يجري نهره ليصب بنهر الأردن جنوب بحيرة طبرية، وتم تحويل مياهه عبر قناة الغور الشرقية التي أشرنا إليها في حديثنا عن الغور، حيث تأخذ الأردن حصّة هزيلة، بينما تنعم إسرائيل بنصيب الأسد من هذه المياه.

يقول البلاذري (ق3هـ) أن هرقل جمع « جموعاً كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية تكون زهاء مائتي ألف وولى عليهم رجلاً من خاصته وبعث على مقدمته جبلة بن الأيهم الغساني في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم وعزم على محاربة المسلمين » (ص 184).

ويقول البكري (ق5هـ) أن اليرموك هو المكان الذي فيه: « التقى جمع الروم الأعظم والمسلمون » (ج 4 ، ص 1393).

أما الحموي (ق7هـ) فيعطي كما هي عادته تفصيلات أكثر عن المكان ويقول: « يرموك: واد بناحية الشام في طرف الغور الذي يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المتننة، كانت به (أي باليرموك) حرب بين المسلمين والروم في أيام أبي بكر الصديق، ﷺ » (ج 5، ص 434).

ويذكر النويري (ق 8 هـ) أن الروم قد نزلوا الواقوصة، « وهي على ضفة نهر اليرموك، حيث صار الوادي خندقاً لهم، واقبل المسلمون، فنزلوا عليهم بحذائهم » (ج 19، ص 117).

ويقول الحميري (ق 9 هـ) أن « اليرموك: موضع بالشام فيه كانت الوقيعة العظمى المشهورة للمسلمين على الروم في الصدر الأول ». ونرى من خلال ما ذكره أن سكان المنطقة كانوا من لخم وجذام، وهي قبائل أردنية عريقة.

3- وبيت رأس

من الأردن. ويقول البكري (ق 5 هـ): بيت رأس وهو حصن بالأردن، سمي بذلك لأنه في رأس جبل، قال حسّان:

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عَسَلٌ وماء

وقال أيضاً:

صُبِّح بصهباءَ لها سَوْرَةٌ من بيت رأس عُتِّقَتْ في الختام

وقال النابغة الذبياني:

كأن مشعشعاً من خمر بصرى نَمَتْهُ البُختُ مشدود الختام
حَمَلنَ قِلالَه من بيت رأس على لقمان في سُوقٍ مُقَامِ

« قال أبو عمرو وابن الكلبي: لقمان: مكان. وقال الأصمعي: لقمان: اسم خمّار » (ج 1، ص 288).

4- حطين

وهي من بلاد الأردن أيضاً، ويقول الحموي: « إن بها قبر شعيب ﷺ » (ج 2، ص 273). ويروي الحموي واقعة حطين باختصار فيقول: « كان صلاح الدين يوسف بن أيوب قد أوقع الإفرنج في منتصف ربيع الآخر سنة (583 هـ) وقعة عظيمة منكرة ظفر فيها بملوك الإفرنج ظفراً كان سبباً لافتتاحه بلاد الساحل، وقتل فرعونهم أرباط صاحب الكرك والشوبك، وذلك في موضع يقال له: حطين بين طبرية وعكا » (ج 1، ص 274).

وحول ضبط مكان حطين يقول الحموي: « بينه (أي موضع حطين) وبين طبرية نحو فرسخين، بالقرب منها قرية يقال لها خيّارة، بها قبر شعيب ﷺ ، وهذا صحيح لاشك فيه، وإن كان الحافظان ضبطاً أن حطين بين أرسوف وقيسارية ضبطاً صحيحاً. فهو غير الذي عند طبرية، وإلا فهو غلط منهما. وحطين أيضاً: موضع بين الفرما وتنّيس من أرض مصر » (ج 1، ص 274).

وبذلك نرى أن حطين الموجودة في فلسطين، غير تلك الموجودة في مصر، وهي غير الموجودة في الأردن حيث وقعت المعركة المشهورة. فإذا عرفنا أن طبريا وعكا اردنيتان، فإن ما بينهما لا يمكن أن يكون غير ذلك أبداً، خاصة وأن الخطوط المستقيمة أو مجاري الأنهار والأودية، هي التي كانت تعتمد في رسم الحدود بين المواضع والبلدان آنذاك.

ومن قرى الأردن: أرفيق، يذكر البكري (ق5هـ) أنها: « قرية بالشام، مشرفة على الأردن (أي على نهر الأردن)، وهي على موضع يقال له الأقحوانة، وهي من دمشق على يومين ونصف » (ج 1، ص 178).

5- وأما إربد فهي الآن مطلع القرن الحادي والعشرين مركز محافظة باسمها من شمال الأردن، وقد انفصلت عنها محافظة المفرق في نهاية عام 1985. ثم انفصلت عنها محافظتا عجلون وجرش في نهاية القرن العشرين وتسمى الآن عروس الشمال، وتتزود بالمياه من الأزرق في بادية وسط الأردن، ومن ينابيع محلية محاذية، وقد توسعت بعد إنشاء جامعة اليرموك فيها في منتصف السبعينات، وأخذت تتمدد باتجاه مبنى الجامعة المؤقت، وتكاد تتصل بالصريح والحصن الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين).

وقد هاجر إلى مدينة إربد أعداد هائلة من أهالي وسكان قراها، مما أسرع في تمددها، كما أن فيها جميع الخدمات اللازمة من إدارية وقضائية وتنفيذية وبلدية.

وعوداً بنا إلى إربد في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين، حيث يكتبها الحموي بفتح الألف والباء – أي أرْبَدْ وهي: « قرية بالأردن قرب طبرية، عن يمين طريق المغرب، بها قبر أم موسى بن عمران، ﷺ ، وقبور أربعة من أولاد يعقوب، ﷺ ، وهم دان، وأيساخار، وزبولون، وكاد، فيما زعموا » (ج 1، ص 136).

ونحن هنا لا نتفق مع الحموي بوجود قبر أم موسى بإربد، ذلك أنها كما يذكر القرآن الكريم عاشت بمصر وولدت موسى هناك، كما أنه لم يثبت تاريخياً وصول موسى إلى إربد، حتى ولا إلى شمال الأردن. أما القبور الأخرى، فذلك ما لا يعلمه إلا الله.

ونجد قرب طبرية أيضاً: مدينة صفورية الأردنية، حيث يقول الحموي (ق7هـ) أنها: « كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي قرب طبرية » (ج 3، ص 414).

6- كفرمندة

وأما كفرمندة، فيرى الياكوتي أنها: « قرية بالأردن بين عكة وطبرية قيل أنها هي مدين المذكورة في القرآن الكريم وكانت منزل شعيب بها قبر بنته

صافورا زوجة موسى ﷺ ، وبها الجبّ الذي قلع موسى ﷺ الصخرة عن رأسه وسقى مواشي شعيب ﷺ والصخرة باقية إلى الآن » (ص 29 ب).

وإنني أرى عدم صحة ما أورده الياكوتي حول وجود قبر زوجة موسى ﷺ ، ولا وجود البئر الذي سقا منه، ذلك أن البئر كان في مدين وهي بالقرب من الكرك وإلى الجنوب منها، كما أننا لم نجد أية رواية تتحدث عن أم موسى أنها دخلت الأردن، وبالتالي فهذه من الخيالات الإسرائيلية وليست حقيقية.

-12-

البحيـرات

طبريـة

وإذا ما حطّينا رحالنا في طبرية، نجد ابن خرداذبة يقول عنها: « طبرية مدينة الأردن »، وقد وردت كذلك في أكثر من موضع عنده، ومنها أن كورة الأردن تتضمن ما يلي: « كورة طبرية، كورة السامرة، كورة بيسان، كورة فحل، كورة جرش، كورة بيت رأس (...) كورة جدر، كورة آيل (عابل جنوب الطفيلة)، كورة سوسية، كورة صفّورية، كورة عكا، كورة قدس، كورة صور ...».

وهذا برهان على خصب الأردن وغزير مائها ووفير إنتاجها، ذلك أن كلمة كور اصطلاح اقتصادي يدل على الزراعة والإنتاج والخيرات، وبالتالي وفرة الثروة الحيوانية لأنها تتبع وفرة الماء والزراعة، ومن ثم كثرة السكان، ووفر الأمن والطمأنينة.

ويقول المغربي (ق 7 هـ): « طبريا التي كانت قاعدة جند الأردن حيث الطول سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة وفي جهتها البحيرة المنسوبة إليها، بينها وبين عكا وصور ينزل إليه نهر من بحيرة قادوش (الحولة) التي

فوقها، ويخرج منها نهر الأردن، وفي طبرية عيون مسخنة تغني أهلها عن الحمام. وقد خربت المدينة باختلاف الملتين (أي المسلمون والنصارى) عليها، وهي الآن مع عسقلان ويافا وقيسارية في حوزة المسلمين » (ص 151).

يقول اليعقوبي (ق 3 هـ): « مدينة طبرية وهي مدينة الأردن وهي في أسفل جبل على بحيرة جليلة يخرج منها نهر الأردن المشهور. وفي مدينة طبرية مياه تنبع حارّة تفور في الصيف والشتاء، ولا تنقطع فتدخل المياه الحارّة إلى حمّاماتهم، ولا يحتاجون لها إلى وقود وأهل مدينة طبرية قوم من الأشعريين هم الغالبون عليها » (ص 337).

فطبرية في القرن الثالث من الهجرة (زمن اليعقوبي)، كانت عاصمة الأردن، فإن سكانها الغالبون عليها يعتنقون المذهب الأشعري. كما يصف كيف أنهم عملوا القنوات التي تأتي بالمياه الحارّة وتجرّها إلى حماماتهم في بيوتهم، دونما حاجة إلى وقود، وتسخين.

وفي القرن الرابع الهجري، يذكر الاصطخري أن طبرية هي مدينة الأردن، أي عاصمتها، وأكبر مدنها، وهي: أي طبرية: « على بحيرة عذبة الماء طولها إثنا عشر ميلاً في عرض فرسخين أو ثلاثة، وبها عيون جارية حارة مستنبطها (أي منبعها) على نحو فرسخين من المدينة، فإذا انتهى الماء إلى المدينة على ما دخله من الفتور بطول السير إذا طُرحت فيه الجلود المعطت ولا يمكن استعماله إلا بالمزاج، ويعم ذلك الماء حماماتهم ومياضيع لهم (ماء للوضوء في داخل المنازل)، والغور أوله هذه البحيرة » (ص 58).

ويقول في موضع آخر: وأما الأردن فإن قصبته طبرية، فمنه إلى صور يوم ومنها إلى عقبة فيق يوم، ومنها إلى بيسان يومان خفيفان، ومنها على عكا يوم، والأردن أصغر أجناد الشام مسافة » (ص 49).

ونرى أن الدقة والصواب قد جانباه عندما ذكر أن عقبة فيق (وهي في جنوب الأردن) تبعد يوماً عن مدينة طبرية هذا إذا كان يقصد تلك التي في الجنوب. ولكن يبدو أن هناك عقبة فيق أخرى في تلك النواحي، ذلك أن أي طور جبلي ضخم صعب الاجتياز يسمى عند الأردنيين: عقبة.

ثم يصف طبيعة ماء طبرية فيقول: « فإذا انتهى الماء إلى المدينة على ما دخله من الفتور بطول السير إذا ما طُرحت فيه الجلود امعطت، ولا يمكن استعماله إلا بالمزاج، ويعم ذلك الماء حماماتهم ومياضيء لهم (ماء للوضوء)، والغور أوله هذه البحيرة، ثم يمتد على بَيْسان حتى ينتهي إلى زغر وأريحا إلى البحيرة الميّتة (....) وهذا البطن إذا امتد فيه السائر أداه إلى أيلة » (ص 44-45).

ويقول المقدسي (ق 4 هـ): « ولا ترى الحصى إلا في صحن جامع طبرية والمناير (منارات المساجد) مربّعة وأوساط سقوف المغطّى مجمّلة وعلى أبواب الجوامع وفي الأسواق مطاهر، ويجلسون بين كل سلامين من التراويح » (ص 182).

ويقول المقدسي أيضاً: « إن طبرية ما زالت في زمنه تخرّج الكُتّاب، وإنما الكتبة به » (ص 183). ويقول: « بطبرية عين تغلي تعمّ أكثر حمامات البلد وقد شقّ إلى كل حمام منها نهر فبخاره يحمّي البيوت فلا يحتاج إلى وقيد (أي حطب للإيقاد)، وفي البيت الأول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهّرون به ومطاهرهم من ذلك الماء وفي هذه الكورة ماء مسخّن يُسمى الحمّة، حار، من اغتسل فيه ثلاثة أيام ثم اغتسل فيه ثلاثة أيام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبه جرب أو قروح أو ناسورة (أي باصور) أو أي علّة تكون برأ بإذن الله » (ص 185). وبذلك نراه يتحدث عن التقدم الذي وصلت إليه طبرية، حيث شقّ أهلها القنوات التي تأتي بالمياه الحارة والباردة، إلى بيوتهم، فيغتسلون ويتوضأون.

وهناك ينابيع معدنية حارة شبيهة بتلك التي في طبريا وقريبة منها، ألا وهي: الحمّة وهي عند زاوية الحدّ الشمالي الغربي من الأردن، وهي ضمن محافظة إربد (الأردن)، وفيها بركة ماء كبيرة، محاطة بأحواض ماء متباينة في الحرارة، وعلى البركة بنايات، يدخل إليها المستحمون وطالبوا الاستشفاء وقد تغطّت كلها بظلال الأشجار الضخمة. كما توجد بجانبها قرية يسكنها فلاحون من الغوارنة، ومبنية من الطين، وفيها أشجار نخيل وموز ورمان وتين، وفي القرية مركز للشرطة، وتصلها الطريق من زاويتها الجنوبية، منطلقة من إربد. وقد زرتُها (المؤلف) عدة مرات، وكنت أجدها في كل مرة وقد توسعت وتطورت أكثر مما كانت عليه في المرة السابقة، وكانت آخر زيارة لي في ربيع 1999.

ويقول المقدسي (ق 4 هـ) أن: « طبرية مدينة الأردن الكبرى وهي قصبتها » (ص 363)، ثم يصف طبرية أنها: « مدينة جليلة على جبل مطل طويلة في ذاتها قليلة العرض وطولها نحو ميلين وأسفلها من جهة المشرق بحيرة عذبة الماء (بحيرة طبرية) طولها إثنا عشر ميلاً في عرض مثلها وبها مراكب سائحة تحمل فيها الغلاّت إلى المدينة ولها سور حصين ويُعمل بها من الحصر السامانية كل عجيبة وقليلة ما يُصنَع مثلها في بلد من البلاد المعروفة » (ص 363).

وبذلك نراه يصف عرض البحيرة والمدينة وطولهما، وأن هناك مراكب تجوب البحيرة، ربما لنقل الناس من نقطة إلى أخرى، وأيضاً لحمل الغلاّت إلى المدينة، بدلاً من الدواب. وللصيد أيضاً وللمدينة سور حصين تحتمي من ورائه، بينما هي مشهورة على سائر أقطار العالم بالحصر السامانية.

ثم يواصل وصف الحمامات الحارة الموجودة في طبرية، ويعطي أسماءها وأصنافها، بما لا حاجة هنا لتفصيله (انظر الملحق).

ويقول المقدسي أيضاً أن: « حيفا هي فرضة (أي: ميناؤها على البحر) لطبرية وبينها ثلاث مراحل خفاف » (ص 365). كما تبعد طبرية عن دمشق مسيرة أربعة أيام وعن الرملة ثلاثة أيام (ص 378).

ويرى الحموي (ق 7 هـ) أن طبرية هي إحدى كور جند الأردن وان الأردن الصغير ينطلق منها باتجاه الجنوب ماراً في وسط الغور ليسقي الضياع، حيث أن أكثر إنتاجهم في الغور السكّر، ثم يعتبر قرى: أريحا والعوجاء وقراوا وبيسان جزءاً من الغور الذي يبدأ من طبرية (ج 1، ص 147). ثم يصفها ويصف ماءها وجوّها ويذكر أسماء علمائها والماء المعدني / الحمّة الذي فيها (ج 5، ص 17-20)، ويقول: « وهي من أعمال الأردن في طرف الغور » (ج 5، ص 17). ويقول القزويني (ق 7 هـ): « أن طبرية هي قصبة الأردن » (ص 141).

ويقول العمري (ق 8 هـ) أن نهر الأردن يخرج من بحيرة طبرية، وهو يسمى الشريعة و« ويشق وادي كنعان شقاً في الطول حتى ينتهي إلى بحيرة زُغَر (وهي سَدوم، دار قوم لوط، وتعرف الآن بالمنتنة) والوادي بالغور، وله في كل مكان اسم بحسب ما يضاف إليه من مشاهير القرى التي فيه » (ج 1، ص 82).

ثم يواصل قوله: « وتسمى هذه الأمواه كلها: الشريعة الشمالية. وترمي تحت جسر يعقوب وتجتمع في بحيرة طبرية. ثم تمتد فتتلاقى هي والشريعة القبلية بقرية تعرف بالبقارية » (أعلاه).

الحولة

وأما الحولة، فقد وردت باسم قَدَس، وهي من كورة الأردن (ابن خرداذبة ص 98)، بينما يسميها الحموي باسمها – أي الحولة، ويقول عنها: « اسم لناحيتين بالشام، إحداهما من أعمال حمص ثم من أعمال بارين بين حمص وطرابلس والأخرى كورة بين بانياس وصور من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة

من إحداهما كان الحارث الكذاب الذي ادّعى النبوة أيام عبدالملك بن مروان » (ج 2، ص 323). وقصة ادّعاء النبوة هذه، وكيفية القبض عليه مذكورة بالتفصيل في الملحق.

-13-

الموانئ الأردنية

عكـا

وهي مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وإحدى موانئ الأردن الهامة، وتُكتب بالألف الممدودة (عكا)، والتاء المربوطة (عكة).

ويرى الحموي أن هذا الاسم مشتق على النحو التالي: « قال أبو زيد العكّة الرملة حميت عليها الشمس، وقال الليث: العكة من الحرّ الفورة الشديدة في القيظ وهو الوقت الذي تركد فيه الريح » (ج 5 ص 143).

وعكة: هي ثغر من ثغور الأردن، وكورة من كورها، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط (ابن خرداذبة ص 78 و 255).

ويذكر المقدسي أنها « مدينة حصينة على البحر كبيرة؛ الجامع فيه غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة » (ص 162)، ثم يتحدث عن أن ابن طولون هو الذي حصّنها، بعدما « رأى حصانة صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها؛ فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء » (ص 162-163) (التفاصيل في الملحق).

ويقول الياكوتي أن عكا: « مدينة على ساحل بحر الشام من عمل الأردن أحسن بلاد الساحل وأعمرها، وهي كثيرة حصينة، ولم تكن على هذه الحصانة (أي: التحصين) حتى قدمها ابن طولون...» (ص 46 أ).

ويتحدث ابن جبير عن الحياة في مدينة عكا حسبما شاهدها في القرن السابع الهجري، وعن خروج أهل صور من ديارهم بعد سيطرة الكفار عليها. ثم تحدث عما كان يعانيه أسارى المسلمين من العنف والعذاب والإهانة على أيدي الكفار، ودور مسلمي الشام وحكامهم في إعتاق الأسرى المغاربة. (انظر ابن جبير ص 275-282). أما الحموي (ق 7 هـ) فهو يقول أنها كورة من كور الأردن (ج1 ص 147 و 148)، ويقول: أنها: « اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن (ج 5 ص 143)، ويقول الحموي أيضاً: « وكانت فيها صناعة بلاد الأردن وهي محسوبة من حدود الأردن » (ج 5 ص 144).

ويقول القزويني (ق 7 هـ) أن عكا: « مدينة على ساحل بحر الشام من عمل الأردن. من أحسن بلاد الساحل في أيامنا وأعمرها... (....) قال الباشري: عكة مدينة حصينة على البحر كبيرة » (ص 223). وقد ذكر أن صلاح الدين قد افتتحها، وجرى قتال شديد بين المسلمين والصليبيين حولها استمر طويلاً (ص 223/ 224).

ويقول الدمشقي (ق 8 هـ): « ومدينة عكا بناها عبدالملك بن مروان وغلبت عليها النصارى ثم فتحها صلاح الدين » (ص 213). ونجده هنا يكتب (عكا) بالألف الممدودة.

ويشير إليها ابن بطوطة (ق 8 هـ) في رحلته فيقول: « سافرت من القصير إلى مدينة عكة وهي خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرنج بالشام، ومرسى سفنهم، وتشبه قسطنطينية العظمى، وبشرقها عين ماء تعرف بعين البقر » (ص 35). ثم يقول أن قبر سيدنا صالح فيها، ولها ميناء يحمل السفن الصغيرة فقط (انظر اعلاه). ونجد ابن بطوطة يكتبها بالتاء المربوطة (عكة) وبذلك نجدها في زمن ابن بطوطة تحولت إلى بقايا مدينة وميناء، لما أصابها من الخراب بسبب الحروب بين الصليبيين والعرب المسلمين.

صـــور

صور المدينة القائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، كانت كورة من كور الأردن وهي من سواحل جند الأردن (ابن خرداذبة ص 229 و 255). ونشير هنا أن صور كانت منذ مطلع الفتح الإسلامي ثغراً من ثغور الأردن، وهي ميناء للتجارة والصناعة فضلاً عن خصوبة ما يحيطها من أراضي حوّلتها إلى مناطق زراعية خصبة.

ويقول المقدسي (ق 4 هـ) أن « صور مدينة حصينة على البحر بل فيه يدخل إليها من باب واحد على جسر واحد قد أحاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض، تدخل فيه المراكب كل ليلة ثم تجر السلسلة (...) وهي مدينة جليلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص، وبين عكا وصور شبه خليج، ولذلك يقال عكا حذاء صور إلا أنك تدور، يعني حول الماء » (ص 163-164).

وبذلك نجد أن صور كانت زمن ابن خرداذبة مركز صناعة المراكب (ق 3 هـ)، بينما نجدها في زمن المقدسي (ق 4 هـ) وقد أحيطت بأسوار، ولها باب واحد تدخل الناس من خلاله، كما أنها لا زالت في هذا الوقت (ق 4 هـ) مركزاً للصناعات، كما أن هناك قناة معلقة يدخل الماء من خلالها (ص 164).

ويقول البكري (ق 5 هـ) في وصفه لحدود بلاد العرب: « وأتى على صور ساحل الأردن » (ج 1 ص 7). وهذا برهان أن أرض الأردن لا زالت حتى هذا الوقت تنتهي على البحر الأبيض المتوسط، ولها ميناء مشهور وهو ميناء صور.

وفي زمن ابن جبير (ق 7 هـ) كانت صور في قبضة الكفار الصليبيين، وقد وصفها بقوله: « مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لا تُلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدها الإفرنج مَفْزَعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابة لأمانهم، هي أنظف من عكة سككاً وشوارع، وأهلها الذين في الكفر طبائع » (ص 277).

ثم يقول أن لها بابان أحدهما من البر، والثاني من البحر. ويصف فيها عرساً للإفرنج، ويصف لباس العروس وطريقة رقصهم واحتفائهم بها، وقد نظر المسلمون والنصارى إلى العروس والنساء من حولها دون أن ينكر الكفار ذلك (ص 278-279). وهذه إشارة إلى فترة من الوئام في العيش بين العرب والفرنجة، وأن العرب كانوا يستمتعون بالصبابة على نساء الفرنجة ولا ينكر هؤلاء الصليبيين ذلك؟؟!! .

ويقول الحموي (ق 7 هـ) عن صور أنها: « مدينة مشهورة سكنها خلق من الزهّاد والعلماء، وكان من أهلها جماعة من الأئمة، كانت من ثغور المسلمين، وهي مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً ركينة لا سبيل إليها إلا بالخذلان » (ج 3 ص 433).

ويقول الحموي أيضاً عن صور: « وهي معدودة في أعمال الأردن، بينها وبين عكة ستة فراسخ، وهي شرقي عكة » (ج 3 ص 433).

ويقول القزويني (ق 7 هـ): « صور مدينة مشهورة على طرف بحر الشام (...) ينسب إليها الدنانير الصورية التي يتعامل عليها أهل الشام والعراق » (ص 217). أما الدمشقي (ق 8 هـ)، فيتناول جانباً آخر من صور، ألا وهو فتح إسكندر لها بطريقة الخدعة والخذلان (ص 212). ويتحدث بن بطوطة (ق 8 هـ) عن حصانتها ومنعتها، ودخول السفن إلى مينائها (ج 1 ص 35-36).

أما الآن (العصر الحديث) فإن صور جزء من جنوب لبنان. وقد أتيحت للمؤلف فرصة زيارتها عام 1966، حيث وجدتها آنذاك مؤلفة من ثلاثة أقسام هي:

1- القسم الأثري، ويشتمل على الآثار القديمة المحاذية للساحل حيث جرت حفريات أبانت عن حضارة عريقة، وفسيفساء، وبلاط جميل، كانت تحت الرمال.

2- القسم القديم المبني على الطريقة الإسلامية حيث أن شوارعه ضيقة ومرصوفة بالحجارة، ومكتظ بالسكان والحوانيت المبنية بطريقة مشابهة لسائر الأحياء القديمة في المدن العربية الإسلامية، وكانت أسواقها عامرة ورخيصة.

3- القسم الحديث المؤلف من البنايات والشوارع على الطراز الحديث. كما أن بها ميناءً وقلعة كان يربض عليها مدفع قديم.

وفي عام 1982 كانت صور مسرحاً لأحداث دموية رهيبة نتيجة لاحتلال القوات الصهيونية لهذه المدينة وما حولها. وتعتبر الآن من مدن الجنوب اللبناني، وكان لأهلها وأهل الجنوب وحزب الله، ومنظمة أمل الشيعية دور كبير وهام في مسار الأحداث السياسية على الساحة اللبنانية، وقد حقق أهل الجنوب وحزب الله إنجازات سياسية وطنية وقومية عجزت عنها جيوش الأنظمة المهترئة في العالم العربي مجتمعة ومنفردة.

* * *

الباب السادس

جولات شاملة في الربوع الأردنية

-1-

البلقاء

في حديث المؤرخ ابن الخياط (ق 3 هـ) عن جيوش الفتح الأربعة، قال: « بعث أبو بكر عمرو بن العاص قِبَلَ فلسطين، ويزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء » (ص 119).

ويقول الحميري (ق 9 هـ): « البلقاء مدينة بالشام من عمل دمشق سميت بالبلقاء بن سوريا، (انظر ايضاً القلقشندي – صبح الأعشى – ج 4: 106) من بني عبيل بن لوط وهو بناها، وبها كان اجتماع الحكمين أبي موسى وعمرو بن العاص رضي الله عنهما فكان من أمرهما ما كان » (الحميري ص 97).

وقد أورد ابن خرداذبة (ق 3 هـ) أن ظاهر البلقاء من كورة دمشق (ص 197) كما جاء عند البلاذري (ق 3 هـ) في معرض حديثه عن معركة مؤتة والفتوحات الإسلامية الأخرى، فيقول: « ... وأتى – أي أبو عبيدة، مآب من أرض البلقاء » (ص 112-113؛ وص 155-156). وذكر البلاذري (ق 3 هـ): « أنه كانت لأبي سفيان بن حرب أيام تجارته إلى الشام في الجاهلية ضيعة بالبلقاء تدعى بُقَبَش فصارت لمعاوية وولده ثم قبضت في أول الدولة (أي العباسية) وصارت لبعض ولد أمير المؤمنين المهدي ﷺ ثم صارت لقوم من الزياديين يُعرفون ببني نعيم من أهل الكوفة » (ص 129)[1].

---

(1) موقع هذه الضيعة يقع في وادي السلط المسمى وادي شعيب وعلى بُعد حوالي ثلاثة كيلومترات منها على الطريق إلى الغور، وتسمى لدى العربان: جورة الكبش، وهو أمر واضح في أنه تحريف لكمة بُقَبَش (لو تم لفظها بكبش – بصارت كبش). وتوجد فيها شجرة بلوط قديمة معمّرة يزيد عمرها على ثلاثة آلاف سنة، كما تم إنشاء محطة تنقية مجاري مدينة السلط فيها =

وأما البكري (ق 5 هـ) فيتناول الكلمة لغوياً[1] ويقول: « البلقاء على لفظ تأنيث أَبْلَقْ: أرض بالشام، قال كُثيِّر:

سقى الله قوماً بالموقَّر دارهم إلى قسطل البلقاء ذات المحارب

(ج 1 ص 275)

وفي موقع آخر، بيّن البكري أن ملك العرب في أطراف ومشارف الشام قد أسكن أقواماً من قضاعة وسليم في البلقاء « فانضموا إليه، وصاروا معه، فأنزلهم مناظر الشام، من البلقاء إلى حُوّارين، إلى الزّيتون... » (ج 1 ص 26). ثم يقول البكري (ق 5 هـ) في معرض حديثه عن أُبْنى (موضع بناحية البلقاء من الشام) – التي يبدو أنها في مناطق جنوب الأردن – أن الشهداء الثلاثة الذين بعثهم رسول الله ﷺ على رأس الجيش لمقاتلة الروم « قُتلوا جميعاً رحمهم الله بمؤتة، من أرض البلقاء » (ج 1 ص 101) (وانظر ج 19 ص 116) حيث يقول عن قادة الجيش

= «للأسف الشديد». وتجاورها منطقة تسمى «إمْعَاوية» وقد شرحنا في موقع آخر أن اللفظ مأخوذ من اسم معاوية أو عواء الحيوانات البرية أو من كليهما معاً.

(1) اسم البلقاء جاء من عدة مصادر: يقال أنه نسبة إلى الاسم بالاق بن صفّور وهو ملك مؤابي مشهور حيث رفض السماح لبني إسرائيل العبور أو الدخول إلى بلاد مملكته في وسط وجنوب الأردن، وقد أشارت إليه التوراة. وفي روايات العوام كلام لا يتفق مع الحقيقة أنها (البلقاء) أول ما انبلج (انبلق) عنها الطوفان، وفي الحقيقة أن الطوفان اقتصر على أرض الرافدين ولم يصل للأردن. والنسبة الأخرى أنها بالنسبة للقادم من جزيرة العرب أنه أول ما يُرى البلقاء من بلاد الشام، فهي كغرّة الفرس في جبينها حيث يقال لها: البلقاء، لأنها غرّة أو علامة اليُمْن والبركة للخيل، والبلقاء علامة اليُمْن والبركة لبلاد الشام. وأيضاً قد يكون الاسم جاء من وجود الغابات والخصوبة التي حوّلتها إلى سواد بينما تبدو في الصيف (حيث رحلة الصيف) بعض البقع البيضاء وقت الحصاد فهي كالغرّة البيضاء في هذه الأرض المكسوّة بالاخضرار. وإن شدة الاخضرار عند العرب يسمى السواد، وأن أي لون أبيض فيه يسمى البلقاء، وهذا ما نرجّحه ونرجح اسم الملك بولاق معاً، والله أعلم.

الإسلامي الذين بعث بهم أبو بكر ﷺ : « وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء من علياء الشام »[1].

وفي معرض حديثه عن أرض دمشق وكُوَرها، يبين الإدريسي (ق 6 هـ) تبعية الكور التالية لدمشق: « .. وكورة البلقاء وكورة جبرين الغور وكفر مآب وكورة عمان وكورة الشراة وبصرى والجابية » (ص 377).

ويقول الحموي (ق 7 هـ) عن ذيبان – التي يبدو أنها ذيبان الحالية – أنها «بلد قاع الأردنّ مما يلي البلقاء» (ج 3، ص 4).

ويؤكد القزويني (ق 7 هـ) أن البلقاء: « كورة بين الشام ووادي القرى. بها قرية الجبارين (أي أريحا)، ومدينة الشارة، وبها الكهف والرقيم فيما زعم بعضهم » (ص 156)[2].

ويروي النويري (ق 8 هـ) قصة صراع بني إسرائيل مع مملكة البلقاء التي كان فيها نبي اسمه بَلْعَم بن باعُورا مستجاب الدعوة، وكيف أنه خسر الدنيا والآخرة

---

(1) قلنا أن البلقاء هي أول ما يظهر «ينبلج»: (ينبلق) من الأرض للقادم من جزيرة العرب، بعد صحاري قاحلة. لذلك نجد أن حدود البلقاء لدى المؤرخين والمسلمين والعرب في الجاهلية كان يُطلق على الأرض الخضراء المتصلة بالشام، من حيث تبدأ، أي من جنوب معان، ومنطقة حسماء والديسة ورم لأنها كانت بلاد عامرة بالزراعات والأشجار، وافرة المياه، كثيرة السكان، والثروة الحيوانية. وإن القارئ لتاريخ القبائل العربية والممالك بالأردن القديم يجد أن جنوب الأردن هو صاحب الحظ الأوفر والأكبر من هذه القبائل والممالك.

(2) وبذلك نجد أن البلقاء لم تقتصر على شرقي وادي عربة وشرقي البحر الميت وشرقي النهر، بل اشتملت على ضفتي النهر، وإذا تذكرنا أن ما قاله الحميري أن كل ما على جنبي نهر الأردن هو أردني، فإن البلقاء كانت ولا زالت وستبقى جزءاً من الأردن. ولابد من الاعتراف هنا، أنه وقع خلط لدى المؤرخين والجغرافيين في التحديد الدقيق للمواقع الأردنية لأسباب كثيرة، منها أن المفاهيم الوطنية كانت غائبة أمام المفهوم الإسلامي والقومي العام، وأنهم كانوا يتحدثون عما يصلهم من روايات متناقضة.

بدعائه على قوم موسى بعد إلحاح من الملك البلقاوي تراوح بين الهدايا لزوجته إلى حدّ التهديد بالصلب (انظر النويري ج 13 ص 267-271). ويروي النويري عن مقاتل: «سميت بالبلقاء لأن ملكها كان يقال له بالق. وكان فيها بَلْعَم بن باعورا، وهو الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: 175]» (ج 13 ص 167) [1].

ويبين الحميري (ق 8 هـ) أن « الحُمَيْمَةْ: بلفظ التصغير، قرية من كور دمشق من أعمال البلقاء » (ص 199). ويقول في سرده لقصة اكتشاف آخر التنظيم السري العباسي الذي كان مصدره الحميمة: « فاحتبس مروان الرسول قِبَلَهُ وكتب إلى الوليد بن معاوية بن عبدالملك وهو على دمشق يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء فيسير إلى القرية المعروفة بالكداد والحميمة » (ص 200) [2].

(1) كما قلت قبل قليل أنني أرجّح التسمية نسبةً إلى بولاق أو بالق مضافاً إليها بسبب أنها أول ما يظهر للقادم من جزيرة العرب إلى بلاد الشام. أما بَلْعَمْ فهناك بلدة تسمى باسمه الآن وهي من محافظة المفرق ومن قرى بني حسن تسمى بلعما، وهي اللفظ المؤنث لدى العربان لكلمة بَلْعَمْ أو بَلْعام، وهي أثرية مشهورة. وإن إطاعة بلعام لملك البلقاء في رأينا كان لأسباب أخرى، فضلاً عما ذكره المؤرخون، وهو أنه فضّل الانتماء لوطنه على الالتزام بالرسالة وآثر بني قومه الأردنيين رغم وثنيّتهم على الغرباء رغم أنهم يقودهم نبي.

(2) أما الحميمة فهي قرية معروفة، أما الكِداد فيبدو أنها بئر خداد، وهي نبع ماء في منطقة محافظة معان، وقريبة من الحميمة، وعلى الطريق ما بين معان ووادي موسى (البتراء)، وهي قرية أثرية، وعليها الآن قرية حديثة تسكنها عشائر الحويطات والنعيمات. ومن خلال هذا النص يبيّن أن جنوب الأردن بما فيها مناطق رم والقويرة (حيث منطقة الحميمة) لا زالت تعتبر جزءاً من البلقاء. وأن عاملها كان يسمى عامل البلقاء، كما أن عامل الروم أبو فروة الجذامي الذي أسلم وكان مركزه معان، واستشهد ودُفن في عفرا (الطفيلة). كان عامل الروم على البلقاء، مما يدل على أن هذا الاسم يشمل جنوب الأردن من حسما والديسة والمدورة (سرغ) والحدود مع جزيرة العرب حتى الشمال، وأن الاسم الحالي المقتصر على منطقة السلط جاء بعد مرور 1400 سنة، أما قبل ذلك فكانت البلقاء تشمل شرق الأردن السياسي الحالي برمته.

وباستطلاع ما كتبه الحموي (ق 7 هـ) عن جرش، نجده يقول: « ... وهي في شرقي جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق[1] » (ج 2، ص 127). ويكتب عن الموقر أيضاً أنها: « اسم موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق وكان يزيد بن عبدالملك ينزله » (ج 5، ص 226). ويؤكد البكري (ق 5 هـ) قبل الحموي أن الموقر والقسطل: « موضعان متجاوران، من عمل البلقاء بدمشق » (ج 4، ص 1280).

وعن الرقيم يقول الاصطخري (ق 4 هـ) أنها: « مدينة بقرب البلقاء » (ص 64)، بينما يذكر المقدسي (ق 4 هـ) أنها: « قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية فيها مغارة لها بابان صغير وكبير » (ص 175). وجاء لدى ياقوت الحموي (ق 7 هـ): « ويقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم، يزعم بعضهم أن به أهل الكهف[2] » (ج 3، ص 60).

واعتبر الجغرافيون المسلمون مآب والكرك من أرض البلقاء. فالبلاذري (ق 3 هـ) يذكر عن الفتوحات الإسلامية بقيادة أبي عبيدة ﷺ ويقول: « فأتى (أي أبو عبيدة) مآب من أرض البلقاء وبها جَمْع العدوّ فافتتحها صلحاً على مثل صلح بصرى » (ص 113). ويؤكد البكري (ق 5 هـ) أن مآب « موضع بالشام » (ج 4، ص 1169)؛ بينما يقتصر المقدسي (ق هـ) على قوله: « مآب في الجبل كثيرة القرى واللوز والأعناب قرية من البادية » (ص 178).

---

(1) إن كلمة جبل السواد إشارة في لغة العرب المتعارف عليها أنها كانت جبال مكسوّة بالغابات والأشجار الخضراء، وأن أرضها كانت وافرة الغلال أيضاً. وللعلم أن العرب تصف شدة الاخضرار أنه سواد.

(2) عندما يقول: «ويقرب البلقاء»، واضح أنه يقصد مدينة عمان، أي أنه أطلق العام ليعني به الخاص، وهي عاصمة البلقاء، وهي عمان. كما أن كلمة من «أطراف الشام» يبين أن الأردن ليست دائماً من بلاد الشام وإنما من جنوب بلاد الشام، بل إن الجغرافيين والمؤرخين يتحدثون عنها بطرق متباينة، دونما إجماع حول شامية الأردن.

ويقتصر الإدريسي (ق 6 هـ) على ذكر مواقع مآب والشراة والجبال دونما إشارة إلى تبعيتها، حيث يقول: « وعسقلان معدودة في أرض فلسطين ويقابلها في جهة الجنوب ناحيتان جليلتان وهما جبال وشراة فأما جبال فمدينتها تسمى رواث؛ وشراة أيضاً مدينتها تسمى أذرح وهما في غاية الخصب وكثرة أشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان وعامة سكانها من قيس، وكذلك بين جنوب منها وشرق قرية مؤتة ومنها إلى عمان تمر فيما بين شِعْبَيْ جبل يقال له الموجب وهو وادٍ عظيم عميق القعر...[1] الخ » (ص357/ 358).

وفي القرن السابع الهجري، يذكر الحموي أن شيحان (ويكتبها بالسين وليس بالشين): « قرية من عمل مآب بالبلقاء » (ج 3، ص 293). ويقول أن الرُّبّة: « عين في طرف الغور بين أرض الأردن والبلقاء » (ج 3، ص 26). ويكرر الحميري (ق 9 هـ) أن « مآب: بالشام من أرض البلقاء » (ص 517).

-2-

أما الكرك، فإن لها شأن آخر، وذلك أن لها تاريخ هام. ومتباين، من قلعة إلى حصن، إلى مملكة إسلامية، إلى مملكة صليبية. فالحموي (ق 7 هـ) يقول أنها: « اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء » (ج 4، ص 453).

---

(1) أما اصطلاح جبّال ijbal فهو يطلق على جبال الطفيلة بدءاً من منطقة فينان وظانا وبير العطاعطة (القادسية حالياً) جنوباً، وحتى وادي الحسا شمالاً، ولا تزال حتى الآن تحمل الاسم نفسه، ولا زال أهل جنوب الأردن يقولون في لهجتهم الدارجة وأشعارهم الشعبية كلمة: الشراة وجْبال، لتعني جبال الشراة، وجبال الطفيلة. أما من الشرق، فإن جْبال تصل إلى جرف الدراويش والحسا. وأما الشراة فهي الممتدة إلى الجنوب من جبال حتى نهاية حسما والديسة والمدورة (سرغ). وأما الاصطلاح المتعارف عليه عند الجغرافيين المحدثين فإنهم يطلقون اسم: الشراة على سائر الجبال من وادي الحسا حتى الحدود مع السعودية ولا يشيرون إلى ما يذكره الأردنيون في الجنوب والجغرافيين المسلمين من الفصل بين جبال، والشراة. أما رواث فهي الآن بقعة من الأرض تقع ما بين غرندل وبصيرا على الطريق المؤدي ما بين الطفيلة والرشادية. ويظهر بوضوح أنها كانت بلدة عامرة فيما مضى.

وكانت الكرك في القرن السابع الهجري حصن للنصارى الصليبيين، حيث يقول ذلك ابن جبير في رحلته وهو من المعاصرين لتلك الحقبة « شاهدنا في ذلك الوقت، وهو شهر جمادى الأولى، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر » (ص 260).

وفي القرن الثامن الهجري ذكر الدمشقي أن الكرك مملكة حيث يقول: « القسم السابع (من أقسام الشام) مملكة الكرك وهو حصن منيع عالٍ على قبّة جبل، خندقه أودية بعيدة السفل... ومن جنده الشوبك، وهي حصن.

ويواصل الدمشقي (ق 8 هـ) قوله على الكرك أنها: « مدينة خصبة ولها فواكه كثيرة وعيون غزيرة، ومعان مدينة صغيرة على سيف البرية عمّرها طائفة من بني أميّة وسكنوها ثم ذهبوا وهي اليوم منزلة للحجاج يقام به سوق في غدوّهم ورواحهم.

وإقليم الجبال ومدينة الشراة ومدينة مآب على اثنى عشر ميلاً منها قرية مؤتة ومن جند الكرك اللجون والحسا والأزرق والسلط ووادي موسى ووادي بني غير (؟!) وجبل الضباب وجبل بني مهدي وقلعة السلع وأرض مدين وأرض القلزم وأرض الربّان؛ وبالغور (أي من أراضي الكرك بالغور) الزرقا والأزرق والجفار والتيه وزغر وهي مدينة بالغور ومعها السافية (أي الصافية، أي غور الصافي) وبها رُطَبٌ شبيه بالبرني والأزاد بالعراق ومدينة عمان التي لم تبق إلا دمنتها وعملها وأرض البلقاء، وحصن الكرك خزانة الأتراك ومعقلهم وبه أبدا نائب مأمون عندهم » (الدمشقي ت 727 هـ ص 213).

ومن هذا النص الذي يعود للقرن الثامن الهجري، نجد أن:

1- مدينة الكرك كانت خصبة بسبب توفر الماء وطيب الهواء، وسماحة المناخ وخصوبة التربة، وكثرة السكان، لأنهم هم الذين يستغلون الأرض ويستخدمون الإنتاج، استهلاكاً وتجارةً وتصديراً.
2- أن فيها فواكه كثيرة، وعيون غزيرة، وبذلك نجد أن احتلال الأتراك لها قد قادها إلى التصحّر والقحط لأن الدولة التركية كانت غضب ونار ودمار على الأردن أكثر من الصحراء والمناخ السيئ.
3- أن معان بقيت على الدوام منزلةً من منازل الحجاج، وهي على سيف البرية، بين الجبل والبادية.
4- أن الكرك كانت عاصمة منطقة الكرك وكانت حصناً منيعاً عالياً على قمة الجبل، وأن الأودية من حوله هو خنادق طبيعية وتحصيناً من الله سبحانه.
5- أنه يشتمل سائر جنوب الأردن غوراً وجبلاً وبادية وصحراء وساحل البحر الأحمر وبلاد مدين حتى تبوك، وبادية الأردن حتى الأزرق في الطرف الشمالي الشرقي من الأردن ووسط الأردن بما فيها السلط وما حولها من ديار البلقاء.
6- أن حصن الكرك هو مخزن الأتراك من حيث المؤونة، وخزائنها من حيث المال وفيها حاكم مهم يجب أن يكون موضع ثقة لأهميتها وموقعها وغناها.

وفي الفترة نفسها تقريباً، نجد أبو الفداء (ق 8 هـ) يكتب عن الكرك، بأنها من البلقاء ظنّاً، ويصفها بقوله: « وهو بلد مشهور وله حصن عالي المكان وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام وعلى بعض مرحلة من مؤتة وبها جعفر الطيّار وأصحابه رضي الله عنهم وتحت الكرك وادٍ فيه حمام وبساتين كثيرة وفواكهها مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك وهو أطراف الشام من جهة الحجاز وبين الكرك والشوبك نحو ثلاث مراحل » (ص 247).

أما مآب، فيعتبرها أبو الفداء أنها الربّة، وأنها من البلقاء، ثم نجده في حيص بيص إذ يعتبر الربة وأذرح مدينتا الشراة وعاصمتها. ثم يصفها بأنها « مدينة قديمة أولية قد بادت وصارت قرية تسمى الربّة وهي من معاملة الكرك وهي عن الكرك على أقل من نصف مرحلة في جهة الشمال (...) وبينها وبين عمان على طريق الموجب ثمانية وأربعون ميلاً » (ابو الفداء ص 247). أما الشوبك فهي عند أبو الفدا من الشراة (ص 246)، وذلك ما يناقض ما أورده الدمشقي (ق 8 هـ) سابقاً.

وفي نهاية القرن الثامن الهجري، ومطلع القرن التاسع يقتبس القلقشندي (ق 8 هـ) ما أورده أبو الفداء من معلومات عامة عن الكرك، ثم يتحدث عن الكرك على أنها إحدى قواعد المملكة الشامية، وأنها: « تعرف بكرك الشوبك لمقاربتها لها » (ج 4، ص 155). ويقتبس عن البلاذري – فتوح البلدان، في أن الغُرُنْدُلَ[1] – عاصمة كورة الكرك في القديم (ص 156).

ثم يتحدث عن نواحي وأعمال الكرك، ويقول أنها أربعة (ج 4 ص 156-157) أولها: البر التابع لها. ثانيها: الشوبك – « وهي بلدة صغيرة أكثر دخولاً في البر من الكرك ذات عيون وجداول تجري، وبساتين وأشجار وفواكه مختلفة (...) وكانت بأيدي الفرنج مع الكرك وفتحت بفتحها ».

---

(1) وقع خلط لدى المؤرخين حول موقع غُرُنْدُل Ghurundul حيث أن هناك موقعان بهذا الاسم واحد في محافظة الطفيلة في منطقة جبّال، إلى الجنوب من الطفيلة بحوالي ثلاثين كيلومتراً، وهي في واد غزير الماء خصب التربة، محصّن الطبيعة وبالقرب من رواث المشار إليها في الحاشية أعلاه. وهي التي نرى أن معركة عمرو بن العاص مع الروم قد حدثت فيها قبل دخوله إلى فلسطين عبر وادي عربة المحاذي لمنطقة غرندل التي يلفظها الأردنيون غَرَنْدَلَ Gharandal بفتح الغين والراء والدال، وسكون النون واللام. أما الموقع الثاني غرندل فهو بنفس اللفظ وهو في وادي عربة حيث توجد نبع ماء، وبقايا واحة قديمة، وليس فيها زراعات. كما أن غرندل الطفيلة أقرب إلى الشوبك وأسهل طريقاً، لذا فإن الموقع المقصود بالنص هو: غرندل الطفيلة وليست غرندل وادي عربة، والله أعلم.

وبذلك نجد الشوبك بلاد عامرة أيضاً، رغم أنها بلدة صغيرة، وهي داخلة في البادية أكثر من الكرك، ومن حولها جداول الماء التي تقوم عليها البساتين الغنّاء، والأشجار والفواكه. وقد كانت نقطة دفاع متقدمة عن الكرك، لذا سيطر الفرنجة عليها وحصّنوها للتحكم بطرق القوافل التجارية، وقوافل الحجيج، وحركات العربان، ومشاغلة الجيوش.

أما العمل الثالث التابع للكرك فهو « عمل زغر »؛ وأما الرابع فهو « عمل معان ». وبذلك نجد مثل هذه النواحي التابعة للكرك لتشمل مناطق البادية «البر».

أما الحميري (ق 9 هـ)، فقد نقل ما كتبه عن الكرك، عن رحلة ابن جبير (ت 614 هـ) الذي جاء قبله بحوالي ثلاثة قرون أو أقل.

وتعتبر حسبان والسلط من البلقاء وكانتا ولاية (القلقشندي ج 4، ص 201).

أما عجلون فنيابة مستقلة تابعة للشام وأن نائب الشام يستقل بالتولية فيها؛ ولم تجر له عادة بمكاتبة من الأبواب الشريفة (القلقشندي ج 4، ص 200).

-3-
عمـان

وعوداً بنا إلى عمان فهي ربّة عمون عاصمة العمونيين وهم أموريون عرب أردنيون استمر ملكهم لأكثر من خمسة عشر قرناً، وتعرّضوا للحروب والمجازر والاحتلال من مختلف الأمم. أما عمان هنا في بحثنا، فنتحدث عنها كمركز للبلقاء في أغلب الحقب التاريخية، لنجدها في القرن الثالث الهجري كورة مستقلة تابعة إلى دمشق، «... وظاهر البلقاء، وجبل الغور، وكورة مآب، وكورة جبال، وكورة الشراة، وكورة بصرى، وكورة عمان، والجابية » (ص 77). وقد قيل شعراً:

سـلّم عـلى دِمَـنٍ أقـوَت بعمّـان　　واستَنطِقِ الرَّبع هل يَرْجِعْ بتبيانِ

ويقول الاصطخري (ق 4 هـ) أن عمان عند البلقاء (ص 48)، وكأنه يقول أنها مجاورة لها، ذلك أن حسبان الواقعة إلى الغرب من عمان تبعد عنها حوالي عشرين كيلومتراً، وبالتالي فهي عندها، أي مجاورة لها. وهذه الإشارة تبيّن أن عاصمة البلقاء في ذلك العصر (ق 4 هـ) انتقلت من عمان إلى حسبان، وهما قريبتان من بعضهما.

ويعطي المقدسي (ق 4 هـ) وصفاً أشمل وأدق لعمان في زمنه، فيقول: «عمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع رستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام بها عدة أنهار وأرحيه يديرها الماء ولها جامع ظريف بطرف السوق مفسفس الصحن وقد قلنا أنه شبه مكة، وقصر جالوت على جبل يطلّ عليها وبها قبر أوريّا عليه مسجد، وملعب سليمان، رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه غير أن أهلها جهّال، وإليها الطرق صعبة» (ص 175)[1].

ومن هذا النص نجد ما يلي:

1- ربّة عمون كانت تسمى في العصور الإسلامية: عمان رغم الحديث عن قصر جالوت عندما كانت تسمى زمنه «ربّة عمون» قبل 28 قرناً.
2- أنها على سيف البادية أي أنها واقعة بين منطقة الخضراء غرباً، والبادية أو الصحراء شرقاً، فهي على الأعراف والحد، وبالتالي على سيف البادية أي

(1) لم يذكر الاصطخري (ق 4 هـ) ماذا يعني بكلمة جُهّال التي وصف بها أهل عمان؟!، ولكن يبدو أن ذلك مرتبط بالجهل بالدين والسياسة، ويبدو أنها الصفة التي لا زالت لاصقة بكل من يسكن عمان حتى الآن من مطلع القرن الحادي والعشرين حتى ولو كان عكس ذلك قبل أن يستوطن عمان، وإذا كان كذلك، فإنه يبدو لي أن الأمر ملتصق بطبيعة المكان للأسف الشديد (المؤلف).

على طرفها تماماً من جهة الجبال والمناطق الخضراء، وأنها تجتمع فيها الخضراء والبادية والصحراء على حدٍّ سواء.

3- أنها كانت عامرة بالقرى التي تعني استقرار السكان وفيها مزارع وذلك دليل على أن مجتمع هذه القرى كان زراعياً، وأنها كانت مناطق ماطرة، تتوفر فيها المياه، والمنتجات الزراعية والحيوانية والبرية من الأعشاب والعسل وغيره..

4- أن الماء كان فيها غزيراً، وهو: سيل عمان، لدرجة أنه كان يدير طواحين الماء، ولم يَبْقَ من السيل إلا الاسم والسقف الذي يغطي المياه العادة (المجاري التي حلّت محل السيل النظيف التي تمشي تحت السقف في هذا السيل الآن، كما أن رأس العين جفّت، وفيها بئر ماء ضخّ وليس نبع، وذلك لاستخدامه ضمن شبكة إرواء عمان.

5- أنها كانت مركز الحبوب والأغنام، وهذا يدل على الخصوبة ونشاط أهل البلاد من خارج عمان وليس من داخلها.

6- كثرة الفواكه جعلت الأسعار فيها رخيصة.

ويقول البكري (ق 5 هـ) أنها: « قرية من عمل دمشق سميت بعمّان بن لوط عليه السلام[1] » (ج 3 ص 970). ويتحدث البكري عن رجم الخمّان العموني الواقع على جبل اللبّن – إلى الجنوب من عمان بحوالي خمسة وعشرين كيلومتراً. فيقول:

(1) القول أن عمّان سميت نسبةً لعمّان بن لوط، ضرب من الهراء التاريخي، وإنما هي ربّة عمون، ومعناها عاصمة عمّون وهو اسم للقبيلة الأمورية الأردنية العربية حيث أنهم يلفظون الألف نون أن : واو نون، فيقولون عمون وعبدون وحشبون وديبون وأرنون، وهي عمان، وحسبان وذيبان، وإن بقيت عبدون بنفس اللفظ العموني القديم. إذن عمّان هو اللفظ العربي لاسم عمون اللفظ العربي الأموري القيم، ولا علاقة لها بسيدنا لوط، وإنما هذه من هراء التوراة.

لمـــن الـــدار أقفـــرت بمعـــان   بـين شـط اليرمـوك فالخمّـان[1]

(ج 2 ص 510)

ولعمان لدى الحموي (ق 7 هـ) نصيب فيقول: « عمان بلد بطرف الشام وكانت قصبة أرض البلقاء (...) » وفي الترمذي (ق 3 هـ) «حوضي من عدن إلى عمان البلقاء» ، والبلقاء: بالشام وهو المراد في الحديث لذكره مع أذرح والجرباء وإيلة وكل من نواحي الشام؛ وقيل: إن عمان هي مدينة دقيانوس وبالقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البلاد، والله أعلم » (ج 4 ص 151).

وبذلك ترى أن عمان عند الحموي (ق 7 هـ) – أو في عصر الحموي على الأقل، قصبة البلقاء وهي بلد في طرف الشام ولم يقل في الشام. كما نجد أن أذرح والجرباء وإيلة من أرض البلقاء من أرض الشام «وكل من نواحي الشام». وعمان عنده: قريبة من الرقيم الذي فيه كهف أهل الكهف.

وينقل الحموي على لسان أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري: « عمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع، ورستاقها البلقاء، وهي معدن الحبوب والأنعام، بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء، ولها جامع ظريف في طرف السوق مُفَسْفَسُ الصّحن شبه مكة » (ج 4، ص 151).[2]

---

(1) الخمّان رجم عموني قديم يقع على تلٍّ عالٍ إلى الجنوب من عمان مطلٌّ على قرية اللُّبْن al-Lubban وهي من قرى بني صخر، والرجم معروف لدى البدو، لأنه إشارة شاخص ورسم يراه المسافر من مسافات بعيدة، مبنيٌّ من حجارة الصوّان. وتقع إلى الشرق منه مدينة أثرية عمونية، ويبدو أنهما مرتبطان معاً بذلك من حيث التاريخ ومهمة الحراسة الموكولة لبرج الخمان.

(2) هذه إشارة واضحة إلى غزارة نبع ماء عمان في تلك الفترة (ق 7 هـ) إلى درجة أنها كانت تدير الأرحية (أي الطواحين)، وأنها كانت بلاد المنتوجات الزراعية، وذلك كله يدل على أنها كانت عامرة بالسكان، بعكس ما يقوله المثبورون الحاقدون أن الأردن بلاد خالية من الناس والسكان وأنها صحراء قاحلة. وكانت مصدر الحبوب واللحوم، وذات قرى كثيرة، ومزارع واسعة، =

واستمراراً للحديث عن البلقاء، فإنها من الناحية الطبيعية عند المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين هي: الأرض التي تشمل ما امتد من شمال تبوك، مروراً بحسمى ورم، ومعان وأذرح، والعقبة أو وادي عربة، ووادي موسى، والشوبك، والكرك، والربة، وشيحان، ومؤتة، وذيبان، وحسبان وعمان، وما حولها من الأراضي، وجرش وعجلون وإربد وأراضيها، وإن اختلفت التسميات والتقسيمات الإدارية، حتى تصل الجولان وجبل الشيخ. وتشمل ضفتي نهر الأردن بما فيها أريحا.

وعلى أرض البلقاء قامت مملكة أدوم، ومؤاب، والبتراء، وعمون، وحشبون، والأموريون، وجانب من دولة مدين قوم شعيب ﷺ . وهذه الأرض محاذية من الشرق لمسير الحفرة الانهدامية، أي وادي عربة بدءاً بالعقبة (بحر القلزم)، والبحر الميت ونهر الأردن انتهاءً بجبل الشيخ. هذا محصلة ما ذكره الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المسلمون.

وإذا كانت فلسطين في السابق تسمى أرض كنعان، وساحل عسقلان، وأن الأردن أو الجزء الأعظم منها كان يسمى أرض العماليق، وعاصمتهم أريحا (مدينة الجبارين) فإن التسميات المتباينة عبر التاريخ، والحدود الإدارية المتقلّبة بتقلّب الزمن والدول وأنظمة الحكم، لا تغير من الحقيقة الجغرافية الطبيعية والحقيقة التاريخية شيئاً. فقد يتغير عنوان الهوية السياسي، أو الكيان السياسي ولكن الهوية التاريخية والجغرافية والكيان الوطني تبقى الأهم والأعمق، والأكثر

- وهذه شهادة الحموي الذي يعتبر أدق الجغرافيين المسلمين في نقل الحقيقة. أما اصطلاح: سيف البادية فذلك يعني أنها لم تكن صحراء، ذلك أنها مناطق جبلية خصبة محاذية للبادية من جهة الغرب، وأن البادية لم تكن قاحلة ولو كانت كذلك لقال عنها الصحراء. إذن عمان على طرف البادية وليس على طرف الصحراء. وهذا يدل أن الأردن كانت بلاداً خصبة ووفيرة المياه والمنتجات الزراعية والحيوانية وكثيرة القرى والسكان ولا تزال آثارها ظاهرة إلى الآن.

دقة. لذا فإن تغيير التسميات للأرض الأردنية وتعاقب الدول والاحتلال الداخلي والخارجي عليها لا يعني أن الأرض الأردنية تغيّرت، حتى ولو خضعت للتقليص تارةً أو التمدد تارةً أخرى.

وبناءً عليه، فإننا ستتحدث عما بقي من أرض جنوب الأردن ضمن البلقاء التي هي جزء من الأردن. وتشمل كورة (منطقة) جِبَالْ، وكورة (منطقة) الشراة، ولا زالت هاتان التسميتان إلى الآن، حيث يطلق على جبال الطفيلة اسم « جبال » بدون أل التعريف، بينما يلفظون « الشراة » بأل التعريف ويدونها. أما حسما فهي الآن خارجة في التسمية عن جبال الشراة حيث يقولون لها: حسما وهي بلهجة الحويطات وبني عطية بالياء: حَسْمِي (بفتح الحاء وسكون السين وكسر الميم)، ويقولون: حسمي جَحَّادة الثرى - أي أنها تبتلع ماء المطر فلا يبدو أنها أُمطرت، وهذا يقال له عندهم: للتعبير عن الجحود.

وورد ذكر عمان أيضاً في كتاب فتوح البلدان للإمام أبي الحسن البلاذري مرةً واحدةً في الحديث عن فتح الشام.

«... وكان المسلمون يتصرفون بكورتي حوران والبَثَنِيّة ثم مضوا إلى فلسطين والأردن وغزوا ما لم يكن فُتح وسار يزيد إلى عمان ففتحها فتحاً يسيراً بصلح على مثل صلح بصرى وغلب على أرض البلقاء...» (البلاذري ق 4 هـ : ص 126)[1].

---

(1) البلاذري هنا يوضح أن أرض الأردن هي الأردن، وأن أرض فلسطين هي فلسطين، وهذا توكيد للهوية الجغرافية والوطنية والسكانية للبلدين، بانفراد كل منهما عن الآخر وهذا لا يعيب أيٌ منهما. ويتضح أيضاً أن عمان التي كان أهلها عرب من العمونيين كانوا ينتظرون أبناء عمّهم العرب المسلمين بفارغ الصبر لتخليصهم من الاحتلال الروماني، لذلك كان الفتح يسيراً من خلال الصلح، والتقى بذلك العرب واعتنق العمانيون (العمونيون) الإسلام وانضموا لجيوش الفتح الإسلامي يحملون راية التوحيد.

عَمّان: بفتح أوله وتشديد ثانيه وألف ونون. ويقال أيضاً: « عمان بتخفيف الميم[1] » (البكري 970:3). كانت عاصمة العمونيين الآتي ذكرهم وإليهم نسبتها، وفي عهد اليونان، في القرن الثالث قبل الميلاد، دُعيت باسم « فيلادلفيا » بمعنى « المحبة الأخوية » وذكر « اصطيفانوس البيزنطي » (توفي حوالي 600 م) أنها كانت تعرف باسم « أستارتي – Astarty » (جواد علي ق 20 م ، تاريخ العرب قبل الإسلام، 3/ 66).

وفي الفتوحات العربية الإسلامية نزلت جيوش « يزيد بن أبي سفيان » عمان. أما المقدسي (ق 4 هـ) فوصف مسجد عمان بأنه « جامع ظريف بطرف السوق، مُفَسْفس الصحن شبه مكة » (المقدسي، ص 175). كما وصف مدينة عمان بقوله: « عمان، على سيف البادية، ذات قرى ومزارع. ورستاقها البلقاء، معدن الحبوب والأغنام. بها عدة أنهار وأرحية، يديرها الماء. رخيصة الأسعار، كثيرة الفواكه » (أعلاه).

وقد نسب إليها ياقوت (ق 7 هـ) (معجم البلدان: ج 4، ص 152) اثنين من الفقهاء ورواة الحديث. وهما: أسْلم بن محمد بن سلامة بن عبدالله بن عبدالرحمن أبو دفافة الكناني العماني. توفي عام 324 هـ أو 325 هـ. أبو الفتح نصر بن مسرور الزهري العُمّاني.

تقع عمان على خط العرض 57 31° شمالاً، وعلى خط الطول 57 35° شرقي غرنتش؛ وترتفع «790» متراً عن سطح البحر وهي اليوم عاصمة الأردن. وفي المدة الأخيرة اتسعت وعظمت تجارتها وبلغ عدد سكانها 244.221 نسمة، وهي الآن (2006) حوالي مليوني نسمة.

---

(1) لم أجد لدى المؤرخين والجغرافيين واللغويين إشارةً كهذه، وذلك أنهم يذكرون عمّان (بتشديد وفتح الميم)، وليس بالميم المخففة التي أشار إليها البكري (ق 5 هـ)، بل يكاد ينفرد بهذه الرواية، وإن كان ذلك لا يغير من الحقيقة والواقع شيئاً.

وفي عهد الفتوحات العربية في صدر الإسلام دخلت عمان في حوزة المسلمين.

ومن حوادث عمان في العهد الأموي أنه في أيام الخليفة (الوليد بن يزيد ابن عبدالملك 125، 126 هـ) الذي عرف بخلاعته ومجونه وشربه الخمور ومنادمة الفُساق، فثقُل ذلك على رعيته وجنده وأبناء عمه فكرهوا أمره، ثم أخذ (الوليد ابن يزيد) ابن عمه (سليمان بن هشام بن عبدالملك) فضربه (ضرب سليمان) مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وأمر بحبسه في « عمان ». فلم يزل محبوساً حتى قُتل الوليد. ولما قتل هذا خرج سليمان من الحبس وأخذ ما كان في عمان من الأموال ونزل دمشق، (ابن الأثير: 5/ 280 و 292).

وهناك العديد من مؤرخي العرب وجغرافييهم ممن ذكروا عمان في مؤلفاتهم، ونذكر منهم هنا:

1- ذكرها ابن خرداذبة – عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة – المتوفى في نحو 280 هـ / 893 م في ص 77 من كتاب « المسالك والممالك » بأن (كورة عمان من أعمال دمشق).

2- ذكرها المقدسي المتوفى في نحو 380 هـ / 990 م بقوله: « وعمان، على سيف البادية ذات قرى ومزارع، رستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام. بها عدة أنهار وأرحية يديرها الماء. ولها جامع ظريف بطرف السوق مفسفس الصحن، وقد قلنا أنه شبه مكة.. رخيصة الأسعار، كثيرة الفواكه. غير أن أهلها جهّال. وإليها الطرق الصعبة » (المقدسي ص 175) .

3- وصفها صاحب المعجم ما استعجم المتوفى سنة 487 هـ / 1094م في معجمه (3-1970) « عمان، على وزن فَعْلان. قرية من أعمال دمشق... ويقال أيضاً عمان بتخفيف الميم ».

4- ذكرها صاحب معجم البلدان (4-151-152) وهو الحموي المتوفى عام 626 هـ / 1229 م: « بلد في طرف الشام وكانت قصبة أرض البلقاء »، وقال عنها: « إنها من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى، قصبتها عمان، وفيها قرى كثيرة، ومزارع واسعة، حنطتها يضرب بها المثل »، ونسب إليها:

1- أسلم بن محمد بن سلامة بن عبدالله بن عبدالرحمن أبو دفافة الكناني العمّاني. من أهل عمّان، مدينة البلقاء. قدم دمشق وحدث بها عن عطاء بن السائب بن أحمد بن حفص العماني المخزوني وغيره. توفي سنة 324 هـ وقيل سنة 325 هـ.

2- أبو الفتح نصر بن مسرور محمد الزهري العمّاني.

ونسب ابن عساكر (علي بن الحسن) المؤرخ الدمشقي المتوفى سنة 571هـ/ 1176 م إلى عمان علماً آخر هو « الحسن بن إبراهيم بن عثمان العمّاني » القاضي. قدم دمشق سنة 386 هـ. أخذ عن علمائها ومحدثيها »، (تاريخ ابن عساكر: 4/ 154).

5- وذكرها شيخ الربوة المتوفى سنة 727 هـ/ 1327 م في صفحة 213 من مؤلفه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » بقوله: « ومدينة عمان، التي لم تبق إلا دِمْنَتها وعملها ». والدمنة آثار الدار.

6- وكتب عنها أبو الفداء (ق 8 هـ) المتوفى سنة 732 هـ/ 1331 م في مؤلفه « تقويم البلدان » -- ص 247: « وعمان بلدة أوّلية. خراب من قبل الإسلام... وهي رسم كبير ويمر تحتها نهر الزرقاء التي على درب حجاج الشام.. وهي غربي الزرقاء وشمالي بركة زيزا، على نحو مرحلة منها، وعمّان من البلقاء وبها

آثار عظيمة، وبها أشجار بُطم وغيرها. وقد صار حوالي عمان مزارع، وأرضها زكية طيبة ».[1]

ثم عاد إلى عمان عمرانها ففي السلوك للمقريزي ج 3 ق 1 ص 30 أنه في سنة 757 هـ عمّرت مدينة عمان ونقل إليها الأمير صَرْغَتْمُش الولاية والقضاء من حسبان وجعلت أم تلك البلاد[2].

ويظهر أن الخراب قد عاد إليها في تاريخ لم نتمكن من معرفته.

7- وفي حزيران من عام 1812 نزل خرائب عمان الرحالة بيركهارت السويسري المولد نقتطف من وصفه لها ما يلي: « نهر عمان لا يمكن خوضه في فصل الشتاء. وضفاف النهر وكذلك فرشته جميعها مرصوفة، إلا أن الرصفة قد جُرِفَت. جانب النهر الجنوب مدرج رائع يعتبر أكبر ما شاهدته في سوريا.

---

(1) ما ذكره أبو الفداء عن وجود أشجار بطم وأشجار أخرى، لم تعد موجودة الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين)، ذلك أن الأردن مشهور بأشجار البطم الأطلسي الموجود حالياً في منطقة الهيشة بالشوبك وعدد منها في ياجوز في مقبرة الشاعر الأردني المعروف نمر بن عدوان. ولم تعد هذه الأشجار موجودة في عمان بسبب الإهمال والتصحّر والاعتداء على هذه الثروة الوطنية.
أما قوله أن أرض عمان زكيّة وطيّبة، فهي معروفة (وبخاصة شمال وغرب وجنوب عمان) بحمرة تربتها وخصوبتها، وأنها تسرّ الناظرين، وتعطي إنتاجاً عالياً. وأما الآن فقد تحولت إلى أكوام من الحجارة تسمى: البيوت والقصور والدارات والعمائر، ولكنها قد تتحول إلى رجم واحد يزعق بها البوم والهوام إذا ما أصابه زلزال أو غيره أو خسف بسبب ارتكاب الموبقات على أديمها أو أحداث ما لا قدّر الله.

(2) رأينا أكثر من إشارة أن حسبان وعمان كانتا تتبادلان عاصمة البلقاء. ولو عدنا إلى التاريخ لوجدنا الأولى عاصمة مملكة الحشبونيين، والثانية عاصمة مملكة العمونيين، وكلاهما جزء من الشعب الأموري الأردني العربي، وقد تزامنتا في أهميتهما التاريخية. إلا أن المياه أكثر وفرة في عمان منها في حسبان، وإن كانت متوفرة في كليهما، مما جعل الزيادة في الماء المقترن بخصوبة التربة وسعة الأراضي أن تكون عمون أكبر من حشبون.

إن المباني الضخمة التي لا تزال قائمة تشهد على عظمة عمان السابقة، وأشهرها المساجد والهياكل والمسارح والقلاع والحمامات والشوارع المعمرة... إن خرائب عمان مبنية من الحجر الكلس المتوسط الصلابة، باستثناء بضعة جدران من الحجر الصواني ... ولهذا فإن هذه الخرائب لم تقاوم عوامل الزمن التخريبية كخرائب جرش ...

لقد زرت خرائب عمان زيارة خاطفة وأنا أشعر أن الوصف الذي سجلته لا يفي بالغرض. وأنا أنصح من يريد زيارة المكان زيارة علمية أن تصحبه قوة مسلحة من الرجال حتى تكون دراسته وافية عن هذه الخرائب المهجورة »» (بيركهارت، رحلات في سوريا والبلاد المقدسة).

8- وفي عام 1900 نزلت « فرنسيس أملي نيوتن » عمان ووصفتها بكتابها « خمسون عاماً في فلسطين » (ص 34) بقولها: « وما كانت عمان إذ جئناها، في سنة 1900 إلا خربة شرقية قذرة مذرة، بشارع واحد بمخازنه وحوانيته شراكسة، حذقوا صناعة المنيا، حفراً في الفضة واشتهروا بالبأس وشدة المراس. وكانت هجرتهم إلى هذه البقعة ليعمروها، إرادة سنية عنت للسلطان عبدالحميد، وقد أرادهم أن يكونوا ليقفوا في وجه البدو الرحل فيسلم الحضر. نُصِبَتْ خيامنا في مهد لدى المسرح المدرج، الماثل بجلال القدم، وعلى ذلك المهد شيد فيما بعد فندق عمان باسمها الأسبق» .

9- وفي أوائل القرن العشرين أيضاً نزل خير الدين الزركلي عمان في عام 1921 فذكرها بقوله: «لم تكن عمان في ذلك الحين – جمادى الثانية 1339 هـ/ شباط 1921م – أكثر من قرية، قليلة السكان، ضئيلة المباني، مظلمة السبل لا يصل بينها وبين تاريخ مجدها إلا ما شَخصَ من آثارها. ولا يدل على إمكان الحياة فيها غير توسطها بين قبائل بني صخر وبني حسن وعباد والعدوان، يردون عليها بين الفترة والفترة فيبيعون فيها بعض ما تنتجه ماشيتهم ويبتاعون منها ما

يكتسون، فللتجارة فيها شبه سوق. ولولا ذلك لانفرد بسكناها جماعات من الشراكسة نزحوا إليها حوالي سنة 1290 للهجرة، كما انفردوا بكثير مما حولها من قرى ومزارع، هم أصحابها اليوم غير منازعين. ولكن ابتغاء الربح وطلب الكسب هما اللذان حملا إلى عمان تجاراً من دمشق ونابلس افتتحوا فيها حوانيت صغيرة فقصدها أهل الخيام والأكواخ من البداة الضاربين حولها والمقيمين فيما جاورها من القرى، وأصبحت ولها شيء من الشأن »[1]، (عامان في عمان، ص 6).

10- وبعد سنتين من زيارة الزركلي لعمان، زارها في عام 1923 الرحالة الأوروبي المسلم « محمد أسد » فوصفها في ص 145-146 من كتابه « الطريق إلى مكة » بما يأتي: « هناك رأيت لأول مرة، بلاداً بدوية حقيقية. كانت عمان - العاصمة - المبنية على أطلال فيلادلفيا، مستعمرة بتوليمايوس فيلادلفوس اليونانية - في ذلك الوقت مدينة مغمورة لا يتجاوز عدد سكانها ستة آلاف نسمة. كانت شوارعها مليئة بالبدو، بدو السهول المنبسطة، الحقيقيين الذين نادراً ما كان يراهم المرء في فلسطين على حقيقتهم: محاربين أحراراً ومربي إبل. وكانت الجياد المدهشة ترمح في الشوارع، كما كان كل رجل مسلحاً يحمل خنجراً في حزامه وبندقيته على ظهره. وكانت عربات الثيران الجركسية تتهادى

---

(1) هذه إشارة واضحة، وشهادة محايدة، وبرهان ناصع أن كل من جاء إلى عمان (وإلى الأردن) من الخارج قد جنى وبنى ثروته من دماء ولقمة عيش الأردنيين، وبخاصة من دماء وطيبة وشهامة هذه القبائل التي ذكرها خير الدين الزركلي ونقلها بأمانة. فهذه القبائل كانت تبتاع ما تحتاج من عمان وتدفع لذلك ثمناً باهظاً وظالماً ينتهي بأخذ الأرض التي تمتلكها العشائر سداداً للدَّيْن من أثمان البضاعة المزجاة القليلة التي تصبح أضعافاً مضاعفة مئات المرات فيما يُسمى: الفائض أي الربا والفائدة، وأصبحت في عُرف الأسعار الحالية مضاعفة ملايين المرات، فإذا بصاحب الحانوت الصغير، الذي جاء عارياً جائعاً شريداً طريداً، الذي استمر تحت حماية هذه العشائر بعدم الغارة عليه ونهبه يتحول إلى مصدر مالي إلى درجات الخيال. وهكذا ينطبق علينا ما قاله المقدسي من الطيبة التي سماها جهلاً.

متثاقلة عبر السوق التي كان يسودها، رغم صغرها، لغط وهرج جديران بمدينة أكبر جداً من عمان »[1].

11- وفي عام 1932 زارها « لانكستر هاردنج » الذي أصبح فيما بعد مديراً لدائرة الآثار الأردنية فقال: « عندما زرت عمان للمرة الأولى في عام 1932 لم تكن أكثر من قرية كبيرة، لأن السلط كانت أكبر بلدة في شرقي الأردن[2] خلال العهد التركي، وفي عام 1932 كان أكثر بيوت البلدة في الأودية، ولكن اتجاه المباني الجديدة، قد بدأ زحفه نحو قمم التلال المحيطة، وكانت الشوارع ضيقة وأكثرها غير معبد. وأما مكتب رئيس الوزراء فقد كان في بناء صغير بجانب السيل، كما كان ديوان الأمير في منزل مجاور لفندق فيلادلفيا الذي بني قبل ذلك بفترة وجيزة. أما الأسواق والدكاكين فقد كانت على نسق مثيلاتها في أية بلدة شرقية على أطراف الصحراء. وكانت الطريق الوحيدة إلى الجنوب تقطع السيل (لاحظ أن السيل كان غزيراً في عام 1932) قريباً من الجسر الروماني. وفي ذلك كانت بقايا آثار رومانية وبيزنطية ما تزال ماثلة في أماكن كثيرة في البلدة. وكانت دائرة الآثار في بيت مؤلف من خمس غرف قريباً من المدرّج، ثم أصبحت لفترة قصيرة مقر القيادة العامة للجيش العربي».

---

(1) هذه شهادة أخرى من رحالة أوروبي مسلم في طريقة لأداء فريضة الحج، يذكر أن أبناء العشائر الأردنية التي أشار إليها الزركلي، كانوا يملأون الشوارع، يحملون الأسلحة، ويركبون الخيول والإبل ويشترون ويبيعون. وهذا يغاير ما يقوله الحاقدون أن الأردن ليس لها أهل، أو أن عمان لم يكن بها أردني أو ابن عشيرة. يا إلهي ما هذا الظلم المستمر الواقع علينا نحن الأردنيين باستمرار؟! ولكن هذه الشواهد دليل على كذب المفترين، وصدق ما نقول به.

(2) هذه إشارة إلى أن السلط كانت أكبر مدينة بالأردن في الثلث الأول من القرن العشرين، وأن عمان كانت قرية (وكانت تابعة للسلط). لذا هناك مَثَل أردني يقول: عِلْمَكْ بعمّان قرية. أي أن أحوالها تغيّرت من قرية صغيرة، إلى مدينة كبيرة في عُرف ذلك الوقت. أما الآن فهي مدينة واسعة الأرجاء (؟!؟).

ثم يصف المستر هاردنج عمان إبّان الحرب العالمية الثانية (1939–1945) فيقول: «لقد جلبت الحرب رخاءً عظيماً للبلدة وبدأت مناطق السكن تنتشر وتتسع فوق التلال. وعندما أقبلت الحرب على نهايتها أصبح اتساع العمران من السرعة بحيث أنني صرت أخطئ في التعرف على الطرق في الأحياء الجديدة التي لم أكن أزورها باستمرار. على أن البلدة عرفت أعظم فترات الاتساع بعد تدفق النازحين إليها من فلسطين عام 1948 و 1949 ، حينما أخذ أصحاب الأموال منهم يبنون بيوتاً لأنفسهم. وعمان اليوم (1956) مدينة كبيرة مزدهرة رغم أن فن العمارة والهندسة في منازلها وأحيائها ليس على ما يرام، إلا أن الحجر الأبيض الذي يستعمله أكثر السكان في بناء منازلهم يضفي عليها روعة وجمالاً، ويخفي ما قد يكون فيها من نشاز. وما يزال إلى جانب من السوق المخصص لحاجيات البدو والفلاحين قائماً[1]، ولكنك تجد في السوق التجاري الرئيس بضائع معروضة للبيع من جميع أنحاء العالم. وتبلغ مساحة المدينة الحديثة ستة أضعاف مساحتها في عهد الرومان والبيزنطيين عندما بلغت أوج ازدهارها القديم.

-4-

آثار عمان وما حولها

ما يزال يشاهد للآن خرائب عظيمة في عمان ومن أشهر آثارها الباقية للآن:

---

(1) مرة أخرى، ورغم تدفق أبناء النكبة إلى عمان، وما صار لها ما يسمى ويقال عنه: ازدهار وتمدد بسبب الحرب ومآسي الآخرين، إلا أنها بقيت عاصمة العشائر الأردنية، وأن جانباً من السوق لا زال مخصصاً لحاجياتهم، وذلك يبرهن على تباين الثقافة بين الأردنيين والآخرين وأن لهم حاجياتهم الخاصة التي تستوجب سوقاً خاصاً لذلك.

المدرج الروماني الكبير الفخم

يتسع إلى ستة آلاف متفرج، وقد بُنيت مقاعده في المنحدر الذي في جوف الجبل. ولقد اختفى المسرح ولم تبق سوى أساساته. والأعمدة القليلة التي ما تزال منتصبة حتى الآن هي بقية مجموعة من الأعمدة التي كانت أصلاً تحيط بساحة قائمة الزوايا. والمدرج يقع أمام فندق فيلادلفيا من الشرق. وقد أجريت فيه إصلاحات عديدة مهمة وأخذت تقام فيه الحفلات الرسمية والشعبية.

وبجانب الفندق على الناحية الشرقية مدرج آخر يتسع لأربعمائة متفرج. وقد تم سقف سيل عمان، وتحويل الأرض المحاذية للمدرج من الشرق إلى ساحة مواقف سيارات وأسواق من عدة أدوار، بعد أن جرى عام 2004 هدم الأكشاك التي بُنيت في تلك الساحة منذ عام 1990.

القلعـة

تقع على جبل منبسط يطل على عمان من الشمال والشرق. وكانت تقوم عليه مدينة « ربّة عمون ». وأقيمت عليه اليوم بناية « متحف الآثار الأردني ».

تحيط في الجبل الأودية من كل جانب، ما عدا الجانب الشمالي حيث حفر خندق أثري قديم زمن العمونيين لكي تصبح القلعة التي أقيمت عليه، والمعروفة بقلعة عمان، منعزلاً تاماً. وكان يحيط بالقلعة سور ضخم حصن بالأبراج العظيمة التي أقيمت على مختلف جهاته.

إن الآثار الباقية من جبل القلعة تعود إلى العهد الروماني والبيزنطي والعربي، فيما عدا الزاوية الشمالية الشرقية حيث ما يزال جانب من مدينة العصر الحديدي قائماً حتى الآن، أي الفترة العمونية.

ومن المحتمل أن يكون البناء المربع الموجود على الجبل والمعروف محلياً باسم (القصر) يعود بتاريخه إما إلى العهد الأموي (القرن السابع أو الثامن) أو

لفترة الغساسنة (القرن التاسع للميلاد). ويحتمل أن هذا البناء كان قاعة للاستقبال، وهو ما يزال يحتفظ بمعالمه أكثر من الآثار الأخرى، (هاردنج، آثار الأردن ص 59). وهناك أيضاً، في القلعة، آثار معبد لزيوس « زمس » الذي يعتقد أنه يعود إلى القرن الثاني للميلاد.

هذا وتقوم دائرة الآثار الأردنية بترميمات وحفريات واسعة في أسوار وقصور ومعابد هذه القلعة الشهيرة. وفضلاً عما تقدم فإن الخرائب والأطلال تتعدد في وسط المدينة وأطرافها تحجبها العمارات التي أحيطت بها. وهناك ثروة أثرية هائلة تم اقتلاعها، بل واجتثاثها من الأرض، وإقامة بنايات تجارية بشتى أشكال الاستعمالات.

-5-

الزرقـــاء

يُنسب بناؤها إلى الحارث الثاني بن جبلة الغساني (نحو 529-569 م). تقع في الشمال الشرقي من عمان وعلى مسيرة نحو 23 كم عنها، ترتفع 610 أمتاراً عن سطح البحر. ويمر بجانبها نهر الزرقاء. وهي محطة من محطات سكة الحديد الحجازية التي بُنيت في مطلع القرن العشرين زمن الاستعمار التركي للأردن.

كانت الزرقاء في العهد العثماني قرية متواضعة من قرى ناحية عمان من أعمال قضاء السلط. واعتباراً من 1/ 4/ 1964 أصبحت مركزاً للواء يحمل اسمها.

أخذت الزرقاء، تنمو وتتسع، بعد نكبة 1948 وهي اليوم ثانية مدن الأردن في تعداد سكانها تم تحويلها إلى الزرقاء الكبرى في عام 2001، لتشمل سائر البلدات والبلديات والقرى المجاورة في ضواحيها. وغالبيتها من قرى عشائر بني حسن الأردنية.

-6-

الحســـــاء[1]

(ويلفظ الْحَسَا)

الحساء، وكان جزءاً من ديار بني أسد في القرن التاسع الهجري (الحميري ص 205)، ويقول: « والمشهور أن الحساء في طريق مؤتة »، ويضيف بأنه ظهر من أهلها: عثمان بن شطيبة الحسائي (أعلاه).

ومن الأساطير العربية السائدة حول وادي الحساء، أنه المكان الذي غرق به عربان الضيغم زمن عمير وعرار، وأن الحجايا هم من أحفاد الضياغم هؤلاء، ولا زالوا يعيشون في مناطق الحساء والسد السلطاني وجرف الدراويش وبعض قرى محافظة الكرك. يقول خليفة بن خيّاط في تاريخه (ت 240 هـ) عن جيش المسلمين الذاهب إلى مؤتة « فلقيتهم جموع هرقل بالبلقاء » (ص 87).

-7-

الجنـــوب

1- مؤتــة

يقول الياكوتي: « مؤتة من أعمال البلقاء من حدود الشام » (ص 33 أ)، ويذكر المقدسي أنها من قرى مآب، وفيها قبور الصحابة الثلاثة الكرام (ص 178). ثم يبيّن البكري (ق 5 هـ) أن مؤتة « موضع من أرض الشام، من عمل البلقاء؛ وهو الذي بعث إليه رسول الله ﷺ الجيش سنة ثمان.. الخ » (ج 4، ص 1172).

---

(1) الحِساء: هو الشراب الذي يُقدّم قبل تناول الطعام، ويكون جزءاً من الوجبة وبخاصة عند الغداء أو العشاء. إلا أن الاسم الدارج الآن هو الحَسَا، بفتح الحاء والسين، وليس بكسر الحاء. والحسا هي تعديل لفظي لكلمة الحِسَاء، لكنها أي الحَسَا ربما تكون تحريفاً لكلمة الحصى بالصاد والألف المقصورة، بسبب كثرة الحصى في مجرى السيل والماء، لأنها تتزود بالماء والحصى من التلال الصحراوية المجاورة، بحيث تقل الجلاميد الصخرية، ويكثر الحصى، والله أعلم.

ويروي البكري على لسان ابن إسحاق أنه: « لما نزل المسلمون من دمشق بطريقة مكة، بلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء » (أعلاه).

ويروي الحموي (ق 7 هـ) ما ذكرناه أعلاه بطريقة أكثر دقة وتفصيلاً، إذ يبين أن معنى كلمة مؤتة بدون همزة تعني: الجنون، وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، ثم يروي على لسان المهلّبي أن جموع الروم قد لقيت المسلمين في قرية يقال لها مشارف[1]، تنسب إليها السيوف المشرفية وهي قرية من قرى البلقاء، وعندما اقترب العدو منهم « انحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ». (انظر الحموي ج 5، ص 219) (220). ويؤكد القزويني (ق 7 هـ) أن « مؤتة من أعمال البلقاء من حدود الشام » (ص 275). وقد أثبتنا بالملحق تفصيل ما ذكره الواقدي عن معركة مؤتة.

2- الجرباء

وأما الجرباء: (وهي الآن من أعمال محافظة معان، وتبعد عنها حوالي 26 كيلومتراً إلى الشمال)، فهي عند الحموي (ق 7 هـ) « موضع من أعمال عُمان (أي عَمّان) بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة[2] من ناحية الحجاز، (أي من جهة وطرف الحجاز)، وهي قرية من أذرح، وبينهما كان أمر الحكمين بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري » (ج 1، ص 118).

---

(1) مشارف وهي قرية من قرى الكرك بالقرب من مؤتة وإلى الشمال منها، وهي تل يشرف على سهول مؤتة، وقلعة الكرك وجبالها وسهولها الشرقية، لذلك سميت المُشْرِفة، وحيث أن الأردنيين مولعون بالتصغير للتحبُّب، فقد سمّوها المشيرفة تحريفاً للاسم القديم مشارف ذلك أن مشيرفة مفرد مذكر؛ ومشارف جمع. وقد كانت قبل الإسلام سوقاً لصناعة وبيع السيوف المنسوبة إليها.

(2) السرّاة وردت في كتب الرحالة والجغرافيين تارةً بالسين المهملة، وتارةً بالشين والمعنى واحد، والمكان واحد. ونجد الحموي يقول عنها السراة تارةً، والشراة تارةً أخرى، وكلاهما صحيح.

ويقول الحموي عن أذرح أنها: « بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء، وعَمّان مجاورة لأرض الحجاز. قال ابن الوضّاح: وهي من فلسطين. وهو غلط منه، وإنما هي في قبلي فلسطين من ناحية الشراة » (ج 1، ص 129).

ونفهم هنا أن أذرح في أرض الشراة، وأنها والشراة جزء من البلقاء، فالشراة – على هذا الأساس – موضع من منطقة أكبر هي البلقاء. وأما مكان اجتماع الحكمين فهو تل مخروطي عالٍ، يمكن للخيل والإنسان أن يصعدوه ويستقروا عليه، ولا تزال الروايات الشعبية تقول أنه موقع اجتماعهما، حيث اسمه الآن: الأشعري، نسبة إلى أبي موسى الأشعري الذي مَثَّلَ علياً في التحكيم، ويذكر البكري (ج 1، ص 130) أن أذرح « مدينة تلقاء الشراة من أداني الشام »، وأن الحسن بن علي قد بايع معاوية فيها، وأعطاه معاوية مئة ألف دينار.

وفي أذرح آثار لمدينة قديمة ذات مستوى من التقدم والحضارة، وأما الآن مطلع القرن الحادي والعشرين فإنها قرية يسكنها أفراد من عشيرة الجازي وغيرهم من عشائر الحويطات، وفيها مدارس وهاتف، ومدرسة للقوات المسلحة لتدريس أبناء البدو هناك. ويذكر البكري (أعلاه)، والحميري (ص 21) أن علي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهم، عندما انفصل إلى الشام، «اعتزل مدينة أذرح ونزل الحميمة وبنى بها قصراً».

أما الجرباء: ففيه آثار قديمة، ونبع ماء حارٌ عذب وغزير[1]، وهي إلى الشمال من أذرح بحوالي 2.5–3 كم، وهي من أراضي الحويطات أيضاً.

---

(1) لم يعد يوجد مثل هذا النبع الحار، وأذكر أن سيل ماء عذب ضعيف كان موجوداً عام 1968، لكنه اختفى الآن، بسبب حفر الآبار الجوفية في المنطقة، واستخراج الماء بشكل جائر لغايات زراعة التفاح العائدة لغير أهل المنطقة.

ويرى الحميري أن التحكيم جرى بدومة الجندل الواقعة في شمال الجزيرة العربية، والتي اقترن اسمها دائماً بمدينة أذرح (الحميري ص 245) ويقول الطبري: « حتى توافوا في دومة الجندل بأذرح » (ج 5، ص 67).

-8-

معـان ومـا حولها

وعن معان: يقول الاصطخري (ق 4 هـ) أنها: « مدينة صغيرة سكانها بنو أميّة ومواليهم وهو حصن من الشراة » (ص 48)، ثم يضيف في موقع آخر أنها « حصن من الشراة وحوران » (ص 65). وبذلك نجد أن بني أمية قد اتخذوا من معان مقرّاً لهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت أمام مطاردة العباسيين لهم. فمعان قريبة من مسالك النجاة، سواء تجاه الصحراء جنوباً وشرقاً، أم إلى البحر من الجنوب الغربي، أم إلى الجبال والمواقع الخالية الآمنة في جبال الشراة وحسمى ورم.

وفي (ق 5 هـ) يذكر البكري وجود معان الحجازية، وهي التسمية التي بقيت إلى الآن، حيث أن معان مقسمة إلى قسمين رئيسين هما: معان الشامية – وهي الشمالية – لأنها من جهة الشام؛ ومعان الحجازية، وهي الجنوبية – لأنها من جهة الحجاز.

ويذكر البكري أيضاً: أن « فروة بن عمرو الجُذاميّ كان عاملاً للروم على معان، الحصن المذكور وما يليه من أرض الشام، فأسلم وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء، فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى ظفروا به، ثم قتلوه وصلبوه » (ج 4، ص 1242).

ويضيف الحموي قائلاً: « وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزلة مُعان وما حولها من أرض الشام » (ج 4 ص 132).

ونخلص من هذا كله، أن معان من أرض الشام، وأن التسمية الحجازية جاءت نسبة لوقوعها من جهة الحجاز بالنسبة للجزء الجنوبي المسمى حتى الآن: الحجازية؛ أما القسم الشمالي الذي يلي الشام فيسمى: الشامية. كما يتبين لنا أن الأرض المجاورة لمعان من الشراة ورم وحسما والنقب والطفيلة - حيث ماء عِفْرى الذي صلب عليه الجذامي المذكور ﷺ ، أن هذه كلها جزء من الشام. وحيث أن البلقاء هي القطر الذي يلي هذه المناطق من جهة الشام، وأن معان من أرض البلقاء، فالأولى أن تكون الأرض التابعة إليه من البلقاء، ليس بالإدارة فحسب، بل وبالطبيعة الجغرافية أيضاً.

كما نستشف أيضاً، أن السكان الذين كانوا يهيمنون ويمتلكون بلاد جنوب الأردن والبلقاء هم « بني جذام »، عند بدء الفتوحات الإسلامية وما قبلها، ويشاركهم في ذلك عدد من القبائل العربية. بل إن الغساسنة وجذام كانتا أصحاب السيادة، كما يبدو.

ويؤيد ما أثبتناه أعلاه من أن معان جزء من البلقاء قول الحموي من أن: « الحسن بن علي بن عيسى أبو عبيد المعني الأزدي المعاني من أهل معان البلقاء » (ج 5، ص 153).

وحول معنى كلمة معان، يقول الحموي: « والمعانُ: المنزل، يقال: الكوفة معاني أي منزلي، قال الأزهري: وميمه ميم مَفْعَلْ: وهي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء (ج 5، ص 153).

وكانت معان أول محطة لجيوش المسلمين المتجهة إلى مؤتة « فساروا حتى بلغوا معان فأقاموا بها وأرادوا أن يكتبوا إلى النبي ﷺ عمّن تجمع من الجيوش، وقيل: قد اجتمع من الروم والعرب نحو مائتي ألف فنهاهم عبدالله بن أبي رواحة وقال: إنما هي الشهادة أو الطعن » (أعلاه).

وإذا تخيّلنا أهمية معان التي يسميها الكاتب الحالي (المؤلف د. أحمد عويدي العبادي): عروس الصحراء، وهي موضوع الراحة للقادم من حرّ الصحراء، أو من قرّ الجبال والخضراء، فإنه لابد أن يرتاح هنا كي يتأهب بعدها لمواصلة مسيره شرقاً كان أم غرباً؛ وهي بذلك منزل له يجد فيه الراحة والماء. وإن لجوء بني أمية إليها كما سبق وأشرنا ليدلنا على أهميتها كمنزل، لمن يطلب الأمن والحماية، وأنها كانت تشتمل على مقومات الحياة والموارد الكافية لمن يسكنها.

وقد أورد الحميري (ق 9 هـ) أن معان: «موضع في طريق الشام من المدينة» (ص555). كما وردت لدى الحميري في معرض حديثه عن قصة جبلّة بن الأيهم، تحت عنوان جِلّق (ص169-177)، حيث أورد شعر حسّان بن ثابت عنها في الجاهلية:

لِمَنِ الدّارُ أقْفَرَتْ بمعانِ ... بين أعلى اليرموك فالخمّانِ
ذاك مغنى لآل جفنة في الدهـ ... ـر محلّى لحادث الأزمانِ

(ص 171)

ويتبين من ذلك وجود معان كموقع للاستقرار والحياة والأمن، ومقومات الحياة زمن الغسانيين قبل الإسلام، ووجودهم فيها أيضاً.

وفي ضمن ما يقع في محافظة معان وأراضيها، منطقة المدوّرة التي تعتبر الآن نقطة حدود مع السعودية. وأما اسم المدورة التاريخي فهو « سَرْغ »، والتي قال عنها البكري (ق 5 هـ) أنها: « مدينة بالشام، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح، هي واليرموك والجابية والرّمادة متصلة » (ج3،ص375). وفي نفس الموقع من الكتاب: « أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسَرْغ، لقيه أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام » (أعلاه).

وبذلك نجد أن سَرْغ هي من الشام، وأنها كانت من المنازل الأولى عند الدخول إلى بلاد الشام من جهة جزيرة العرب، والمحطة التي يُلقي فيها المسافر

رحاله إذا قدم من الجزيرة إلى الأردن أو إلى بلاد الشام. وأذكر أن بقايا الكروم في سَرْغ كانت واضحة للعيان حتى عام (1986)، حيث توجد أعجاز نخل خاوية، وفسائل مورقة، وآثار سلاسل ومساطب ترابية تدل على زراعة متقدمة في الأجيال الغابرة. كما يوجد شق في الصخر الرملي على شكل باب مغارة، يقول البدو أنه كان نبع ماء يسقي السهول المجاورة؛ ولعله الماء الذي نزلته جيوش المسلمين الأربعة القادمة لتحرير بلاد الشام من الاحتلال الرومي وتحرير الناس من الكفر، ونزله سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ .

ويقترن اسم سَرْغ بالزراعة والنمو المتجدد، حيث يقول الحموي (ق 7 هـ) أن سَرْغ مفرد سُرُوغ، وأن: « سُرُوغ الكروم: قضبانة الرطبة، الواحد سَرْغ، بالغين، والعين لغة فيه: وهو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيشة وتبوك من منازل حاج الشام » (ج3 ص212). وقبل هؤلاء جميعاً، فإن ابن خرداذبة، قد ذكر سَرْغ ضمن وصفه للطريق من دمشق إلى مكة المكرمة، حيث يقول: « ... ثم إلى سَرْغ، ثم إلى تبوك » (ص 150).

ثم نأتي إلى الجبال والشراة، ونبدأ بما ذكره البلاذري (ق 3 هـ)، الذي ذكر أنه عُهد إلى يزيد بن أبي سفيان فتح عمّان التي كانت آنئذٍ عاصمة البلقاء، وغرندل (بالعين والغين)، التي كانت عاصمة الشراة والجبال وجميعها من أرض الأردن، فيقول (البلاذري ق 3 هـ): « وكان المسلمون يتصرفون بكورتي حوران والبثنيّة ثم مضوا إلى فلسطين والأردن وغزوا ما لم يكن فُتح وسار يزيد إلى عَمّان ففتحها فتحاً يسيراً بصلح على مثل صلح بصرى وغلب على أرض البلقاء، وولي أبو عبيدة وقد فتح هذا كله فكان أمير الناس حين فُتحت دمشق إلا أن الصلح كان لخالد وأجاز صلحه، وتوجّه يزيد بن أبي سفيان في ولاية أبي عبيدة ففتح عَرَنْدل صلحاً وغلب على أرض الشراة وجبالها » (ص 126 طبعة برل 1968).

وهذا يدل على أن عمان وغرندل كانتا عامرتين بالسكان، من العرب وغيرهم. وكانت عمان عاصمة البلقاء الممتدة من جنوب معان حتى درعا – كما سبق عند حديثنا عن معان، وكانت غرندل (جنوب الطفيلة) عاصمة الشراة وجبال (أي مناطق الطفيلة).

وحول الجبال والشراة، وما هما عليه من الخصب ووجود السكان من عرب وغيرهم، نجد الاصطخري (ق 4 هـ) بعد قرن من البلاذري يتحدث عن ذلك بقوله: « وأما الجبال والشراة فإنهما بلدان متميزان، أما الشراة فمدينتها تسمى أذرح، وأما الجبال فإن مدينتها تسمى رواث، وهما بلدان في غاية الخصب والسعة، وعامة سكانها من العرب متغلبون عليها » (ص 44).

أما رواث وغرندل فهما متجاورتان، وتقعان الآن في محافظة الطفيلة، على الخط المتجه منها جنوباً إلى الشوبك، حيث تبعد غرندل عن هذا الخط أقل من ثلاثة كيلو مترات، بينما تبعد رواث عنه بضعة عشرات من الأمتار فقط. ويسكنهما الآن عشائر من السعوديين، حيث تحدثنا عنهم وعنها مفصلاً في كتابنا العشائر الأردنية (الجزء الأول والجزء الثالث).

وفي غرندل الآن؛ (2006) ماء عذب ومعدني مشهور، ويسقي حوالي ستمائة دونم من الأرض، في أوقات متقطعة. وتبلغ قوة الماء في أعلاها 8 إنشات شتاء وربيعاً، وفي أدناها 4.5 إنش. وكانت البلدة مجلساً قروياً، وتأسست فيها بلدية في نيسان من عام 1986، وهي تابعة لقضاء بصيرا التي كانت يوماً عاصمة الأدوميين، وتبعد عن الطفيلة 20 كم، وعن رواث 2 كم، وقد بدأت غرند تمتد وتتوسع باتجاه رواث:

أما رواث فإنها خربة قديمة، ودمنه رطبة، وإن كانت أرضها خصبة، أصبحت الآن (2006) مقفرة ما عدا بعض البيوت لعائلات من عشيرة السعوديين، وبها نبع ماء أيضاً. وتبعد عن الطفيلة 22 كم.

ويتبين لنا أن البلاذري ذكر غرندل كعاصمة للشراة زمن الجاهلية، ثم نجدها تحولت إلى رواث المجاورة في القرن الثالث الهجري، كما ذكر الاصطخري (ق 4 هـ). وتسكن غرندل ورواث وبصيرا الآن (2006) العشائر التالية من السعوديين: الزيدانيين، الرفوع، المزايدة، المسيعيديين، عيال سلمان وفروعهم. ويؤكد البكري (ق 5 هـ) ما نراه، وهو أن الشراة جزء من بلاد الشام، فيقول: « الشراة من ناحية الشام » (ج 3، ص 789).

ثم نأتي إلى وادي موسى، كونه يقع ضمن جبال الشراة، على الحدود المحاذية للبتراء ووادي عربة، يذكر الحموي (ق 7 هـ) عنه أنه: « وادٍ حسن كثير الزيتون » وأنه سمي بهذا الاسم نسبة إلى موسى ﷺ لأنه ضرب فيه الحجر فخرجت منه اثنتا عشرة عيناً (انظر ج5، ص346). أقول: ولم نجد دليلاً يؤكد ذلك.

وكانت عام (1986) مديرية قضاء وأصبحت متصرفية فيما بعد وتسكنها عشائر أردنية رئيسة ثلاثة هي:

1- بني عطا: (وهم الفرجات والفلاحات والفضول والسلامين).
2- العلايا: (وهم النوافلة والعمارات والحمادين – ومنهم الشماسين – والمساعدة).
3- العبيدية: (وهم: الحسنات والمشاعلة والطويسات والهلالات).

وأما العين التي تتزوّد منها وادي موسى، فتسمى عين موسى، حيث كانت تزوّد مدينة البتراء بمياه عبر قنوات فخارية لا زالت آثارها بادية إلى الآن، وقد خفّت المياه، وازداد السكان من حيث العدد، وقلّت عنايتهم بالزراعة، فخربت بعض البساتين، ولا تزال أشجار الزيتون القديمة والتين إلى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين). والبلدة الآن متصرفية، تابعة لمحافظة معان.

ويذكر الحموي (ق 7 هـ) أن « سَلْع[1] »: « حصن بوادي موسى ﷺ، بقرب البيت المقدس (...) غنّت حبّابة جارية يزيد بن عبدالملك وكانت من أحسن الناس وجهاً وصوتاً ومسموعاً وكان شديد الكلف بها وكان منشؤها المدينة:

لعمـرك إنـني لأحـبّ سِـلْعاً	لرؤيـته ومـن أكـناف سَـلْع
تقـرّ بقـربه عيـني، وإنـي	لأخشى أن يكون يريد فجعي
حَـلَفْتُ بـربٌ مكّـة والمصلّى	وأيـدي السـابحات غـداة جمـع
لأنـت عـلى التـنائي، فاعـلميه	أحبُّ إليّ من بصري وسمعي[2] »

(الحموي ج 3، ص 236-237)

ويقول القزويني (ق 7 هـ): « أن وادي موسى في قبلي بيت المقدس، وأنه واد طيب كثير الزيتون » (ص 279).

---

(1) الإشارة هنا إلى البتراء في القرن السابع الهجري، وأنها كانت معروفة جيداً لديهم باسم السَّلْعْ وهو الشق في الصخر إذا كان بسبب القطع اليدوي أو عمل الظروف الجوية والطبيعية وهذه حال البتراء. ومن هذه الإشارة يظهر لنا أن الجغرافيين والرحالة المسلمين يعرفون البتراء، ويسمونها السّلْع، مما يجعل الادعاء بأن بيركهارت (1812م) هو أول من اكتشفها، كلاماً يصعب الدفاع عنه. فقد كانت معروفة للعرب قبل الأجانب بأكثر من ستة قرون، وهي مدينة عربية أردنية نبطية بسطت التجارة والحضارة على سائر أرجاء المناطق المجاورة.

(2) لابد من الإشارة هنا أن هناك موقع إلى الغرب من الرشادية / محافظة الطفيلة في الجبال الصخرية المؤدية إلى فينان في وادي عربة، ويسمى هذا الموقع لدى العربان الآن السِّلْعْ بتشديد وكسر السين واللام. وهي منحوتة في الصخر على طريقة البتراء، ومعلّقة في الصخور الرملية الوردية العالية. وقد تمتعت شخصياً (أنا المؤلف) بمناظرها الخلاّبة الأخّاذة مرات عديدة، من نقطة وقوفي على طرف الرشادية، وعلى قمة تلة العويلية المطلّة على القادسية وفينان وظانا. ويقع أحياناً خلط بين السِّلْع هذه، والبتراء، إلا أن البتراء تُلفظ السَّلْع بفتح السين وتسكين اللام. أما السِّلْع بتشديد السين وكسرها وكسر اللام فهي التي عند الطفيلة.

وأما حسمى فهي الآن على الحدود الأردنية الجنوبية المحاذية للسعودية من الشمال. ويقول عنها الحموي (ق 7 هـ) على لسان الراجز:

جـاوَزْن رمـل أيْـلَةَ الدّهَاسـا   وبَطْـن حِسْـمى بـلداً هِرْماسـا

أي واسعاً، وأيلة قريبة من وادي القرى، وحسمى أرض غليظة وماؤها كذلك لا خير فيها، تنزلها جذام (هذا في بداية القرن السابع الهجري – أي زمن حياة الحموي)؛ وقال ابن السكّيت: حِسْمى لجذام جبال وأرض بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة وبين أرض بني عُذْرة من ظهر حرّة نِهْيا، فذلك كله حسمى؛ قال كثير:

سـيأتي أمـير المؤمـنين، ودونـه   جماهير حِسْمى: قُورها وحزونها
تجـاوب أصـدائي بكـل قصـيدة   مـن الشـعر مهداة لمن لا يهينها

(الحموي ج 2، ص 258-259)

ويذكر الحموي (ق 7 هـ) أيضاً، أنه ورد في أخبار المتنبي أثناء مسيره من مصر إلى العراق أنه مرّ بحسمى، وقال عنها: حسمى أرض طيبة تؤدي لين النخلة من لينها وتنبت جميع النبات، مملوءة جبالاً في كبد السماء متناوحة مُلْس الجوانب، إذا أراد الناظر النظر إلى قُلّة أحدها فَتَل عُنُقَهُ حتى يراها بشدّة، ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده، ولا يكاد القتام يفارقها، ولهذا قال النابغة:

فأصـبح عـاقلاً بجـبال حسـمى   دُقـاق الـترب محـتزم القـتام[1]

---

(1) الحموي يقول عن حِسْمَى أنها أرض غليظة، وماؤها كذلك، لا خير فيها وتنزلها جذام. أما المتنبي فيقول عكس ذلك بالتمام والكمال، ويصف حِسْمى أنها أرض طيبة فيها نخل طيب طويل القامات، سامق الارتفاع، كأن قطوفه قُلَلٌ (مفردها قُلّة) الماء أي الجرّة التي يحمل فيها الماء. ولشدة طول وارتفاع النخل فإن بعض قطوفها يبتعد عن رؤية العين له. أما الكتب الإسلامية فتلفظها حِسْمى (بكسر الحاء وسكون السين) وهو لفظ البدو من الحويطات وبني عطية. أما بقية =

(...) يعرفها من رآها من حيث يراها لأنها لا مثل لها في الدنيا؛ ومن جبال حِسْمى جبل يعرف بإرَم، عظيم العلوّ تزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصنوبراً » (ج 2، ص 259)، كما يذكر في الحديث أن حسمى وصفت بسنبك من الأرض؛ قيل: وما ذلك السنبك؟ قال: حسمى جذام (أعلاه)[1].

وفي موقع آخر يقول الحموي (ق 7 هـ) عن رَمْ أنه إرَم، وهو « في أصل اللغة حجارة تُنصَب في المفازة علماً، والجمع آرام (...) وهو اسم عَلَم لجبل من جبال حِسْمى من ديار جذام، بين أيلة وتيه بني إسرائيل، وهو جبل عالٍ، عظيم العلوّ، يزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصنوبراً، وكان النبي ﷺ ، قد كتب لبني جِعَال بن ربيعة بن زيد الجذاميين، أن لهم إرَماً، لا يحلّها أحد عليهم لغلبهم عليها، ولا يحاقّهم، فمن حاقّهم فلا حقّ له، وحقّهم حقّ » (ج1، ص154-155). وبذلك نجد أن سيدنا محمد ﷺ أعطى « رام » لهذه العشيرة من جذام وجعلهم أصحاب الحق فيها.

وبذلك نجد أن رم جزء من حسمى، وأنهما ديار بني جذام، وأنها أرض كانت عامرة بالكروم والصنوبر. ولا تزال آثار بعض الكروم موجودة إلى الآن في وادي رم بإبط الجبل المحاذي من جهة الغرب لمركز الشرطة، حيث توجد نبع

= الأردنيين فيلفظونها حَسْمى (بفتح الحاء وسكون السين) والمعنى واحد. والسبب في تباين رأي الحموي والمتنبي أن الأول دوّن عنها ما قرأه ولم يعرفها بنفسه، أما الثاني (المتنبي) فقد عرفها ومرّ بها في طريقه من مصر عندما هجا كافور الإخشيدي متوجهاً إلى العراق عبر النقب وحسمى وجنوب الأردن. إذن رأي الحموي هو رأي الدارس ورأي المتنبي هو رأي الممارس.

(1) كانت بلاد حِسْمى ورم عامرة بالكروم والصنوبر وذلك يدل على وفرة الأمطار والمياه، وهذا برهان على ما أصاب المنطقة من التصحّر وتغير المناخ نحو الجفاف. وكانت تسمي حِسْمى جُذام وهي قبيلة سيدنا شعيب عليه السلام ، وتتألف من بني عباد (قبيلة المؤلف)، وبني صخر، وبني عجرمة (العجارمة) وبني عقبة (العمرو) وبني حميدة (الحمايدة) وغيرهم كثير لا زالوا من أحفاد واستمرار تلك القبيلة العربية الأردنية العريقة.

ماء يخرج من الصخر، ويتم نقله بماسورة إلى كروم صغيرة قليلة. كما أن أرضه خصبة وقد أكل الكاتب الحالي من خضارها – من الخيار – 1986 المزروع في ساحة مركز الشرطة. كما توجد قرب العين المذكورة أعلاه بقايا لمدينة نبطية، قامت بها حفريات كشفت عن بعض أساس الدور وأعمدة من الحجارة الكلسية الملونة الدائرية الشكل، وقد شاهدتها (المؤلف) بنفسي. وتوجد آثار كروم أخرى في جميع مناطق وديان وسفوح جبال رم أيضاً، شاهدها الكاتب في آذار عام 1986، وشاهد عدداً من عيون الماء وبقايا التين والنخل والكتابات النبطية. وقد زرع بعض السكان الآن أشجار الزيتون التي تنمو بشكل ممتاز.

وعلى مسافة من مركز الشرطة إلى الجنوب يوجد وادٍ دائم الظل، على جدرانه آثار لرسومات تمثل غزلاناً، وأناساً، وما إلى ذلك، تدل على أنه كان استراحة للقوافل التجارية منذ الفراعنة حتى انتهاء دولة الأنباط. وتوجد بعض أشجار التين البري هناك.

وفي حسمى وفي رم أحواض لجمع الماء منحوتة بالصخر بفعل طبيعي – وربما بعضها من صنع البشر – تتجمع فيها مياه الأمطار التي تنساح على الصخور العارية، وتشرب منها الغزلان والبدون والناس، والمنطقة مشهورة كمواقع لصيد التيس البري المسمى – البَدَن – .

وتوجد في الديسة من حسمى مشاريع لتوطين البدو وزراعة الحبوب والخضراوات، وقد نجحت أيما نجاح، وتجاوب البدو هناك مع هذا التغير بمقدرة فائقة. كما أن المياه الجوفية فيها غزيرة للغاية واحتياطها كبير، وتتصل الديسة ورم بطريق معبّد يلتقي غرباً مع الخط الرئيس الذي يربط معان بالعقبة، كما يمرّ عبرهما أيضاً خط سكة الحديد الذي يربط العقبة بمعان، حيث ينقل الفوسفات من مناجمه بالحسا والأبيض والشّيديّة إلى ميناء التصدير بالعقبة، وهو قطار مهمته أداء هذه الغاية بالدرجة الأولى، ويسير في وادي اليتم في إبط الجبل المحاذي لبطن الوادي.

-9-

ايلــة

ثم نأتي بالحديث عن أيلة: وهي العقبة، الواقعة على نهاية الذراع الأيمن للبحر الأحمر، وكانت محطة الحجاج القادمين من مصر وشمال إفريقيا والساحل الفلسطيني في طريقهم إلى الديار المقدسة، وهي الآن (2006) ميناء الأردن، وتقع عليها مدينة تسمى: العقبة، تجمع بين ثلاثة أقسام: القسم المحاذي للشاطئ ويسمى: الحفاير، وذلك لوجود بساتين النخل التي تُزرع في ظلالها بعض المزروعات، ومن حولها بيوت قديمة لبعض أهالي العقبة من غير البدو. كما توجد الآن بعض المقاهي والاستراحات، وقد تمت إزالة هذه البيوت والحظائر والحفائر وهي في طريقها إلى التلاشي، وحلّت مكانها مشاريع سياحية وتجارية حديثة. أما القسم الثاني فهو الحارات الشعبية التي أسست بعد تأسيس الإدارة بالأردن في مطلع القرن العشرين، وهي أشبه ما تكون بالمخيمات. أما الثالث فهو الحديث الممتد إلى الشمال باتجاه فم وادي عربة. وقد تم تقسيمه إلى مراحل وصل إلى المرحلة العاشرة (2006).

وقد وردت أيلة لدى البلاذري (ق 3 هـ) أن عاملها كان زمن غزوة تبوك، يُحَنَّه بن رؤية، فصالحه الرسول ﷺ « على أن جعل له على كل حالِم (شاب ذكر بالغ) بأرضه في السنة ديناراً فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار واشترط عليهم قِرَى من مرّ بهم من المسلمين وكتب لهم كتاباً بأن يُحفظوا أو يُمْنعوا » (ص 59). وفي الكتاب أيضاً: « وقد تجمع له من الروم وعامِلَة ولخم وجذام وغيرهم وذلك في سنة 9 من الهجرة » (أعلاه).

ونستنبط من هذا النص أن أيلة كانت تحت إدارة الروم، وأن سكانها ومنطقتها كانوا من الروم والعرب - وبالذات من جذام وعاملة ولخم وغَسّان - وبذلك ترى أن جذام كانت تسيطر على جنوب الأردن. وإذا قدّرنا أن البالغ

(الحالِم) يساوي واحد على خمسة من عدد أفراد الأسرة، استطعنا أن نتصور أن عدد سكان أيلة آنذاك كان يتراوح حول الألف وخمسمائة نسمة والله أعلم.

ونجد المقدسي (ق 4 هـ) المتعصّب دوماً لقطره «فلسطين» إلى درجة ضياع الموضوعية في كتاباته، والذي يتعذر اعتماد رأيه في تبعية المناطق، بين الأردن وفلسطين، لأنه ضعيف أمام تعصبه ووطنيته، فإنه يقول: « ويلة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة ذات نخيل وأسماك فرضة (أي ميناء) فلسطين وخزانة الحجاز والعوامّ يسمّونها أيلة؛ وأيلة قد خربت على قرب منها» (ص178). وبذلك يميز المقدسي بين وَيْلة – الساحل الفلسطيني، وأيلة التي خربت واندثرت، وهي العقبة على الساحل الأردني. وهو الذي انفرد بالقول: ويلة (عصيون جابر) هي ميناء فلسطين (فرضة فلسطين)، ذلك أن بقية الرحالة بما فيهم التوراة يذكرون أن أيلة وعصيون جابر ميناء أردني، حتى زمن عبور بني إسرائيل (1300 ق.م.).

ويرى البكري (ق 5 هـ) أن أيْلَة « على وزن فَعْلة: مدينة على شاطئ البحر، في مُنْصَف ما بين مَصْر ومكّة، وقد أنشد قول حسّان:

مَــلكا مــن جــبل الثــلج إلى   جــانبي أيْــلَة مــن عــبد وحُــرّ

قال: وجبل الثلج بدمشق: يعني عمرو بن هنج، وحُجْرَ بن الحارث الكِنْدي » (ج 1 ص 216). أي أن الديار الممتدة من جبل الشيخ حتى العقبة اصبحت تحت سيطرة وملك عمرو بن هنج وحجْر بن الحارث الكِنْدي. ونحن نعرف أنه يوجد فرع من كندة من عشائر الأردن القديمة، ومنهم المقداد بن الأسود الكندي الأردني وهو أحد أبطال معركة اليرموك، وأحد الصحابة الكرام، ومن حفظة القرآن الكريم.

ويؤكد البكري (ص 217) أن صاحب أيلة ورد إلى الرسول ﷺ في تبوك، وأعطاه الجزية. ويروي عن الأحول: « سميت أيلة ببنت مَدْيَن ابن إبراهيم عليه السلام [1]. وقد روي أن أيلة هي القرية التي كانت حاضرة البحر » (ص 217).

ولو سلّمنا جدلاً أن مدين من أبناء إبراهيم، فإن الزمن الذي كان ما بين سيدنا إبراهيم، وسيدنا شعيب، وهو لا يتجاوز سبعة قرون غير كافٍ لزيادة وتكاثر السكان من شخص إلى ملايين البشر، وبخاصة إذا ما تصوّرنا الفوضى والحروب والأوبئة، وغياب الرعاية الصحية، وهذه جميعاً تحول دون تدفق الزيادة السكانية التي نشهدها الآن في الأردن والعالم العربي.

ونجد أن تعريف وتحديد أيلة أكثر وضوحاً ودقة لدى الحموي (ق7هـ) حيث يقول: « هي آخر الحجاز وأوّل الشام » (ج1، ص292). ويؤكد رواية عن أبي المنذر أن الاسم جاء من أيلة بنت مدين بن إبراهيم، ثم يقول على لسان: أبي زيد: « أيلة مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير » (أعلاه)[2].

ويقول القزويني (ق 7 هـ) أن أيلة « مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، كانت مدينة جليلة في زمن داود، عليه السلام ، والآن يجتمع بها حجيج الشام ومصر ومن جاء بطريق البحر » (ص 153).

---

(1) أما قوله أن إيلة سميت كذلك نسبةً إلى بنت مدين ابن إبراهيم التي كان اسمها كذلك (أيلة) (حسبما يقول)، فأرى أنه لا يتفق مع الحقيقة العلمية إطلاقاً، ذلك أن مدين هو اسم قبيلة أمورية عربية أردنية ولا علاقة لها بسيدنا إبراهيم لا نسباً ولا حسباً ولا تاريخاً ولا عقيدةً، وإنما هذه من الإسرائيليات التي لا تتفق مع العقل والتفكير.

(2) إنني (المؤلف) أرى أن أيلة، وويلة كلمتان أموريّتان أدوميّتان لا علاقة لهما بأسماء أنبياء ولا أشخاص ولا أولادهم، وقد تعني بتلك اللغة القديمة أنها مدينة الساحل، أو نقطة الحدود، أو إلتقاء البر بالبحر، أو نقطة الوداع، أو سوق البحرين، والأصحّ أن معناها بتلك اللغة « مجمع البحرين » كما وردت في القرآن الكريم، بحرالبيداء، وبحر الماء، والله أعلم (المؤلف).

وهنا نخلص إلى ما قاله الورثيلاني (ق 9 هـ)، حول أن العقبة كانت محطة رحال الحجيج المصري والمغربي. ويصف الورثيلاني (ص 332-549) كيف أن قوافل الحجاج كانت تتعرض لهجمات الأعراب، وأن جموع الحجيج كانوا يوقدون النار ويطلقون المدافع، ويلعبون على الخيول، لإرهاب هؤلاء البدو وتخويفهم، ليكون الحجيج في مأمن من غزوات هؤلاء البدو وهجماتهم وسرقاتهم، ومع هذا فهو لا يحدد من هي العشائر التي كانت تقطن هناك.

ويقول في ذلك: « فلما انفصلنا وانحدرنا من العقبة إلى ساحل البحر اشتغل الناس بالغداء فلما فرغوا منه أخرجوا أسلحتهم وأمامهم من البارود واجتمعوا على قدم واحدة وقدّموا أمامهم سلطان فزان بالبارود واللعب بالخيل وكذا الناس على الأرجل إرهاباً لعرب العقبة إذ العام الذي قبل عامنا أخذوا ركب المغربي لقلته وقلة سلاحه وبينما نحن كذلك وإذا عساكر من الركب المصري خرج ولقينا برعود من البارود والخيل تلعب والناس كذلك إلى أن وصلنا إلى البندر (الميناء) فتعجب كل من كان في ذلك من أهل ذلك الوطن من العرب ومن تسوّق من غيره حتى بلغ ذلك أقصى عرب الحجاز فلا تجد سارقاً يدور بنا ولا قاطع طريق ليلاً ونهاراً خوفاً من الركب المغربي لكثرته وكثرة سلاحه..) (ص333).

ومن هنا نرى أن الناس كانوا يعرفون البارود في نهاية القرن التاسع للهجرة والأسلحة النارية، كما أن العقبة كانت نقطة استراحة الحجاج ومحطة تجارية مؤقتة لهذا الموسم في الغدوّ والرّواح. ونرى أيضاً أن عرب العقبة كانوا مصدر إرهاب وإزعاج لهؤلاء الحجاج، بالنهب والسرقات، وأنهم عندما رأوا أنفسهم أمام قوة تفوقهم عدداً وعدة وتتسلح بالبارود أبدوا عجبهم، وربما أسفهم أنه ليس بمقدورهم النهب والسلب أو السيطرة على هؤلاء العابرين سبيلاً.

ويقول الحميري[1] (ق 9 هـ) أن أيلة أول حد الحجاز. « وتسير من أيلة فتلقى العقبة التي لا يصعدها راكب لصعوبتها ولا تُقطع إلا في أول اليوم لطولها ثم تسير مرحلتين في فحص التيه، وأيلة حدّ مملكة الروم في الزمن الغابر وعلى ميل منها باب معقود لقيصر (أي نقطة حدود مع فلسطين ومصر) قد كان مسلحة يأخذون عنده المكوس (...) وينزلها اليوم (ق 9 هـ) قوم من بني أمية وأكثرهم موالي عثمان ﷺ كانوا سقاة الحجاج، وبها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة، وهي كثيرة النخل، والزرع وأصلح (أي قام بإصلاحها) عقبة أيلة فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون وسوّى طريقها وردم ما استردم فيها، وبأيلة أسواق ومساجد (...) ثم السلطان الأشرف قانصوه الغوري (...) من جملة ما أصلح في طريق الحجاج في أواخر عمره قبل العشرين والسبعمائة » (الحميري ص 70-71).

الإشارة واضحة عند الحميري في القرن التاسع ومطلع العاشر للهجرة أن العقبة الحالية كانت نقطة الفصل والوصل ما بين الأردن والحجاز « أن أيلة أول حد الحجاز» وأنها أيضاً نقطة الحدود مع مصر منذ زمن الرومان، حيث كانت هناك نقطة جمارك تابعة للقيصر. «وعلى حد ميل منها معقود لقيصر (أي قوس من الحجارة بنظام العقد) قد كان مسلّمة يأخذون عنده المكوس» أي موظفون

(1) يذكر الحميري هنا معلومات هامة عن العقبة، حيث يفرّق بوضوح ما بين أيلة وهي مدينة العقبة الحالية، وبين العقبة القديمة (وهي النقب الحالي) الذي يبعد عن العقبة أزيد من ستين كيلومتراً إلى الشرق باتجاه معان والبتراء. وتشير كتب الرحالة إلى العقبة الحالية أنها كانت تسمى أيلة أو ويلة، بينما تشير إلى النقب الحالي أنه العقبة باعتباره طوراً جبلياً واسعاً وكبيراً وصعب الاجتياز، بل إن جميع كتب الرحّالة المسلمين تشير إلى قضاء سحابة يوم كامل لاجتياز النقب. وقد تم فتح طريق ضيق عبره في الستينات من القرن العشرين ثم جرى فتح طريق آخر واسع باتجاهين في الثمانينات (من القرن العشرين) أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وغطت العراق تكاليفها لتيسير النقل من ميناء العقبة إلى العراق عبر معان، وشرقي عمان، وقصر الحرّانة، وقصير عمرة ثم إلى الرويشد فالكرامة (الحدود الأردنية العراقية في الشرق).

يتقاضون الجمارك للداخل والخارج وهذا دليل على أنها خط تجاري صادراً وواردأ، ويدل على أن أيلة كانت «حد مملكة الروم في الزمن الغابر». أي أنها كانت ضمن سيطرتهم على الأردن وبلاد الشام، وأنها كانت ميناءهم على بحر القلزم (البحر الأحمر). والملفت هنا أنها كانت عامرة بالأسواق والعلم والأدب والتجارة في القرن التاسع الهجري. «وبها علم كثير وآداب ومتاجر».

ونرى هنا أن سكان العقبة في القرن التاسع الهجري كانوا من بني أمية وموالي عثمان بن عفان ﷺ ، وأنها كانت عامرة بالعلم والأدب والتجارة والنخيل والزراعة، وأن ملوك المماليك اهتموا بإعمار الطريق إليها. ومن المحزن أنها كانت عامرة بالنخل قبل خمسمائة سنة، عندما كانت وسائل الزراعة واستنباط الماء تقليدية، وتغيب (الآن مطلع القرن الحادي والعشرين) هذه الواحات العامرة أمام جشع البناء، وتحويلها إلى كومة من الإسمنت المسلّح وأماكن اللهو والانحراف والرذيلة بدلاً من العلم والآداب الذي يستوجب أن تكون في القرن الحادي والعشرين أكثر منا قبل خمسة قرون.

ونجد الحميري يميز بين أيلة المدينة الموصوفة أعلاه، وبين الجبل المسمى العقبة لصعوبته وعقبته، وعلوّه، وتعذر اجتيازه إلا بشق الأنفس، وهو النقب الحالي.

وحيث أن العقبة هي الحد الجنوبي للأردن – مما يلي مصر – ، فإن العامة كانوا يقولون عنها: « عقبة مصر ». وقد قامت تركيا بمحاولة عام 1892 للاستيلاء على العقبة وطابة، وانتزاعها من سيطرة الخديوي، فتدخلت بريطانيا، وانتهت الأمور باتفاق عقد عام 1906 على تسوية الحدود؛ حتى إذا ما انتهت الحرب العالمية الأولى وانهارت الدولة العثمانية، أصبحت العقبة وما حولها من أراضي شرق الأردن خاضعة للإدارة في الحجاز لفترة مؤقتة لبضع سنين، حيث كان من المفروض أن تكون الحجاز والشام مملكة واحدة حسب الاتفاق مع

الحلفاء قبل بدء انتفاضة العرب ضد الأتراك. ثم عادت إلى الوطن الأم الرؤوم (وهو الأردن) في بداية العشرينات لتصبح جزءاً من شرق الأردن. كما كان حالها منذ زمن الأموريين قبل خمسة وثلاثين قرناً.

-10-

البتـــراء[1]

ثم يأتي الحديث عن البتراء؛ حيث يقول البكري (ق 5 هـ): « ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما غزا بني لحيان، سار على غُراب، جبل بناحية المدينة، على طريق الشام، ثم على البتراء. هكذا اتفقت الروايات عن ابن هشام عنه. وهذا اسم مجهول في المواضع. وصوابه، والله أعلم، ثم على النفراء، بالنون والفاء، وهي تلقاء ديار بني لحيان. وقال ابن إسحاق عند ذكر مساجد رسول الله ﷺ بين المدينة وتبوك: « ومسجد بطرف البتراء من ذنب كواكب ». كذا قال: كواكب، وإنما هي كوكب؛ والله أعلم، وهو جبل في ذلك الشقّ، في بلاد بني الحارث بن كعب (ج 1، ص 224).

ويقول الحموي (ق 5 هـ) (ج 1، ص 335) كلاماً مشابهاً لكلام البكري، دون أن ينفي وجود البتراء، كما أنه لا يذكر النفراء.

---

(1) ما ذكره البكري (ق5هـ) عن البتراء، أمر ملفت للنظر وهو في غاية الأهمية، ذلك أن ابن إسحاق ذكرها في السيرة باسم البتراء، مرتين في هذه الفقرة، حسبما ذكر البكري نقلاً عن ابن إسحاق، وقد حاول البكري تصحيح الاسم فقال: إنها النّفراء بالنون والفاء، ولكن الصواب جانب رأيه. فالبتراء كانت معروفة للعرب، وبخاصة أهل مكة المكرمة الذين كانوا تجاراً ولهم رحلة الصيف إلى الشام، وبالتالي فإن البتراء واحدة من محطاتهم التي ييممون إليها وفيها أو يمتارون منها. ويبدو أن جملة « ومسجد بطرف البتراء »، المقصود فيه بطرف منقطة البتراء، وذلك يعني الأرض المشمولة بذكر البتراء ومملكة البتراء الواسعة، وليس شرطاً أن تكون نقطة موقع البتراء، وحيث نعرف أن مملكة الأنباط كانت تصل إلى تبوك ليس غريباً أن يقال عن تبوك أنها: بطرف البتراء.

ولقطع الشك باليقين عدنا إلى سيرة ابن هشام (ج 3-4، ص 184-175)، فوجدناه يؤكد أنها البتراء، وأن رسول الله ﷺ سلكها في طريقه لغزو بني لحيان. وهذا ليس غريباً، ذلك أن سلوك النبي ﷺ هذا الطريق، قد يكون من باب التمويه الحربي لتحقيق الأغراض والأهداف العسكرية المرسومة. فمنطقة البتراء وعرة، صعبة الاجتياز والمسالك، كما أن العدو لا يتصوّر أن يسلك الرسول ﷺ هذه الطريق الصعبة وبالتالي فهي أكثر أماناً له، وخطراً على عدوّه، وأنسب لتحقيق هدف المباغتة والتغلب على العدو. ونحن نرى أن ابن هشام (ق2هـ) أخصُّ واقدم وأكثر دقّة من البكري (ق5هـ)، لأنه متوفى في القرن الثاني الهجري، وهو مؤرخ دقيق بينما البكري أندلسي، بعيد المكان، والزمان حيث توفي في القرن الخامس الهجري عام 487. والله أعلم.

كما أن الطبري (ت 310 هـ) أكد أنها البتراء (تاريخ الطبري، ج 2، ص 595، دار المعارف 1961).

والبتراء اليوم مدينة أثرية منحوتة في الصخر الوردي حيث صمته ناطق، ونطقة صامت تبعد ثلاثة كيلومترات إلى الغرب من بلدة وادي موسى في جبال الشراة. وهي منحوتة بالصخر ذي اللون الوردي الذي يأخذ بالألباب، وكانت عاصمة الأنباط وهم عرب أردنيون، حتى دمرها الرومان بعد الميلاد عام 106م. وكانت على درجة عالية جداً من التقدم والحضارة والازدهار والعمل والبناء بما ينم عن عبقرية الزمن والمكان والإنسان والإنجاز، والتوأمة والتفاعل بين الأرض الأردنية والإنسان الأردني. والأنباط عرب أقحاح وكان لهم ملوك، ونقود معدنية ذات أحجام وقيم متباينة، ومن بقايا الأنباط عشائر الحويطات وعشائر بني عطية. وكلاهما يمتد إلى خارج الحدود أيضاً في البلدان المجاورة ضمن الأراضي التي كانت أجزاءً من مملكة الأنباط أجدادهم الأوَل.

والمدخل إلى البتراء يمر عبر شق في الوادي يبدو أنه فُتح بفعل الصدع الزلزالي والحتّ المائي، إلا أن الأنباط عملوا عند مدخله سدّاً لتحويل مجرى السيول إلى يمين الداخل، فأصبح الوادي ممراً للدخول والخروج للناس والقوافل والتجارة والجيش، ويصل عرض السبق المذكور إلى أربعة أمتار، ويزيد عنها في المنعطفات. وكانت هذه الطريق مبلّطة بالحجارة، وكانت تسير عليها عربات، وتحاذيها في الصخر مواسير فخارية لنقل الماء من عيون وادي موسى عند مدخل البلدة الحالية، أي على بُعد ستة كيلومترات تقريباً. كما يوجد خزان قبل مدخل السيق، لتجميع المياه، ثم لتوزيعها على سائر المدينة. (وقد فصّلنا ذلك في كتابنا «في ربوع الأردن: جولات ومشاهدات، الجزء الأول»).

وقد كان أول من وصل إلى المدينة من الغرب في العصر الحديث هو الرحالة بيركهارت Burckhardt عام 1812، حيث كتب عنها مفصلاً في رحلاته: إلى سوريا والبلاد المقدسة وقد اعتبره الغربيون أول من اكتشفها منهم.

(Travels in Syria & The Holy Land 1810-1817)

والبتراء اليوم محجّ السياح من سائر أنحاء العالم، ويتم الدخول إليها على الخيول التي يقتنيها أهالي وادي موسى، حيث يتم إيصال السائح إلى هناك مقابل أجرة تحددها الجهات الرسمية عن كل حصان وقد تم تنظيم عملية اقتناء الخيول لهذه الغاية، وآلية الدور والأجرة وحُسْن معاملة السائح.

وكان يسكن البتراء عشيرة تسمى البدول، وهم من الحويطات، كانوا يستخدمون الكهوف التي استخدمها الأنباط، إلا أن دائرة الآثار أقامت لهم إسكاناً بعيداً في قرية البيضا على سفوح الجبال المطلة على البتراء، وتبعد البيضاء ثلاثة كيلومترات إلى الشمال الغربي من خزان المياه النبطي الواقع قبيل مدخل السيق، وأجبرتهم على السكن فيه، وترك المدينة الأثرية لتبقى للغايات السياحية والأثرية فقط. (انظر التفصيلات عن البتراء كتابنا في ربوع الأردن: جولات

ومشاهدات 1987 – الجزء الأول). وقد سميت البيضاء نسبة لنبع الماء الموجود في ذلك المكان ويحمل الاسم نفسه، حيث أن تربة الرض أميل للبياض.

-11-

مديـن

وقد ورد اسم مدين عند ابن خرداذبة (ق 3 هـ) في أكثر من موقع، منها عند حديثه عن المدينة المنورة (ص129)؛ وفي وصف الطريق إلى مكة المكرمة (ص149)، وفي المنازل (ص 190).

ويرى المقدسي (ق 4 هـ) أن مدين « على تخوم الحجاز » (ص 179). وهو يتحدث عن وجود الحجر الذي رفعه موسى عليه السلام ، دون أن يبين فيما إذا رآه هو (أي المقدسي)، أو أن ذلك وصله رواية عن الناس ثم يتابع حديثه بقوله: «والماء بها غزير، وأرطالهم شامية» (ص 179).

ويتحدث المقدسي (ق 4 هـ) عن مدين وويلة وكأنهما شيء واحد، فيقول: « وفي ويلة تنازع بين الشامين والحجازيين والمصريين كما في عبّادان، وإضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم » (ص 179)[1]. وبذلك نرى أنه يصرّ أنها ميناء فلسطين، دون أن يفصّل

---

(1) يتعذر هنا تحديد مدين هذه التي تتحدث عنها كتب السيرة، إن صحّت الرواية. ولكن القول أنها على الساحل يشير إلى أنها منطقة جنوب الأردن وشمال ما يُعرف الآن بالسعودية ممتداً من خط شمال تبوك، حتى ساحل البحر الأحمر على مسافة بعيدة من العقبة، كما تشمل العقبة الحالية نفسها. وإن الإشارة إلى أي مكان في منطقة مدين القديمة هذه، قد يأتي ضمن القول: في مدين، أو سواحل مدين أو مدينة مدين، لأنه اسم عام واسع وفضفاض، لكنه يدل على سعة أراضي مدين كما أن مؤتة ربما كانت مركز مدين وبها البئر الذي ورده موسى عليه السلام دون أن ينقص ذلك من مساحة أو قيمة مدين كبلاد وشعب.

ونحن نرى أنه يقصد ويلة التي هي الآن إيلات، وهي التي كانت عصيون جابر. وليست أيلة التي هي العقبة الأردنية.

ويرى البكري (ق 5 هـ) أن مدين « بلدة بالشام معلوم تلقاء غزة وهو المذكور في كتاب الله تعالى » (ج 4، ص 1201). ويذكر البكري في نفس الموقع كيف أن رسول الله ﷺ قد بعث سرية إلى مدين فأصابت سبياً من أهل ميناء (بالسواحل)، حيث تم بيعهم والتفريق بين الأمهات وأولادهن، فأمر الرسول بعدم التفريق، وإنما بيعهم جميعاً (انظر ص 1201).

ويرى الحموي (ق 7 هـ) أن: « مدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى، ﷺ ، لسائمة شعيب » (ج 5، ص 77). ويرى القزويني (ق 7 هـ) أنها: « تجاه تبوك بين المدينة والشام » (ص 261) وأيضاً (قيل: مدين هي كفرمندة من أعمال طبرية » (أعلاه). ويقول الياكوتي: أنها « تجاه تبوك بين المدينة والشام.. وقيل مدين هي كفرمندة » (ص30ا و 30ب). وهذا الذي ذكره الحموي والقزويني والياكوتي دليل على أن اسم مدين كان يُطلق على البلاد التي تمتد شمال تبوك حتى شمال الكرك وأن الاسم يشملها ويشمل الشعب واسم الماء وهوية الناس فيها.

ويرى الحميري (ق 9 هـ) أنها: « على ساحل بحر القلزم، وهي أكبر من تبوك، وبها البئر التي استقى منها موسى، ﷺ ، لسائمة شعيب ﷺ » (ص525). ويقول أيضاً: « ومدين في الطريق من مدينة النبي ﷺ إلى مصر، وهي بين جبال شامخة متكائدة، وبقرب مدين البئر التي استقى منها موسى ﷺ » (ص 526)[1].

---

(1) إن هذا الخلط الحالي من تحديد المكان أو عدم وضوح الرؤيا في ذلك، يثبت لي رأيي الذي قُلْتُهُ في الحاشية والمتن أعلاه أن المعني بكلمة مدين هي الأراضي الواسعة التي كانت ضمن مملكة مدين، والتي تشمل الكرك ومعان والشراة والبادية وحِسْمى ورم والديسة حتى تبوك، وما يحاذيها من ساحل البحر الأحمر وقد يكون المقصود في المدينة التي تم غزوها وأخذ السبي منها =

ويذكر الورثيلاني (ق9هـ) كيف أن الحجاج كانوا يتعرّضون لهجمات الأعراب في منطقة مدين (ص340 وما بعدها).

ونأتي إلى الحديث عن مدين، التي تبدو لنا وكأنها غير محددة تماماً، وإن كانت، على ما يبدو بوضوح أنها في مناطق جنوب الأردن، وشمال جزيرة العرب، وذلك في مواقع مملكة مدين «المديانيون» التاريخية التي عرفها العرب أثناء الهجرات والغزوات والحروب والتحركات والتجارة.

وقد ذكرنا في كتابنا: العشائر الأردنية الجزء الأول أن هناك بئراً قرب قرية مدين يسمى مِدْيَنْ، ويعتقد الناس في تلك المنطقة أنه البئر الذي استقى منه سيدنا موسى، وأسقى أغنام شعيب الذي كان يسكن في تلك المنطقة. وإنني أرجح ذلك وأميل إليه لانطباق المواصفات القرآنية عليه مثلما هو تطابق مواصفات القرآن لأهل الكهف في منطقة الرقيم «الرجيب».

وقد ذكرها البعض من الجغرافيين أنها على ساحل البحر الأحمر قرب أيلة (ابن حوقل، ص 32)، وأنها هي موقع الأيكة[1]، ومكان سيدنا شعيب وقومه، حيث يقول في حديثه عن تبوك يقول: « وتبوك بين الحجر وبين أول الشام على

= مدينة على ساحل البحر الأحمر من مدن ما تعارفوا عليه أنه ضمن مملكة مدين بمحاذاة تبوك، وأن عدم معرفة الاسم جعل العرب يطلقون عليها اسم مدين باعتبارها ضمن هذه البلاد. وقد أدى ذلك، في رأينا إلى الخلط حول مكان سيدنا شعيب والبئر، الذي هو بالقرب من مؤتة بمحاذاة مدينة الكرك وإلى الجنوب الشرقي منها (انظر كتابنا: العشائر الأردنية ج1، ج3).

(1) الأيكة هي الأشجار الوارفة الظلال الملتفة الأغصان الغضّة النضرة «من النّضارة». وهي في وادي شعيب غربي السلط وبالقرب منه وهي ليست في جنوب الأردن. ولحن نرجح أن أهل الأيكة ومدين كلاهما من جذام وهي القبيلة القوية الواسعة الكثيرة العدد والعُدّة والثروة، والتي كانت تمتد من تبوك حتى الجولان في سائر أنحاء شرق الأردن، وتمتد أيضاً إلى شمال وجنوب فلسطين. ولا زال قبر سيدنا شعيب عليه السلام مدفوناً في الأيكة، حيث لا زالت الأشجار المثمرة في البساتين المحاذية لمجرى سيل وادي شعيب قائمة حتى الآن.

أربع مراحل في نحو نصف طريق الشام وهي حصن وله عين ماء ونخيل وحائط يُنسب إلى النبي ﷺ ، ويقال أن أصحاب الأيكة الذين بعث الله إليهم شعيباً كانوا بها، ولم يكن شعيب منهم وإنما كان من مدين، ومدين على بحر القلزم محاذية لتبوك استسقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب وهي بئر مغطاة قد عُمل عليها بيت وماء أهلها من عين تجري لهم ومدين اسم القبيلة التي كان منها شعيب وإنما سميت القرية بهم، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: 85] (ابن حوقل ت 367، ص 22-23).

وبذلك نجد أن اسم «مدين» هو اسم القبيلة أو البطن من القبيلة الأكبر من جذام، وأطلق على ديرتهم اسم مدين، بينما عاشت بطون أخرى من جذام في مناطق أخرى مثل أصحاب الأيكة في وادي شعيب بجوار السلط المحروسة. كما أن جذام كانت قبيلة واسعة ذات بطون وأفخاذ، وتمتد من تبوك حتى الجولان.

وأما البكري (ق 5 هـ) فيقول أن الأيكة المذكورة في القرآن الكريم كانت منازل لشعيب عليه السلام ، وأن الأيكة اسم البلد، وإن كانت عند أهل اللغة: الشجر الملتفّ (انظر ج 1، ص 215-216).

ويتحدث الحموي (ق 7 هـ) برأي يطابق ما ذكره ابن حوقل أعلاه، ولكن بمزيد من التفصيل والاستفاضة (ج 5، ص 77). ثم يذكر رواية أخرى تبين أن مدين قد تكون: « هي كفرمندة من أعمال طبرية وعندها أيضاً البئر والصخرة، وقد ذكر ذلك في كفرمندة، قال كثير[1]:

(1) كلمة الراهب أو الرهبان لا تقتصر في العربية في دلالتها على رهبان النصارى، وإنما على المؤمنين الموحّدين، وإن كانوا مسلمين. ونجد في خُطب الخوارج: «رهبان بالليل فرسان بالنهار» وامتدح القرآن الكريم بعض حالات الرهبان عندما تكون ضمن عبادة التوحيد والأيمان بالله سبحانه. لذا فإن ما أورده كثير هنا، قد يعني الزهّاد (مفردها زاهد) لأنهم في زمنه، وجاء ذلك من مبالغات شعر العرب لتوصيل المعنى الذي يشتمل على الشرك هنا بالركوع والسجود لغير =

رهـبان مديـن والذيـن عهدتهـم   يـبكون مـن حذر العقاب قعودا
لـو يـسـمعون كما سمعت حديثها   خـرّوا لعـزّة ركّعـاً وسـجودا

ويرى الحميري (ق 9 هـ) أن الأيكة هي أرض قوم شعيب وأنها مدين التي وردت في القرآن الكريم. ويضيف أن الاسم جاء من مدين بن إبراهيم عليه السلام، وأن من ملوك مدين: « أبو جاد وهوّز وحطّي على تواليها فكان أبو جاد ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكان هوّز وحطي ببلاد وجّ وهي الطائف وما اتصل بها من أرض نجد، وكلمن وسعفص وقريشات ببلاد مصر » (الحميري ص 71).

أما نحن (المؤلف) فنستطيع تحديد مكان مدين الحالي كما ذكرنا أعلاه دونما ترجيح أو تقبيح لآراء الآخرين.

-12-

تبـــوك

وفي نهاية المطاف، نحط رحالنا، بجنوب الأردن وشمال جزيرة العرب، حيث مدينة تبوك التي هي جزء من السعودية الآن، لكننا نذكرها هنا بسبب ارتباطها ببعض الأحداث بجنوب الأردن.

فقد ذكر البلاذري (ق 3 هـ) أن رسول الله ﷺ أقام « بتبوك أياماً فصالحه أهلها على الجزية وأتاه وهو بها يُحَنّة بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه على أن جعل له على كل حالم بأرضه في السنة ديناراً » (ص 59).

= الله سبحانه، بسبب روعة الجمال وهالة الجاذبية لهذه الحسناء وهي: عَزّة المشهورة في شعر وقصص العرب وكان كُثَيِّر يُحبُّها حتى سُمّي: كُثَيِّر عَزّة.

ووردت في مكان آخر؛ لدى البلاذري (ق 3 هـ): « وأمر أبو بكر ﷺ عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيلة عامداً لفلسطين وأمر يزيد أن يسلك طريق تبوك وكتب إلى شرحبيل أن يسلك أيضاً طريق تبوك » (ص 108).

وفي موقع سابق آخر يقول البلاذري (ق 3 هـ): « فكان أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما علمنا وكانوا نصارى ثم أعطى أهل أيلة وأذرح وأهل أذرعات الجزية في غزوة تبوك » (ص 68).

ولدى الاصطخري (ق 4 هـ) ترتبط تبوك بالأيكة ومدين، حيث يقول: «وتبوك بين الحِجْر وبين الشام على أربع مراحل نحو نصف طريق الشام، وهو حصن به عين ونخيل، وحائط ينسب إلى رسول الله ﷺ ، ويقال أن أصحاب الأيكة الذين بُعث إليهم شعيب كانوا بها، ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين. ومدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل، وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ورأيت هذه البئر مغطاة قد بني عليها بيت، وماء أهلها من عين تجري لهم، ومدين اسم القبيلة التي كان منها شعيب، وإنما سميت القرية بهم، الا ترى أن الله يقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [الأعراف: 85] » (ص 24).[1]

(1) ليس غريباً أن جرت التسمية لهذه المدينة على ساحل البحر الأحمر بمحاذاة تبوك، أقول أن تمت تسميتها مدين، وربما رحل إليها أهل مدين المؤمنين أو المحبطين بها بعد أن تحقق غضب الله على من كفر من أقاربهم، وإذا وقع هذا الرحيل سمّوا الموقع الجديد باسم مدينتهم السابقة مدين مثلما هو حال الناس إذا هاجرت إلى بلاد جديدة كرروا اسم بلادهم الأصلية وأطلقوه على البلاد الجديدة، كما نرى مما جرى من أبناء أوروبا وغيرها، والله أعلم. وبالتالي تكون مدين سيدنا شعيب القديمة هي التي حلّ عليها غضب الله قرب الكرك، وتكون مدين الجديدة مدينة المهاجرين المؤمنين الناجين من عذاب الله سبحانه في جنوب بلاد مدين بمحاذاة تبوك وباتجاه الساحل، ولا تناقض بين تكرار الاسم واختلاف المواقع، ويكون ما ذكره المؤرخون بوجود الموقعين صحيحاً، وما تشابه من وجود البئر المماثل صحيحاً، كما أن إشارة القرآن الكريم إلى ماء مدين تحدثت عن ماء لإسقاء المواشي، وليس لاستخدام الناس.

ويرى الحموي (ق7هـ) أن تبوك: « موضع بين وادي القُرى والشام، وقيل بركة لأبناء سعد من بني عذرة؛ وقال أبو زيد: تبوك بين الحجر وأول الشام » (ج2،ص14). ثم يكرر المعلومات التي قالها الاصطخري أعلاه، من أنها قد تكون مدينة شعيب والأيكة ومدين؛ ثم يذكر غزوة الرسول ﷺ ، ووصوله إليها، وتسميته لهذا الموقع بهذا الاسم «تبوك» التي لا زالت تحمله إلى الآن (التفاصيل في الملحق – مادة تبوك). ولاشك أن تبوك مكان معروف وهي الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) مدينة واسعة وكبيرة جداً وعامرة بالسكان والتجارة والزراعة.

ويكرر الحميري (ق 9 هـ) هذه المعلومات (ص 130) باختصار، ثم يتحدث عن أن تفاصيل غزوة تبوك مذكورة في سيرة ابن إسحاق (ابن هشام 515:2 وما بعدها).

-13-

جـــرش

وإذا ما اتجهنا إلى الشمال، وجدنا جرش المحاذية من جهة الشمال من مجرى نهر الزرقاء، مدينة جرش التي يقول عنها الحموي (ق 7 هـ): « وفي وسطها نهر جارٍ يدير عدة رحى عامرة إلى هذه الغاية، وهي شرقي جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق، وهي في جبل يشتمل على ضياع وقرى يقال للجميع جبل جرش (...) ويخالط هذا الجبل عوف (جبال عجلون الحالية)، وإليه ينسب حمى جرش، وهو من فتوح شرحبيل بن حسنة في أيام عمر، ﷺ » (ج 2، ص 127).

من هذا المقتطف نجد أن نهراً كان يجري وسط مدينة جرش، حيث تدل عليه الأقواس والقناطر القديمة القائمة حتى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين)، كمؤشر على غزارة مائه في الماضي القديم وعلى ازدحام السكان وازدهار الحضارة. أما الرّحى – وهي المطاحن فتدل على أن المنطقة كانت

عامرة بالسكان في القرن السابع الهجري، وإن تعذر حصولنا على مصادر عن أسماء تلك العشائر السابقة، وفئات السكان.

أما النبع الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) فهو قليل مقارنةً بما كان عليه، وتحيطه بساتين الخضار والليمون والبرتقال والأشجار المختلفة. وتسمى العين الرئيسة التي كانت تسقي جرش وتقع على مدخل المدينة من جهة الشمال الغربي عند قدمي طور صخري جيري، تسمى عين القيروان. وهو اسم جميل، ولا أدري من أين جاءت التسمية وليس عندي ما يدل على علاقتها بالقيروان في تونس الخضراء.

وتتألف جرش الآن من مدينتين: الحديثة إلى الشرق من مجرى النهر المذكور؛ والأثرية إلى الغرب منه. وفي جرش الأثرية والحديثة الآن آثار رومانية تدل على عصور زاهرة. أما الجانب القديم فالآثار واضحة تارة ومغمورة بالتراب تارة أخرى. أما في الجانب الحديث فهي ترزخ تحت البناء الجديد، ويقام فيها منذ بداية الثمانينات من القرن العشرين مهرجاناً ثقافياً سنوياً، يسمى: مهرجان جرش، تشارك فيه فرق من الفنون الشعبية المحلية والعربية والأجنبية، ومطربون وشعراء، ومسرحيات، وعروضات للمنتوجات. ويعتبر المهرجان مناسبة عامة للفسوق والفجور والانحلال والانحراف « والعياذ بالله من الشيطان الرجيم » ويقام بالصيف، ويحضره الناس مقابل تذاكر، ويقام في الآثار لمدة أسبوعين. ورغم الإعلان عنه أنه ثقافي إلا أنه تحوّل إلى لقاء عام وقانوني للممارسات التي لا تتفق مع ثقافتنا وأخلاقنا الأردنية العربية الإسلامية وشرفنا العربي وذوقنا الأردني، وصارت تتضاءل نسبة إقبال الناس عليه، وتنقص في كل عام، إلى درجة أنه فشل في صيف عام 2005 لقلّة روّاده وتقزّز الناس من سلبياته، وهو سنّة سيئة وزرها على من ابتدعها واستمرّ بها ونستجير بالله من النار والشيطان الرجيم.

-14-

جبـل عــوف

وأما جبل عوف الوارد في مادة «جرش» أعلاه، فهو المحيط من الشرق والجنوب والغرب والشمال بمنطقة عجلون. ويقول المغربي (ق7هـ) في كتابه الجغرافيا: أن أهل جبل عوف كانوا عصاة فبنى عليهم أسامة حصن عجلون - المسمى الآن قلعة الربض[1] ، حتى دخلوا في الطاعة. وفي جنوبه جبل السلط، وكان أهله (أهل جبل عوف) عصاة فبنى المعظم عليهم حصن السلط حتى دخلوا في الطاعة وبينه وبين عجلون مرحلتان، وكذلك بينه وبين الكرك (انظر ص152)، أي بين (السلط والكرك).

عجلـون

أما عجلون فهي مدينة إلى الشمال الغربي من جرش، وتبعد عن عمان حوالي سبعين كيلومتراً، وهي في ملتقى أودية بين الجبال، فيها مسجد قديم، وسكانها من المسلمين والنصارى، وتحيطها عدد من القرى الأهلة بالسكان المشهورة بالزيتون والعنب، وتقع قلعة عجلون بجوار طريق تسير على سفح جبل عوف، وتطلّ القلعة على غالبية قمم سلاسل الضفة الشرقية الأردنية، وتكشف الغور وجبال فلسطين وبيسان وطبرية، ولا تزال القلعة قائمة إلى الآن، وإن أصاب بعض سقوفها وجدرانها تلفاً. ويحيطها خندق عميق محفور بالصخر

(1) كانت القلعة التي أشادها أسامة بن المنقذ، تسمى بالأردن قلعة الربض حتى منتصف التسعينات من القرن العشرين حيث تم تحويل اسمها إلى: قلعة عجلون، بسبب الخلاف العشائري المحليّ على الاسم. وكحلٍّ وسط عادت التسمية العربية القديمة التي أطلقت عليه عند إنشائها وهي قلعة عجلون، ذلك أنها لم تعد حصناً بسبب انتهاء أغراضها العسكرية، وإنما قلعة قديمة تقتصر الآن على الأغراض السياحية والأثرية والتاريخية فقط.

كان يمتلئ ماءً في الأيام الغابرة، ويتم الدخول إليها من خلال ممر على جسر متحرك من جهة الشرق.

-15-

جبـال السلـط

أما جبال السلط، فكان يقطنها بنو رحمن، وهم أجداد الرحامنة (سكان يرقا حالياً) من عشائر عباد – حيث كانوا عصاة مثل أهل عجلون، وأخضعهم الملك عيسى، وبنى حصناً هناك لضمان خضوعهم، وهو حصن السلط المسمى الآن قلعة السلط، والتي هدمها إبراهيم باشا بن محمد علي باشا الذي كان على رأس الجيش المصري لاحتلال بلاد الشام.

ثم نجد هنا إشارة إلى أن البلقاء جزء من الأردن؛ وهي إشارة مبكرة. فبعد أن عرفنا أن جرش جزء من البلقاء، نجد البلاذري (ق 3 هـ) يقول: « ... وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح فتحاً يسيراً بغير قتال ففتح بيسان، وفتح سوسية، وفتح أفيق، وجرش وبيت راس، وقدس، والجولان، وغلب على سواد الأردن وجميع أرضها » (ص 116).[1]

(1) يعتبر البلاذري (ق 3هـ) من المؤرخين الأوائل الذي عاش ومات في القرن الثالث للهجرة، وهو هنا يحدد الأردن، قريباً مما حددتها التوراة، وما هي عليه الآن في العصر الحديث تقريباً، لكنه يشير إلى نقطة هامة وهي سواء الأردن التي تعني الخصب وكسوة الأرض بالغابات والثمار والزروع، وكان هناك في أيام الفتح الأولى سوادان: سواد العراق بلاد الرافدين والفراتين، وسواد الأردن بلاد الخصب والماء والنماء والغابات والثمرات والأمن والطمأنينة. وكان في زمن سيدنا إبراهيم سوادان: سواد مصر وسواد الأردن (كما ورد في التوراة). وبذلك نجد الأردن كانت تضاهي مصر والعراق بالخصب ووفرة الماء وغزارة الإنتاج منذ خمسة وثلاثين قرناً، لكنها الآن بحاجة إلى الماء وقد زحف عليها التصحّر والذي منه هذه الأكوام من الحجارة المسماة مدن وبنايات.

ومن التضمين المذكور نجد أن فتح الأردن قد تم ضمن ثلاث قنوات هي: فتح الحصون، وفتح المدن، والسيطرة على السواد، أي الأراضي الزراعية الخصبة والغابات الجميلة التابعة للمدن، حيث يتبعثر الناس وينتشرون، وتغلب الزراعة على تجمعهم وتجمهرهم. ونجد أيضاً أن جرش والجولان وبيت راس.. الخ كلها جزء من الأردن. فالحصون دلالة على أهمية الأردن العسكرية، والمدن دلالة على الاستقرار والحضارة والتكاثر، والسواد دلالة الغابات والزراعات، وكلها دلالة الخصب ووفرة الماء والتربة الطيبة والسكان النشيطون والأمن والطمأنينة، وحب الوطن والموالاة له.

-16-

درعـــا

وإذا ما تحركنا شمالاً انتهى بنا المطاف إلى نقطة حدود الأردن / البلقاء في الشمال، حيث مدينة درعا المسماة قديماً أذرعات « أدرعي »، حيث ذكر البلاذري (ق 3 هـ) أنه: « اجتمع المسلمون عند قدوم خالد على بصرى ففتحوها صلحاً وانبثوا في أرض حوران جميعها فغلبوا عليها وأتاهم صاحب أذرعات فطلب الصلح على مثل ما صولح عليه أهل بصرى » (ص 126).

وقال البلاذري (ق 3هـ) أيضاً: « حدثني هشام بن عمار قال: حدثني الوليد بن مسلم عن تميم بن عطية عن عبدالله بن قيس قال: كنت فيمن يلقى عمر مع أبي عبيدة مقدمه الشام فبينما عمر يسير إذا لقيه المقلسون (مفردها مُقَلِّسْ وهو اسم فاعل للفعل قَلَّس ومصدره تقليس والتقليس هو استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو) من أهل أذرعات بالسيوف والريحان، فقال عمر: «مه امنعوهم. فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنّتهم وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم. فقال دعوهم» (ص139). وقد ذكر الحميري (ق 9 هـ) هذه الحكاية أيضاً (ص 19-20)، كما أشار إليها البكري (ق 5 هـ) (ج 1، ص 131-132).

ويقول الحموي (ق 7 هـ) أن أذرعات: « بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان، ينسب إليها الخمر، وقال الحافظ أبو القاسم: « أذرعات مدينة بالبلقاء » (الحموي ج 1، ص 130) [1]. وبذلك نجد أن أذرعات (درعا) كانت في القرن السابع الهجري جزءاً من البلقاء من الأردن

ويعرّفها المقدسي من قبله (ق 4 هـ) بقوله: أذرعات مدينة قريبة من البادية رستقها جبل جرش يقابل جبل عاملة كثيرة القرى، وجَلُت طبرية بهذين الجبلين » (ص 162). وهو بذلك يبيِّن أنها جزء من الأردن، وعاصمة لما كان يسمى مملكة باشان الأمورية الأردنية.

وقد ذكرت العرب درعا في أشعارها، ويروي الحموي (ج 1، ص 131).

شعراً لبعض الأعراب:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ويجلو دجى الظلماء ذكّرتني نجدا
وهيّجتني من أذرعات وما أرى بنجد على ذي حاجة، طرباً بَعْدا
ألم ترَ أن الليل يقصر طولُه بنجدٍ، وتزداد الرياح به بردا؟

وقال امرؤ القيس:

ومثلك بيضاء العوارض طَفْلة لعوب تُنَسِّيني، إذا قمتُ، سربالي
تنوّرتُها من أذرعات، وأهلُها بيثرب، أدنى دارِها نظرٌ عالِ

وينسب إلى أذرعات: « أذرعي، وخرج منها طائفة من أهل العلم » (الحموي ج 1، ص 131).

(1) هذه إشارة في القرن 7 هـ على أن ذرعا وهي عاصمة حوران جزء من البلقاء، وهو الأرجح في ذلك العصر، وبالتالي جزء من الأردن.

وتعتبر درعا الآن (القرن الحادي والعشرين) نقطة الحدود الجنوبية السورية مع الأردن، حيث أنها مدينة كبيرة واسعة، بها نقطة حدود. ومحطة للقطار الحجازي. وقد تم نقل الحدود في منتصف التسعينات من القرن العشرين الميلادي من درعا إلى منطقة تسمى جابر إلى الشرق من المركز القديم في درعا. ويسمى الجانب الأردني: جابر بينما يسمى الجانب السوري: نصيب.

وهناك مواقع في الأردن، لا يخطر ببال المعاصرين أنها مذكورة منذ أمد بعيد بهذا الاسم الذي نستخدمه الآن أو تحريفاً لما كان عليه من لفظ.

-17-

الرويشد

قد لا يخطر ببالنا أن الرويشد الذي كانت تسمى الأجفور، هي اسم قديم، وأنها كانت مركزاً من مراكز العبور والمرور ومحطة من محطات الاستراحة للقوافل والبدو والقبائل المتحركة من جهة إلى أخرى عبر المنطقة. فإذا كنا نحن المحبين للأردن، العاشقين لمائه وترابه وهوائه، لا ندري تاريخ الرويشد، ولا نتخيلها مركزاً قبل أربعة عشر قرناً، فكيف بالغرباء؟

وقد ذكرها الشاعر الأردني الأموي عديّ بن الرِّقاع العاملي (ق 1 هـ) من قبيلة بني عاملة الأردنية، كما ورد في ديوانه (ص146)، وكما أورد الهمداني (ق 4 هـ) في كتابه صفة جزيرة العرب، يقول العاملي عن الرويشد:

تربَّص الليلَ حتى قَلَّ سائمةٌ   على الرُّوَيْشِدِ أو خرجانه يَدَقُ
حتى إذا المنظر الغربيُّ جارَدها   من حمرة الشّمس لما اغتالها الغَسَقُ

وتقع الرويشد على الحدود الشرقية الأردنية ذات التماسّ مع العراق، وهي الآن قرية واسعة وعامرة يسكنها البدو الذين استقروا بها فضلاً عن التجار من معان والمفرق وأبناء البادية أنفسهم.

-18-

ريسون / راسون

وهي من قرى محافظة عجلون في المنطقة الشمالية من الأردن، وهي قرية مشهورة، وتُلفظ غالباً مترادفة مع باعون، كأن يقال راسون وباعون، أما اللفظ المزدوج لقريتين معاً، فهو أمر شائع بالأردن مثل: عيرا ويرقا، والفحيص وماحص، وصبحا وصبحية، وراسون وباعون، وعنقا ورقُبات (في البادية الشرقية)، الكرك والشوبك... الخ.

وقد أشار إليها ياقوت الحموي (ق 7 هـ) (ج 3 ص 112) أن راسون (ريسون) «قرية بالأردن كانت لمحمد بن مروان، فولاّه أخوه هشام مصر فاشترط محمد على أخيه أنه متى ما كرهها (أي كره مصر) عاد إلى مكانه (أي إلى ريسون / راسون)، فلما وَلِيَ شهرين (أي على مصر) جاءه ما كره فترك مصر وقدم إلى ريسون ضيعته وكتب إلى أخيه: ابعث إلى عملك والياً فكتب إليه أخوه هشام:

أتتْرُكُ لي مِصراً لريسون حسرة؟! ستعلمُ يوماً أيُّ بيعيك أربح

فقال محمد: إنني لا أشك أن أربح البيعين ماضعت. وهذا دليل على أن هواء الأردن، وطبيعته وسحره وجماله قد أخذ بألباب هذا الأمير الأموي وحاشيته، وترك مصر، وما أدراك ما مصر؟ وعاد إلى ريسون في الأردن، وما أدراك ما الأردن.

-19-

الـزرقــاء

وهي الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) مدينة كبيرة وواسعة، عامرة الأسواق كثيرة السكان، وهي مركز محافظة باسمها، وهي على طريق عمان إلى

الشرق والشمال، وهي نقطة إلتقاء وافتراق وعبور ومرور للطرق والتجارة والناس. وقد ازدهرت بسبب إقامة معسكرات للجيش الأردني فيها، فضلاً عن محطة لسكة الحديد الذي تم إنشاؤه في عام 1904، (وقد أشرنا إليها في موقع سابق من هذا الكتاب).

وسميت الزرقاء نسبةً إلى عين ونهر الزرقاء الذي ينبع من هضبتها كما يسميها الأردنيون: زرقاء شبيب لوجود قلعة بهذا الاسم: قلعة شبيب، وهو أمير من القبائل اليمنية الأردنية، ويعتقد العامة أنه كان حاكماً للأردن، ويتصوّرونه قبل الإسلام وبعده في آنٍ واحد، وكانوا ينسجون حوله الحكايات الكثيرة عن شهامته وبطولته وكرمه، ولكنها اندثرت مع موت تلك الأجيال.

ويرى بعض الجهلاء أنه لا يوجد تاريخ للزرقاء، وأنها مدينة الطيور المهاجرة، ولكن ما نجده في بطون الكتب يدحض ادعاءاتهم، ويبرهن على أنها أردنية الأرض والوجه والتاريخ واللسان والمستقبل، وأنها كانت مزدهرة عبر حقب التاريخ.

فقد ذكرها المقدسي (ق 4 هـ) في كتابة أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم حيث قال: «الزرقاء قرية في طريق الري وموضع في طريق دمشق (ص 26) »، كما ذكر أيضاً عن الزرقاء قائلاً: «وتأخذ من عمان إلى مآب أو إلى الزرقاء مرحلة مرحلة، وتأخذ من أذرعات إلى الزرقاء مرحلة» (192). ويذكرها الحموي (ق 7 هـ) (ج3) في معجم البلدان قائلاً: «الزرقاء بلفظ تأنيث الأزرق، موضع بالشام بناحية عمان، وهو نهر عظيم في شِعَاب وَدِحال (والدّحل هي الأرض الصحراوية أو البادية التي لا شجر فيها)، وهي هنا فتحة وادٍ ضيق فمه كثيرة وهي أرض شبيب التّبعي الحميري، وفيه سباع كثيرة مذكورة بالضراوة وهو نهر يصبّ في الغور » (ج3 ص137).

وبذلك نجد أن الزرقاء في القرن السابع الهجري (الحموي) قريةً على طريق الشام إلى الديار الحجازية، وأنها كانت واحدة من مراحل استراحة وتحرك القوافل التجارية، وقوافل الحجاج. ويقول المقدسي (ق 4 هـ): «وتأخذ من عمان إلى مآب أو إلى الزرقاء مرحلة مرحلة، وتأخذ من أذرعات إلى الزرقاء مرحلة » (احسن التقاسيم ص 26). نعود إلى القول أن الزرقاء كانت محطة لقوافل الحجاج والتجارة والقبائل المتحركة عبر هذه الديار، وأنها كانت قرية عامرة في مفهوم ذلك العصر فإذا كانت عمان نقطة توزيع، تتحرك منها القوافل باتجاه مآب جنوباً فإن الزرقاء كانت في الوقت نفسه محطة لهذه القوافل المتحركة من عمان باتجاه الشمال.

كما نخرج من قول الحموي (ق 7 هـ) أنها كانت عاصمة شبيب التّبعي وهو ما يردده العامة حيث تواصلت معهم الحكاية عبر قرون طويلة جداً. كما يوجد اليوم مستشفى باسم شبيب، وتوجد قلعة أثرية تحمل الاسم نفسه (قلعة شبيب)، ولا يمكن أن تكون عاصمة أمير مثل شبيب إلا إذا كانت بلدة مستقرة تتوفر فيها الحياة والحضارة التي تقتضيها متطلبات وثقافة ذلك العصر.

ونقطة أخرى هي وجود نهر الزرقاء الذي كان غزير المياه، لكنه تحوّل الآن (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين) إلى مكرهة صحية بسبب تحويل المياه العادمة ومخرجات المصانع السامة من مناطق عمان والزرقاء وما حولهما إلى ذلك المجرى، الأمر الذي لوّث مياه النهر، ومياه سدّ نهر الزرقاء والتربة الزراعية بالأغوار، فضلاً عن تلويث البيئة التي كانت ذات يوم في غاية النقاء.

كما أشار إليها أنها مشهورة بالسِّباع وذلك يدل على أنها كانت مكسوّة بالغابات، وتتوفر فيها الحيوانات البرية التي تشكل توازن الطبيعة وطعاماً للسّباع، ذلك أن السباع البرية لا تعيش إلا في مناطق تتوفر فيها اللحوم

الحيوانية الأخرى، التي لا تتوفر بدورها إلا بكثرة الأعشاب والغابات والمياه، وهي الحال التي يبدو أن الزرقاء كانت عليها.

أما أبو الفداء (ق 8 هـ) في كتابه تقويم البلدان فيقول في ذكره مدينة عمان: « ويمرّ تحتها نهر الزرقاء التي على درب حجاج الشام وهي غربي الزرقاء وشمالي بركة زيزياء » (ص 247).

أما ابن طولون (ق 9 ، 10 هـ) فقد مرّ بها في شوال من عام 920هـ / 1513 م فقال: « ثم رحلنا أوائل الفجر من الغد فوصلنا منزلة الزرقاء وهي بين السريّة والبلقاء، وقت الغروب فبتنا بها ثم رحلنا أوائل فجر الغد فمررنا على قرية مركا (ماركا الحالية) أوائل النهار ».

ومن هذا النص يتبين أن الزرقاء مذكورة عبر القرون لدى الرحالة العرب منذ القرن الرابع الهجري حتى القرن العاشر الهجري. كما نجد إشارة إلى ماركا (مركا)، التي يقع فيها مطار عمان الذي بقي المطار المدني الرئيس بالأردن حتى مطلع الثمانينات من القرن العشرين الميلادي، والتي يعتقد البعض أن اسمها (أي ماركا) حديث، بل إن بعضهم يرون أن التسمية جاءت زمن الإنجليز بعد أن اعتبروها نقطة البدء (Marke One) نقطة ماركا الأولى. وهذا غير صحيح. فالاسم معروف منذ القدم، كما وجدنا عند أبي الفدا (ق 10 هـ).

وأما اسم مركا فجاء بالميم متصلة بالراء، ثم الكاف متصلة بالألف الممدودة، وهو ما يعني في لهجة الأردنيين المتّكأ، أي الأرائك التي يتكئ عليها الجالس، وهو ما ينطبق على طبيعتها أنها كالفرات المحاط بالأرائك، والمراكي (مفردها مركاة أو مركا) ومنها اشتُقّ (بضم الألف) الاسم، ومن الدارج عند الأردنيين تسمية المكان من تركيبه الطبيعي.

أوردها الجزيري (ق 10 هـ) في كتابه: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، أقول ذكرها في صفة طريق الشام إلى مكة المعظمة «.. ثم يرحل إلى الزرقاء فيأخذ إليها مرحلتين ويقيم بها يوماً أو يومين» (ج 2: 1256).

وذكرها (أي: الزرقاء) الجزيري (ق 10 هـ) أيضاً في المصدر ذاته، خلال رسمه لطريق الحجاج من أذرعات إلى المفرق وقال: « ثم يرحل إلى الزرقاء، وهي عين تجري، وبتلك المنزلة قصر شبيب على التل، ثم يرحل إلى رأس بلاطة» (ج 2: 1266).

وفي القرن العاشر الهجري أيضاً ذكرها قطب الدين المكي في رحلته من مكة المكرمة إلى استانبول في ضحى يوم الجمعة 11 صفر 965 هـ/ 1557 م، حيث وصف ماء الزرقاء بأنه: طيب، وبعد الزرقاء الوصول إلى المفرق شمالاً.

وأكثر ما أعطاها وصفاً، هو الخياري في القرن الحادي عشر للهجرة، وهو إبراهيم بن عبدالرحمن (ت1083هـ)، وذلك في كتابه المشهور: تحفة الأدباء وسلوك الغرباء، ثم تحقيقه. وقد مرّ بها في عام 8080 هـ/ 1669 م، وكان مسافراً من الديار الحجازية قاصداً دار الخلافة في استانبول (الأستانة).

وقد تناول الخياري بالتفصيل: الحياة الاقتصادية، وأنواع التجارة فيها كما وصف نهر الزرقاء. يقول الخياري بعد أن خرج من منطقة البلقاء: أي عمان وما وجاورها واختصاصها. ويقول في كتابه المذكور أعلاه الجزء الأول (ص 88-90) (تحقيق رجاء محمود السامرائي) – سلسلة التراث 12 الصادر عن وزارة الثقافة والإعلام العراقية. (انظر التفاصيل في هذا الكتاب).

ونأخذ هنا بعض النقاط الهامة من النص الذي أورده الخياري (ق 11 هـ)، وهو شاهد عيان على الزرقاء أثناء رحلته، قاصداً دار الخلافة بالأستانة، وقد توفي في عام 1083 هـ وقد مرّ بها قبل وفاته بثلاث سنوات (1080هـ/ 1660م).

اهتم الخياري بوصف الحياة الاقتصادية في الزرقاء، وأنواع التجارة والبضاعة والإنتاج، وتحدث عن نهرها المشهور الذي كان من أنقى المياه في بلاد الشام، وأصبح الآن من أكثرها تلوثاً بفضل الزيادة السكانية (؟!) وما يسمى التطور والتحضر في عمان والزرقاء (؟!!).

1- تحدث عن قصر شبيب الذي كان قلعة تظهر للمسافر من مكان بعيد وبعد خروجه من عمان التي كانت عاصمة البلقاء، حيث يقول: « ثم سرنا غير بعيد قبل ميل أو ينقص أو يزيد فإذا الأعلام الخضر لاحت بالزرقاء، وإذا العيون السود تلمح قصرها الأبيض، وهو قصر عالٍ مرتفع مبيضّ الظاهر عظيم الوضع يقال له قصر شبيب، ويقال أنه شيخ من مشايخ العرب أقام بهذا المنزل فابتنى هذ القصر » (ص 88).

2- يذكر الخياري أيضاً: أن الزرقاء كانت سوقاً عامرة، فيها الخيرات والمنتجات التي تأتي من دمشق والبلدان الأخرى وسكان كثيرون متزاحمون حيث يقول: « فبعد أن وصلناها وحططنا (حطّينا) الرّحال وانتظم الشأن والحال، سرنا للتنزه في جهاتها والإحاطة ببعض صفاتها، فإذا سوق قائمة، وخيرات متراكمة، وعوالم متزاحمة، واردة من دمشق الشام وما حولها من البلدان والقرى. فمن الشام كل فاكهة به موجودة، فمن المنقول: التفاح بأنواعه، وكذلك الكمثرى والعنب والحبحب (وهو الرقّي بلغة الحجاز، والبطيخ بلغة الأردنيين وأهل الشام)، والخوخ، ومنه الخراساني وهو غريب الهيئة أشبه شيء بالمفاخر الكبير من الرُطب الجبلي المعروف بالمدينة هيئةً ولوناً، والخيار والقِثاء بكثرة، ومن غير الفاكهة البيض بالسلاّت بحيث تحتوي كل سلة على نحو الخمسمائة بيضة، وابيع (أي ويباع) مسلوقاً مصبوغاً بألوان من الصبغ، كل عشر بمحلق ديواني، ويسمّونه مصرية، والخبز الخمير المخبوز مدهوناً بسمن أو زيت ويباع رخيصاً جداً، فاشترينا منه مخبوزاً أبيض.. الخ » (ص 88-89).

ويواصل الخياري قوله عما كان يوجد في أسواق الزرقاء، وتوفر الغذاء والأعلاف، ورخص الأسعار، وجودة البضاعة، مما يدل على أن الأردن كانت بلاد الخيرات والإنتاج، وليست أرضاً مقفرة كما يتصوّرها الذين يسعون أن تكون أرضاً لشعب ليس له وطن، لأنها وطن بلا شعب (هكذا يروّجون في كتبهم وخطاباتهم الساسية أنها No Man's Land) .

« والعنّاب نصف المدّ المدني بأربعة مصارية، والكباش الضأن والغنم والمعز أمر كثير لا يُسْأل عنه، وخيلٌ جياد تعرض لتُباع حسنة الأوصاف والأبداع، أما الشعير والتبن وما يشبههما فالأمر العجيب كثرة ورُخْصاً (...) والدجاج نيّاً ومطبوخاً.. » (ص 89).

3- ثم يتحدث عن نبع الزرقاء ونهرها، فيقول:

« وأما ماؤها وما أدراك ما ماؤها، فهو أعذب ماءٍ وأحلاه، وأرَقّه وأصفاه (...) لم أرَ له جرياً ولا زيادة ويقال أنه ينبع من محلّ فيسيل فلا يُعلم أين يذهب، وعلى حافّتيه أشجار أشبه شيء بأشجار الورود العظام هيئةً ولوناً وزهراً » (ص 89-90). وأين هذا التلوث الحالي بسبب الزيادة السكانية والسياسة التدميرية، من الماء العذب الزلال ونقاء البيئة والينابيع في زمن أجدادنا البدو الذين يصفهم الغرباء والمرتزقة والمقاطيع أنهم أجلاف لا يستحقون الحياة ؟!؟ .

ويواصل وصفه لصفاء ماء الزرقاء وعذوبته وحسنه فيقول:

«فلقد رأيتها (نبع ماء الزرقاء ونهرها) مكللة بالورد الجوري والنصيبي تكليلاً يعجب الرّائين ويَذْهَبُ بحزن الحزين، وينعكس على الماء ذلك الورد فتخاله مغروساً مثمراً بباطنه. جلسنا على خدّ ذلك النهر يُظلّنا عذاره الريحاني المكلل بالورد فتخيّلته عذاراً جديداً غَشِيَ وَرْدَي خدّ، وأقمنا به نتنقل بالفاكهة

الشامية والمفاكهة المدنية. وهذا المنقول من غير دمشق من بلاد يقال لها عجلون، قريبة من هذا المنزل، تُنْقَلُ خيراته إليه إذا نزله الحاج » (ص 90).

وبذلك نجد أن ما يدّعيه البعض من الطيور المهاجرة والمنظّرين الجهلة أنهم عمّروا الزرقاء وعمّان، يجد من البرهان التاريخي ما يدحضه، ويحوّل مقولات المُدّعين إلى أكاذيب وهراء، فهذه بلاد لها أهلها، وبها أهلها، وكانت عامرة بالسكان والخيرات والمنتجات، وكانت الأسعار رخيصة، والناس بخير، والإنتاج محليّ من الديار الأردنية، وإذا وقع الاستيراد فيكون من الديار الشامية. أما الآن فإننا نستورد كل شيء من كل مكان في الدنيا بما فيهم الناس (!؟!).

ولا زلنا في الزرقاء حيث ذكرها كبريت المدني (ت 1070 هـ) في كتابه رحلة الشتاء والصيف، تحقيق محمد سعيد طنطاوي، حيث يقول: « ثم أتينا على الزرقاء، وهو وادٍ من أعمال عمّان، وبه قصر شبيب بن مالك، وفيه نهر عظيم ينبت فيه القصب الفارسي » (ص 232).

وتحدث جميع الرحالة عن قلعة شبيب هذه أو قصر شبيب، فتارةً يقول بعضه أنه من مشاهير العرب، وأخرى من فرسان العرب. وقد وصف الشيخ عبدالغني النابلسي في عام 1106هـ/ 1693م في طريق عودته من أداء فريضة الحج، قائلاً: « حتى وصلنا إلى الزرقاء وذلك النهر الجاري بالعذب الزلال » (الحقيقة والمجاز ص486-487). ويتحدث عبد الغني النابلسي عن قصر شبيب مستذكراً قول أحد شعراء العرب:

بِـرَغْمِ شـبيب فـارق السيفَ كَفُّه وكانـا عـلى العـلاّت يجـتمعان
كـأنَّ رِقَـابَ الـناس قـالت لسيفه رفيقــك قَيْسِــيٌّ وأنــت يمــاني

ومن أحداث الرحالة المسلمين الذين ذكروا الزرقاء، ما جاء في كتاب الرحلة الحجازية، تحقيق علي الشنوفي، التي كتبها محمد بن عثمان السنوسي

المتوفى عام 1318 هـ (ق 14 هـ)؛ حيث يُطنب في وصف الزرقاء، كما فصّل الخياري من قبل (ق 11 هـ)؛ ومعها يصف مناطق شمال الأردن وما كان عليه من النِّعَم (مفردها نعمة) والخيرات، عندما كانت البلاد لأهلها الأصلاء. يقول السنوسي عام 1299هـ/ 1881م بعد أدائه لفريضة الحج، وعودته من أرض الحجاز متجهاً نحو الشمال:

1- « هذا نهر الزرقاء على جنوب عجلون من أراضي حوران ومُسمّى هذا الجبل يشمل الأراضي الواقعة بين نهر اليرموك شمالاً ونهر الزرقاء جنوباً، وهو من أشهر غابات سورية، سهوله مغطاة بخُضْرَة نضرة، وغاباته من السنديان، وتنقسم أرضه بحسب الإدارة إلى ثمانية أقسام؛ وهي: الكفارات والسرو، والجهامنة (بني جهمة) والوسطية وبنو عبيد، والكورة، وجبل عجلون، والمعراض » (ج 2 ص 269).

ومن هذه النقطة نجد أن تقسيم منطقة شمال الأردن إلى نواحي، وحملها لهذه التسميات، لم يكن وليد العصر الحديث، بل هي أسماء ومسميات وتقسيمات تاريخية، كما يظهر في رحلة السنوسي هذه، ويقول في رحلته أن مناطق الكفارات كانت عامرة «وكل قسمٍ منها يشمل عدداً كثيراً من القرى، والكفراوات (الكفارات) كانت عامرة، وأصبح اليوم (1299هـ/ 1881م) خراباً غامراً وذلك يدل على انقطاع حبل الأمن بسبب الحكم التركي وفوضى الحياة والغزوات القبلية ». وهذا دليل أن الأردن تصاب باليباب والخراب عندما يتولى أمرها الاحتلال أو الغرباء، ولكنها عندما تكون لأهلها، فهي عامرة غامرة (!؟).

2- يذكر السنوسي (ق 114 هـ) في رحلته أعلاه عن الزرقاء ما يلي:

« وأما وادي الزرقاء في البرية الشامية فكان في نظرنا من أحسن المواقع، سيّما بعد طول السفر في يابس الصحراء. ولحسن موقع هامة المنزلة كانت المحلّ الذي عيّنته أوامر الدولة العليّة للحجر الصحي المسمى الكرنتينة لمدة عشرة

أيام. ولكن السير في طريقها مصحوب بصعوبة من جهة الأرض تارةً، ومن جهة الحوادث الجوية تارةً أخرى » (الرحلة الحجازية ج2 ص 269).

وبذلك نجد أن السنوسي (ق 1318 هـ) يذكر الزرقاء بكل خير بقوله: « ولحسن موقع هامة المنزلة »، وذلك مغاير لما قاله عبدالغني النابلسي (1106/ 1693) عندما ادّعى أن المنطقة خالية من الفيء والظلال والقلاع، إذ يقول (النابلسي):

«حتى وصلنا إلى الزرقاء وذلك النهر الجاري بالعذب الزلال ولكن ليس هناك قلعة ولا بيوت ولا فيء ولا ظلال ». وهذا كلام مغاير للحقيقة حيث يوجد قصر شبيب، كما أنه لا يُعقل أن تكون ضفاف النهر ذي الماء الزلال خالية من الأشجار والظلال، ولا يُعقل أن أصاب التصحّر هذا المكان خلال ربع قرن ما بين 1080 حين زارها الخياري، وعام 1106 حين زارها النابلسي.

ولكن يبدو أن عبدالغني النابلسي والمقدسي، لم يتحدثا بموضوعية تجاه الأردن (؟!) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وعلى أية حال، فإن من حُسْن الطالع وجود رحّالة في الفترة التي عاشها هؤلاء، ممن زاروا الأردن أو كتبوا عنه وأنصفوه.

ولكن الذي يبدو لي أن عبدالغني النابلسي - رحمه الله - سلك طريقاً آخر بعيداً عن منزلة الزرقاء، وإنما ضمن إطار المنطقة، وأنه مرّ من الجزء العلوي لبدء النهر، وليس عبر مجراه المحاط بالظلال والأشجار والفواكه. من هنا جاء كلام النابلسي مغايراً لما أورده سائر الرحالة وللحقيقة، ولكن الذي يمكن القول به أنه ربما عبر طريقاً آخر كما قلنا، ولم يصادف الأسواق، وتزاحم الناس أو أنه الحسد والمشاعر المعادية للأردن، والله أعلم.

كما أن السكان كانوا أميَل إلى البداوة، وكانوا بدواً أيضاً، يتركون الموقع في أوقات محددة، إلى أماكن أكثر مناسبة لهم ولمواشيهم في ذلك الفصل، وقد يكون مرور عبدالغني النابلسي في تلك الفترة من السنة التي يهجر بها السكان هذا الموقع إلى موقع آخر لأسباب أو لأخرى، والله أعلم.

-20-

السلط

هي واحدة من أمهات الأردن الثلاثة: السلط، الكرك، عجلون، وهي في وسط الأردن، وعلى الجبال الشرقية لوادي الأردن، وهي مدينة قديمة عريقة وتاريخية ومهمة، تعاقبت عليها الأمم منذ أقدم أعماق التاريخ إلى يومنا هذا، وهي عامرة آهلة، رغم ما يقوله البعض من المثبورين والحاقدين والجهلاء أنها بُنيت حديثاً، في محاولة منهم لقطعها عن جذورها التاريخية وهويتها الأردنية التي لا لبس فيها.

قلعتها قديمة، وكلما جاءت دولة تريد توطيد أركانها بالأردن، عمدت إلى ترميم قلعتيّ السلط والكرك، لأن أية دولة كانت لا تستطيع السيطرة على الأرض، بدون السيطرة على السلط والكرك وعجلون. وأينما تقرأ تاريخ الأردن الوطني والسياسي والعشائري والاجتماعي والاقتصادي لا تستطيع أن تغمض عينيك عن ذكر هذه الأمهات الثلاثة المحروسة وعلى رأسها السلط. وكانت تارةً تتبع الكرك، وأخرى تتبع الكرك إليها، وكان الجغرافيون المسلمون لا يذكرون مراحل المسير في الأردن، إلا ويشيرون إليها (إلى المراحل) ما بين عجلون والسلط والكرك.

قال ابن سعيد المغربي (ق 7 هـ) علي بن موسى بن محمد (ت 685 هـ) في كتابه: بسط الأرض في الطول والعرض، وأخذ عنه أبو الفداء (ت 732 هـ) في كتابه تقويم البلدان: « جبل السلت (أي: السلط) كان أهله عصاة، فبنى عليهم

الملك المعظم حِصْن الصلت (السلط)، حتى دخلوا في الطاعة، وبينه وبين عجلون مرحلتان، وكذلك بينه وبين الكرك) (ابو الفداء، تقويم البلدان، ص 228) (...) « الصلت بفتح الصاد المهملة وسكون اللام وفي الآخر مثناة فوقية، بُلَيْدة وقلعة من جند الأردن، وهي في جبل الغور الشرقي جنوبي عجلون على مرحلة عنها، وهي تقابل أريحا مشرفة على الغور (هذا في القرن السابع الهجري).

وينبع من تحت قلعة الصلت عين كبيرة ويجري ماؤها ويدخل بلدة الصلت. وللصلت بساتين كثيرة وحبّ الرمان المجلوب منها مشهور في البلاد، وهي بلد عامر آهل بالناس » (ص 244-245).

دعنا نقف عند آخر جملة وهي بلد عامر آهل بالناس، هذا ما قاله ابن سعيد المغربي في القرن السابع الهجري، وكرره أبو الفداء في القرن الثامن الهجري. ومع هذا نسمع الجهات الرسمية تقول أن السلط لم تعرف السكان إلا حديثاً في أواخر أيام الأتراك، رغم أنها كانت عامرة قبل ذلك، كما ذكرها الرحالة بيركهارت John Lewis Barckhardt عام 1810م أنها كانت بلدة عامرة بالسكان. ونجد أن هذا الإعمار كان موجوداً ومزدهراً قبل بدء الإدارة التركية فيها بسبعة قرون من زمن ابن سعيد المغربي، وبنصف قرن ونيف زمن الرحالة بيركهارت، وقبل إقامة الإدارة الحديثة بها من قِبَل الانتداب.

لا أدري لماذا هذه الافتراءات على الأردن أنها بلد خالٍ من السكان؟ ولماذا هذه الإساءات أننا شعب لا جذور لنا، ولا هوية لدينا، ولاً تاريخ يجمعنا، ولا كيان وطني لنا؟ وها نحن ندوّن البرهان تلو البرهان لتكذيب أقوال هؤلاء الأفّاكين، ونجد أن الأردن، بل وكل بقعة ورقعة فيه عامرة عبر القرون والأجيال، منذ الوثنية والجاهلية والإسلام إلى الآن. وإذا مرّت فترة سنوات أو حِقَبٌ عجاف بالأردن، وما أصابها من الاحتلال التركي والجهل والمرض، فإن

ذلك أمر تمرّ به كافة البلدان وما فيها من الشعوب من الغفوة والكبوة ثم تصحو من غفوتها، وتنهض من كبوتها، وتواصل السير والمسيرة، وها نحن ذا كذلك أيها الناس..

وفي القرن التاسع الهجري، يذكر غرس الدين خليل بن شاهين الطاهري (ت 873 هـ) أن السلط كانت مدينة، أي قبل خمسة قرون ونيف، وذلك يعني أنها كانت عامرة، ويصفها أنها لطيفة، حيث يقول في معرض حديثه عن المملكة الشامية: «وأما مدينة السلط (لاحظ كلمة مدينة)، فهي لطيفة وبها قلعة لها أقاليم وهي من معاملة دمشق» (ص 46 من كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك).

وإذا كان الأفّاكون ينكرون مدينة السلط كنكرانهم للأردن، وأنها لم تكن موجودة، فماذا يقولون عن شعر البحتري (ق 3 هـ) الشاعر العباسي، قبل ثلاثة عشر قرناً ونيّف، حيث كان أهل السلط يدعمون مُلْك بني أمية وذهبوا وفوداً إلى قصر الخلافة في دمشق؟!.

يقول البحتري (ت 284 هـ) (ديوان البحتري) في السلط:

وتوافـت حلائـب السّـلط والمرجين من دابق ومن بَطْنانِ
تتسنّى الـرماح والحـرب مشبوب لظاهـا تثنّي الخيزران

بل ماذا يقول المرجفون الحاقدون على الأردن والسلط عن العلماء الذين نبعوا من السلط وعاشوا فيها وانتسبوا إليها، ومنهم من صار قاضي القضاة في دمشق، أو قاضي حمص، أو حَكَم القدس مدة طويلة، وصاحب تصانيف طويلة. ماذا يقولون عن هذه المدينة التي تربى فيها، وكان منها العظماء والعمالقة والعباقرة والشعراء والقضاة منذ القرن الثامن الهجري حتى الآن (ق 15 هـ) ؟! .

وعند الحديث عن السلط لابد من الحديث عن كفرهودا، وهي قرية إلى الشمال من مدينة السلط، تطل على الأغوار وفلسطين، وبها قبر النبي يوشع مرافق سيدنا موسى عليه السلام ، وعلى القبر قبّة ومسجد صغير، ولابد من ذكر زي وهي مصطاف مغطى بالأشجار الحجرية من السنديان والبلوط والسرو وغيرها. وهي مطلة على الغرب والشمال من الأردن وفلسطين. أما عارضة عباد، فتنتسب إلى عشائر بني عباد (ومنها المؤلف) وهي معروفة بخصوبتها وأشجار البلوط المثمرة فيها، وبرودتها في الصيف ودفئها في الشتاء، لذلك يقول المثل العبّادي: العرضة بالصيف خيام وبالشتاء حمّام، ذلك أنها ظل ظليل بالصيف لكثرة أشجارها وتغريد أطيارها وطيب هوائها.

-21-

سـدوم

وهي إحدى قرى لوط عليه السلام ، التي أصابها الخسف والعقاب الإلهي، ويقال أنه كان فيها قاضٍ جائر ظالم، لذا قيل في المثل: « أظلم من قاضي سدوم ». وقد أشار إليها الرحالة والجغرافيون المسلمون، والمفسرون أنها كانت واحدة من الممالك الأربعة أو الخمسة التي أصابها غضب الله لاقترافهم الفاحشة وإتيان الذكور شهوة من دون النساء، وقطع الطريق، وممارسة المنكر في ناديهم علناً أمام بعضهم بعضاً، والعياذ بالله.

قال أبو عُبَيْد البكري (ق 4 هـ) في كتابه المسالك والممالك / الجزء الأول؛ في الحديث عن لوط عليه السلام : « فأرسل الله لوطاً إلى أهل سدوم وما حولها، وهي المؤتفكات، وكانت خمس قريات، وسدوم هي القرية العظمى، وهي باقية إلى وقتنا هذا وهي سنة ثلاثمائة واثنتين وثلاثين (332 هـ) خراب لا إنس فيها، والحجارة المُسَوَّمة موجودة فيها، يراها السُّفْرُ (أي المسافرون) سوداً برّاقة، قال: وكان في قرية منها مائة ألفاً » (ص 111).

كما ذكرها ياقوت (ق 7 هـ - ت 626 هـ) أن سدوم على وزن فعول، وهي من السَّدم، وهو الندم مع غمّ، وأنها من مدائن قوم لوط، وكان قاضيها يدعى سدوم أيضاً (؟!) ويؤكد الحموي أن هذا الاسم للبلد وليس للقاضي، وإنما هو قاضي لسدوم.

أما المؤتفكات من قرى قوم لوط، فيأتي على تفصيل أسمائها، شيخ الربوة (ق 8 ت 727 هـ)، في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر قائلاً: « وكان لها خمس مدن أسماؤهم صَعْدَةْ، صَعْبَةْ، عَمْرة قمران (جمورا)، دُوْما، سدوم، وسدوم أكبرهم، وهي أصلهم في الفساد ».

كما يقول المؤلف نفسه أن مدن لوط: « وهي موطن الملح الأندراني، على ما ذُكر في الحديث عن الأحجار والأشياء الممتازة من التراب »، ويقول أيضاً: «فالملح مما امتاز عن التراب، وهو أنواع، فمنه الأندراني وهو أصفاها والطفها، ومعدنه بأرض سدوم عند بحيرة لوط، وكيفما تكسّرت حجارته ما تكسَّرت إلا فصوصاً مربَّعات الزوايا » (ص 79).

وذكرها الحميري (ق 8 هـ) في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار: وقال أن سدوم وما حولها المؤتفكات وكانت خمس قُريَّات، وسدوم هي القرية العظمى. وأورد الحميري قوله أن سدوم كان ملكاً وبه سُمِّيت المدينة، وكان هناك مدينة أخرى مساوية لسدوم في الظلم والسوء وهي عامورا المسماة الآن قامورا.

ولابد من الإشارة هنا، أن عامورا، أو قامورا، أو قمران، هي الموضع الذي تم فيه العثور على المخطوطات الأصلية للتوراة، والتي تسمى مخطوطات قُمْران. ومن الشعر الذي قيل في سدوم، هي من شعر أميّة بن الصلت، إذ قال:

ثـمّ لـوط أخـو سَـدُوم أتاهـا　　　إذ أتاهـا برشـدها وهُداهـا
راودوه عـن ضـيفه ثـم قـالوا　　　قـد نهينـاك أن تقيـم قـراها

(ص 203 القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد).

وقال عمرو بن دراك العبدي:

وإنّي إن قَطَعْتُ جبال قيس وخالفت المزون على تميم
لأعْظَمُ فَجْرَة من أبي رُغال وأجْوَرُ في الحكومة من سَدوم

-22-

ذات السلاسل

في السنة الثامنة للهجرة غزا عمرو بن العاص وخاض معركة ذات السلاسل، وهي موضع فيه ماء غزير، وهي في أرض جذام في جنوب الأردن. كما ذكرها ياقوت (ق 7 هـ) على أنها ماء بأرض جذام. وقال ابن إسحاق: اسم الماء سلسل، وبه سميت ذا السلاسل، وفيها يقول جرّان العود:

في الحيّ ميلاء الخِمار كأنها مَهاةٌ بهَجْلٍ من أديم تُعَطِّفُ
كأن ثناياها العِذابُ وريقُها ونَشْوَة فيها خالطتهنّ قَرْقَفُ
يُشَبِّهُها الرائي المشَبِّهُ بيضةً غدا في الندا عنها الظليمُ الهَجَنَّفُ
بوَعْساء من ذات السلاسل يلتقي عليها من العلقى نبات مؤنَّفُ

وقد وجدنا إشارة هامة في كتاب ياقوت الحموي (ق7هـ)، معجم البلدان (ج3) يقول فيها: «وفي حديث عاصم بن سفيان الثقفي أنهم غَزَوْ غزوة السلاسل ففاتهم العدو فأبطأ ثم رجعوا إلى معاوية، قال أبو حاتم بن حيان عقيب هذا الحديث في كتاب الأنواع: غزوة السلاسل كانت في أيام معاوية، وغزوة ذات السلاسل كانت في أيام النبي ﷺ ، قلت: ولا أعلم ما هذه السلاسل» (ص 233).

وفي رأينا أن ذات السلاسل نبع ماء في جنوب الأردن في منطقة الديسة ورم، ذلك أن أنقى ماء في الأردن ومنطقة الشام وجزيرة العرب هي مياه هاته

المواقع، بسبب طبيعة أرضها الرملية التي تعمل على تنظيف وتنقية المياه النازلة من الأمطار، كما أن المتعارف عليه أن أرض جذام هي جنوب الأردن، وبالذات ما بين معان وتبوك، رغم انتشارها في سائر أنحاء الأردن.

ومن الواضح أن كلمة السلاسل مشتقة من السلسل، وهو صوت الماء النقي الجاري إذا انحطّ من مكان مرتفع قليلاً إلى حوض، أو إذا جرى في وادٍ منحدر، بحيث يكون صوتها موسيقياً، وكأنه ينطق كلمة سلسبيل. وأما ذات السلاسل، أي ذات الماء السلس النقي العذب المتسلسل في جريانه كأنه سلسلة متصلة.

-23-

ســواد الأردن

السواد قد يطلق على المنطقة شديدة الخضرة الدائمة مثلما هو حال الغابات في الأردن وقوامها الرئيس السنديان، مع وجود أشجار أخرى مثل البلوط والبطم والعبهر وغير ذلك. وتطلق على الأرض المروية بماء الأنهار على مدار السنة أيضاً، مثلما هو الحال في العراق حيث يقال: سواد العراق، ومثلما هو الحال في غور الأردن، حيث يقال: سواد الغور.

وقد يطلق الاسم على الأرض ذات الطبقة السوداء من الخارج مثل مناطق الحرّة المكسوّة بالحجارة البركانية، وتنتشر مسافات بعيدة؛ ويقال لها الدّحل إذا كانت الطبقة العليا التي تغطي تربتها من الحصى الصغير أو التراب وكلها ذات لون أسود أو قريب إلى السواد أو الاحمرار، ويقال لها الحرّة إذا كانت من الحجارة السوداء حيث تنعكس عليها أشعة الشمس فتزداد حرارة أكثر مما سواها من حولها، فهي سوداء شديدة الحرارة، إذن فهي حَرَّةً.

وقد ذكر المؤرخون كلمة سواد الأردن لِيُطلق على مناطق البلقاء، وجرش، وغور الأردن، بسبب دوام خضرتها على مدار السنة في مطلع الفتوحات

الإسلامية. ونجد ما قلناه ضمن ما أورده الحموي (ق 7 هـ) في الجزء الثاني من كتابه: معجم البلدان الجزء الثاني والثالث، حيث يقول:

«أحدهما: (أي موقعان يسميان السواد بالأردن) نواحي قرب البلقاء، سُمّيت بذلك لسواد حجارتها، فيما أحسب، والثاني يراد به رستاق العراق وضياعها » (ج 3: 272)، وأما الموضع الثاني فقال عنه: « وهي (أي جرش) شرقي جبل السواد من أرض البلقاء وحوران من عمل دمشق » (ج2 ص127).

-24-

سَـواقـة

مكان في البادية الأردنية، يقع الآن (2006) على الطريق ما بين عمان ومعان، وعلى بُعد حوالي خمسين كيلومتراً إلى الجنوب من الأولى، وتم إنشاء سجن فيه في الثمانينات من القرن العشرين، سمي مركز الإصلاح والتأهيل، وهو إلى الغرب من الطريق على جانب وادي يُسمّى: الثوانة (بالثاء والتاء)، وفي جزئه الشرقي قصر أثري أموي قديم يدعى: قصر التّوانة. وقد مرّ بها المؤرخ ابن طولون الصالحي في عام 920هـ/ 1514م في رحلته إلى الحج ذلك العام.

-25-

سَيْحـان

وهي قرية أثرية قديمة وهامة، وعامرة في هذه الأيام (مطلع القرن الحادي والعشرين) وتقع في عارضة عباد من أرض البلقاء، وفيها آثار قديمة، ونبع ماء يعود للعصور الغابرة، وأغلب الظن أنه يعود للعصر العموني، حيث تم بناء حجارة على النبع على شكل أقواس، ثم فتحة تحطيها الحجارة المشذّبة، بقيت صالحة للشرب حتى الآن (2006)، وهي تسقي مساحات من البساتين والقرية من قرى عشائر بني عباد.

وهناك خلط أحياناً بين سيحان البلقاء التي ذكرناها، وشيحان الكرك وهي الجبل المعروف بهذا الاسم. وقد كانت منطقة عارضة عباد (وفيها سيحان) ضمن الأراضي التي احتلها الملك سيحون ملك حشبون (حسبان) والذي قضى اليهود عليه وعلى مملكته كما ورد في التوراة، وأوضحنا في ذلك الباب، وفي رأينا أن الملك سيحون (سيحان) هو الذي بنى بلدة سيحان وسماها باسمه بعد احتلال المنطقة مثلما هو حال بعض الزعامات.

-26-

الشّــراة

سلسلة الجبال بهذا الاسم التي تُسَمّى، التي تبدأ من منطقة الفجيج والشوبك وتنتهي في منطقة شمال جزيرة العرب. وقد اختلط الأمر على بعض المؤرخين والجغرافيين العرب، ولم يميّزوا بين السراة بالسين المهملة، والشراة بالشين المعجمة.

وفي رأينا، وكما نرى على أرض الواقع، أن جبال السراة هي تلك الممتدة من عدن، على طول أرض جزيرة العرب، حتى شمال هذه الجزيرة، وبالذات إلى أن تبدأ حدود بلاد الشام (إن شئت)، حينها تسمى جبال الشراة، وهي مشهورة ومذكورة لدى الأمم القديمة التي عاشت بالأردن، وكانت بعض هذه الأقوام تعبد إلهاً اسمه «ذو الشرى». وكانت هذه الجبال عامرة بالخيرات والقرى والسكان وخصوبة التربة وتوفر المياه، قبل أن يصيبها التصحّر الذي نراه الآن. وكلمة «ذو الشرى» أي حامي الشرى، وصاحب السلطة المطلقة عليها.

وقد اختلط الأمر عند الهمداني (ق4 هـ) في كتابه صفة جزيرة العرب، حيث اعتبر أن السراة هي تلك الجبال التي تبدأ من عدن وتنتهي إلى أقصى الشام، شاملةً بذلك جبال الشراة الأردنية بين ثناياها. وهي في زمن الهمداني (ق4هـ)

من منازل جهينة، حيث يقول: « وتنفرد دار جهينة من حدود رضوى والأشعر (...) إلى تبوك إلى جبال الشراة ثم إلى معان ثم راجعاً إلى أيلة » (ص 273).

أما اليعقوبي الذي عاش في القرن الثالث الهجري (ت 293 هـ)، والذي عاصر الهمداني (ت 334)، فقد تحدث عن الشراة، في معرض حديثه عن جند دمشق، إذ يقول: « ولجند دمشق من الكُورَه: الغُوْطَةْ وأهلها من غَسَّان (...) والشراة ومدينتها أذرح وأهلها موالي بني هاشم وبها الحميمة » (البلدان، ص326).

وقد ذكرها (أي الشراة) العديد من الرحالة والجغرافيين، ومنهم: الاصطخري (ق4هـ ، ت346هـ) في كتابه مسالك الممالك؛ حيث جاءت عنده في معرض تحديد ديار العرب، إذ قال: « ثم يمتد عليها من أيلة إلى مدينة قوم لوط والبحيرة المنتنة التي تُعْرف ببحيرة زُغر إلى الشراة والبلقاء » (ص 13). والأمر نفسه ينقله ابن حوقل عن الاصطخري (ق 4 هـ ، ت 367 هـ).

أما المقدسي (ق4 هـ ، ت380 هـ)، فيعطي الشراة وحدة مستقلة عن أجناد حمص ودمشق والأردن وفلسطين، ويقول: «أما الشراة قصبتها صُغَرْ ومدنها مآب مُعَان، تبوك، أذرح، ويلة، مِدْين» (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص154-155).

وقد ذكر المقدسي (ق 4 هـ) الشراة كواحدة من اثني عشر طريقاً توصل إلى مكة المكرمة عبر بلاد الشام؛ فيقول: « وأما طريق الشراة فإنها من صُغَرْ إلى وَيْلَةْ أربعة مراحل، وهاتان الطريقان، طريق مصر وطريق الشراة، وإن كانا في الشام فإن السلوك في بادية وَحْشَةْ » (ص 249).

كما ذكرها أبو عبيد البكري (ق 5 هـ) والحازمي (ق 6 هـ) والإدريسي (ق 6 هـ) وياقوت (ق 7 هـ).. الخ، حيث يرد الكلام مكرّراً لا ضرورة لإعادته. ونعود إلى الاصطخري (ق4 هـ) الذي ذكر كلاماً مهماً عن الشراة والجبال في أن عاصمتهما أذرح، وهما (الشراة وجبال) زمنه (ق4 هـ) كانتا غاية في الخصب وكثرة أشجار

الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان » (ج1: ص355). وهذا دليل واضح أن الأردن كانت عامرة، وأن مثل هذه الأشجار لا تكون إلا بوجود السكان والأيدي العاملة التي تقوم بالعناية بها؛ واستهلاك إنتاجها، فضلاً عن ازدهار التجارة الداخلية والخارجية لفائض الإنتاج مع الأقاليم الأردنية والبلدان المجاورة.

وفي القرن السابع الهجري، ذكر ابن سعيد المغربي (ق 7 هـ ، ت 685 هـ) أن « جبل الشّراة في جنوبي البلقاء وخَلْفه البريّة ويسكنه الآن فلاّحون وفي جهته الحُمَيْمَةْ » (كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، ص 85). وقوله بوجود فلاحين يتفق مع ما ذكره الاصطخري في القرن الرابع الهجري (ت 346)، وبين وفاة الرجلين 339 سنة، أي ثلاثة قرون نصف، بقيت فيها جبال الشراة، وجبال الطفيلة (جبال) عامرة بالزراعة، وآهلة بالسكان.

إن عبارة الاصطخري (ق 4 هـ) أن هذه المنطقة (الشراة وجبال)، « غاية في الخصب وكثرة أشجار الزيتون.. الخ» وما ذكره ابن سعيد المغربي (ت 685 هـ) بعد ثلاثة قرون أنها يسكنها الفلاحون، تعطي معنى واحداً وهي الخصب والزراعة والاستقرار والإعمار والقرى، والتصدير، والأمن والحماية، وأن الأردنيين قادرون على حماية أنفسهم.

وهناك إشارة في القرن الثامن الهجري من شيخ الربوة (محمد ابن أبي طالب الدمشقي (ت 727 هـ) في كتابه: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر؛ يشير أن هذه الديار كانت تتبع مملكة الكرك، ويقول: «مملكة كرك ومن جنده الشوبك حصن، وإقليم الجبال، ومدينة الشراة » (ص 213). وبذلك نجد أن الجبال (منطقة الطفيلة الحالية) أصبحت إقليماً، وكذلك الشراة حيث كان فيها مدينة عاصمة لها، والأغلب أنها أذرح، لأن فيها سيل ماء غزير، وهي مدينة قديمة، ومن حولها سهول ووهاد خصبة للغاية.

ونعود إلى القرن الثالث الهجري، حيث نجد البحتري (ت 284 هـ) يذكر الشراة في شعره، في معرض مدحه لمحمد بن عبدالله بن طاهر:

زار العـــراق ولم يطأهـــا مـــنزلاً وأتـى الشـراة فأمْسكت بجِداس
فأقــام حــتفاً للمســيء وروضــة للمحســنين كروضــة البســباس

فالممدوح لم يرغب الإقامة في العراق، ولم يتخذها منزلاً له، ولكنه وجد طيب المكان والسكان في بلاد الشراة الأردنية، حيث جمع الضدّين: إنه موت زؤام للمسيئين، لكنه روض معطار للمحسنين الملتزمين (ديوان البحتري، ج 2).

وقول حاتم الطائي (شاعر جاهلي):

سقا الله ربُّ الناس سَحّاً وديمةً جنوبَ الشَّراة من مآب إلى زُغَرْ

هل يريد مثلث الغم برهاناً على أهمية الأردن في عهود الوثنية والجاهلية والإسلام أكثر من هذه البراهين الناصعة؟

ومما يدل على أن أذرح كانت هي مدينة الشراة، رغم تحوُّلها أحياناً إلى زغر، ما قاله جميل بثينة، ذلك العاشق الأردني الذي هو من جنوب الأردن، إذ يقول:

ولمانزلـــنا بالجـــبال عشـــيّة وقـد حَبَسَتْ فيهما الشراة وأذرُحُ

إذن نجد جميل بثينة يتجول في ديار وطنه ما بين جبال الطفيلة (الجبال) والشراة، فإذا تعذر عليه زيارة الثانية لسبب من الأسباب (وقد حَبَسَتْ)، فإنه يؤول إلى الأولى؛ فكلاهما موطنه، وكلاهما خصب وعذيٌّ وجميل ومريح للنفس.

وأما ذكر بعض الجغرافيين المسلمين فيما أتى ذكره أن زغر عاصمة للشراة، تارةً، وتارةً أخرى نجد أذرح هي العاصمة. وذلك يدل على رحيل الناس إلى زغر في الشتاء حيث الدفء والخصب، والماء العذب المسمى: الصافية، والذي أدى إلى تسمية المنطقة بـ (غور الصافي)، وذلك هروباً من البرد القارص في أذرح والشراة والشوبك لارتفاعها من جهة، ومجاورتها الصحراء من جهة أخرى، وتصبح الحياة فيها صعبة في أوقات القرّ (في فصل الشتاء وتساقط الثلوج)، بينما تبدو سهلة هضيمة في الغور. وبالتالي فإنني أستطيع القول أن تداول العاصمة بين زغر وأذرح، كان شبيهاً برحلتي الشتاء والصيف، الأولى إلى اليمن والثانية إلى الشام.

والناحية الأخرى، أن زغر في الشتاء بلاد الإنتاج والخضراوات وأصناف النباتات والأطعمة، وذلك غير متوفر في هذا الفصل في أذرح، وأما في الصيف فيتحول غور زغر إلى أرض قاحلة، حارّة، موبوءة بالبعوض والناموس، وقلّة الطعام، فيتحرك أهلها إلى أذرح، حيث الهواء العليل، والماء السلسبيل، والإنتاج الغزير، والخير الوفير، ولا يحتاج الأمر للرحيل لأكثر من يومين في الذهاب ومثلها في الإياب بين الموقعين (الغور/ زغر) و(الجبل/ أذرح)، والله أعلم.

-27-

الشـوبـك

وهي كلمة آرامية أمورية عربية بمعنى « تارك »، و « ساكب »، وهي ترتفع 1230م عن سطح البحر، وقد كانت قلعة أدومية، ثم نبطية، ثم موقعاً إسلامياً متقدّماً، لمراقبة السهول الشرقية، والتحكم في الجبال الغربية. ويقال أنها كانت المواقع التي عاش فيها سيدنا أيوب عليه السلام الذي ظهر بالطفيلة الممتدة في الجوار الشمالي من الشوبك.

وقد صارت فيما بعد قلعة صليبية، وراحت بعض النشرات الصادرة عن الآثار تتحدث عنها كقلعة صليبية مع إهمال تاريخها الذي سبق هذه الحقبة. وكانت مركزاً للإغارة على القوافل التجارية والهجرات العربية والحجاج المسلمين، وقد سُمّيت Mons-Regalis ، ثم أقيمت على أنقاضها قلعة عربية عام 1918، وتمكّن أهل الشوبك نيابة عن الأردنيين من إخراج الأتراك من القلعة في الحرب العالمية الأولى في مطلع القرن العشرين.

وقد جاء اسم الشوبك بسبب وجوده في منطقة تشابك وتداخل الوديان والجبال والطرق والمُناخ، وتشابك الينابيع أيضاً؛ وإن ظن البعض أن ذلك جاء بسبب شعار الملك الصليبي الذي سكنها، الذي ربما اشتق ذلك من اسمها التاريخي، ذلك أن اسم الشوبك موجود في كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين المسلمين قبل الحروب الصليبية بقرون كثيرة كما أن الاسم قد يكون مشتقاً من تشابك أغصان الحدائق الغنّاء التي كانت تحت أقدام القلعة، وفي سيل نجل الذي انتهى الآن (2006) على الطريق المؤدي إلى وادي موسى والبتراء.

فالتنوخي (عز الدين آل علم الدين) في الفترة الأيوبية أو المملوكية، في كتابه الرحلة التنوخية: « أن يقدور الذي مَلَك الفرس سارَ في سنة 509 إلى بلاد ربيعة من طيء، وهي: باق والشراة وبلقاء والجبال ووادي موسى ونزل على حصن قديم خراب يُعرف بالشوبك بقرب وادي موسى فعمّره ورتّب فيه رجاله وبَطَلَ السّفر من مصر إلى الشام بطريق البرية مع العرب بعمارة هذا الحصن » (ذكر هذا النص ياقوت ج 3 ص 370).

وبذلك نجد أن حصن الشوبك كان قديماً، وأنه كان خراباً في مطلع القرن السادس الميلادي عندما احتل الفرس بلادنا الأردنية، وأن ملك الفرس يقدور قام بإعمار هذا الحصن ليقطع الطريق على العربان من الحركة والهجوم على جيشه أو على مصر التي أصبحت ضمن التاج الفارسي بأنه (أي حصن

الشوبك) أموري أردني قديم منذ زمن الأدوميين والأنباط، وربما زمن الحوريين قبل الأدوميين.

كانت الشوبك عامرة بجنّات الأعناب وسائر الفواكه إلى درجة أن أهل الكرك والشوبك كانوا يبادلون الزبيب والزيت والزيتون بالسمك المقدد مع أهل جزائر الغول الواقعة جنوبي مدين عند فم خليج العقبة، وهذا ما ذكره ابن سعيد المغربي في القرن السابع الهجري (ت 685 هـ).

ويقول المغربي في كتابه (بسط الأرض في الطول والعرض): « جزائر الغول هي صِغَارٌ نَيِّفٌ (أي تزيد عدداً) على 100 جزيرة ويأوي إليها سودان (أي قوم سود، أو من السودان) عراة يتكلمون بكلام غَلْق ثقيل (أي ليسوا ذوي لسان قويم طليق، بل ثقيل في اللفظ والتعبير)، ولهم مراكب على قَدْرِهِمْ وبيوت من قصب وحشيش ولا عيش لهم إلا من السّمك يصيدونه ويجعلونه في ماء البحر للشمس وذلك تمليحة، ثم ينشّفونه دون ماء ويحملونه مقدّداً إلى الطُّور والسويس فيبيعونه (أي يتبادلون بيعه) من نصارى الكرك والشوبك بالزبيب والزيت والزيتون ونحو ذلك » (ص 64).

وذكرها شيخ الرّبْوَة (ق 8 هـ ، ت 727 هـ)، وجعلها واحدة من أجناد مملكة الكرك، وقال إنها حصن و « مدينة خصبة ولها فواكه كثيرة وعيون غزيرة » (ص 213) (كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر).

وفي رأينا، لا تكون هذه الجنات الغنّاء إلا متشابكة الأغصان، وارفة الظلال، مما يجعلنا نستوحي اسم الشوبك مباشرة، بعد معاينة مثل هذه البساتين والأشجار والفواكه، فضلاً عن تشابك الأودية والعيون والطرق والجبال، كما أسلفنا سابقاً.

وذكرها أبو الفداء (ق 8 هـ، ت732 هـ) في كتابه تقويم البلدان: على أنها من الشراة، وأنها كثيرة البساتين، وغالب ساكنيه من النصارى، هي شرقي الغور، ويقول: « وينبع من ذيل قلعتها عينان إحداهما عن يمين القلعة، والأخرى عن يسارها، كالعينين للوجه، وتخترقان بلدتها، ومنها شرب بساتينها، وهي في وادٍ من غربي البلد وفواكهها من المشمش وغيره مفضّلة وتُنقل إلى ديار مصر، وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض، وهي على تلّ مرتفع أبيض مُطِلٌ على الغور من شرقيّه (ص 228-229).

وقد أطنب ابن فضل الله العمري (ق8هـ ت749) في وصف الشوبك متغزّلاً بجمال طبيعتها وكثرة خيراتها، حيث يقول:

«والشوبك المنسوب إليه الكرك مدينة صغيرة أكثر في البر دخولاً منها وانحرافاً إلى التغريب في القبلة عنها، ذات أكواب من جداول الأنهار موضوعة، وسُرُر من مقاعد الأبراج مرفوعة، وفاكهة كما قال الله تعالى في الجنة: غير مقطوعة ولا ممنوعة » (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 214).

ويواصل قوله في المصدر والصفحة نفسها: « والشوبك فُتِحَ وقت فتوح الكرك بعد أن دامَ الحصار سنتين على الكرم، وأقطعهما الملك الناصر لأخيه الملك العادل، ولم يزالا في يده، حتى أعطاهما لولده الملك المعظم عيسى، فصرف إليهما العناية حتى ترك الكرك مدينة تُعْنَى بنفسها، وزادها تحصيناً وتحسيناً، وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى جعلها تضاهي دمشق في روائها، وتدفُّق مائها، وتزيد بطيب هوائها » (المصدر نفسه، والصفحة نفسها أعلاه).

وظهر بعد قرن من ابن فضل الله العربي (ق 8 هـ) مؤرخ آخر وهو غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري الذي عاش في القرن التاسع للهجرة، وتوفي بعد العمري بقرن وربع القرن، حيث توفي الظاهري عام 873 هـ وذكر في

كتابه: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك: « أن الشوبك تتبع المملكة الكركية، وأن المملكة الكركية ليست من الشام، وهي مملكة بمفردها وتسمى مآب (...) واستمرت الشوبك بيد الكفار إلى أن قدّر الله بفتحها، والشوبك مضافة إلى الكرك وهي حصينة أيضاً » (ص 43).

ومن هذا النص نخرج بما يلي:

1- أن الكرك كانت في القرن التاسع الهجري مملكة مستقلة عن بلاد الشام، وأن الشوبك كانت تابعة لها، وهذا مغاير ما أورده الرحالة من قبل ومن بعد، مما يدل على انفصال الكرك كمملكة، وهذا ما تؤيده كتب التاريخ.

2- إن اسم الكرك قد عاد إلى الاسم التاريخي القديم وهو: مؤاب، وإن كان التدوين جاء مغايراً بالإملاء، أي مآب بدلاً من مؤاب، وبذلك نجد التاريخ يعيد نفسه بالنسبة للأردن، ذلك أن الكرك، ثم الربة، ثم ذيبان (ديبون) كانت عاصمة المؤابيين. ومن أبرز ملوكهم ميشع الذي حرر الأردن من الاحتلال اليهودي، ودوّن انتصاراته هذه على مسلّة (حجر) ذيبان الموجود حالياً في متحف اللوفر في باريس، وقد رأيته (المؤلف) بنفسي عام 1998 هناك.

3- أن الشوبك تُذكر مرادِفة للكرك، فيقول كرك الشوبك، أو شوبك الكرك، كدلالة على ارتباطهما التاريخي والاجتماعي والجغرافي، والأهمية القصوى للسيطرة على أيٍّ منهما لمن أراد ضمان الاستقرار والاستمرار في الأخرى عند احتلالها.

4- أنها كانت بأيدي الصليبيين، وقدّر الله سبحانه فتحها وعودتها إلى العرب المسلمين والحمد لله ربّ العالمين.

وفي القرن العاشر الهجري، يكرر الرحالة سباهي زادة حيث توفي أواخر القرن العاشر (ت997 هـ)؛ أقول نجده يكرر الأقوال السابقة حول وجود البساتين والعيون

وأشجار الفواكه، وعيون الماء، وبخاصة تلك التي تنبع من جانبي القلعة، لكنه يضيف جملة واحدة أنها: «في شمال العقبة الشاقّة» ، أي إلى الشمال من النقب.

ومن الأدلة الأخرى على تلازم اسمي الشوبك والكرك معاً، ما ذكره الشاعر عمارة اليمني في رثائه لوالد صلاح الدين الأيوبي، حيث يقول:

لا شَـوْبَكٌ مـنه معصومٌ ولا كَرَكُ ولا خـليلٌ ولا قُـدْسٌ ولا زُغَـرُ

وبذلك نجده يذكر ثلاثة مواقع أردنية وهي: الشوبك، والكرك، وزُغَرْ (غور الصافي).

ومما يدل على أن اسم الشوبك جاء من التشابك، ما نجده في شعر العماد الأصفهاني (ت 1089 هـ)، الذي مرّ بالقرب من الشوبك في إحدى رحلاته، وأظنها رحلة الحج (في ق 11 هـ)، حيث يقول (ج 1 ص 265):

طـريق مصـرٍ ضـيِّق المَسَـالِكْ سـالِكُهُ لا شَـكٌ في مَهْـلِكِ
وحـبٌ مِصْـرَ حُـباً لِمَـنْ اوْقَعَـهُ في شَـبَكِ الشَّـوبكِ
لكـنّها مـن دونهـا كَعْـبَةٍ محجوبـة مـبرورة المَنْسَـكِ

وإن الحديث عن الكرك والشوبك، لابد وأن يُعَرِّج إلى شيحان، وهو جبل مرتفع صخوره من البازلت الأسود، والأسود الموشح بالبياض، ويشرف على ديار الكرك والبلقاء، وفلسطين. وقد قمت بوصف دقيق له في كتابي: في ربوع الأردن جولات ومشاهدات 1987، حيث ذكرته كشاهد عيان للموقع، فمن أراد التفاصيل يمكنه العودة إلى هناك.

وقد ذكرتها التوراة باسم شيحون، وهي كلمة مؤابية، على وزن ديبون، وأرنون، وديبون، إلا أن اللفظ المتأخر حوّل الواو إلى ألف، فأصبحت شيحان، وذيبان، وتحوّلت أرنون إلى وادي الموجب. وقد كانت بلاد الكرك تُسمّى:

مؤاب، وكتبها الرحالة المسلمون: مآب، بالألف وعليها مدّة، بدلاً من الواو والهمزة والألف.

وفي القرن السابع الهجري، ذكر علي بن أبي بكر الهروي (ت 611)، أقول ذكر في كتابه: الإشارات لمعرفة الزيارات « بلد مآب به قرية يقال لها شيحان، بها قبر ينزل عليه النور ويراه الناس وهو على جبل » (ص 18). وبذلك يتحدث عن قبر فوق قمة الجبل، وأن النور ينزل على هذا القبر. ومن المعروف في الموروث الثقافي للأردنيين دفن الموتى على رؤوس التلال، ويُفترض أن يكون هذا الجبل المرتفع مرقداً لأحد الأولياء، ولا يوجد ما يدحض هذه الرواية، ذلك أنه توجد آثار خراب على قمة التل شاهدتها (المؤلف) بنفسي عام 1987، كما ذكرنا في كتابنا: « في ربوع الأردن جولات ومشاهدات 1987 ».

وكرر أبو الفداء (ق 8 هـ ، ت 732 هـ) في كتابه المشار إليه سابقاً رابية تسمى شيحان بالقرب من الربّة (ص 247). وذكر ياقوت الحموي أن « شيحان جبل مشرف على جميع الجبال التي حول القدس » وذلك ما ذكره عنه صفي الدين البغدادي ج 2 مراصد الاطلاع (ص 824).

ولا نرى ضرورة للحديث عن الصافي المسمى الصّافية نسبة لصفاء ونقاء مائها، والتي كانت محطة للبريد ما بين الكرك وغزّة، كما أن الصحصحان مذكور كثيراً في أشعار البدو، وهو في بادية الأردن، وقد أشار إليه الأخطل، بقوله:

فياسَرْنَ بَطْنَ الصحصحان وقد بَدَت   بيوت بوادٍ من نمير ومن كَلْبِ
ويا مَنَ عن وادي العُقَابِ ويا سَرَتْ   بنا العِيْسُ عن عذراء دار بني الشُّجَبْ

فياسَرْنَ: أي سرن على يسار الموقع. ويامَنَ: أي سار على يمين الموقع.

فهو متحرك من الجنوب إلى الشمال، مروراً بوادي الصحصحان، حيث توجد منازل من بني نمير، ومن بني كلب، وهي عشيرة أردنية عريقة منها ميسون

بنت بجدل الكلبي، ومنها سيدنا زيد بن حارثة الكلبي ﷺ ، حِبّ رسول الله ﷺ ، وبذلك نجد الشعر يشير إلى أن الصّحصان وادٍ وليس جبلاً، وقد يكون اسمه مشتقاً من حالة جريان الماء ببطء، بحيث يبدو وكأنه راكد (صحصحان) أي هادئ راكد، يبدو للناظر أنه لا يجري، وهو يسير. والسبب هو الميلان الخفيف للأرض التي يتخذها السيل مجرى للتصريف. والصحصحان أيضاً الأرض المعشوشبة التي تُسْمن الإبل والمواشي من رعيها فتصحّ فيها وتسمن.

أما صِرْفَة: فهي في كتب الرحالة بفتح الصاد (صَرْفَة) وهي باللهجة الأردنية صِرْفَةْ، وهي قرية في شمال منطقة الكرك، وتعتبر واحداً من المزارات هناك، وقد ذكرها الهروي المذكور سابقاً أعلاه أن « صَرْفة قرية بها قبر يَزْعُمُون أنه قبر يوشع بن نون عليه السلام ، وقد زرناه فيما تقدّم وهذا هو الصحيح » (الإشارات لمعرفة الزيارات، ص 18).

والحقيقة أن قبر يوشع موجود بطرف السلط من جهة الشمال، حيث أنه موجود وعليه قبة ومسجد صغير، وهو بجانب تلّ تطل على الغور، وتسمى طَفّ أوشع نسبةً إليه. والطفّ هو جانب الجبل المشرف على منخفض من الأرض، عندما ينتهي الجبل فجأة، ويصبح طرفه جرفاً عميقاً شبه قائم، يعذر أو يصعب اجتيازه، لأنه عقبة كأداء من الأرض، وهذا ما يتصف به طفّ أوشَع.

أما الخمّان فهو موضع في ديرة بني صخر في البادية الأردنية الوسطى وهو مكان معروف بتوفر مرعى الإبل فيه، وقد أشار إليه حسان بن ثابت (ت 54 هـ)، ضمن مواقع أخرى جميعها في بلاد الشام، كان قد زارها وعرفها بنفسه، واشتاق إليها فذكرها في بيتين من الشعر قائلاً:

لِمَــنِ الــدّارُ أوحَشَــتْ بمعــانِ   بــين شــاطئ اليرمــوك فالخَمّــانِ
فالقَــرِيّاتُ مــن بــلاسٍ فداريّــا   فسَــكّاءُ فالقصــور الدوانــي

وبذلك نجد أن الشاعر العربي المخضرم حسان بن ثابت يتغنى بالأردن ويذكر أربعة أو خمسة مواقع أردنية في البيتين وهي: معان وشواطئ اليرموك، فرجم الحمّان، فالقريّات (وهما اسما لموقعين أحدهما أصبح جزءاً من السعودية، وآخر ضمن قرى بني حميدة في محافظة مأدبا). وأما سكّاء فهو مرج سكّاء الذي يسمى الآن مرج الحمام، وهو إلى الغرب من عمان.

وفي الإشارة إلى الضّاحِكْ برهان على أن وادي السرحان كان من بلاد الشام، وبالذات من الأرض الأردنية، وذلك زمن ياقوت الحموي (ق 8 هـ) حيث يقول عن الضاحك أنه: « ماء ببطن وادي السرحان في أرض بلقين من الشام». وهو معروف أنه جزء من بادية الأردن الشرقية. وقد أشرنا سابقاً أكثر من مرة إليه على أنه من البلقاء.

الطُّـرَّة

بلدة بالقرب من الحدود الشمالية الأردنية، مع سوريا، وهي ضمن المثل الأردني عند تحديد الأردن على السنة العامة، فيقولون من الدرّة إلى الطرّة. والأولى هي نقطة الحدود مع السعودية إلى الجنوب من العقبة بثلاثين كيلومتر، والثانية هي موضع حديثنا هنا على الحدود مع سوريا، والطرّة معناها الرقعة التي تُكتب عليها الأوامر العليا للسلطان، أو تاج الملك الذي يضعه على رأسه. وهي هنا قرية أردنية، إلى الشمال من الرمثا، وسكانها من العشائر الأردنية.

وقد ذكرها الرحّالة الخياري سنة 1080هـ/ 1669م أثناء مروره بالرمثا ثم بالطرة في طريقه إلى الشام، كما ذكرها الرحالة التونسي محمد السنوسي عام 1299هـ/ 1881م، وتحدث عن الجو الماطر وهو في الرمثا، ثم تجاوزها إلى الطرّة فالمزيريب.

-28-

الطفيلـــة

وهي مدينة في جنوب الأردن، وحاضرة محافظتها التي تحمل الاسم نفسه، وبها كليات تتبع جامعة البلقاء التطبيقية، وقد ذكرنا تفصيلات عشائرهم في كتابنا عشائر الأردن المنشور عام 2005. وتعني بالآرامية « الطين » لكثرة طينها ووحولها، ذلك أن تربتها غزيرة وخصبة، وهي طينية حمراء وبها غشاوة من اللون الأبيض تارةً، والرمال الخفيفة تارةً أخرى، وهي تربة خصبة بوجه العموم.

وكانت الطفيلة تشتهر بكثرة عيونها العذبة التي بلغت 365 عيناً بعدد أيام السنة، وكانت موجودة حتى قبل تأسيس إدارة الانتداب بالأردن، إلا أنها جَفّت الآن إلا قليلاً منها، كما تشتهر بزيتونها، وبرودة جبالها وتأخر موسم الفاكهة فيها عن موسمها في وسط وشمال الأردن.

كانت الطفيلة ضمن مملكة الأدوميين الذين اتخذوا من بصيرا عاصمة لهم، ولا زالت تحمل الاسم نفسه (بصيرا) التي تبعد حوالي ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة الطفيلة.

وفي الطفيلة عشائر تعود إلى بني كلب، وإلى الأدوميين، وإلى طلائع الفتح الإسلامي زمن سيدنا أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، انصهرت معاً في قالب واحد وبوتقة واحدة فوق أرض واحدة - هي الطفيلة والأردن.

وقد مرّت المنطقة بعدة تسميات، حيث كانت تسمى أدوم زمن دولة الأدوميين وهم أموريون أردنيون عرب، وكانت لهم مواقف مشرّفة في محاربة بني إسرائيل ومنعهم من دخول الأردن. وفي الطفيلة ظهر سيدنا أيوب عليه السلام وهو مدفون في ظهرها الشرقي في مرتفع يطل عليها من الشرق، أما بعض المصادر فترى أنه مدفون بجنوب سوريا في منطقة الجولان.

وفي الطفيلة ظهر سيدنا لقمان الحكيم عليه السلام، ثم تحوّلت تسمية المنطقة إلى: جبَال، ومفردها جبل، ذلك أن منطقة الطفيلة عبارة عن جبال، ولا توجد إلا القليل من السهول، الممتدة فوق قمم الجبال. كما تشتهر بكثرة مواقعها الأثرية التي تزيد على ثلاثمائة موقع، تعود للزمن الأدومي لتبرهن على أنها كانت عامرة، وماطرة وخصبة، ومنتجة، وذات حضارة وإنتاج غزير.

في زمن الفتوحات الإسلامية كانت منطقة الطفيلة تسمى: جبال، وكان اسم الطفيلة مقتصراً على البلدة بهذا الاسم، ثم توسّع ليشمل اللواء الذي تحوّل إلى محافظة بهذا الاسم في الثمانينات من القرن العشرين. وقد تباينت مراكزها وعاصمتها في الفترة الرومانية، والإسلامية، حيث كانت رواث، وغرندل، وهي بجانب بعضهما البعض، وأن أي امتداد أو إعمار لأيٍّ منهما يشمل الثانية تلقائياً. وقد ورد في بعض المصادر: حبال أي الحاء بدل الجيم، وهذا خطأ لفظي، أو إملائي، والصحيح أنها جبال بسبب ملائمة هذه التسمية مع طبيعة المنطقة. وكانت في الطفيلة قلعة ذكرها ياقوت الحموي (ق 8 هـ).

وقد ذكر العديد من المؤرخين قصة نقل الأصنام وعبادتها من الأردن إلى مكة المكرمة، وذلك على يد عمرو بن لحي سيد مكة في حينه. ويسرد البكري (أبو عبيدالله بن عبدالعزيز الأندلسي ت 487) في القرن الخامس الهجري، ضمن حديثه عن مؤاب أن عبادة الأصنام كانت فيها، وهو ربما يشير بذلك إلى حمامات عفرا في منطقة الطفيلة، حيث كان العرب يأتون للاستشفاء من جزيرة العرب؛ وأن سكان مؤاب كانوا من العماليق. وهذا خلط بين مؤاب التي تنتهي بوادي الحسا، وجبال وهي التي تمتد نحو الجنوب، حيث تبدأ من وادي الحسا إلى الشوبك حيث تبدأ جبال الشراة.

يقول البكري: « وذُكِرَ أن ابتداء عبادة الأصنام هو أن عمرو بن لحيّ خرج من مكة إلى الشام، فلما قدم مؤاب، من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق،

رآهم يعبدون الأصنام فسألهم فأعلموه أنهم يستمطرون بها ويستنصرون بها فتنصرهم، فسألهم إياها، فأعطوه هُبَل صنم، فقدم به مكة فنصّبه وأمر بعبادته » (المسالك والممالك 1/ 168).

كما ذكر البكري في المصدر نفسه ص 361 أن مؤاب كانت ديار ملوك الشام حيث قال: « وأما ديار ملوك الشام قبل سيل العرم فإنها كانت مؤاب من أرض البلقاء » (368:1). فيها قبر النبي هارون: « دُفِن هارون في جبل مؤاب نحو جبل الشراة (يكتبه السّراة) مما يلي الطور (وهي في أرض سيناء » (119:1).

وبذلك نجد أن اسم البلقاء كان في التاريخ يشمل الأردن، وسطاً وشمالاً وجنوباً (مؤاب والشراة) وَجِبَالْ حتى بحر القلزم (خليج العقبة) وتبوك (في شمال جزيرة العرب). ونجد أن مؤاب كانت تُكتب عندهم مآب أو مارب، وليس المقصود مارب اليمن التي كان فيها السدّ الذي يحمل الاسم نفسه، وإنما مارب الأردن التي تعني مؤاب/ مآب، وهي منطقة الكرك، التي توسّعت في التاريخ القديم لتشمل مناطق ذيبان (ديبون) ومأدبا.

1- نرى هنا أن الأصنام وعلى رأسها هُبَلْ خرجت من البلقاء، وأن عمرو بن لحي القرشي سيّد مكة أخذها لحاجته للمطر في أرض قاحلة ووادي غير ذي زرع وهي منطقة مكة المكرمة، ولكي يستنصر بها عند ملاقاة العدو. وبذلك سمع من هؤلاء الأردنيين استجلاب المطر، والنصر معاً وهو لا يحتاج إلى غير ذلك أصلاً في تلك الديار، فهو سيد قومه، وبلده مركز استقطاب العرب والحجيج، لكنه في بلاد قاحلة تحتاج إلى المطر، وفي جو من التناحر والتنافر يحتاج فيه إلى النصر.

2- كما أن مؤاب من أرض البلقاء كانت ديار ملوك الشام وبالتالي فهي بلاد خصبة رائعة، وهي (أي مؤاب) كما وصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري (ت 380 هـ)، في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة القاليم: « ومآب في

الجبل كثيرة القرى واللوز والأعناب قريبة من البادية ومؤتة من قراها » (ص 178)، ويقول المقدسي أيضاً: والتجارات به (أي إقليم الشام) مقيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطّين (...) ومن مآب قلوب اللوز » (ص 193).

إذن بلاد مؤاب/ الكرك هي من البلقاء، وهي بلاد خيرات زراعية، كما أنها مصدر الأصنام إلى بلاد الحجاز، ومنها خرج هُبَلْ ليُعبد من دون الله حول الكعبة المشرفة. وقد نزل بها هرقل في مائة ألف لمقابلة المسلمين في طريقهم إلى مؤتة.

وقال ياقوت أن مؤاب مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، وقيل أن أبا عبيدة ﷺ فتح مؤاب قبل فتح بصرى. ويُنسب الخمر إلى مؤاب (معجم البلدان 31:5) مما يدل على أنها كانت مليئة بالكروم ومختلف أصناف الفواكه واللوز، كما ذكر المقدسي، وأشرنا إليه أعلاه.

ويذكر أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان (ق 8 هـ) أن مؤاب مدينة قديمة درست، فقامت على أنقاضها قرية تُعرف بالربّة، وقال: « مآب وهي الربّة مدينة قديمة أولية قد بادت وصارت قرية تسمى الربة، وهي من معاملة الكرك أي من أراضي الكرك وتابعة لها في الإدارة، وهي عن الكرك أقل من نصف مرحلة في جهة الشمال » (ص 246/ 247).

وقال الحميري (القرن الثامن الهجري في الروض المعطار في خبر الأقطار: أن مؤاب بالشام من أرض البلقاء، وكرر ما قاله أبو عبيد البكري، القائل بنزول هرقل في أرض مؤاب لمحاولة دحر المسلمين قبيل معركة مؤتة.

-29-

طور هارون / جبل هارون

وهو جبل عالٍ إلى الجنوب من البتراء، يعرفه أهالي المنطقة منذ أمد بعيد بهذا الاسم ويعتقدون أن سيدنا هارون مدفون فيه، وعلى ما يُفترض أنه قبره،

قبّة، تظهر من بعيد، ويصعب الوصول إليها، إلا لمن يستطيع السير متسلّقاً وعراً من الأرض.

وأول من أشار إليه من الأجانب الرحالة السويسري البريطاني جون لويس بيركهارت عام 1812، عندما اكتشف البتراء في كتابه: (Travels in Syria & the Holy Land)، وتحدث عنها، وعن قبر هارون. ومنذ ذلك الحين، بدأ الرحالة الأجانب يتوافدون إلى البتراء وقبر هارون (جبل هارون). وكانت العربان يقدمون القرابين والذبائح عند ما يُفترض أنه القبر، وذلك احتراماً لقدسية المكان ومهابة النبي هارون.

ونجد في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين حكايات كثيرة حول موت هارون عليه السلام، من أن بني سرائيل اتهموا موسى بقتله لأنهما صعدا معاً، فعاد موسى، ولم يعد معه هارون، ولا أرى ضرورة لذكر تفاصيل هذه الأحداث.

الطيبـة

قرية إلى الشرق من جبل هارون، وهي إلى الجنوب من بلدة وادي موسى، وسكانها من عشيرة بني ليث واسمهم اللياثنة. والزائر للقرية الآن (2006) يجد أنها قسمان، القديم: ببيوته القديمة، المبنيّ من الحجر والطين، وكانت مساكن لبني ليث حتى مطلع الثمانينات من القرن العشرين وهو شأن غالبية قرى محافظتي الطفيلة ومعان؛ ثم نجد في القرية: مساكن من الإسمنت المسلّح، مع الحفاظ على البيوت القديمة التي أصبحت جزءاً من الموروث الثقافي والحضاري للمكان والسكان. وهناك قرى كثيرة بالأردن باسم الطيبة، وذلك في محافظة الكرك، ومحافظة إربد.

-30-

عجلـون

واحدة من حواضر الأردن الحديثة الثلاثة المسماة: أمّهات الأردن، وهي: السلط والكرك وعجلون. وتقع في الجزء الشمالي من الأردن، وهي مشهورة بتاريخها وقلعتها التي كانت تسمى الربض، ثم جرى تغيير اسمها في نهاية التسعينات من القرن الشعرين إلى: قلعة عجلون. وتشتهر هذه المدينة ومنطقتها بحادث العشيرة الأردنية: بني عوف الذين كانوا عصاة، فدعاهم أسامة بن المنقذ إلى سِماط (طعام) فاعتقلهم وصادر أراضيهم وبنى عليها الحصن الذي لا زال قلعة ماثلة للعيان حتى الآن. وقد انطبق الأمر على فرض الطاعة على بني رحمن من أهل السلط حيث كانوا عصاة، فأجبرهم الملك المعظم عيسى على الدخول في الطاعة وبنى حصن السلط. أما بنو رحمن فهم عشيرة الرحامنة من عباد وهم من أهالي يرقا الآن (القرن العشرين والحادي والعشرين).

ويذكر شيخ الربوة (ق 8 هـ) أن « مدينة عجلون فيها حِصْنٌ حَسَنٌ حصين، وفيه أمياه جارية وفواكه كثيرة وأرزاق غزيرة وهو مُشْرِف يُرى من مسيرة أربعة أيام » (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص 200).

ويؤكد أبو الفداء (ق 8 هـ ، ت 732 هـ) أن عجلون تسمى: الباعوثة، وإنني (المؤلف) لا أتفق مع أبي الفداء، ذلك أن باعون قرية من قرى عجلون، وربما أدى هذا إلى الخلط غير الواضح، بحيث أطلق اسم الباعوثة بدلاً من باعون وعجلون، ونلاحظ أن الكلمتين تنتهيان بالواو والنون، وهي لغة الأردنيين العرب القدامى، زمن العمونيين والباشانيين الذين كانت عجلون ضمن مملكة باشان، وتارةً أخرى ضمن سيطرة الباشانيين. ذلك أن السيطرة كانت عملاً إدارياً، أما ماهية المنطقة فتبقى تقريباً كما هي لوقت طويل أو قصير، أو لبعض

الوقت. وبالتالي فإن تبعيّتها لباشان أو عمون إنما كان بسبب السيطرة والقوة، ولكن ولاء هؤلاء لأرضهم.

ويواصل أبو الفداء الحديث عن قلعة عجلون في كتابه أعلاه، قائلاً: « وعجلون حصن ورَبَضَهُ يسمى الباعوثة، والحصن عن البلد عن شط فرس، وهما في جبل الغور الشرقي: قبالة بيسان. وحصن عجلون حصن منيع مشهور، يظهر من بيسان وله بساتين ومياه جارية وهي شرقي بيسان وهو حصن مُحْدَث بناه عز الدين أسامة من أكبر أمراء السلطان صلاح الدين » (ص 244-245).

وفي عام 726هـ/ 1325م، وصل إليها الرحالة ابن بطوطة في طريق إيابه قادماً من نابلس، إذ وصف عجلون بقوله: « وهي مدينة حسنة، لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة، ويشقّها ماء نهر عذب». (تحفة النظار ج1: 256). وينتسب إليها عشرات العلماء في شتى العلوم والمجالات والاختصاصات، ذكرهم ابن حجر العسقلاني في القرن التاسع الهجري (ت 852هـ)، ومحمد بن عبدالرحمن السّخاوي في القرن التاسع الهجري والذي توفي مطلع القرن العاشر الهجري (ت 902هـ)، في كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع؛ أما ابن حجر فقد ذكرهم في كتابه: الإصابة في تمييز الصحابة.

-31-
وادي عَـرَبَـةْ

عَرَبَة تُلفظ لدى الأردنيين بفتح الباء، ولكنها وردت في بعض أشعار العرب القديمة بسكون الباء، وتطلق لديهم على ما يسمى بوادي عربة، وهو المكان الممتد من نهاية البحر الميت جنوباً، حتى العقبة على البحر الأحمر. وهي مشهورة بوجود مصانع النحاس زمن النبي سليمان عليه السلام ، كما كانت فيها

مصانع للحديد أيضاً في غابر الأيام، ومياهها الجوفية عذبة وعرفنا ذلك من خلال الآبار الارتوازية التي تم حفرها.

وتوجد الآن في وادي عربة مزارع النخيل والموز والبرتقال والخضراوات الموسمية التي يحين قطافها وموسمها، قبل سائر مواسم الخضار والفواكه في المناطق الأخرى من الأردن.

وقد تم فتح طريق يخترقها من العقبة حتى مثلث سويمة، ويواصل سيره حتى الشونة الشمالية، كما أشيدت فيها عدة قرى حديثة للحويطات والسعيديين والأحيوات، ومنها قرى: إقْطَرْ التي تمَّت كتابتها خطئاً قَطَر، وهي تُكتب كذلك لكنها تُلفظ بسكون القاف وفتح الطاء والسكون المفاجئ للراء. كما توجد قرية الريشة الحديثة أيضاً.

وأما لماذا سميت إقْطر، فهي مأخوذة عن قَطْرِ الإبل عندما تسير في قافلة واحداً وراء الآخر، أو إذا كانت سائرة وقد وردت الماء صادرة منه أو عائدة من المرعى وهي شبعانة، وقد أقْطرت، أي سار كل جمل وراء الآخر. وهو ما يجري في هذا الماكن عند ورود الماء أو العودة بطانا (شبعانة).

وقد أخطأ بعض الرحالة والجغرافيين واعتبروها من أرض فلسطين، علماً أن بطن الوادي يفصل هذا الوادي ليصبح شرقيه أردنياً، وغَرْبُهُ فلسطينياً. أما ما يذكره بعض المؤرخين عن واقعة بين المسلمين والروم في وادي عربة، فهو خطأ، ذلك أنها وقعت في غرندل في جبال الطفيلة، وقد شرحنا ذلك في موقع آخر من هذا الكتاب، وفي كتابنا Political History of the Jordanian Tribes up to 2005 . وفي مواقع متفرقة من هذا الكتاب مع بيان ما نراه حجة لذلك.

ومما ورد في شعر العرب (عَرْبَةْ) بسكون الراء، ما قاله الشاعر أكْلُب بن ربيعة بن نزار الأكْلُبي:

أبونـا رسـول الله وابـن خـليله بعَـرْبَةَ بَوّأنـا فَـنِعْمَ المُـرَكَّبُ
أبونـا الـذي لم تـركبِ الخيـلُ قبله ولم يَـدْرِ شيخ قـبله كيـف يركبُ

وقال شاعر آخر، وربما يكون أسد بن الحاجل:

وعَـرْبَةَ أرضٌ جَدَّ في الشّهْرِ أهلُها كما جـدَّ في شُـرْبِ الـنُّقَاخُ ظِماءُ

والنُّقاخ هو الماء البارد الزلال السائغ للظمآن.

-32-
عِفْـرى

يلفظها الأردنيون كما وردت في كتب الرحالة تماماً بكسر العين وسكون الفاء، وهي مياه معدنية إلى الشمال من مدينة الطفيلة في جبال ذات صخور رملية وعرة، وبها حمامات معدنية قديمة وقد زارها المؤلف (د. أحمد عويي العبادي) عام 1972. واشتهرت عِفْرى في التاريخ أنها المكان الذي جرى فيه صلب الشهيد فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي الأردني، وكان عامل الروم على معان وما حولها بما فيها مناطق الطفيلة وعفرى، وقد أسلم وأهدى إلى رسول الله ﷺ بغلة بيضاء وحِلَّة أخرى.

ولما بلغ الروم إسلام عمرو طلبوه، وأخذوه وحبسوه عندهم ثم أخرجوه ليصلبوه على مياه عِفْرى فقال أبياته المشهورة رحمه الله:

الا هـل أتـى سـلمى بـأن خليـلها على ماءِ عِفْرى بين إحدى الرّواحِلِ
عـلى ناقَـةٍ لم يضـربِ الفحـل أمُّهـا مُشَـذَّبةٌ أطـرافُها بالمـناجِلِ

وعندما قدموه للصلب، قال بيته المشهور:

بَـــلّغ ســـراة المســـلمين بـــأنني سَـــلْمٌ لِـــرَبّي أعظُمـــي ومقـــامي

ثم ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء.

ولست أدري ما هو السرّ في قتله على الماء، وربما يكون السبب لوجود العديد من الناس في موسم الاستشفاء، لِيَرَوْا بأم أعينهم مصير من يتحوّل عن النصرانية والعبودية للروم، إلى فضاء الإسلام ونوره والعبودية لله. وعندما يقول ألا هل أتى سلمى (وهي زوجته كما يبدو)، فإنما كان يخاطب الجمهور الحاضر هناك، كما أنه عندما يقول: بَلّغ سراة المسلمين، فإنما يتحدث إلى أناس حوله. وهذا يعني أن صَلْبَه وقتله كان بحضور العديد من العرب من رعيّته جاءوا حزناً عليه لحبّهم له، أو تنفيذاً لأوامر قسرية من الروم، الأمر الذي أوغرَ صدور العرب الأردنيين وساهم في انضمامهم لقوات التحرير والتنوير العربية الإسلامية.

وقد أشار الشاعر الأردني عديّ بن الرّقاع العاملي (ت 95 هـ) إلى عفرى بقوله:

عَـرَفْتُ بعِفْـرى أو برِجْلَـتِها رَبْعـاً رَمَـاداً وأحجـاراً بَقَيْـنَ بهـا سُفْعا

-33-

العقبــة

لقد تحدثنا عن العقبة في هذا الكتاب تحت عنوان إيلة/ وَيْلَة/ أو حاضرة البحر/ مجمع البحرين التي وردت في القرآن الكريم. ومع هذا فإن العقبة من الأهمية بحيث نجد من الضرورة التحدث عنها مزيداً من المعلومات التي بين أيدينا في أكثر من موقع، لأن لها أكثر من مجال ووجه أيضاً.

فهي تقوم على أنقاض مدينة أَيْلَةْ القديمة قبل الإسلام وبعده التي كانت من مدن الأدوميين الأموريين الأردنيين، وكانت قبلهم موضع الصراع بين القبائل الأردنية، كما ورد في التوراة، وأشرنا إليه في باب الأردن في الكتب السماوية. وكانت العقبة ميناء أدومياً أردنياً هاماً، ثم كانت أيضاً ميناء في القرن العاشر قبل الميلاد للنبي الملك سليمان بن داود، حيث كان يُجْلَب إليها القار والذهب والأحجار الكريمة والبخور، من جهة، كما كانت من جهة أخرى تصدِّر الحديد والنحاس المُستخرجَيْن من وادي عربة الأردني، ومن منطقة وادي فينان وضانا.

وفي زمن الأنباط عاد للعقبة ازدهارها، كميناء تصدير واستيراد للمملكة النبطية الأردنية من وإلى الخارج، وكانت ثغر الأنباط الأردنيين الباسم الحالم الذي يدرّ دخلاً هائلاً، وعسلاً سائلاً ساهم في ازدهار تلك المملكة النبطية العربية الأردنية على مدى خمسة قرون ونيّف. وكانت السفن تفرِّغ حمولتها من البخور والمواد النادرة الأخرى، الغالي ثمنه، الخفيف وزنه، وكان يأتي إليها من اليمن وشرق إفريقيا، وربما من بلاد الهند وجنوب شرق آسيا.

وفي زمن الرومان، صارت العقبة (ويلة/أيلة/حاضرة البحر/مجمع البحرين) مركزاً للفرقة العسكرية الرومانية العاشرة؛ أي بعد عام 106م وذلك بعد انتهاء دولة الأنباط وقوتها، وفي القرن الرابع الميلادي، أصبحت في عصر النصرانية مركزاً للأبرشية، وكان مطرانها عربياً أردنياً اسمه (غيث/غوث)، وقد حضر بعض المجامع الكنسية، وكانت هذه مرتبة مهمة في الديانة النصرانية. وبقيت أبرشيتها تدار من قِبَل القسّيسين والرهبان العرب الأردنيين، حيث مات فيها (غيث) عام 513 القديس وهو عربي أردني من عربانا، كما يقول عامة الأردنيين، ثم رُقّي إلى مرتبة البطريركية.

وكان بجانب العقبة بلدة اسمها عصيون جابر، وهي إيلات الحالية (!؟!)، وقد سُمّيت فيما بعد بـ «تلّ الخليفة»، وهي بالقرب من المرشرش/المرشّش الذي بقي أرضاً أردنية حتى مطلع الخمسينات من القرن العشرين، وقد وقعت بين يدي (أنا المؤلف د. أحمد عويدي العبادي) وثيقة تتحدث عن ذلك ومؤرخة (حسبما أظن) في عام 1949، ولكنها ضاعت بين عشرات الآلاف من الوثائق التي بحوزتي. وقد حصلت على تلك الوثيقة من وثائق شرطة معان، تتحدث أن مخفر المرشش كان تابعاً للواء معان في ذلك التاريخ، أي أنه جزء من الأردن، قبل إقامة إسرائيل؛ لكنه الآن أصبح ضمن الجزء المحتل إسرائيلياً.

كانت إيلة (العقبة) وعصيون جابر متصلتان بسبب ازدهارهما كما تم العثور على حروف عربية من الحرف المسند اليمني في عصيون جابر وإذا ما عدنا إلى العهد البطلمي (زمن البطالمة)، فقد أقاموا مدينة أسموها برنيكي على أنقاض عصيون جابر وإيلة الأدوميتين الأردنيتين العربيتين.

ثم إذا ما بزغ نور التوحيد والهداية، وأرسل الله سبحانه خير خلقه سيدنا محمد ﷺ ، هادياً للعالمين أجمعين، في القرن السابع الميلادي، ووصل سيدنا الرسول العظيم محمد بن عبدالله ﷺ إلى تبوك في غزوته لها عام 9هـ/630م، أرسل كتاباً إلى يوحنا بن رؤبة، وهو عربي كان على دين النصرانية، وبذلك نجد أن مطران العقبة بقي عربياً أردنياً من أول يوم على مدى القرون، حتى قام يوحنا بن رؤبة بنفسه وتشرّف بزيارة الرسول سيدنا محمد ﷺ ، وسَعِدَ برؤية وجهه الوضّاء، وجبينه المشعّ بنور الإيمان والسجود لله سبحانه.

كان يوحنا بن رؤبة عربياً أردنياً، ويعرف معنى المجاملات واللطف والهدايا، حتى مع من يختلف معهم في الدين، وهذه ثقافة الأردنيين بغض النظر عن المكان والزمان والدين، وأهدى يوحنا إلى رسول الله ﷺ بغلة بيضاء، وعندما خيّره الرسول الأعظم بين الإسلام والجزية، اختار يوحنا دفع الجزية،

رغم ما عنده من أخبار اليقين في التوراة والإنجيل عن قدوم سيدنا محمد ﷺ في وقته آنذاك، ولكنه العناد الأردني، الذي أصاب يوحنا من حيث العقيدة، واللطف الذي أصابه من حيث الزيارة.

وقد أمر رسول الله ﷺ بفرض دينار على كل بالغ راشد (أي قادر على الحرب) وكان عددهم 300 ثلاثمائة ذكر بواقع دينار عن كل رأس، ففرض ثلاثمائة دينار جزية على سكان إيلة مقابل بقائهم على دين النصرانية. وقد تبادل رسول الله ﷺ الهدايا مع يوحنا بن رؤبة الذي أهدى الرسول بغلة بيضاء، وأهداه الرسول بدوره بُرْداً من بُرْدِه. وقد وصلها سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ في طريقه لفتح القدس، حيث قضى ليلة في ضيافة مطرانها العربي الأردني. وقد ظهر من العقبة/ أيلة علماء كثيرون.

في عام 460هـ ، حدثت هزة أهلكت إيلة ومن فيها، وفي زمن الاحتلال الصليبي للأردن وبلاد الشام وفلسطين، لعبت العقبة دوراً مهماً في زمن صلاح الدين الذي تمكّن في 20 ربيع الثاني 566هـ الموافق 31/ 1/ 1170م من استرداد إيلة وتحريرها من الاحتلال الصليبي الإفرنجي (الخطط المقريزية ج1 ص327).

وفي القرن السادس عشر انتقل اسم عقبة أفيق الذي كان يطلق على نقب اشتار أقول انتقل إلى أيلة، وأعيد إطلاق أسماء جديدة على المواقع. فعقبة أفيق أو عقبة اشتار سميت النقب/ نقب اشتار، ثم النقب وهو الاسم الذي لا زال يُطلق عليه حتى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين)، أما العقبة فانتقل ليُطْلَقَ على إيلة وحدها التي أصبحت تسمى العقبة، حيث سميت في القرن السادس عشر عقبة أيلة، ثم جرى إهمال إيلة، وبقي اسم العقبة، وانتهى اسم عقبة الجبل، عقبة النقب، عقبة إشتار، عقبة أفيق، وسُمّي: النقب لأن ملوك مصر نقّبوا فيه الطرق للحجاج، أي مهّدوا الطريق لقوافل الحجاج ليسهل المرور معها وتجاوزها بدون مخاطر.

وقد بنى فيها السلطان قانصوه الغوري (906-922هـ/ 1500-1516م) قلعة، رمّمها السلطان العثماني مراد الثالث عام 996هـ/ 1588م. وقد نُقِشت العبارة التالية على أحد جدران القلعة: «أمر بإنشاء هذه القلعة المباركة السعيدة مولانا الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والملحدين محيي العدل في العالمين».

ونجد في الحوالية التركية لسنة 1323هـ/ 1904م ذكراً للعقبة أنها قضاء يتبع متصرفية المدينة المنورة، وفي حوالي 1910 أنها قضاء تابع للحجاز، وفي الكتاب البريطاني Handbook of Arabia المطبوع عام 1916 ذُكِرَ أنها تضم خمسين بيتاً. وفيما مضى كانت في عام 645هـ/ 1248م اتخذتها شجرة الدرّ محطة في طريقها لأداء فريضة الحج عبر البرّ عن طريق سيناء/ العقبة/ الحجاز.

وعثرت (شخصياً) على وثيقة مؤرخة في عام 1956، ونشرتها في كتابي مقدمة لدراسة العشائر الأردنية: أن أراضي العقبة كانت مقسّمة إلى ثلاثة أقسام أو أثلاث: ثلث للجازي، وثلث للنجادات وهما بطنان من الحويطات، وثلث لأهل العقبة. أما الآن (أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي) فإن ذلك ليس إلا من أوهام التاريخ للأسف الشديد، لعدم وجود من يعرف التاريخ أو يفهمه.

وتبقى العقبة مهمة جداً، لكنها تحولت إلى سهلة أمام الغرباء، وعقبة أمام الأردنيين، هذه الدنيا والأيام دول وتداول، ولكن السياسة الرسمية المتّبعة تستثني الأردنيين من الحسابات عند توزيع المنافع والمناصب وتضعهم في أتون النار عند المغارم، ولا ندري ماذا سيحدث للعقبة في قابل الأيام، فهي معرضة للزلازل عبر التاريخ، وإن فيها من الفسق والفجور والسوء في هذه الفترة (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين)، ما يجعلها مؤهلة بجدارة للغضب الإلهي، نستجير بالله من شرورها وشرور أنفسنا، آمين يا رب العالمين.

-34-
عَقَبَــة الصُّــوّان

وهي إلى الجنوب من معان على الطريق إلى بطن الغول وسَرْغ (المدوّرة)، وتعرف الآن (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين) بمحطة الشّيدية، حيث توجد مناجم الفوسفات التي تحمل هذا الاسم، ويتم تصديره عبر العقبة، ونقله إليها في قطارات خاصة تسمى سكة حديد جِطّيّة/ العقبة.

وسميت عقبة الصوان لأن حجارتها من صوّان، وفي القرن الثامن الهجري أشار إليها الرحالة العربية المغربي الشهير: ابن بطوطة (ت 779)، حيث مرّ بها أثناء مرافقته لموكب الحج الشامي في شوال عام 726هـ/ 1325م، وقال عنها في كتابه تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: « ثم ارتحلنا إلى معان وهي آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوّان، إلى الصحراء التي يقال فيها: داخِلُها مفقود وخارِجُها مولود، وبعد مسيرة يومين نزلت ذات حاج » (ج1: ص346)[1].

وذكرها الجزيري (ق 10 هـ)، وذكر أنها لا ماء فيها، ونزل بها ابن طولون في القرن العاشر الهجري (ت 953 هـ) في رحلته لأداء فريضة الحج عام 920هـ/ 1325م، ويقول أيضاً: « ثم يرحل (أي من معان) إلى عقبة الصّوان ويُسمُّونها الشيّديّة.. ثم يرحل إلى الطّبيلِيّة ».

وفي عام 1040هـ/ 1630م مرّ بها الرحالة كبريت (ق 1070 هـ) متوجّها إلى الحجاز، وقال بعد خروجه من معان: « ثم أتينا على عقبة الصّوان، منحدر على نصف ميل، وبها أحجار القدح الجيدة التي لا يكاد يوجد مثلها، ومنها تُنْقَلُ

(1) تسمى هذه الصحراء: بطن الغول، وهي أرض رمليّة، كانت مرعبة لمواكب الحجيج المارّ بها، ولكن بناء طريق معبد في نهاية الستينات ومطلع السبعينات (من القرن العشرين الميلادي) قد أنهى هذه المشكلة. وتسمى هذه الصحراء أو هذا الجزء السيئ من الطريق: بطن الغول، وهو من الرمال والقفار الموحشة.

للهدية (...) ورأيت العرب (أي سكان المنطقة) تأخذ القطن العتيق فتبلّه بالماء القراح، وتمسح به عرق الضأن من تحت إبطيه وفخذيه فإذا جفّ كان بمنزلة الضّرم »[1] (مرحلة الشتاء والصيف ص 232-233) والضّرم هو الحطب الناعم من العصف والأعشاب وسيقان الزرع وأوراقه سهل الاشتعال، سريعة. وفي لغة الأردنيين العامة تسمى الذرمة حيث يلفظون الذال بدلاً من الضاد، ولا يوقد الحطب إلا إذا اشتعلت النار من خلال الذرمة أو الضّرم.

-35-

عَلْعـال

أو عال العال وهي قرية إلى الشمال من إربد غالبية سكانها من عشيرة الرفاعية الأردنية، ومعنى عال العال باللهجة الأردنية: اي أفضل الموجود وتقال عندما يجد الإنسان ضالّته في الشيء، مكاناً أو طعاماً أو ركوبةً أو هواءً عليلاً أو استراحة أو أمناً أو منزلاً. أو حاله وحال أهله، فيقال: إنها عال العال، أي أفضل ما ينبغي، وأفضل الموجود.

وأما ما ذكره ياقوت من أنه جبل مشرف على البثنيّة بين الغور والشراة، فهو نفس الجبل أو المكان الذي أشار إليه صفي الدين البغداوي (ق 8 هـ) في كتابه مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (ت 739)، حيث قال أن علعال «جبل مشرف على السّلْع من الشام بين العُقَدِ وجبال السّراة» (ج2: 956).

والمقصود لدى الحموي والبغداوي ليس عال عال إربد/ شمال الأردن، وإنما المقصود تلّة مرتفعة في محافظة الطفيلة وهي إلى الجنوب من الرشادية على غرب

---

(1) الضَرْم: هو الحطب الناعم السهل الاشتعال، والمفرد ضَرْمَةٌ، ويلفظها الأردنيون: ذرْمة، بتحويل الضاد إلى ذال معجمة وتكون مقدمة لاشتعال النار في الحطب الغليظ أو الرطب، لذا توضع من تحته لأن النار تصعد للأعلى بلهبها وسناها، حتى يجف الحطب، ويبدأ بالاشتعال بعد انتهاء احتراق الذرمة/ الضَرْمة.

الطريق المؤدي إلى القادسية والشوبك. وتسمى التلّة: العويلية وليس عال العال وهي تصغير التحبب لكلمة العالية في لهجة الأردنيين، وهي مرتفعة جداً، وتُطلّ على الشراة شرقاً وجنوباً وعلى الجبال (جبال الطفيلة شمالاً) وعلى ضانا ووادي عربة والسّلع غرباً، وبالتالي فإن وصف الحموي والبغداوي دقيق لهذا المكان، وينطبق عليه، وليس على عال العال الموجودة شمال إربد في شمال الأردن.

وعندما كنت (المؤلف) قائد مقاطعة شرطة الطفيلة عام 1972، دُعيت والمتصرّف لتناول طعام الغداء في ظلال الأشجار فوق تلّة العويلية فاقترحت على المتصرف أن نسمّي قرية بير العطاعطة وكانت مؤلفة من عدة بيوت محدودة على أصابع اليدين، أقول نسمّيها القادسية فوافق ووافق الحضور جميعاً، وكتب المتصرف في حينه إلى الداخلية وتم تغيير اسم بئر العطاعطة إلى اسم: القادسية وهو الاسم الحالي لها.

وقد كان اسم بئر العطاعطة منسوباً إلى نبع في سفح الوادي أشيد عليه بناء دائري من الإسمنت، وقد رأيته (المؤلف) بنفسي في عام 1972، ومع الزمن أزيح البناء، وتوسّعت القرية حيث رحل إليها أهالي ضانا وأصبحت مزوّدة بالبنية التحتية العصرية اللازمة.

أما عَلاَن: فهي قرية باللفظ من عال العال، والعويلية، ولكنه نبع ماء اعتادت الإبل أن ترده فسُمّي اشتقاقاً منه والعَلَلْ هو شرب الإبل الثاني، أي عندما ترتاح بعد الشرب الأول، ثم تعاود التزود شرباً من الماء قبل أن تغادر إلى القفار. أما الشرْب الأول فيقال له: النّهَلْ. والعَلَلْ هو ماء بحسمى من ديار جذام.

وفي حِسْمى قال عنترة بن شداد:

سيأتيك عنّي وإن كنت نائياً ... دُخان العَلَنْدِيْ دون بَيْتِيَ مِذْوَدُ
قصائد من قبل امرئ يحتذيكُمُ ... وأنتم بحِسْمى فارتدوا وتقلّدوا

أما العلندي: فهو شجر صحراوي معروف ينبت بهذا الجبل المسمى باسمه، فأصبحت الكلمة تُطلق على هذا المكان أكثر منها على هذا النوع من الشجر، وفي ذلك يقول الشاعر الراعي، كما ورد في ياقوت الحموي (معجم البلدان 147:4):

تحمَّلْنَ حتّى قلت لَسْنَ بوارحاً   بذات العلندى حيث نام المفاخِرُ

أما عَمتًا: فهي غور أبي عبيدة الحالي، حيث تشرّف ثراها بتوسُّد أمين الأمة ﷺ ، ممّا غيّر اسمها القديم ليصبح حسب اسم الصحابي الجليل، وقد ذكرها ياقوت (ق 7 هـ) في معجم البلدان، قائلاً: « قرية بها قبر أبي عبيدة بن الجراح ﷺ ، ويقال: هو بطبرية، وقال المهلّبي: من عمّان إلى عمتا، وبها يُعْمَلُ النيل الفائقة، وهي في وسط الغور؛ إثنا عشر فرسخاً، ومنها إلى مدينة طبريا إثنا عشر فرسخاً » (ج 153:4).

والحقيقة أن مرقد سيدنا أبو عبيدة في غور البلقاء، وليس في طبريا، وله وقف أعطي له منذ زمن المماليك، وتم تجديد مسجده وتوسيعه في التسعينات من القرن العشرين، وضريحه داخل المسجد، بمحاذاة الجدار الغربي (على يمين المصلّين). وبالقرب منه ضريح ضرار بن الأزور ﷺ ، ومنطقته تسمى غور ضرار أيضاً. وتسقى المزروعات فيهما من مشروع قناة الغور الشرقية.

وقد ذكرها الإدريسي في القرن السادس الهجري (ت 560 هـ) في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، إذ قال: « كورة الأردن وأكبر بلادها مدينة طبرية، ومنها اللّجون يقصد الموجودة في شمال الأردن وليس التي في منطقة الكرك وتحمل الاسم نفسه ومنها كورة السامريّة، وهي: نابلس، وريحا، وزُغَر وعمتا..» وقال في موضع آخر: « عمتا مدينة الغور » (377:1 ، 363:1).

إذن يذكرها الإدريسي في القرن السادس الهجري أنها مدينة الغور، وذلك يعني أنها عاصمة الغور، وهذا دليل على ازدهار الأردن وإعماره، عندما كان لأهله، وقد كان في نعمة غامرة قبل أن تغزوه الطيور المهاجرة عبر القرون التاسع عشر والعشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين.

ولم يقتصر الأمر على ذكرها في القرن السادس الهجري، بل إنها وبعد مائتي عام بقيت مدينة وعاصمة للغور، حيث ذكرها شيخ الربوة في القرن الثامن الهجري (ت 727) على أنها مدينة الغور – أي عاصمته (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص 201).

وإذا قال قائل أن ذلك كلام لا برهان على وجودها عامرة خلال هذه القرون، وجدنا الإجابة لدى ياقوت الحموي الذي عاش في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري وتوفي في 626، حيث يذكرها على أنها «قرية بالأردن، بها قبر أبي عبيدة بن الجراح، وهي من قرى الغور» والقرية عادةً تعني المدينة، وبالتالي نجد ثلاثة براهين أنها كانت عامرة في القرون السادس والسابع والثامن الهجري، وهو على عكس ما يقوله الحاقدون على الأردن أن بلادنا صحراء لا سكان فيها ولا طعام ولا ماء، أليس الذي ذكرنا برهان كافٍ؟.

-36-
متفرقــات

العُمَرِي

تُلفظ بفتح الألف وسكون اللام والعين وفتح الميم وكسر الراء، وهي نقطة حدود أردنية مع جزيرة العرب، وكانت من بلاد البلقاء، وبمعنى آخر كانت البلقاء تمتد لتشمل الأزرق والعمري والهزيم ومناطق البادية والصحراء المحاذية والجوف ووادي السرحان، وقد بقيت كذلك حتى 1299هـ/ 1881م حيث مرّ بها الرحالة

التونسي: محمد السنوسي في طريق عودته من أداء فريضة الحاج في هذا العام المذكور توّاً، حيث ذكر الأزرق والْعُمَرِي أنهما بجوار البلقاء، ويقول: « وفي جوار تلك الجهة (أي البلقاء) قريتان: أزرق وَعُمَرِي، وبالأولى قلعة خَرِبَة ولعلّهما اللذان كانا يُسَمَّيان خان الزيت وخان الزبيب سابقاً » (الرحلة الحجازية 257:2).

العُنْصُـرْ

نبع ماء في جبال الشوبك، وهو مشهود بنقاء مائه وعذوبته وكان قوياً يدير الطواحين، وإن أصبح الآن ومياه الشوبك بشكل عام خفيفة، كما غارت الكثير من العيون بعد سحب مياهها إلى محافظة الطفيلة. (انظر كتابنا: في ربوع الأردن جولات ومشاهدات 1987).

عْـنِيْــزَة (بسكون العين والياء وكسر النون، وفتح الزاي – في لهجة الأردنيين)

محطة من محطات الحاج على بُعد خمسة وأربعين كيلومتراً إلى الشمال من معان، توجد فيه قلعة عثمانية قديمة مهدّمة الأركان الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين)، وتقع في إبط جبل صخوره وترابه من الحرّة السوداء، وإلى الشمال من عنيزة يوجد مثلث الطريق الذي يؤدي إلى الشوبك، ويرتبط بالخط الصحراوي الحديث، وهذا ما أعْرِفه شخصياً بالذات.

تسمى في اللغة الفصحى، والأشعار، وكتب الرحالة المسلمين عُنَيْزَة بضم العين وفتح النون والزاي وسكون الياء. ولا أدري من أين جاءت التسمية لأنها قديمة، وقد تكون تصغير العنز وهي أنثى الماعز أو الغزلان أو تصغير للتقليل، أو اسم فتاة أو ما إلى ذلك والله أعلم.

وقد ذكرها صلاح الدين الصفدي أثناء رحلته للحج في سنة 755هـ/ 1354م (ت 764) في كتابه: حقيقة المجاز إلى الحجاز، الذي نقله إلينا الجزيري من أهل القرن

العاشر الهجري بقوله: « ورحلنا منها (أي من منزلة الحسا) ولم يضيء لنا من النجوم سراج وطلبنا عُنَيْزَة منزلاً، وظننا أن فيها مَنْهَلاً، فقلت (أي الصفدي):

رَحَلْنا المطايا سائرين إلى الحسا   وكُلٌّ غدا مِمّا يعانيه قد كَلاّ
فكم جَمَلٌ لم يَبْقَ فيه تجَمُّلٌ   وكَمْ كَبْشُ حربٍ في عُنَيْزَةَ قد ذلاّ»

(الجزيري: الدرر الفرائد المنظّمة 1258:2)

وأما ما ذكرناه من معرفتنا، فنجد أنه الحال نفسه ما كان عليه الموقع في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، استنباطاً مما ذكره المؤرخ ابن طولون الصالحي في رحلته لأداء فريضة الحج عام 920هـ/ 1514م، أي قبل الاحتلال التركي للأردن بسنة واحدة، حيث يقول: « ثم رحلنا أوائل فجر الغد فاستقبلنا ريح شديدة وبعض مطر، فمررنا على خان عنيزة قبل الظهر فرأيته في أرض فلاة حمراء بحجارة سود صغار، وهو على يمين الذاهب، وقبليه بغرب بركة كبيرة بحجارة، ثم عشّينا بأرض فلاة قريب أرض معان قبيل العصر والريح شديدة ».

ومن خلال خبرة المؤلف (أنا) ومعرفته، فإن الرياح في هذه المنطقة شديدة وسريعة وباردة، ذلك أنه لا توجد جبال أو أشجار أو حواجز بناء تخفف من سرعتها، وبالتالي تندفع بقوتها، بل وتزداد قوة كلما اتجهت شرق، وكما يذكر الجزيري (ق 10 هـ) لا يكاد البرد ينقطع عنها صيفاً ولا شتاء ويذكر أيضاً أنه يتم جلب المؤونة للحجاج من قلعة الشوبك، كما يأتي العربان بما لديهم من ناتج لبيعه على ركب الحجاج، ثم يكون الرحيل بعدها إلى معان. ويؤكد الرحالة كبريت عام 1040هـ/ 1630م البرد الشديد في عنيزة.

ونجد من الضروري نقل ما ذكره الخياري في رحلته الشهيرة عام 1080هـ/ 1669م التي أشرنا إليها في حديثه عن الزرقاء، فيقول في كتابه تحفة الأدباء الجزء الأول: « ثم سِرْنا هنيهة فمررنا بمحلٍّ يقال له عنيرة مشتملة على بركة ماء وبناء

يقال له خان عنيزة، ويقال أنه كان بالمحلّ ماء يرده الحاج، ثم اختلف الناقلون فقيل من الأمطار، وقيل كان من العيون والنهار، وتمتلئ البِركَة من ذلك الماء على الرأي الزاعم أنه عين أو نهر » (تحفة الأدباء 83:1).

ولابد من القول هنا، أن البركة التي يتحدث عنها الخياري كانت تمتلئ بماء عين نجل وهي تنبع من رأس وادي الشوبك، وكانت سيلاً قوياً كافياً لإرواء المزروعات من أشجار وخضراوات فضلاً عن العربان ومواشيهم، وأذكره (المؤلف) شخصياً عام 1968 عندما كنت ضابطاً بمعان، وكانت الشوبك تابعة لمعان أن هذا النبع كان موجوداً على شكل سيل ضعيف يروي مساحات محدودة من الأراضي المحاذية لمجراه، وهي أقل بكثير من المساحات التي كان يرويها من قبل.

وأذكر أيضاً وجود آثار بركة ماء تبعد عن النبع عدة كيلومترات وهي في أسفل الوادي من جهة عنيزة، وبمحاذاتها قلعة على التل الجنوبي لا زالت قائمة إلى الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي)، وإن كانت مهجورة، وكانت مخفراً متقدماً للجنود لحراسة البركة من العبث، وكان الجنود يطلقون المدفع عندما تمتلئ البركة ليتمّ تحويل المياه عن مجراها إلى البساتين بدلاً من البركة التي كانت مصدراً لإرواء قوافل الحجاج والجنود والعربان أيضاً.

وآخر ما نذكر هنا، ما قاله الرحالة التونسي محمد السنوسي في رحلته للحج عام 1299هـ/ 1881م، أثناء قدومه من الحجاز حيث يقول: « ولم تزل الطريق بين صعود إلى الأنجاد، وتزول إلى الوهاد حتى كان الممر على صلد الحجارة السوداء ويُسمى الوعراء، ومررنا على قلعة عنيزة وأمامها بركة للماء ولا ماء بها، بناها سليمان باشا على ماء قليل فآل إلى النضوب وكان المبيت بعنيزة » (الرحلة الحجازية 262:2).

وادي الغَمْرة : (بفتح الغين، وسكون الميم والراء)

وهو معروف ومتداول على ألسنة أبناء البادية الأردنيين، والكلمة مشتقة من حالة المياه عندما تغمر الأرض والوديان، وبخاصة في فصل الشتاء، ومن هنا جاء الاسم، والغمْرة معناها في لهجة البادية الأردنية: الكثير الوافر الزائد عن الحدّ ويقع هذا الوادي في البادية الأردنية، وتتوفر فيه المراعي للإبل والضأن والماعز، كما أن المياه قريبة من السطح، كان البدو يستخرجونها عن طريق الحفاير (ومفردها حضيرة) وهو الحفر في الأرض لعمق قليل لتظهر المياه وتتجمع في الحوض، وتستقي منها الناس والدواب. وعندما يفيض الماء عن حدود الحوض يقال له: الغمْرة: أي أنه غمر أطراف الحوض، وفاضَ خارجه.

وقد ذكره ياقوت في القرن السابع الهجري، على أنه مكان في بلاد الشام فيما بين دمشق ونيماء. كما ذكرها عدي بن الرقاع العاملي (ق 1 هـ) في شعره قائلاً:

لِمَنِ المنازِلُ أقفرت بغَباءِ ... لو شِئْتِ هيَّجْتِ الغداةَ بكائي
فالغَمْرُ غَمْرُ بني جذيمة قد ترى ... مأهولة فَخَلَتْ من الأحياء
لولا التجلُّدِ والتعزِّي إنه ... لا قومَ إلا عَقْرُهم لفناءِ
ناديت أصحابي الذين توجّهوا ... ودعوتُ أخرس ما يجيب دُعائي[1]

(ياقوت الحموي 211:4).

(1) ورد في هذا الشعر موقعان أردنيان الأول في ديرة بني صخر في بادية الأردن الوسطى وهي: الغباء، المسماة الآن الغباوي وهي إلى الشرق من عمان، وهي تعني الاختفاء والاختباء، ويقال غبّى أي أخفى، وهي ليست من الغِبّ الذي يعني العطش. أما الغمر فهو في جنوب الأردن في ديرة الحويطات.

أما الغباوي (غبّاء) فهي مواقع من ديار بني صخر إلى الشرق من عمان، ولا زالت تُسمّى بهذا الاسم إلى الآن. وهذه الشّطرة تدل على أنها كانت منازل بني جذيمة، مثلما هي حالها قبل التحوُّل إلى الاستقرار لتوفر الماء والكلأ والحماية. ثم يتحدث عن الغمر الواقع في جنوب الأردن (محافظة المعان) وهو في ديرة الحويطات، ويصفه أنه كان منزلاً لبني جذيمة في العصر الأموي الذي عاش فيه الشاعر عديّ بن الرّقاع العاملي الأردني.

-37-

طبقة فحل

وهي قرية أثرية أردنية تاريخية، ترتبط بحروب المسلمين وانتصاراتهم على الروم ونصارى العرب ومن بينهم العبابيد الأجداد الأولى لبني عبّاد الذين لا زالوا بالأردن، ومنهم المؤلف كاتب هذا الكتاب.

تقع طبقة فحل على السرير الشرقي لوادي الأردن، ولا تزال فيها آثار شاهدة على ازدهارها التاريخي، وخصوبة تربتها وتوفر المياه فيها، وما نَعِمَتْ به من أمن وطمأنينة في زمنها الغابر، ولا يخلو أي كتاب للفتوح من ذكر طبقة فحل ومعركتها وما حققه المسلمون بقيادة أبي عبيدة ﷺ ومساعدة خالد بن الوليد من انتصارات، وما أصاب الروم ونصارى العرب من مقْتَلةٍ عظيمة.

ذكرها ابن خرداذبة (ق 3 هـ ، ت 280 هـ) في كتابه المسالك والممالك على أنها إحدى كُوَر الأردن (مفردها كُوْرَة)، وكرر ذلك ابن الفقيه في القرن الرابع الهجري (ت 340 هـ) في كتابه مختصر كتاب البلدان. أما ياقوت وهو شيخ البلدانيين (القرن السابع الهجري ت 626 هـ) فيقول عن طبقة فَحَلْ (فِحْلْ) ما يلي:

« اسم موضع بالشام كانت فيه وقعة للمسلمين مع الروم، ويوم فحل مذكور في الفتوح، وأظنّه عجمياً، لم أرَه في كلام العرب، قُتل فيه ثمانون ألفاً من الروم، وكان ذلك بعد فتح دمشق في عام واحد. وكان يوم فَحْل يسمى يوم الرّدعة أيضاً ويوم بيسان » (237:4).

وهناك كلام مهم نقله الحميري في القرن الثامن الهجري في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، نرى تضمينه هنا بحذافيره: فحل «موضع أو مدينة بالشام، فيه كانت الوقيعة بين المسلمين والروم في إمرة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ ، وهي من مشاهير أيّامهم، حضرها معاذ بن جبل وخالد بن الوليد وأمير الناس أبي عبيد بن الجراح، فقتلوا منهم في المعركة نحو خمسة آلاف، وقتلوا في عسكرهم حين دخلوه نحواً من ألفين، وخرجوا عبابيد منهزمين وخيل المسلمين تتبعهم وتقتلهم، حتى اقتحموا في فحل، وفحل مُطلة على أهوية تحتها الماء، فتحصّنوا فيها، وأصاب المسلمون منهم نحواً من ألفي أسير فقتلهم المسلمون، وأقبل أبو عبيدة ﷺ حتى دخل عسكرهم وحوى ما فيه، وصار ما بقي من العدو في الحصون، وقد قتل الله منهم مقتلة عظيمة، وغلبوا (المسلمون) على سواد الأردن وأرضها، وكتب أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنهما بالفتح، ولما رأى أهلُ فَحْل أن الأردن قد غلبوا عليها سألوا الصّلح على أن يؤدوا الجزية، فصالحهم المسلمون، وكتبوا إليهم كتاباً » (ص 436، والحديث نفسه موجود أيضاً في فتوح البلدان للبلاذري ص 12).

وذكر ياقوت (ق 7 هـ) في الجزء الرابع من معجم البلدان شعراً عن طبقة فحل للقعقاع بن عمرو التميمي الذي شارك مجاهداً في معركة تحرير طبقة فحل من الشرك وأتباعه، إذ يقول القعقاع (الحموي 237:4):

كَمْ مِن أبٍ لِّي قد ورثتُ فِعَالَه   جَمُّ المكارمِ بَحيْره تيَّارُ
وَغَداةَ فِحْلٍ قد رأوْني مُعْلِماً   والخيلُ تَخْبِطُ والبلا أطوارُ
ما زالت الخيلُ العِرابُ تدوسهم   في حَوْمِ فَحْلٍ والْهبا مَوَّارُ
حتّى رَمَيْن مُسرائهم عن أسْرِهم   في رَوْعةٍ ما بعدها استمرارُ

-38-

الفدين / المفرق

الفدين صغير فَدَن وهو القصر الصغير، وكانت نقطة/ مرحلة/ منزلة في طريق الحاج الشامي، واعتبرها بعض الرحالة من أراضي حوران. ويبدو أن اسم المفرق قديم أيضاً، حيث نجد ذكراً له في القرن العاشر الهجري على لسان ابن طولون الصالحي (ت 953 هـ) 1514م، حيث قال: « ثم رحلنا منها (أي من محطة أذرعات) أوائل فجر الغد فوصلنا أرض المفرق بعد المغرب فعشّينا فيها ».

وكرر الجزيري في القرن العاشر الهجري أيضاً ذكر المفرق، بقوله: « ثم رحلنا (أي من منزلة درعا/ أذرعات) إلى محلّ يسمى خان المفرق، وهو خان قديم وبه تلّ، وتلك المنزلة خالية من الماء ثم يرحل إلى الزرقاء » (1266:2) (كتاب البرق السامي في منازل الحج الشامي).

ونجد تكرار لذكر المفرق باللفظ والمكان في عام 1040هـ/ 1630م على لسان الرحالة كبريت في طريق عودته من استنانبول، حيث يقول: « ولما كان الصباح رحلنا وأتينا على وادِ القَديْم ويعرف بالمفرق، لأن الحجاج إذا رجعوا تفرّقوا، وهو مسيل كثير الزّلق وحوله قرى وضياع » (رحلة الشتاء والصيف، ص23).

ثم نجد غزلاً رائعاً بالمفرق وأجوائها وأعشابها على لسان الرحّالة الخياري عام 1080هـ/ 1669م، في وصف رحلته من المدينة المنورة إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية فيقول بعد أن يصف حركته من الزرقاء باتجاه الشمال: « فتزلنا

منزلاً بين وهادٍ ورُبَى مُخْضَرّ العَذبات يُمَيِّلُها الهواء طرباً قد اشتدّ به سلطان الهوى فلم يَبْقَ عمودُ فُسْطاطٍ قائماً إلا حرّكه يكاد يهوي أو هوى. وهذا المنزل يُسمُّونه: المفرق، وسبب تسميته بذلك أن أهل القرى كطرابلس ونابلس ومن وصل مع الحاج من أهل البلقاء والزرقاء يتفرّقون منه إلى أوطانهم؛ فلذلك يُسَمُّونه: المفرق » (الخياري، تحفة الأدباء، 1:90-91).

وفي عام 1120هـ/ 1708م مرّ بها رحالة دمشقي خرج مع الركب الحلبي في ذلك العام حيث قال: « وباستهلال الشهر المبارك ذي القعدة كان التوجه إلى المفرق نهار الأحد، في الساعة الثالثة إلى السابعة منه، والبقاء فيه إلى بعد أداء صلاة المغرب، ثم التوجه إلى الزرقاء ».

كما مرّ بها الشيخ عبدالغني النابلسي في طريق عودته من الحجاز سنة 1105هـ/ 1693م، وقال أنه أقام بالزرقاء ومرّ بوادي البطم وأن ركب الحجاج نزل في أرض المفرق تحت ظلال الخيام وقال: « وليس هناك ماء ولا قلعة ولا بيوت » (الحقيقة والمجاز 487).

وآخر من مرّ بها من الرحالة والجغرافيين المسلمين القدامى: محمد السنوسي (رحالة تونسي) في طريق عودته من الحجاز عام 1299هـ/ 1881م حيث يقول: « ونزلنا عند الغروب في المفرق، وبه قلعة خربة، وأرضه بما حمله المطر تنحَلُّ به كالعجيب، ولذلك كان مخيفاً. وقد سُمِّي هذا المكان بالمفرق لتفرُّق الحج فيه بلا انتظام، وهناك شاهدنا السراب مقترباً منا كالبحر، فأبصرناه في أحسن المناظر، وتوالت المطر » (الرحلة الحجازية 2:281).

إذن نحن في موقع له اسمان هما: الفدين، وهو الاسم القديم الذي يعني القصر الصغير الذي كان مقاماً في ذلك المكان منذ عصر الأموريين الأردنيين العرب، وبقي مستخدماً حتى زمن الخليفة المأمون عندما ثارَ عليه سعيد بن خالد ابن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الأموي

العثماني الفديني، حيث ادّعى الخلافة، فوجّه المأمون إليه يحيى بن صالح في جيش، فلما اقترب الجيش من حصن الفدين هرب منه العثماني وقام قائد المأمون بهدم الحصن، وخرّب زيزاء التي هرب إليها الثائر، ثم هرب إلى ماسوح (التي هي الآن خرائب إلى الشرق من حسبان) ثم هرب إلى حسبان وتفرّق عنه أصحابه.

فالفدين كانت زمن المأمون مأهولة، وبها علماء أفاضل أجلاّء ورجال يطمحون للخلافة مقاتلون، ولم يكن اسم المفرق معروفاً عنها بعد.

وعندما كانت البلاد بلا حدود سياسية، كانت تعتبر هذه السهول من شمال الأردن، بسهول حوران، وهي امتداد لحوران الموجودة الآن في جنوب سوريا، وقد شطرها الحدّ السياسي، رغم أن حوران هي جزء من مملكة باشان الأردنية تاريخياً.

وحيث تقع الفدين على سيف البادية بين الخضراء والغبراء، فهي تتميز بمناخ البيئتين، وبالتالي فهي الأنسب للمارّة، في أن يلجأوا للصحراء إن حلّ بهم خطر من الجبال (الخضراء) ويلجأون للجبال إن داهمهم خطر الصحراء.

وأول إشارة إليها باسم المفرق جاء على لسان البغدادي في كتابه: مراصد الاطلاع في القرن الثامن الهجري. وبمعنى آخر، بعد أن أصبحت نقطة الالتقاء والافتراق لمواكب الحجيج القادمة من الشمال والشرق والغرب، تلتقي هناك لتواصل السير في محفل واحد، وتفترق من هناك، ليعود كلٌ إلى دياره.

وإن الرواية التي يتداولها العربان الأردنيون أن المفرق سُمِّيت كذلك لأنها مفترق طرق، ونقطة الالتقاء والافتراق، وهو الأمر نفسه الذي ورد على ألسنة الرحالة المسلمين كما ذكرنا أعلاه، وكما سنشير إليه بعد قليل إن شاء الله.

ولابد هنا من الإشارة إلى الغدير الأبيض الذي كان منخفضاً من الأرض واسعاً، تتجمع فيه مياه الأمطار، وتبقى فيه على مدار السنة ليروي قوافل الحج،

والناس والمواشي، وكان في عُرف العشائر مورداً عاماً للماء لا يجوز امتلاكه من فرد أو جماعة، ولا منع أحد من وروده أو الشرب منه، ولا منع المواشي من أن تروي ضمأها منه. ولهذا كان للغدير الأبيض دور كبير في حياة بني حسن، وفي إنشاء بلدة المفرق الحديثة التي أصبحت الآن مدينة، وقد فصّلنا ذلك في كتابنا Political History of the Jordananian Tribes up to 2006 .

ومنذ القرن الثامن الهجري، ونحن نجد الإشارة إلى المنطقة باسم المفرق، مع ذكر قلعة الفدين أي أن اسم الفدين وهي تصغير كلمة فَدَن أي القصر أو القلعة الصغيرة، أصول أصبح الاسم مقصوراً على القلعة وسميت المنطقة من حولها: المفرق، كما ورد بعد ذلك في كتابات ابن طولون الصالحي، والجزيري والرحالة كبريت، وعبدالغني النابلسي ومحمد السنوسي، وغيرهم.

وهناك إشارة تارةً لوجود الماء، وأخرى لانعدامه، وهو في رأينا يرتبط بالموسم، إذ تتجمع المياه في الغدير الأبيض في فصل الشتاء والربيع حتى أوائل الصيف، فإن كان موسم الحج في هذا الوقت من السنة، قرأنا عن وجود الماء والخضراء، وإن كان الموسم في غير هذا الوقت من السنة، نقرأ الحديث عن الجفاف وانعدام الماء، وعن الغبار.

وأما حول التسمية المتوارثة من الرحالة، فإن المفرق جاءت اشتقاقاً من كلمة الافتراق، ومن حال الافتراق نفسه، وواقعه وواقعته حيث يقول كبريت (1040هـ/ 1630م) «ويعرف بالمفرق لأن الحجاج إذا رجعوا تفرّقوا فيه»، وكذلك نجد الخياري عام 1080هـ/ 1669م يقول: «وسبب تسميته بذلك أن أهل القرى كطرابلس ونابلس ومن وصل مع الحجاج من أهل البلقاء والزرقاء يتفرّقون منه إلى أوطانهم، فلذلك يُسمُّونه المفرق» (90-91).

والأمر نفسه يتكرر عند الرحالة التونسي: محمد السنوسي إذ يقول: « وقد سُمِّي هذا المكان بالمفرق لتفرُّق الحج فيه بغير انتظام ».

وأما حول القرى والضياع، فإن ثورة العثماني الفديني المنسوب إلى الفدين ما كانت لتقوم لولا أنها مأهولة بالسكان، عامرة بالعلم، قائمة على فلسفة سياسية قوامها أحقية بني أمية بالخلافة على بني العباس، ومن ثم استطاع أن يجمع من حوله عشرين ألف جندي أردني من المؤيدين لحق بني أمية بالخلافة لإقامة الخلافة الأموية، ومحاربة جيش المأمون وحماية نفسه.

ويقول الرحالة كبريت (1040هـ/ 1630م) أن المفرق كان من حولها قرى وضياع، وهذا إثبات أن الأردن لم تكن خالية، ولا خَرِبَة ولا خاوية على عروشها، وأن أهلها هم الذين عمّروها وبنوها وأشادوها بسواعدهم وحبّهم لها، وارتباطهم بها في السراء والضراء، وليست الطيور المهاجرة ولا الغرباء. إنها وطن له أهله أحبّهم وأحبوه، وبَنَوْهُ وحَمَوْه، وسيبقى لهم بعون الله، ولن تكون هناك قيمة لورقة تسمى قوشان يحرقها عود ثقاب أمام بركان الوطنية المتفجّر الذي سيأتي ذات يوم ولا أظنه بعيداً بعون الله.

أما وادي القديم الذي يشير إليه الرحالة كبريت (ت 1070 هـ)، وهو مسيل ماء كثير الزّلق، فأظنه وادي الظليل الذي كان في غابر الأيام سيلاً دائم الجريان تحفّه الأشجار والأغصان، فكان ظِلاً ظليلاً وماء زلالاً، وهواءً عليلاً، ثم تحول إلى مسيل لماء الشتاء، وغارت المياه في جوف الأرض.

أما الخياري في رحلته عام 1080هـ/ 1669م فيتغزّل طرباً بالمفرق وسهولها وهضابها، حيث يقول عنها: « فنزلت منزلاً بين وهادٍ وربى مخضرّ العذبات (الجُنُبات) يميلها الهواء طرباً ».. ثم يقول: « واستمرّينا به نَستَعذِب السَّمَرْ ونستقرب طلوع القمر ». ولابد من الإشارة هنا، أن النوم في المفرق مريح للنائم في غاية الرّاحة، وقد خدمت بها برتبة ملازم ثاني عام 1968 ضابطاً في الأمن العام، ومن خلال تجربتي الشخصية كان النوم فيها ساعة يغني عن النوم عشر ساعات في غيرها من المناطق وبخاصة عمان ووادي السير.

ويعتقد الأردنيون أن الأرض اللئيمة تؤدي إلى سوء النوم وطول السُّهاد، وأن الأرض الطيبة تؤدي إلى راحة النوم والمنام.

ولكن الشيخ عبدالغني النابلسي (1105هـ/ 1693م) يقول أنه لم يجد ماء ولا خضراء في المفرق، حيث يقول: « وليس هناك ماء، ولا قلعة ولا بيوت ». ويبدو أنه نزل بها أثناء رحيل العربان طلباً للماء والكلأ في أعماق الصحراء شرقاً، أو بين جنبات الجبال غرباً، وأنه جاءها في فصل الجفاف بعد نضوب الماء من الغدير الأبيض.

ومن الواضح أن الفدين اسم كان يُطلق على القلعة القديمة التي أصبحت في وسط مدينة المفرق التي توسعت وازدادت وازدهرت كثيراً. وأن المفرق كان حول الغدير الأبيض، حيث يستقي الناس الماء، ثم يفترقون، وربما كانت القلعة لإقامة أمراء الحج، أو مراكز الشرطة المتقدمة لحفظ الأمن والنظام.

والبدو يعرفون الفدين جيداً، وتعني بالنسبة لهم الاسم القديم للمفرق، وتعني أيضاً: القصر القديم. أما الآن فالكل صار جزءاً من المفرق، وليس العكس.

-39-

القسطـل

قرية من قرى وسط الأردن، في ديار البلقاء، وهي من قرى بني صخر/ جذام، وتقع على الجانب الغربي من الطريق الصحراوي الحديث الذي يربط ما بين عمان ومعان ثم إلى العقبة أو إلى الديار الحجازية. وهي الآن قرية حديثة، قائمة على أنقاض بلدة قديمة لا زالت حجارتها ذات الآلاف السنين من بناء إلى بناء، أقول لا زالت قائمة بين ركام وحطام تحت سطح الأرض أو فوقه، أو أبنية معادة في نهاية القرن التاسع عشر، وعلى مدى القرن العشرين، حيث

أعاد بنو صخر استخدام الحجارة المشذّبة القديمة نفسها لبناء بيوت في الموقع، وبيوت خزين الإنتاج الزراعي.

كانت القسطل مركز حامية عسكرية رومانية قبل الفتح الإسلامي، وكان شيوخ ووجهاء العربان في منطقة وسط الأردن يتسلّمون، في العصر الروماني قبل الفتح الإسلامي، حصصهم المالية السنوية من الإمبراطور الروماني على شكل الصرر التي صارت تدفعها الدول لهم فيما بعد حتى أواخر أيام الدولة العثمانية، وتسمى الصّرر ومفردها صُرّة؛ أقول كانت تُدفع لهم في هذا المكان، إذ يحملها إليهم ضابط صرف رواتب الجند الروم. وقبيل الفتح الإسلامي قال ذلك الضابط كلمة غيّرت وجه التاريخ، حيث كانت الأموال الإمبراطورية شحيحة بسبب المصروفات على الحرب الرومي مع الفرس، فقال الضابط: من أين لي بمال لرواتب الجند، حتى أعطي هذه الكلاب الضالّة.

وعندما سمع مشايخ ووجهاء العربان هذه الكلمة، غضبوا، وكانوا لم يتسلّموا حصصهم منذ سنتين قبلها، فهددوا بالالتحاق بالمسلمين مما اضطر الروم أن يعطيهم مستحقّاتهم السابقة وما هو قادم لسنتين قادمتين لضمان ولائهم للروم مما أثّر على القدرة المالية وخزينة الدولة سلباً في دعم المجهود الحربي ضد المسلمين القادمين من جزيرة العرب. وبعد أن استلموا (العربان) الأموال انضموا للجيوش الإسلامية على صور مختلفة، منها التجمع وعدم المحاربة، ومنها الانضمام العلني، ومنها إعلان الإسلام. إذن على أرض القسطل كانت الشعرة التي قصمت ظهر بيزنطة وهرقل الروم والشعرة التي غيّرت تاريخ الأردن وبلاد الشام، ووجدها العربان فرصة لإعلان إسلامهم والتخلي عن المسيحية والدولة التي ترعاها.

أما معنى القسطل، فقد ورد لدى ياقوت الحموي (ق 7 هـ) حيث يقول في معجم البلدان: « وهو في لغة العرب الغبار الساطع، وفي لغة أهل الشام الموضع الذي تفترق منه المياه، وفي لغة أهل المغرب الشاه بلوط الذي يؤكل » (347:4).

ولاشك أن موقع القسطل في البادية، ومحاذاة الصحراء يجعلها تتعرض للغبار والطوز، وبخاصة في فصل الصيف، الأمر الذي جلب لها هذا الاسم، وأما اختراق المياه، فالقسطل تقع على رأس وادٍ يتجه نحو الشرق، وهناك مسيلات ماء تتجه نحو الغرب، وبالتالي فهي نقطة افتراق المياه، أي أنها خط تقسيم المياه بين الشرق والغرب، في الصرف الجغرافي. وأما البلّوط، فإنه كان الشجر السائد في الأردن، ومعه السنديان والبطم الأطلسي والأشجار الأخرى، إلا أن التصحر أتى على هذه كلها من الثورة الحرجية. وبذلك فإن القسطل تجمع هذه المعاني كلها معاً فضلاً عن أن القسطل تعني الحصن، وهي كذلك.

ويقول ياقوت وعنه أخذ البغدادي في كتابه مراصد الاطلاع أن الموقر موضع بالبلقاء من أرض الشام؛ ولابد من الإشارة هنا أن البلقاء تاريخياً، كانت تمتد من تبوك إلى جبل الشيخ، وتشمل حوران وهضبة الجولان وعموم شرق الأردن الحالي.

وقد كانت القسطل إحدى عواصم البلقاء، حيث توجد معها: عمان وحسبان، وكانت القرية من هذه تتحول إلى عاصمة للبلقاء حسبما هي الظروف السياسية والأمنية والإدارية وتحوّل طرق القوافل والحجاج والتجارة. وإن تحوّل العاصمة إلى القسطل لابد وكان في سنوات الخوف والشدة، ذلك أن متاخمة الصحراء تشكل أمناً وطمأنينة للباحث عنهما عندما يهاجمه الخطر من الغرب والشمال. ومن البراهين على أن القسطل كانت أحياناً حاضرة البلقاء، ما ورد في شعر كثير (عزّة) في مطلع العصر الأموي، حيث يقول:

سقى الله حيّاً بالموقّر دارهم ... إلى قَسْطَلِ البلقاء ذات المحارب
سوارَى تنحّى كلُّ آخر ليلة ... وصَوْبَ غمامٍ باكرات الجنائب

وبرهان آخر، أنها كانت حاضرة البلقاء لفترة من فترات الحكم الأموي الأول ما أورده جرير (شاعر أموي) بقوله:

يا عين جودي بدمعٍ هاجه الذّكر ... فما لِدَمْعِكِ بعد اليوم مُدَّخَر
إن الخليفة قد وارى شمائلَه ... غبراء ملحودة في جَوْلها زُوَرُ
قد شفّني روعة العبّاس من فزعٍ ... لما أتاه بدير القسطل الخبر

وقول الفرزدق (شاعر أموي):

وهم على ابن مُزَيقيَّاءِ تنازلوا ... والخيل بين عجاجتيها القسطل

وابن ميزيقيّاء هو الملك الغسّاني اليمني، وهو عمرو بن ميزيقياء الذي هاجر من اليمن بمن معه من الناس قبيل انهيار سدّ مأرب وعندما عرف بقرب الانهيار من الكاهنة، واتّخذ من الأردن دياراً له. وله قصة ذكرتها كتب التاريخ وحيلته في الرحيل.

-40-

القطرانـــة

تبعد عن عمان خمسة وثمانين كيلومتراً إلى الجنوب، وسكانها من بني عطية ويخترقها الخط الصحراوي الذي يربط الشمال بالجنوب، وفيها مشروع زراعي للري والزراعة، لغايات توطين البدو، وقد نجح المشروع المروي بالماء الجوفي المُستخرج من الآبار الارتوازية، وتمّ إنشاؤه منذ مطلع الستينات في القرن العشرين الميلادي.

ويلفظها البدو: القطراني، بوضع الياء بعد النون، وليس تاء مربوطة بعد النون، هذا اللفظ: القطراني، هو ما ورد في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين، وكانوا يسمّونها: خان القطراني، وقد ذكرها الرحالة صلاح الصفدي عام 755هـ/ 1354م، وذكرها المؤرخ ابن طولون الصالحي في شهر شوال 920هـ/ 1514م، ومرّ بها الرحالة: كبريت سنة 1040هـ/ 1630م، حيث ذكر بها بركتي ماء، تفيض إحداهما إلى الأخرى، وكان فيها قلعة.

أما الخياري فقد وصفها عام 1080هـ/ 1669م فقال: « ثم سِرْنا حتى ارتفع النهار ودخل في الساعة الثالثة، وصلنا للمنزل المسمى: بالقطراني، فإذا هو وادٍ فسيح، به عذوبة هواء ونسيم رطب ولا أقول ريح، فيه قلعة عظيمة البناء، لائحة الإشراق والسناء، وجدناها مغلّقة الأبواب، ولم ندخلها ولا أحد من الأصحاب. بها جماعة من أهلها مقيمون بها يبيعون منها التُّبن وما يناسبه بالتدلّي من أعلاه، وإلى جانبها بركة عظيمة الوضع، كثيرة النفع، أخبرني بعض من ذرَعَ (قاسَ) جهاتها الأربعة أنه تسعون ذراعاً، وأن عمقها سبعة أذرع ينقص ماؤها الآن ذراعاً واحداً، وستة أذرع مغمورة بالماء. وإن ماءها هكذا يجتمع من السيل لا من بئر ولا نهر ولا عين، وإن لها مدخلين متّسعين، وإلى جانبها بركة صغيرة تكون لتصفية الماء ».

«وأخبرني بعض أصحابنا عن بعض الحجاج أنهم لمّا ورَدُوها حال الذهاب (أي التوجه لأداء فريضة الحج، وهو هنا يتحدث أثناء إيابه) كانت ملأى تتدفق ماء، وأن نقصها لشربهم وغيرهم من الواردين هذا الذراع فقط. وهي مربعة الوضع فهي من أعظم البرك التي رأيناها».

«وبهذا المنزل يباع كثيراً مما يتعلّق بالدّواب من الشعير والمعبوك وبغيرهم كالدّجاج واللبن (...) فسِرْنا منها في مسيل ليّن الموطأ عذب الهواء، مخضرّ الجهات والأنحاء، ما أشبهه بمزرعة من مزارع الشعير والحنطة، وهذا مسيل الماء الذي يصل

منه للبركة المتقدّمة، ولا يُستَغْرَب كِبَرُها المذكور بعد أن يكون هذا سيلها، ولا بِدَع إن كان هذا الكيل كيلها، فإنه على قدر الأدْخال يكون الإخراج ».

ثم يصف مسير موكب الحجاج في وادي القطرانة، فيقول: « حتى تخيّل للرائي أن عرض ذلك الوادي زاد على طوله، وأن الحاج ملأ انحاء، فما أحسنه من حامل، وما أعجبه من محموله، والجِمال كأنها طلائع تخبّ من الأرض على بساط أبهر من أخضر السندس، وكأن ترابها الزعفران، وغريد أطيارها، وصادح حمامها يطرب ما لا تُطرِب العيدان (مفردها عود وهو آلة موسيقية عربية) حتى أني لتسلية نفسي ومثلي من أبناء جنسي تخيَّلْتُ أنه العقيق ». (الخياري، تحفة الأدباء، 1:85-86).

وبذلك نجد الخياوي ينصف بلادنا وديارنا الأردنية، ويقول عن القطرانة أنها كانت تكتسي حُلّة خضراء، وأنها مليئة بالأطيار التي تغرِّد أفضل صوت وموسيقى مما يصدر عن العيدان والأوتار، وأن بها الحبوب وأن المحمّلة تستطيب السير، في هواء عذب عليل، وماء زلال، وأهل كرام، لا يتعرضون للحجاج بسوء، ولا يسيئيون لضيوف الرحمن.

وفي عام 1120هـ/ 1708م مرّ بها رحالة دمشقي مجهول، وقال: إن بها قلعة لطيفة، ذات عمارة صغيرة، محكمة التربيع، مشيّدة البناء بالأحجار البيض والكلس والمون، ولها باب من الجهة القبليّة وأن ماءها متغيِّر لأنه يجتمع من المطر، وأن موسم تلك السنة أعلاه كان مُنحبس المطر، وأن ما في البركة من ماء كان من العام الماضي.

وأوّل من لفظها: القطرانة (بالتاء المربوطة وليس بالياء)، فيما وجدنا لدى الرحالة المسلمين هو: عبدالغني النابلسي عام 1105هـ/ 1693م، حيث يقول:

«وأشرفنا على قلعة القطرانة، وهي قلعة متينة البناء، فيها طائفة من عسكر الشام ينطرون (أي: يحرسون) الماء فيها، وهناك بركة كبيرة واسعة، يجتمع فيها الماء» (الحقيقة والمجاز 486).

ثم تكرر اسم القطرانة عند الرحالة، وليس القطراني، حيث يذكر ذلك الرحالة أبو القاسم الزياني سنة 1206هـ/ 1791م، حيث يقول أن قلعة القطرانة كانت مهمة « وبها يترك الناس أثقالهم إلى الرجوع (أي: يخزنونها أثناء ذهابهم ليأخذوها في إيابهم)، فيها بركة عظيمة للماء، وعمارتها العسكر يحرسونها ». كما ذكرها الرحالة التونسي محمد السنوسي عام 1299هـ/ 1881م قائلاً: « قلعة القطرانة... إلى أن نزلنا حول هاته القلعة الخَرِبَةْ بناها السلطان سليمان القانوني، وليس هناك ماء، وهناك ضريح أحد علماء الشام الشيخ حامد العطّار ».

وبذلك نجد أن الماء كان معدوماً في بركة القطرانة في عام 1299هـ/ 1881م ويبدو أن الإهمال أصابها، والتقى ذلك على قدرٍ مع انقطاع المطر وحلول الجفاف وتعاقب السنوات العجاف، مما أدى إلى خراب القلعة، لأن الحياة لا تُعمَر بدون الماء، ولا تستمر بدون الأمن، فإذا انعدم الماء، انعدم الأمن، وبالتالي تسلل الخراب إلى الديار، وهذا الذي يبدو أنه أصاب قلعة القطرانة وبركة الماء فيها.

ويذكر الخياري (1080هـ) بعد خروجه من القطرانة كيف مرّ بوهاد القلاّبات، وهي تلال وأودية، بحيث تتقلّب فيها القلوب والأبصار، ويبدو أنها أخذت اسمها من هذه الحالة. ومن أهم ما أشار إليه الخياري هذا قبل ثلاثمائة سنة ونيّف من الآن (مطلع القرن الحادي والعشرين) وجود البقر الوحشي في البادية الأردنية، وهي المها العربية التي كانت منتشرة في الديار الأردنية، فانقرضت، ثم أعيدت في محمية الشومري في مناطق الأزرق بالبادية الوسطى. ويقول الخياري في ذلك: « وبلغني ممّن تقدّم من الأصحاب (أي من كانوا في مقدمة قافلة الحجاج) أنه لاحَ لهم قطيع من بقر الوحش وإنه أوجف عليه

خيل من جماعة موسى باشا المقام على التجريدة (أي قائد المجموعة العسكرية الموكول إليه حماية موكب الحجاج) وأنهم نفّروهم، وما وصلوا إليهم » (الخياري تحفة الأدباء 84:1).

وفي لهجة الأردنيين يُسَمُّون التلال التي تطلّ على تلال ثم على التي تليها، المقلّبات، وذلك لأنها كالصفحة كلما قَلَّبْتَها لاحت لك صفحة مماثلة، وهو طلوع ونزول، وانحدار وسهل ووادٍ وجبل، تتشابه وكلما خلص الماشي منها، وقلب المنظر والصفحة كلما دخل في مثيلتها. وتقع هذه بين القطرانة والزرقاء وقد ذكرها عبدالغني النابلسي (ت 1143 هـ) الذي قال فيها شعراً:

لـمـا سـرينا إلى الـزرقاء بقلاّبـات ... قـلبي مـن الشوق بالنيران قَلاّبات
وقـلـت ويحـا نـزلات قَلاّبـات ... عسى الفرج فالليالي دوم قَلاّبات

وهذا شعر شعبي وإن كان بكلمات فصحى، وهو على شكل موّال بطيء الغناء والترديد.

ومما يتطابق في وصف القلاّبات أو المقلّباته مع تحديد الأردنيين لمعناها المطابق لما ورد لدى الرحّالة، ما نجده عند الرحالة التونسي محمد السنوسي الذي مرّ بها عام 1299هـ/ 1881م؛ حيث يقول:

«ثم مررنا بمحلٍّ يُسمّى البلاطة، وهي أرض من صفوان ثم أخذنا في الصعود إلى مصاعد تسمى القلاّبات، وهي جبال متواصلة متراوغة من صخر، صعدنا إلى سفوحها ونزلنا بطون الأودية بينها، ولا زال السير على هذا المنوال، كلما تخلّصنا من قلاّبةٍ ونزلنا وادياً، بدت لنا أخرى، فنصعد جبلها حتى حسبتُ أنّا نرتقي إلى مواقع السّحاب، إلى أن أتاح الله لنا ذلك المستقرّ بوادي الزرقاء في الساعة العاشرة من يوم الثلاثاء الخامس عشر من صفر» (محمد السنوسي، الرحلة الحجازية، 275:2).

-41-

الكــرك

الحديث عن الكرك اسماً وقلعةً ومدينةً وتاريخاً، يثير الكثير من شجون الأردنيين المخلصين لتراب الأردن، ويثير شجوني واعماقي، ولا يمكن الحديث عن هذه المدينة وما حولها دون الرجوع إلى تاريخها المتأصّل المتجذّر في أعماق التاريخ، وشموخها الذي يتجاوز ارتفاعها عن سطح البحر ألف متر، وتسمو على تقاطع خطوط العرض مع خطوط الطول 11″ 35° شمالاً (عرض) و 42″ 35° شرقي غرينتش (عرض).

إنها واحدة من أمهات الأردن الثلاثة وهي: السلط، الكرك، عجلون، وإن من أقدم من سكنها من الشعوب، تلك القبيلة العربية الأمورية الأردنية، هم الأيميون، حيث اتخذوها ديرة لهم قبل سبعة آلاف عام من الآن، أي (5000 سنة ق.م)، حلّ بعدهم المؤابيون الأموريون الأردنيون في حوالي 1500 سنة ق.م. أي قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وقد أشارت التوراة (العهد القديم) إلى المؤابيين كخصم أردني عنيد عتيد ورفض وقاوم دخول أو عبور الإسرائيليين إلى الديار الأردنية من جهتهم (أي مؤاب).

ويطلق مؤاب على الأرض الأردنية الممتدة ما بين وادي الحسا جنوباً إلى وادي الموجب شمالاً، وللبحر الميت غرباً، ثم أضيفت ديبون (ذيبان الحالية) وميدبا (مأدبا الحالية) وبَصْقَةْ (أي صياغة وجبل نبو الحاليين) إلى مؤاب، زمن الملك الأردني الوطني يوشع الذي يعتبر واحداً من قيادات الحركة الوطنية الأردنية زمن الوثنية الأولى.

كان يُطلَق على الكرك: قير حارسة بمعنى حِصْن اللبن، وهي كلمة مؤابية قد تكون مأخوذة من الأيميين من قِبَل المؤابيين، أو قير/كير مؤاب، أي القلعة الحصينة، أو عاصمة مؤاب الحصينة المنيعة. وإن حصن اللبن يعني وصفاً للحياة

الزراعية والرعوية الخصبة للكرك قبل سبعة آلاف عام، وحيث لا زالت الكرك حتى اليوم (مطلع القرن الحادي والعشرين) مشهورة بالجميد الكركي منذ زمن الأميين (سبعة آلاف سنة من الآن) والمؤابيين (3500 سنة) من الآن. كما تعطي هذه التسمية أهمية اللبن في غذاء الأردنيين القدامى وهو الأمر الذي لا زال إلى الآن. واللبن في الأساس، كلمة تُطلق على الحليب ومشتقاته، ولكن الأردنيين يلفظونه الآن مقصوراً على اللبن بعد استخراج الزبدة من الحليب.

وفي زمن اليونان: تم تحوير لفظ قير حارسة أو قير مؤاب: إلى كلمة واحدة، وهي: الكرك، وهي المدينة الوحيدة في الأردن التي تُلفظ من البداية أو النهاية دون أن تتغيّر كما يلي (من اليمين إلى الشمال تقرأ): ك (1) ر (2) ك (3). كما تُقرأ من الشمال إلى اليمين: ك (3) ر (2) ك (1). ك ر ك = ك ر ك.

وقد ورد لدى البعض أن اسم الكرك (وليس قير حارسة)، أنه لفظ سامي مشترك يرد في أكثر اللغات السامية ومعناه: الاستدارة. حيث كانت المدينة القديمة مبنيّة بشكل دائري ليسهل الدفاع عنها ومعنى الكرك: أي المدينة المستديرة المحصّنة. وبذلك جاء اللفظ العربي الأردني ليعني المعاني الأميّة والمؤابية واليونانية معاً.

وقد بقيت قلعة الكرك محصّنة عبر الأمم والأجيال والقرون تؤدي مهمتها في حماية منطقة الكرك، حيث جدّدها الأنباط، كما جدّدها الصليبيون عام 537هـ/1142م بناء المدينة وحصنها، وجعلوها مركزاً لأسقفية. وكانوا يُسمّونها (القلعة) باسم: حجر البادية La Pierra du desert. وفي عام 1517 م استولى عليه الأتراك.

وللمدينة تاريخ عميق وعريق، وقد صدرت عشرات الكتب التي تتحدث عن تاريخ هذه المدينة وقلعتها وأهميتها عبر التاريخ، لا يتسع المجال لذكر ذلك هنا.

ذكرها ياقوت الحموي (ق 7 هـ) في معجم البلدان قائلاً: « كَرَكٌ بفتح أوّله وثانيه وكاف أخرى، كلمة أعجمية: اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها، بين أيلة وبحر القلزم، وبيت المقدس، وهي على سنّ جبلٍ عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض » (453:4).

كما ذكرها في المشترك وضعاً، والمختلف صنعاً أن « الكرك قلعة مشهورة حصينة في طرف البلقاء من أرض الشام من ناحية جبال الشراة » (ص 371).

وذكرها ابن سعيد المغربي في القرن السابع الهجري (ت 685 هـ) فقال: «ويقع الكرك المشهور بالحصانة في شماليها (أي شمال قلعة الشوبك) (...) وعلى أبوابه مؤتة حيث قبر جعفر الطيار وأصحابه، وله (أي الكرك) وادٍ فيه ماء وبساتين » (بسط الأرض بالطول والعرض، ص 84).

ولا زالت هذه البساتين قائمة إلى الآن (2006) حيث ترتوي من عين سارة التي ضعفت مياهها وتدفّقها الآن عما كانت عليه في القرن التاسع عشر، وعليها بساتين غنّاء، وهي في بطن الوادي مما يحميها من ضرب الرياح عند الثمار، ويسمى الطرف الغربي للكرك مما يلي سيل الكرك والغور، أقول: يسمى نوح، حيث توجد قبّة، وقبر طويل يقال أن سيدنا نوح ﵇ مدفون هناك، وأن شكل الجبل الذي عليه القبر على شكل سفينة نوح ﵇ . والأرجح عندي أنه قبر نوح فعلاً، والله أعلم.

أما والشيء بالشيء يُذكر، فلا بد من ذكر الربّة التي كانت يوماً العاصمة البديلة للكرك لمملكة مؤاب، إذا داهمها الخطر من الغرب؛ باعتبار الربّة أقرب إلى البادية والصحراء شرقاً، وإلى شعاب الموجب الوعرة الموحشة شمالاً. لذلك سميت الربة أحياناً: مؤاب، وأحياناً: ربة مؤاب، أي عاصمة مملكة مؤاب وبذلك نجد الكرك والربّة وذيبان قد أخذ كلٌ منها دورها في الحصول على مركز الدولة المؤابية.

أما الربّة فتعني باللغة العربية الأردنية القديمة مؤنث ربّ، كما أنها كلمة عمونية مؤابية، أو بالأحرى أمورية. بمعنى: كبيرة Grand، وأطلق عليها اسم: ربّة مؤاب، وقد ذكرها اليونان والرومان باسم Aeropolis . وقد كانت مسكناً للأيميين (الإيميون 5000 سنة ق.م) وهم سكان الكرك قبل أن يطردهم منها المؤابيون، وجميعهم أموريون عرب أردنيون. وقد جاء ذكر الربّة في كتب الفتوحات الإسلامية، حيث مرّ بها أبو عبيدة عامر بن الجراح، على رأس جيوشه عام 13هـ؛ فقاتل أهلها ثم صالحوه: وكان أول صلح بالشام. ولابد من القول هنا أن الياروث هي كلمة محرفة عن الكلمة المؤابية القديمة الورقاء أو ياريدا بمعنى السوق السنوية حيث يجتمعون للمقايضة، حيث كانت التجارة بالمقايضة قبل سبعة آلاف سنة.

أما غور الصافي في منطقة غور الكرك، فقد جئنا على ذكرها، إذ أن عاصمتها صُغَر زُغَر، صُعَرْ القديمة، وقد سُمّيت الصافية نسبةً إلى صفاء ماء النبع فيها، ثم تعدّل الاسم فيما بعد وأصبح الصافي بدلاً من الصافية، لأن الصافي مذكر مفرد ويدل على المكان والماء، وأما الصافية فهي تدل على المؤنث والمفرد، وتعين الماء أو انبع الصافية.

والربّة: كما قلنا مؤنث الربّ، ويقال ربّة البيت (أي سيّدة البيت وحارسته)، والتي تُعنى بالعائلة والأبناء والزوج. والأمر نفسه ينطبق في معناه على الربّة بالنسبة للأردنيين القدماء، حيث نجد ربّة مؤاب، أي حارسة مؤاب وعاصمتها وسيدتها العظمى، وأيضاً: ربّة عمون أي حارسة عمون وسيدتها العظمى وعاصمتها.

أما اللجون التي في جنوب الأردن الواقعة على رأس وادي الموجب، فهي تختلف موقعاً عن تلك اللجون التي في شمال الأردن على الحدود الأردنية الفلسطينية، وقد أصبح اللجون الشمالي بعد عام 1898 جزءاً من فلسطين وفي

شمالها. أما اللجون الأكثر معرفة للمؤرخين وتداولاً بينهم، فهي اللجون الجنوبي الواقع في ديار الكرك الأردنية الكرك. واسمها اللاتيني Legion / Legio ومعناها جيش Legion ويقال Arab Legion أي الجيش العربي أو اللجون العربي، وهو عنوان لكتاب من تألف كلوب باشا قائد الجيش الأردني حتى عام 1956 عندما أعيد إلى بلاده. وكان الرومان اتخذوا من هذا المكان معسكراً لجنودهم وفيالقهم العسكرية التي عسكرت في ناحيته. وتتوفر فيها المياه والحماية الطبيعية والموقع المهيمن على الطرق العسكرية والاقتصادية، وقد تحولت إلى منازل مهدّمة، وقلاع آيلة للسقوط أو الاندثار، تحتاج إلى عقلية مرتّبة.

وكانت اللجون مدينة حول نبع ماء بهذا الاسم، لا زالت أطلالها ماثلة إلى الآن، وقد تحوّل السيل الجارف إلى نبع خفيف، وعليه مولد ضخ لتزويد القرى المجاورة بماء الشرب، كما أنه يروي مساحات من الأرض المزروعة بالخضراوات وليس بالفواكه وقد زرته (المؤلف) في منتصف شهر تشرين الثاني عام 2005 .

ولم يتمكن صاحب المراصد، من تجاوز الكرك، لذا قال عنها: « الكرك قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها؛ قال بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على جبلٍ عالٍ » (البغدادي ت 739 هـ).

أما ابن فضل الله العمري (ق 8 هـ)، فقد تغنّى بها إلى حدّ الطرب إذ يقول: في كتابه مسالك الأبصار: « والكرك ذات قلعة تُعرف بكرك الشوبك. والشوبك أقدم منها (...). والكرك مدينةٌ مُحْدَثةُ البناء، كانت ديراً يتديّره الرهبان، ثم كثّروا وكبّروا بناءه وكثّروا أبناءه، وآوى إليهم أناس من مجاوريهم من النصارى، فقامت لهم به أسواق، ودارت لهم به معايش، وآوت إليه الفرنج، فأدارت أسواره فصار مدينة مشهورة، ثم بنوا حِصْنَه فكانت قلعة مذكورة، فاستولى عليها الفرنج حتى فُتِحَ زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين (...) وهو (أي الكرك) في مكان صعب المرتقى لا تلين عقارب صخورهِ للرُّقى، قد زاحم

الشّعْرى (وهي نجم مهم ومعروف وتسمى الشعرى اليمانية) العَبُور بمناكِبه، وعلا في السماء، فألقى الهلال نَعْل راكبه (...) فلهذا اتخذته الملوك لمآلها حرزاً، ولِمالِها كنزاً، ولم يزل لأولاد السلاطين في الأمور ملجأ، ومن الدهور منجاً، وماؤه من مطر السماء، وله وادٍ تتفجّر عيونه بالماء؛ وهو بلد خصب وإقبالٍ ومنبتُ زَرْعٍ، ومسرح مالٍ » (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 212-213).

ثم يضمّن ابن فضل العمري حديثه عن الكرك ما قاله القاضي الفاضل: « وكان الكرك شجىً في الحناجر، وقذى في المحاجر، ورَصَد الطرقات المسلوكة، وصيِّر في السُّبُل المكوكة، قد أخذ من الآمال بمخنَقِها، وقعد بأرصاد العزائم وطُرُقِها، وصار دَيْناً للدّهر في ذلك الفجّ، وعذراً لتارك فريضة الله من الحجّ، وجلس من هامِ الإسلام مكان عِمامَتِهِ، وجثم على أنفاس الحجاز، فلم يَدَعْ نفساً يصعد من تهامته، فواديه من مسائل المعاقل بمجمعها، وظِلُّه من نجوم الأسِنَّةِ بمَطْلَعِها ».

ويواصل ابن فضل العمري (ق 8 هـ) قوله في كتابه مسالك الأبصار المشار إليه أعلاه: « وكفى إشارةً أنه (أي الكرك) مكانُ الغُزاة ومقرُّها، ومُستَودعُ الفريضة ومُستَقَرُّها، مجاوَرَتُه لتَبُوكَ، وغَزَاتُها آخِرُ الغزوات النبويّة، وإلى طرقه انتهت الخُطا الحميدة المحمّديّة (...) وتُحفُ بهذه القلعة مدينةٌ قد عقد الجَبَلُ حَبْوَتَها، وأزْلقَ الغراب أن يطأ ذرْوتَها (...) فَمِنْكِبُها حاطِمٌ والله يُحطِمُهُ، وفَمُها من ثدْيِ الغمام راضع، ومَهْدُ المنجنيق يَفْطِمُه (...) وصار كلُّ مذبح في الكنيسة مَرْبطاً وكُلُّ مَصْعَدٍ من قِلَّةٍ مَهْبَطاً وكلُّ تَسْقَطِ رأسٍ بالحقيقة لرأسٍ مسقطاً » (مسالك الأبصار، ص 212-213).

ومن هذا النص الذي كتبه ابن فضل العمري في القرن الثامن الهجري (ت749 هـ) نخرج بالعديد من النقاط الخاصة بالكرك وأهميتها ودورها عبر حقب التاريخ ومراحله:

1- أن الكرك كانت عبارة عن دير بجوار القلعة، وكانت في بدايتها مقراً للرهبان، ولم يكونوا يسكنونه لولا الأمان والطمأنينة، وأن العشائر الأردنية المسلمة، لا تسيء إلى راهب منقطع في صومعته أو ديره، وهذه وصية سيدنا أبو بكر ﷺ لجيوش المسلمين، وتندرج على عموم المسلمين، بعدم التعرّض بالعقيدة أو بالناس. وقد تجمع النصارى حول هذا الدير، وبدأت المدينة، على أنقاض مدينة أثرية مؤابية أردنية تاريخية قديمة وإيميّة أمورية منذ سبعة آلاف سنة.

2- هناك فارق بين المدينة والقلعة، حيث وصف المدينة في الفقرة الأولى كما أشرنا أعلاه، بينما تحدث عن القلعة في سياق السرد أنه بعد أن قامت مدينة الكرك، وأصبحت عامرة بالأسواق والناس، ومركز استقطاب لما حولها، ثم بناء القلعة، وكان الأصح أن يقول: اشيدت القلعة فوق قواعدها الأساس الأثرية التاريخية، وأن الفرنج استولوا على المدينة والقلعة بعد أن بناها وعمّرها الأردنيون قبل آلاف السنين في التاريخ، وهذا جاء بعبارة واضحة هي: « ثم بنوا حصنه فكانت قلعة مذكورة، فاستولى عليها الفرنج حتى فُتِحَ في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين ».

إذن فمن التجنّي القول أن قلعة الكرك ومدينتها هما صليبيّتان، أو بناهما الصليبيون، وهذا كلام غير صحيح ولا يتفق مع حقيقة التاريخ والحفريات، لكنهم أضافوا وتوسّعوا بما يزيد من استقرارهم وسيطرتهم على المنطقة والناس فيها. لكنهم وجدوها قلعة قديمة، فهي تبدأ من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد.

3- إن موقع الكرك وقلعتها استراتيجي، لدرجة أنها تتحكم بما يأتي من الجنوب والغرب والشرق من أخطار، فأصبحت كما هو عنق الزجاجة تتحكم بطريق الحج الشامي من الشمال، والمصري من الغرب. وفي طريق الغزوات القادمة من هذه البلدان والجيوش الغازية والعابرة أيضاً وبذلك لم يكن اختيار

الكرك ومدينتها عبثاً، بل هي الصقر الذي يرقب الأجواء، والنجم الذي يوقف الأنواء.

4- إن الدوريات تخرج لمراقبة الطرق وحراستها « ورصد الطرقات المسلوكة، وصيّر في السُّبُل المشكوكة، قد أخذ من الآمال بمُخْتَنقها، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها ».

فالكرك إذن نقطة تحكّم في طرق مصر، وجزيرة العرب والأردن وفلسطين وسائر بلاد الشام. وقد كتب مؤلف آخر في نفس الفترة، وتوفي في العام الذي توفي فيه ابن فضل الله العمري، وهو سراج الدين عمر بن مظفّر ابن الوردي، المتوفى عام 749، وهو العام نفسه الذي توفي فيه ابن فضل الله العمري. حيث يصف الكرك في كتابه: فريدة العجائب، وفريدة الغرائب، وذلك في معرض وصفه لإقليم الشام إذ يقول: «أرض الشام وهو إقليم عظيم كثير الخيرات، جسيم البركات ذو بساتين، وجنّات، وغياض، وروضات، ومتنزّهات، وفواكه مختلفة رخيصة، وبها اللحوم كثيرة، إلا أنها كثيرة الأمطار والثلوج وهو (أي إقليم الشام) يشتمل على ثلاثين قلعة، وليس فيها أمنع من قلعة الكرك» (ص37).

وبذلك نجد أن الوضع المناخي في بلاد الشام قد تغيّر منذ القرن الثامن الهجري حتى الآن القرن الخامس عشر الهجري. فهو يقول: «إن إقليم الشام كثير الثلوج والأمطار» ، آنذاك، ولكن الأمر الآن مختلف تماماً، حيث تقل الأمطار والثلوج إلا في سنوات محدودة، لكنها غير متتالية وتتخللها سنوات عجاف كثيرة. كما أن قلعة الكرك كانت أمنع قلاعها، وذلك بسبب أهمية موقعها ودورها، ومهماتها ». فضلاً عن أن الأردنيين من حولها يحمونها، ويحتمون بها، وكذلك أسوارها، والحامية التي تلتجئ إليها.

وفي القرن (8 هـ) نفسه يتحدث الحميري (محمد بن عبدالمنعم) في كتابه: الروض المعطار في خبر الأقطار. إذ يصف الكرك بأنها: «حصن مشهور بناحية الشام، ومعقل مشهور» (ص 493). وقد كان في زمن الاحتلال الصليبي، مركز الثقل الإفرنجي، لأنه يعزز موقعهم بالأردن، ويحمي بقية ممالكهم الاستعمارية في فلسطين وبلاد الشام، لذلك كان حسبما يقول الحميري: «أعظم حصون النصارى معترض في طريق الحجاز». وإن قصة اعتراض ملك الكرك لقافلة الحجاج المسلمين واختطافها، بما فيها من النساء، مشهورة زمن صلاح الدين الذي أقسم للانتقام من ملك الكرك بيده، وقتله بيده وسيفه. وقد أتينا بالتفصيل لما أورده الحميري عن الكرك في الملحق، ولا داعي للتكرار.

ويذكرها ابن جبير في نهاية القرن السادس الهجري (ت 614 هـ) في رحلته أن بالكرك حوالي أربعمائة قرية، وأنها كانت تحت سيطرة الصليبيين، وأنها: «المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البرّ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشفّ قليلاً (أي أكثر قليلاً)، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يُذكر أنه ينتهي إلى أربع مائة قرية» (ص 260).

وبذلك نجد وحسبما يقول ابن جبير، أن الكرك هي التي تزوّد فلسطين بالمنتوجات (سرارة أرض فلسطين)، وهي ظهيرها الذي يحميها، وأنها واسعة الأرجاء، متصل العمارة، ومن حولها 400 قرية، وهذا يفنّد أقوال المثبورين والحاقدين على الأدرن، أنها كانت بلاداً خاليةً قبل أن تُبْتَلى بالطيور المهاجرة من كل جنس، وقبل أن تصبح محرّمة على بلابله الدّوح.

وبعد قرن ونصف تقريباً (القرن الثامن الهجري)، مرّ بها الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة، وذلك سنة 726هـ/ 1325م، وكان ضمن ركب الحجاج الشامي ذلك العام، وكان مروره بها في شوّال، وقد كانت هذه فرصة له لوصف قلعتها. وفي حديثه عن الكرك، نجد متعة فيما يقول:

«ثم يرحلون (أي موكب الحجاج) إلى اللجون، وبها الماء الجاري، ثم يرحلون إلى حصن الكرك، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها، ويُسمّى بحصن الغراب، والوادي يطيف به من كل جهاته، وله باب واحد قد نُحِتَ المدخل إليه في الحجر الصلّد، النوايب، وله لجأ الملك الناصر لأنه وُلِيَ الملك وهو صغير السنّ فاستولى على التدبير مملوكه سلار النايب عنه فأظهر الملك الناصر، أنه يريد الحج ووافقه الأمراء على ذلك، فتوجه إلى الحج، فلما وصل إلى عقبة إيلة، لجأ إلى الحصن (أي الكرك) وأقام به أعواماً إلى أن قصده أمراء الشام واجتمعت عليه المماليك» (ص344، من تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

ويواصل القول في رحلته هذه: «وكان قد وَلِيَ المُلْكَ في تلك المدة (أي التي أمضى فيها الملك الناصر مقيماً في القاهرة) بيبرس الششنكير وهو أمير الطعام، وتسمّى بالملك المظفّر، وهو الذي بنى الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاه سعيد السُّعَداء التي بناها صلاح الدين بن أيوب، فقصده الملك الناصر بالعساكر ففرّ بيبرس إلى الصحراء فتبعه العساكر وقُبض عليه وأُوتيَ به إلى الملك الناصر فأمر بقتله فقُتِلَ، قُبض على سلار وحُبس في جُبٍّ حتى مات جوعاً، ويقال أنه أكل خُفّيه من الجوع، نعوذ بالله من ذلك (...) وأقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنيّة وتجهّزوا لدخول البرية» (ص346، تحفة النظار).

ومن خلال ما يقوله ابن بطوطة، نجد أن مواكب الحجيج كانت تمرّ بالكرك في القرن الثامن الهجري، وأن هذا الحصن كان قوياً، يتحصّن به الملوك على مرّ الحقب والأيام. ومن الملفت للنظر حديثه عن سيل اللجون الذي لم يعد موجوداً، وذلك يشير إلى زحف التصحّر وانخفاض مستوى المطر والماء الجوفي إلى هذا النبع التاريخي المعروف في أيام الوثنية والجاهلية والمسيحية والإسلام.

وبعد عشر سنوات من مرور ابن بطوطة بالكرك، مرّ بها رحّالة آخر عام 737هـ/ 1336م، وهو أندلسي، يدعى خالد بن عيسى بن أحمد البلوي الأندلسي،

حيث يتغزل بمدينة وحصن الكرك، كما لو أن شاعراً مُجيداً، أو كاتباً ملهماً يتغزّل بملكة جمال العالم من النساء؛ يقول البلوي الأندلسي؛ وهو يصف طريقه من بيت المقدس إلى مكة المكرمة:

« وسرنا إلى أن وافينا مدينة الكرك المحروسة العليا، التي هي أمنع معقل في الدنيا، فوصلنا إليها في ضحوة يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال (سنة 737هـ/ 1336م) فرأيت مدينة عظيمة الجَرْم، سامية الرّسم، كأنها على مرقبة النجم، يحصر دونها الناظر، ويقصر عنها العُقَاب الكاسر، يكاد من علاها يعرف حوض الغمام، ويقف على هام السّحاب والقتام، متناهية في الحصانة، موصوفة بالوثاقة، ممتنعة على الطلب والطُلاّب، مختصة بكثرة الحُرّاس وشدّة الحجاب منصوبة على أضيق المسالك وأوعر المناصب صماء عن الرّاقي، عالية على المرتقى، نائية للمراقب لن تزدها الأيام إلا بنو أعطاف، واستصعاب جوانب وأطراف، فهو حمى لا يُراع ومعقل لا يُستطاع، كأن الأيام صافحتها على الأعضاء من الحوادث، والليالي عاهدتها على التسليم من القوارع، ضخمة المأوى، رحبة المثوى، معشوقة السُكْنى رائقة المَغْنَى:

تَحْسَبُ النَجْمَ في دُجَى الليلِ زَهراً   في رُبَاهــا وتَحْسَــبُ الزَهــر نجمــا

وقد سادت الفَرْقَد بالوهاد والنّجد، وفتحت أبوابها أنقاباً في وسط الحجر الصلّد، والعجب كل العجب أنها على بُعد مرقاها، وسموّ مرتقاها، قد أنبعث في أعلاها الثّمار، وتفجّرت منه العيون والأنهار، فكلما هبّ فيها النسيم غرّدت الأطيار

فهـل لا تسْـألِ الغمـام ولا تشتاق كالأرض كُلُّها أذارُ

فنزلنا بخارجها، في الثنيّة العلية، وقد وصل بوصولنا المحمل الدّمشقي، والمركب الحلبي، وتألّفت هناك رُكْبان الشّام، وأعِدّت عُدّةُ السيّر لزيارة أفضل الأنام ﷺ » (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق / البلوي، 1:267-268).

ومما قاله البلوي، نستشف مقدار الهيبة والصورة المتسامية للكرك في أنفُس العرب والمسلمين في كل مكان، وأنهم يتمنون رؤيتها إذا ما سافروا لأداء فريضة الحج، فهي من أمنع معاقل الدنيا شامخة تطاول السماء والغمام وتتجاوز السحاب، واسعة كبيرة.

ونجد من خلال ما قاله ابن بطوطة والبلوي أن الثنيّة كانت محطة نزول الحجاج في الكرك، وأن المجيء إلى القلعة، إنما كان بقصد الزيارة، وقد استمر هذا على مدى قرنين ونيّف، وأكّده رحّالة آخر جاء مع موكب الحجيج عام 755هـ/1354م، وهو الصلاح الصّفدي حيث قال، كما قال البلوي من قبل أنهم نزلوا بالثنيّة لمدة خمسة أيام.

ويُنسب إلى الكرك الكثير من القادة والعمالقة والعلماء في جميع الاختصاصات والمجالات عبر القرون، فهي بلدة ليست عقيماً، بل تلد دائماً من رحمها المفكرين والرجالات العمالقة، إنها الكرك إنها الأردن.

-42-

كوم عباد

الكوم اسم يُطلق على الجبل الذي يرتفع على ما حوله من الأرض، فيقال كوم ياجوز لأنه قُنّةُ جبل يشرف على جميع الجهات من حوله، ويعلوها ارتفاعاً. والكوم أيضاً هو الحصّة عند تقسيم الأشياء، عندما يتم تخصيص هذه الأجزاء بشكل متساوي تقريباً ثم توزّع بالقرعة فيقال: هذا كوم فلان، أي حصّته، والكوم هو أيضاً الشيء من المواد المأكولة إذا تم وضعها على الأرض على شكل مخروطي. والكوم إذا اقترنت باللحم الآدمي تعني الإناث، فيقال فلان عنده كوم لحم، أي عدة بنات لم يتزوّجن بعد، رغم بلوغهن سنّ الزواج. والكوم هو الجمل أو الناقة إذا كان أو كانت سمينة جداً، ذات سنام بارز يدل على حُسْن حالها.

وأما الكوم هنا، فتعني التلّة التي تعلوها قرية كانت عامرة وبقيت كذلك أو أصبحت خِرْبَةً وأطلالاً وأثراً بعد عين.

وقد ذكر هذا الموقع «كوم عباد» الرحّالة محمد بن عثمان السنوسي (ت1318هـ) في كتابة الرحلة الحجازية. وقد مرّ بها عام 1299هـ/ 1881م حيث قال عنها: «مررنا في طريقنا على أثر قرية عباد، وتسمى في الأصل كوم عبّاد، وهي من قرى حوران (...) ونزلنا عند الغروب في المفرق وبه قلعة خَرِبَة » (2:281).

إذن كان هذا المكان «كوم عباد» قرية عامرة مستقرة، أصبحت الآن (القرن العشرين والحادي والعشرين) أثراً بعد عين، وهذه إشارة حديثة لقبيلة بني عباد في الأردن (قبيلة المؤلف) على مدى ثلاث آلاف سنة، حيث ذكرتهم الوثائق العراقية القديمة، حيث حاربهم ملك العراق في حينه وذلك عام 715ق.م. وكانت منازلهم فيما بين معان ومدائن صالح. وفي عام 135ق.م. انقضّوا على جيش اليهود في هيرموكس (وهي اليرموك الحالية) وهزموا اليهود في غمرة نشوتهم بنصرهم (اليهود) على ملوك الأردن المتحالفين آنذاك.

ثم ذكرتهم المصادر التاريخية عندما كانوا في طبقة فحل أهل حاضرة واستقرار وذلك في معركة فحل التي كانت سنة 635م أو ما حولها، حيث انهزموا أمام جيوش المسلمين، وتم أسر الكثير منهم، ثم اعتنقوا الإسلام، وتحوّلوا عن النصرانية. ونجد عبر تاريخ الأردن تردد اسم العبابيد (عباد، بني عباد) على سائر أرجاء الأردن من الجولان حتى مدائن صالح على مدى ثلاثة آلاف عام، ونجد هنا برهاناً آخر على وجودهم في البقاع الأردنية، بوجود قرية لهم في مناطق المفرق في البادية الشمالية.

ليس عجيباً أن تنظر هذه القبيلة إلى الأردن أنه وطنها بسائر أقسامه وأرجاه، وأن عظام آبائهم وأجدادهم من أعماق التاريخ موجودة في كل مكان من الأردن؛ هذا ما نجده من الأحداث والوقائع والوثائق التاريخية. وإن قول

الرحّالة التونسي، محمد السنوسي، بقول أن كوم عباد كانت تسمى قرية عباد، يدل على أنها تحولت إلى أكوام من الحجارة بعد أن كانت قرية عامرة، وهذا يدل على قديم عهدها، منذ قرون طويلة، وأن أهلها هجروها. ومثل هذا يقودنا إلى بعض العشائر من عباد الذين يشار إليهم أنهم جاءوا من شمال الأردن أو من البادية الشمالية أو الجنوب.

ومن خلال ربط هذه الوقائع ببعضها، نجد أن عودتهم للالتحام بجسم عباد، ما هو إلا إعادة التئام، بعد تفرّقهم لأسباب مختلفة. وإن تطابق اللهجة والثقافة الاجتماعية، والعادات والتقاليد والموروث الاجتماعي ليدلّ على أنهم جميعاً من بعضهم، لا أقول نسباً، وإنما روابط تاريخية واجتماعية.

وقد ذكرنا في كتابنا Bedouin Justice (القضاء عند البدو) 2006 وثيقة تركية مؤرخة في عام 1969 تم فيها منح عدد من مشايخ البلقاء وحوران أوسمة من قِبَل السلطان عبدالعزيز (تركيا) وذلك لأنهم تركوا الحروب القبلية وجنحوا للسلم. وهنا نشير أن العبابيد الذين رحلوا من البلقاء عام 1850 إلى بيسان، قد عادوا إليها عام 1863 عبر شمال الأردن، ويبدو أنهم اتخذوا هذه القرية فترة من الوقت أثناء العودة، وسميت باسمها.

-43-
اللّجــون

سبق وذكرنا أن اللجون اسم وعنوان يطلقان على موقعين أحدهما في شمال غرب الأردن القديم، شمال فلسطين حالياً، والثاني في منطقة الجنوب إلى الشمال الشرقي من مدينة الكرك. وقد كان فيها حصن روماني وحامية عسكرية رومانية. وقد ذكرها الحموي في القرن السابع الهجري (ت 626 هـ) بقوله:

« اللّجون (بفتح أوله) وضمّ ثانيه وتشديده وسكون الواو وآخره نون) واللّجن والنّبع واحد (...) واللُّجُون أيضاً موضع في طريق مكة من الشام قرب تيماء وسماه الراعي لجان في قوله:

صلّى على عَزّة الرحمن وابنتها وبَطْنُ لجُان لما اعتادني ذكرى

(الجزء الخامس، ص 13-14).

أما قوله أنها قرب تيماء فهو أمر لا يتفق مع الحقيقة، ولكن شيخ الربوة في القرن الثامن (ت 739)، وكّد أن اللجون الأردنية تتبع مملكة الكرك، حيث يقول: «ومن جند الكرك اللّجّون والحسا والأزرق والسلط» (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص213).

كما ذكرها ابن بطوطة في طريقه من دمشق إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وكان مروره بها في شهر شوال 726هـ/ 1325م، حيث يذكر عدة مواقع أردنية مرّ بها موكب الحجيج الشامي إذ يقول: « بركة زيزة (زيزياء) ويقيمون عليها يوماً ثم يرحلون إلى اللّجّون وبها الماء الجاري، ثم يرحلون إلى حصن الكرك » (تحفة النظار 1:344).

وكانت محطة بها أسواق عامرة، وأناس كثير، وذلك في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وهذا ما نقله إلينا المؤرخ ابن طولون عندما مرّ بها في عام 920هـ/ 1514م حيث يقول: « فذهبنا على طريق اللّجّون إليها وقد حصل لنا مشقّات من عقبات كثيرة مزعجة، ثم وصلنا منزلة اللّجُون بعد الظهر فوجدنا الأسعار بحمد الله منحطّة (أي رخيصة) وحصل جَلْبٌ كثير من الطحين من القدس فحصل به الرفق ».

نلاحظ هنا أن استيراد الطحين وليس القمح جيء به من القدس، ويمكن أن نتصوّر هنا أن القمح يذهب من الأردن ليجري طحنه في القدس، ويعاد

تصديره ثانيةً. ونجد هنا توكيد أن ماء اللجون كان سيلاً جارياً. كما أن الأسعار رخيصة وأن العلاقات التجارية بين الكرك والقدس (الأردن وفلسطين) كانت قائمة. كما تدل هذه العبارة على وجود استقرار وبلدة وأسواق وسكان وحياة، ومياه غزيرة، وأن تجار القدس يعيدون القمح الأرني مطحوناً لبيعه على قوافل الحجاج في منزلتهم في بلدة اللجون.

وفي القرن نفسه (أي العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي) مرّ بها الرحّالة الجزيري، حيث قال عن اللّجّون:

« ومن خان القطراني كان الراكب قديماً ينزل بقرية قديمة. تسمى اللّجّون، يقيم بها الراكب ثلاثة أيام، وينزل الكرك، وقد بَطَل ذلك من نحو ثمانٍ سنين وصار الركب ينزل بمنزلة الحسا » (الدرر الفرائد المنظمة 2:1266/ 1267).

وبذلك نجد أن خط سير الحجاج تحوّل في نهاية القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي من القطرانة إلى اللجون إلى الكرك، أقول تحوّل من القرطاني إلى الحسا مباشرة. ولا ندري ما هي الأسباب، لكننا نجد التحوّلات.

-44-

مـاركـا

المتداول بين الناس مما سرّبته السلطات الرسمية منذ تأسيسها في عام 1921، أن ماركا - تحوير للكلمة الإنجليزية (مارك ون Mark One) أي العلامة الأولى، التي منه يبدأ القياس باتجاه طريق بغداد. والحقيقة أن هذا هراء، ذلك أن الكلمة عربية، ومعناها الاتكاء على الشيء، أي: إذا جلس الشخص واتّكأ، يقولون ارتكا، وتقول الأغنية الشعبية الأردنية:

يالمـــــرتكي عالســـــيف ســـــيفك جـــــرحني
بـــين الخـــلق والـــناس حـــبّك فضـــحني

ولو نظرنا إلى موقعها حيث أنها متسع من الأرض أقيم عليها مطار عمان (أول مطار كبير بالأردن)، وتحدّه سلسلتا جبال هضبية غير حادّة، من الشمال، وأخرى من الجنوب، وتنتهي عند الغرب إلى جبال عمان. فهي كالمتكأ على الفراش في مجلس عام.

وقد ذكرها المؤرخ ابن طولون الصالحي سنة 920هـ/ 1514م على أنها في الطريق للقادم من الزرقاء إلى عمان، ويقول: « ثم رحلنا أوائل فجر الغد فمررنا على قرية مركا أوائل النهار ثم وصلنا منزلة عمان ». وبذلك نجد أن هذا الاسم يلازم هذا المكان منذ خمسة قرون، وأن أي كلام حول حداثته إنما هو هراء واضح وقد سبق وتحدثنا بتفصيل أكثر عنها في هذا الكتاب.

-45-

معـــان

تقع على جبل في جنوب بادية الأردن هضبي التكوين، وانحداراته خفيفة مقبولة انسيابيّة، وليست حادّة. ومعان كلمة عربية بمعنى منزل، وأقدم من سكنها المدينيّون وهم من قبيلة مدين الجذامية (قوم سيدنا شعيب عليه السلام)، واستوطنها الحوريون، ثم الأدوميون، وكانت مركزاً لتجارة وسلطة المعينيّين في أرض مدين (وقوعها على الطريق القادم من جنوب الجزيرة المتجه إلى بلاد الشام)، أي أنها كانت نقطة الحدود الشمالية لدولة معين اليمنية.

وعندما دالت دولة المعينيين، انتقلت السيطرة على معان إلى السبائيين الذين حلّوا مكان أبناء عمومتهم المعينيين، وذلك عام 640 ق.م تقريباً، حيث استمروا في السيطرة عليها إلى حوالي 500 ق.م.، حيث استولى عليها اللحيانيون، ثم آلت

إلى حكم الأنباط ثم إلى الغساسنة بعد عام 529 م، حيث جدّدها الحارث الغسّاني في مكان يُسمّى الحمّام الآن. وكان عاملهم عليها أبو فروة عمرو بن النافرة الجذامي ﷺ وهو من قبيلة جذام أهل البلاد الأصليين، حيث أعلن إسلامه، وأرسل بهدية إلى رسول الله ﷺ ، وقد عاقبه الروم بإلقاء القبض عليه وصلبه في عفرا، حيث قال بيته المشهور الذي ذكرناه في الحديث عن عفرا:

بَلّغ سراة المسلمين بأنّني سَلْم لربّي أعظُمي ومُقَامي

وتنظر الحركة الوطنية الأردنية الحديثة التي يعتبر المؤلف واحدة من قادتها ومؤسسيها ورموزها ومفكريها إلى أبي فروة الجذامي، أنه واحد من رجالات الحركة القدماء في بواكير العصر الإسلامي، لأنه كان يسعى ضمن عقيدته إلى تحرير بلاده الأردن من الاستعمار الروماني والاستعمار الديني، إلى نور الحرية والحياة والإيمان والتحرير. كان يريد تحرير الأوطان والإنسان والعقيدة، ووجد ضالّته هذه في العقيدة الإسلامية فآمن، ودفع الثمن غالياً لإيمانه هذا بقتله ثم صلبه في حمامات عفرا، حيث أقيم له الآن (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين) نصب تذكاري في عفرا حيث لقي الشهادة إن شاء الله.

وفي عام 8هـ/ 629م، نزل بها زيد بن حارثة الكلبي الأردني على رأس جيش المسلمين ومعه كلٌّ من جعفر بن أبي طالب الشقيق الأكبر لسيدنا علي بن طالب، وعبدالله بن أبي رواحة، ومرّوا بسَرْغ (المدوّرة الحالية) حيث كانت توجد عين ماء جاري وغزير شاهدته (المؤلف) عام 1972 جافاً، لكنني رأيت القطع في الصخر لمسيل الماء عند خروجه من النبع، ورأيت بقايا عفى عليها الدهر لبساتين من النخيل والأعناب التي آلت إلى زوال، ولم يبق منها عام 1972 إلا بقايا أشجار نخيل قاومت الدهر والسنوات والعاتيات.

نزل جيش المسلمين بقيادة زيد بن حارثة الكلبي في معان، ولذلك قصة مفصّلة في كتب السيرة والتفسير. ومنها انطلق الجيش نحو مؤتة، بعد مشاعر بالنكوص والعودة فكانت معركة مؤتة في سنة 8هـ/ 629م، التي استُشْهِد بها القادة الثلاثة، زيد، وجعفر، وعبدالله.

وقد ورد في سيرة ابن إسحاق حول نزول المسلمين في معان قوله: « لما نزل المسلمون معان، وهي بين الحجاز والشام، حصن كبير على خمسة أيام من دمشق بطريق مكة، بلغه أن هرقل قد نزل من أرض البلقاء في مائة ألف، فأقام الناس (أي الجيش) بمعان ليلتين، ثم إن عبدالله بن رواحة شجّعهم، فاستمرّوا لوجهتهم ».

ومن شعر عبدالله بن رواحة في ذلك قوله:

جلبنا الخيل من أجإٍ وفَرْعٍ ... تُغَرُّ من الحشيش لها العُكُومُ
حذوناهم من الصّوّان سِبْتاً ... أزَلَّ كأنّ صفحَتَه أديم
أقامت ليلتين من مُعَان ... فأعقب بعد فترتها جُمُوح
فَرُحنا والجياد مُسَوَّماتٌ ... تَنَفَّسَ في مناخِرِها السُّموم
فعبَّأنا أعِنَّتها فجاءت ... عوابِسَ والغبار لها بريمُ

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، نزلها الأمويون ومواليهم، ثم غادروها، وبقيت فرقة منهم في الشوبك تسمى الجعدية، ويُعتقد أنهم من بقايا بني أمية ومن أتباع مروان بن محمد الملقب بالجعدي وهو آخر خلفاء بني أميّة.

وقد أُصيبت معان بالاحتلال الصليبي في القرن الثاني عشر الميلادي، حيث شيّد بلدوين الصليبي قلعة في معان شوهدت قائمة في عام 1862 وهي في معان الشامية. وفي عام 726هـ/ 1325م نزلها الرحالة ابن بطوطة، حيث قال: « ثم ارتحلنا إلى معان وهي آخر بلاد الشام ».

وفي عام 971هـ/ 1563م بنى السلطان سليمان القانوني قلعة وساقية في كل من معان والقطرانة، وهذا يدل على توفر الماء، وبخاصة في معان، وذلك لقربه من سطح الأرض. وأذكر (المؤلف) عام 1960 عندما كنت أخدم ضابطاً في معان، أن جميع الحواكير (الحفائر) تُسقَى بماء نبع، من خلال حفر حوض في الأرض على عمق أمتار تتراوح بين ثلاثة وتسعة أمتار، حيث تتجمع المياه، ويتم استخراجها بالدلو، أو بالمولدات الكهربائية للشرب ولإرواء البساتين. وبذلك كان من السهل في الوقت القديم استخراج ساقية من الماء، من خلال الحفر بالأرض، حيث كانت الأرض مُتْرَعة بالمياه الجوفية.

وتقسم معان إلى حيَّين (مفردها حي). الشمالي وهو الشامية لأنه من جهة بلاد الشام، والجنوبي وهو الحجازية، لأنه مما يلي الحجاز. وهذا يبرهن أن موقع معان يعتبر على أطراف الشام مما يلي الحجاز وهذا ما نجده لدى صفي الدين البغدادي (ت 739 هـ) في كتابه المراصد: قائلاً عنها أنها: « مدينة في طرف بادية الشام، تلقاء الحجاز، من نواحي البلقاء (...) ومنها ينزل (أي يمرّ عبرها ثم ينزل بها كواحدة من منازل التوقّف). (أقول منها ينزل) حاج الشام إلى البرّ (أي من يسلك الطريق البرية). (مراصد الاطلاع 1287:3).

مرّت بها جيوش إبراهيم باشا في النصف الأول من القرن التاسع عشر في طريقه لاحتلال بلاد الشام، ووصلها الخط الحديدي الحجازي عام 1903 الذي أمر بإنشائه السلطان عبدالحميد. وفي عام 1910 كانت معان قائمقامية، وفيها قاضي، وذكرها خير الدين الزركلي في كتابه: «عامان في عمان» حيث زارها عام 1921 (حول ما كتبه الزركلي: انظر كتابنا عشائر الأردن (ج3) منشورات الدار الأهلية - عمان).

ولابد من التذكير بأن حِسْمى من أراضي ديار معان، وهي منازل جذام عند الفتح الإسلامي، كما أن وادي القِرَى يقع ما بين الشام والمدينة المنوّرة، وكانت تنزله قضاعة الأردنية، ثم جهينة الأردنية، وعَذْرَة وبلي وكلهم عشائر

أردنية. فضلاً أنها كانت منازل ثمود قديماً، وتعتبر العلا من بلدان ثمود بل ومن أهم بلدانه الآن.

في محافظة معان أعلى قمة بالأردن وهي رم 1754م، وجبل أم عشرين 1753م، وجل مَبْرَك 1727م، ورأس أم لوزة 1674م، والقليعة 1619م، وجبل البطام 1616م، وجبل أم صوانة 1615م، وجبل أم حيطان 1525م، وجبل رمان 1404م، وجبل القناصة 1332م، وجبل أبو رشراش 1134م.

ومن المواقع التاريخية في منطقة معان ما يلي:

أذرح: ترتفع 1293م وهي تقوم على بقعة أدروا Adroa الأدومية التي أخذت الاسم نفسه في الحقبة الرومانية حيث كانت معسكراً كبيراً للحاميات العسكرية الرومانية.

رَمْ: جبل شاهق حجارته رملية وردية اللون، جذابة المنظر، رائعة الحُسْن والجمال، وذكرها بطليموس في جغرافيته أنها: Arrnaua وذكره ياقوت الحموي باسم إرِمْ، والإرم في أصل اللغة: حجارة تُنصَبُ في المفازة عَلَماً وإشارةً للمارّة والجمع آرام وأروم.

الصّدقة: أقام عليها الرومان معسكراً لحاميتهم العسكرية في تلك الديرة، وحرّفوا اسمها إلى Zodokatha .

سَرْغ (المدوّرة حالياً): سُرُوغ العنب بمعنى قضبانه الرطبة، الواحدة سَرْغ: أوّل الحجاز وآخر الشام. وفيها التقى سيدنا عمر بن الخطاب أبا عبيدة وأصحابه (رضي الله عنهم وأرضاهم). فأخبروه أن وباء الجدري قد وقع بالشام، فرجع إلى المدينة. سُمّيت سَرْغ المدوّرة بعد وصول الخط الحديدي إليها في مطلع القرن العشرين، وذلك لبناء محطة فيها لدوران القطار إلى عمان، أو المدينة المنورة. وهي كذلك مفترق طرق نحو الديسة، وإلى تبوك وإلى الطبيق

والبادية شرقاً وإلى معان، فهي كالدوار عند تقاطع الطرق يتحول المسافر من طريق إلى آخر عندها، فكأنه يدور.

-46-

معان والشوبك

الشوبك: سبق وتحدثنا عنها وهي كلمة آرامية تعني « تارِكْ » و « ساكب » وهي ترتفع 1230م عن سطح البحر، وكانت قلعة أدومية أردنية عربية وموقع عسكري أدومي ثم صليبي ثم عربي ثم عثماني هام يتحكم بطرق القوافل، وحركات القبائل، وهي ظهير للكرك، لذا أقام عليها الصليبيون قلعة عام 508هـ/ 1115م للإغارة على القوافل العربية الإسلامية، وسمّوها Mons-Regalis (مونتريال)، ثم أقيمت على أنقاضها قلعة عربية زمن صلاح الدين والمماليك. واتخذها العثمانيون مقراً لحاميتهم في القرن التاسع عشر للسيطرة على الطرق والعشائر والشوبك، وتمكّنت عشائر الشوبك ومركز الجباية ونهب أقوات الأردنيين ومقدّراتهم الأردنية أن تحرر القلعة من الاحتلال التركي عام 1918.

وقد أخذت معان نصيبها في كتب الرحّالة والجغرافيين المسلمين، حيث يقول ياقوت الحموي (ق7هـ) في معجم البلدان « مَعان، بالفتح وآخره نون، والمحدثون يقولون بالضم (أي ضم الميم) وإياه عنى أهل اللغة، والمَعَان: المنزل. يقال الكوفة مَعَانِيْ: أي منزلي، قال الأزهري، وميمه ميم فعل. وهي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء » (153:5).

أما شيخ الربوة (ق 8 هـ) فيقول أنها من مدن مملكة الكرك، حيث يقول: « ومَعَان مدينة صغيرة على سيف البادية، عمّرها طائفة من بني أميّة، وسكنوها ثم ذهبوا (أي غادروا الموقع إلى مكان آخر)، وهي اليوم منزلة للحجاج، يقام بها سوق في غدوِّهم ورواحهم » (نخبة الدهر وعجائب البر والبحر، ص 213). وفي زمنه تحدث أبو الفداء (ق 8 هـ) كلاماً مشابهاً، وقال أنها حصن من الشراة، لكنها

الآن (الثلث الأول من القرن الثامن الهجري) خراب، ليس بها من أحد، وهي على مرحلة من الشوبك » (تقويم البلدان، ص 229). وبذلك نجد إشارة إلى أن معان قد تمرّ بفترة خراب بسبب الحروب والجيوش والجفاف، وتغير مسار الحاج، وعدم توفر الأمن والحماية، لكنها لا تكون خالية دائماً.

أما ابن بطوطة (نهاية القرن السابع الهجري ومطلع القرن الثامن) (ت779 هـ) فيذكرها في حجّه مع الركب الشامي عام 726هـ/ 1325م، ويقول: « ثم ارتحلنا إلى معان، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء » (تحفة النظار، ص 346). وبعد عشر سنوات (عام 737هـ/ 1336م) مرّ بها الرحالة المغربي خالد البهوي حيث يذكر أنه وركب الحجاج تحركوا من بيت المقدس إلى الكرك إلى الحسا، ثم يقول: « إلى أن وردنا ماء معان وهو كثير عذب نَـمِيْرٌ، خبتنا به وعقد عزمنا على الرحلة، وآتينا صدقاتها نِحْلَةً، ثم سرنا إلى ثغرٍ صَغْرٍ، واقتحمنا صدر فلاة تروّع كُلَّ سعادةٍ:

وَمَهْمَامَـــةٍ كالـــبحر لا أثـــراً فيهـــا لِمُفْـــتَقِرٍ ولا سُـــنَنُ
لـــو سـار فيهـا الـنجم ضَـلَّ بهـا حـــيرانُ لا شـــامٌ ولا يَمَـــنُ

وبعد حوالي خمس عشرة سنة ونيّف جاءنا وصف لها من رحّالة هام وهو الجزيري الذي مرّ بها في طريقه إلى الديار المقدسة، وذلك عام 755هـ/ 1354م حيث وصفها في كتابه: حقيقة المجاز إلى الحجاز، فقال: « وسرنا بعد ذلك والغاية معان (أي والهدف هو الوصول إلى محطة معان)، وبالله المستعان، ومعان عند الحجاج أول الحجاز وآخره، ومنها موارده وإليها مصادره، وعندها يودّع صاحبه المودّع، ولهذا قيل: من معان يرجع المودِّع، كما قيل في الدرب المصري: من البويب يَرْجِعُ المودّعون، ومنها تضيق الأخلاق، وتتفرّق الرّفاق، وتنحلّ النّياق، ويَنْحَلُّ وثاق الاتفاق، ويَتَسلّطُ الجَمّال والعكّام على الحجاج، ويذلّون لهما ذيل أهل الكوفة للحجاج.

وقلنا:

أقــول والــركب في اضــطراب وَكُــلُّ ســارٍ في المســير عــانِ
قــد بَــرَّح الســير بالمطايــا فَمَــنْ معيــني عــلى مَعَــانِ

(الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة 2:1258-1259).

ولا زالت معان نقطة توديع واستقبال الحجاج الأردنيين إلى الآن، وأحياناً، يصل المُودِّعون والمُستقبلون إلى المدوَّرة جنوباً، وهي نقطة الحدود الأردنية مع السعودية، حيث أن تلك بقيت دورة مستمرة على مدى التاريخ، فسبحان الله ربّ العرش العظيم.

وفي الوقت الذي وجدنا مدحاً لمائها العذب من قِبَل الرحالة السابقين إلا أن كلاً من قطب الدين المكي في حجّه عام 965هـ/ 1557م والرحالة كبريت عندما مرّ بها عام 1040هـ/ 1630م، أقول يصفان ماءها ليس بالماء الجيِّد، وذلك على مدى قرن تقريباً، مما يدل على سني الجفاف التي تؤدي إلى نضوب الماء العذب، وخروج الماء المسوس الصحراوي المالح من الأعماق الأبعد.

إلا أن الأمر اختلف عام 1080هـ/ 1669م، حيث مرّ الرحالة الخياري بها، ووصف واديها أنه « وادٍ عذب الهواء حلو الماء، ماؤه يوجد نبعاً واستنباطاً من الوهاد، بحيث إذا حُفِر لحو الذراع أو أكثر قليلاً، ظهر الماء ونبع، ووجد منه ماء لمريده فيه تزيد مُتّسع » (تحفة الأدباء: ج 1 ص 81).

ولجد لزاماً لسرد ما ذكره الرحّالة حول معان، فقد ذكر الخياري (ق 11 هـ/ 17 م) في عام 1080 أثناء رحلته من الحجاز إلى الأستانة لمقابلة السلطان العثماني في حينه، فقد مرّ بالعقبة، واتجه لحو الشمال عبر معان، وهنا يقول: « لاحت بعد صعود تلال مرتفعة، وانخفاض وهاد متفرقة ليست بمجتمعة، أعلام معان وآثار

ذلك للمعان، فإذا قرية (أي معان) مشتملة على بويتات (مفردها – تصغير بيت) وبسيتنات (مفردها تصغير بستان) وقلعة قائمة البناء يسكنها جماعة من أهل البلاد (لاحظ من أهل البلاد وذلك يعني أن سكان معان أردنيون من أهل البلاد. ولا غرابة أن يكونوا مدرسة في الوطنية الأردنية) لا طائفة من العسكر كغيرها من القلاع لعدم الاعتناء. وإذا بها سوق قائمة، وخيرات عامّة أكثر ما فيها يباع الشعير والمعبوك والتين، وما يناسب الجمال والأتباع، وبها الغنم السّمان والضأن والبيض الكثير والألبان، وبها بعض الفاكهة كالعنب والكمثرى والتوت وغيرها لم يُدْرِك زمن يُنوعِها (أي نضجها – من اليانعة)، (أي هناك فواكه لم تنضج بعد)، ولم تُبحْ (من البَوْح) لنا حالي ممنوعها فجيء لنا بالكمثرى صغاراً لم تنضج، وبالكرم حُصْرُماً لم يتعنّب (أي لم ينضج عنباً بعد)، من باب أولى يتزبّب (أي يتحول زبيباً). وهو (أي معان) وادٍ عذب الهواء حلو الماء، ماؤه يوجد نبعاً واستنباطاً من الوهاد بحيث إذا حُفِرَ نحو الذراع أو أكثر قليلاً ظهر الماء ونبع، ووُجِدَ منه ماء لمريده (أي لطالبه ومن يريد استخدامه) فيه مزيدُ مُتَّع » (الجزء الأول ص 81-82).

ويستمر الخياري (1080هـ/1669م) في الحديث عن معان، فيسرد ممنوعات أخرى في غاية الأهمية، حيث يقول: « أقمنا بها (أي معان) يوم الاثنين وهو السادس عشر من صفر عازمين على مبيت ليلة الثلاثاء والرحيل منه صبح غده، وقد وصل إليه جماعة كثيرون من الخليل ينقلون الميرة إليه ومن جملة ما نقلوا الكمثرى الصّغار وبالجملة فهو أعمر البنادر للبيع والشراء (لاحظ أعمر البنادر) وقد تخوّف به الحجاج من طائفة من العرب أهل خيل ورماح وهما طائفتان أبناء عم إحداهما مطيعة (أي موالية للدولة العثمانية) تأخذ صُرّتها ومعينها من جهة السلطنة، والأخرى ممنوعة من ذلك، فأرادت الممنوعة، الفتك بالحاج وأخذه فمنعتها الأخرى بخيل ورجال مُلَبّسة دروعاً على ما بلغتني ولم

أرَهُمْ وهؤلاء العرب يُسمّونهم المفارجة[1]، وقد وقع منهم (من الفراجرة – المفارجة) في سنةٍ غير هذه أنهم أجلبوا على الحاج (أي هاجموه) في الذهاب، وعزموا على أخذه عن آخره، وقالوا: نأخذه جميعه ولا نُسكُن بلاد آل عثمان، وكان الأمير (أي أمير الحاج لذلك العام) رومياً (أي أعجمي غير عربي ومن الجيش الانكشاري) يقال له سليمان باشا، وكان قد منعهم صُرُتهم جملةً فأرادوا فعل ذلك. ووقع أن بركّ الحاج بعد الشّديد بعضه على بعض خوفاً منهم (أي تكاتف الحجاج معاً للدفاع عن أنفسهم وإرهاب العدو). واختفى الأمير (سليمان باشا) بين الجمال بعد أن أسمعوه (أي أن الفرارجة شتموه) السبّ البليغ والإهانة التامة، ثم كان سردار الحاج خدا وروي (اسم سردار الحاج) فطلب منه الأمير الدخول فيما بينهم (الفرارجة/الحويطات، والأمير) بالصلح فأجابوه بعد اللتيّا والتي على أن يُعْطَوْا مائة ألف دينار (كمبلغ يعطى للفرارجة) من الذهب الأحمر، فلم يزل يراجعهم ذاهباً وآيباً من أوّل النهار إلى الظهر حتى انحط (نزل) الأمر (قيمة المبلغ) على ثلاثة وثلاثين ألفاً من القروش الأسديّة فاستمهلهم في تسليم ذلك إلى ظهر الغد، فأبوا وقالوا: غايته إلى الغروب فوافقهم بعد علاج (أي بعد التلكّؤ)، ثم سلّموا إليهم ذلك المال بعد جمعه من كبار الحاج، وأراد الأمير أن يوزّع غرمه على الحاج فمنعه بعض الكبار من خُدّام الدولة السلطانية، وقالوا: هذا عار على السلطنة ويروح فيها رأس الأبعد، فرجع عن ذلك وجعله عنده على سبيل القرض، وقال: أسَلّمُهُ من مالي والبيع ما أقدر على بيعه » (تحفة الأدباء، ص 82-83).

---

(1) والأصح الفرارجة وهم فرقة رئيسة من الحويطات وشيخها أبو تايه، أما المطالقة فشيخهم ابن جازي، أما النجادات فشيخهم ابن نجاد. وبذلك نجد إشارة إلى فرقتي الفرارجة والمطالقة، وهما بطنان من بطون الحويطات، أقول إشارة قبل ثلاثة قرون ونيّف كبرهان يدحض الروايات المغرضة التي تدعي عدم وجود عشائر أردنية ولا حويطات في ذلك التاريخ.

ومن هذا النص الرائع، يمكن التحليل والاستنتاج للكثير من الشواهد التاريخية الهامة، وهو نص يلقي الضوء على الوضع الحقيقي لمعان عام 1080هـ/ 1669م. وحيث لا نريد الخوض الموسّع في ذلك، فإننا نركّز على عدة نقاط، قد تلقي الضوء على ما يمكن استخراجه من هذا النص:

1- ظهور الأعلام في موقع نزول الحجاج، وذلك لتمييز الموقع عن سائر المواقع الأخرى من المنطقة، وليتوجه الحجاج إلى ذلك المكان دونما تردد أو حيرة، وهذا يدل على أن رفع الأعلام في أي موقع للخدمة العامة، كان سائداً، وهو الأمر الذي لا زال كذلك حتى الآن، حيث تحمل كل مجموعة أو منطقة جغرافية علماً معيّناً لغايات التنظيم، كما هو حال قوافل الحجاج المنظمة الآن.

2- حدد الكاتب ثلاثة أشياء رآها من بعيد وهي: (أ) البيوت وقد ذكرها بالتصغير (بويتات)، دليل على أنها من طابق واحد، وأنها ليست كثيرة العدد، وأنها تنم على مجتمع من الطبقة الفقيرة، ولا أقول المعدمة وليست واسعة وإنما لغايات السكن المتواضع فقط. (ب) وبساتين وقد ذكرها بالتصغير، حيث يؤشر ذلك على البساتين المروية في هذه البادية الحارّة، وأنها محدودة المساحة أيضاً، لأسباب ربما تتعلق بشح المياه لغايات الري الكثير؛ وأن مهنة الزراعة كانت ثانوية لدى أهل معان آنذاك، فضلاً عن ضيق المساحات المزروعة، وما تتطلبه من عناية وجهد أكثر بكثير مما تتطلبه التجارة مع قوافل الحجاج والبدوان في تلك الديار. (ج) والقلعة وهي قلعة معان المشهورة، والتي أشرنا إليها سابقاً أنه بناها السلطان التركي سليمان القانوني عام 971هـ/ 1563م ولا زالت قائمة إلى الآن (2006) حيث تم تحويلها إلى متحف ومركز ثقافي.

3- إن سكان معان من أهل البلاد، وهذا دليل وبرهان أن ادعاء المثبورين والحاقدين أن أهل معان هم من بقايا الحجاج ومن هنا وهناك، كلام عارٍ عن الصحة، وإذا ما انطبق على عائلة هنا، وعائلة هناك، فهو أمر طبيعي أن يدخل

من الخارج لأية عشيرة أو قرية في الدنيا، فرد أو أفراد أو جماعة ليصبحوا من هذه العشيرة أو القرية، لهم ما لها، وعليهم ما عليها، ولكن ما يؤكده الخياري في القرن الحادي عشر الهجري 1080، أن معان كانت لأهلها، وأنهم كانوا يسكنون القلعة، وأن البقية يسكنون البيوت والبساتين كما مرّ ذكره أعلاه.

4- تميّز معان عن سائر المواقع، حيث أن العسكر الأتراك الغرباء على الديار لا يسكنون القلعة، وإنما يسكنها أهل البلاد.

5- أنه كانت في معان سوق عامرة قائمة، أي أنها دائمة وليست مؤقتة، لكنها تزدهر وتكثر وتربو وتكبر في مواسم الحجيج، لكنها موجودة على دوام السنة، وأن بها الخيرات من إنتاج البلاد وحاجات العباد «وإذا بها سوق قائمة وخيرات عامة». في مركز البادية الجنوبية، وسوق العربان والبدوان من أهل البلاد والوافدين.

6- هناك منتجات رئيسة تُباع في سوق معان وهي: الشعير وهو المادة الرئيسة كعلف للرواحل من الإبل والخيل والبغال والحمير. وهذا يدل على أن الناس كانوا يعرفون الزراعة والإنتاج، وأنهم ليسوا جهلاء بذلك كما يدّعي الأعداء والسفهاء. أما المعبوك، فلا أعرفه، كما يباع التين الذي لابد أن كان يأتي من معان نفسها ووادي موسى، وإيل وبسطة كونها قريبة، وقائمة على ينابيع مياه دائمة وتربة خصبة، كما كان في أذرح سيل غزير وعليه بساتين غنّاء، اختفت في نهاية القرن العشرين.

كما أن بها المواشي الهامة كالغنم والمعز والضأن والطيور والبيض الكثير والألبان. وهذا الكلام وحده كافٍ لإلقاء الضوء على وفرة الإنتاج آنذاك. أما الفاكهة كالعنب والكمثرى والتوت وغيرها فقد كانت متوفرة بالسوق أيضاً، حيث كان منها ما هو في أوان قطافه في منطقة هضاب معان، وأخرى لا زال

غير ناضج (أي حصرم)، وآخر ناضج تمام النضج. ومن الواضح أن هذا دليل على وجود إنتاج من هذه المواد في الغور، حيث ينضج قبل أوانه مقارنةً بالجبل والبادية، وهذا يعني أن الناس كانت تستغل الأغوار للزراعة، أما الناضج فيبدو أنه من قرى معان، وأما الذي لا زال حصرماً، فيبدو أنه من جبال الشوبك وبذلك نجد أن وصف الخياري جاء دقيقاً، نستطيع نحن الأردنيين فهمه على من سوانا من الناس.

7- حديثه عن نقاء الهواء وعذوبة الماء وتوفرهما معاً في تلك الديار. ويبدو أن الينابيع كانت كثيرة وجارية، بحيث كان الحديث عنها قبل ثلاثة قرون ونيّف وصفاً لواقعٍ ملموس معلوم معروف، وليس مجرّد كلام من وراء الطاولات أو من الغرف المغلقة.

8- ثم يتطرق إلى سكان المنطقة وأهلها من البدوان والعربان من غير أهل البيوت والبساتين وسكان القلعة، ويتحدث عن الحويطات حيث يوجد البطنان الرئيسان حول معان، وهم: المطالقة (وشيخهم ابن جازي وهو شيخ مشايخ الحويطات أيضاً) والفرارجة وهم بزعامة أبو تايه، ونجد هنا لمن يعرف التفاصيل العشائرية في المنطقة أن دفع الصرّة من السلطان كان يتم لابن جازي والمطالقة، وأن أبو تايه والفرارجة محرومون من هذا الصرّ (المال الذي يُدفع للبدو لقاء مرافقة وحماية الحجاج، وعدم الأذى والنهب والإغارة على هذه القوافل).

وحيث جرى حرمان الفرارجة، وشيخهم أبو تايه (الحويطات)، فإنهم أرادوا أخذ حقوقهم بالقوة وبأيديهم، وشتموا أمير الحج (سليمان باشا) وعنّفوه وأهانوه، فهرب واختبأ بين الجمال، ثم أرسل إليهم يفاوضهم صاغراً، ودفع المبلغ الذي اتفقوا عليه. ونلاحظ عدم ثقة الأردنيين بالأتراك من حيث المدة، فلو تأجل الدفع إلى اليوم التالي فإن احتمال طلب التعزيزات يبدو وارداً، وتنقلب الحالة من نصر إلى هزيمة لهؤلاء العربان. وأخيراً حصلوا على مبالغ طائلة.

ونلاحظ أن الفرارجة لم يهاجموا المطالقة، ولم يطالبوا بتقسيم الصرّة بينهم، بل ذهبوا إلى مصدر المال، وأدّبوه وعلّموه كيف يحسن صرف المال ويُحسن العدالة واحترام الناس ومقاماتهم، ولم يثوروا ضد أبناء عمومتهم المطالقة وشيخهم الجازي. ويبدو واضحاً أن بطن المطالقة كان مسروراً لما حدث، لأن في ذلك منفعة لأبناء عمومتهم الفرارجة، وحتى لا تتحول المطالبات مستقبلاً بين طرفي الحويطات، فهم متفقون على الكسب من الغرباء، يرفضون ابتزاز أي طرف منهم لابن عمّه الطرف الآخر. ومتفقون على ابتزاز الأجانيب (الغرباء)

وبذلك نجد أن الخياري (1080هـ/1669م) نقل لنا صورة واقعية ورائعة لمعان، وأنها كانت سوق ومركز تجاري، وأنه كانت تنصبّ فيها الخيرات والدراهم، وكانت مركز التجارة والتبادل التجاري في حينه (1080هـ).

وبخلاف هذه الصورة الورديّة الزاهية التي نقلها الخياري، نجد صورة أخرى مغايرة بعد أربعين سنة 1120هـ/ 1708م، نقلها رحّالة لم نعرف اسمه رافق الحج الشامي في هذا العام، حيث وصفها وهو متجه نحو الحجاز، وبعد أن غادر الركب محطة عنيزة، وصل معان، وهنا يصفها بما لا يتفق مع ما وصفها به من قبله ومن بعده. وإن هذه الفجوة بيما بين الخياري (1080هـ/ 1669م)، والنابلسي لا يمكن أن تتحول معان إلى هذا الجفاف والجفاء، ولابد أن هناك خطأً ما، ربما يكمن في مسار ذلك الرحّالة وأنه مرّ بموقع آخر أو تجاوز معان ليلاً، والله أعلم.

ثم نجد الشيخ عبدالغني النابلسي (ت 1143هـ) الذي جاء بعد الخياري بربع قرن يثني ثناءً عطراً على معان ومائها وما فيها من ميرة وخيرات. ويقول: « ثم لم نزل سائرين حتى طلع صباح يوم الرابع والعشرين من محرم فأشرفنا على قلعة معان، وعلى بساتينها ودورها وبيوتها الحسان، وهناك آبار ماء كثيرة، ومياه غزيرة، فجاء أهل القلعة وباعوا على الحجاج المأكل والفواكه، وعلف الدواب،

وما هو بقية المحتاج، وحصل هناك كمال السرور، وتمام الحضور، وقلنا في ذلك من النظام (أي الشعر) على حسب ما اقتضى المقام:

في طــريق الحجــاز نحــو شــآمٍ   قــلْعَةٌ واسمهــا الشّــهيرُ مُعَــانُ
كـلُّ مـن جـاء عـلى قَصْـدِ حـجٍّ   فهـو مـن مَـالِكِ المُلُوكِ مُعَـانُ »

(عبدالغني النابلسي، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، ص 485)

وفي البيت الأول يتحدث عن وجود قلعة مُعان (بضم الميم) في طريق الحاج بين الحجاز والشام، وهي مشهورة بهذا الاسم. وأما في البيت الثاني فيقول أن من يأتي إليها بقصد الحج، ماراً بها إلى بيت الله العتيق أو قادماً منه بعد أداء مناسك الفرض فإن الله سبحانه مالك الملوك جلّت قدرته يعين هذا الحاج، وبالتالي فهو مُعَان (من المساعدة والعون) من الرحمن الرحيم مالك الملوك.

وأشار الرحّالة أبو القاسم الزيّاني عام 1206هـ/ 1791م إلى وجود قريتين في معان، لم نجد قبله إشارة إلى ذلك، وهما قرية الشامية مما يلي الشام، والحجازية مما يلي الحجاز، وأن الحجاج يقيمون للراحة والميرة: « عنيزة ومنها سبع ساعات إلى عيون معان، عند قريتين، وبهما المُقَام، ومنها ثماني عشر ساعة للعقبة » (الترجانة الكبرى لأبي القاسم الزيّاني، ص 186).

وبذلك يتحدث الزيّاني عن وجود عيون ماء نبع في معان، وهي التي وصفها رحالة من قبله بعدة قرون، كما أشرنا سابقاً بالتاريخ والنص والشرح.

وبعد ذلك بحوالي قرن من الزمان من مرور أبي القاسم الزيّاني، مرّ بها حاجّاً الرحالة التونسي، محمد السنوسي، وذلك عام 1299هـ/ 1881م حيث أشار صراحةً إلى معان الحجازية، ومعان الشامية بالاسم والوصف، على أنهما قريتان متجاورتان لكنهما متقاتلان، بينهما عداوةٌ، ودماء، وكل طرف يفاخر بتبعيته لقريته ثم للشام إن كان من الشامية، وللحجاز إن كان من الحجازية،

ويقول السنوسي المذكور ما نصّه: «بلد معان، هذه قرية في الصحراء بناؤها من طين وحولها قلعة، وبالقرب بلد آخر يُسمّى أيضاً معان، فهما معانان، ينتسب أهل أحدهما إلى الحجاز، وأهل الأخرى إلى الشام. وبذلك كانت العداوة بين أهل البلدين راسخة، والتقاتل بينهما مسترسل، لا وازع ولا رادع لهم. وقد سأل تابع لنا امرأة انتُسبت إلى معان الحجازية عما وقع بينهم وبين أهل معان الشامية أخيراً؛ فقال: وقعت معركة ذبحنا فيها سبعة عشر رجلاً منهم وكسرنا قوائم رَجُلَيْنِ وغلبناهم. قالت ذلك مجاهرةً دون توارٍ من الحكومة، والحكومة التي بينهم أعجز عنهم من عجز أضعفهم عن أقواهم» (الرحلة الحجازية، ج2 ص248).

نرى هنا ان ما يقوله التونسي (1299هـ/ 1881م) مهم حداً:

1- فمعان بشكل عام هي بلد مستقر فيه بناء ودور وبساتين وأسواق وأهالي مستقرون، وهي في الصحراء الأردنية، بل هي عروس صحراء الجنوب، مثلما هي الموقر وزيزياء عروس صحراء الوسط، والمفرق عروس صحراء الشمال، وإربد عروس شمال الأردن. وإن شئت استبدال كلمة الصحراء بالبادية لأن كل صحراء بادية، وليست كل بادية صحراء. ولا عجابة بهذا.

2- إن هذا البلد معان ينقسم إلى بلدتين أو قريتين أو حيّين، أيهما تقوله يكون صحيحاً، ذاك الذي يلي الشام شمالاً، ويسمى معان الشامية، وذاك الذي يلي الحجاز جنوباً ويسمى معان الحجازية فأهالي البلد جميعاً يعتزّون باسم معان، وينتسبون إليها، وهم على خلافاتهم يضعون اسم معان قبل اسم الحي، وكلٌّ يعتبر نفسه الممثل الشرعي لاسم معان، وهذه ظاهرة صحيّة لأنها تنمّ عن حبّ عميق للبلد، والتنافس من أجل رفع اسمها، وذكرها والتعلّق بها والانتساب إليها.

3- أنه كانت في عام 1299هـ/ 1811م عداوات وقتل بين الحيّين أو القريتين أو طرفي البلد الواحد، أو الشامية والحجازية. وقد نجم عن ذلك قتل وجرح،

وثارات وعداوات، قد يكون من أسبابها التنافس والتناحر حول الانتساب لهذه البلدة، فضلاً عن تضارب المصالح عند استراحة الحجاج ليومين أو ثلاثة قبل استئناف الرحلة غدواً إلى مكة المكرمة، أو رواحاً كلٌ إلى دياره، أو جهة دياره.

4- أن الحكومة كانت في حينه عاجزة جداً عن وقف الاقتتال والثارات، وأنها بلا هيبة، إلى درجة أن امرأة تجاهر ما قام به أهلها من قتل سبعة عشر رجلاً، ولا يجرؤ شرطي أن يتخذ أي إجراء ضد القاتلين أو المرأة التي تعتزّ باقتراف قومها لهذه المجزرة إن صدقت الرواية.

ثم يواصل الرحالة التونسي محمد السنوسي (1299هـ/ 1881م) في كتابه الرحلة الحجازية، حديثه عن معان فيقول: « وقد كانت معان مسكناً لطائفةٍ من بني أميّة، وطريقها صعب جداً مع المطر، وماؤها كثير، وهناك قلعتان إحداهما بناها السلطان سليمان، وأجرى بداخلها سقاية من عين تسمّى: عين الباشا، وبالثانية (القلعة الثانية) عين الخاصة، وبها شجر السفرجل والدرّاق. ويرد لها الأترج من بلد الخليل (أي تم جلب ثماره من جبل الخليل). وعند نزولنا أتوا من فواكههم (أهل معان وفواكه معان) بالتين والرمّان المجفف، وفيهم جمال بديع غير أن البنات يشوّهن وجوههن بلحى من الوشم تحيط بخدودهن الحمر إحاط النبات الأخضر بالشقيق الأحمر، ويثقبن الأنوف ويضعهن فيها الحلق المتعددة تحلّياً بها » (الرحلة الحجازية، ص 249).

مما ذكره الرحالة التونسي، محمد السنوسي أعلاه، نجد ما يلي:

1- أن معان كانت منذ أقدم العصور، وعبر مراحل التاريخ الآمنة والمزعزعة أمنياً، والحروب والسلم، أقول كانت ولا زالت بلدة لا تخلو من السكان، وقرية مستقرة، فيها عيون الماء، والقلاع التي اندثر بعضها مع الأيام وبقي البعض الآخر مع الأيام أيضاً. وأنها ملجأ الباحث عن الأمن، والهارب

من الرعب. فعندما ضاقت الدنيا بما رَحُبت على طائفة من بني أمية، طلباً للنجاة من سيف بني العباس، وجدوا ملاذهم وراحتهم في معان، وليس في غيرها.

2- يذكر أن الطريق من وإلى معان صعب، وبخاصة في الشتاء، حيث تكثر الانزلاقات الطينية؛ بسبب طبيعة التربة.

3- كان في معان عام 1299هـ/ 1881م قلعتان، تلك التي أشرنا إليها سابقاً، وبناها السلطان سليمان القانوني، وأخرى لا نجد إشارة إلى بانيها، ولكننا نجد وصفاً لكليهما، حيث في الأولى عين ماء جارٍ (نبع) تسمى عين الباشا، تسقي أهل القلعة. أما الثانية فتسمى عين الخاصة، حيث يزرعون السفرجل والدراق. وهذا برهان واضح يدوّنه رحالة رأى بأم عينه، أن عروس صحراء الجنوب كانت تُنتج السفرجل والدرّاق، في هذه البادية، كما أنه يتم استيراد الليمون والأترج من الخليل؛ وذلك مؤشر واضح على التبادل التجاري.

4- ويشير أن أهل معان يبيعون إنتاج أرضهم إلى الحجاج ومنها التين المجفف (القطّين) والرمان. « وعند نزولنا أتوا من فواكههم (أي التي يزرعونها هم وهي في بساتينهم)، بالتين والرمان المجفف ».

5- يشير هذا الحاج الرحّالة إلى نساء معان، ويعطينا صورة البداوة الحقيقية لهاته النساء من الوشم والجمال البدوي. ويبدو أن عينه كانت ثاقبة، وأنه استطاب رؤية جمال النساء الأردنيات. فهنّ يضعن الوشم، وهذا لا يظهر إلا إذا كان النساء لا يرتدين البرقع أو النقاب أو الحجاب وهو ما هو عليه الحال الآن، (نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين). وبسبب هذا السفور رأى ثلاثة أشياء، وهي: الجمال البدوي الأخّاذ الذي هو محصّلة لملاحة السحنة من جهة، والجاذبية الطبيعية التي تجتذب الروح الطبيعية. وفي مثل هذا الموقف نجد شعراً للمتنبي يقول:

حسن المدينة مَجلُوبٌ بتَطْرِيَةٍ   وفي البداوة حُسْنُ غيرُ مجلوبِ

والحقيقة أن الوشم يزيد من جمال المرأة، وزينتها، لأنه زينة طبيعية، وقد شبّه الخدود الحمر والوشم بالبساط السندسي الأخضر الذي تتفتح شقائق النعمان الحمراء من وسطها. ونلاحظ هنا ثقب الأنف وهي عادة كانت عند الأردنيين، وتلاشت منذ مطلع السبعينات، ولم تعد هذه موجودةً عند بنات عرباننا. كما أن لون الوشم أخضر أيضاً، مما يزيّن حمرة الخدود، ويزيد في بهائها.

وبذلك نجد أن هذا الوصف الحديث في نهاية القرن التاسع عشر، قد ألقى الضوء على الأوضاع العامة في الديار المعانية، في نهاية القرن التاسع عشر.

وقد وردت معان في شعر العرب القديم والحديث كثيراً، قال جميل بثينة (ق 1 هـ) في لوعته على حبيبته، وبُعد ديارها عنه:

ويوم مُعَانٍ قال لي فَعَصَيْتُهُ   أَفِقْ عن بُثَيْنَ الكاشِحُ المتنصّحُ

أما حسان بن ثابت الشاعر المخضرم الذي عاش الجاهلية والإسلام وأسلم (ت 4 هـ) فقد جاء على ذكر معان في معرض مدحه لآل جفنة / الغساسنة، في الجاهلية، حيث قال:

لِمَنِ الدَّار أَقْفَرت بِمَعَانِ   بين أعلى اليرموك والخَمَّان
ذاك مَغْنَى لآل جَفْنَةَ في الدهر   مُحَلَّى لحادث الأزمان
قد أراني هناك دهراً مكيناً   عند ذي التاج مقعدي ومكاني
ودنا الفِصْحُ فالولائِدُ يَنْظِمْنَ   سِراعاً أكِلَّةَ المَرْجَان

(ديوان حسان بن ثابت، 255:1)

وبذلك نجد أن معان كانت موجودة زمن الجاهلية حيث أن موضوع هذه الأبيات جاهلي، وليس حديثاً. وهذا يعتبر دليلاً وصفعة للمثبورين الذين يدّعون أنهم بنوا الأردن وعمّروه، وأنه كان خراباً يباباً قبل أن يُبْتَلَى الأردنُ بهم، ويدّعون أنه ليس به إلا البوم، وفي الحقيقة، أن هذه الطيور المهاجرة، والوحوش الداشرة هي التي خرّبت الأردن. فنحن نجد في هذا الكتاب التاريخ الطويل لكل قرية. وقد ذكرها حسان بفتح الميم.

وفي العصر الإسلامي نجد أبي العلاء المعري يذكرها أيضاً، فيقول:

مَعَانٌ مِن أحبَّتنا مَعَانُ ... تجيب الصاهلات به القيان

وهذا شبيه بالأغنية الشعبية الأردنية الحديثة الدارجة التي تقول أيضاً:

طريق معان يا درب المحبّة ... أنا والمحبوب عليك التقينا

وفي شعر أبي العلاء يذكر أن أصوات القيان المغنيات، وصهيل الجياد الصافنات تتمازج، فهذه مسرجة للجهاد والحرب، وتلك مُسْفِرَة (سافرة) للعب والطرب، هذا زمن أبي العلاء المعرّي، وهو شاعر في الفترة العباسية.

ولمعان نصيب في شعر أبي فراس الحمداني الذي عاصر المتني، وعاشا معاً في بلاط سيف الدولة؛ حيث يقول:

فَرْضٌ عليّ لكلِّ دارٍ وقْفَة ... تقضي حقوق الدّار والأجفان
لولا تذكُّر من هويت بحاجرٍ ... لم أبكِ فيه مواقد النيْران
بلد لَعَمْرك لم أزَل زوّاره ... مع سَيِّدِ قوم في أعزِّ هِجانِ
إنا لَنُلْقِيْ الخُطْبَ فيكِ وغيرُه ... بموفّق عند الخطوب مَعَانِ

ومعان الآن في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين مدينة واسعة الأرجاء كثيرة التجارة والسكان، تتزوّد بالمياه من قاع النعيمات في الشراة، وأكثر ما امتدّت باتجاه عمان على الجانب الغربي للخط الصحراوي، وعلى الطريق إلى أذرح والطريق إلى العقبة. وهي تشتهر بنوع الحجر الصلب المُستخدم للبناء والمصنّف درجة أولى على حجارة البناء الأردنية، ويُسمى حجر سطح معان، لأن منجمه في منطقة السطح وهي الجهة الشمالية من مدينة معان، وتبعد عن المدينة القديمة بضعة كيلومترات.

يتميز أهل معان أنهم أصحاب أنفة وعزّة نفس، وفكر وطني أردنين وديني إسلامي، وقد وقع ولا زال يقع عليهم ظلم عظيم، واضطهاد وتجويع وقمع لأية حركة أو تحرك أو مجاهرة بالتفكير الوطني أو الديني، مما زاد من تمرّدهم، ورفضهم للواقع المؤلم الذي فرضه عليهم مثلث الغم (الغرباء والمرتزقة والمقاطيع) وأدواتهم (أدوات المثلث الغمي) الحاقدة أو الحمقاء، لأن الحقد والحماقة يلتقيان في نقطة واحدة، وهي الانتقام من الأردنيين وإن أهل معان نموذج للأردنيين الأنقياء.

وقد كانت ثورة معان عام 1989 هي الأساس في الإطاحة بقَيْعَةِ مثلث الغم، وحكومة السيجار في حينه، كما كانت ثورة معان المذكورة وراء إجراء الانتخابات النزيهة عام 1989 التي وصلت (أنا المؤلف د. أحمد عويدي العبادي) فيها إلى قبة البرلمان وكنت عضواً في ذلك المجلس الحادي عشر.

تعتبر معان الآن بالنسبة للإدارة بالأردن بؤرة ملتهبة جداً وقد وقعت الاعتقالات على كثير من أبنائها، وتم قمع المدينة وأهلها عدة مرات بأقسى أنواع القمع الذي عرفته الأردن ضد الأردنيين، وكان من أواخرها قصف أحياء منها بالطائرات العمودية والمدفعية (؟!!!).

-47-

المـوجـب

الوادي المعروف الذي يفصل بين مؤاب والبلقاء، وهو صدع واسع الجنبات، ضيق المجرى، وكان نهراً دائم الجريان، وكذلك كانت كتب الجغرافيا المدرسية في الخمسينات وما قبلها يذكرونه باسم: نهر الموجب، ويذكرون نهر الحسا، ونهر الزرقاء، ولكن الأول والثاني تحوّلا إلى مجرّد وادي، بينما تحول نهر الزرقاء إلى سيل يحمل أقذر المياه بالأردن، وهي المياه العادمة للصرف الصحي والمصانع في عمان والزرقاء.

أما الموجب فإن اسمه المؤابي القديم أرنون، حيث نقلته التوراة باللفظ نفسه، فحَسِبَ البعض أنه اسم عبراني، وهو عربي أردني أموري مؤابي. وكانت لغة الأموريين العرب الأردنيين (ومنهم أدوم ومؤاب وعمون وباشان وحشبون) يستخدمون الواو والنون في آخر الأسماء بدلاً من الألف والنون: أنون، عمون، حشبون، عليقون، عبدون، اللجون... الخ.

وفي بدايته الشرقية يوجد الموقع الأثري الهام المذكور في الكتب والاثار القديمة الوسطى والحديثة، وهو اللَجّون وكان به نبع ماء غزير، وقلعة ومدينة تحوّلت إلى خراب، ألا وهو اللُجُّون لجّون الكرك، وهو يختلف عن اللَجون الذي يقع الآن في الديار الفلسطينية، وقد شرحنا ذلك سابقاً.

وقد أقيم سدّ للماء على وادي الموجب، ظهرت به عيوب هندسية شنيعة واكتمل البناء عام 2004-2005، كما توجد مزارع تُروى بماء الآبار الارتوازية على الجنبات الشمالية للوادي. وكان يخترق الموجب طريق تراجان الروماني الذي أنشأه عام 106م، حيث لا زال عدد من الصّوى (أي أعمدة دلالة الطريق) قائمة حتى الآن (2006).

وتقع على حافّته الشمالية بلدة عاروراء المشهورة في الحروب ضد العبرانيين وهي مؤابية، ازدهرت عندما تحولت ديبون (ذيبان) إلى عاصمة للدولة المؤابية بدلاً من ربّة الكرك، ومن الكرك قبلها.

وقد أخذ الموجب نصيباً ضئيلاً في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين، حيث أنه كان نهراً في زمن الإدريسي (ت 560هـ) في القرن السادس الهجري إذ يقول في كتابه: نزهة الشتاق في اختراق الآفاق، في وصفه للطريق الذي يربط مؤتة بعمان، فيقول:

«قرية مؤتة، ومنها إلى عمان تمر بين شِعْبَيْ جبل يقال له الموجب وهو وادٍ عظيم عميق القعر، ويمر فيما بين هذين الشِّعْبين وليسا بمتباعِدَيْنِ وذلك يمكن أن يكون بمقدار ما يمكن أن يُكَلِّم بها إنسانٌ إنساناً وهما واقفان على ضفتي النهر فيسمع بعضهما بعضاً. ينزل فيه السالك ستة أميال، ويصعد ستة أميال» (1:357-258).

ويذكر غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت 873هـ) في كتابه: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، أقول: يذكر محطات البريد بين دمشق والكرك، فيقول: « وأما طريق الكرك من دمشق فمنها إلى القتيبة ثم إلى البرديّة ثم إلى البرج الأبيض ثم إلى حسبان ثم إلى قنبس ثم إلى ذيبان ثم إلى قاطع الموجب ثم إلى الصّفرة ثم إلى الكرك » (ص 120).

أما البرج الأبيض، فهو ما يسمى الآن مرج الحمام الواقع إلى الغرب من عمان، وقد أصبح مدينة في غضون أقل من ثلاثين سنة في نهاية القرن العشرين الميلادي. ويبدو أن هذه الطريق رغم وعورتها كانت أكثر سلامة من الطريق الصحراوي، بسبب حُسْن الجو ولطافته، حيث يجد المسافر أشجاراً، وظلالاً، فواكه، وسكاناً، وقرى، وبالتالي فهي أكثر أماناً من حيث طبيعة الأرض، وتوفر سبل الحياة، والمناطق الآهلة، أما الطريق الصحراوي فكان حينئذ أكثر خطورة فضلاً عن انعدام الماء والأمن والطعام. وبذلك نجد خط البريد يسلك الطرق

التي يوجد بها الناس، وليس تلك التي ليس فيها إلا الأرض والسماء أو الإنسان الباحث عن كل شيء في صراعه من أجل البقاء.

-48-
الموقّر

اسم تاريخي قديم لم يتغير رغم تبدُّل السلطان والأزمان وهي إلى الجنوب الشرقي من عمان، يخترقها الطريق المتجه نحو الشرق، إلى حدود العمري مع السعودية، وإلى الأزرق فحدود الكرامة (الرويشد) مع العراق. وكانت خربة قديمة. تحولت الآن إلى بلدة كبيرة وواسعة، فيها البنية التحتية برمّتها وتعود الموقر إلى العهود العمونية والنبطية والرومانية وصدر الإسلام. وهي مرتفعة مطلّة على جميع الجهات، وتقع على سيف البادية أيضاً. وقد ازدهرت في زمن الأموريين، حيث ذكر الهمداني في القرن الرابع الهجري (ت 334 هـ)، في كتابه الشهير: صفة جزيرة العرب: أن الموقر كانت منازل لبني سليح وهم من قضاعة وهم قبيلة أردنية عريقة من أصول يمنية؛ حيث قال: « ريعان المذاهب والبلقاء والموقّر من مساكن سُلَيْح ».

وتُلفظ المُوَقَّر بضم الميم وفتح الواو، وتشديد وفتح القاف. قال الشاعر الأحوص، حسبما ذكره البكري (ت 487هـ) ما يلي:

أَلا طَرَقَتْنا بالموقَّر شَعْفَرٌ ... ومن دون مَسْراها قَدِيْدٌ وَعِنْوَزُ
بوادٍ يمانٍ نازحٍ جُلُّ نبته ... غَضَى وأراكٌ ينضَحُ الماء أخضر

ويشير البيتان إلى شدة البرد بالموقّر، وهذا أمر طبيعي لارتفاعها، وإشرافها على جهة الغرب حيث الفضاء مفتوح أمامه، ليأتي التيار الهوائي دونما عوائق أو حواجز. كما يشير البيت الثاني إلى أنواع النباتات بالموقر ومنها: شجر الغضى الذي لم يعد موجوداً، والأراك الذي لم يعد موجوداً أيضاً، كما اختفى الماء

الغزير سواء السطحي منه أو المتجمع من الشتاء أو الذي يعني قوة المطر وغزارته. فقد تغيّرت الدنيا، وتبدّلت عن ذي قبل.

ظهر من الموقر العالِم الوليد بن محمد الموقري الذي أشار إليه ياقوت الحموي في الجزء الخامس وقال عنه: « إنه من أهل الموقّر حصن بالبلقاء » (ص 266 الجزء الخامس). وقد كشفت الحفريات الأثرية التي قامت بها دائرة الآثار العامة الأردنية عام 1989 أن حصن الموقر المشار إليه في ترجمة الوليد بن محمد الموقري، يعود إلى الفترة الأموية بالفعل وهذا ما ذكره محمد النجار في حولية الآثار العامة، مجلد 33، 1989، ص 1335:3. وذكر ياقوت أيضاً أن الموقر: « اسم موضع بنواحي البلقاء من نواحي دمشق وكان يزيد بن عبدالملك ينزله » (ياقوت، المعجم: 226:5).

وقد كان للموقر حظوة خاصة عند الأمويين كونها على سيف البادية، نقية عَذِية وهي في أراضي جذام وهي (أي جذام) التي كانت تدعم ملك بني أمية، ومعها بني كلب وبقية القبائل اليمنية مثل قضاعة ومنهم بنو سليح. وقد وجد يزيد بن عبدالملك بن مروان ضالته من الراحة والاستجمام في كنف الموقر، حيث كانت تَفِد إليه زعامات العشائر الأردنية والشعراء في ذلك الوقت مهنئة له بالخلافة، ومن ذلك قول كثير عَزّة:

يضـــزُرْن عـــلى تـــنائيه يَـــزِيْداً ... باكـــناف المُوَقّـــر والـــرّقيم
تهـــنّيه الوفـــد إذا أتـــوْهُ ... بنصـــر الله والمُـــلْكِ العظيـــم

وبذلك نجد أن الوفود كانت تأتي إليه، وهو في الموقر الذي يقع إلى الشرق من الرقيم المذكور في سورة الكهف بالقرآن لكريم. والأمر نفسه نجده لدى الشاعر الفرزدق الذي كان من شعراء صدر الدولة الأموية، حيث يقول:

فإنْ مِنَى النّفس التي أقْبَلَتْ بها وحَلّ نذوري إن بلغتُ الموقّرا
به خير أهل الأرض حيّاً وميّتاً سوى من بهِ دينُ البريّةِ أسفرا

فالفرزدق أنه نذر نذوره (مفردها نذر) أن يصل الموقر، ويحقق أمنيته بتهنئة يزيد بن عبدالملك، وهو خير الناس في زمانه بل خير الناس من الأحياء والأموات من غير سيّدنا محمد ﷺ . وبذلك ينطبق عليه قوله الله سبحانه: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: 224-227].

وأما جرير وهو الذي عاصر الفرزدق، وكثير عزّة، فيقول شيئاً في الموقّر:

أنّى ثمِنُ إلى الموقّرِ بَعْدَما فنى العرائكَ والقصائدَ دارُ
هل مثل حاجتِنا إليكم حاجَةٌ أو مِثْلَ جاري بالموقّرِ جَارُ

ومثل هذا نجد شعر عرار في القرن العشرين بعد ثلاثة عشر قرناً من الفرزدق، حيث يقول عرارة:

وليت جارك يا وادي الشتا جاري

وذكر ياقوت بيتين من الشعر حول الموقر لشاعر لم يذكر اسمه حذاءهما:

أذِنَتَ عليّ اليوم إذ قُلْتَ أنّني أحِبُ من أهل الشام أهل المُوقَّرِ
بهاليلُ شُهْمٌ عِصْمَةُ الناس كلُهم إذا الناسُ جالوا جَوْلَة المتجبِّرِ

وبذلك نجد أن الموقّر كانت قرية مزدهرة آمنة مطمئنة، بها حضارة واستقرار، وأن أهلها ليسوا أهل وَبَرْ، أي غير متنقلين مع إبلهم، وأنه كان فيها

الحسان والحسناوات، ما يجذبُ الشعراء للعشق والتمني في الوصول هناك، وأن أهل الموقر أحب إلى الشاعر من أهل الشام كلّهم.

ويضيف ياقوت الحموي من الاستشهاد بالشعر تحت مادة الموقر، ما يذكر من شعر كُثيِّر عَزَّة إذ يقول:

أقـول إذا الحيَّـانُ كعـبٌ وعامـرٌ ... تلاقَـوْا ولفَّتْـنا هـناك المناسِـكُ
جـزى الله حيّـاً بالموقّـر نضْـرَةً ... وجـادت عـليه الرائحات الهواتِكُ
بكـلِّ حـثيث الوَبْـلِ زَهْـرُ عمامه ... لــه دُرَرٌ بالقَسْــطَلين مواسِــكُ

إذن كان في الموقر حيّان من قبيلتي كعب وعامر، ويسكنان الموقر، وهم أهل حضر، وقد ظهرت على وجوههم نضرة النعيم والإقامة، فيطلب الشاعر من الله سبحانه أن يُكثِرَ الغيث عليهم، ذلك أن الدعاء بالغيث هو من باب المحبّة عند البدو بشكل عام، والأردنيين بخاصة. أما القسطلين فمفردها القسطل، وهو مكان إلى الغرب من بلدة الموقر، وتحدّثنا عنه سابقاً، وأعتقد أن المراد من تثنية القسطل، يعني القسطل وزيزياء وهو الأرجح، أو القسطل والموقر معاً وهذه قرى ثلاثة تاريخية مهمة.

ويتكرر اسم القسطل مرة أخرى لدى كثير، حسبما يرويه الحموي (ق7 هـ) وذلك ما سبق وأشرنا إليه، في أن القسطل في عصر كثير عزة كانت حاضرة البلقاء لقوله: إلى قسطل البلقاء، أو لتمييزها تحديداً بالاسم والموقع والهوية الجغرافية، أنها قسطل البلقاء، وليست قسطل أخرى. ويقول كثير عزّة، حسبما يرويه الحموي:

سـقى الله حَيّـاً بالموقّـر دارُهُـمْ ... إلى قَسْـطَلِ البـلقاءِ ذاتُ المحـارِبِ
سَـوَاري تُـنَحَّى كـلُّ آخِـرِ لـيلة ... وصـوب غمـامٍ باكِـرَاتِ الجنائب
أنـاسٌ يـنال المـاء قَـبْلَ شِـفاهِمُ ... لـه وارِدَات العَرْضِ شُمُّ الأرانب

وقد ظهر في الموقر علماء في القرن الثاني للهجرة، منهم الوليد بن محمد الموقري أبو بشر القرشي، من أهل البلقاء (ت 181هـ/ 797م)، وولده بشر (ت 282هـ/ 895م)، وأبو حرجي القرشي المقوري، وموسى بن محمد عاء الأنصاري القرشي الموقّري.

-49-

نقــب شتــار

لا أدري من أين جاءت هذه التسمية ولكن يبدو أن شتار أدومية أو نبطية قديمة تعني المنحدر أو الطَّوْر أو الجبل المشرف، أو القطع الجبلي، أو الصدع الصخري، وهي جميعاً صفات ذلك الموقع وتنطبق عليه؛ أما النقب، فهو اصطلاح جغرافي ويعني في لغة الأردنيين ظهر الجبل المُطِلّ على ما ينخفض من الأرض في أحد جوانبه، وما يقل عنه أو يتدرج منه أو يساويه ارتفاعاً في جانب آخر. وتشمل التسمية المرتفع وسفحه المنحدر نحو الطرف الذي يقل عنه ارتفاعاً. وقد تتسع مساحة النقب أو تضيق، ولكن يبقى الاسم يُطلق عليه، بغض النظر عن مساحته.

أما نقب شتار فهو ذلك الجبل، أو العقبة الصعبة التي تفصل بين حوض القويرة غرباً، وهضبة معان شرقاً، حيث الصخر الرملي الذي هو امتداد لصخور البتراء شمالاً وصخور وادي رم جنوباً، وتغطي هذه الصخور أحياناً طبقات من التربة الصفراء المشوبة بالرمل الأحمر، كما توجد طبقات من الحجارة الصفراء. ويطل نقب شتار من جهة الغرب على الحميمة ومن جهة الجنوب الغربي على وادي رم كما يطل من جميع الجهات على جبال الشراة الغربية، والأفق الغربي. ولا يوجد رحّالة رافق الحج، إلا وتحدث عن النقب الذي كان يُطلق عليه اسم العقبة، ثم زحف الاسم ليُطلق على العقبة الحالية، التي كانت تسمى أيلة/ وَيلة. وفي كتب الرحالة والجرافيين المسلمين ورد اسمه: شتّار،

شَنَار، شَيار، شنان، شِيَارْ. وكلها اسماً يدل تباينها على أخطاء في الإملاء عند النسخ، والله أعلم، ولكنها تعني هذا الجزء من الأردن، وهو نقب شتار.

وورد ذكره باسم « شيار » في القرن الخامس الهجري، في كتاب معجم ما استُعْجِم، تأليف البكري (ت 487 هـ)، حيث يقول: « وفيه أغار الهنيد الصّلْعي وصليع بطن من جذام، على دحيّة الكلبي، وقد نزل وادياً من أودية (أي أودية النقب) يقال له شيار ». وكانت الإغارة على دحيّة بعد عودته من عند قيصر الروم، حيث كان رسولاً إليه من رسول الله ﷺ ، وقد نهب بطن صُلَيْع ما كان مع دحية، إلا أن بطناً آخر من جذام كانوا أسلموا، أعادوا إلى دحية ما أخذه أبناء عمومتهم الذين كانوا على غير دين الإسلام. ولما وصل دحية إلى المدينة المنورة، شكاهم إلى رسول الله ﷺ فأنفذ إليهم زيد بن حارثة الكلبي، وهو من الأردن، من نفس المنطقة.

ويقول عنه (عن النقب) ياقوت (ق 7هـ/ت 627هـ) في معجم البلدان أن النقب من جبال الشراة، وهو كذلك حقاً وأنه بين أرض البلقاء والمدينة المنورة على شرقي طريق الحاج، يفضي إلى أرض واسعة مُعْشِبَة، يشرف عليها جبال فاران وهي في قِبْلِيْ الكرك.

-50-

نـهـر الأردن

ويأتي الحديث عن هذا النهر المذكور في القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، وكتب التاريخ العريق، وكتب التفسير، والسيرة. فقد ارتبط هذا النهر في القرآن الكريم بالحرب الشهيرة بين العبرانيين والعمونيين، وأن الله سبحانه ابتلى المحاربين من العبرانيين ألا يشربوا منه، فلم يسمع لأوامر الله إلا فئة قليلة شاء الله أن تنتصر على الفئة الكثيرة العمونية الأردنية، عندما قتل داود العبراني جالوت الملك العموني الأردني.

ويرتبط النهر أيضاً بتعميد سيدنا عيسى ﷺ ، وسيدنا يحيى ﷺ أيضاً. ويرتبط بسيدنا إبراهيم من قبلهم إذ عبره (تجاوزه) إلى بلاد فلسطين. وهكذا كان نهر الأردن، رغم قصره، وصغر مساحته، من أكثر الأنهار ذكراً، بل هو أكثرها ذكراً بعد النيل بمصر والفراتين بالعراق. حيث قامت الحضارات القديمة على الأول والثاني، وقامت الأحداث التاريخية على نهر الأردن. ومن هنا تأتي أهميته.

وقد شرحنا كيف أنه تسمى باسم الأردن، ولا يعيب أن يكون اسم الأردن مأخوذاً من النهر، فهما كليهما «أردن» - «الأردن»، فنحن نقول الأردن، ونقول نهر الأردن، فالنهر منسوب للوطن وليس العكس، ومع هذا فإن ذلك لا يضير. إذا كانت نسبة الوطن للنهر الذي يعني الحياة لأنه ماء جارٍ ومبارك وقد أشبعنا ذلك بحثاً فيما سبق.

ويرتبط نهر الأردن أيضاً بالبحيرة المقلوبة المنتنة الميتة، بحيرة زغر، بحيرة لوط، سمُّها ما شئت، فمهما تعددت الأسماء والتسميات فهي تعني شيئاً واحداً، ألا وهو: البحر الميت الذي لا شبيه له في الدنيا كلها. حيث لا يعيش فيه كائن بحري حي، وحيث يرتبط بغضب الله سبحانه على المؤتفكات (مدن قوم لوط) التي جعل الله سبحانه وتعالى عاليَها سافلها، وأمطرها بحجارة من سجيل منضود، وقد رافق عذابهم عدة عقوبات في آن واحد، وهي قلب الأرض، والصيحة، ومطر السوء، وحجارة من سجيل، والإبادة الكاملة لهم.

ولم يتحدث مؤرخ عن نهر الأردن إلا وجاء بالذكر على البحيرة المنتنة، ولم يتحدث منهم أحد عنها إلا تحدث أيضاً عن نهر الأردن، فهي مغضوب عليها، وهو مبارك، وهي مالحة مرة، وهو عذب فرات الماء، ولا يعيش في المنتنة سمك ولا أحياء، بعكس ما هو عليه نهر الأردن. إنهما متناقضان في مكان واحد وهو الأردن، وذلك آية من آيات الله سبحانه وتعالى. وكان نهر الأردن المصدر الرئيس لتغذية البحر الميت بالمياه لكي لا ينخفض منسوبه، إلا أن تحويل مجراه

من قِبَل الدولة العبرية عام 1962-1963 قد قلّل كثيراً من مصادر التغذية المائية، فضلاً عما تم من إقامة قناة الغور الشرقية بقرار من مؤتمر القمة العربي عام 1964، وقامت هذه القناة لتروي الغور حتى البحر الميت، ولكن يبدو أن هناك سياسة، بعدم تسويق الإنتاج، مما حوّل الأغوار إلى مصدر بلاء ودمار على المزارعين، وأحياناً لا يجدون من يشتري من هذا الإنتاج شيئاً، في الوقت الذي نجد فيه ارتفاع أسعار البضاعة نفسها في فلسطين المحتلة، بسبب سياسة التصدير المنظّمة هناك والمقتصر هنا على مزارع قطعان من المرتزقة والفاسدين والمفسدين.

وقد ورد نهر الأردن في الحديث النبوي الشريف، وذلك ما ذكره البكري في معجمه (ق5هـ/ ت487هـ)، في كتابه معجم ما استُعْجِم، حيث يقول: « الأردن نهر بأعلى الشام، وهو نهر طبرية. قال يعقوب: وأصل هذه التسمية في اللسان النعاس (أي معنى الأردن) » ومن حديث مكحول: « أن جزيرة العرب لما افتتحت، قال رجل عند ذلك: أبهوا الخيل والسلاح (أي أن تخلد إلى الراحة، فلا حرب بعد ذلك) فقد وضعت الحرب أوزارها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فردّ عليه وقال: لا تزالون تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقاياكم الدجّال ببطن الأردن؛ أنتم من غربيِّه، والدجال من شرقيّه ». قال الراوي: ما كنت أدري أين الأردن حتى سمعته من رسول الله ﷺ » (1:137-138).

واعتبر الزهري، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر في القرن السادس الهجري (ت 556 هـ) أنه أعظم أنهار الشام حيث يقول: « وأما أنهار الشام فكثيرة أيضاً أعظمها وادي الأردن » (الجغرافية، ص 186). أما الإدريسي وهو معاصر للزهري وتوفي (أي الإدريسي 560 هـ) أن هناك كنيسة عظيمة على نهر الأردن، وأنه بينه وبين بيت المقدس مسيرة يوم واحد، ثم يقول: « وادي الأردن يخرج من بحيرة طبرية ويصب في بحيرة سادوم وعاموراء اللتين كانتا مدينتي قوم لوط فغرّقهما

الله بذنوب أهلها، ومما يلي قبلة (أي جنوب البحر الميت) وادي الأردن بريّة متّصلة » (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 1:361-362).

أما ياقوت الحموي في القرن السابع هجري (ت 626 هـ) فقد تحدث طويلاً عن نهر الأردن، وقد ذكرناه مفصّلاً في هذا الكتاب ولا داعي للتكرار، وهو أفضل من كتب مفصّلاً عن اسم الأردن تحديداً. وبعد نصف قرن نجد ابن سعيد المغربي (ت 685 هـ) يستخدم الاسم المحلي للنهر وهو الشريعة التي تعني عدة معانٍ منها الماء الجاري بقوة إذا ملأ جنبات مجراه. ويقول: « ونهر الأردن المعروف بالشريعة يخرج من بحيرة طبرية، ويمر بالغور حتى يصب عند أريحا في هذه البحيرة الميتة فلا يزيد » (كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ص 84).

ويكرر شيخ الربوة (ق 8 هـ/ت 727 هـ) بعد ثلاث حقب أو أربعة بعد المغربي استخدام كلمة الشريعة، فيقول في كتابه: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: « نهر الأردن، هو نهر الشريعة نهر غزير الماء ينبعث من بانياس، ويمتد إلى الحولة، فيعمل بحيرة تسمى بحيرة قدس باسم مدينة دمنتها بالجليل، وقَدَس مُلْك لتلك الأرض؛ وينصبّ إلى تلك البحيرة أنهر وعيون ثم يمتد إلى جسر يعقوب إلى تحت قصر يعقوب إلى أن يصل إلى بحيرة طبرية فيصبّ فيها، ثم يخرج إلى الغور (...) ويمتد إلى بحيرة زُغَر المالحة المنتنة، وتسمى بحيرة لوط فينصبّ فيها ولا يخرج منها. وهذه البحيرة لا تزيد في الشتاء لزيادة المياه المتحدّرة إليها فإنها مياه كثيرة، ولا تنقص في الصيف. ولا يزال هذا النهر يصبّ فيها ليلاً ونهاراً » (ص 107-109).

أما قوله أن هذه البحيرة لا تزيد شتاءً ولا تنقص صيفاً، فهذا كلام يناقض كلامه عندما يقول في الصفحات نفسها: « ومن الناس من يقول أن أرضها شديدة الحرارة ومعادنها كبريتية ملتهبة، فهي لا تزال مرفأ بخاراً متحللاً يخلقه الماء الداخل ويتحلل بخاراً كذلك ». فالنقص يأتي على البحر الميت صيفاً بسبب

الحرارة والتبخر الذي يخف في الشتاء، وتزيد المياه فيه، ويرتفع مستواه عن آخر مستوى ارتفاع وصله قبل المطر والسيول، ولكن انعدام وسائل القياس، وما يتحدثه شيخ الربوة من خلال الروايات يجعل كلامهم مجافٍ للحقيقة العلمية.

وقد انخفض مستوى البحر الميت كثيراً وبشكل سافر في نهاية القرن العشرين ومطلع الحادي والعشرين بسبب تحويل مياه نهر الأردن واليرموك إلى فلسطين المحتلة، وجزء منها إلى قناة الغور الشرقية الأردنية، فضلاً عن قلّة الأمطار. أما السبب الأكبر في هذا الانخفاض فهو الاستغلال الجائر من قِبَل إسرائيل لمياه البحر الميت في الجزء الجنوبي منه، بحيث اختفت مساحات شاسعة جداً من البحر، وتحوّلت إلى سباخ ملحية لا تصلح لشيء إطلاقاً. وهناك مشروع لربط البحر الميت بالبحر الأحمر عبر قناة تسمى قناة البحرين، ولكن الخلافات مع الدول والجهات المانحة وإسرائيل، وضعف الحكومات بالأردن وإيلاء أمر المتابعة السياسية والتمويلية لأشخاص غير مؤهلين وضعفاء في مناصب الوزارات، جعل هذا المشروع مجرد خيال مرفوض عربياً واستشمارياً وبتأييد من بعض الانتهازيين السياسيين الذين اتخذوا الأردن رَحِماً مستعاراً لأفكارهم الشريرة التي يقولون أنها طيبة ووطنية، وهي أبعد ما تكون عن ذلك.

ولا يوجد جغرافي مسلم أو عربي، إلا وذكر نهر الأردن، بكلمات متقاربة نشرناها في هذا الكتاب، ولا أرى ضرورة للإطالة والتكرار إلا ما قاله الحميري في القرن الثامن الهجري: « الأردن نهر بالشام وهو نهر طبرية عليه مدن وكل من على جنبيه أردني » (الروض المعطار ص 21).

ولما بنى الملك الظاهر برقوق جسر الشريعة، قالت عائشة الباعونية الأردنية (من باعون/ عجلون) شعراً:

بنى سلطاننا برقوق جسراً ... بأمرٍ والأنام له مُطيْعَة
مَجَازاً في الحقيقة للبرايا ... وأمراً بالمرور على الشريعة

أما والشيء بالشيء يُذكر، فإنه لابد من الحديث عن نهر الزرقاء الذي يصب في نهر الأردن الذي ذكره الرحالة المسلمون، وأشرنا إليه في مواقع أخرى. وله رافدان أحدهما ينبع من عمان (سيل عمان)، والثاني من هضبة الزرقاء وهي النبع الأقوى. وقد ذكر الرحالة الأجانب نهر الزرقاء على أنه من أكثر أنهار بلاد الشام صفاءً وعذوبةً ونظافةً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي. ولكنه الآن أكثر أنهار بلاد الشام تلوّثاً، كما سبق وذكرنا.

-51-

الهزيم

من أراضي البادية الأردنية في ديرة بني صخر في الأجيال والقرون والسنوات الماضية ومن واجهاتهم العشائرية عندما كانت الأردن لأهلها الكرام المغلوبين على أمرهم. واسم الهزيم اسم قديم وهو يدل على أنه موقع كان مأهولاً بالناس والسباع والخيل ذلك أن الهزيم اسم من أسماء صوت الفرس، والأسد. ولا توجد الأسود إلا في الغابات والبلاد الخصبة التي تتوفر فيها المياه والطرائد (الفرائس)، وهذا يدل على أن المنطقة كانت عامرة بالغابات والناس والخيول والحيوانات والأسود، وذلك في عصور غابرة.

كما أن هذا الاسم معروف منذ القدم حيث ذكره الشاعر العاشق للأردن عدي بن الرقاع العاملي الأردني (ق 1 هـ) حيث يقول:

أخْبرِ النفس إنّما الناس كالعيدان من بين نابت وهشيم
من ديار غشيتها دارسات بين قارات ضاحك فالهزيم

وأما ضاحك فهو في وادي السرحان، والهزيم هي موضوع حديثنا، وتقع إلى الشمال من نقطة حدود العمري مع السعودية.

والهزيم في اللغة صوت الرعد، وصوت جري الفرس، والهزيم من الخيل الشديد الصوت، ومن أنواع الغيث الهَزَمُ، ومن الأعداء: المهزوم. والْهَيْزَم: هو الأسد، وهو الأمر الصلب الشديد، ذلك أن الصلابة والشدة هي من طباع الرعد والخيل والأسود. والهِزْمَةُ من القدور: الشديدة الغليان، ولها صوت. والهِزِمُ: الفرس المطيّع. والهِزِمُ أيضاً: الغيثُ لا ينقطع. ويقال فرسٌ هَزِمُ الصّوت: يشبه صوتُهُ بصوت الرعد، الهُزَاهِزُ من الماء: الكثير الجاري يهتزّ من صفائه. والهُزَاهِزُ من السيوف: الصافي المعدن.

إذن فالهزيم، ليس مجرّد كلمة عابرة، بل دلالة على أشياء كثيرة كانت وافرة في العصور الخوالي ولم تعد موجودة منذ زمن طويل، وإن كانت مهيمنة في الأزمنة الغابرة. فقد كان الموقع مشهوراً بالخيل التي تتخذه مرباعاً لها، اي تأكل فيه الربيع، وإن الكلمة تعني أنه كان موضعاً كثير الأمطار، ذلك أن الرعد لا يكون إلا حيث يكون المطر او قريباً منه. فهو مكان كثير الأمطار والنباتات والأعشاب والغابات والناس والسكان والحيوانات البرية والأسود، بحيث يمكن أن نتصوّرها منطقة عامرة بكل ما يعني الإعمار من معنى ومبنى.

إن ذلك يعطينا المؤشر الصحيح حول مراحل التصحّر التي مرّت بالأردن، وأنها كانت بلاد خضراء وبها من السكان أضعاف أضعاف ما بها الآن، وأن التسمية جاءت لكثرة الأمطار والخيول الأصيلة والأسود والسيوف صافية المعدن، وأن ماء المنطقة كان صافياً زلالاً جارياً، لكثرة الينابيع، وامتلاء المخزون الجوفي بالماء.

وفي كتاب مهدي عبدالرواضبة « الأردن في موروث الجغرافيين والرحالة العرب » (2002) تضمين لما ورد في رحلة عز الدين التنوخي التي لم أطّلع عليها ولم تقع تحت يدي، يقول الرواضبة ص293-294 نقلاً عن الرحلة التنوخية ص 20-21 لعز الدين التنوخي، ما يلي: « بعد أن خبت بنا المطايا مرحلتين قصيرتين

من الأزرق، وما راقني في الهزيم إلا غناء الماتحين الرّخيم وهم يسقون إبلهم الخوامس الهيم، ويدعون هذا الغناء « الحدو »)، وهو الحداء يحثّون به النوق على الشرب، كما تحثّ به على السير. وقد ورثوا هذه العادة ولا ريب، عن أجدادهم الذين كانوا يغنون لإبلهم حين المنح بأنواع الرجز، وهي الأبحر السّهْلَة التي تناسب الحركة كالسير ونقل الأثقال والرقص والمنح والصّراع والقراع، وذلك مما عابه الشعوبية على العرب ».

أما ما ورد في نص التنوخي في رحلته والذي دوّناه أعلاه، فيمكن النظر إليه ضمن عدد من النقاط:

1- أن الهزيم يقع إلى الشمال من الأزرق، وأن هذه المنطقة كانت إحدى الطرق التي يسلكها الحجاج، فهناك طريق عمان/ مأدبا/ وادي الموجب / اللجون شيحان / الثنية (الكرك) ثم إلى عنيزة فمعان فحالة عمار فتبوك. وهناك طريق آخر وهو المفرق/ الزرقاء/ عمان/ الموقر/ عنيزة/ معان/ سَرْغ (المدورة) حالة عمار/ تبوك. ويبدو من الرحلة التنوخيّة أن هناك طريق آخر يمرّ عبر وادي السرحان، ثم إلى الأزرق فالهزيم فالمفرق فدرعا ثم باتجاه الشمال. ويبدو أن هذه الطريق الأخيرة هي التي سلكها عز الدين التنوخي.

2- في الهزيم كانت توجد آبار نبع، يستخرج الرعاة والسقاة الماء منها لشربهم ولإرواء مواشيهم ومنها إبلهم والمنح هو استخراج الماء من البئر بالدلو أو بغيره، وهناك طريقة أخرى غير الدلو، ألا وهي الصّميل أو الرّاوية، وهي جلد بعير مخاط بطريقة ليحتفظ بالماء، وينزلونه مربوطاً بالحبال على بكرة فوق خشب معترض عند الباب يُسمّى المعاويد، وتسمى المياه النبع: السّانية وجمعها السّواني، يسمى نزع الماء بهذه الطريقة: المَتحْ، ويُسمى الدلو الكبير الرّشا (بفتح الراء وكسرها ولكن تشديدها في الحالتين)، والرِّشاء هو الحبل الذي يربط به الدلو، لكنه يطلق على الحبل والدلو معاً.

وتقول الشاعرة البدوية بهذه العملية:

يـا عـين هِـلّي صـافي الدّمـع هِلّيه   والْيـا انـتّهى صـافيه هـاتي سِرْيَبَهْ
يـا عـين شوف زَرْعْ خِلّك وْناجيه   شــوفي معــاويده وشــوفي قليــبه
إن مـرّني بالدرب ما أقدر أحاكيه   مصــيبة يــا كـبرها مــن مصــيبة
الـلّي بغانـا عيْـث الـنفس تـبغيه   والـلي نـبي عـيٌ الـبخت لا يجيبه

إنها تناشد عينها أن تبكي ما لديها من صافي الدمع، حتى إذا ما انتهى طلبت إليها أن تبكي البقايا (سريبة) – أي السريب وهو الذي تكثر فيه الرواسب وتتغلب على الماء. ثم تقول: انظري أيتها العين إلى الزرع من نخيل وغيره الذي يُسقى بماء البئر ويروى بطريقة انتزاع الماء من البئر بواسطة الدلو أو الراوية بواسطة الإبل تشدّه بالحبل ويتدحرج الحبل على الخشب الاسطواني أو على بكرة. ثم انظري إلى بئر الماء (قليبه – والقَلِيْبُ هو البئر). ثم تَتَوجَّدُ حسرة أنها لا تستطيع الكلام معه إن مرّ بها، وأن ذلك مصيبة أن يحال بينها وبين الحديث إليه، أو حديثه إليها. ثم تحوقل قائلة: أن الذي يحبّها ويهيم بها ترفضه ولا تريده، ولا تطيقه النفس محبة، أما الذي تحبه هي وتهيم فيه فإن حظها العاثر لم يأتِ به.

3- إن صوت هؤلاء البدو يُسمّى الحداء، وهم يغنّونه لإبلهم وهي ماشية ليذهب عنها التعب، ويكررونه عند الشرب لتطرب وتشرب وترتاح. أما قوله: خوامس، أي أنها ترد الماء مرة كل خمسة أيام، وهذا يكون في أوقات القيظ، أي: الصيف الحارّ، ويدل على أن الرحلة أخذت وقتها في حرّ الصيف.

-52-

وادي موسى واليتم

يرتبط وادي موسى بالبتراء واقعاً وحاضراً وتاريخاً، وقد ورد اسم البتراء في كتاب سيرة ابن هشام، ولكن بقية المؤرخين تجاوزوا الحديث عنها، لأنها في

بطن الوادي وفي أحضان الجبال، فالطريق إليها صعبة، ويتعذر معرفتها إلا إذا عرف المسافر ذلك من أهل المنطقة، وهذا ما كان للرحالة السويسري البريطاني جون لويس بيركهارت الذي سمع من أهالي الديرة عن مدينة منحوتة في الصخر تسمى البتراء، وزارها سراعاً خائفاً يترقب، ودوّن معلومات هامة ثم غادرها، ومنذئذ طار حيث البتراء في العالم، ولا شك أن الذي صنّف عجائب الدنيا السبعة، ما كان يعرف عن البتراء شيئاً، وإلا لوضعها بعد الأهرام مباشرة في العجائب والغرائب والإتقان. لذا فإنني أعتبرها العجيبة الثامنة من عجائب الدنيا مكان يجب أن تكون العجيبة الثانية.

وأما تسميته بوادي موسى، فإن ذلك مرتبط باعتقاد متوارث عند الناس أن سيدنا موسى عليه السلام عندما خرج من التيه بقومه، ضرب الحجر فانبجست منه اثنتا عشرعيناً لاثني عشر سبطاً من بني إسرائيل كانوا مع موسى وهم بقيادته، قد عَلِم كل سبط منهم مشربهم. ونجد في كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين أنهم يتحدثون عن وادي موسى أنها في جبال الشراة، وهي كذلك حقيقة. وذكروا أنه مشهور بالزيتون وطيب هوائه، وكثرة أشجاره، وحسن مائه. (انظر معجم البلدان 346:5).

وبالقرب من وادي موسى توجد منطقة اسمها: الوَعَيْرَةْ وهي إلى الغرب من مدخل البتراء، وتطل على جبال البتراء وبلدة وادي موسى، وسميت الوُعَيْرة، لوعورة سفوحها وصعوبة الطريق إليها.

اليتِمْ / اليُتُمْ

ويلفظه الأردنيون في المنطقة وهم قبيلة الحويطات ومن حولهم بكسر الياء والتاء (اليتِمْ)، وتلفظه الجهات الرسمية الحكومية بضم الياء والتاء. (اليُتُمْ)، وأحياناً بسكون الميم لدى الأهالي والحكومة معاً. وهو وادٍ ينساب من حوض القويرة، ويمتد حتى الديسة، ينتهي عند حوض مدينة العقبة، عبر مضيق جبلي

اسمه المقصّ، وهو نقطة عبور العقبة والخروج منها، وفيها نبع ماء جوفي قوي يزوّد العقبة بالماء التي تزيد نظافتها ونقاءها على مياه الصحة.

وتعبر وادي اليتم الآن طريق واسع سريع يربط العقبة / المدينة، والعقبة / الميناء، حيث تتفرع الطريق فتأخذ اليسار لتنتهي بالميناء، وتأخذ يمنة لتنتهي إلى المطار والمدينة. كما يوجد خط سكة حديد حِطِّيَّة Hittiyyah ومهمته نقل البوتاس من الشّيديّة (وقد سبق وجئنا على ذكرها) إلى ميناء التصدير في العقبة.

وقد اختلفت الروايات التي وصلت إليّ من أهالي المنطقة حول سبب تسمية الوادي بهذا الاسم: اليِتْمْ. فمنهم من قال لي أنه اسم لنوع من الشجر ينبت في هذا الوادي، وهو شجر الطّلْح / الغضا. وآخرون قالوا لي: أنه كان وادياً موحشاً، يتعرض عابره للنهب والسلب أو القتل، وبذلك فهو معرّض للموت، وبالتالي يعيش أبناؤه من بعده يتامى فهو وادي عملية قتل الآباء أي الذين من ورائهم أيتام، فهو (الوادي) ليس يتيماً، وإنما يأتي باليُتْم لمساكين الناس، لذلك سُمي وادي اليُتْمْ، وليس وادي اليتيم، ولا وادي اليتيم.

-53-

اليـرمـوك

اسم للنهر، والموقع والمعركة، وله جذور في أعماق التاريخ حيث أن الاسم الباشاني كان: هيرموكس، وتعني اليرموك. ونحن نعرف أن باشان دولة أردنية أمورية، حاربت بني إسرائيل بعد قدومهم من مصر ودخولهم إلى فلسطين واحتلالهم لها. وكانت مملكة باشان تشمل نهر اليرموك بضفّتيه ومنابعه ومصبه وهضبة الجولان وحوران ودرعا حتى جبل الشيخ، فضلاً عن شمال الأردن حتى وادي الزرقاء. وبذلك كانت من أوسع وأقوى الممالك الأردنية.

في اليرموك وقعت معركة بين العبرانيين من جهة وحلف الملوك الأردنيين (باشان، عمون، مؤاب وأدوم) من جهة أخرى لقي فيه هؤلاء الملوك هزيمة منكرة على أيدي العبرانيين، إلا أن شيخ البدو المدعو عباد، وهو اسم قبيلته آنذاك تصدّوا للجيش العبراني من خلفه، على حين غِرّة، منه وفي زهوة انتصاره، ونكّلوا به وهزموه، فانقلب نصرهم إلى هزيمة. وذلك كان انتصار العرب الأردنيين على العبرانيين في هذا المكان التاريخي/ هيرموكس/ اليرموك.

وتكررت هزيمة الكفار مرة أخرى، ولكن على أيدي الجيش العربي الإسلامي مدعوماً من الأردنيين أيضاً، وذلك في معركة اليرموك الخالدة (14هـ)، فما كان من هرقل عندما سمع بهزيمة جيشه في تلك المعركة التي وضع فيها سائر قواه العسكرية والقيادية والتخطيطية، حتى قال كلمته المشهورة وهو يغادر سوريا: «سلامٌ عليك يا سوريا، سلامٌ لا لقاء بعده»، وكذلك كان.

ولا يخلو كتاب مؤرخ أو جغرافي و كتاب في السيرة من التحدث عن معركة اليرموك، وإن صار الاختلاف في سنة وقوعها بين 14 للهجرة و 15 للهجرة، ويبدو أنها جاءت في أواخر السنة الأولى، وبداية السنة الثانية، والله أعلم.

وكانت منطقة اليرموك عامرة بالمدن عبر حقب التاريخ، وهو ما يتضح من خلال قراءة كتاب عبر نهر الأردن A cross the Jordan الذي كتبه المهندس الألماني شوميخر Schumakher عام 1884 والذي ترجمته شخصياً عن الإنجليزية إلى العربية، وصدر عن البنك الأردني بعمان.

كما ذكرها من قبله الرحالة بيركهارت السويسري الذي جاء بتمويل من المركز الجغرافي البريطاني، وذلك عام 1810، حيث تحدث عن عدد من المواقع في كتابة رحلات في سوريا والبلاد المقدسة Travels in Syria & the Holy Land .

وفي اليرموك نهر يعتبر الآن الحد الفاصل بين الأردن وسوريا، وينبع بالكامل من هضبة حوران (أي من الأراضي السورية) وقد أقامت الأردن وسوريا مشروعاً مشتركاً وهو بناء سدّ الوحدة الذي كان اسمه سد المخيبة نسبةً للموقع، ثم أصبح سدّ خالد بن الوليد، ثم أصبح الآن سدّ الوحدة، على أنه يوحّد بين القطرين. ويموّل النهر قناة الغور الشرقية، ويذهب النصيب الأكبر من المياه إلى إسرائيل.

ومن خلال استعراض ما ذكره الرحّالة والجغرافيون المسلمين، نجد البكري (ت 487) في كتابه المسالك والممالك يشير أكثر من مرة إلى اليرموك على أنها من أقسام الشام الثانية ضمن قائمة طبريا وهي عاصمة الأردن آنذاك (في القرن الخامس الهجري). وقال: « الشام الثانية (أي الأردن) مدينتها العظمى طبرية (أي عاصمتها)، والغور، واليرموك، وبيسان، فيما بين فلسطين والأردن (...) فأما ملوك غسّان بالشام فقد أوتي على ذكرهم، وكانت ديار ممالكهم اليرموك والجولان وغوطة دمشق ومنهم من نزل الأردن » (361:1).

ولابد من وجود مثل هذا الخلط عند الرحالة والجغرافيين المسلمين، حيث لم يزوروا كل بقعة تحدثوا عنها، وإنما دّونوا روايات سمعوها، أو نقلوا نصوصاً قرأوها، دون عناء التنقيح العلمي اللازم، ودون تمحيص هذه الرواية أو تلك. فمن المعروف أن الأردن كانت ضمن إمارة الغساسنة، وكانت بها منازلهم، وأن الغساسنة ليس الملوك والأمراء الذين كانوا في سدّة الحكم فحسب، بل وأيضاً الأفراد العاديين من هذه القبيلة التي هاجرت من مأرب باليمن، بسبب انهيار سدّ مأرب، كما تقول الروايات، أو توقع انهياره.

وذكر اليرموك سائر الرحالة والجغرافيين المسلمين، بين اقتضاب وذكر وتفصيل، وشواهد، ونجد ذلك كله في مواضع أخرى من هذا الكتاب. ونجد هنا

من المفيد أن نذكر أشعار بعض المعاصرين لمعركة اليرموك الفاصلة الخالدة، فهذا قيس بن هبيرة بن المكشوح الذي شهد المعركة يقول:

جلبنا الخيل من صَنْعاءِ تُرْدِي   بكلِّ مُدَمَّج كالليثِ حَامِ
إلى وادي القِرَى فَدِيَارِ كَلْبٍ   إلى اليرموك بالبلد الشَآمِ

فهو يتحدث عن الخيل وفرسانها الأشاوس، القادمون جميعاً من اليمن السعيد، وقد امتطى كل منها فارس كالليث الغضنفر أي لا يجارى في القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى. وقال أنهم ساروا بها عبر وادي القِرَى، ثم عبر ديار كلب وهي عشيرة أردنية منها ميسون بنت حسان بن بجدل الكلبي، وكانت من أهل الأزرق. وقد جاءت هذه الخيول وفرسانها إلى اليرموك لتجاهد في سبيل الله.

أما القعقاع بن عمرو، وهو من فرسان العرب المشهورين، وأحد الذين أرسلهم لاحقاً سيدنا عمر بن الخطاب إلى جيش سعد بن أبي وقاص في حرب العراق. فقد ذكر مسيرة خالد بن الوليد ﷺ من العراق إلى الشام لمؤازرة جيش المسلمين حيث وضع الروم ثقلهم كاملاً لكسر شوكة المسلمين. يقول القعقاع في المسيرة؛ حسبما أورده ياقوت في الجزء الخامس ص 354:

بدأنا بجَمْعِ الصُفْرين فَلَمْ نَدَعْ   لِغَسَّان أنفاً فوق تلك المناخِرِ
صبيحة صاح الحارثان ومن به   سوى نفر نَجْتَدُّهم بالبواتِرِ
وجئنا إلى بصرى، وبصرى مقيمة   فألقت إلينا بالحشا والمعاذِرِ
فضضنا بها أبْوَابَها ثم قابلت   بنا العيس في اليرموك جمع العشائِرِ

يقول أن الجيش الإسلامي العربي المحروس قد أذلّ غسّان والروم، ذلك أن أنفة العربي في أنفه، وإذا أُهين أنفه فيعتبر مهاناً إهانةً بالغةً للغاية. وقد شرحنا بشكل مطول أهمية الأنف في كتابنا Bedouin Justice (1921-1982) الصادر هذا

العام (2006) بالنصّين العربي والإنجليزي في كتاب واحد وجئنا في معرض ذلك عندما تطرّقنا إلى المبدأ القضائي في اختيار القضاة عند الحويطات، وهو مبدأ: « ثلاثة من خشم تسعة ».

أما الحارثان، فهما أسماء أمراء بني غسّان، وكانوا من قادة جيش الروم، وعندما صاحوا للحرب دعماً للروم قوبلوا بالسيوف الصارمة البتّارة (البواتر) تجتذهم أي تقتلهم قتلاً نهائياً حازماً وحاسماً. ثم يسرد مجيئه إلى بصرى الشام وهي في ديار حوران حيث تم فتحها، وفرّ منها المقاتلون من أبناء العشائر وقابلونا في معركة اليرموك الحاسمة.

وذكر ياقوت (ق 7 هـ) أيضاً شعر القعقاع (ق 1 هـ) تحت نفس العنوان أعلاه، بقوله:

ألم تـرَنا عـلى اليرمـوك فُـزْنا   كمـا فُـزْنا بأيّـام العـراق
قتلـنا الـروم حـتى مـا تُسَـوى   عـلى اليرموك مفـروق الـوُراقِ
فضضـنا جمعهـم لمـا اسـتحالوا   عـلى الواقوصـة البُـتْرِ الـرقاق

والواقوصة موقع في اليرموك أيضاً.

وقد سبق وذكر شعر حسان بن ثابت في مدح آل جفنة الغسّانيين حيث قال:

لِمَـنِ الـدّار أقْفَـرَت بمعـانِ   بـين أعـل اليرمـوك فالخمّـان

ذاك مغـنى لآل جفـنة في الدهـر مَحَـلاً لحـادث الأزمـان

لقد كانت معركة اليرموك فاصلة، ونصراً للحق على الباطل والنور على الظلام، فكما أن أرضها سهل ينتهي شمالاً وغرباً بطور صخري منحدر يتعذر للخيل أن ترتاده أو تجتازه، وكذلك كان المعنى الحقيقي للنصر عندما أُلقِي

بالخيول وما عليها من فوق الجروف الحادة المحاذية لأرض اليرموك. وقد تم إنشاء جامعة بالأردن عام 1974 في سهل إربد جنوب مدينة إربد باسم «اليرموك» تيمُّناً وتخليداً لذكر جامعة اليرموك. ومهما كتبنا، فلا زال الكثير بعدياً، والكثير جديداً، لعلّنا أو غيرنا يؤدي المهمة إن شاء الله تعالى.

* * *

انتهى
الجزء الأول

